

# مقدمة عامة:

---

1- بسط الموضوع:

عرف المسلمون عهداً زاهراً في الكثير من نواحي الحياة خلال القرون الأربعة التي أعقبت ظهور الإسلام، فحضارته هيمنت على الحضارات الأخرى، وشكلت القناة التي عبرت من خلالها الحضارات القديمة بملئها ونخلها، وتفاعلت معها في ضوء ضوابطها ومقاصدها. وكانت حواضره من أهم المراكز الفكرية الفاعلة والنشيطة يومئذ، لتغيير البنية الإيديولوجية للعالم القديم، ووضع مفاهيم جديدة لأخلاقيات المجتمع البشري؛ وازدهرت مدنه كبغداد ودمشق والقيروان وقرطبة بشتى ألوان الحضارة، من علم وفن وعمارة وتجارة وصناعة. و استطاع العقل المسلم في تلك الفترة أن يؤسس غير واحد من العلوم الطبيعية، علاوة على إسهامه في تطوير وتوجيه العلوم الأخرى المعروفة آنذاك، كما أسهم خلال هذه الفترة بأعمال جليلة في مسيرة التقدم الإنساني، هذا في الوقت الذي كانت فيه أوروبا، تغفو في ظلمات حالكة، تبلد فيها العقل، وكرست الكنيسة القمع والاستبداد، وحظرت أية محاولة للتفكير الحر.

وأسهمت الفتوحات الإسلامية في فترة الخلافة الراشدة والحكم الأموي، في التطور التاريخي والجغرافي والبشري للدولة الإسلامية، حيث غيرت من التوازنات الاستراتيجية بالمنطقة، وانتزعت القيادة من الدولتين العظيمتين آنذاك، الروم والفرس. واستمرت القيادة العالمية الإسلامية تتسع وتكبر في مرحلة الفتوحات التي امتدت شرقاً إلى بلاد فارس والهند، وغرباً إلى بلاد المغرب وإسبانيا وصولاً إلى فرنسا. واستمرت هذه القيادة في عهد الدولة العباسية في مراحلها المتعددة، ابتداءً من القرن الثامن إلى القرن العاشر الميلادي

وابتداءً من هذا القرن، أخذت تتعدد مراكز القرار في العالم الإسلامي، وتنوعت الصراعات بين المركز والأطراف. وفي هذه اللحظة التاريخية بالذات، بدأت الهجمات والضربات على العالم الإسلامي لانتزاع موقع القيادة والزعامة، وقد أشار إلى ذلك خير الدين التونسي بقوله: " ثم إن الدولة الإسلامية أخذت في التراجع لما انقسمت إلى دول ثلاث، الدولة العباسية ببغداد والمشرق، ودولة الفاطميين بمصر وأفريقية، ودولة الأمويين بالأندلس. ثم تكاثرت الحروب الداخلية، وانقسمت تلك الدول، خصوصاً الأندلسية، فإنها صارت ملوك طوائف، وتحقق فيهم قول الشاعر:

ألقاب سلطنة في غير موضعها      كاهر يحكي انتفاخاً صولة الاسد<sup>1</sup>.

---

1- التونسي خير الدين : أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تحقيق ودراسة : زيادة معن، بيروت، دار الطليعة، الطبعة الأولى، 1978 م، ص . 83.

وقد تعرض العالم الإسلامي بفعل الانقسام للغزو الصليبي، الذي جسد مظهرها آخر للصراع الحضاري بين الإسلام وأوروبا، والذي تواصل حوالي قرنين من الزمن، وامتد على رقعة جغرافية عريضة، تمر بالأناضول وتستوعب معظم بلاد الشام وسواحل البحر المتوسط الشرقية، وكانت الحواضر الإسلامية المنتشرة في هذه المنطقة، مسرحاً لهجمات عسكرية وغارات وعمليات قرصنة وسلب ونهب وتدمير، مكثت طويلاً، وكشفت عن نمط تعاطي الإنسان الأوروبي مع الحضارات الأخرى، كما تنبئ المذكرات والوثائق التي خلفها المؤرخون الذين اهتموا بتسجيل الأعمال الوحشية للصليبيين.

انتهت المعارك والصراعات إلى تراجع الحملات الصليبية في العهد الأيوبي بداية، وهزيمتها والقضاء عليها نهائياً في العصر المملوكي. و نجح العالم الإسلامي في الدفاع عن ثغوره وحماية نموذج، وصد كل الموجات والحملات الصليبية. ولذلك كان الاختراق الصليبي، مجرد اختراق عسكري، لم يكن قادراً على الصمود أمام ضربات العالم الإسلامي ومقاومة دوله.

ومن ثم جاز لنا القول، بأن الأمة الإسلامية كانت متفوقة حضارياً وإنسانياً وثقافياً واقتصادياً على نظم وعلاقات وقدرات أوروبا في مرحلة الحملات الصليبية، والدليل على ذلك، أن العالم الإسلامي نجح بعد القضاء عليها في النهوض مجدداً، وإعادة صوغ نموده وتوحيد مراكز قراره وتعدد دوله في مرحلة الدولة العثمانية، التي استطاعت انتزاع المبادرة واستئناف الفتوحات الإسلامية من جديد، وإسقاط القسطنطينية واختراق شرق أوروبا والسيطرة على دول البلقان، والصعود إلى قلب أوروبا ومحاصرة فيينا .

إن العالم الإسلامي قد حافظ على تقدمه وقيادته للعالم إلى القرن السادس عشر الميلادي، فحتى ذلك الوقت، كان الإسلام يقدم النموذج الأرقى وربما الوحيد في العالم آنذاك، وشكل ذلك النموذج الإسلامي على امتداد ثمانية قرون، القطب الساطع والجاذب لعشرات الشعوب والأمم التي وجدت فيه المثل الأرقى والفريد في نظمه الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعسكرية. بيد أنه ابتداء من هذا القرن، أخذت الشقة الحضارية بينهما تتسع وتعمق إلى الحد الذي يمكن القول معه، بأن تقدم أوروبا كان شرطاً مرافقاً لتأخر العالم الإسلامي برمته.

لم تكن عملية انتقال ميزان القوى من مرحلة الغلبة الإسلامية إلى مرحلة النهوض والغلبة الأوروبية، مجرد قفزة في الهواء، والدورة التاريخية لم تتم بالسهولة التي يظنها البعض، ولم تنشأ أصلاً بسبب تفوق النموذج الأوروبي

وقابليته للتطور والتقدم، بل كانت نتاج عوامل وحاجات تراكمت وتزامنت في وقت متقارب، وساعدت كلها في ازدياد قوة أوروبا وضعف العالم الإسلامي<sup>1</sup>.

فمما لاشك فيه، إن أول خطوة عجلت بتعديل ميزان القوة الدولية بين العالم الإسلامي وأوروبا؛ اكتشاف البرتغاليين سنة 1488م؛ طريق رأس الرجاء الصالح، كتمر تجاري مائي بديل عن طرق المواصلات التجارية البرية إلى الشرق والهند، التي كان يسيطر عليها العالم الإسلامي في ذلك الوقت. كما تم اكتشاف أمريكا من طرف كريستوفر كولمبوس سنة 1492م، وقد أدى هذان الاكتشافان إلى تقليل أهمية العالم الإسلامي في استراتيجية التجارة الدولية القديمة، وسهل لها الالتفاف حول المراكز التجارية القديمة والممرات البرية أو المائية. وهو الأمر الذي أضعف العالم الإسلامي، و من تم بداية حدوث التفاوت الحضاري واختلال موازين القوى لصالح أوروبا .

وقف المفكر العربي الاقتصادي سمير أمين عند واقع تراجع العالم الإسلامي، فلاحظ أن اقتصاد هذا العالم قد بني منذ القديم على الوساطة في التجارة البعيدة المدى، بحكم موقعه الجغرافي الذي هو بمثابة صلة وصل بين الشرق الأقصى وأوروبا. ولاحظ أن الأمم التي تبني اقتصادها على الوساطة تبقى أما هشة، فلما تحول مركز الاقتصاد من البحر المتوسط إلى المحيط الأطلسي على إثر الاكتشافات، أصيب اقتصاد البلدان الإسلامية بخلل في توازنه، وبسبب ذلك تراجعت مكانتها وانقسمت، وستزداد حالتها سوءا من جراء الهجومات الاستعمارية فيما بعد<sup>2</sup>.

عملت أوروبا من خلال هذه الرحلات الاستكشافية على استلاب كافة ثروات بلدان العالم الجديد؛ حيث التهم الإنسان الأوروبي المقومات الحيوية لنهوض وتطور المجتمعات الأخرى بطريقة بشعة، لكي يؤسس أوروبا الحديثة . ولم تتوقف أعماله عند حد معين، وإنما قام بالتهام كل ما وقعت عليه يده، من تراث وثروات المجتمع البشري خارج حدود أوروبا . ومارسوا السطو والاختصاص لكل شيء يمكن أن تكون له قيمة مادية أو معرفية في تأسيس مشروع نخصته، فلم يستثن التراث الثقافي الفني، من مخطوطات نفيسة وبقايا أثرية، وكنوز تاريخية وآثار فنية. كما أمعن في تسخير إنسان هذه المجتمعات واستغلاله في تنفيذ مشروعاته والعمل في مؤسساته، بل

---

1- نويهض، وليد : " العالم الإسلامي ومقاومة الاستبداد الدولي " ضمن : العالم الإسلامي والنظام الدولي، مركز دراسات العالم الإسلامي، سلسلة الدراسات السياسية والاستراتيجية، ع، 8 ، الطبعة الأولى، ص . 43 .

2- أمين، سمير : التطور اللامتكافي، دراسة في التشكيلات الاجتماعية للرأسمالية الخيطية، ترجمة : برهان غليون، دار الطليعة للنشر والطباعة، بيروت، الطبعة الرابعة، 1985م ، ص . 354 .

واستخدامه في تحقيق أطماعه وغزواته في مختلف أنحاء العالم. وهكذا قامت أوروبا الحديثة على أساس معادلة اعتمدت على أن أي تقدم وبناء تحزره وتحققه، يسبقه ويتزامن معه تأسيس وتنمية للتخلف في المجتمعات الأخرى<sup>1</sup>.

إن قوة أوروبا وتجاوزها للعالم الأخرى جاء نتيجة استغلالها لمقومات وخيرات الحضارات الأخرى، ولاسيما الإسلامية منها، والاقتباس والاستفادة من علومها ومعارفها، وهذا ما اعترفت به المستشرقة الألمانية زيغريد هونكه في كتابها الشهير، «شمس العرب تسطع على الغرب»، حيث قالت: "لما وصل الإسلام إلى أوروبا استطاع أن يمارس على هذه الأخيرة تأثيرات إيجابية قوية ومتنوعة. فغير في العمق الأوضاع السياسية الدولية ثم دعم العلوم وشجع الفكر في الغرب. تعتبر إسبانيا مثلاً حياً، فقد استطاع هذا القطر خلال مائتي سنة من الاحتلال العربي أن يقفز من محالب الفقر والإهمال ليرقى إلى ريادة أوروبا والغرب. وتحقق له ذلك بفضل التربية والتعليم الذي أدخله المسلمون وضمنوه لكل الفئات في إسبانيا، وتسبب ذلك في ازدهار العلوم والفنون بهذا البلد الذي حافظ، من بين باقي الدول الأوروبية على الريادة في هذه الميادين لمدة خمسة قرون أخرى"<sup>2</sup>.

لقد استطاع الإسلام بعد فترة محدودة من دخوله ديار الأندلس، أن ينقلها إلى عالم آخر، خارج إطار حالة التخلف الذي عاشته مع أوروبا؛ حيث شاء الله أن تكون الأندلس هي إحدى البوابات التي أدخلت الغرب في العصور الصناعية الحديثة، وأخرجته من حالة البؤس والانحطاط الذي لازمه قروناً مديدة، وهي النافذة الأولى التي أطل منها الإنسان الأوروبي على الشرق والإنجازات الحضارية العظيمة التي قدمها المسلمون في مختلف حقول المعرفة والمدنية.

وتأسيساً على ما سبق، أمكننا القول، بأن العوامل السابقة، كان لها أثر حاسم في ولادة الثورة الصناعية والفكرية في أوروبا خلال القرن الثامن عشر، وأصبحت أوروبا في موقع المركز بين الحضارات الإنسانية، ووجدت الشعوب الأخرى نفسها مضطرة إلى إعادة ترتيب أوضاعها حسب هذا المعطى؛ حيث حققت أوروبا الحديثة خلال هذا القرن وبداية القرن التاسع عشر، تقدماً علمياً فائقاً، وتطوراً مادياً هائلاً، وقوة عسكرية خارقة، وروحاً من الجلد والصبر على العمل والإنتاج. ولا شك أن هذا التقدم العلمي المذهل، كان قوياً دافقاً، له من القوة

---

1 \_ شفيق، منير : الإسلام في معركة الحضارة الحضارة، دار الكلمة، بيروت، الطبعة الثانية، 1983، ص . 39.

2- ذكره، القدوري، عبد المجيد : المغرب وأوروبا ما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر، مسألة التجاوز، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2000، ص.6.

والانتشار، ما بهر العقول وفتن الألباب، ولا عجب في ذلك، فقد بز كل تقدم علمي عرفه العالم، وسمعت عنه البشرية في التاريخ المترامي الأطراف، واستطاع أن يخرج من الأسرار ويكشف من المخترعات، ما جعل أبصار وعقول البشرية في العوالم الأخرى متعلقة به .

وفي الوقت الذي كانت تشهد فيه أوروبا هذه التحولات ، كان العالم الإسلامي يعيش حالة من الانعزال والتفوق والانكفاء على الذات، ولم يكن هناك اتصال بين الشعوب الإسلامية والشعوب الأوروبية في الثقافة والعلم والصناعة ونظم الحكم، يمهد للمسلمين الاستفادة منها والأخذ عنها، أو على الأقل، الوعي بأن شيئا ما يحدث في الضفة الأخرى، يستدعي التنبه واليقظة وإعداد العدة لمواجهة، فقد أغلق العالم الإسلامي على نفسه الأبواب، اكتفاء بما لديه، وخوفا على الموروث "غير آبه ولا مستعد للإنصات إلى ما كان يجري على مرمى حجر منه، معتقدا أن دار الكفر والحرب شر مطلق، أو على الأقل، هذا ما كان يرمي إلى قوله عدد من العلماء؛ حينما أفتوا بتحريم سفر المسلمين إلى هذه العوالم «المدنسة بالشرك، مخافة أن توافيهم المنية فيحشروا مع الكفار»<sup>1</sup> .

وحتى بعد توالي الكوارث، وتتابع الخطوب على العالم الإسلامي، لا سيما بعد سقوط الأندلس عام 1492م، استمر الاعتقاد لديه بأنه أسبق من غيره ، ولم يصح من غفلته، ويع حقيقة ما عليه من ضعف وتخلف بالنسبة لما عليه شعوب أوروبا، ويكتشف الهوة السحيقة التي أضحت تفصله عن أوروبا، إلا بعد أن مني بسيل من الهزائم العسكرية والحضارية، وداهمهم الاحتلال في عقر الدار.

وبحكم تواجد العثمانيين في قلب أوروبا، فقد كان طبيعيا أن يعوا قبل غيرهم بحدوث التفاوت بينهم وبين أوروبا، لا سيما بعد الهزائم العسكرية التي تعرضت لها جيوش الانكشارية أمام القوات الأوروبية، والتي فقدت على إثرها عددا من الأقاليم والممالك، فاقتنعت النخبة العثمانية مبكرا بضرورة الإصلاح العسكري وضرورة الاستفادة من الخبرة والمساعدة الأوروبية في هذا المجال، والانفتاح على التقدم الغربي عن طريق "السفارتناميه" في بداية القرن الثامن عشر.

كما أدخلت الثورة الفرنسية سنة 1789م تطورا جديدا في صورة أوروبا من منظور إسلامي، فبالإضافة إلى الوعي بتقدم أوروبا والوقوف عند حقيقة التفاوت العسكري والتقني، بدأ التعرف والاحتكاك مع فكر سياسي

---

1- حواش، محمد : خطاب التضامن الإسلامي في ضوء حملة نابليون على مصر والشام وموقف المغرب منها، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، 2013 م، ص . 19.

جديد، حيث برز لأول مرة نظام سياسي حديث يقوم على مبدأ الحرية، وهو الأمر الذي لم يعهده المسلمون من قبل؛ حيث إن مفهوم الحرية *liberté* كمبدأ سياسي لم يكن متداولاً بين المسلمين حسب الفهم الأوروبي، وأول من تنبه إلى مدلوله بالصيغة التي أطلقتها الثورة الفرنسية، كان العثمانيون عبر سفرائهم في باريس، الذين أكدوا في نصوصهم "السفارتناميه" ما يعنيه هذا المفهوم. كما تم التعرف عن طريق فتح جسور التواصل الحضاري بين النخب العثمانية وأوروبا على مفاهيم حديثة، كالثورة والاستقلال والجمهورية والدستور... وكان لاكتشاف هذه المفاهيم، أثره في تدشين معالم صورة معرفية جديدة للوضع السياسي والفكري الناشئ حديثاً في أوروبا الغربية.

يبدو أن العرب المسلمين ما كانوا على مستوى تنبه العثمانيين إلى حصول هذا التفاوت قبل الحملة الفرنسية على مصر عام 1798م، بسبب القطيعة التي أحدثتها نخب أهل المشرق والمغرب مع أوروبا باعتبارها "دار كفر"؛ حتى إن الجيش الفرنسي عندما وصل الإسكندرية بأسطوله، لم يهتم به حاكم مصر مراد بك، وقال لمن جاء بخبره بالخطر المحدق بمصر: "دع الأمور تجري، فهذه أرض أمير المؤمنين، ولن يجرؤ على الاعتداء عليها أحد من العالم"<sup>1</sup>.

ففي غمرة هذا النوم العميق، دخل نابليون بونابارت مصر، واستولى عليها بعد هروب المماليك على إثر معركة لم تدم إلا ساعات قليلة، عكست حجم التفاوت الكبير في القدرات العسكرية بين الجانبين، كل ذلك، لأن شعوب المنطقة قد انقطعت صلتهم بالحضارة والرقي منذ قرون، حتى هزتهم الكارثة، وداهمهم خطر الاحتلال الذي وصل إلى عقر الدار.

لقد شكلت الحملة الفرنسية على مصر، المناسبة الأهم لإدراك حجم التفاوت الحضاري بين دار "الإسلام" ودار "الكفر"، وهكذا اهتم الفكر الإسلامي الحديث بأوروبا في سياق تاريخي خاص، ذلك أن الحملة الفرنسية في نهاية القرن الثامن عشر، وما تولد عنها من صدمة هزت الشرق هزاً، شكلت منعطفاً في وعي النخبة العاملة بالمشرق، حيث اكتشفت "الأخر" المتقدم، واكتشفت معها "ذاتها"، فوجدتها تعاني التأخر والركود وجمود العقل. لقد تكشف لأهل المشرق والمغرب عامة، أن عالماً جديداً تمت صياغته في غيابهم، وتحدت ملامحه الكبرى وفق مرجعية حضارية لم يكن لهم فيها رأي، ولا المكانة اللائقة بهم، فظهر ذلك السؤال الإشكالية: «لماذا

---

1 - كريستوفر، هيرولد : بونابارت في مصر، ترجمة : فؤاد أندراوس، مراجعة محمد أحمد أنيس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1986م، ص . 101 .

تقدم الغرب وتأخرنا نحن « إنه السؤال الذي وضع تاريخ المسلمين والعرب، كله موضع تساؤل، كما أنه سؤال عبر عن حقيقة أولية : «تقدم أوروبا وتأخر المسلمين » .

إن الصورة التي سعت أوروبا إلى ترسيخها في الأذهان، تتمثل في أنها لم تعد كما كانت عليه خلال فترة الفتوحات الإسلامية لبعض البلدان المسيحية، بل أصبحت في وضع قوة لا تقهر، وأنها امتلكت ما يكفي من القوة العسكرية والاقتصادية والسياسية لتجعل الشرق خاضعا لها، بل لجعله يسير وفق ما تراه كفيلا بانعتاقه من «البداءة» و« البربرية» التي يتخبط فيها، نحو "مدنية" افتقدتها ولم يعد بإمكانه تأسيسها من جديد دون تبني واستلهام مبادئ الثورات التي استنهضت هم أوروبا (العلمية، الاقتصادية، التكنولوجية، السياسية...).

إن فرص اللقاء والتواصل بين النخب العربية العاملة وأوروبا لم تتم من خلال اتصال فكري في العصر الحديث، بقدر ما كانت تحصل بواسطة التعبيرات السياسية والعسكرية والاقتصادية للأنموذج الأوروبي، أولا من حيث هي دول غازية، وثانيا من دخل حدود أوروبا من خلال الرحلة والمشاهدة، وفي الحالتين، سيثمر هذا الاحتكاك ثمراته في وعي أهل المشرق والمغرب، وسيغذي لديهم أفكار ومطالب الترقى والتمدن بشكل يجعل من الغزو الأوروبي "المهماز الذي أيقظ الفكر الإسلامي المفوت، والمعتر بذاته، وزج به في مرحلة التحول والتغيير والإصلاح"<sup>1</sup>. فعن طريق الغزو العسكري الأوروبي أولا، والرحلات والبعثات العلمية إلى أوروبا ثانيا، اكتشفت النخبة العاملة تحلفها وتأخرها، مقابل إدراك تقدم ورقي المنظومة الحضارية الأوروبية.

وتأسيسا على ما سبق، أمكننا القول : إن بداية تشكل الوعي عند النخبة العربية بالفارق الحضاري واختلال موازين القوى بين العالم العربي الإسلامي ونظيره الأوروبي المسيحي، قد تم بواسطة نمطين من الإدراك وهما :

أ- إدراك "الأخر" في ديار الإسلام : وذلك من خلال رحلة أوروبا إلى بلداننا العربية الإسلامية غازية ومستعمرة، لتعرفنا بنفسها وبقدراتها العلمية والعسكرية والاقتصادية، وقد ابتدأ هذا النمط من الرحلة مع الحملة الفرنسية على مصر، هذه الأخيرة، شكلت الصدمة التي دفعت مصر والمشرق العربي للتنبه إلى القوة الفرنسية خاصة والأوروبية عامة، فعبد الرحمن الجبرتي في «عجائب الآثار في التراجم والأخبار»<sup>2</sup>، لا يشير إطلاقا

---

1 - بلقزيز، عبد الإله: الخطاب الإصلاحي في المغرب ، التكوين والمصادر ، دار المنتخب العربي للنشر والتوزيع ، بيروت ، الطبعة الأولى ، 1997، ص. 19.

2- الجبرتي عبد الرحمن : عجائب الآثار في التراجم والأخبار، تحقيق : عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة، الطبعة الأولى، 1997م .



إلى الأوروبيين قبل عام 1798م، وهو لا يتردد في التعبير عن صدمته تجاه الغزو الفرنسي، ويتوقف ليناقدش بهدوء الآراء والشعارات التي رفعها الفرنسيون. كما رصد في كتابه صدمة الوعي المهزوم والحبط بتفوق أوربا عسكريا واقتصاديا وقيميا، وشعوره بالعجز عن الفهم إزاء ما رآه في بعض مظاهر تقدمه العلمي . فالمصريون إذن، لم يذهبوا بداية إلى أوروبا ليكتشفوا منجزاتها بأنفسهم، بل هي التي جاءت إليهم، وفرضت عليهم صورة القوي والمعتدي والمتقدم في نفس الوقت .

إذا كان الغزو الفرنسي لمصر، هو الأكثر بروزا وشهرة في هذه الفترة، وفي تاريخ اللقاءات الحديثة بين الغرب المتحضر والشرق المتخلف، فإنه لم يكن في نظرنا، سوى نذير شؤم، سوف تتحقق نتائجه ونبوءاته بشكل أكثر وضوحا، وأشد قساوة خلال العقود المتتالية للقرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وذلك من خلال المظاهر العسكرية العنيفة والقوية التي جاء بها الاستعمار الاستيطاني الامبريالي خلال هذه المرحلة، وكأن الحملة الفرنسية على مصر كان القصد منها جس النبض، تحضيرا لتجربة استعمارية كاملة وشرسة ضد البلدان العربية والتي انطلقت فعليا سنة 1830م مع احتلال الجزائر، وتتواصل مع احتلال معظم البلدان العربية خلال مدة تقارب القرن<sup>1</sup>.

وعلى إثر توالي هذه الانتكاسات والرجعات، نهضت النخبة العاملة مشدوهة وجلة، تنظر حواليتها، فرأت أن الحياة المألوفة قد ولت، وبدلت الأرض غير الأرض، والسلطة غير السلطة... فتساءلت بحرقة وكمد بعد هذه الكرب والتربح التي حلت بالمشرق والمغرب على حد سواء : لماذا انهزم المسلمون وهم مؤمنون، ولماذا انتصر أعداؤهم وهم كفار ظالمون معتدون؟ ما التحولات التي عرفها الأوروبيون "الكفار"، فحملت إليهم القوة والنصر والظفر، ولم يعرفها المسلمون، ومن الواجب عليهم أن يعرفوها ويشخصوها ويفتي علماءهم بشرعية اقتباسها منهم، لأن العدو "لا يقابل إلا بما قابل به وقاتل" .

لقد وجدت الأقطار العربية نفسها مضطرة تباعا أن تفيق على هذا الوضع الجديد ، سواء تلك التي كانت تابعة للدولة العثمانية المهلهلة، "الرجل المريض"، أو مستقلة كما هو حال المغرب الأقصى، وجدت نفسها تجاهه هذا الغرب المتطور بأسلحته الحديثة، وعتاده، وتنظيمه العسكري وغير العسكري الذي لم تعهده سابقا .

---

1- مما هو مسجل في صفحات التاريخ، أن المجتمع العربي وقع فريسة للاستعمار، فقد احتلت بريطانيا مناطق الخليج العربي، وجنوب شبه الجزيرة العربية في سنة 1849م، ومصر سنة 1882م، والسودان سنة 1898م، واحتلت فرنسا تونس سنة 1881م، والمغرب سنة 1912م، واحتلت إيطاليا ليبيا سنة 1911م.

ب: إدراك "الأخر" في دياره عبر قناة الرحلة. إن هذا الاتصال الذي حدث عن طريق الغزو العسكري، كان يمثل في البداية صدمة حقيقية ومفاجأة لم يتهيأ لها العالم العربي الإسلامي. وكان أول شيء نبهت إليه الحملة الفرنسية هو ضرورة التعرف على "الأخر" الغازي بمختلف الطرق، وأفضل طريقة هي السفر إليه ومشاهدته ومعاينته عن قرب، فبدأت الرحلات نحو الغرب، وكان معظمها في هذه الفترة إلى فرنسا، وكان المبادر الأول في الاهتمام بموضوع الاتصال بالغرب هو محمد علي باشا الذي أدرك أن الاستفادة من علومه، هو السبيل للحاق به، وتجاوز الواقع المهترئ الذي تعيشه بلدان المشرق العربي.

والمرجح أن اتصال المشرق بأوروبا ظل محدوداً حتى أواخر القرن الثامن عشر، ثم قوي إثر حملة نابليون على مصر عام 1798م، وبعثات محمد علي. ولقد اعتبر كثير من رواد النهضة العربية أن الصلات التي تجددت بين المشرق وبين أوروبا في القرن التاسع عشر، من أهم إنجازات نظام حكم محمد علي، ورأوا في هذه الصلات الحضارية "الدواء الشافي والعلاج المعافي"<sup>1</sup> للداء الذي عانى منه الشرق لقرون عديدة.

فقد أخذت الأنظار تتجه إلى تجربة محمد علي الذي قفز إلى سدة الحكم عقب رحيل الجيوش الفرنسية عن مصر، محاولاً إقامة دولة عصرية قوية بالاعتماد على منجزات التكنولوجيا الغربية عموماً، والفرنسية على وجه الخصوص، مما عزز النظرة الإيجابية لتجربة الحداثة الأوربية من قبل النخبة العاملة بوصفها أنموذجاً صالحاً للاقتداء، طارقين النظر نسبياً عن الوجه الاستعماري لهذه الحداثة التي انتصرت فيها السلطة على المعرفة، فأصبحت "مشروعاً للتقدم والهيمنة"<sup>2</sup>.

لقد كانت رحلات العرب إلى الغرب في القرن التاسع عشر القناة الرئيسية لنقل أخبار ما يجري في الضفة الأخرى، كما شكلت أهم الوسائل والآليات التي عرفتهم بمظاهر الحضارة الأوربية في القرن التاسع عشر، وقد وصف بعض الرحالة مشاهداتهم في الغرب، ودونوا انطباعاتهم، فقرأها بعض مواطنيهم الذين لم يتمكنوا من زيارة أوروبا بأنفسهم، فوعوا وأدركوا البون الشاسع والفرق الكبير، بين واقع وطنهم المتخلف الضعيف، وواقع حضارة أوروبا المزدهرة في القرن التاسع عشر.

---

1 - وهب، قاسم: " تجليات الحداثة الأوربية وتأويلها في النصوص المبكرة للرحالين العرب إلى الغرب"، أعمال ندوة: الرحالة العرب والمسلمون، اكتشاف الآخر، المغرب منطلقاً وموتلاً، أيام: 14، 15، 16، 17 نونبر 2003، تنظيم: وزارة الثقافة بتعاون مع المشروع الجغرافي العربي ارتياد الآفاق، أبو ظبي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2003م ص. 343.

2- الجابري، عابد محمد: المشروع النهضوي العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الأولى، 1996م، ص. 19.

إن أدب الرحلة، من حيث أنه رافد من روافد الإصلاح والتجديد، هو نمط من أنماط الحوار، ظاهره اكتشاف المخالف المتقدم والتعرف عليه، وباطنه اكتشاف "الأنا" في مراياه، وحين يكون "الآخر" هو أوروبا المتقدمة، فإن "الأنا" المتخلفة تحرص على اكتشاف عيوبها في ضوء مزاياها، وتقف على أوجه النقص في كمالها، وتبحث عن مكان من ضعفها في مرايا قوتها، وعندئذ يتجلى وينكشف الوعي بالتأخر والتراجع الحضاري الإسلامي، مقابل الوعي بالتقدم والرفق الأوروبي<sup>1</sup>.

وانطلاقاً مما سبق، أمكننا القول بأن موضوع أطروحتنا "الرحلة العربية الحديثة إلى أوروبا وإشكالية الوعي بالتجاوز الحضاري"، يندرج ضمن مجموعة مواضيع تتناول العلاقة بين العالم الإسلامي والعالم الأوروبي المسيحي، بما فيها من صراع، وشد وجذب... هذه العلاقة التي ترجع بداياتها الأولى إلى أزمنة بعيدة، مازالت تزداد قوة وأهمية في زماننا الحاضر، بفعل تطور وسائل الاتصال وتنوعها، وكذلك بفعل توسع مجالات التفاعل والتواصل والثقافة، وبرز عناصر اللقاء والاختلاف.

إننا إذن، إزاء موضوع العلاقة بين "الذات" و"الآخر"، مع ضرورة الإشارة إلى أن موضوع هذه العلاقة، أو هذا اللقاء، هو بالنسبة إلى بحثنا هذا، موضوع "الذات" العربية الإسلامية في اتصالها ب"الغير" الأوروبي المخالف لها في العقيدة والفكر والأخلاق، ذلك أن أوروبا تمثل في الوعي الإسلامي الحديث "حاملة لكل المعالم و الصور، التي يقدر ذلك الوعي أنها غائبة مفتقدة عنده تارة، و غير مألوفة تارة أخرى فهي الضد الذي به يتميز الشيء تارة أخرى"<sup>2</sup>.

إن التفاوت الحضاري كمعطى مادي وموضوعي، وعته كل النخب العاملة والحاكمة في المشرق والمغرب، استدعى الرحيل إلى ديار المخالف والمنافس الحضاري، لتراقب وتعاین المدى الذي بلغه تقدمه الفكري والسياسي والاقتصادي والاجتماعي والتقني والزراعي والقيمي، وكيف وصل إلى هذا الرقي الحضاري؟ وأن تنظر في مخزونها الحضاري، لتعرف أين توقف في هذه المسارات؟ ذلك أن كل حضارة تنظر لنفسها من خلال النظر في مرآة

---

1 - النجار، محمد رجب، "رحلات مجلات العربي إلى الغرب الأوروبي وأثرها في الحياة الاجتماعية العربية"، ندوة: "الغرب بعين عربية"، كتاب العربي، وزارة الإعلام الكويتية، مكتبة الكويت الوطنية، الطبعة الأولى، 2005، ج، 2، ص، 40.

2- العلوي، سعيد بنسعيد: أوروبا في مرآة الرحلة صورة الآخر في أدب الرحلة المغربية المعاصرة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، سلسلة بحوث ودراسات، رقم، 12، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1995، ص.

. 12

"الآخر" الحضاري بصورة أو بأخرى، ليس لتماهى معه، ولكن لتنظر في أمر الفجوة التي يراد سدها، وتضع إستراتيجية التحرك الحضاري المناسب، لتجاوز واقع التفاوت واللاحاق بالغرب المتقدم.

على الرغم من تشكل الوعي بالتفاوت عند النخب المشرقية والمغربية على حد سواء، وإدراكها لهوة الفارق الحضاري بينها وبين أوروبا، فقد استمر الخلاف بين الفقهاء والعلماء حول حقيقة هذا التفاوت، ولم يتحول إلى مستوى الوعي بالتجاوز الحضاري الشامل إلا في وقت متأخر، ولم يحقق إجماعا بين أفراد النخبة العاملة؛ حيث استمر حوله الجدل والنقاش داخل الفكر الإسلامي الحديث والمعاصر.

## 2- طرح الإشكالية:

إن غايتنا الأساسية من هذا البحث هي محاولة الكشف عن وعي ما بالتجاوز الحضاري الأوروبي الذي يمكن أن يكون قد حصل لدى المسلمين خلال الفترة الحديثة عبر قناة الرحلة، ورصد مؤشرات وتجليات حدوث هذا الوعي وامتداداته، التي تجسدت في الوعي بالإصلاح لاستعادة الدورة الحضارية للأمة في ضوء معرفتها بقدراتها وبقدرات "الآخر"، وبالزمان والمكان الذي تتم فيه عملية التدافع الحضاري.

كما ينشد البحث الوقوف عند أهم الأفكار والمفاهيم والرؤى الجديدة التي تسرّبت عبر سطور الرحالة العرب المحدثين. فأدب الرحلة، على هذا الصعيد، يشكل ثروة معرفية كبيرة، ومخزنا للقصاص والظواهر والأفكار، فضلا عن كونه مادة سردية مشوقة تحتوي على الطريف والغريب والمدهش مما التقطته عيون الرحالة أثناء إقامتهم وتجوّاهم بالديار الأوروبية. وهكذا تمحور البحث حول ثلاث قضايا رئيسة تلخصها الأسئلة التالية:

1\_ ما هو السياق التاريخي للرحلات العربية إلى أوروبا؟ لماذا التفكير في الرحلة إلى أوروبا في القرن التاسع عشر بعد القطيعة الطويلة التي تبنتها النخب العاملة باعتبارها "دار كفر"؛ حيث إن كتب الفقه والأحكام في تلك الفترة لا تجيز إطلاقا سفر المسلم إليها للسياحة أو التجارة؟ كيف أسهمت الهزائم العسكرية والضعف الاقتصادي في تنبيه الوعي العربي إلى عمق التحولات التي تشهدها الضفة الأخرى، وإلى حجم التفاوت الحضاري، واختلال موازين القوى لصالح أوروبا؟.

2\_ كيف نظرت النخبة العربية إلى التحولات الكبرى التي شهدتها القرن التاسع عشر في أوروبا؟ ما هي الصور التي عملت النخب المشرقية والمغربية على تشكيلها عن الغرب؟ وإلى أي حد تجسد هذه الصور تجليا ومؤشرا على تشكل الوعي بالتجاوز الحضاري الأوروبي؟ وما هي حدوده ومستوياته؟ هل استطاع الرحالة في هذه الحقبة الحرجة من تاريخ العالم العربي الإسلامي الإجابة عن تلك الأسئلة المؤرقة المتعلقة بحجم التفاوت الحاصل في القدرات والإمكانات الحضارية والثقافية والعلمية والسياسية والعسكرية؟.

3\_ ماذا كانت حصيلة الوعي بالتجاوز الحضاري لدى المفكرين والرحالة العرب ؟ هل استفادت الأمة العربية والاسلامية من خلاصة ما نقلوه إليها من تجارب؟ هل أثرت تنبيهاتهم وصيحاتهم للنخب الحاكمة بخطورة الوضع؟ هل ترجمت مشاريعهم الفكرية على أرض الواقع ؟ ما الذي تحقق منها ؟ لماذا تم اغفال واهمال ما اكتشفه الرحالة من سبل الحضارة، في الوقت الذي استفادت منه أمم أخرى؟.

ومما تجدر الإشارة إليه، أن اشتغالنا بهذه القضايا وما يتصل بها من أسئلة، لا يمثل بالنسبة لنا، إلا أهدافا مرحلية أو جزئية، نسعى من خلالها، إلى الإجابة عن السؤال المركزي لهذا البحث، والمتمثل أساسا في استجلاء حدود الوعي بالتجاوز الحضاري الأوروبي ومستوياته وتجلياته من خلال النصوص الرحلية، وإبراز تأثيراتها على النخبة الحاكمة في البلدان العربية . وفي الآن نفسه، سنحرص على تشخيص العوائق والمثبطات التي حالت وتحول دون الاستفادة من حصيلة هذه الرحلات في إحداث النهضة العربية الإسلامية وللحاق بالأمم الأوروبية المتقدمة والمتطورة، وفشلها في الوقوف ضد التيار "المحافظ والمنكفي على الذات"، على الرغم من إصرارهم القوي على فتح باب الاجتهاد على مصراعيه ، دون المساس بالثوابت والأصول العقدية والفكرية للأمة العربية .

### 3- المبررات الذاتية والموضوعية في اختيار الموضوع:

اشتغل عدد من الدارسين والباحثين بالإجابة عن بعض أو جل الأسئلة المرتبطة بالقضايا التي تتمحور حولها هذه الأطروحة، ولعل من أوائل من لفت الانتباه إلى هذا الموضوع من المشاركة هي الباحثة اللبنانية نازك سابايارد في دراستها القيمة "الرحالون العرب وحضارة الغرب"<sup>1</sup>، والتي قدمت من خلالها عرضا دقيقا وممتعا لمواقف الرحالة العرب وارتساماتهم وملاحظاتهم تجاه ما شاهدوه واختبروه في الغرب، بهدف الإسهام في ترقية مجتمعاتهم وتطويرها، للحاق بالأمم الأوروبية.

واستدلت من أعمالهم على نماذج فكرية متباينة في مسألة الصراع الحضاري بين الشرق العربي الإسلامي والغرب الأوروبي والمسيحي الذي لا يزال من الأسباب التي تقلق الهوية العربية الإسلامية إلى يومنا هذا ، تقول سابايارد : "إن تأثير اتصال العرب بالغرب قد نتج منه وجوها كثيرة أبرزها اثنتان : تغيير العربي من جراء تلقيه هذه

---

1 - نازك، سابايارد : الرحالون العرب وحضارة الغرب، مؤسسة نوفل، بيروت، الطبعة الأولى، 1979 م .

الحضارة الجديدة وردة على ما تلقى، ثم تغيير مظاهر الحياة والمجتمع"<sup>1</sup>. تذكر الباحثة أيضا أنه قد تبين لها " أن أدب الرحلة تعبير مباشر، أو غير مباشر، عن هذا التغيير المزدوج"<sup>2</sup>.

إلا أن الملاحظ على هذه الدراسة أنها اعتمدت فقط على نصوص رحلية مصرية وشامية، ولم تلتفت إلى رحلات المغاربة باستثناء رحلة خير الدين التونسي المسماة " أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك ".

بعد الباحثة اللبنانية، اشتغل المفكر زيادة في كثير من أعماله الفكرية على عدد من النصوص الرحلية، لا سيما في كتابيه: " تطور النظرة الإسلامية إلى أوروبا"<sup>3</sup>، و" اكتشاف التقدم الأوروبي، دراسة في المؤثرات الأوروبية على العثمانيين في القرن الثامن عشر"<sup>4</sup>. عرض في الكتابين الرؤية والنظرة الإسلامية لأوروبا من خلال تقارير الجغرافيين العرب في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين وحتى السنوات الأخيرة، مركزا في الفترة الحديثة -التي صارت فيها أوروبا مركز اهتمام المسلمين بعدما تحولت إلى "حضارة كونية" تنازعهم في كل شيء \_ على تقارير ونصوص السفراء العثمانيين "الأتراك" والرحالة المشارقة الذين زاروا أوروبا وانبهروا بمنجزاتها الحضارية والعلمية، دون الالتفات إلى مسألة حضور الوعي بالتجاوز من عدم حضوره عند النخب الإسلامية.

كما أصدر حسين محمد فهميم كتابه " أدب الرحلات"<sup>5</sup>، الذي كشف فيه قيمة كتابات الرحالة، كمصدر هام لوصف الثقافات الإنسانية عبر التاريخ، كما وضع قيمتها التعليمية؛ من حيث إنها أكثر المدارس تثقيفا للإنسان، وإثراء لفكره وتأملاته عن الكون والحياة. وبين أثرها التاريخي الهام في الكشف الجغرافي والحضاري على حد سواء. خصص القسم الأخير من دراسته للحديث عن الرحالة المحدثين، بدءا من بعثة الطهطاوي، التي شكلت بداية التوافد العربي المستمر على الغرب للدراسة والتحصيل، مشيرا في سياق حديثه عن هذه الرحلات إلى هاجس المقارنة الذي استحوز على اهتمام الرحالة المسلمين والعرب إبان القرن التاسع عشر وحتى نهاية الحرب

---

1 - نفس المصدر، ص . 14

2 - نفسه .

3- زيادة، خالد : تطور النظرة الإسلامية إلى أوروبا، معهد الإنماء العربي ، بيروت، الطبعة الأولى، 1983 م .

4- زيادة : اكتشاف التقدم الأوروبي، دراسة في المؤثرات الأوروبية على العثمانيين في القرن الثامن عشر ، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى ، 1979 م .

5- فهميم، حسين، : أدب الرحلات، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، عدد ، 138، يونيو، 1989 .

العالمية الأولى بين العالمين العربي والإسلامي، والعالم الغربي المسيحي. كما أورد نصوصاً تمثيلية من كتابات الرحالة العرب والمسلمين في وصف الأوروبيين، مركزاً على نفس النصوص التي اشتغلت عليها الدراسات السابقة الذكر.

وأصدر محمد بن الأصغر التونسي كتاباً حمل عنوان: "أدب الرحلات في القرن التاسع عشر، سند الحركات الإصلاحية"<sup>1</sup>، قسمه الباحث إلى قسمين، القسم الأول تناول فيه نماذج من الرحلات الأوروبية والأمريكية الحديثة إلى بلاد المشرق، مبرزاً دورها في التمهيد للحركة الاستعمارية وتكريسها لخيار الاحتلال وازدائها للإنسان الشرقي، عبر رسم صور دنيا لهم، بواسطة مخيلة جائعة إلى السحري والعجائي... وفي القسم الثاني من دراسته، استعرض نماذج من الرحلات العربية الإسلامية إلى أوروبا في العصور الحديثة، مبيناً أنها أُرست نوعاً متطوراً من أدب الرحلات يقطع مع إرث العجيب والغريب، وأسست لأدب رحلي يحمل بذرة الإصلاح والتغيير والتحديث. إلا أنه تناول ذلك بعجالة واختصار شديد، ولم يبرز مدى امتداد وتأثير هذه الرحلات في الحركة الإصلاحية العربية، كما أنه اقتصر على بعض أعلام هذا الأدب من تونس ومصر مغفلاً عدداً كبيراً من النصوص التي كان لها في رأينا تأثير عميق على النخب العاملة والحاكمة.

نلاحظ إذن، ومن خلال هذه النماذج التمثيلية من الدراسات التي تناولت أدب الرحلة العربية في العصر الحديث، تقصير المشاركة، وحتى بعض المغاربة من جزائريين وتونسيين في حق نخبة المغرب الأقصى، الذين برعوا في هذا الفن، وألفوا نصوصاً لا تقل أهمية عن نظيرتها المشرقية والتونسية، لكن قلماً وجدت عناية حقيقية من قبل الباحث العربي الذي يكاد يجهل عنها كل شيء.

فالباحث التونسي، المنصف الشنوفي، لم يذكر شيئاً عن الرحالة المغاربة الذين ألفوا في هذا الباب. ففي تقديمه لرحلة خير الدين التونسي الموسومة بـ "أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك" قام بحصر كتب الرحلة إلى أوروبا في القرن التاسع عشر في المشرق والمغرب، حيث جعل رفاعة الطهطاوي المصري هو الرائد في هذا الفن، وجعل كتاب ابن أبي الضياف التونسي الكتاب التالي لنص رفاعة الطهطاوي "إتحاف أهل الزمان بأخبار تونس وملوك أهل الزمان" بأجزائه التي شملت الجزء الخاص برحلته إلى فرنسا سنة 1846م، ثم عرج على كتاب "الساق على الساق فيما هو الفاريق" سنة 1855م لفارس الشدياق اللبناني، وكتاب "النزهة الشهية في الرحلة السليمية" المطبوع في بيروت سنة 1856م. وكتاب "رحلة إلى باريس" لفتح الله المراه، وكتاب "أقوم

---

1- ابن الأصغر، محمد: أدب الرحلات في القرن التاسع عشر، سند الحركات الإصلاحية، دار الإتحاف للنشر، دار سنابل للنشر والتوزيع، تونس، الطبعة الأولى، 2010.

المسالك في معرفة أحوال الممالك" لخير الدين التونسي سنة 1867م، محتتما لائحته بثلاثة كتب ألفت سنة 1900م هي: "سياحة مصري في أوربا" لعلي أبو الفتوح، و"الدنيا في باريس" لأحمد زكي و"سلوك الإبريز في مسالك باريز" لمحمد بلخوجة التونسي .

كما أن خالد زيادة الذي حقق ونشر نصا رحليا حمل عنوان: " ثلاث رحلات جزائرية في باريس"، أغفل الإشارة إلى رحالة المغرب الأقصى، ففي تقديمه لهذا الكتاب ذكر أهم الرحلات التي قام بها بعض المثقفين العرب إلى أوربا جاعلا رحلة رفاة الطهطاوي المصري "تخليص الإبريز في تلخيص باريز" على رأس القائمة، ومنتها برحلة أحمد زكي "الدنيا في باريس" التي تمت سنة 1900م، ولم يذكر زيادة ولو مغربيا واحدا ممن ألفوا في هذا الباب.

وهذا ما حدا ببعض الباحثين إلى استنكار هذا التقصير في حق المغاربة، فعبد المالك مرتاض أشار بكل جرأة إلى ذلك بقوله: "لقد طال عتاب المغاربة للمشاركة دون أن يجدي عتابهم فتيلًا... فبقدر ما كان المغاربة يمتنون باللوائيم على المشاركة، ويضجون من مواقفهم منهم، بمر الشكوى، كان المشاركة لا يزدادون إلا عزوفا عنهم، وتجاهلا لهم، وزهدا في كتاباتهم، ورغبة عما يجري بين ظهرانيهم، فكانت كتاباتهم حين يكتبون، وما أقل ذلك، مقتضبة خجولة، تتسم بالأخطاء التاريخية، والجغرافية، في الوقت الذي كان المغاربة يعرفون فيه عن المشرق العربي كل شيء: رجاله، وتاريخه، وأدبه، وفنونه".<sup>1</sup>

لقد ركز الباحثون العرب اهتمامهم على نصوص بعينها وأهملوا أخرى، ذلك أن تقارير ونصوص الرحلات العربية الإسلامية إلى أوربا، كثيرة ومتعددة الأغراض والأساليب، وإذا كان ما كتبه رفاة الطهطاوي المصري، وأحمد فارس الشدياق وفتح الله المراه من لبنان، وخير الدين التونسي من تونس، في وصف باريس وإبراز مظاهر تقدم أوربا، قد استقطب اهتمام أكثر الدارسين، فإن كتابات محمد بن الله الصفار، وإدريس العمراوي، وأبو الجمال الطاهر الفاسي، ومحمد الحجوي الثعالبي، وعبد السلام السائح من المغرب الأقصى، لا تقل أهمية من حيث نمط الكتابة والموضوعات المثارة والحس الحاد في الوصف والحكي، عن المتون العربية الأخرى التي اتخذت من أوربا موضوعا للكتابة .

---

1- مرتاض، عبد المالك: الجدل الثقافي بين المغرب والمشرق، دار الحدائفة للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، 1982م، ص . 15 .



ومع ذلك لا يسعنا إلا القول: إنهم في جانب من ذلك معذورون، ما دام المغاربة أنفسهم لم يعتنوا بتراثهم الوسيط والحديث العناية المطلوبة، رغم المحاولات المعاصرة التي لم تستوعب الجزء الأقل من هذا الإرث الثمين، حيث سجلنا بعض الاهتمام في العقد الأخير من القرن العشرين وبداية القرن الواحد والعشرين بالرحلة المغربية، ومحاولات إخراج متونها من سجن المخطوط والطبعات الحجرية، إلى عالم الطبع والنشر الواسع. قام ببعض هذه الأدوار آحاد ممن ولعوا بالتأريخ السياسي للمغرب الحديث. ويبدو لي أن المهمة لا زالت تقتضي جهدا إضافيا، حيث لم ينكسر القلم في هذا المضمار بعد. ومن هذه الدراسات والأعمال نذكر على سبيل المثال لا الحصر:

✓ - كتاب عبد المجيد القدوري، الذي عنوانه ب "سفراء مغاربة في أوروبا 1610-1922، في الوعي بالثقاوت" <sup>1</sup>.

✓ - كتاب سعيد بن سعيد العلوي المسمى، "أوروبا في مرآة الرحلة، صورة الآخر في أدب الرحلة المغربية المعاصرة" <sup>2</sup> لسعيد بن سعيد العلوي.

✓ كتاب لأحمد المكاوي، "الرحالون المغاربة وأوروبا" <sup>3</sup>.

يعالج موضوع الكتب السابقة الذكر، مجالا بكرة، حيث تمت العودة إلى رحلات أغلبها غير محقق، وسياقها التاريخي غير مضاء بما يكفي من الرصد والتحليل التاريخيين، المساعدين على فهم مادة نصوص الرحلات، إضافة إلى غياب التواريخ المقارنة بين المغرب والدول الأوروبية موضوع الرحلات، مما حول عملية البحث إلى عملية مركبة ومعقدة.

لم يكتف الباحثون بدراسة متون الرحلات، للإجابة على أسئلة منهجية محددة، بل أضاف بنسعيد العلوي وعبد المجيد القدوري إلى ذلك جهدا ثانيا، انصب على نشر بعض هذه الرحلات، أو نشر بعض أجزاءها، وهكذا نسجل أن كتاب سعيد بن سعيد يتضمن النص الكامل "للرحلة الأوروبية" لمحمد الحجوي الثعالبي. كما قام عبد

---

1 - القدوري، عبد المجيد : سفراء مغاربة في أوروبا ، في الوعي بالثقاوت، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، سلسلة بحوث ودراسات رقم، 13، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ، الطبعة الأولى ، 1995م .

2 - العلوي : أوروبا في مرآة الرحلة....، مرجع سابق .

3 - المكاوي ، أحمد : الرحالون المغاربة وأوروبا، جذور للنشر، الرباط، الطبعة الأولى، 2007 م .

المجيد القدوري بنشر أمثلة أنموذجية دالة، من أوصاف الرحالة المغاربة لباريز، خلال القرن التاسع عشر، والقرن العشرين، وهي نصوص مقتطفة من رحلات الحجوي والعمراوي والجمعدي ومحمد بن عبد السلام السايح .  
وضع المؤرخ عبد المجيد القدوري، لبحثه عنواناً فرعياً دالاً، توخى منه أن يضع يده على الموضوعة المركزية في الرحلات، موضوعة إدراك الفوارق، أو ما أطلق عليه في العنوان الفرعي للكتاب: "في الوعي بالتفاوت"، والتفاوت المقصود في هذا العمل، هو مجمل مظاهر الفروق والاختلافات القائمة بين مجتمعات أوروبية متقدمة والمغرب الأقصى الذي اكتوى بنار هزيمتين متلاحقتين ، وليس هذا فقط، بل إن الدول المتقدمة تتجه لاكتساحه واكتساح البلدان العربية الأخرى، وقد كشفت الرحلات المدروسة عن بعض ملامح التفاوت، بل التفاوتات الحاصلة بين المغرب وأوروبا، في الأزمنة التي كتبت فيها هذه الرحلات.

ورغم وضعه اليد على موضوع التأخر والتقدم وحجم التفاوت في كتابه المشار إليه أعلاه ، كما ترسّم ملامحه الرحلات، وخاصة الدبلوماسية منها، لم يتم بناء وتركيب المفصل الكبرى للبحث، في سياق ترتيب ملامح ومظاهر الوعي بالتفاوت المنصوص عليه، حيث تحضر معادلة "الذات" و"الأخر"، المغرب وأوروبا بصورة مركزية، بل إن هيمنة تخصصه الأكاديمي، كباحث في مجال التاريخ، حولت بحثه إلى ميدان لاستعراض الوقائع والأحداث التاريخية، فتابعها دون كلل، بكثير من الحرص والتدقيق، متناسياً العودة إلى موضوعة الكتاب المركزية "الوعي بالتفاوت". ولم يتطرق إلى رصد وتحليلات هذا الوعي، وأثر ذلك في الفكر المغربي الحديث .

أما الأستاذ بنسعيد العلوي فقد تناول في بحثه موضوعاً محدداً، ركز فيه على صورة أوروبا في الرحلة المغربية، المنظور إليها كمرآة، رغم التحفظات التي يمكن أن تؤخذ على مفهومه، وآلية الانعكاس التي يؤدي إليها مفهوم المرآة، وخاصة عندما نعرف بأن الذات الواصفة، لا تعكس الصور فقط، "قدر ما تعمل على إعادة بنائها، في ضوء المرجعية الذاتية بكل ثقلها اللساني، النفسي، السياسي، التاريخي، وبمختلف وسائلها في المعرفة ومواقعها التاريخية، وأحكامها المسبقة"<sup>1</sup> .

أما أحمد المكاوي فقد اشتغل في نصه على ثلاثة أصناف من الرحلات المغربية الأوروبية . أولها، الرحلات التكليفية، والتي دونت بمناسبة تكليف المخزن لشخصيات محزنية بمهمات دبلوماسية في العواصم الأوروبية، خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين. تليها المذكرات، التي قيدها بعض أعضاء البعثات الطلابية إلى

---

1- الكيلاني، شمس الدين: صورة أوروبا عند العرب في العصر الوسيط، وزارة الثقافة السورية، الطبعة الأولى، 2004 ، ص .

مختلف الدول الأوروبية، والتي اتسمت بصبغة تكوينية تعليمية . ثم **الرحلات الحجية**، والتي دونها حجاج مغاربة عن زيارتهم للأماكن المقدسة، إلا أن ظروف الحج حتمت عليهم الاحتكاك ببعض الأوروبيين ووسائل تمدنهم. وقد رصد الباحث ردود أفعال النخبة المغربية تجاه "الآخر" المستقر في الضفة الأخرى، القوي والمستفز بحسن تنظيماته وتقدم صنائعه ، واضعا مجموعة من الأسئلة عن أسباب عدم فهم واستيعاب الشروط التي أوصلت أوروبا إلى ما وصلت إليه، باحثا ومنقبا عن العوائق الذهنية و الثقافية التي حالت دون إدراك أولئك الرحالة لسر تفوق الأوروبيين .

لا سبيل إلى إنكار القيمة العلمية التي اتسمت بها الدراسات والأبحاث السابقة، كما يتعين الاعتراف والإقرار بالنتائج القيمة لهذه المؤلفات، ورغم ذلك ، فإنه لأسباب منهجية ومصدرية، بقيت أهم الإشكالات والقضايا المرتبطة بهذا الموضوع، قائمة ولم تستوف المعالجة المطلوبة .

أما عن الأسباب المنهجية، فقد اتضح من خلال تعريفنا بأهم موضوعات الدراسات السابقة أنها متفاوتة من حيث مستوى المقاربة والتحليل ما بين التناول البسيط السطحي، والتناول العميق الجاد. كما أن أيا منها لم يفرد حيزا كافيا للاشتغال بأهم الأسئلة التي تحددها محاور هذا البحث ، فقد ركزت أغلب الكتابات إما على التأريخ الكرونولوجي للرحلات، وإما على جانب الصور والأوصاف التي خصها الرحالة للمجتمعات الأوروبية، دون ربطها بمسألة مدى حضور الوعي بالتجاوز عند النخبة العربية ، وحصيلة هذا الوعي وامتداداته. لهذا السبب ظلت عدد من الأسئلة المتصلة بالإشكالية العامة التي يطرحها هذا البحث، إما بدون إجابة، أو أنها عولجت بطريقة سريعة وجزئية لا تسمح بتحصيل النتائج المتوخاة، لذلك نعتقد بأن القيمة المضافة لهذا البحث، هي مراقبة النصوص الرحلية بواسطة مفهوم مركزي هو **الوعي بالتجاوز الحضاري الأوروبي**، الذي يمكن أن يكون قد تشكل لدى النخب الفكرية والسياسية بالشرق والمغرب في الفترة الحديثة.

أما فيما يخص الجانب المصدري، فعلى الرغم من غنى وكثرة النصوص الرحلية التي اشتغلت عليها هذه الدراسات والأبحاث، فإن جلها قد افتقر إلى ذلك التنوع الضروري الذي يقتضيه بحث من هذا النوع، فقد لاحظنا أنها متفاوتة فيما بينها من حيث عدد النصوص الرحلية المتناولة في كل واحدة منها، والتي تتراوح بين دراسة رحلة واحدة، أو رحلات ضمن مجال جغرافي واحد؛ حيث راهن البعض على النصوص الرحلية المشرقية لمقاربة إشكالية الوعي بالفارق الحضاري ، في حين اكتفى البعض الآخر بنظيرتها المغربية، ولا نكاد نعثر، حسب علمنا، على دراسة جمعت بين النصوص المغربية والمشرقية في تناولها لموضوع الوعي بـ "الآخر" والإشكالات المرتبطة بذلك .

لهذه الأسباب، نعتقد أن الهدف الرئيس لهذه الأطروحة، يتمثل في معالجة هذه الاختلافات التي شابت جل الدراسات السابقة، في تناولها ومقاربتها للرحلات العربية الحديثة إلى أوروبا، وانتقاءها غير الموضوعي لعدد من النصوص ضمن مجال جغرافي محدد دون محاولة الجمع والتركيب بينهما .

إن تفصي طبيعة وبنية هذه الرحلات يتطلب وحده، إنجاز أبحاث مقارنة حول ملامح تصور الرحلات المغربية والمشرقية لما كان يجري من تحولات في الضفة الأخرى، بل إن الأمر يقتضي أيضا، إنجاز مقارنات بين النصوص التي تنتمي إلى مجال المغرب العربي، وهو ما يحتاج إلى تضافر جهود مجموعات بحثية، لنتمكن من إضاءة جوانب من تاريخنا، وتاريخ علاقتنا بأوروبا وبالأوروبيين، وقد تدعم هذه الأبحاث متى توفرت، الأبحاث الجارية في مجال التأريخ الشامل للفكر المغربي، ضمن دائرة أوسع، هي دائرة الفكر العربي الحديث.

#### 4- العدة المنهجية و المصدرية.

##### أ: العدة المنهجية .

تتميز العدة المنهجية التي راها علينا في تجاوز أوجه النقص والقصور في الدراسات والأبحاث السابقة، والإجابة عن الأسئلة المتنوعة المسطرة ضمن إشكالية البحث بطابعي التكامل والشمولية، حيث حاولنا توظيف أهم المناهج الحديثة التي قد تسعفنا في فك ألغاز الموضوع المنفتح بطبيعته على قضايا متنوعة، وهي :

✓ **المنهج التاريخي** : الذي وظفته في تتبع حياة أصحاب النصوص الرحلية التي اشتغلت عليها في مقارنة الإشكالية المبحوثة، ومعرفة مدى تأثيرهم بمن سبقوه ومدى تأثيرهم في الذين جاءوا بعده، واستعملته أيضا في تتبع أهم الاحتكاكات العسكرية والدبلوماسية والاقتصادية بين العالمين الإسلامي والمسيحي في العصور الحديثة، والتي أسهمت في رأينا في تشكل بدايات الوعي الإسلامي بالتجاوز الحضاري، كما استعنت به أيضا في رصد مسيرة الخطاب الإصلاحية العربي في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

✓ **المنهج التحليلي** : الذي استعمله في دراسة وتحليل مختلف القضايا الفكرية والدينية والسياسية التي استأثرت باهتمام النخبة العاملة بعد احتكاكها بالغرب عبر قناة الرحلة ، وكذا مناقشة مشاريعها الفكرية والتربوية والسياسية التي اقترحتها للخروج من حالة الشلل الحضاري ومحاولة اللحاق بركب المتبارين في الحضارة.

✓ **المنهج المقارن** : الذي وظفته كلما دعت الضرورة من أجل المقارنة بين التجربة الرحلية المغربية ونظيرتها المشرقية، وكذا بين الرحالة المسلم والمسيحي في مواقفهما من مظاهر الرقي العمراني والحضاري الأوروبي .

أما الشق الثاني من العدة المنهجية، فيتمثل في الخطة العملية التي اعتمدها في معالجة الإشكالية، وقد تميزت هذه الخطة بطابع الشمولية والتكامل، مادام بحثنا ينشد ذلك ، باختياره الاشتغال على مجالين جغرافيين، المجال المشرقي والمجال المغربي، حيث قسمنا البحث إلى ثلاثة أبواب، كل باب يندرج تحته فصلا، يخصص كل واحد منهما لمجال من المجالين ، وهكذا تشكل البحث من ستة فصول علاوة على مقدمة ومدخل وخاتمة .

**الباب الأول** : تناولنا فيه بالدرس والتحليل السياق التاريخي للرحلات العربية الحديثة إلى أوروبا، وظروفها وحيثياتها والتعريف بأصحاب الرحلات ومسيرتهم العلمية، ومواقعهم الوظيفية ومهامهم السياسية واهتماماتهم العلمية. **الفصل الأول** تناولت فيه الرحلات المشرقية التي توزعت بين مصر والشام. ولأن هذه البلدان كانت في الفترة التي نشغل عليها مجرد ولايات تابعة للدولة العثمانية، فقد ارتأينا أن نخصص مبحثنا للسفارتنامية العثمانية، حاولنا من خلالها إقناع القارئ بأن النخبة العثمانية وعت قبل قرن من الحملة الفرنسية أن العالم الأوروبي عامة، ودولة روسيا خاصة، باتت متفوقة على الدولة العثمانية في كل المجالات، العسكرية والاقتصادية والعلمية، والتي رصدتها عيون السفراء الأتراك الذين توالوا على زيارة أوروبا في القرن الثامن عشر . وامتدادا لذلك، أجرى العثمانيون العديد من المحاولات الإصلاحية لتجاوز هذا الوضع، وتدارك الهوة السحيقة التي أضحت تفصلهم عن أوروبا . وهكذا تشكل الفصل الأول من هذا الباب من ثلاثة مباحث تناولت فيها على التوالي، السفارتنامية العثمانية ونتائجها. ثم الرحلة المصرية، ثم الرحلة الشامية .

أما **الفصل الثاني** فقد تناولنا فيه الرحلات بالمجال المغربي، والتي توزعت بين ثلاث دول، هي الجزائر وتونس التابعتين آنذاك للدولة العثمانية، والمغرب الذي بقي بعيدا عن هيمنتها. ومن تم تشكل الفصل الثاني من ثلاثة مباحث تناولنا فيها الرحلة الجزائرية ثم الرحلة التونسية ثم الرحلة المغربية .

أما **الباب الثاني**، فقد تناولنا فيه أهم الصور التي دونها الرحالة العرب عن أوروبا في نصوصهم الرحلية، فقد تتبعت النخبة العربية ملامح القوة العسكرية، والنهضة العلمية والصناعية وتطور العمران، ومظاهر العصرية ممثلة في التطور الحادث في نمط العيش والبناء والاجتماع والحقوق. فقد انشغل الرحالة بتمتيع عيونهم بصور النهضة الحديثة في تلك المجتمعات، لذا حاولنا استقراء هذه الصور والملاحظات التي استأثرت باهتمام الرحالة أثناء إقامتهم بالديار الأوربية، مستنبطين من خلالها حصول وعي بالتجاوز الحضاري الأوربي لمجتمعاتنا العربية والإسلامية في مختلف

المجالات. وهكذا قسمنا **فصلي** الباب الثاني إلى أربع **مباحث**، تناولنا فيها تجليات الوعي المشرقي أولا والمغربي ثانيا بالتجاوز الحضاري في المجالات : العسكرية والعلمية الثقافية والاقتصادية والسياسية.

**أما الباب الثالث**، فهو امتداد بشكل مباشر للباب الذي قبله، حيث خلصنا فيه إلى أن الوعي بالتجاوز قد تشكل عند كثير من أفراد النخبة العاملة ممن زاروا أوروبا ووقفوا عند حقيقة التفاوت الحاصل في القدرات والإمكانات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والعسكرية، ومن تم حاولت النخبة العربية استدراك هذا الواقع، بالدعوة إلى الأخذ بمعطيات التطور الحديث، واقتفاء أثر "الأخر" للخروج من حالة الشلل الحضاري التي وجد العرب أنفسهم فريسة لها، كما قدمت مشاريع ومقترحات إصلاحية للنخب الحاكمة، منها ما تم تبنيه وتحقيقه على أرض الواقع، ومنها ما تم رفضه وبقي حبيس نصوصهم ومؤلفاتهم .

وهكذا قسمنا فصلي الباب الثالث على غرار سابقه إلى أربع **مباحث**، خصصناها لمعرفة امتدادات ونتائج الوعي المشرقي أولا، والمغربي ثانيا، بالتجاوز الحضاري في المجالات الأربع التي اعتبرناها تجليات الوعي بالتجاوز .

## **ب - العدة المصدرية .**

تمثل المتون الرحلية الحديثة أهم المظان الأساسية الكفيلة بتحصيل المادة العلمية اللازمة للإجابة عن إشكالية البحث، أما المؤلفات التاريخية والأبحاث والدراسات التي عالجت مواضيعها الظروف التاريخية التي تمت فيها هذه الرحلات والمهام التي اضطلع بها السفراء والرحالة في مجتمعاتهم قبل الرحلة وبعدها، فتعتبر المكمل الطبيعي لبحث من هذا النوع، وهكذا تشكلت العدة المصدرية لبحثنا من :

## **- المتون الرحلية الحديثة :**

من أجل مقارنة موضوعة الوعي العربي بالتجاوز الحضاري الأوروبي ارتأينا أن نقوم بدراسة عدد من النصوص الرحلية التي كتبت باللغة العربية، وقام بها أفراد من أهل المشرق والمغرب إلى أوروبا وتحديدا أوروبا الغربية خلال الفترة الحديثة، التي أقصد بها تحديدا ، القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين . وتتوزع هذه النصوص التمثيلية على مجالين :

❖ **المجال المشرقي**، الذي كان خاضعا آنذاك للدولة العثمانية، وقد مثل بخمس رحلات تتوزع بين

مصر والشام، حيث اعتمدنا على ثلاثة نصوص مصرية، تعتبر في رأينا من أهم وأبرز النصوص الرحلية التي تجسد وعي النخبة المصرية بالفارق الحضاري بين المشرق وأوروبا وهي : «تلخيص الإبريز في تخلص باريز» لرفاعة رافع الطهطاوي، ورحلة «علم الدين» لمحمد علي مبارك باشا، و«رحلة في صقلية» للعلامة الشيخ الإمام محمد عبده. كما اعتمدنا على نموذجين من الرحلات الشامية، أولهما «كشف

المخبأ في فنون أوروبا» للرحالة الأديب المسلم فارس الشدياق، وثانيهما «رحلة إلى أوروبا» للمفكر المسيحي فتح الله فرنسيس المرش.

❖ **المجال المغربي،** والذي كان الجزء الأكبر منه تابعا للسيادة العثمانية، مثل تونس والجزائر وليبيا، أما

المغرب الأقصى فقد شكل الاستثناء؛ حيث بقي خارج السيادة العثمانية.

ففيما يتعلق بالتجربة الجزائرية، توقفنا عند ثلاثة نصوص رحلية حققها المفكر خالد زيادة، الرحلة الأولى التي قام بها سليمان بن صيام الموسومة بـ«رحلة السيد سليمان بن صيام إلى بلاد فرنسا، أو الرحلة الصيامية». والرحلة الثانية صاحبها أحمد ولد قاد، والتي سماها على: «الرحلة القادية في مدح فرنسا وتبصير أهل البادية» والرحلة الثالثة حملت عنوان: «الوفد الجزائري من رؤساء العرب ورحلتهم إلى محروسة باريس».

وفيما يتعلق بالتجربة التونسية، ارتأينا تخصيص أربع نصوص رحلية لأهميتها التاريخية، الأولى، رحلة ابن أبي الضياف إلى فرنسا رفقة الباي أحمد باشا والمضمنة في كتابه «إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان»، والثانية، رحلة خير الدين التونسي المسماة: «أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك»، والثالثة، رحلات محمد بيرم الخامس في كتابه «صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار» إضافة إلى رحلة محمد السنوسي التي ألقت بعد الصفوة بسنوات وسماها «الرحلة الحجازية».

أما في المغرب الأقصى، وبحكم أنه كان من أكثر البلدان الإسلامية قربا من أوروبا في حوض البحر الأبيض المتوسط، إضافة إلى أنه تمكن من الحفاظ على استقلاله السياسي زمنا طويلا بعد خضوع باقي الدول العربية لسيطرة العثمانيين، فقد انعكس ذلك بشكل مباشر على أدب الرحلة في المغرب، مما نجم عنه ظهور صنف غير مألوف في الرحلة العربية المعاصرة هو صنف الرحلات السفارية. وقد اخترنا منها خمس نصوص رحلية، الأولى لمحمد الصفار تحت عنوان "رحلة الى فرنسا"، والثانية لإدريس بن إدريس العمراوي المسماة: «تحفة الملك العزيز بمملكة باريز» والثالثة لإدريس الجعيدي الموسومة بـ«إتحاف الأخيار بغرائب الأخبار»، والرابعة لمحمد الحجوي الثعالبي التي سماها: «الرحلة الأوروبية»، والأخيرة لعبد السلام السايح المسماة «أسبوع في باريس».

ولعل القاسم المشترك بين مؤلفي النصوص المختارة في هذا العمل البحثي المتواضع، يتجلى في كونهم أسهموا، كل واحد من زاوية اهتمامه وبأسلوبه الخاص في وصف الحضارة الغربية، كما أسهموا في إذكاء نقاش عميق ومبكر حول هذه الحضارة منبهين إلى حدوث تجاوز حضاري.

وتجدر الإشارة إلى أننا لاندعي في بحثنا الإحاطة بجميع النصوص والمتون الرحلية العربية الحديثة، وأن النصوص المدروسة هي كل ما كتب في موضوع الرحلة إلى أوروبا، إنما نعتبرها نصوصا تمثيلية قادرة على منحنا

إمكانية مراقبة إشكالية الوعي بالتجاوز، ولذلك سنحاول بين الفينة والأخرى في ثنايا فصول البحث الاستشهاد بعدد آخر من النصوص الرحلية غير التي أشرنا إليها سابقا.

## – المصادر التاريخية :

وعيا منا بأهمية المصادر التاريخية في تعظيم النتائج المتوخاة من هذا الجهد البحثي، وفي معالجة الإشكالية في شموليتها، ولا سيما في كشف الظروف التاريخية ولمعطيات السياسية والفكرية التي تمت فيها الرحلات العربية الحديثة، وعلاقة أصحابها بالسلطة السياسية، وأهم الأدوار والمهام الإدارية والسياسية التي اضطلعوا بها سواء قبل الرحلة أو بعدها، اعتمدنا على عدد من المصنفات التاريخية المهمة التي خطتها أقلام بعض المؤرخين من مصر وتونس والجزائر والمغرب الأقصى نذكر منها على سبيل التمثيل ما يلي :

✓ **تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، لعبد الرحمان الجبرتي، الذي يعتبر أهم وأبرز مؤرخ مصري في القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر، وقد اشتهر كتابه بصفته مصدرا رئيسيا لأحداث مصر في فترة التحولات قبل الحملة الفرنسية وبعدها. كما غطى مرحلة هامة من تاريخ مصر تمتد نحو من قرن وربع قرن بين عامي 1694 و 1820 م.

✓ **حملة بونابارت إلى الشرق**، للمؤرخ الأديب الشامي المعلم نقولا الترك، والذي يأتي من حيث التوثيق والمعاصرة للأحداث في الدرجة الثانية بعد مؤلفات الجبرتي، واعتبر عند كثير من الباحثين مصدرا تاريخيا هاما للحملة الفرنسية على مصر .

✓ **الاستقصا في أخبار دول المغرب الأقصى**، للمؤرخ المغربي خالد الناصري، والذي يعتبر مصدرا لا محيد عنه لكل باحث في تاريخ المغرب الأقصى منذ الفتح الإسلامي إلى عهد الحسن الأول نهاية القرن التاسع عشر الذي عاصره المؤلف .

✓ **إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس**، في ثمانية أجزاء، **والعز والصولة في نظام الدولة**، في جزئين، للمؤرخ المغربي عبد الرحمن بن زيدان، واللذين أنارا لي كثيرا من جوانب تاريخ المغرب الحديث التي كنت أجهلها من قبل .

✓ **إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان**، في سبعة أجزاء، للمؤرخ التونسي ابن أبي الضياف، والذي تضمن نص رحلته إلى باريس رفقة الباي أحمد، إلا أنه إضافة إلى ذلك يعتبر مصدرا تاريخيا، تناول فيه تاريخ تونس في عهد البايات والتواجد العثماني، كما أرخ فيه لفترة مهمة من تاريخ تونس الحديث،



والمعلقة بتجربة الإصلاح التي قادتها النخبة العاملة في منتصف القرن التاسع عشر، ولا سيما مشروع خير الدين التونسي الذي سعى من خلاله إلى إصلاح البلاد وتمكينها من اللحاق بالأمم الأوروبية .

✓ **تاريخ الجزائر في القديم والحديث**، في ثلاثة أجزاء، للميلي محمد مبارك الهيلالي، والذي يعتبر من أبرز وأوثق الكتب التاريخية التي تؤرخ للجزائر منذ العصر الحجري إلى فترة الاحتلال الفرنسي، والذي راها عليه في رصد صدمة النخبة الجزائرية بالاحتلال الفرنسي وتبناها إلى عمق الهوة التي أضحت تفصل الجزائر خاصة ودول المغرب عامة عن البلدان الأوروبية الغازية والمملكة لأحدث الوسائل العسكرية والحربية .

## – الدراسات والأبحاث :

وعيا منا بأهمية الدراسات والأبحاث المنجزة حول موضوع البحث في تفادي الهفوات والأخطاء وتجاوز النقائص التي وقع فيها من سبقونا في ميدان البحث العلمي، فقد بذلنا ما في استطاعتنا، ولم نأل جهدا في تتبعها وقراءتها والاستفادة منها؛ سواء التي كتبت حول المجال الشرقي، أو المجال المغربي، فكانت استفادتنا منها عظيمة مما خطته أقلام عدد من الدارسين المثبتة أسماؤهم في نهاية هذه الأطروحة. وقد أشرنا إلى أهمها أثناء حديثنا عن المبررات الذاتية والموضوعية، كما استفدنا من أهم الكتابات التي اتخذت الفكر الإسلامي الحديث موضوعا لها، وفي هذا الصدد نذكر تمثيلا لا حصرا ما يلي :

✓ **الأصول الاجتماعية والثقافية للوطنية المغربية**، بالفرنسية، للدكتور عبد الله العروي، حيث تعرض للغزو الأوروبي وصدمة النخبة المغربية بالحادثة الغربية، عارجا بين الفينة والأخرى على كتابات السفراء المغاربة التي جسدت صدمة الوعي بالفارق، كما تناول مواقف العلماء من الإصلاح الذي شرع فيه المخزن ابتداء من المنتصف الثاني من القرن التاسع عشر، لا سيما في المجال العسكري، قدم عنها نقدا علميا رصينا يشي بعلو كعبه في ميدان التأليف والبحث في مجال الدراسات التاريخية. كما استعنا أيضا بكتابه التاريخي الذي عنوانه **بمجملة تاريخ المغرب " في ثلاثة أجزاء**، علاوة على كتابه القيم، **تاريخ المغرب محاولة في التركيب**.

✓ **مظاهر يقظة المغرب الحديث**، للمفكر المغربي محمد المنوني، وهو مساهمة جادة في كتابة تاريخنا المعاصر، كما أنه زاخر بالمادة المصدرية لهذا الموضوع، حيث كشف فيه عن أحوال المغرب في الفترة الحرجة من تاريخه بعد هزيمتي ايسلي وتطوان، كما رصد فيه ملامح ومظاهر النهضة المغربية الحديثة في مختلف المناحي

وشتى المجالات، تلك الملامح التي وفق الأستاذ المنوني، كامل التوفيق، في استجلائها، وجمع شتاتها، وعرضها وتبويبها، وكشفها وتوضيحها .

✓ **الخطاب الإصلاحى فى المغرب، التكوين والمصادر**، لعبد الإله بلقزيز، الذى يعتبر إسهاماً لافتاً فى مجال الاهتمام بالفكر المغربى، حيث سعى إلى الوقوف عند المصادر المكونة للخطاب الإصلاحى فى المغرب وصيرورة تكوينه، وقد جمع فى عمله بين التأريخ والتحليل، التأريخ للحظات الكبرى التى وجهت مسار النظر الإصلاحى، وتحليل المتون التى حررت للتعبير عن الوعي الذى كونته النخبة المغربىة بـ"ذاتها" وبمجتمعتها، وبـ"الأخر" الأوروبى وحضارته.

✓ **تارىخ الفكر المصرى الحديث**، فى جزئين، للويس عوض، والذى تناول فيه تكون الفكر السياسى والاجتماعى والثقافى مصر والعالم العربى الحديث وعماً طراً عليه من تطورات نتيجة للمؤثرات الأجنبية بدءاً من الحملة الفرنسىة على مصر، وما تلاها من اتصال مستمر بين مصر وأوروبا عن طريق البعثات العلمىة والرحلات الديبلوماسية، وحركة الترجمة التى كان رائدها بلا منازع رفاة الطهطاوى .

✓ **الفكر العربى الحديث وأثر الثورة الفرنسىة فى توجيهه سياسياً واجتماعياً**، لرئيف خورى، والذى نعتبه مرجعاً علمياً هاماً فى إبراز العلاقة النظرىة بين مقولات النهضة العربىة فى القرن التاسع عشر، ومصادرهما الفرنسىة المستمدة بالدرجة الأولى فلاسفة الأنوار وملهمى الثورة الفرنسىة .

## – الندوات والملتقىات العلمىة :

استأثر موضوع الرحلة فى العقدين الأخيرين باهتمام النخب العلمىة والأكادىمىة باهتمام كبير، تمثل ذلك فى تنظيم عدد من الندوات والملتقىات العلمىة الدولىة داخل الجامعات العربىة، والتى شارك فى أعمالها ثلة من الباحثين المغاربة والمشاركة والأوروبىين بعروض قيمة، أظهرت المكانة المتميزة للرحلة، سواء كحدث أو كنص فى الثقافة والممارسة العربىة الإسلامىة، ومدى مساهمتها الغنىة فى إغناء المعرفة بالذات وبالآخر .

وقد استعنا بهذه الندوات التى طبع جلها ونشر أغلبها، فى إضاءة كثير من جوانب الإشكالىة، ونذكر منها تمثيلاً لا حصراً ما يلى :

✓ ندوة : **صورة الآخر العربى ناظراً ومنظوراً إليه**، أيام 29،30،31 مارس 1993، تنظيم : مركز دراسات الوحدة العربىة، والجمعىة العربىة لعلم الاجتماع، مدينة الحمامات، تونس، تحرير : الطاهر لبيب، مركز دراسات الوحدة العربىة، بيروت، الطبعة الأولى، 1999.

✓ ندوة : الرحالة العرب والمسلمون، اكتشاف الآخر، المغرب منطلقا وموتلا، أيام : 14،15،16،17،  
نونبر 2003، تنظيم: وزارة الثقافة بتعاون مع المشروع الجغرافي العربي ارتياد الآفاق، أبوظبي، مطبعة النجاح  
الجديدة ، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2003م.

✓ ندوة : السفر في العالم العربي الإسلامي، التواصل والحداثة، المنعقدة أيام : 25\_26\_27 ماي  
2002، مراكش، تنظيم : « وحدة التكوين والبحث : المغرب والعالم العربي الإسلامي 1500-  
1900»، تنسيق: عبد الرحمن المودن وعبد الرحيم بنحادة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية،  
الرباط، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم ، 108 ، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ، الطبعة الأولى،  
2003 .

✓ ندوة: أدب الرحلة في التواصل الحضاري، أيام: 21-22-23 أبريل 1993، تنظيم : كلية الآداب  
والعلوم الإنسانية ، مكناس، سلسلة الندوات، رقم، 5 ، الطبعة الأولى، 1993م .

✓ ندوة : الرحالة العرب والمسلمين: اكتشاف الذات والآخر، الرحلة العربية في ألف عام، أيام : 22-  
23-24-25 مايو 2009، تنظيم : وزارة الثقافة المغربية بتعاون المشروع الجغرافي العربي ارتياد الآفاق،  
تحرير وتقديم وتنسيق : نوري الجراح، دار السويدي النشر والتوزيع، أبوظبي، الطبعة الأولى، 2009 .

### - الرسائل والأطروحات الجامعية :

حرصنا في مرحلة جمع المادة العلمية على الاطلاع على الأبحاث الجامعية التي أنجزها باحثون مغاربة، والتي  
شكل لنا بعضها مصدر استلهام منهجي، ومن أهم الأبحاث التي اطلعت عليها أذكر على سبيل المثال لا  
الحصر :

✓ إشكالية التحديث في الفكر الاجتماعي المغربي : 1841-1912، لعبد السلام الحيمر، وهو رسالة  
دكتوراه للسلك الثالث، نوقشت بكلية الآداب بالرباط خلال نيسان أبريل 1992م. تعرض فيها لمشكلة  
التحديث عند العلماء، إلا أن مرجعيته الفكرية التي كان ينطلق منها أثر في علمية البحث، حيث أصدر  
كثيرا من الأحكام كان فيها شطط كبير .

✓ الفلسفة الاجتماعية والسياسية عند الطهطاوي، لمحمد ملوك، وهو رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا  
المعمقة في الفلسفة، تحت إشراف المفكر المغربي المرحوم الدكتور محمد عابد الجابري، والذي عالج فيه  
المشروع الفكري والفلسفي والتربوي لرفاعة الطهطاوي .

تھياً لنا جمع هذه المادة العلمية بفضل الزيارات المتكررة التي قمنا بها لعدد من الخزانات الوطنية، وأخص بالذكر المكتبة الوطنية بالرباط، والخزانة الصبيحية بسلا، وخزانة آل سعود بالدار البيضاء، هذه الأخيرة التي كنت أتردد عليها في فترات العطل الدراسية، وأقضي بها أياماً كاملة أتفرغ فيها للبحث وتمتيع عيني بألاف المؤلفات العلمية، ومكنتني من تحصيل مادة علمية غنية. علاوة على فضل خزانة الزيدانية بأولاد عبد الله التي اشتغلت محافظاً عليها لمدة تزيد عن ست سنوات قبل التحاقني بالتعليم، وقد استفدنا من محتوياتها الغنية، وكنت أخلو فيها للقراءة والمطالعة والكتابة، ومكنتني هذه التجربة من مطالعة كم كبير من الإصدارات العلمية والتي أثرت بشكل إيجابي في مسيرتي العلمية .

كما لا يفوتني أن أشير إلى استفادتي الكبيرة من عدد كبير من المكتبات الإلكترونية، والمواقع الفكرية والثقافية، التي تزودت منها بذخائر ما كان بإمكانني العثور عليها في المكتبات الورقية، وأذكر على سبيل التمثيل لا الحصر، مكتبي المصطفى و الإسكندرية ، والتي تحتوي على آلاف الكتب والدراسات في جميع الحقول المعرفية .

وختاماً لا بد من تقديم الشكر والامتنان والعرفان لله سبحانه وتعالى أن هياً لي مشرفاً فاضلاً، سار بجاني منذ ولادة هذا البحث، يأخذ بيدي حينما تتشابك علي الطرق، وتضيق بي الأمور، فيمنحني العطاء، ويستحثني على الإجابة والإفادة، مسدداً لأخطائي، ومنبهاً على عثراتي الكثيرة، وكبائري المنهجية، فلقد كان نعم العالم، ونعم الوالد، وهو الدكتور الفاضل محمد حواش وفقه الله وعافاه .

وأملني، أن أكون قد استثمرت كل ذلك في تقديم عمل نافع ومفيد، و أن يحقق البحث ما أملت من تعريف القارئ بإشكالية الوعي العربي بالتجاوز الحضاري الأوربي، وبتجليات هذا الوعي، وامتداداته ونتائجه. وكذا في تعريفه بأهمية هذا الأدب وبقيمته الفكرية والفنية، وأن يكون قد وفق في إعطاء صورة واضحة كذلك عن سمات هذا الأدب في كل مجال من المجالات الحضارية التي اشتغلنا عليها. مؤكداً أن ما أصبت فيه فمن الله سبحانه وتعالى، تم من إرشاد المشرف وجديته وصرامته، وما أخطأت فيه فمن نفسي ومن تقصيري، واستغفر الله من الزلة والخطأ .

الباب الأول: \_\_\_\_\_

الرحلات العربية إلى  
أوروبا  
السياق والخصوصية.

## مقدمة الباب :

تعتبر الرحلة إلى أوروبا ظاهرة جديدة في الفكر العربي افتتحها عصر النهضة في القرن التاسع عشر ضمن محاولات أخرى لاستدراك أسباب التخلف واللاحق بالغرب وامتلاك منجزات الحضارة الحديثة. لقد شكلت أوروبا دائما محط اهتمام لدى الجغرافيين العرب والمسلمين، خاصة بعد نشوء الدولة العباسية، غير أن هذا الاهتمام ظل ذا طابع خاص يتصف باللامبالاة أحيانا، وبالعداء أحيانا أخرى، ولم يتحول إلى محاولة لاستدراك التخلف والتقليد الحضاري إلا مع أواخر القرن الثامن عشر. ولذلك فإن الإشارة إلى حداثة ظاهرة الرحلات، تتعلق بنشوء وعي جديد، ينشد التعرف على عالم آخر بغية كشف أسراره وفهم الأسباب التي أدت إلى تفوقه على العالم الإسلامي. ولذلك تم إهمال الرحلات التي قام بها أصحابها قبل هذا التاريخ لأنها تقع خارج التصنيف المذكور أعلاه .

فابن جبیر<sup>1</sup>، الذي قام برحلته في أواخر القرن الثاني عشر، انطلق من غرناطة التي كانت آنذاك أحد أهم المراكز الحضارية، على الرغم من التفكك السياسي الذي طرأ على الأندلس في ظل نظام ملوك الطوائف. ورحل ابن بطوطة في سنة 1324م من طنجة وعاد إلى فاس، بعد مرور ربع قرن من الزمن، وبعد أن زار المشرق العربي والأندلس وبلاد إفريقيا المتوسطة والغربية. وتقوم رحلة ابن بطوطة على خلق الدهشة في القارئ عبر إيراد الكثير من الطرائف والغرائب. ومن هنا اسمها الذي أطلقه عليها كاتب السلطان محمد بن جزي، الغرناطي الأصل: "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"<sup>2</sup>.

نجد لدى كل من ابن جبیر وابن بطوطة وغيرهما ميلا نحو تقديم شذرات متفرقة من المعلومات قائمة على المعاينة الشخصية، أو عن طريق الاستعلام والاستخبار وقراءة الكتب المؤلفة. غير أن ابن جبیر وابن بطوطة تحركوا في عالم اطمأنوا إلى أصوله وتكوينه وأعرافه، وذلك على الرغم من حديثهم عن الغرائب والعجائب. فالمستوى الحضاري في العالم الإسلامي آنذاك، وما كان يحيط به من "ممالك" نهض على أسس شبه متماثلة، حيث تكاد تتطابق أنماط الحياة الرئيسية، فيأتي أدب الرحلات والجغرافيا وكأنه تأكيد لمعرفة سابقة تحتاج فقط إلى تبويب وتأطير، أو تتطلب من حين إلى آخر إيراد بعض الممارسات والعادات الاجتماعية ذات الطابع المحلي الخاص، ومن ثم لاسيلا إذن إلى قلب الأوضاع رأسا على عقب، والدعوة إلى خلق مؤسسات جديدة.

1 - ابن جبیر، محمد بن أحمد : رحلة ابن جبیر، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، 1964م .

2- ابن بطوطة، محمد بن عبد الله: تحفة النظار في غرائب الأمصار، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987.

وظل حب الاستطلاع المشوب بشعور التفوق عنوانا رئيسيا في المجتمعات العربية والإسلامية حتى القرن الثامن عشر.

لم ينشأ الشعور بالانحدار المطلق إلا بعد بروز القوة الأوروبية الصناعية والعسكرية، التي ألحقت بالدولة العثمانية هزائما عسكرية، فقدت على إثرها عددا من الأقاليم الأوروبية والولايات العربية التابعة لها، حيث تعرضت مصر عام 1798م والجزائر عام 1830م للغزو الفرنسي، كما تعرض المغرب لهزيمة قاسية في ايسلي سنة 1844م، هذه الهزائم نبهت النخب العاملة في المشرق والمغرب إلى حدوث اختلال في موازين القوى لصالح أوروبا. فلا غرابة إذن، أن يشهد القرن التاسع عشر، الذي يبدأ بعد سنوات ثلاث من الحملة الفرنسية على مصر، عددا كبيرا من الرحلات إلى أوروبا بوجه عام، وإلى فرنسا بوجه خاص، بوصفها نموذج التقدم الذي وصل إليه العالم المتحضر، ومستقر العلوم الواعدة التي لا بد من معرفة أسرارها لتحقيق الرقي الحضاري واللحاق بالأمم القوية .

# الفصل الأول : الرحلة المشرقية الحديثة إلى أوروبا.

- ✓ المبحث الأول : السفارتناميه العثمانية .
- ✓ المبحث الثاني : الرحلة المصرية الى أوروبا .
- ✓ المبحث الثالث : الرحلة الشامية إلى أوروبا .

المبحث الأول : السفارتناميه العثمانية إلى أوروبا وبدايات  
الوعي بالتجاوز الحضاري .



لم يقع تعرف العثمانيين على حضارة الغرب إلا خلال القرون الأخيرة، ويعزى ذلك إلى إحساس العثمانيين بعظمة دولتهم، واعتقادهم بأن درجة العمران والرفاه التي بلغوها كانت تكفيهم دون التطلع إلى الآخرين. وقد تكون حقيقة تلك العظمة والرفاه والرقى موضعاً للأخذ والرد، ولكن المهم هنا هو أنهم كانوا على اقتناع بذلك، وعن طريق الاحتكاك العسكري والهزائم التي مني بها العثمانيون في القرن الثامن عشر، والرحلات المتنامية إلى أوروبا، أمكن للنخبة العثمانية الاقتراب من بعض المظاهر الملموسة للحضارة الغربية، والتي أسهمت إلى حد بعيد في تشكل الوعي العثماني بالتجاوز الحضاري الأوروبي للأمة الإسلامية .

### **المطلب الأول :السياق التاريخي للرحلة العثمانية.**

لقد توصل العثمانيون منذ أمد بعيد، وربما كانوا أسبق من عدد كبير من الدول الإسلامية ، إلى الوعي بالتفاوت على مستوى التقنية العسكرية بين العالم الإسلامي وأوروبا، وبالتالي اقتنعوا منذ القرن السادس عشر بأن إصلاح الأمور العسكرية يعتبر من الأولويات، بل مسألة حيوية، ويكفي أن نعود إلى كتب النصيحة<sup>1</sup> العثمانية، التي ألفت خلال القرن السادس عشر لنقف على نضج هذا الاقتناع. فقد كتب الأقفصاري حسن الكافي غداة معركة<sup>2</sup> 1596 ما يلي: "وقد جربنا في ديارنا من خمسين سنة أن أعداءنا كلما اخترعوا نوعاً من الأسلحة واستعملوه غلبوا علينا، ثم إذا اتخذنا مثله واستعملناه غلبنا عليهم، بعون الله العلام لقوة الإسلام. أما في هذا الزمان، فالأعداء بالغوا في استعمال بعض الأسلحة المحدثه كالبنادق ونحوها، وأهمل عسكرنا في اتخاذ مثلها واستعمالها، بل أهملوا استعمال الأسلحة القديمة أيضاً، فوقعوا فيما وقعوا فيه هداهم الله إلى الخير ونصرهم."<sup>3</sup>

---

1- كان العلماء المسلمون يعتمدون أسلوب الحكمة والنصيحة والإرشاد والموعظة الحسنة في مخاطبة القائمين على أمر المسلمين أثناء تصديهم لمعالجة أية قضية سياسية أو أية قضية تخص أوضاع المسلمين العامة. وكانوا يعززون وجهات نظرهم بالاستشهاد بآيات من القرآن الكريم، وبأحاديث نبوية شريفة وبالقصص والأمثال والأشعار . ويعتبر حسن الأقفصاري من رواد هذا النوع من التأليف .

2- زحف الجيش العثماني إلى بلغراد النمساوية واستولى عليها عام (1005\_ 1596)، ف وقعت معركة كبيرة بين الطرفين هزم فيها العثمانيون هزيمة مذلة غير مسبوقه . انظر تفاصيل المعركة : ياغي أحمد اسماعيل ، *الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث* ، مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة الأولى، 1996 م، ص . 94 .

3- رصد الأقفصاري في كتابه أسباب تراجع الدولة العثمانية مفسحة المجال لدار الكفر أن تتفوق عليها . ويحصر ذلك في أربعة وجوه، ولكنه يركز على نقطتين أساسيتين :- أولها : "تعطيل الشورى والاستبداد السياسي"، وهو مخالفة صريحة حسب

أفاضت كثير من الكتب التاريخية في إبراز القدرات والإمكانات العسكرية للدولة العثمانية، والتي جعلت العثمانيين قوة لا تهزم في القرن الخامس والسادس عشر، ليس فقط في مواجهة القوة الأوروبية، بل أيضا من أن يصبحوا قوة في البلاد الإسلامية . فقد تمكنوا من سحق كل القوات الإسلامية التي واجهتهم، ويبدو ذلك في مختلف معارك بداية القرن السادس عشر مع ممالك مصر والصفويين، ولكنه يبدو أكثر فعالية في الحصار الذي ضربه العثمانيون على تبريز في سنة 1548م.<sup>1</sup>

مع نهايات القرن السابع عشر، وعلى إثر الهزائم المرة والمذلة التي منيت بها الدولة العثمانية، بدا واضحا أن أوروبا الغربية والوسطى قد تفوقت كثيرا في مجالات شتى أبرزها التقدم العسكري والتطور الاقتصادي ، فقد وعى العثمانيون التأخر، حيث أظهرت لهم الحروب التي خاضوها طوال هذه المرحلة مدى ضعف فعالية قواتهم العسكرية، وكانت المسألة العسكرية بمثابة الزاوية التي نظر منها العثمانيون إلى تخلفهم مقابل تقدم "الآخر" ، ومن ثمة التركيز على إصلاح الوضع العسكري للدولة.

كانت هزيمة كارلوفيتس<sup>2</sup> عام 1699م أول هزيمة من نوعها تتعرض لها قوات الإنكشارية، وكانت نتائجه فادحة، فقد خسرت الدولة العثمانية أقاليم واسعة من الأراضي التي كانت تحت سيطرتها<sup>1</sup>، وأبرزت هذه

---

الأقحصاري لقول الله تعالى : و"شاورهم في الأمر" آل عمران الآية159. ونتيجة لتعطيل هذه المؤسسة كما يقول المؤلف فقد " توجه الخلل إلى الأمور ووقع الزلل والفتور " كما لاحظ أن العدالة قد أهملت، وأن السيطرة والضبط قد فقد، لأن الأمور قد أنيطت بغير أهلها " وفي هذا الجواب تنبيه عظيم في هذا الزمان إلى آل عثمان " وثانيهما : الوضع المتردي للمؤسسة العسكرية" بسبب الأزمة الاقتصادية ، إضافة إلى الاستهتار بالعدو، وجمود العقلية العسكرية وعدم الأخذ بالوسائل الحديثة وعدم قبولها للتحديث . ليخلص الأقحصاري " أن الصراع بين دار الإسلام ( الدولة العثمانية ) ودار الحرب ( الدول الأوروبية ) هو صراع عسكري حضاري". الاقحصاري حسن كافي : أصول الحكم في نظام العالم، تحقيق : إحسان صدقي العمدة، الكويت، الطبعة الأولى، 1987م، ص . 54 .

1- بنحادة، عبد الرحيم: "انتقال المعارف العسكرية في العالم المتوسطي قبل عصر التنظيمات" ، أعمال ندوة : انتقال الأفكار والتقنيات في المغرب والعالم المتوسطي، تنسيق: عبد الرحيم بنحادة وعبد الرحمن المودن و محمد الأزهر الغربي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم ، 160، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2009، ص . 25 .

2 كارلوفتس Carlovitz بلدة يوكوسلافية واقعة على نهر الدانوب في الجنوب الغربي من زغرب .

الهزيمة القوة العسكرية لكل من النمسا والروسيا، ويمكن القول بأن رد الفعل العثماني لم يكن بطيئا فالسلطان أحمد الثالث (1703-1730م)، وهو الذي تلقى النتائج المباشرة للخسارة العثمانية كان مدركا بأن أفضل ما يمكن أن تقبل به دولته هو فترة طويلة من السلم مع جيرانها ، وعيا منه بحصول تجاوز عسكري من طرف الآخر الأوروبي لم يعد مقبولا مداراته وإخفاؤه .

يبدو أن الوعي العثماني بهذا الأمر، جاء متأخرا، وبدأ بعضهم يؤمن بأنه إذا لم تستيقظ الدولة ويستفيق المجتمع العثماني معا عاجلا أم آجلا، فسوف ينهاران انهارا كاملا أمام سطوة التقدم الأوروبي، كما حدث أن هزمت الجيوش العثمانية وتلاشت قوتها ومعداتها أمام الأسلحة الحديثة والتقنيات الأوروبية والخطط الحديثة.

## المطلب الثاني: السفارتناميه العثمانية وتجليات الوعي بالتجاوز الحضاري الأوروبي.

في البداية لابد من تسجيل الملاحظات التالية :

- **الأولى:** وتتعلق بندرة وقلة السفر العثماني إلى خارج الأراضي التابعة للدولة العثمانية، والسبب في ذلك يعود إلى العلاقة المتوترة بين "دار الحرب" و"دار الإسلام"<sup>2</sup>. فلا يمكن تصور مسلم في "دار الحرب" خاصة في زمن قوة الدولة الإسلامية، وكتب الأحكام لا تشرع ولا تجيز إطلاقا إقامة مسلم في دار الكفر والسفر إليها<sup>3</sup>.

1 تخلت الدولة العثمانية بعد هذه الهزيمة، وبموجب اتفاقية كارلوفيتس عن بلاد المجر بأجمعها وإقليم ترانسلفانيا لدولة النمسا ، وتنازلت عن مدينة أزازق للروسيا، كما ردت لمملكة بوبونيا مدينة كامينك وإقليمي بودوليا وأوكرين ، وتنازلت للبنديقية عن جزيرة مورا وإقليم دلماسيا ،وبهذه المعاهدة فقدت الدولة جزءا ليس بقليل من أملاكها بأوروبا، وزادت أطماع الدول في بلادها . انظر بتفصيل : محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق: إحسان حقي، بيروت، دار النفائس، الطبعة الثانية، 1961 ، ص. 310.

2 - مصطلح "دار الإسلام" يقصد به البلاد التي تخضع لحاكم مسلم ينفذ فيها أحكام الشريعة الإسلامية أو هي التي تجري فيها حكم إمام من أئمة المسلمين، ويسكنها المسلمون وغير المسلمين من أهل الكتاب والذميين. وتعتبر دار الإسلام شرطا من الشروط في تقرير بعض الأحكام الشرعية. ويقابل هذا اللفظ الاصطلاحي "دار الحرب" ويعني البلاد التي لا حكم فيها للشريعة الإسلامية، أي التي يسكنها غير المسلمين أو التي لا يكون فيها المسلمون آمنين على أنفسهم . كانت العلاقة بين دار الإسلام = ودار الكفر والشرك علاقة حرب بموجبها تتحول دار الحرب شيئا فشيئا إلى دار إسلام إما بواسطة اعتناقها للإسلام أو خضوعها له .

3- يعتبر حكم السفر إلى دار الكفر من القضايا التي استأثرت باهتمام النخبة العالمة و ثم تناوله في الكتب الفقهية إلى غاية القرن الماضي، وذلك لارتباطه بمسألتين هامتين في التشريع الإسلامي وهما : الأمن والعدالة، ويعتبر الرحالة محمد بيرم الخامس من

- **الثانية**، وتعلق بندرة الإنتاج الإسلامي حول دار الحرب سواء في كتب التاريخ أو غيرها والمادة المتوفرة عند المسلمين عن أوروبا قبل القرن السادس عشر، هي مادة هزيلة مستقاة من أفواه الرجال، وحتى الاعتماد على ما كتبه الأوروبيون عن أنفسهم، في هذه النصوص هو من الهزلة بمكان، لا يعود ذلك إلى جهل مثقفي الإسلام باللغات الأجنبية وحسب، بل إلى موقف مبدي من الثقافة غير الإسلامية<sup>1</sup>.

بيد أن هذه المحدودية في السفر إلى "دار الكفر" وإنتاج الفكر عن أوروبا سرعان ما ستعرف تحولا كبيرا في العالم العثماني مع بداية القرن الثامن عشر، عندما وعى العثمانيون بخطر اتساع الهوة بينهم وبين أوروبا، فقد أصبح من اللازم معرفة ما يجري في هذا الغرب الذي أضحي يشكل خطرا على وجود الدولة العثمانية والإسلام، مستشعرين بدايات حدوث تجاوز حضاري من طرف "دار الكفر".

---

الفقهاء الذين اجتهدوا في هذه القضية "فذكر بيرم أن : "الأعمال بمقاصدها فيما أن يكون السفر لمقصد صحيح شرعا كمقصد مصلحة عامة أو مصلحة خاصة لا مندوحة عنها، أو يكون مجرد توسع في المال والتنزه. وعلى كلا الوجهين فالسفر جائز غير أنه يختلف حكمه بالنسبة للمروءة وحفظها حتى تبقى العدالة أو لا تبقى بانعدام المروءة". صفة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، المطبعة الإعلامية، مصر، الطبعة الأولى، 1885م، ج، 1، ص . 15 .

وبعد أن نقل لنا الشيخ بيرم الخامس ما اطلع عليه في المسألة من الفتاوى البيرومية نقلا عن عمه الشيخ محمد بيرم الرابع ، وكذلك في الفتاوى الهندية من كتاب السير ، يستنتج ما خلاصته أن السفر إلى أرض غير المسلمين جائز كيفما كان المقصد على شرط الأمن، وإنما يختلف الحكم بالنسبة للعدالة ، ولا يخفى أن العدالة مدارها على حفظ المروءة والتنزه على الرذائل وسفاسف الأمور، فإذا كان يقتحم الأخطار من السفر المذكور لمجرد الزيادة في التحسينات كالتنعم بالنظر أو بزيادة المال، كان ذلك قادحا في العدالة، وإن لم يكن محرما، وأما إذا كان السفر المذكور لغرض صحيح ولو لتجارة محتاج إليها له خاصة أو لغيره، فهو مع كونه مباحا لا يسقط العدالة أيضا بل له الأجر الأخروي إذا صحح النية وأخلصها التي هي أساس العبادة... ملاحظا أن الأمن الذي هو شرط الجواز، لا يختص بأرض غير الإسلام بل هو شرط أيضا في أي أرض ولو كانت إسلامية.

ثم يجتهد الشيخ بيرم الخامس متجاوزا مسألة الأمن ومستحضرا بعض القواعد الفقهية والأصولية و المقاصدية ليقرر أن القضية المطروحة من قبل الفقهاء القدامى لم يعد لها حضور في الواقع الراهن نظرا لتغير الأوضاع العائلية بشكل جذري، إذ "أهل الأرض الآن مختلفو الصفات والأحوال بعد صعود قوى دولية جديدة غيرت من خريطة المسالك والممالك بنظم ودساتير متطورة مدعومة بقوة حربية هائلة فرضت الأمن في دولها أو في الأقطار التي تهيمن عليها". المصدر نفسه، ص . 16.

1- بنحادة، عبد الرحيم: "بين الرحلة السفارية والتقرير الدبلوماسي، السفارتنامه العثمانية"، أعمال ندوة: التاريخ و الدبلوماسية ، قضايا المصطلح والمنهج ، تنسيق : عبد المجيد لقدوري ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط ، سلسلة ندوات ومناظرات رقم ، 105، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ، الطبعة الأولى ، 2003 ، ص . 103.

## 1\_ تعريف السفار تناميه:

السفارتناميه ليس مجرد رحلات عادية كالسياحتناميه ، فهي تتجاوز النظرة الغرائبية للمجتمع الغربي، والتي نجدها عند رحالة كأوليا جلبي<sup>1</sup> إلى التركيز على الجانب البراغماتي لمنجزات الغرب، أي القيمة التطبيقية للمنجزات التي يتم وصفها . كما أنها ليست تقارير دبلوماسية بالشكل الذي عرفه التقرير الدبلوماسي في نهاية القرن التاسع عشر، فهي وسط بين الرحلة المعروفة والتقرير الديبلوماسي.

أما وظيفتها، فتتجلى في تزويد دائرة ضيقة من النخبة السياسية بمعلومات حول المجالات الموصوفة، وهي أيضا عبارة عن تقرير سري، لكنها تتجاوز قضايا الساعة التي يهتم بها الدبلوماسي إلى تكوين صورة عن البلد الذي زاره المؤلف في زمن محدد الذي هو زمن إقامة السفير<sup>2</sup>.

## 2 - نماذج من السفار تناميه في القرن الثامن عشر .

### أ : سفارة محمد أفندي :

يبدو أن أول من عبر عن بداية تشكل وعي عثماني بحدوث تجاوز حضاري أوربي للمجتمعات الإسلامية، هو السفير محمد أفندي جلبي، الذي أوفده السلطان أحمد الثالث إلى باريس عام 1720م للتعرف على المؤسسات الفرنسية وطبيعة عملها، وما يمكن اكتسابه أو أخذه عنها. وقد استطاع أن يعد تقريرا مسهبا في ذلك، قدم فيه صورة مفصلة عن أوروبا الحديثة، جعلت السلطان يشغف بنمط العيش الفرنسي ويندفع للتقليد<sup>3</sup>.

كانت مهمة أفندي متعددة الغايات، فبالإضافة إلى حمله طلب ترخيص السلطان العثماني أحمد الثالث (1703-1730م) إلى الملك الفرنسي لترميم قبة سان سيبيلكر، على اعتبار أن ملك فرنسا يعتبر حامي مسيحي الشرق، كان محمد أفندي يسعى أيضا إلى تدارس مسألة الأخطار القرصانية المالطية على السفن العثمانية العابرة للبحر الأبيض المتوسط، كما أن السفارة كانت تهدف إلى توثيق الصلات مع فرنسا لتطويق الأخطار التي كان يمارسها الهابسبورغ<sup>4</sup> على الدولة العثمانية، وإلى جانب هذه المهام عهد الصدر الأعظم إبراهيم باشا إلى

---

1- يعتبر أوليا جلبي أحد الرواد البارزين في كتابة الرحلة التركية بل ويسميه البعض بابن بطوطة التركي. وكان أوليا جلبي، الذي ولد سنة 1611م مولعا بالسفر منذ شبابه وتمكن من تدوين رحلاته في عشرة مجلدات تميزت بالدقة في الوصف وبالتسلسل الزمني وإن جنحت في كثير من الأحيان إلى الخيال .

2- بنحادة : "بين الرحلة السفارية والتقرير الدبلوماسي.."، مرجع سابق، ص . 104.

3-زيادة : تطور النظرة الإسلامية...، مرجع سابق، ص . 53.

4- يطلق هذا المصطلح تاريخيا على دولة النمسا .

السفير محمد أفندي بمهمة زيارة القلاع والمعامل والقيام بدراسة معمقة لوسائل التحضر والتربية وكتابة تقرير عن تلك التي يمكن أن تطبق في تركيا<sup>1</sup>.

يعتبر كتاب محمد أفندي<sup>2</sup> أول المحاولات للتحري ومعرفة حقيقة الغرب من مثقف عثماني، كما يشخص ويجسد مدى تأثير النخبة العثمانية بأوروبا. وظهرت إلى حد الآن خمس طبعات منه<sup>3</sup>، وهذا يدلنا بلا شك على مدى الاهتمام بالكتاب والموضوع الذي احتواه .

لقد كان لسفارة محمد أفندي إلى باريس أثرا كبيرا في نقل صورة التقدم الأوربي إلى النخبة العاملة والحاكمة معا في استانبول العثمانية، وقد انصب اهتمام الطبقة الحاكمة العثمانية التي استمعت إليه على مسألتين: التنظيم العسكري وتطور الأسلحة من ناحية ، والتقدم العمراني من ناحية أخرى.

يقدم محمد أفندي في كتابه وصفا لمدين فرنسا التي مر بها قبل وصوله إلى باريس، مثل تولوز الكبيرة جدا والمعروفة، بواتيه بقلعتها الخربة، وأورليان التي هي من أجمل ديار فرنسا.

يلاحظ السفير محمد أفندي العادات والعلاقات بين الرجال والنساء مشيرا إليها بقوله : "في فرنسا يكن الرجال الكثير من الاحترام للنساء؛ بحيث إن النساء يفعلن ما شئن وأوامرهن تطاع في كل مكان، أو قد قيل إن فرنسا هي جنتهن، لأنهن يعشن منعتات من كل تعب. وإذا رغبن في شيء حصلن عليه بسهولة"<sup>4</sup> .

لكن أهم من هذه الملاحظات التي يذكرها، وصفه للقوة العسكرية وللتنظيم العمراني، وهي الأمور التي تمهه أكثر من أي شيء آخر، وبالنسبة للقوة العسكرية الفرنسية يلخص بعدة أوصاف منوعة. "ينبغي أن أقول بأنني رأيت فرقا جميلة جدا ورائعة جدا وقوية جدا". أما بالنسبة للتنظيم العمراني فيسهب في وصف القصور الملكية كفرساي ومارلي وسانكلو وغيرها، كما يتحدث عن التقدم العلمي فيتحدث عن المانيفكتورات ومن بينها مانيفكتورة لصنع القماش فيها 550 عاملا، وأخرى لصنع الزجاج، يعمل فيها ألف عامل، ويتحدث عن زيارته

---

1- بنحادة: "بين الرحلة السفارية والتقرير الدبلوماسي..". ، مصدر سابق ، ص 109.

2 - Relation de l'ambassade de mehemet effendi à la cour de France en 1720.à paris 1757

3- طبع مرتين ضمن تاريخ راشد في 1740م و 1865، ثم طبع مستقلا في 1866 و 1899، وقام علي سعاوي بطبعه في باريس عام 1873 م .

4- أوجاق، أحمد بشار: الدولة العثمانية، تاريخ وحضارة، دراسة أولية عن الحياة الفكرية خلال عهد التغريب، إشراف وتقديم : إكمال الدين إحسان أوغلي، ترجمة: سعيد سعادوي، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، استانبول، 1999 ، ص . 268.

للمرصد الذي أمر ببنائه لويس الرابع عشر، وأشرف عليه الفلكي الإيطالي كاسيني، يقول محمد أفندي: "يوجد برج كبير من الحجر بعلو ثلاثة طوابق في كل منها عدد من الفرق مليئة بآلات لا تحصى، واحدة خاصة بالفلك ورصد النجوم، وغيرها لتسهيل الأعمال ولمعرفة القمر الجديد ورفع الماء من أسفل إلى أعلى، وأشياء أخرى مذهشة وعجيبة"<sup>1</sup>.

إن الطريقة التي يتبعها محمد أفندي في كتابته لتقريره هي في عقد مقارنات بين مشاهداته في باريس وفرنسا عامة، وبين ما يماثلها في استانبول، إننا إزاء عالين مختلفين، وهذا ما كان السفير مقتنعا به إقتناعا تاما. والواقع أن تقرير السفير نقل صورة مفصلة ودقيقة عن العمران في باريس بصفة عامة، وخصوصا ما يتعلق ببناء القصور، "فنشطت همه السلطان ووزيره لتقليد بناء القصور الفرنسية خارج استانبول والميل إلى حياة الترف، مما جلب سنة 1730 نهاية عهده بعد ثورة احتجاج قامت بها العامة في العاصمة"<sup>2</sup>. كما أبرز التقدم والتطور العسكري والاقتصادي بأوربا مستشعرا، ومعه النخبة العثمانية، بدايات حصول تجاوزه حضاري من طرف الغرب .

من أبرز نتائج وامتدادات سفارة محمد أفندي إلى باريس إدخال المطبعة إلى إستانبول، والتي ستكون أول مطبعة في العالم الإسلامي، ولم يكن افتتاح المطبعة بالأمر السهل، فقد استلزم سلسلة من التحضيرات لإقناع المسؤولين، ومن بينهم شيخ الإسلام وعلماء الدين بفائدة إقامة مطبعة في البلاد الإسلامية . فكتب إبراهيم متفرقة<sup>3</sup> عام 1726م رسالة بعنوان : "وسيلة الطباعة"، رفعها إلى الصدر الأعظم وشيخ الإسلام حول ضرورة إدخال هذا الفن إلى البلاد العثمانية، ولم يصدر الفرمان بافتتاح المطبعة إلا بعد موافقة شيخ الإسلام الذي اشترط عدم طباعة الكتب الدينية بكل فروعها، كما عين شخصين لغرض الرقابة على منشورات المطبعة، أما الشخص الذي عين لإدارة أعمال المطبعة فكان إبراهيم متفرقة نفسه الذي كان شخصية متعددة المواهب، لها أثر هام في النصف الأول من القرن الثامن عشر وخصوصا في مجال الدعوة إلى التحديث والانفتاح على أوربا، ومن بين أبرز كتب

---

1- نفس المرجع ، ص . 269.

2- سيار، جميل: تكوين العرب الحديث ، دار الشروق للنشر والتوزيع ، عمان ، الطبعة الأولى، 1997 ، ص . 334 .

3- إبراهيم متفرقة، توفي سنة 1745م، الهنغاري الأصل، وفد إلى الدولة العثمانية في سن العشرين، بعد أن اعتنق الإسلام وألف رسالة فيه بعنوان "الرسالة الإسلامية" واضطلع بعدة مهام دبلوماسية بما في ذلك المفاوضات مع النمسا والروسيا، كما اقترن اسمه بالأفكار والمشاريع الإصلاحية العثمانية المهمة في مطلع القرن الثامن عشر .

المطبعة كتاب مكون من 96 صفحة من تأليف إبراهيم متفرقة نفسه، أما اسم الكتاب فهو " أصول الحكم في نظام الأمم" أصدره عام 1731م. وأهم الأفكار الواردة فيه، نقلا عن مجموعة من الكتابات التي أرخت للدولة العثمانية في القرن الثامن عشر، هي :

أ: الحاجة إلى الحكومة القوية.

ب : الحاجة الملحة إلى القضاء على غرار الدول المؤسسة على القانون الطبيعي.

ت : الحاجة إلى القوة المسلحة لسلامة وحفظ الدول.

ث: ضرورة معرفة العلم الجغرافي لخوض المعارك وكسبها وإعداد الخرائط والأطالس في سبيل ذلك.

ج: بيان النظام العسكري الأوربي المسيحي.

وعليه، فقد استأثر الجانب العسكري في كتاب إبراهيم متفرقة باهتمام كبير، ولا غرو في ذلك ، فكتابه جاء في ظرفية تاريخية صعبة، بعد الهزائم العسكرية التي منيت بها الدولة العثمانية أمام الجيوش الأوروبية، فهو يشدد في كل صفحات كتابه على هذه الناحية، أو النواحي المتصلة بها والمتفرعة عنها، وتحت عنوان: بيان احتياج الدول في بيان أحكام دولتهم وبقاء نظام أحوالهم إلى ترتيب عساكرهم: يقول: "إن جيشا مرتبطا بخدمة الأمير والدولة، مأمورا ومنظما بالوسائل الجيدة وقوانين الحرب ومدعما بكل الأسلحة الدفاعية والهجومية ، هو سبب رئيس لقوة الدولة ومصدر كل تقدم وحافظا للملكية"<sup>1</sup>.

لذا يمكننا أن نعتبر كتاب إبراهيم متفرقة محاولة فكرية جادة للفت إلى التطورات التي لحقت بالعالم في مجالات متعددة، وتوضيح موقع الدولة العثمانية من ذلك التطور.

لقد نبه إبراهيم متفرقة في كتابه إلى ظهور عالم جديد متطور في أوربا، جديد في رقعته الجغرافية المتسع باستمرار في تقنياته العسكرية والاقتصادية وفي ممارساته السياسة وحتى في مناظراته الدينية. وأشار إلى ذلك بقوله : "أشد ما دفعني إلى هذا الذي فوق طاقتي وأبعد من حدود عقلي، هو هذا الشعب المسيحي النجس<sup>2</sup>، إذ كان منخفضا جدا عن المسلمين في العدد وطبيعة جسمه وعقله وهو من جنس بائس أيضا... لكن منذ

---

1- زيادة : تطور النظرة .. مرجع سابق، ص . 53 .

2- يقصد الأوربيين مقارنة مع المسلمين.



بضع سنين انتشروا في كافة أرجاء العالم، فلم يسيطروا على بعض المقاطعات فحسب، بل انتصروا مرات عديدة على الجيوش العثمانية"<sup>1</sup>.

وقد علل تلك الانتصارات ب"تطوير المبادئ والقواعد المبتكرة منذ وقت قصير، والمستخدمة في جيش الملوك والأمم المسيحية، والتي جهزت مؤخرا بملتقات [كذا] جديدة مختلفة تماما عن القديمة، ومجهزة بآلات وأسلحة جديدة، مما يجعل القواعد والحصون القديمة عديمة الجدوى."<sup>2</sup>

كما أظهر إعجابه المتكرر بمهمة ونشاط الأوربيين قائلا : "هذه الشعوب المستفيدة دائما من تكاسل المسلمين وعدم اهتماماتهم بمعرفة أعدائهم المقربين أكثر من حدودنا."<sup>3</sup>

حاول إبراهيم متفرقة أن يميز بين فساد دين الأوربيين المسيحي، وبين فعالية العلوم الصادرة عنهم وعن تجارهم الحديثة وتوظيفهم للعقل، ويرى إبراهيم متفرقة أن كفر الأوربيين لم يمنعهم من بلوغ مرتبة أعلى من القوة والتقدم الذي بلغه المؤمنون والمسلمون، ومن ثم يعد كتاب "أصول الحكم" في نظام الأمم أول محاولة نظرية تطرح مسألة الاقتباس والاستفادة من علوم أوربا العسكرية والإدارية، وضرورة اكتساب التقنيات الحديثة.

كما انتقد العقلية العثمانية الجامدة والمغلقة، وقارن بين حرمان الأوربيين من مصدر الوحي والإلهام، لكنهم عملوا من أجل بناء حياتهم، واخترعوا النظريات القتالية التي مكنتهم من هزيمة العثمانيين بالاعتماد على العقل. فمن الواضح إذن أن في كلام إبراهيم متفرقة دعوة ضمنية للأخذ بالتقنية الغربية ، وعيا منه بحدة الفارق الحضاري واختلال موازين القوة لصالح أوروبا ، وبالقوة العسكرية التي أضحي الغرب يمتلكها.

ومن أفكار إبراهيم باشا ، التي أخذت طريقها إلى التنفيذ أيضا، اقتراحه على السلطان العثماني أحمد الثالث إصلاح الجيش وتطويره والاستفادة من خبرات ضباط أوربيين<sup>4</sup>، هذه الفكرة التي تجسمت وترجمت في عهد السلطان محمود الأول ( 1730 - 1745م ) حيث وقع انتداب ضباط فرنسيين، مثل الكونت دو بونفال، الذي اعتنق الإسلام وحمل اسم أحمد الخومباراجي، فكان أول خبير أجنبي يعهد إليه بمهمة التحديث.

---

1- نفس المرجع ، ص . 54

2- نفس المرجع ، ص. 63

3- زيادة : المسلمون والحداثة الأوربية، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، 2010 م. ص 64.

4 - سيار : المرجع السابق ، ص . 336.

وأنشأ مدرسة للمهندسين، كانت تسمى "هندسة خانة"، لتخريج فنيين في المدفعية سنة 1734م، وقد أغلقت هذه المدرسة تحت ضغط العلماء وجيش والانكشارية<sup>1</sup> سنة 1750م.

### ب - سفارتي محمد درويش وأحمد رسمي أفندي في عهد السلطان مصطفى الثالث.

يبدو أن العثمانيين تفتنوا لضرورة "التحيين" أي متابعة نسق التطور في الغرب، وذلك بتدبير السلطان مصطفى عثمان الثالث ( 1757\_1773م)، لمجموعة من السفارات إلى أوروبا، حيث بعث محمد درويش أفندي إلى بطرسبورغ سنة 1757م . ويمكننا أن نقدر أن هدفها كان مزدوجا : إعلام الإمبراطورية بصعود سلطان جديد، ومحاولة تحسين العلاقات مع الروس، لكنه في تقريره لا يتحدث عن هذه المسائل، وإنما يسترسل في عرض مشاهداته فقط، ويمكن تلخيص اهتماماته في ثلاث مسائل، الحياة الاجتماعية والعمران والتقدم العسكري، وبالنسبة للحياة الاجتماعية فقد لفتت انتباهه حرية الاختلاط بين النساء والرجال والحفلات الراقصة التي تقام في قصر الإمبراطورة، وبالنسبة للعمران، لاحظ على سبيل المثال أن "المكان الذي تقوم فيه بطرسبورغ كان من قبل غابات ومياها، وقد رأى القيصر بطرس أن هذا المكان ملائم جدا فبنى فيه المدينة، فاختمت الغابات وردمت المستنقعات، ورفعت البيوت على ضفاف النهر وسقفت بالقرميد أو بالصفائح، وغير بعيد عن النهر توجد ترسانة تبنى فيها السفن المخصصة لخدمة الإمبراطورية والعامّة، وبما أن نهر النيفا يتصل ببحر البلطيق، فهذه المدينة لا تكف عند تقديم مشهد قلاع السفن التي تخصص للبلدان المجاورة." <sup>2</sup>

أما الناحية العسكرية، فتتجلى في وصفه للترسانات. "...وفي اليوم التالي زار السفير الترسانة وشاهد خمسا وعشرين سفينة حربية، وقد سأل السفير الأشخاص الذين أحاطوا به، أين تستخدم هذه السفن؟ فأجابوا: في بحر البلطيق أولا. ومن هنا تمخر المحيط لتدريب جيشنا في الفن البحري" <sup>3</sup>.

---

1- الإنكشارية : طائفة عسكرية من المشاة العثمانيين شكلوا تنظيما خاصا لهم ثكناتهم العسكرية وشاركتهم ورتبهم وامتيازاتهم، وكانوا أقوى فرق الجيش العثماني وأكثرها نفوذا. لا يعرف على وجه الدقة وقت ظهور هذه الفرقة، وقد أرجع بعض المؤرخين إلى عهد السلطان العثماني أورخان الأول سنة 1324م، اعتمادا على ما كان يسمى ب"ضريبة الغلمان"، التي كانت تقضي بأخذ عدد معين من أبناء البلدان المفتوحة في شبه جزيرة البلقان كضريبة .

2- برنار، لويس: اكتشاف المسلمين لأوروبا، ترجمة وتحقيق : ماهر عبد القادر، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، الطبعة الأولى ، 1996م، ص 148.

3- نفس المرجع ، ص . 150 .

كما قدم محمد درويش أفندي الذي سيزور بطرسبورغ مرة أخرى عام 1774م، فكرة عن التحديث الروسي في عهد كاثرين الثانية، والتقدم الذي أحرزته في منتصف القرن الثامن عشر.

كما بعث مصطفى الثالث أحمد رسمي أفندي<sup>1</sup> (1700-1785م) إلى فيينا لإخبار قائدها بصعود سلطان جديد إلى عرش بني عثمان، وبمجرد عودته أرسل إلى برلين سنة 1763م. ومنه نستشف أن أحمد رسمي أفندي كان الدبلوماسي المتخصص في المجالات الشرقية لأوروبا. وبالمناستين كتب تقريرين سفاريين أحاطهما بعناية فائقة، وهاتان التجريتان هما ما جعلتا أحمد رسمي أفندي ملما بالقضايا الأوربية إلى درجة أنه ألف في الأوضاع الأوربية كتابا بعنوان "خلاصة الاعتبار"<sup>2</sup> يتحدث فيه عن الحرب في البلقان. وفي هذا الكتاب الذي هو أكبر من مجرد عرض للأحداث، يحاول أحمد رسمي أن يشرح ويفسر أسباب صعود روسيا إلى مسرح التاريخ في نفس الوقت الذي تدهورت فيه القوة العثمانية، وضعف الحضور العثماني، وفي كتابه الذي هو نوع من التحليل التاريخي ينتقد أحمد رسمي جهل وتكبر المحافظين العثمانيين، ويعتبرهم المسؤولين عن اندلاع الحرب وعن خسارتها أيضا، وكان أحمد رسمي هو أول من تعرض بالنقد للأسطورة العثمانية القائلة بأن الأتراك قد رصدوا لهزيمة المسيحيين بغض النظر عن عددهم وقوته. أما النتائج التي توصل إليها فإنها تسمح بالبحث عن قيم جديدة خارج النظرة الدينية، والتي تؤدي إلى تفهم أكثر عقلانية للأحداث، فقد أشار إلى أن القوة العثمانية قد تلاشت ولم يعد من الممكن مجابهة الدولة الروسية التي تملك ثروات مادية هائلة، وإمكانات قوية في المجال العسكري<sup>3</sup>. ويخلص إلى ضرورة إتباع سياسة تسامح تجاه الأمم غير المسلمة، ويعتبر بأن الاختيارات السياسية ينبغي أن تتخذ بعيدا عن الحماس الديني، ويدعو هنا إلى اعتماد الطرائق المعروفة في الدولة غير المسلمة.<sup>4</sup>

---

1- ولد أحمد رسمي أفندي ، في ريسمون في جزيرة كريت في جزيرة كريت في حدود سنة 1700م، وغادرها نحو استانبول التي استقرها بها في سنة 1733، وبها أكمل تكوينه العلمي، تقلد مناصب عديدة في مدن مختلفة قبل أن يوفد إلى فيينا في مهمة سفارية سنة 1757، وقد ساهم أحمد رسمي أفندي إلى رحلته في كتابة التراجم فكتب "حديقة الرؤساء" في سنة 1744، ترجم فيها لحوالي 64 علما. كما ساهم في كتابة الوفيات وخصص كتابا لوفيات الأعيان، رجالا ونساء في استانبول . انظر، بنحادة عبد الرحيم ، "بين الرحلة السفارية والتقرير الدبلوماسي.."، مرجع سابق ، ص . 112.

2- مخطوط في المكتبة الوطنية في باريس، رقم ، 1180.

3- تمكنت الدولة الروسية بفضل قوتها العسكرية من احتلال إقليم الأفلاق والبغدان، كما نجحت في اقتحام بلاد القرم والسيطرة عليها، وذلك عام 1771م. انظر ، ياغي، أحمد اسماعيل، المرجع السابق ص . 122.

4- أوجاق : المرجع السابق، ص. 268 .

فمع أحمد رسمي أفندي توضح لنا أن تبديلاً عميقاً قد طرأ على النظرة التقليدية الإسلامية إلى أوروبا. إذ إن العالم لم يعد مقسوماً إلى "دار حرب" و "دار إسلام" بقدر ما هو مقسوم إلى عالم قوي وعالم يتأكد ضعفه. لذا طرحت المشاريع الإصلاحية من طرف النخب العثمانية مؤكدة على ضرورة الاقتباس والتفاعل الحضاري مع المجتمعات الغربية.

امتداداً لسفارة أحمد أفندي، شرع مصطفى الثالث في حركة الإصلاح العسكري على النموذج الأوروبي عاملاً بنصائح سفيره أحمد أفندي، حيث استعان السلطان بعدد من الخبراء والضباط الأوربيين لتدريب فرقة المدفعية، وكان في مقدمتهم الفرنسي دي توت<sup>1</sup>، وقد فتح استخدام هذا الأخير، كما أشار إلى ذلك خالد زيادة<sup>2</sup> نافذة واسعة لدخول المؤثرات الأوروبية إلى داخل استانبول، وكان مجرد استخدامه مع معاونيه من الضباط دلالة على تبدل النظر إلى مسيحي أوروبا، فالبارون دو توت كان أول مسيحي، دون أن يدخل في الإسلام، يستخدم في مجال حساس<sup>2</sup>.

### ج: سفارة مصطفى أفندي في عهد سليم الثالث :

في عهد سليم الثالث ( 1204-1222هـ ) ( 1789-1807م )، أرسلت رحلة سفارية مهمة على رأسها مصطفى أفندي Mustafa effandi إلى فيينا، عاصمة النمسا، والذي أنجز تقريراً من خمسمائة صفحة، وقد تضمن برنامجاً للإصلاح، يقوم على استلهام الأنظمة الحديثة المعروفة في أوروبا. إن التقدم التقني الذي انشغل به السفير محمد أفندي، هو نفسه الذي ركز عليه مصطفى أفندي، الذي ترك وصفاً دقيقاً لأكاديمية لندن، كما زار مرصد فيينا، وحضر التجارب الأولى للكهرباء، كما حضر التجارب الأولى للتصوير في العاصمة النمساوية. وكانت الطريقة التي وصف بها هذه التقنيات دقيقة جداً تعبر عن الرغبة في

---

1- دي توت مجري الأصل، عمل ضابطاً في الجيش الفرنسي، وفد إلى الأستانة في عام 1755، لتعلم اللغة التركية، ثم عمل لما يقرب من عشر سنوات مبعوثاً للسفارة الفرنسية في شتى أنحاء المشرق. عينه مصطفى الثالث مستشاراً للإصلاحات العسكرية، وظل يواصل عمله حتى عام 1776، ومن الأعمال الهامة التي أنجزها دي توت إنشاؤه في عام 1774، فرقة جديدة للمدفعية سريعة الطلقات تضم 250 جندياً وضابطاً، كما قام بتدريب الفرقة على أساليب استعمال المدفعية الحديثة، كما بنى مصنعاً لهذه المدافع، وأنشأ مدرسة للرياضيات الحديثة. أحمد، عبد الرحيم مصطفى، أصول التاريخ العثماني، القاهرة، دار الشروق، الطبعة الأولى، 1982م، صص . 171\_ 172 .

2- زيادة : المسلمون والحداثة الأوروبية، مرجع سابق، ص . 36 .

معرفة كيفية التوصل إليها، وقد بدت هذه الرغبة في كثرة الأسئلة التي كان يطرحها أعضاء الوفد العثماني كلما قدمت إليهم هذه التقنيات.<sup>1</sup>

امتدادا لهذه السفارة، التي ركزت على التجاوز العلمي الأوروبي للمجتمعات الإسلامية، ونتيجة لتشكّل هذا الوعي لدى النخبة العثمانية العاملة والحاكمة معا، والتي كانت تنظر بأسى إلى تفوق أوروبا في المجالات العسكرية والتقنية، آمن السلطان سليم الثالث بضرورة الإصلاح والاستفادة من التجربة الغربية الأوربية. ولتنفيذ سياسته الإصلاحية شكّل سليم الثالث مجلسا استشاريا ضم في تشكيلته عددا من أفراد النخبة العاملة، ممن أدرك منهم حدة الفارق وخطورة التحولات والتغيرات في موازين القوة، لمناقشة الإجراءات الإصلاحية في الدولة وكيفية تنفيذها بعيدا عن مراقبة العلماء المعارضين للتغيير وقوات الانكشارية. وكان يطالبهم دوما بإعداد برامج وأفكار و تقديم مقترحات.<sup>2</sup>

وعلى الرغم من معارضة الانكشارية، كان السلطان مؤمنا بمحركته الإصلاحية التي شملت مجالات متعددة في مقدمتها الإصلاح العسكري، حيث اتجه لتطوير سلاح المدفعية وإصلاح نظمها، واستخدام الخبراء الأجانب من دول مختلفة، وفي مقدمتها فرنسا، كما اهتم السلطان بإنشاء المدارس والمعاهد التعليمية، عملا بنصائح ومقترحات سفيره مصطفى أفندي، فأعاد تنظيم مدرسة الهندسة تحت إدارة فرنسية وانكليزية، تدرس فيها المواد العلمية كالحساب والهندسة والجغرافيا والجبر وحساب المثلثات، كما كانت تدرس فيها مواد التاريخ واللغات، وذلك وعيا من السلطان سليم الثالث بأهمية هذه العلوم في اللحاق بأوروبا والخروج من المأزق الحضاري الذي تهاوت فيه الدولة العثمانية. وفي هذا الصدد يحدثنا سيد مصطفى<sup>3</sup> أحد رواد الإصلاح في فترة سليم الثالث، عن هذه الخطوات الإصلاحية والصعوبات التي واجهتها، وموقف العامة السليبي وغير المتجاوب قائلا: "بدأنا بالعمل بين الجمهور، وكانت هي المرة الأولى التي يسمع فيها الناس الجهلة في استانبول دروسا عامة في الرياضيات، ورأوا فيها أعمالا هندسية في الملأ، لكن صوت العجز والجهل ارتفع من كل الجهات، فقد أرهقونا واضطهدونا تقريبا،

---

1- نفس المرجع ، ص. 37 .

2 - أحمد، عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق ، ص . 177.

3 \_ سيد مصطفى، ولد باستانبول ، ومال إلى دراسة العلوم والرياضيات منذ صغره، اشتغل مدرسا للرياضيات في مدرسة الهندسة، كما أشرف على تعليم القوات الجديدة التي أنشأها سليم الثالث .

وكانوا يصرخون قائلين : لماذا تضعون هذه الخطوط على الورق، وماهي الفائدة التي تعتقدون أنكم ستجنونها ؟ الحرب لا تصنع بالبركار والخطوط ، وألف عبارة مشابهة أرادوا بها إذلالنا".<sup>1</sup>

غير أن سليم الثالث، لم يلبث أن صادف متاعب وعقبات كثيرة في بلاده، إذ انضم العلماء والفقهاء العثمانيون إلى جماعة الانكشارية في معارضة النظام الجديد، وكان العلماء المعارضون يرون أن كل مايرد من النصارى مضاد للإسلام، وكانوا يرددون الحديث الشريف : **"كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار"**<sup>2</sup>. كما أن الاقتباس في نظرهم من المخالف هو تشبه بهم مرددين الحديث الشريف **"من تشبه بقوم، فهو منهم"**<sup>3</sup>.

وقد أثرت هذه الأقوال وغيرها على عقول الناس، "وانفسح المجال لدسائس ومؤامرات الوصوليين من رجال الدولة، وانتهى الأمر بأن ثار الانكشارية عام ( 1806 - 1221هـ) وحاصروا قصر السلطان وأرغموه على إلغاء "النظام الجديد" وإعدام مؤيديه من رجال الدولة، كما أرغموا الفرق الجديدة على الانسحاب إلى آسيا الصغرى، ولم يكتف الإنكشارية بذلك، بل استصدروا فتوى من شيخ الإسلام بوجوب عزل السلطان، وعزلوه بالفعل في عام ( 1807 - 1222هـ ) حتى لا يتركوا له فرصة إحياء النظام الجديد"<sup>4</sup>.

هكذا نلاحظ مع السفارتنامة الى أوروبا في القرن الثامن عشر، حصول تطور في معرفة العثمانيين لأوروبا، نتيجة للاتصالات المباشرة والصراعات المتعاقبة، كما اتضح لنا أن تبديلاً عميقاً قد طرأ على النظرة التقليدية الإسلامية إلى أوروبا.

وإذا علمنا أن البلدان العربية كانت في هذه الفترة تابعة للدولة العثمانية، حق لنا التساؤل عن الصدى الذي يمكن أن تكون قد خلفته هذه المحاولات الفكرية للنخبة العثمانية في أرجاء الدولة العثمانية والولايات العربية التابعة لها؟ هل هناك قرائن تاريخية تدل على وجود تواصل فكري أو ثقافي أو سياسي سمح بنقل الأفكار الأساسية

---

1 \_ زيادة : الإصلاح العثماني في القرن الثامن عشر ، نقد حالة الفن العسكري والهندسة والعلوم في القسطنطينية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، 1979، ص . 59 .

2 \_ أخرجه أبو داود في سننه، والحاكم في المستدرک من حديث العرباض بن سارية، دون ذكر "وكل ضلالة في النار" .

3 \_ أخرجه أبو داود في سننه، وابن حبان في بلوغ المرام عن عبدالله بن عمر، والطبراني في المعجم الأوسط عن حديفة بن اليمان، وصححه الألباني في صحيح الجامع.

4- حراز، رجب :الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب، جامعة الدول العربية، القاهرة، الطبعة الأولى، 1970 ، ص.714.

الواردة في التقارير السفارتنامة إلى الولايات العربية، لتطلع عليها النخبة العربية قبل الاصطدام العسكري والحضاري مع أوروبا من خلال حدث الحملة الفرنسية على مصر سنة 1798م؟ هل اطلع رواد أدب الرحلة العربية خاصة على هذه التقارير واستفادوا منها في كتابة نصوصهم الرحلية؟.

## المبحث الثاني : الرحلة المصرية الى أوروبا .

لقد فرض التاريخ أن تكون بداية الرحلات العربية إلى أوروبا من مصر، التي سبقت غيرها من الدول العربية في استشعار التجاوز الحضاري الغربي من خلال الحملة الفرنسية وصدمة التجربة المعرفية المصاحبة لها. فربما كان أهم ما تركته مدافع نابليون بونابرت، من أثر في الوعي العربي العام في آخر القرن الثامن عشر أنها نبهت هذا الوعي إلى تخلف العالم الذي يعيش فيه وضرورة تغييره، ولذلك طرح سؤال التخلف نفسه بقوة على هذا الوعي في موازاة الهزائم المتلاحقة، وكان السبيل إلى الإجابة الموجبة –من وجهة نظر أصحابها في ذلك الوقت- مقترنا بضرورة الرحيل إلى أوروبا والتعرف على حضارة الغرب، الذي تقدم وانتصر، وصنع نموذجاً حضارياً، أخذ يخاليل العقول بمخترعاته المادية، ويجتذب العقول بلوازمه الثقافية والاجتماعية والسياسية.

**المطلب الأول : الحملة الفرنسية على مصر وتنامي الرغبة في معرفة الآخر.**

شهدت مصر سنة 1798م حملة نابليون بونابارت (1769-1821) العسكرية، والتي لقيت مقاومة من المماليك، سرعان ما انهارت في أول مواجهة بين جيشه العصري وجيوشهم التقليدية الغير المنظمة والمعتمدة على أسلحة أثرية من الزمن الغابر، تنتظر من يدفعها إلى عالم الذكريات ومتحف التاريخ، ولكن لقيت هذه الحملة العسكرية البونابرتية كذلك مقاومة شعبية، استمرت نارها مشتعلة حتى اضطرت ودفعت بونابرت إلى الرحيل عن مصر، هربا من المواجهة والهزيمة، كما اضطرت جيشه إلى الانسحاب في 15 أكتوبر 1801م.

لقد شاهد المصريون بفنائهم كافة مدى تقدم الأوربيين، وهذا ما أشار مباشرة إلى تخلفهم العظيم في مقداره، وكان من الحق أن يقال عن تلك الحملة "أنها فتحت أبواب العالم العربي على الحضارة الغربية الحديثة" بما اشتملت عليه من مبادئ سياسية وأنظمة إدارية وعلوم وآداب وفنون وطباعة وصحافة وغيرها، ورافق نابليون بونابرت في حملته هذه، فريق من العلماء الفرنسيين في الرياضيات والهندسة والطب والجغرافيا، وجلب معه مطبعتين إحداها فرنسية والأخرى عربية، ولما استقر به المقام في مصر أنشأ الدواوين وغرضه منها، "تعويد أعيان مصر على نظم المجالس الشورية وأساليب الحكم"<sup>1</sup>.

كما أسس مجمعا علميا على غرار المجمع الفرنسي، من أجل البحث والدراسة في موضوعات الطبيعة والصناعة والتاريخ، وكان المجلس مؤلفا من ثمانية وأربعين عضوا موزعين على أربعة أقسام هي: الرياضيات، العلوم الطبيعية، الآداب والفنون، الاقتصاد السياسي.<sup>2</sup>

وأنشأ مرصدا ومتحفا ومخبرا، وأقام مسرحا للتمثيل وأصدر جريدتين باللغة الفرنسية هما Le décad Egyptien، وهي جريدة اقتصادية خصصت لنشر أبحاث المجمع العلمي المصري، وتصدر كل عشرة أيام، وجريدة Le courrier d’Egypte الناطقة بلسان السلطات الفرنسية وكانت تصدر مرة كل أربعة أيام، كما أصدر جريدة عربية أطلق عليه اسم " التنبيه " أشرف عليها إسماعيل الخشاب<sup>3</sup> الموالي للاحتلال لنشر بيانات

---

1- عمارة، محمد : رفاعة الطهطاوي، رائد التحديث في الوطن العربي، بيروت، دار الوحدة، الطبعة الأولى، 1984، ص. 36.

2- المحافظة، علي: الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى، 1983، ص . 23 .

3- إسماعيل الخشاب هو أحد شيوخ الأزهر، استعان به الفرنسيون زمن الحملة حتى خروجهم من مصر، أصدر جريدة التنبيه لشرعنة الاحتلال وتزيين صورته والتفخ في أعماله ومنجزاته وإقناع المصريين بعدم جدوى المقاومة .



بونابارت بالعربية على الناس".<sup>1</sup> ولقد كانت الصحافة وسيلة جديدة تماما على المصريين، فلم يعرفوا قبلها من وسائل الإعلام إلا الوسائل الشفهية التي كانت شائعة قبل اختراع المطبعة، مثل المنادي في الطرق، والإذاعة عن طريق ممثلي السلطات أو العلماء والفقهاء من منابر المساجد وفي غيرها من أماكن العبادة وبخاصة في أوقات الصلاة الجامعة .

قصت علينا المصادر التاريخية نبأ تلك الصحف التي طبعتها سلطات الحماية بالعربية، وجعلتها أداة ووسيلة تديع منها على أبناء البلاد الخبر والرأي، فمؤرخنا عبد الرحمن الجبرتي سجل أكبر عدد من النصوص العربية لهذه المنشورات التي كان يطلق عليها أحيانا "مناشير" وأحيانا "فرمانات"، فضلا عن أنه لخص مضمون بعض ما فاته أن يسجله كاملا منها. والشيء نفسه قام به معاصره **نقولا الترك**، حينما سجل نصوصا عديدة من المنشورات العربية، وإن كان في ذلك أقل دقة وتفصيلا وموضوعية من الجبرتي .

لقد نظرت النخبة المشرقية إلى نفسها وواقعها مرة، وإلى الحملة الفرنسية وما جلبته معها مرات، متأملة، متسائلة، حائرة، فاندعشت وأعجبت بالعلوم والأفكار والصناعات الحديثة، واستشعرت حدوث تجاوز حضاري أوربي للأمم الوسط المنعوتة في القرآن بالخيرية، وعبرت عن ذلك بكل جرأة، حيث صدرت عن هؤلاء مواقف تثبت تشكل الوعي لديهم بهذا "المتغير الحضاري الهام".<sup>2</sup> ثم أخذت تقول على لسان الشيخ حسن العطار<sup>3</sup>:  
"إن بلادنا لا بد أن تتغير أحوالها، ويتجدد بها من العلوم والمعارف ما ليس فيها".<sup>1</sup>

---

1- لمزيد من المعلومات عن هذه الصحف، ينظر : الصاوي، أحمد حسين : فجر الصحافة في مصر، دراسة في إعلام الحملة الفرنسية، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، الطبعة الأولى، 1975م .

2- حواش، محمد : "منظومة القيم الغربية وبعيون إسلامية زمن الحملة الفرنسية على مصر وبدايات الوعي بالتجاوز الحضاري"، أعمال ندوة، سؤال الأخلاق والقيم في عالمنا المعاصر، سلسلة ندوات الرابطة المحمدية للعلماء ، رقم، 4 ، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، الرباط، الطبعة الأولى، 2012. صص . 311 \_ 312 .

3- حسن بن محمد بن محمود العطار (1180\_ 1250هـ) ( 1766 \_ 1835م ) كان شيخاً للأزهر، ولد بالقاهرة، وكان أبوه الشيخ "علي محمد العطار" فقيرا يعمل **عطارا**، من أصل مغربي وكان له إلمام بالعلم، وكان حسن يساعد والده في دكانه، ولما رأى منه الوالد حبا للعلم، وإقبالا على التعلم شجعه على ذلك، فأخذ حسن يتردد على حلقات العلم بالأزهر. عندما احتل الفرنسيون مصر كان العطار في الثانية والثلاثين من عمره ، تعرف على بعض علماء الحملة، واطّلع على كتبهم وتجاربهم وما معهم من آلات علمية فلكية وهندسية، كما اشتغل بتعليم بعضهم اللغة العربية، فأفاد منهم واطلع على علومهم، واشتغل أثناء الحملة الفرنسية بالتدريس في الأزهر. كان حريصاً على مساعدة محمد علي في تطوير مصر، فكانت له يد في إنشاء المدارس الفنية

فلقد جسدت الحملة النابليونية مناسبة "اكتشف من خلالها أهل دار الإسلام أهمية وخطورة التحولات النوعية التي كانت تشهدها ما بات يعرف عندهم إلى ذلك الحين بـ"دار الكفر والحرب"، تهيأ لهم ذلك من خلال اختلاطها المباشر وغير المتوقع مع واحدة من الأمم النصرانية الأكثر ثورية وحادثة وهي فرنسا، فتيسر لهم بفضل ذلك اكتشاف الهوة الحضارية التي أضحت تفصل بين الدول والمجتمعات الإسلامية ونظيراتها في أوروبا، كما مكثهم مكوث هذه الحملة بهذا البلد لمدة ثلاث سنوات من تشخيص الأسباب الكامنة وراء هذا التفوق وما يقابله من ضعف في الجانب الإسلامي".<sup>2</sup>

صحيح أن هذا الغرب كان موجوداً بمعنى أو آخر قبل الحملة الفرنسية، وذلك منذ أن بادل الشرق وأوروبا التجارة والسفراء، إلا أنه لم يكن له من التأثير ما صنعتها مدافع نابليون وجنوده، فضلاً عن أجهزته العلمية المصاحبة التي وضعت الوعي المشرقي خاصة والعربي الإسلامي عامة، أمام تحلفه للمرة الأولى في حدة معرفية جذرية، جعلت من حضور الاحتلال الفرنسي مرآة تنظر فيها الذات إلى حقيقة واقعها وما عليها من ضعف وتأخر ووهن حضاري.

## 1- تجليات الوعي بالتجاوز الحضاري عند النخبة العالمية زمن الحملة الفرنسية

### أ : إقرار النخبة العالمية بقوة الجيش الفرنسي ودقة تنظيمه .

لقد كانت سياسة المماليك تجاه الغزو الفرنسي بقيادة نابليون بونابارت محكومة بموقف المواجهة والتصدي والوقوف ضد الإحتلال. لكن المفارقة تكمن فيما ينطوي عليه هذا الموقف من تناقض حاد بين طبيعة الرؤية ومنطلقات سياسة المواجهة، وبين قدرة هذه السلطة على توفير شروط المواجهة. فبين زعم المماليك وادعاءهم

---

العالية مثل الألسن والطب والهندسة والصيدلة. وكان العطار قد أخذ على نفسه أن يعد الرجال الصالحين للقيام بمهمة الإصلاح، ومن أهم من أعدمهم لذلك تلميذاه : رفاعة الطهطاوي، ومحمد عباد الطنطاوي وأوعز إليه بضرورة إرسال البعثات إلى أوروبا، وأوصى بتعيين تلميذه رفاعة الطهطاوي إماماً لأعضاء البعثة العلمية إلى باريس، وأوصى الطهطاوي بأن يفتح عينيه وعقله، وأن يدون يوميات عن رحلته، عمل محرراً لأول جريدة عربية في مصر ، وهي جريدة الأهرام الرسمية . انظر حياته بتفصيل : حسن، عبد الغني : حسن العطار، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية، 1993 م .

1- عمارة : المرجع السابق ، ص . 24 .

2- حواش : "منظومة القيم الغربية ..."، مرجع سابق، ص . 311 .

القوة، "أنه إذا جاءت جميع الفرنج لا يقفون في مقابلتهم، وأنهم يدوسونهم بجيولهم"<sup>1</sup>، وبين ما أظهرته مجربات المواجهة العسكرية من عجز كامل لمؤسسة الفروسية المملوكية أمام الجيش الفرنسي الذي ينتمي إلى تجربة تاريخية متفوقة نوعيا، وعلى مختلف صعد أواليات المواجهة العسكرية<sup>2</sup>، يمتد بون شاسع يكفي لاستنتاج واقع الضعف والقصور البنيوي لهذه المؤسسة، وافتقارها لأية إمكانية من أجل تلبية الأهداف السياسية التي تتوسلها من أجل بلوغ أهدافها .

لقد كانت بنية الجيش المملوكي خلال نهاية القرن الثامن عشر، تلي احتياجات السلطة في منازعاتها المحلية وفي فرض سيطرتها على قوى المجتمع وبالتالي حماية النظام السياسي والاقتصادي الذي يحتضن سلطتها. وهي بالتالي لم تكن تملك أي دافع لتتبع واقع التحولات النوعية في وضعية الجيوش الأوروبية، ولهذا بقيت أسيرة مجموعة من التصورات الموهومة عن واقع الجيش الغازي ، فحين أنبئ مراد بك<sup>3</sup> قبل التحامه لأول مرة بالفرنسيين بعدة أيام بأن "جيش بونابارت لا يكاد يملك خيالة ، ضحك عاليا، وقال مفاخرًا أنه سيشرحهم كما يشرح الشامام"<sup>4</sup> . ولما علم المماليك بنزول الحملة في الإسكندرية في 5 يولييه قابلوا الخبر بغير اهتمام أو اكتراث ، مزدريين من شأن الإفرنج عامة ومحتقرين كفايتهم الحربية، وأقسموا أنهم سيحصدون رؤوسهم حصدا إذا قاتلوهم .

في مقابل ذلك نجد أن التصور الذي كانت تملكه الحكومة الفرنسية عن وضع القوى المملوكية كان شديد التطابق مع الواقع. فقد وفرت كتابات "القناصل" و"الرحالة الجواسيس"<sup>5</sup> للدولة الفرنسية، وخلال العقود السابقة، تشخيصا دقيقا لوضع الجيش المملوكي تمهيدا لاحتلال ولاية مصر.

---

1- الجبرتي : المصدر السابق ، ج، 3، ص.2 .

2- كريستوفر: المرجع السابق ، ص . 101 .

3-مراد بك من مواليد 1750م، المصري المملوكي الجركسي الأصل، شارك إلى جانب إبراهيم بك قبل الحملة، وبعد الهزيمة في معركة امبابه في 21 يوليوز 1798م ، فر إلى الصعيد واستمر يقاوم الفرنسيين هناك إلى حين إبرامه اتفاقا معهم في 5 أبريل 1800م، يخول له حكم الصعيد تحت السيادة الفرنسية، توفي في 8 أبريل 1801. حواش : خطاب التضامن الإسلامي ...، مصدر سابق ، ص . 530.

4- كريستوفر: المرجع السابق ، ص . 103.

5 - لم تكن زيارات رحالة القرن الثامن عشر لمصر قصيرة المدة، بل كانت زيارات طويلة امتدت مدة سنوات .جابوا فيها مدن مصر، وتوغلوا في صعيدها وصحاريها، واستطاعوا أن يضيفوا الكثير من أحوالها السياسية والاجتماعية. وصفا مسهبًا ومفصلا. وكان من هؤلاء الرحالة جواسيس اهتموا بدراسة أحوال مصر السياسية والعسكرية لخدمة مصالح بلادهم، ومهدوا بذلك لغز مصر، ومن هؤلاء : البارون دي توت ، وفولني ، وأوليفيه .

قدم الرحالة الفرنسي فولني وصفا مهما لذلك : "إن الفريق الأقوى أو الأكثر جسارة يطارد الآخر، فإذا كانا ندين في الشجاعة، فإنهما يتمهلان أو يتواعدان، وعندئذ، ودون مراعاة لمزايا الوضع، تتقارب القوتان على شكل ركام، وتختار كل قوة رجلها، ويبدأ الرمي، إن أمكن ويجري الانتقال بسرعة إلى الحسام، عندئذ يتجلى فن الفارس ومرونة الجواد. وإذا ما سقط الجواد، ضاع الفارس (....) وغالبا ما تحسم المعركة بمصرع رجلين أو ثلاثة رجال"<sup>1</sup>.

كما قدم وصف الجبرتي وضع الجيش لمملوكي قبل اشتباكه مع الجيش الغازي، "كلما ازداد الفرنسيون اقترابا من المدينة، كلما تجلى انقسام المماليك وعجزهم عن اتخاذ قرار"<sup>2</sup>.

وبالنسبة للجبرتي فإن الهوة سحيقة بين سلوك كل من الخصمين، فالفرنسيون يتحلون بالنظام وبالانضباط، وهما خاصيتان تقرهما من مجاهدي الإسلام الأوائل. أما المماليك فإنهم لا يستحقون بالمرّة مثل هذه الصفة. لقد كانت الجنود "متنافرة قلوبهم منحلّة عزائمهم، مختلفة آراؤهم، حريصون على حياتهم، وتنعّمهم ورفاهيتهم، مختالون في ريشهم، مغترون بجمعهم، محتقرون شأن عدوهم، مرتبكون في رويتهم، مغمورون في غفلتهم، وهذا كله من أسباب ما وقع من خذلائهم وهزيمتهم"<sup>3</sup>.

أما الطائفة الأخرى الفرنسية، فإنهم على العكس من ذلك في جميع ما ذكر كأنهم "مقتنفين لآثار الأمة في صدر الإسلام، ويرون أنفسهم مجاهدين ولا يستكثرون من عدوهم ولا يباليون بمن قتل منهم، ويرون أن من ولى منهم كفر ملته وخرج من دينه وطريقته، ينقادون لأمر أميرهم ويمثلون طاعة لكبيرهم... ولهم علامات وإشارات فيما بينهم يقفون عندها ولا يتعدون حدها". كما أن الفرنسيين كانوا عند دخولهم مصر "كالجواد المنتشر حول البلد"<sup>4</sup>.

---

1- ذهني، الهام علي: مصر في كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين في القرن الثامن عشر، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، الطبعة الأولى، 1992م، ص . 36.

2- الجبرتي : المصدر السابق، ص . 9.

3- نفس المصدر، ص . 10.

4- نفس المصدر، ص . 2.

وهكذا التقى الفريقان عند "شبراخيت"<sup>1</sup> بعد أن استولت الحملة على الرحمانية في طريقها إلى القاهرة. وقد اشتبك في هذه الواقعة بعض السفن التي أحضرها المماليك مع القوة الفرنسية التي كانت تسير في النيل. وصف نقولا الترك تدمير المركب المملوكي من طرف الفرنسيين قائلاً: "فسقطت إحدى القنابل على المركب الذي كانت به الجبخانه<sup>2</sup> فطار البارود واحترق المركب والذي يقربه من المراكب، وكانت الناس تتطاير بالجو كالطيور، ووصلت إلى الجبخانه التي على البر، فشتعلت فيها وانوعرت العساكر لما شاهدت تلك النار، واستفولوا من الانكسار وأيقنوا بالعدم والدمار"<sup>3</sup>. أما على اليايس، حيث كانت تجري أطوار المواجهة البرية، فإن القتال لم يبلغ قط مبلغ المعركة الحقيقية. فما أن أصبح المماليك على مربع من مربعات الجيش الفرنسي حتى أوقفهم ستار ناري من قنابل المدافع والقنابل اليدوية والرش ورمصاص الأسلحة الصغيرة، وبعد ساعة انسحبوا إلى موطنهم الأصلي، يقول نقولا الترك: "فولت العساكر المصرية مدبرين وإلى النجاة طالبين ولا زالوا راجعين وفي مسيرهم مجدين إلى أن وصلوا إلى محل يقال له الجسر الأسود، وأقاموا هناك في غاية الذل والنكد"<sup>4</sup>.

وهكذا انهزم المماليك لأول مرة أمام نيران المدافع والبنادق الفرنسية، وتقهقروا جنوباً إلى القاهرة. وعن هزيمة المصريين في معركة "شبراخيت" يقول الجبرتي: "لقد خرج أهل الثغر وما انضم إليه من العربان المجتمعمة، وكاشف البحيرة، فلم يستطيعوا مدافعتهم، ولا أمكنهم ممانعتهم، ولم يثبتوا لحربهم، وانهزم الكاشف ومن معه من العربان، ورجع أهل الثغر إلى النترس في البيوت والحيطان."<sup>5</sup>

---

1- وقعت هذه المعركة في 12 تموز سنة 1798، وتعرف في الكتابات التاريخية بمعركة "شبراخيت" وهي المعركة الأولى التي التقى فيها المماليك والفرنسيين، وإثرها احتل نابليون شبراخيت، وانسحب مراد بك إلى القاهرة .

2- الجبخانه، هي كلمة مركبة من الفارسية والتركية، وتعني: مؤن الحرب، الذخيرة، وتطلق أيضاً على مخزن الذخيرة .

3- نقولا، الترك: حملة بوناپارت إلى الشرق، دراسة وتحقيق: أمل بشور، دار جروس برس، بيروت، الطبعة الأولى، 1993م، ص . 95.

4- نفسه.

5- الجبرتي: المصدر السابق، ص . 2.

هذا فيما يتعلق بمعركة "شبراخيت" أما معركة "أمبابة"<sup>1</sup> فتذكر الكتابات التاريخية أن الفرنسيين وصلوا إلى منطقة أمبابة في 21 يولييه وعسكروا بينها وبين الجزيرة بمراى من أهرام الجزيرة، الذي أشار إليه نابليون وقال مخاطباً جنوده قبل الموقعة "إن أربعين قرناً تنظر إليكم" وقد وقف الفرنسيون في مربعاتهم منتظرين هجوم المماليك حتى يحاصروهم بين نيران مربعاتهم، وقد وضعوا خطتهم بحيث يحولون دون وصول المماليك إلى استحكاماتهم في أمبابه، ثم يدفعونهم نحو النهر، فإما أن يلقوا بأنفسهم فيه، أو يفروا هاربين إلى الصحراء " ويهاجم المماليك القوات الفرنسية، لكن هجماتهم تتحطم تحت وابل من نيران مدفعية ومشاة الغزاة المتلاقية . وفي تلك الأثناء، تبتاح فرقنا بون<sup>2</sup> ومينو<sup>3</sup> تحصينات مراد بك وتشنان هجوما مضادا على القوات المملوكية ويتبعثر شمل هذه القوات الأخيرة وتلقى بنفسها في النيل بما يؤدي إلى غرق الكثيرين"<sup>4</sup>.

كما وصف الجبرتي هزيمة المماليك المذلة بعبارات تشي بهول الفاجعة وجسامة الخسارة، فقال: "واشتد هبوب الريح، وانعقد الغبار، وأظلمت الدنيا من دخان البارود وغبار الرياح، وصمت الأسماع من توالي الضرب، بحيث خيل للناس أن الأرض تزلزلت، والسماء عليهم سقطت، واستمر الحرب والقتال نحو ثلاثة أرباع ساعة، ثم كانت هذه الهزيمة على العسكر الغربي فغرق الكثير من الخيالة في البحر لإحاطة العدو بهم، وظلام الدنيا، والبعض وقع أسيراً في أيدي الفرنسيين وملكوا المتاريس"<sup>5</sup>.

لقد حارب المماليك في موقعة أمبابة بشجاعة، ولم تكن الشجاعة تنقصهم في هذه المعركة، وحاربوا بصلابة وحماسة وإصرار، دفاعاً عن مصر، وعن الإسلام، ولكن ماذا تجدي الشجاعة والصلابة والحماسة أمام

---

1- أمبابة أو أنبابة، هي قرية في شمال الجزيرة على الشاطئ الغربي للنيل تجاه رملة بولاق مصر، مركبة من أربعة كفور، أنبنتها أعلى من أنبنة الأرياف وبها سوق يشتمل على دكاكين وأكثر أهلها أرباب حرف أو نوتية أو صيادون للسماك أو عاملون في البساتين، وفيها جامع لسيدي الأنباني وقصور لبعض الأمراء . نقولا الترك ، المصدر نفسه، ص، 91.

2-أحد جنرالات الحملة الفرنسية، عرف بقسوته في التعامل مع الفرنسيين، قاد بتعليمات من نابليون بونابارت عملية الهجوم على جامع الأزهر وقتل عدد من الثوار بعد انتفاضة القاهرة الأولى ضد الجيوش الفرنسية في 21 أكتوبر 1798 م.

3- جنرال جاك فرانسوا مينو ، (1750 \_ 1810) ، جنرال فرنسي في جيش نابليون بونابرت زمن الحملة الفرنسية، ولد في غرب فرنسا والتحق بالعمل العسكري مبكراً في حياته، عرف بالكفاءة العسكرية والحنكة في الإدارة . شارك في الحملة الفرنسية على مصر وتسلم قيادتها بعد مقتل الجنرال كليبر. اشتهر بميولاته الإستعمارية ورغبته القوية في تحويل مصر إلى مستعمرة فرنسية.

4- هنري، لورنس : الحملة الفرنسية في مصر، ترجمة : بشير السباعي، سينا للنشر، القاهرة، الطبعة الأولى، 1995، صص. 149 - 150.

5- الجبرتي : المصدر السابق، ص . 11.

التفوق الفرنسي الكاسح، وأمام جيوش حديثة منظمة يقودها نابليون ؟ لقد كانت مدافع نابليون تضرب بعنف متواصل، وتصيب أهدافها من بعيد، بينما مدافع المماليك المتخلفة تحتاج إلى فترة زمنية بين كل طلقة وطلقة، وإذا حميت من توالي الضرب صار مداها أقرب وإصابتها أضعف. لقد تحشمت قوة المماليك في ساعات قليلة ولم يبق من المماليك سوى جماعات غير منظمة عددها أربعة آلاف فرت إلى الصحراء أو إلى الصعيد مع مراد بك الذي أخذ يحرق السفن التي كانت تحمل الذخيرة حتى لا تقع في أيدي العدو.

### ب: تنويه النخبة المصرية بقيم العلم والتعلم عند الفرنسيين .

منذ اللحظة الأولى من قدوم الحملة الفرنسية، أحست النخبة المصرية أنها بإزاء حضارة جديدة أرقى من حضارة العثمانيين والمماليك، لا في مقوماتها المادية فحسب، ولكن في كثير من قيمها الاجتماعية ونظمها السياسية، ولاشك أنها قد أثبتت تحفظاتها العنيفة بالنسبة إلى بعض القيم الأخلاقية والروحية والاجتماعية التي جاءت بها الحملة الفرنسية، سواء كما رأتها في الفرنسيين أنفسهم، أو كما رأتها في المصريين المتأثرين بهم، ولكن هذا لم يحل دون وقوفها موقف المبهور والمعجب بعدد من المقومات المادية والفكرية والأخلاقية لهذه الحضارة الجديدة سواء على المستوى الاجتماعي أو على المستوى الفردي.

فكثيرا ما أفاض الجبرتي في شرح آلات العلماء الفرنسيين وأدواتهم الفلكية وماكينات التصوير، وقدرات الرسم والتصميم، كما وقف الكثيرون مبهورين أمام مظاهر صناعة الطب الكيماوي وما إلى ذلك .

أنظر مثلا إلى الجبرتي وموقفه من الجمع العلمي المصري الذي أنشأه بونابرت بتاريخ 22 أغسطس 1798 وعدد أعضائه ثمانية وأربعين عضوا، منهم اثنا عشر عضوا في قسم الرياضيات، واثنا عشر عضوا في قسم العلوم الطبيعية، واثنا عشر عضوا في قسم الاقتصاد، وإثنا عشر عضوا في قسم الأدب والفنون، وهو أول أكاديمية للعلوم والفنون والآداب عرفتها مصر الحديثة، وقد ضمت صفوة العلماء والفنانين والأدباء الذين جاءوا إلى مصر مع الحملة الفرنسية لمسحها ودراساتها، وكانت ثمرة عملهم ذلك الكتاب الجليل "وصف مصر" الذي صدر في عشر مجلدات من الأبحاث، وأربعة عشر مجلدا من اللوحات، وقد تم نشره بين 1809 و1827م<sup>1</sup>.

---

1- ومن أهم بحوث ومنجزات الحملة العلمية أيضا مشروع وصل البحر الأحمر بالبحر المتوسط بقناة، إذ أجريت دراسات على برزخ السويس تضمنها تقرير قدمه المهندس ليبر ( lipère ) وأظهر فيه أهمية استخدام هذه القناة، وقد إسترشد المهندس "دي ليسبس" فيما بعد بهذا التقرير عندما أقدم على تنفيذ مشروعه، وذلك بعد أن أن تجاوز الخطأ الحسابي الذي وقع فيه سلفه، من أن مستوى مياه البحر الأحمر أعلى منه في البحر المتوسط بتسعة أمتار، والذي خشى معه أن يفيض الماء على أرض الدلتا إذا فتحت القناة.

وهذه قصة المجمع المصري كما رواها الجبرتي عن خبرة شخصية، فقد كان أحد علماء الأزهر الذين كانوا يترددون على المكتبة للمطالعة والتثقيف، وعلى معاملته ومراصده ومتاحفه للوقوف على العلوم الحديثة، وعلى ندواته للاستماع إلى ما يناقشه فيها علماءه من بحوث، "ملتقطة صورة معبرة تنم عن شدة وعيه بحدوث هذا التفاوت القيمي الحضاري على مستوى المكانة الخاصة التي أضحت تحتلها قيم العلم والتعلم لدى الدول والمجتمعات الغربية حينما تحدث عن نظام المكتبة وشيوع القراءة بين جنود الحملة على اختلاف مراتبهم".<sup>1</sup>

يقول الجبرتي : "منها أنهم أحدثوا على التل المعروف بتل العقارب بالناصرية أبنية ومرانك وأبراجا ووضعوا فيها عدة من آلات الحرب والعساكر المرابطين فيه وهدموا عدة دور من دور الأمراء وأخذوا أنقاضها ورخامها لأبنيتهم وأفردوا للمدبرين (يقصد المدبرين) والفلكيين وأهل المعرفة والعلوم الرياضية كالمهندسة والهيئة والنقوشات والرسومات والمصورين والكتبة والحساب".<sup>2</sup>

كما امتدح الجبرتي إقبال الفرنسيين على العلم والمطالعة مقارنة، لا شعوريا، بينهم وبين حالة الجهل التي كان يعاني منها أهل مصر قائلا : "فيه جملة كبيرة من كتبهم وعليها خزان ومباشرون يحفظونها ويحضرونها للطلبة ومن يريد المراجعة، فيراجعون فيها مرادهم، فتجتمع الطلبة منهم كل يوم قبل الظهر بساعتين ويجلسون في فسحة المكان المقابلة لمخازن الكتب على كراسي منصوبة موازية لتختاة [ هكذا ] عريضة مستطيلة فيطلب من يريد المراجعة ما يشاء منها فيحضرها لهم الخازن فيتصفحون ويراجعون ويكتبون، حتى أسافلهم من العساكر. وإذا حضر إليهم بعض المسلمين ممن يريد الفرجة لا يمنعونه الدخول إلى أعز أماكنهم، ويتلقونه بالبشاشة والضحك وإظهار السرور بمجيئهم إليهم، وخصوصا إذا رأوا فيه قابلية أو معرفة أو تطلعا للنظر في المعارف بذلوا له مودتهم ومحبتهم ويحضرون له أنواع الكتب المطبوع بها أنواع التصاوير، وكرات البلاد والأقاليم (يقصد الخرائط) والحيوانات والطيور والنباتات، وتواريخ القدماء وسير الأمم وقصص الأنبياء بتصاويرهم وآياتهم ومعجزاتهم وحوادث أهمهم مما يجير الأفكار".<sup>3</sup>

---

ومن النتائج الهامة للحملة عثور الضابط الفرنسي بيير فرانسوا بوشار على حجر رشيد الذي أدى دراسة الكتابات الثلاث عليه باللغات الهيروغليفية والديموطيقية والإغريقية، إلى معرفة أسرار الكتابة المصرية القديمة التي تصدى لتفسيرها وحل رموزها علماء كثيرون على رأسهم جون فرانسوا شامبلون. ( 1790 / 1832 م ).

1- حواش : "منظومة القيم الغربية بعيون عربية إسلامية ..."، مرجع سابق . صص . 316-317.

2- الجبرتي : المصدر السابق ، ص . 57 .

3- نفسه .



ثم طاف الجبرتي بالقسم الخاص بعلماء الفلك من المعهد ، وشاهد ما فيه من الآلات العجيبة مشدوها مفتوح الفم من الدهشة والعجب، ولم يسعه وهو المؤرخ الثقة إلا أن يثبت وصف ما رأى في تاريخه معلنا دهشته وإعجابه وعجزه عن فهم هذه الآلات والعدد. "وعند توت الفلكي وتلامذته في مكائهم المختص بهم الآلات الفلكية الغربية المتقنة الصنعة وآلات الارتفاعات البديعة العجيبة التركيب العالية الثمن".<sup>1</sup>

أما الشيخ حسن العطار (1766- 1825)، والذي كان من العلماء، الذين أتاحت لهم الظروف والأحداث الاحتكاك بعلماء الحملة الفرنسية، حيث عمل مدرسا للغة العربية عند الفرنسيين، فقد استفاد منهم الكثير، وكما يقول علي مبارك (1833- 1893) في الترجمة له إنه: "اتصل بناس من الفرنسيين، فكان يستفيد منهم الفنون المستعملة في بلادهم ويفيدهم اللغة العربية". ولقد ثارت في عقل الشيخ العطار، الكثير من الأسئلة وعلامات الاستفهام حول الواقع الذي تحياه هذه الأمة، واقتنع الرجل بضرورة التغيير داعيا إلى الاستفادة من ثمار الحضارة الغربية<sup>2</sup>.

فلقد اهتم العطار بمعرفة ما عند الفرنسيين من علم ورأى في الانفتاح على الثقافات الأجنبية امتدادا للانفتاح في عصر ازدهار الحضارة الإسلامية ويتضح موقف العطار في هذا من عبارته التالية: "إن من تأمل في علمائنا السابقين يجد أنهم كانوا مع رسوخ قدمهم في العلوم الشرعية، لهم اطلاع عظيم على غيرها من العلوم والكتب التي ألفت فيها حتى كتب المخالفين في العقائد والفروع، وأعجب من ذلك تجاوزهم إلى النظر في كتب غير أهل الإسلام من التوراة وغيرها من الكتب السماوية واليهودية والنصرانية، ثم هم مع ذلك ما أخلوا تثقيف ألسنتهم برفائق الأشعار ولطائف المحاضرات"<sup>3</sup>. فالعطار لا يرى بأسا من أخذ العلم عن غير المسلمين بل يطلب بتوسيع مجال المعرفة وتعميقها في محاولة للتغلب على الركود الفكري، ولذلك وجه العطار تلاميذه وهو يدرس الفقه إلى قراءة كتاب الأغاني في عصر لم يكن الأدب يشغل حيزا في دوائر الثقافة في الأزهر.<sup>4</sup>

---

1- نفسه.

2 مبارك، باشا علي : علم الدين، ضمن الأعمال الكاملة ، تحقيق: محمد عمارة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى، بيروت، 1979م، المجلد الثاني، ص . 435 .

3 - العطار، حسن: حاشية العطار على جمع الجوامع، نسخة الكترونية محملة من الموقع الإلكتروني [www.kotobarabia.com](http://www.kotobarabia.com) ، الجزء، 3 ، صص . 325- 326 ،

4- العطار : حاشية العطار على شرح الحبيصي ، الموقع الإلكتروني نفسه ، ص، 121- 122.

وقد اتصل واحتك الشيخ حسن العطار بالمستشرقين الذين صاحبوا الحملة الفرنسية، وأسهم في تعليم بعض شبابه اللغة العربية، وتبادل وإياهم من الحوارات والأفكار، ما فتح أمامه أفقا واحدا، انفسح ليحمل تلميذه رفاة الطهطاوي إلى عاصمة الأنوار باريس.

ولحسن الحظ وصلتنا مقامة حسن العطار التي عنوانها "مقامة الأديب الرئيس الشيخ حسن العطار في الفرنسيين" وهي مقامة بالغة الدلالة، في الإشارة إلى القول من شعور النفور إلى شعور الإقبال، واختلاط رغبة المعرفة بالبحث عن السير في تقدم هؤلاء الغرباء، والمقامة تؤدي من خلال السخرية والفكاهة، ما يؤكد أهمية معرفة علماء الفرنسيين، والاستماع إليهم والحوار معهم، وكان ذلك منذ أن سمع الشيخ العطار من أهل العرفان، وممن جال في الأقطار والبلدان "أن القوم لا يشددون الوطأة إلا على من حاربهم، ولا يعاملون بالرهبة إلا من نابذهم وغالبهم".

فذهب إلى الأزبكية حيث يقيم علماء الفرنسيين، فالتقى بعض شبابه، فحاورهم وحاوروه، وأدهشه معرفتهم بالعربية، بل ومعرفتهم بأمهات كتب التراث المهمة أيضا.

وانتهى اللقاء بالراوي- الشيخ العطار- إلى التأكد من أن للقوم إلى غوامض المعارف تطلعا، ولأبنائها توددا وترفعا "قد أشربوا في قلوبهم حب العلوم الفلسفية، وحرصوا على اقتناء كتبها وإعمال الفكرة فيها والروية، يبحثون عن له به إلمام ويتجاذبون معه أطراف الكلام"<sup>1</sup>.

وواضح من هذا الوصف المشبع بروح التقدير لاحترام الفرنسيين للعلم والراغبين فيه حتى ولو كانوا من غير جنسهم وملتهم، أو من بسطاء الناس كجنود الجيش الفرنسي، والمشبع بروح الانبهار بفتوحات العلم الحديث، أن النخبة المصرية تنبعت إلى أهمية العلوم الوضعية والإنسانية وضرورتها لترقية الأمم والأفراد.

فقد أدرك المصريون من خلال الحملة، المدى الذي وصلت إليه الحضارة الأوروبية ممثلة في فرنسا، في مجالات الحياة المختلفة. ففي الوقت الذي يعترف فيه الجبرتي ضمنا بعجز العقل العربي عن استيعاب علوم الغرب في تعليقه على بعض التجارب التي شاهدها في المعهد الذي أقامه الفرنسيون في مصر، نجد أن الشيخ حسن العطار يرى أن مصر يجب أن تتقدم وأن يوجد بها من المعارف والعلوم ما ليس فيه، ثم يتعجب من المدى الذي وصل إليه العلم الفرنسي في التطبيق .

---

1- حسن ، عبد الغني: المرجع السابق ، ص . 82 .

امتدادا لهذا المستوى من الوعي بالتجاوز الأوروبي في المجال العلمي، والذي تشكل لدى النخبة المصرية من خلال الإحتكاك بعلماء الحملة الفرنسية، قام محمد علي باشا بمجرد تسلمه للسلطة بإرسال بعثات علمية إلى أوروبا<sup>1</sup>، وأنشأ عددا ضخما من المدارس العسكرية والطبية والزراعية والصناعية<sup>2</sup>، وعيا منه ومن النخبة المصرية المؤيدة للإصلاح كالشيخ حسن العطار وغيره، بأن التعليم أداة رئيسية لإدراك القوة والتقدم والحق بالعرب المتجاوز.

كما وعت نخبة الإصلاح في المشرق العربي، أن تجاوز أوروبا للمجتمعات الإسلامية وتفوقها عليها في ميادين الحضارة، مرجعه الأساس العلم، ومن ثم شاع عند هؤلاء، أن العلوم التي بفضلها تقدم الأوروبيون عربية المصدر وأن العرب والمسلمين دخلوا في الجمود والتقهقر والتأخر الحضاري حين أهملوا هذه العلوم، وهم إنما يقصدون بذلك العلوم الطبيعية والرياضية.

### ج : إعجاب النخبة المصرية بقيم العمل والإنتاج عند الفرنسيين :

شرع الفرنسيون في المجال لزراعي بالاهتمام الجدي بإصلاح كثير من قنوات السقي الرئيسية خاصة بمنطقة الدلتا، حيث جاء في *Courrier de l'egypte*، بأن مياه النيل قد ارتفعت إلى المستوى المطلوب، وإنه ظهرت جميع قنوات منطقة البحيرة بعناية فائقة، كما تم إصلاح كثير من السدود في جهات متعددة، واتخذت عدة إجراءات لضمان توزيع مياه السقي على عدد من القرى التي كانت تعاني من مشاكل السقي<sup>3</sup>.

---

1- أرسلت أولى البعثات إلى فرنسا عام 1818، وضمت 40 طالبا من مصريين وأتراك، وشوام، وأرمن وتوزعت اختصاصات الطلاب بين مدنية وعسكرية على حد سواء، وأبرزها دراسة القانون والعلوم السياسية والطب والزراعة والكيمياء، والهندسة المعمارية والطباعة، ورسم الخطوط والهندسة العسكرية والمدفعية والميكانيكا وبناء السفن، لكن غالبية البعثات كانت تضم أعدادا كبيرة من المتجهين للتخصص في القضايا العسكرية بالدرجة الأولى بالإضافة إلى الهندسة والطب. انظر بتفصيل : عبد الرحمان الرفاعي، **عصر محمد علي**، مصر، دار المعارف، الطبعة الخامسة، 1979م، ص 407\_ 484 . طوسون عمر، **البعثات العلمية في عهد محمد علي** ثم في **عهد عباس وسعيد**، مطبعة صلاح الدين، الإسكندرية، 1934م، مكتبة الإسكندرية، تاريخ تحميل النسخة، 18- 08 - 2011م .

2- اهتم محمد علي ببناء المدارس العصرية في مصر والتي بلغ عددها قرابة الخمسين مدرسة تضم ما يزيد على 5500 طالب يكفي التذكير بأن مدرسة أبو زعبل كانت تضم آنذاك 1500 تلميذ، ومدرسة الإسكندرية قرابة 1300 تلميذ، هذا بالإضافة إلى مدرسة الخيالة، ومدرسة المدفعية ومدرسة الهندسة، ومدرسة الألسن وغيرها . انظر بتفصيل، الرفاعي: المصدر السابق، صص. 397 - 404.

3- جاد، طه : **معالم تاريخ مصر الحديث**، دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الأولى، بدون تاريخ، ص . 96 .

كذلك حرص الفرنسيون على الاهتمام بتنظيم عملية السقي بعد فيضان النيل، حتى لا يحدث هناك نزاعات بين القرى، وحتى لا تستفيد قرى وتتضرر أخرى .

ولقد حظيت هذه الإجراءات باستحسان المصريين، ولا سيما فئة الفلاحين، لأنه لم يكن في فترة المماليك نظام يحدد عملية توزيع المياه في مختلف القرى، مما تسبب في إتلاف كميات كبيرة من المياه ، وحرمان أراضي أخرى من مياه السقي مما كان يؤدي إلى نزاعات بين مختلف القرى.

كما لفت الجبرتي انتباه القارئ إلى إدخال الفرنسيين لوسائل حديثة في المجال الفلاحي قائلا : " ويستعينون في الأشغال وسرعة العمل بالآلات القريبة المأخذ، السهلة التناول المساعدة في العمل، وقلة الكلفة، كانوا يجعلون بدل الغلقان والقصاع عربات صغيرة... وكذلك لهم فوس وقرم محكمة الصنعة متقنة الوضع، وغالب الصناع من جنسهم، ولا يقطعون الأحجار والأخشاب إلا بالطرق الهندسية على الزوايا القائمة والخطوط المستقيمة"<sup>1</sup>.

أما في المجال الصناعي، وبعد القضاء على الأسطول الفرنسي في موقعة أبي قير<sup>2</sup> البحرية، وجد الفرنسيون أنفسهم أمام ضرورة سد حاجياتهم بأنفسهم بمحاولة تصنيع الأشياء التي يحتاج إليها الجيش بالدرجة الأولى، وذلك بالاعتماد على خبرة وموهبة بعض العلماء الذين صحبوا الحملة إلى مصر، وعلى رأس هؤلاء نجد Conté الذي سبق له أن زود فرنسا بكثير من اختراعاته، بالإضافة إلى هذا العالم هناك مجموعة من العمال الفرنسيين الذين تم اختيارهم لتسيير مختلف الورش الميكانيكية<sup>3</sup>.

وقد وصف الجبرتي هذه الورش الميكانيكية التي أقامها الفرنسيون بمصر بقوله : " .. وأفردوا أيضا مكانا للنجارين وصناع الآلات والأخشاب وطواحين الهواء، والعربات واللوازم لهم في أشغالهم وهندساتهم وأرباب

---

1 - الجبرتي : المصدر السابق، ص . 56.

2- معركة أبو قير البحرية والتي سماها الانجليز معركة النيل، هي معركة بحرية وقعت في 2 غشت 1798 بين القوات البحرية الانجليزية بقيادة نلسون والأسطول الفرنسي بقيادة نابليون بونابارت على شواطئ خليج أبو قير المصري . وانتهت بهزيمة قاسية للفرنسيين.

3 - وهم " Andez " الذي اختير رئيسا لورشة الحدادة ، و ( Aimé ) الذي اختير رئيسا لورشة النجارة، وكل ما يتعلق بالأخشاب. و ( Heraut ) رئيسا لكل ما يتعلق بالآلات الدقيقة لعلم الخرائط، و ( Couvreur ) لكل ما يختص بالأسلحة الدقيقة، و ( Fouguet ) للحفر على المعادن و ( Collin ) للخراطة على الخشب ... وكان على كوتيه الذي يرأس مختلف هذه الورش أن يصنع آلات لمصنع البارود وأخرى لدار السكة بالقاهرة ، وأخرى للمطبعة ، وللمصانع الأجواخ وللمدافع، وأدوات للمستشفيات ، وأدوات للمهندسين .

صنائعهم، ومكان آخر للحدادين وبنوا فيه كوانين عظاما وعليها منافخ كبار يخرج منها الهواء متصلًا كثيرًا، بحيث يجذبه النافخ من أعلى بجمرة لطيفة، وصنعوا السندانان والمطارق العظام لصناعات الآلات من الحديد والمخارط، وركبوا مخارط عظيمة لخرط الفلوزات الحديد العظيمة، ولهم فلكات مثقلة يديرها الرجال للمعلم الخراط للحديد بالأفلام المتينة الجافية، وعليها حق صغير معلق مثقوب وفيه ماء يقطر على محل الخراط لتبريد النار الحادثة من الاصطكاك [ هكذا ]، وبأعلى هذه الأمكنة صناع الأمور الدقيقة مثل البركارات وآلات الساعات والآلات الهندسية المتقنة وغير ذلك"<sup>1</sup>.

وقد ساهمت ورش الميكانيكا التي كان يديرها Conté مساهمة فعالة في تزويد المنشآت الصناعية التي أقامها الفرنسيون بمختلف الآلات الضرورية لها، خاصة ورش الحدادة التي كانت تضع صفائح حديدية من مختلف الأحجام والأدوات التي يستخدمها مراقبوا صياغة الذهب والفضة، كذلك كانت توفر قنابل نحاسية دائرية لمصنع البارود، وأعمدة حديدية لمهندسي الجسور والطرق، وأدوات حديدية لقطع الحجارة والبناء، وكذا مختلف الأدوات الحديدية اللازمة لمخازن الحبوب والمطاحن، و كانت تزود المستشفيات بما تحتاج إليه من أدوات الجراحة وأدوات مختلفة. كما كانت ورشة النجارة تزود مختلف المنشآت الصناعية الفرنسية بما تحتاج إليه من آلات ومعدات .

وامتدادا لذلك، وعت النخبة المصرية العاملة، أن أحد أهم أسباب قوة أوربا الرأسمالية يتمثل في حداثة بنيتها الاقتصادية، فاهتم محمد علي بتحديث البنى التحتية الفلاحية المصرية ، وذلك بفتح الترع<sup>2</sup> وبناء القناطر<sup>3</sup>

---

1- الجبرتي : المصدر السابق ، ج ، 3 صص 34-36.

2- من أول أعماله سد ترعة الفرعونية، وقد ذكره الجبرتي في حوادث سنة 1221 هـ- 1806 م، وذكر إتمامه في شهر ربيع الأول سنة 1224 هـ- 1809 م، ومن أعماله الجلييلة شق ترعة الحمودية ، وقد أشرف عليها شخصيا، وعهد بتصميم حفرها إلى مهندس فرنسي، وهو المسيو كوست، ولما تم حفرها افتتحها في 24 يناير 1820م . إضافة إلى مجموعة من الترع الأخرى . أنظر بتفصيل، الرفاعي عبد الرحمان : المصدر السابق ، صص 487 ، 492 .

3- أنشأ محمد علي قناطر عديدة على الترع لضبط مياهها تيسيرا للارتفاع بالري منها ، واهمها القنطرة الكبرى ذات العيون التسع على بحر موريس بالزقاقيق، وقناطر المسلمية، وبحر مشتول ،والصفراء، وفاقوس بالشرقية .... وقد توج محمد علي ذلك بإنشاء " القناطر الخيرية "، وقد عهد محمد علي بدراسة هذا المشروع الى مجموعة من المهندسين الفرنسيين، شرع في أشغاله سنة 1834 ، ودامت الأشغال حوالي ثلاثة عشر سنة، حيث قام محمد علي بتدشينها في حفل كبير سنة 1847 م. نفس المصدر، ص . 495 .

وتنظيم الري وتوسيع شبكته<sup>1</sup> وتحسين زراعة القطن الخ<sup>2</sup>. بفضل هذه الإصلاحات، ارتفعت مساحة الأراضي المزروعة الإجمالية من مليون فدان سنة 1821 لتصل سنة 1833 إلى حوالي ثلاثة مليون فدان . وطور محمد علي الإنتاج الزراعي ولاسيما القطن والنيلة والأرز، بعد أن أدخل زراعة القطن ذي التيلة الطويلة على يد أحد العلماء الفرنسيين ( جوميل ).

كما باشر محمد علي منذ عام 1818م بإرساء قواعد نظام صناعي حديث، مستهدفا تأمين ما تحتاجه مصر من سلع مصنعة ذات طابع عسكري أو مدني، شكلت هذه الخطوة خيارا استراتيجيا من أجل بناء نظام اقتصادي متكامل الحلقات، يمتلك القدرة على الاستغناء عن استيراد السلع المصنعة من الخارج، على قاعدة الاكتفاء الذاتي.

ففي ظل واقع التفاوت بين درجة تطور البني الاقتصادية للدولة المصرية ومثيلتها في الدول الأوروبية، ولاسيما الدولة الفرنسية، والذي تكشف بشكل جلي في سنوات الحملة الفرنسية، سعى محمد علي منذ البداية إلى مواجهة مشكلة غياب العمالة الفنية المدربة عن طريق عدة وسائل أهمها استقدام الفنيين والخبراء من أوروبا لتعليم العمال المصريين وتدريبهم مباشرة في المصانع ، كما قام بإنشاء مدرسة للفنون والصناعات كانت تدرس فيها كثير من الصناعات والحرف مثل الخراطة والبرادة والحدادة والنجارة وأشغال البواخر وغيرها، وبعض العلوم كالكيمياء والميكانيكا، وإلى جانب هذا قام بإرسال بعثات إلى أوروبا للتعلم والتدرب على بعض الصناعات، مثل السكر في الولايات المتحدة الأمريكية، والنسيج وسبك الحديد في إنجلترا، وصناعة الأحذية في فرنسا، وكان اهتمام محمد علي الرامي إلى إدخال كثير من الصناعات الحديثة، يرتبط بسعيه الدائم باستخدام الفائض الذي تمت تعبئته من قطاع الزراعة، ومن احتكار التجارة في إقامة قاعدة صناعية لخلق نمو اقتصادي متوازن<sup>3</sup>.

#### د : تعرف النخبة المصرية على التنظيمات السياسية الحديثة :

لا جدال في أن الحملة الفرنسية قد بصرت الأذهان وفتحتها قبل العيون على أفكار وأمر جديدة لم تكن معروفة، كما ساهمت في تكوين وعي جديد لدى المصريين، خصوصا بعد أن اطلعوا على أفكار الثورة الفرنسية

---

1- انظر بتفصيل جهودات محمد علي في تطوير شبكة الري ، نفس المصدر ، ص . 497 .

2- بفضل الاهتمام بالقطن واحتكاره ، أصبح من السلع التي تحتل مكانة متميزة في قائمة السلع المعدة للتصدير، انظر بتفصيل، الضيقة، حسن : دولة محمد علي والغرب، الاستحواذ والاستقلال، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2002م ، ص . 199 .

3 الضيقة : المرجع السابق ، صص . 221، 224 .

زمن الحملة النابليونية على مصر، وكانت الأفكار السياسية غائبة عن الأذهان قبل ذلك، وعن العقل العربي عموماً، ومن ثم كان تأثير الأفكار السياسية التي وفدت إلى مصر مع الحملة الفرنسية قد فعل فعله، وأدى مفعوله، ثم ظهرت نتائجه مباشرة حين طالب المصريون بمحمد علي واليا عليهم، فمارسوا بذلك أول حق سياسي تمثل بذلك الاختيار، وكانت تلك الحادثة الأولى من نوعها في تاريخ الدولة العثمانية أن فرض الشعب إرادته عليها محمداً من سيحكمه<sup>1</sup>. فما هي أهم القضايا السياسية التي استأثرت بإعجاب واهتمام النخبة المصرية زمن الحملة الفرنسية والتي شكلت في رأينا بدايات للوعي بالتجاوز عند النخبة المشرقية على مستوى الفعل والممارسة السياسية.؟

### التنظيمات السياسية.

من أهم القضايا التي استأثرت باهتمام النخبة العاملة بمصر جراء اصطدامها مع الآخر الغربي أثناء الحملة الفرنسية، هو التنظيمات السياسية التي أدخلها بونابرت إلى مصر. ولا سيما منها الديوان العمومي المكون من ستين عضواً، وهو أول مجلس نيابي عرفته مصر في العصر الحديث، والديوان الخصوصي المختار من بين أعضائه والمكون من تسعة أعضاء، ثم طريقة العمل بهذه الدواوين واختصاصاتها ومدى مسؤوليتها أمام الشعب وأمام القائد العام الفرنسي، ووضعها الدستوري إن جاز هذا التعبير في إطار الاحتلال الفرنسي<sup>2</sup>. غير أن هذه الدواوين لم تتمتع بالسلطة النهائية في أي أمر من الأمور، وإنما كانت سلطة استشارية، وكان الغرض من مجلس القاهرة هو تفعيل الحياة المدنية بالمفهوم الحديث ومشاركتها جنباً إلى جنب مع الإدارة والسلطات الحاكمة في البلاد، وهو أحد الأفكار الهامة التي صاحبت الثورة الفرنسية من ضرورة تفعيل دور المجتمع والمشاركة المجتمعية في الإدارة والحكم، وهو قائم على أفكار المفكر والعالم الاجتماعي **جان چاك روسو** ونظريته المعروفة باسم نظرية **العقد الاجتماعي**، والتي تقوم على أن العلاقة بين الإدارة والشعب تتأسس على وجود عقد افتراضي بين الشعب من ناحية والحاكم والإدارة من ناحية أخرى .

---

1- لقد تشكل مجمع للشيوخ بعد أحداث القاهرة، 1805، والقضاء على المماليك، تحدث في ذلك المجمع عمر مكرم داعياً إلى تعيين وال جديد، فأشار إلى محمد علي، وكتبت وثيقة بتاريخ 13 أيار 1805م جاء فيه " ثم الأمر بعد المعاهدة والمعاهدة على سيره بالعدل، وإقامة الأحكام والشرائع وأنه متى خالف الشروط عزلوه وأخرجوه وهم قادرون على ذلك كما يفعلون الآن ". الجبرتي : المصدر السابق، ج، 4، ص . 240 .

2- جلال، يحيى : مصر الحديثة، 1517 - 1805 م، المعارف، الإسكندرية، بدون تاريخ . انظر أيضاً، الراجعي عبد الرحمان : تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم بمصر، دار المعارف، مصر، الطبعة الأولى، 1897، ج، 1، ص . 97.

كما تعرفت النخبة المصرية على النظريات الأساسية الواردة في بيانات بونابارت، الداعية لمناهضة النظام الإقطاعي والامتيازات الطبقية الوراثية، والمنادية بالمساواة أمام القانون وبتكافؤ الفرص وبكافة حقوق الإنسان، والتي شكلت في نظرنا الإرهاصات والمؤشرات الأولى للفكر السياسي الاجتماعي الحديث بمصر الحديثة.

**فالجبرتي** حاول أن يناقش الفرنسيين عبر البيان الذي وزعوه عند دخولهم مصر، وفي نقاشه حاول أن يفهم ماذا تعني شعاراتهم مثل جمهورية ومساواة وحرية، يقول: "وقولهم من طرف الجمهور...، أي هذه الرسالة مرسله من جهة جمهورهم، أي جمعيتهم لأنهم ليس لهم كبير ولا سلطان تجتمع كلمتهم عليه كغيرهم. بل يكون أمر دولتهم وممالكهم وأحكامهم وتدير أمورهم لأصحاب الرأي والعقل منهم... بشرط المساواة وعدم الترفع على بعضهم نظرا للمساواة في أصل الخلقة... فهذا معنى قولهم المبني على أساس الحرية والتسوية، فقولهم حرية أي ليسوا أرقاء كالمماليك... فالكبير والصغير والجليل والحقير والذكر والأنثى متساويان"<sup>1</sup>.

كما أن المؤرخ **نقولا الترك** أربكته هذه المفاجأة الفرنسية، فعبر عن ارتباكها بقولين متناقضين، فجاء على لسانه في مكان أول: "وكان ذلك بدء الإنكيس وأول التعكيس.. لأن الفرنسية قد استعملت احتيالة كثيرة وسلوكوا مسالك غزيرة لأجل الضرورة كاشتهارهم بالإسلامية ونكرانهم النصرانية وإظهارهم الحرية"<sup>2</sup>. ثم قال في مكان ثان: "وكانوا أحسن سلوكا من ساير الجنوس، واشتهروا بالأمن وطيبة النفوس ونشروا العدل وحسن الأحكام، وقد احتوى الشرائع على التمام"<sup>3</sup>.

ولكي يفسر دخول الفرنسيين إلى مصر يبدأ **نقولا الترك** من البداية، برواية تفاصيل الأحداث التي عرفتها فرنسا قبل سنوات، فيكتب تاريخا للثورة الفرنسية مفاده: "في سنة 1793 مسيحية الموافقة لسنة 1307 هجرية، حدث في مدينة باريز ببلبة عظيمة إذ هاج شعب هذه المملكة هياجا عظيما، وتظاهر ظهورا جسيما ضد السلطان والأمراء والأشراف في يوم كان شديد الارتجاف... وطلبوا نظامات جديدة وترتيبات حديثة. وادعوا أن وجود السلطان بصوت منفرد، أحدث خرابا عظيما في المملكة، وأن أشرافها يتنعمون في خيراتها، وباقي شعوبها يكابدون أتعابها ومشتقاتها، فلأجل ذلك نهضوا جميعهم سويا"<sup>4</sup>.

---

1- الجبرتي: مدة دخول الفرنسيين بمصر، نقلا عن زيادة، العلماء والفرنسيس في تاريخ الجبرتي، رياض الريس للمكتب والنشر، الطبعة الأولى، 2008م، ص. 24.

2- نقولا: المصدر السابق، ص. 111.

3- نفسه.

4- نفس المصدر، صص. 66-67.



**والواقع** فإن سرده لتاريخ الأحداث الفرنسية الذي يتوالى على امتداد صفحات لا يخلو من دقة ملاحظة. ومعرفته بالأحداث تدل على نضجه ووعيه التام باختلاف المشهد السياسي الفرنسي عن نظيره في المشرق العربي، وإعجابه بالقيم التي تحكم الممارسة السياسية عند "الآخر".

تأثرا بهذا الإعجاب والإستحسان للمنظومة السياسية الفرنسية الحديثة، عملت النخبة المصرية بجانب محمد علي على تشكيل أجهزة سياسية وإدارية، ومجالس بلدية ومحلية، إضافة إلى مجلس الشورى، والمجلس الخصوصي والمجلس العمومي، والمجالس التي قادت العمل في مجالات التعليم والصحة والأشغال العمومية<sup>1</sup>. وإذا كان محمد علي باشا، قد قبل بتحديث الهياكل التنظيمية للدولة، فإنه قد رفض قطعاً أي تعديل لسلطته السياسية، حيث تميز حكمه بالظلم والقمع السياسي والانفراد باتخاذ القرار.

### - قيم العدالة والمساواة في التقاضي والمحاکمات.

من الأمثلة التي يسوقها الجبرتي على توخي الفرنسيين احترام القانون ما ذكره من إعدام بعض جنودهم بسبب قيامهم بأعمال السطو، أو بتعبير الجبرتي: "استهمل شهر شعبان 1312هـ (1798) بيوم الثلاثاء فيه قتلوا ثلاثة أنفار من الفرنسيين وبنفقوا عليهم بالرصاص بالميدان تحت القلعة قيل أنهم من المتسلقين على الدور".<sup>2</sup> ومنها أيضاً ما ذكره، وهو من نص بيان الديوان أو مجلس الوزراء الوارد في الجبرتي، تنويها بعقاب بونايرت للخارجين عن القانون حتى ولو كانوا من جنسه أو من ملته: "وقد اقتص من عسكره الذين أساءوا بمنزل الشيخ محمد الجوهري وقتل منهم اثنين بقراميدان، وأنزل طائفة منهم عن مقامهم العالي إلى أدنى مقام، لأن الخيانة ليست من عادة الفرنسيين خصوصاً مع النساء الأرامل، فإن ذلك قبيح عندهم لا يفعله إلا كل خسيس، ووضع القبض بالقلعة على رجل نصراني مكاس لأنه بلغه أنه زاد المظالم في الجمرك بمصر القديمة على الناس ففعل ذلك بحسن تدبيره ليمنع غيره من الظلم"<sup>3</sup>.

---

1- انظر تفاصيل هذه المجالس واختصاصاتها، الرفاعي: المصدر السابق، صص. 115، 125. رفعت محمد: تاريخ مصر السياسي في الأزمنة الحديثة، المطبعة الأميرية بولاق، القاهرة، 1924 م ج، 1.

2- الجبرتي: المصدر السابق، ج، 3، ص. 39.

3- نفس المصدر، ج، 3، ص. 42.

وأهم من كل هذا، الوقفة الطويلة التي وقفها الجبرتي أمام محاكمة سليمان الحلبي قاتل كليبر<sup>1</sup> وأظهر فيها دهشته وإعجابه من الطريقة التي يجري بها الفرنسيون محاكمتهم. وقد أورد الجبرتي كافة وثائق القضية بنصها في أكثر من خمسين صفحة تناول فيها مختلف أطوار المحاكمة<sup>2</sup>. يقول الجبرتي: "وقد كنت أعرضت عن ذكرها لطولها وركاكة تراكيبيها لقصورهم في اللغة، ثم رأيت كثيرا من الناس تتشوق نفسه إلى الاطلاع عليها لتضمنها خير الواقعة وكيفية الحكومة ولما فيها من الاعتبار وضبط الأحكام من هؤلاء الطائفة الذين يحكمون العقل ولا يتدينون بدين وكيف وقد تجارى على كبيرهم ويعسوبهم رجل أفقي أهوج وغدره، وقبضوا عليه وقرروه ولم يعجلوا بقتله، وقتل من أخبر عنهم بمجرد الإقرار بعد أن عثروا عليه ووجدوا معه آلة القتل مضخمة بدم ساري عسكرهم وأميرهم، بل رتبوا حكومة ومحاكمة وأحضر القاتل وكرروا عليه السؤال والاستفهام مرة بالقول ومرة بالعقوبة، ثم أحضروا من أخبرهم وسألوهم على انفرادهم ومجتمعين، ثم نفذوا الحكومة فيهم بما اقتضاه التحكيم"<sup>3</sup>.

لقد كانت إجراءات التحقيق، ونظام المحاكمة، أمرا عجا لى الجبرتي، المؤرخ الأزهري، وبطبيعة الحال كان وقعها أعجب لدى غيره، وهو الأمر الذي دفع الناس إلى التساؤل عنها، ودفع الجبرتي إلى شرحها بالتفصيل المسهب الممل، "كأنها أعجوبة أو نادرة، وهو يستغرب قبل ذكر التفاصيل، من أن الفرنسيين لم يقتلوا القاتل

---

1- كليبر ( جنرال ) ( 1800 \_ 1773 ) : شارك في أغلب المعارك التي شهدتها مصر والشام . تولى القيادة العامة لجيش الشرق في الفترة الممتدة من 30 غشت 1799 إلى غاية 14 يونيو، حين اغتاله سليمان الحلبي. حواش محمد، خطاب التضامن الإسلامي، في ضوء حملة نابليون على مصر والشام وموقف المغرب منها، مصدر سابق، ص، 555 تحدثنا مصادر هذه الفترة، أن كليبر كان أكثر قسوة من بونابارت، وأكثر تجهما، وأقل تباسطا ومحاوره مع العلماء والجلساء . وترجم أوصاف المصريين لزعماء الحملة وعيهم في هذا الصدد، إذ بينما أطلقوا على بونابارت صفة " الكبير " أطلقوا على كليبر صفة "الطويل". لجفوته وخشونته وقسوته. وقد ازداد حكم كليبر قسوة مع الوقت، فكليبر لم يكن ليحفل بالإسلام كثيرا، ولم تكن منشوراته تتضمن " الدعاية الإسلامية " إلا نادرا، كما كان أكثر قسوة على المصريين من سلفه، خاصة في ثوراتهم التي اشتعلت بعنف في عهده، كما زاد هزيمته للعثمانيين والإنجليز من عنفه ضد أهل البلاد، خاصة العلماء، فضلا عن الضرائب الباهظة . انظر، عبد الغني مصطفى : الجبرتي والغرب، رؤية حضارية مقارنة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، 1995، صص . 113 - 114 .

2- الجبرتي : المصدر السابق، ج ، 3 ، صص . 191 ، 241 .

3- نفس المصدر، ج، 3، ص 191.

وشركائه فور إقراره، وهو ما يعني أن هذا الأسلوب في القتل بمجرد الإقرار، أو بدون إقرار، كان هذا هو الأسلوب المتبع في مصر خلال العصر العثماني والمملوكي<sup>1</sup>.

وأهم ما لفت نظر الجبرتي في محاكمة سليمان الحلبي، هو إحاطة المحاكمة بكافة ضمانات العدالة، واكتشافه أن الإجراءات الجنائية لها قوانين تنظمها، وقد أورد النص الخاص بتشكيل محكمة عسكرية كل أعضائها من الجنرالات للنظر في هذه القضية وتعيين مدع عام ومحام للمتهمين يسميه الجبرتي "الوكيل".

ومن الأمور الهامة التي اهتم الجبرتي بإبرازها علنية المحاكمة حيث يقول: "ومنها أيضا أنه بعد قراءة قرار الانتقام أمر ساري عسكر رينيه بحضور المتهمين المذكورين قدام القضاة وهم من غير قيد ولا رباط بحضور وكيلهم والأبواب مفتحة قدام كامل الموجودين."<sup>2</sup>

فلم يوصف المتهمون بأنهم مذنبون إلا بعد صدور الحكم، وذلك مما يفيد إعمال القاعدة القانونية التي تنص على أن "المتهم بريء حتى تثبت إدانته، وهي عكس القاعدة التي تقوم عليه نظم المماليك والتي مؤداها أن كل شخص مذنب أو مدان حتى يثبت براءته."<sup>3</sup>

أما اهتمام كثير من الناس بالاطلاع على وثائق محاكمة سليمان الحلبي، ذلك الاهتمام الذي دعا الجبرتي كما ذكر ذلك، إلى إثبات نصها في "عجائب الآثار" فيدل على أن الجبرتي لم ينفرد وحده في العجب والإعجاب بنظام القضاء السليم، الذي لم يألفه المصريون، بل كان هناك رأي عام قد بدأ يتكون في أيامه، بتأثير هذا الاحتكاك بأجهزة الدولة الحديثة التي دخلت مصر مع الدولة الفرنسية، رأي عام يستنكر إعدام الناس بلا محاكمة ولو كانوا من الأعداء السياسيين، ويندد كما ندد الجبرتي بما يسميه "أفعال أوباش العساكر الذي يدعون الإسلام ويزعمون أنهم مجاهدون وقتلهم الأنفس وتجاريهم على هدم البنية الإنسانية بمجرد شهواتهم الحيوانية مما سيتلى عليك بعضه بعد"<sup>4</sup>. وأفعال الأوباش هذا تتمثل في أعمال الانتقام الغوغائية التي نفذها المماليك في الآلاف من المصريين بعد خروج الفرنسيين بشبهة التعاون معهم دون محاكمة كما فصله الجبرتي في "عجائب الآثار".

1- العشماوي، سعيد: مصر والحملة الفرنسية، الهيئة العامة المصرية للكتاب، الطبعة الأولى، 1997 م، ص. 98

2- الجبرتي: المصدر السابق، ص. 193.

3- العشماوي: المرجع السابق، ص. 99.

4- الجبرتي: المصدر السابق، ص. 192.

انتقد كثير من الباحثين سكوت الجبرتي وعدم تنديده بالطريقة التي تم بها تنفيذ الحكم، والتي تمت وفق ما كان معمولاً به في مصر "حيث اتفقوا جميعهم أن يعذبوا المذنبين، ويكون لايق للذنب الذي صدر، وأفتوا أن سليمان الحلبي تحرق يده اليمين، وبعده يتخوزق، ويبقى على الخازوق لحين تأكل رمتة الطيور".<sup>1</sup>

ففي سياق مقارنة مصطفى عبد الغني للروايات الفرنسية<sup>2</sup> في حادث إعدام سليمان الحلبي برواية الجبرتي، سجل غياب أي تحفظ أو غضب أو تنديد عند المؤرخ العربي من طريقة القصاص وتنفيذ الحكم، في وقت وجدنا روايات الطرف الفرنسي الجاني، عدا الرسمية منها، تبدي وصفا محزنا وأسفا على وحشية القصاص، في حين أطال الجبرتي الكلام عن المحكمة والمحاكمة والشهود .. ولعل في هذا الموقف، حسب مصطفى عبد الغني "انبهار الجبرتي بالحملة وصل إلى درجة بعيدة من عدم التحقيق، وربما الميل إلى أحكامهم وما يأتوا به من طقوس رغم بعدها عن حقيقة العدالة التي كان يبحث عنها"<sup>3</sup>.

## 2- الحملة الفرنسية وتنامي رغبة المشاركة في معرفة أسرار الحضارة الأوروبية .

لقد أحدث غزو نابليون بونابارت لمصر شعوراً بالقلق، عندما وجدوا أنفسهم على هذا الوضع من التخلف الذي لمسوه في انهمام دولتهم أمام جيوش الغازين، نعم اضطر نابليون إلى الانسحاب بعد زمن قصير، ولكنه ترك وراءه نوعاً من التأثير وروحا من القلق بعثتها في نفوسهم الإدارة الفرنسية القصيرة الأمد في هذه البلاد . يقول المؤرخ الانكليزي الكود : "لقد ترك الاحتلال الفرنسي في مصر أثراً لا يمحي، فقد ظل المصريون يعجبون بنابليون بعد خروجه من ديارهم، وظلت أساليب الإدارة الفرنسية مهيمنة على حكومة مصر، وظلت عادات

---

1- نفس المصدر ، ص . 215.

2 - من ذلك : ما ورد في تقرير الجنرال مينو . "حكم عليه ...بحرق يده اليمنى وقطعها وإجلاسه على الخازوق حتى يموت فوفه"، " عاش أربع ساعات فوق الخازوق ولم يتأوه وسط هذه الآلام الشديدة التي يرتعد الإنسان مجرد التفكير فيها " . وفي كوربيه دي ليجيت نقرأ في الحكم الذي صدر ان المحكمة الفرنسية " حكمت على سليمان الحلبي بان يحرق معصم يده، ثم يغرس في مؤخرته وتد ليخترق امعاءه، ثم يترك وحيدا وبه الوتد الى أن تأتي الغربان والطيور الجارية لتنهش جسده. مصطفى عبد الغني : المرجع السابق ، صص . 174 - 175.

3- نفس المرجع، ص. 176.

التفكير الفرنسية تسيطر على الطبقة المستنيرة بمصر، وان ما خلفته الحملة الفرنسية في مصر خلال ثلاثة أعوام لا غير لمن أضخم ما يتسنى انجازه في هذا الأمد الوجيز".<sup>1</sup>

وهذا الجبرتي يقدم لنا شهادة قيمة تلخص مشاعره، ومشاعر جيله إزاء ذلك الحدث العظيم، حين يقول: "وحدث سنة 1213 هجرية، وهي أولى سني الملاحم العظيمة والحوادث الجسيمة، والوقائع النازلة، والنوازل الهائلة، وتضاعف الشرور، وترادف الأمور، وتوالي المحن، واختلال الزمن، وانتكاس المطبوع، وانقلاب الموضوع، وتتابع الأهوال، واختلاف الأحوال، وفساد التدبير وحصول التدمير، وعموم الخراب وتواتر الأسباب".<sup>2</sup>

إن الحياة في نظر الجبرتي كانت تجري قبل الحملة الفرنسية على نسقها المعتاد، والتي كان كل شيء فيها مطبوعاً وموضوعاً قد بدأت تتغير، وامتحنها القدر فانكشف ضعفها، وتوالت عليها الأهوال، وتضافرت على تغييرها الأسباب، "كذلك كان مسلمو ذلك المجتمع الهاجع، في غبش فجر الانبعاث ينظرون إلى الحياة مثل الجبرتي، ويرون ميزانها لا يستقيم إلا إذا كانت كفة الإسلام هي الراجحة، وسلطانه هو الغالب. وكانوا يعتقدون أن الخليفة العثماني سيد السلاطين مهما بلغت شكواهم منه ورأيهم فيه. فإذا انهزمت جيوشه واستباح جند النصراني أرضه فقد اختل ميزان الحياة، واضطرب أمرها وكان ذلك نذيراً بكل شر".<sup>3</sup>

لقد كان واضحاً منذ هذه اللحظة التاريخية المفصلية في حياة الأمة، أنه لا سبيل إلى مجاوزة التخلف، ومحو الشعور المؤرق بالهزيمة والانكسار، إلا بمعرفة أسرار تقدم ذلك "الأخر"، الذي انطوى التعامل معه على نوع من التضاد العاطفي والفكري متعدد الأبعاد، فمن ناحية ظل هذا "الأخر" هو الغازي المتعدي الأجنبي المخالف في الملة والمعتقد، الغريب في العادات والتقاليد، لكنه من ناحية مقابلة، ظل المتقدم صانع المصنوعات والمخترعات الغربية، وحامل مباحج الفنون والثقافات. ومن المؤكد أن جانب الإعجاب كان يغلب جانب النفور، ويتغلب على نوازعه في لهفة الوصول إلى مراتب التقدم، فيغذي في النفس رغبة التعرف على ما عند "الأخر" والتعلم منه والحوار معه.

---

1- الكتاني، محمد: الصراع بين القديم والجديد في الأدب العربي الحديث، دار الثقافة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1982م، ص. 123.

2- الجبرتي: المصدر السابق، ج، 3، ص. 1.

3- مؤنس، حسين: الشرق الإسلامي، ترجمة: محمد شفيق غربال، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، الطبعة الثانية، ص. 67.

كما دفعت هذه الأحداث النخبة العاملة في مصر وغيرها من البلدان المشرقية والمغربية إلى القيام ببعض المراجعات الفكرية لكثير من القضايا والمسائل التي كانت قبل الحملة الفرنسية بمثابة "طابوهات" ومسلمات وثابت قطعية لا يجوز الاجتهاد فيها أو مراجعتها، كقضية العلاقة بين "الذات" و"الآخر" المخالف لها في الدين والعقيدة والتي كانت تؤطرها إلى ذلك الحين مقولة " دار الإسلام ودار الكفر"<sup>1</sup>.

لقد اختزلت هذه الحملة عبر مكوناتها المختلفة، آخر ما توصلت إليه أوروبا الغربية من منجزات في ميدان التقدم الفكري والتنظيم السياسي والإداري، والتطور الاقتصادي والاجتماعي، وإذا استحضرننا التطورات الهائلة والهامة التي ترتبت عن هذه التجربة الاستعمارية خاصة على مستوى مصر، جاز لنا أن نعدّها بداية لمرحلة جديدة في العالم الإسلامي ككل والمشرق منه على وجه الخصوص. فلقد شكلت حملة بونابارت أول غزو تقوم به أوروبا الحديثة بعد الحروب الصليبية التي لم تكن ذكرياتها قد فارقت ذاكرة الشرق العربي بعد. والواقع أن هذه الحملة قد كشفت في نفس الوقت عن أطماع أوروبا في الشرق وتفوقها عليه، وعن عجز أهل الشرق عن الوقوف في وجهها، بل إنهم في الوقت نفسه أخذوا ينبهون بهذا التفوق الأوربي الذي بدا لهم في شكل أعاجيب . وهذا الحدث كان مبعث اليقظة الشاملة في هذا المجتمع الساكن مطمئن.

فرمّا كان أهم ما تركته مدافع نابليون من أثر في الوعي العربي العام في أواخر القرن الثامن عشر، أنّها نبهت هذا الوعي إلى تخلف العالم الذي يعيش فيه وضرورة تغييره، ولذلك طرح سؤال التخلف نفسه بقوة على هذا الوعي في موازاة الهزائم المتلاحقة، وكان السبيل إلى الإجابة الموجبة، من وجهة نظر أصحابها في ذلك الوقت،

---

1- اجتهاد الخطيب والشاعر المغربي سليمان الحوات ( 1160-1231هـ ) ( 1747\_1816م ) من خلال خطبه الجمعية، في تقديم قراءة نقدية أكثر عمقا لهذا الحدث التاريخي، حينما برهن عن خطورة الرؤية التي نظر بها المسلمون إلى الأمم النصرانية بأوروبا، محذرا من مغبة الجهل بحقيقة القوة التي أضحت تتوفر عليها هذه الأمم، ومبالغتهم في الثقة بالنفس لمجرد أنهم أهل إسلام، وتهوينهم من قدرة النصارى على تحقيق أطماعهم في بلاد المسلمين، لمجرد كونهم أهل كفر، والتهوين من قدرة هذه الأمم على النيل من المسلمين وهزمهم حين قال : "واعلموا أن أعداء الأعداء للمسلمين من يهون لهم أمر أعداء الل، لمجرد كونهم أهل كفر ونحن أهل الإسلام، ويشيع عجزهم عن مقاومتنا بين الخاص والعام. ويتخذ أمرهم هزواً وسخرية، لما في ذلك من التثبيط الذي هو رأس كل بلية والإضاعة للحزم الواجب فيما يحذر من سوء العواقب". ثم أدرج فقرة لخص فيها موقفه بإزاء هذه القضية فقال: "والحازم يجري الأخبار كلها على التأمل، ويأخذ الحق من أهل الباطل، والباطل من أهل الحق من غير تقييد بالتأهل". انظر بتفصيل مضامين خطب سليمان الحوات، حواش محمد، خطاب التضامن الإسلامي ...، مرجع سابق، صص . 205-207.

مقترنا بضرورة التعرف على حضارة أوربا، الذي تقدمت وانتصرت وصنعت نموذجاً حضارياً فريداً، أخذ يسحر العيون بمخترعاته المادية، ويجتذب العقول بمرجعياته وإيديولوجيته الثقافية والاجتماعية والسياسية .

ويلفت الانتباه في هذا الصدد كثرة الرحلات في هذا القرن ، منذ العقد الرابع على وجه التخصيص، أي بعد أن تفاعلت الحملة الفرنسية حضارياً وثقافياً واجتماعياً مع الأوضاع السائدة، وبعد أن غاب وجودها العسكري عن مصر منذ سنة 1801، مفسحاً المجال لحضور آثارها الثقافية التي تولدت من نتائجها رغبة متزايدة في معرفة ذلك "الآخر" في موطنه ، وفي داخل حدوده بعد اكتساب لغته التي تفتح الأبواب المغلقة من أسرار علومه.

**المطلب الثاني : استعراض نماذج من الرحلات المصرية الى أوربا.**

### **1- رفاعة رافع الطهطاوي و"تلخيص الإبريز في تلخيص باريز" .**

**أ : التعريف بالمؤلف:**

ولد في مدينة طهطا بصعيد مصر، ونشأ في أسرة دينية تنتسب نسباً شريفاً. تعلم القرآن حفظاً، وطرفاً من مبادئ العلوم الإسلامية واللغة العربية، ثم انتقل إلى الأزهر ليكمل فيه تعليمه العالي، ودرس على أشهر أساتذته في ذلك الزمن، مظهراً تميزاً ونبوغاً حتى تخرج سنة 1821، ويبدو أنه كان في تلك المرحلة يعاني من صعوبات مادية ذلكها بالاعتماد على النفس ومباشرة العمل مع مزاوله التعلم.

بعد تخرجه زاول التدريس في الأزهر طوال عامين مظهراً براعة فيه، ثم اشتغل واعظاً في الجيش لضرورة مادية. وفي سنة 1826 أرسل في بعثة إلى فرنسا ليكون مرافقاً ومرشداً وواعظاً وإماماً للطلاب المصريين الدارسين هناك. وقد كانت للسنوات الخمس التي قضاها في باريس أثر كبير في حياته الفكرية، إذ عمد هناك إلى تعلم اللغة الفرنسية واطلع على الآداب والعلوم والفنون الفرنسية، إلى جانب التعمق في فهم الحياة الخاصة والعامة التي عليها الفرنسيون. وفي ذلك كله ألف هناك كتابة "تلخيص الإبريز في تلخيص باريس".

وفي سنة 1831 عاد إلى القاهرة وقد نضج في ذهنه عمل المستقبل، وهو تعريف المسلمين بوجوه النهضة التي رآها في الغرب، ودعوتهم إلى الأخذ بأسبابها حتى يكون ذلك طريقاً لنهضتهم هم أيضاً. وظل يعمل على تحقيق هذا الهدف ما بقي من حياته، مترجماً المؤلفات الفرنسية في الأدب والتاريخ والجغرافيا والعلوم على اختلافها، داعياً إلى تحرير العقل من الخرافات والأوهام وقيود التقليد، والاستفادة من التحضر الغربي في وجوهه المختلفة. فكتب "مناهج الألباب المصرية في مباحث الآداب العصري" وهو الذي خصصه الطهطاوي لمعالجة "التمدن" وأودع فيه فكره الاجتماعي، كما كتب "المرشد الأمين في تربية البنات والبنين". وهو الذي خصصه الطهطاوي

لفكره في التربية وآرائه في الوطنية والتمدن. إضافة إلى عشرات المؤلفات الفكرية والتربوية والفلسفية التي أغنى بها الخزانة العربية.

وقد سائر الطهطاوي نزوع محمد علي في الانفتاح على الغرب للأخذ من علومه وصناعاته وخاصة منها العسكرية، فوجد في ذلك ما يعينه على مشروعه فتعاون معه وتقلد مناصب في الترجمة، ثم أنشأ كلية للترجمة توسعت فأصبحت شبيهة بجامعة أهلية ظل يمارس من خلالها تحقيق مراده في الانفتاح على حضارة الغرب، ثم دعم ذلك بإصدار جريدة الوقائع المصرية، التي جعل يضمنها رؤاه في الإصلاح السياسي والاجتماعي والتربوي.<sup>1</sup>

### ب : التعريف برحلة الطهطاوي :

تعد رحلة رفاة الطهطاوي من أهم الرحلات العلمية التي انبثق عنها وثائق أدبية وإنسانية كان لها الأثر العظيم في تطور الفكر العربي الحديث، وكان الطهطاوي أول مفكر عربي في العصر الحديث يكتب عن فرنسا ويكشف القناع عن محيا هذه البقاع، ويعتبر كتابه حلقة من حلقات اتصال الشرق والغرب، فهو أول مؤلف يكتب باللغة العربية عن مجتمع غربي، هو المجتمع الفرنسي، وأول رواية تطويرية في الأدب العربي، تأخذ بنظرية التطور الحضاري وأسباب الرقي والتأخر.

كان رفاة رافع الطهطاوي في الخامسة والعشرين من عمره يوم احتضنته باريس بكل ألفها وزهوها وإغراءاتها المذهلة، رغم برودة شتاءاتها، لكنه لم يذهب لارتشاف المتع المتاحة، وإن كانت مباحة له في حدود الشريعة، لأن وقته كله كان مكرسا للعلم والسهر في سبيل تحصيله، حتى أرهق بصره، ونصح الأطباء بمراعاة صحته وعدم المطالعة ليلا، فضرب نصائحهم عرض الحائط "ولم يمتثل لخوف تعويق تقدمه".<sup>2</sup>

وقد استطاع هذا الفتى الجددي الدؤوب، ومن خلال ما ترك لنا من آثار، أن يحقق ما لم تحققه مؤسسات تربوية وثقافية عدة، لأن القائمين عليها، لم يكن العلم شاغلهم بالقدر الذي شغل الطهطاوي، وهنا يتجلى مدى

---

1- النجار، عبد المجيد : مشاريع الإسهاد الحضاري ، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، 1999م، ج 3 ، ص 81. راجع في سيرته أيضا، علي مبارك، الخطوط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة، المطبعة الكبرى الأميرية، بولاق، ج، 13، ص.65. الرافعي: تاريخ الحركة القومية : المصدر السابق، الجزء3 ، صص، 470، 513. عمارة محمد : المصدر السابق، صص، 15، 45. زركلي : الأعلام، بيروت، دار العلم للملايين ، الطبعة السابعة، 1986ج، 1 ص. 323 .

2 - عمارة : رفاة الطهطاوي، رائد التحديث ....، مرجع سابق، ص . 54.



حبه لوطنه وشعبه، كما يظهر لنا عمق احترامه لذلك الشيخ العالم المتنور "حسن العطار" الذي كان من وراء إرساله في تلك البعثة.

وقد طلب الشيخ حسن العطار من الطهطاوي أن يعد تقريرا عن رحلته بعد عودته، وقد نفذ الطهطاوي رغبة أستاذه وسجل تقريرا بارزا في مضماره باللغة العربية، عنوانه ب "تخليص الإبريز في تلخيص باريز". يقول الطهطاوي: "أشار علي بعض الأقارب والمحبين ولا سيما شيخنا العطار، أن أبنه علي ما يقع في هذه السفارة، وعلى ما أراه وأصادفه من الأمور الغريبة، والأشياء العجيبة، وأن أقيده ليكون نافعا في كشف القناع عن محيا هذه البقاع، التي يقال فيها إنها عرائس الأقطار، وليبقى دليلا يهتدي به إلى السفر إليها طلاب الأسفار، خصوصا وأنه من أول الزمن إلى الآن لم يظهر باللغة العربية، - على حسب ظني - شيء في تاريخ مدينة باريس، كرسي مملكة الفرنسيين ولا في تعريف أحوالها"<sup>1</sup>.

كثيرون ممن مارسوا الرحلة لم يكن تدوينهم لوقائع الرحلة سوى نوع من الفضول لا يتعدى حدود الاستئناس، ولكن الطهطاوي قبل ذلك كان قد أشير عليه بتدوين تلك الرحلة من قبل شيخه العطار كما فعل الوزير العثماني إبراهيم باشا متفرقة مع السفير محمد أفندي، فضلا عن أن الرحالة لم يكن بصدد نقل دهشته، بل كان يروم الإدهاش. فالدهشة إنسانية، وهي المعبر الأول للتقدم وعامل من عوامل تبديل الحال والحقا بركب المتبارين في ميادين الحضارة أو بتعبير الكواكبي "الشوق إلى الترقى"، ولقد صمم أن يكون وصفه موضوعيا ودقيقا، لا يدع أمرا يفوته ولا استسلم لما يوحي بالإهمال حيث قال : "الحمد لله الذي جعل ذلك بأنفاس ولي النعمة وفي عهده، وبسبب عنايته وتقويته للعلوم والفنون، فما قصرت في أن قيدت في سفري رحلة صغيرة نزهتها عن خلل التساهل والتحامل، وبرأتها عن زلل التكاسل والتفاضل، وأنطقتها بحد ديار الإسلام على البحث عن العلوم البرانية والفنون والصناعات، فإن كمال ذلك ببلاد الإفرنج أمر ثابت شائع، والحق أحق أن يتبع."<sup>2</sup> "فهي أولى وأحق بما تركه لها سلفها من أنواع الزينة والصناعة"<sup>3</sup>.

---

1- الطهطاوي، رفاة رافع : تخليص الإبريز في تلخيص باريز، دار السويدية للنشر و التوزيع، ابو ظبي، الطبعة الأولى، 2002م، ص . 12 .

2- نفسه.

3- نفسه.

بل إن موضوعية الطهطاوي ودهشته لم تأت لمجرد التسلية، بل جاءت مصحوبة بحسرة على الفارق الموضوعي بين العالم الإسلامي والعالم الغربي، ويظهر ذلك جليا في قوله : "ولعمر الله إني مدة إقامتي بهذه البلاد، في حسرة على تمتعها بذلك، وخلو ممالك الإسلام منه، وإياك أن تجد ما أذكره لك خرقا عن عادتك، فيعسر عليك تصديقه فتظنه من باب الهذر والخرافات، أو من حيز الإفراط والمبالغات، وبالجمل، فبعض الظن إثم ، والشاهد يرى ما لا يراه الغائب"<sup>1</sup>.

كما هو شأن معظم العلماء الرواد في تواضعهم وتجنبهم للمبالغة أو المحاباة وتوجسهم خيفة من ألسنة الجهلة والمغرضين، لم يتردد هذا العالم الأديب بالتأكيد على أنه ينطلق في كتابته وآرائه من موقف موضوعي غير منحاز إلا للعلم والحقيقة والإنصاف. "...وقد أشهدت الله سبحانه وتعالى على أن لا أحميد في جميع ما أقوله عن طريق الحق، وأن أفشي ما سمح به خاطري من الحكم باستحسان بعض أمور هذه البلاد وعواندها، على حسب ما يقتضيه الحال، ومن المعلوم أي لا أستحسن إلا ما لم يخالف نص الشريعة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة وأشرف التحية، وليست هذه الرحلة مقتصرة على ذكر السفر ووقائعه، بل هي مشتملة أيضا على ثمرته وغرضه، وفيها إنجاز العلوم والصنائع المطلوبة، والتكلم عليها على طريق تدوين الإفرنج لها واعتقادهم فيها وتأسيسهم لها، لذلك نسيت في غالب الأوقات الأشياء التي هي محل للنظر والاختلاف، مشيرا إلى أن قصدي مجرد حكايتها"<sup>2</sup>.

يتكون الكتاب من مقدمة في أربعة أبواب، وست مقالات، وخاتمة، وأطول المقالات هي، المقالة الثالثة التي عنونها ب " في وصف باريس وحضارتها"، وهي الموضوع الرئيس للكتاب على حد تعبير الطهطاوي "وهذه المقالة هي الغرض الأصلي من وضعنا هذه الرحلة، فلذلك أطنبنا فيها غاية الإطناب، وإن كان جميع هذا لا يفني بحق هذه المدينة"<sup>3</sup>، وهي تشغل أكثر من نصف الكتاب.

إذا كان تلخيص الإبريز ظاهريا هو وصف لأوروبا ممثلة في باريس، كما يعبر عن ذلك الطهطاوي نفسه في النص أعلاه، فإننا نجد في الكتاب وصفا لمصر خاصة، وللعالم الإسلامي عامة، على ضوء تشريحه لوضعية "الآخر"، فصورة "الآخر" ما هي إلا وسيلة لرسم صورة "للذات".

---

1- نفس المصدر، ص . 13.

2- نفسه.

3- نفس المصدر ، ص . 14.

فرحلة الطهطاوي التي تمت سنة 1826 ضمن بعثة علمية رسمية اعتبرها بعض مقدميها أول علاقة مثمرة بين الشرق والغرب في العصر الحديث، ورأوا في الوقت نفسه أنه "من وراء صورة فرنسا نستشف صورة مصر ألا تبدو معاملها خلال الموازنات والحسرات والأمانى التي تلح على قلم المؤلف، وتلك صورة لمصر في نهضتها كما التقطها فتى من أبنائها الأبرار"<sup>1</sup>.

لقد قدم لنا الطهطاوي صورة عن الغرب من خلال عاصمة الحضارة الأوروبية باريس، داعيا الشرقيين في شخص المصريين إلى ضرورة الاقتداء بالغرب من خلال التفاعل الإيجابي مع حضارتهم، واقتباس ما هو جدير بالاقتباس منهم، ونادى بضرورة اللحاق بالغرب ونقل خبرتهم في مجالات الصناعة والعلوم والفنون... كما دعا إلى ضرورة الوصل بين الشرق والغرب : فإذا كانت البلدان الإسلامية ضليعة في الإنسانيات، علوم الشريعة والفقه... والغرب في العلوم الرياضية والطبيعية ، فإنه آن الأوان للربط بينهما لكي يستفيد كل واحد منهما من الآخر . وكيف لا يختار الطهطاوي هذا التوجه وهو تلميذ الشيخ حسن العطار الذي أكد على حتمية التواصل بين المجتمعات الإسلامية والمجتمعات الغربية، من أجل الخلاص من التخلف واللحاق بالأمم المتقدمة.. وكيف لا يختار هذا وقد قال مرشدوهم من الفرنسيين أثناء كشفهم لهم عن الرسالة التاريخية لبعثتهم : "إنكم تذهبون لتجديد وطنكم، الذي سيكون سببا في تمدين الشرق بأسره. فياله من نصيب ترقص له طربا القلوب التي تحب الفخر وتدين بالإخلاص للوطن... ومصركم تضاهي في ذلك فرنسا في أوائل هذا القرن، فإنها إنما كانت جيوشها تنتصر في ساحات الحرب ورجالها يفوزون في ميادين السياسة ويقاومون زوابعها وأعاصيرها، كانت تحمل مع أكاليل النصر أكاليل العلم والمدنية... أمامكم مناهل العرفان فاغترفوا منها بكلتا يديكم، وهذا قبسه المضيء بأنواره أمام أعينكم فاقتبسوا من فرنسا نور العقل الذي رفع أوروبا على سائر أرجاء الدنيا، وكذلك تردون إلى وطنكم منافع الشرائع والفنون التي ازدان بها عدة قرون في الأزمان الماضية. فمصر، التي تنوبون عنها، ستسترد بكم خواصها الأصلية، وفرنسا التي تعلمكم وتهذبكم تفي ما عليها من الدين للشرق على الغرب..."<sup>2</sup>.

1- حنفي، حسن : "جدل الأنا والآخر ، دراسة في تلخيص الإبريز في تلخيص باريز للطهطاوي"، أعمال ندوة: صورة الآخر

العربي ناظرا ومنظورا إليه، تحرير : الطاهر لبيب، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الأولى، ص. 283.

2- الطهطاوي : المصدر السابق، ص. 16.

لقد رأى الطهطاوي حضارة الفرنسيين في النصف الأول من القرن التاسع عشر، وإكباراً لهذه الحضارة وبناتها، وإيماناً بقيمتها ونفعها رأى الطهطاوي خطأ استخدام رؤية الفقهاء التي سادت العالم كله في العصور الوسطى، والتي قسمت البشر إلى "مؤمنين"، و"كفار".

لقد قاده احتكاكه بالحضارة الغربية إلى تجاوز النظرة المحافظة والجامدة التي تمجد كل قديم وعتيق، وترفض الحديث والمستحدث، لأنه بدعة وضلالة مصيرها النار. لقد حافظ هذا التقديس للقديم على سيادة النظرة التي تقسم البشر إلى "مؤمنين" (هم المسلمون)، و"كفار" (هم غير المسلمين)، وهي النظرة التي تطمس الفروق الحضارية بين البشر والأمم والشعوب، فضلاً عن الفوارق بين الطبقات في المجتمعات. لكن الطهطاوي جاء ليلفت النظر إلى عكس هذه النظرة تماماً، فقام في مقدمة رحلته بتقسيم البشر تقسيماً جديداً لا يقوم على أساس "الكفر والإيمان" وإنما يتخذ من "التحضر والتمدن" معياراً لهذا التقسيم، إذ بهذا الترتيبي وقياس درجاته، وحساب البعد عن الحالة الأصلية، والقرب منها، انقسم سائر الخلق إلى عدة مراتب:

المرتبة الأولى : مرتبة الهمل المتوحشين.

المرتبة الثانية : مرتبة البرابرة الخشنيين ..

المرتبة الثالثة : مرتبة أهل الأدب والظرافة والتحضر والتمدن والتمصر المتطرقين<sup>1</sup>.

وبعد هذا التقسيم الحضاري يمضي الطهطاوي ليضع الأمم والشعوب في مكانها من هذه المراتب الحضارية، فيضع القبائل البدائية في مرتبة "الهمل والمتوحشين"، كما يضع "عرب البادية" وهم مسلمون مؤمنون، في مرتبة "البرابرة الخشنيين"، أما الذين تحصلت لهم مرتبة "التحضر والتمدن" فإن الطهطاوي يذكر منهم أهل "بلاد مصر والشام واليمن والمغرب والعجم والإفرنج وسنار وبلاد أمريكا.... فإن جميع هؤلاء الأمم أرباب الأمم أرباب عمران وسياسات وعلوم وصناعات، وشرائع وتجارات<sup>2</sup>.. وبعد أن وضع الطهطاوي قوماً مسلمين في مرتبة البرابرة الخشنيين " ووضع قوماً غير مسلمين، مع بعض المسلمين، في مرتبة أهل "التحضر والتمدن"، يمضي ليميز بين مراتب الذين تحضروا، حسب منزلة كل منهم في المدنية ومبلغ ما وصل إليه في سلم الترتيبي والتحضر. وتبعاً لذلك، بدأ الفكر الإسلامي الحديث مع الطهطاوي يتجاوز بعض القضايا التي كانت بمنزلة مسلمة عقدية لا مسوغ للاجتهاد فيها .

1- نفس المصدر، ص . 26.

2- نفسه .

ثم إن اغلب ما استوقف رحالتنا كما سيستوقف كل الرحالة الذين كتبوا في هذا الجنس الخاص من الأدب، هو معالم المدينة الباريسية، التي ارتفعت إلى مصاف الرمز الحضاري، وظل الإعلاء من شأنها بالقياس إلى غيرها وتبرير تفوقها بابا ثابتا في كل الكتابات الرحلية اللاحقة المتتابعة، وهكذا وصف الطهطاوي باريس وصفا شاعريا دقيقا، فيه من الدقة والإيجاز أيضا لمظاهر التنظيم الاجتماعي وحسن الإدارة والترتيب والتدبير والحرية والقوانين والعلوم ما يجعلنا قادرين على الوقوف على هذه المظاهر التي تعكس حجم الفجوة والتفاوت بين العالمين الأوروبي والإسلامي، "فباريس هي مدينة تفوق كل مدائن الدنيا عمراناً، وهي كبرى مدائن أوروبا، وهي كرسي بلاد الفرنسيين وقاعدة ملك فرنسا"<sup>1</sup>، بل كما يبدو أن محور الكتاب "تخليص الإبريز في تلخيص باريس" هو وصف دقيق لمدينة باريس وصفا لم يكن يغادر صغيرة ولا كبيرة في النظم والهياكل والعمارة والعادات والشرائع والفنون وهلم جرا، وصفا جعل من باريز نموذجاً للرقى وحسن العمارة وموطن الحضارة يفوق الخيال، حتى وإن عاد الرحالة مرات ليقول: "إن وصفه جاء مجملاً، وإنه لا يستطيع أن يصف كل ما رأى". لكن يبدو للوهلة الأولى أن الرحالة المصري كان مأخوذاً بالعجب حتى الثمالة في وصف باريس، وبلغ به الأمر إلى أن قال فيها شعراً:

لقد ذكروا شمس الحسن طرا      وقالوا إن مطلعها بمصر  
ولكن لو رأوها وهي تبدو      بباريس لخصوها بذكر<sup>2</sup>.

شرح الطهطاوي في مارسيليا "تعلم تهجي اللغة الفرنسية" وبعد أن مكثوا هناك خمسين يوماً، توجهوا إلى باريس. وبين مارسيليا وباريس قرى كثيرة تكاد تكون متصلة العمران<sup>3</sup> "والمسافرون غالباً في ظل الأشجار المرصوصة بوجه مرتب مطرد في سائر الطرق"<sup>4</sup>.

لكن الطهطاوي بموضوعيته، واستصحاب هويته وقيمه التي تربي عليها في وطنه، انتقد الحضارة الأوروبية ممثلة في فرنسا، بطريقة قياسية حمل فيها الإنسان الأوروبي على المثال والنموذج الإسلامي كما حدده الشرع قرآناً وسنة وفقها، فإذا بهذه الصورة منفرة، ومن ذلك أننا نلقي عند الطهطاوي عبارات مثل: "ومن خصاهم الرديئة قلة عفاف كثير من نساءهم"<sup>5</sup> ويوجز رأيه فيقول "وبالجملة، فهذه المدينة كباقي مدن فرنسا وبلاد الإفرنج

1- نفس المصدر، ص . 75.

2- نفسه .

3- نفس المصدر، ص . 66.

4- نفس المصدر، ص . 67.

5- نفس المصدر، ص . 97.

العظيمة مشحونة بكثير من الفواحش والبدع والضلالات، وإن كانت مدينة باريس من أحكم سائر بلاد الدنيا وديار العلوم البرانية".<sup>1</sup> كما ميز فيها بين علوم التمدن المدني وبين الفلسفات، وقال: "إنه يرفض تلك الفلسفات لأنها حشوات ضلالية مخالفة لكل الكتب السماوية." ويتحدث عن إلحاد ولادينية الحضارة الغربية، ويتعجب كيف أنها تجمع بين العلوم المدنية، وهذه الألوان من الإلحاد، وقد بدأ هذا النص في كتابه بيتين من الشعر يقول فيهما:

أوجد مثل باريس ديار شمس العلم فيها لا تغيب  
وليل كفر ليس له صباح أما هذا، وحقكم عجيب.

ويضيف قائلاً: "إن أكثر أهل هذه المدينة إنما له من دين النصرانية الإسم فقط، حيث لا يتبع دينه، ولا غيره له عليه، بل هو من الفرق المحسنة المقبحة بالعقل، أو فرقة من الإباحين الذين يقولون إن كل عمل يأذن فيه العقل صواب، ولذلك فهو لا يصدق بشيء مما في كتب أهل الكتاب".<sup>2</sup>

لقد نقل الطهطاوي للأمة واقع الغرب، وكشف عن حسناته التي تتفق من حيث الجوهر مع الموروث الإسلامي، والإرث الحضاري للأمة، وتحدث عن سلبيات واقعه، وكشف عن عدم انبهاره بها بل استنكرها، ورفض القول بانسجامها مع الطبيعة الإنسانية. ولقد كان الهدف الأسمى لديه هو أن تتعرف الأمة على واقع غيرها وعلى تقدمه، فتعكف على دراسة واقعها وعلى استدراك نقاط ضعفه وعلاج سلبياته.

والحق أن رفاة لم يقع في ازدواجية الموقف من "الأخر"، ازدواجية الإعجاب والانبهار، ورفضه واستنكاره كلية في نفس الوقت، إن مرجع ذلك أن رفاة كان واعياً بحالة التأخر الحضاري لمجتمعه، لذا لم يكره تقدم "الأخر" بل أراد لأمتة الإسلامية، أن تحذو حذوه في النهوض والانعقاد من التخلف.

من هذا المنطلق حق لنا القول: أن رفاة كان يريد من الأمة أن تنقل من الغرب العام دون الخاص، والعام هو الحضارة، أما الخاص فهو الثقافة، ولقد قيل: "الخاص الذي يقابل ما اصطلاح على تسميته باسم الثقافة، ومن جهة ثانية: العام الذي اصطلاح على تسميته باسم الحضارة، والخاص هو الخصوص، والفريد غير المشترك،

1- نفس المصدر، ص. 98.

2- نفس المصدر، ص. 35.

والذي يميز شعبا من شعب، وأما العام فهو المكتسب المشترك بين أكثر من شعب، وما يمكن نقله من شعب إلى آخر"1.

فلنا أن نقل الحضارة، أي العام، لأنها مشترك إنساني، ولا ننقل الخاص، لأن لأوروبا خصوصياتها التي تميزها، ولنا أيضا خصوصياتنا التي تميزنا وتشكل هويتنا، ولنا أن نتجه إلى الغرب، ليس باعتباره غربا في ذاته، وليس بهدف التمغرب، أو تغريب المجتمع، لأن هذا يعني تخريب المجتمع، وليس تطويره وترقيته. وعلينا أن نحفظ بالخاص بنا، بما يميزنا عن غيرنا، كي لا تضيع هويتنا، وتنمحي خصوصيتنا، وإذا فقدنا هذه الأمور فإنها ليست ثمنا بخسا للتقدم والتمدن والتحضر. فالاحتفاظ بالهوية والخصوصية؛ والإرث الحضاري ليس سهلا حتى يتم التفريط به .

عندما عاد الطهطاوي إلى موطنه الأصلي سنة 1832م، قدم كتابه إلى محمد علي فأمر بطبعه وترجمته إلى اللغة التركية، والذي يستوقفنا في نص الطهطاوي ذلك الاعتزاز بأصله العربي والافتخار به، وذلك في ظل طبقة حاكمة أغلبها من الأتراك والألبان والأرمن، وهكذا يلخص آراءه بعد جولته الباريسية : "ظهر لي بعض التأمل في آداب الفرنساوية وأحوالهم السياسية أنهم اقرب شيها بالعرب يعتدون بأموهم كالعرض والحرية والافتخار، ويسمون العرض شرفا، ويقسمون به عند المهمات، وإذا عاهدوا عاهدوا عليه، ووفوا بعهودهم، ولا شك أن العرض عند العرب العرباء أهم صفات الإنسان"2.

ولقد وصف المسيو جومار<sup>3</sup> ، أحد أساتذة الطهطاوي هذا الكتاب بقوله التالي : "ظهر لي أن هذا التأليف يستحق كثيرا من المدح، وأنه مصنوع على وجه يكون به نفع لأهالي بلد المؤلف ، فإنه أهدى إليهم نبذات صحيحة من فنون فرنسا وعوائدها وأخلاق أهلها وسياسة دولتها. ولما رأى أن وطنه أدنى من بلاد أوروبا في العلوم البشرية والفنون النافعة أظهر التأسف على ذلك، وأراد أن يوقظ بكتابه أهل الإسلام

---

1- قحيف، أمان عبد المومن: إشكالية التقدم في العلم الإسلامي: دراسة تحليلية في فكر رفاة الطهطاوي، دار النهضة العربية، بيروت، الطبعة الأولى، 2002 ، ص. 34 .

2- نفس المصدر، ص . 97.

3- أحد علماء الجغرافيا، الذين قدموا إلى مصر زمن الحملة الفرنسية.

ويدخل عندهم الرغبة في المعارف المفيدة ويولد عندهم محبة تعلم التمدن الإفرنجي والترقي في صنایع المعاش"<sup>1</sup>.

كما كتب الشيخ حسن العطار تقریضا لكتاب الطهطاوي مبرزا قيمته وأهميته قائلا : " . . . قد أودع في هذه الرحلة مؤلفها الأديب الأريب، والفاضل الذكي اللبيب، ما شاهده من عجائب تلك البلاد، وأحوال هؤلاء العباد، ما يحرض العاقل على الأسفار، والتنقل في الأمصار حتى يزداد بذلك علما وبقينا، ويفوق بالإحاطة بأحوال عبادته في الزمن اليسير بما لا يدركه القاطن بداره ولو عاش من السنين مئينا . . ."<sup>2</sup>

## 2- رحلة محمد علي مبارك " علم الدين " :

### أ : التعريف بالمؤلف :

يمثل علي مبارك (1824-1893) صورة حية لرجل النهضة العربية والثقافة الحديثة، وثمره من ثمرات محاولات الإصلاح المتكررة التي شهدتها مصر في القرن التاسع عشر.

وبخلاف رفاة الطهطاوي، لم يكن علي مبارك أزهرى الجذور والتربية، بل تلقى تعليمه في المدارس الحكومية التي أسسها حاكم مصر، محمد علي، مثل قصر العيني. وتابع تحصيله العلمي في فرنسا حيث ذهب إليها مع بعثة طلابية ضمت عددا من أبناء الأمراء . وفي باريس دخل "المدرسة العسكرية" عام 1844م، وقضى هناك أربع سنوات، ثم التحق في سنة 1848م بالجيش الفرنسي؛ حيث أنهى تدريبه واستكمل العلوم العسكرية والهندسية. وعندما عاد إلى مصر وجد أن الخديوي الجديد عباس الأول يريد منه تقليص المدارس الحكومية وخفض ميزانيتها. فقام بهذه المهمة كرجل عسكري يطيع أوامر رؤسائه. ولم يلبث أن أرسله خليفة عباس، الخديوي سعيد، إلى الأستانة لينضم إلى القوات المصرية التي كانت تخوض حرب القرم إلى جانب الدولة العثمانية. غير أن ارتقاء إسماعيل سدة الخديوية في 1863م ، وهو الذي كان زميل دراسته في باريس، أعاده إلى دائرة الحياة السياسية والإدارية حيث أولاه عددا من المناصب والوزارات، خصوصا الأوقاف والمعارف والأشغال والسكك الحديدية، وقد استطاع علي مبارك باشا "الذي جمع بين هذه المهام الجسيمة التي تنوء بالعصبة من الرجال، أن يقوم بها جميعا ، وأظهر من الكفاءة وقوة الإرادة والجلد على العمل ما يدعو حقا للإعجاب، وصدقت كلمته المتواضعة

1- نفس المصدر، ص . 290.

2- نفس المصدر، ص . 291 .



التي قالها في هذا الصدد عن نفسه : فبذلت جهدي، وشمرت عن ساعد جدي، في مباشرة تلك المصالح فقامت بواجبها".<sup>1</sup>

وسافر إلى باريس مرة ثانية في العام 1867م، وقضى بها أربعين يوماً لحل مسألة مالية بين الخديوي إسماعيل وأحد المصارف الفرنسية.<sup>2</sup>

ترك علي مبارك مؤلفات كثيرة تدل على نبوغه في ميدان العمل الإصلاحي والتأليف، فلم تشغله وظائفه على كثرتها وتعدد مسؤولياتها عن القيام بالتأليف، وتأتي «الخطط التوفيقية» على رأس أعماله، ولو لم يكن له من الأعمال سواها لكفته ذكراً باقياً، وأثراً شاهداً على عزيمة جبارة وعقل متوهج، وقلم سيال، يسطر عملاً في عشرين جزءاً يتناول مدن مصر وقراها من أقدم العصور إلى الوقت الذي اندثرت فيه أو ظلت قائمة حتى عصره، واصفاً ما بها من منشآت ومرافق عامة مثل المساجد، والأضرحة والزوايا والأديرة والكنائس وغير ذلك، وله كتاب «علم الدين» وهو موسوعة ضخمة حوت كثير من المعارف من المعارف والحكم. ويقع في أربعة أجزاء تحوي على 125 مسامرة، كل واحدة تتناول موضوعاً معيناً كالبورصة وأوراق المعاملة والدواب والحشرات والحيوانات. إلى جانب ذلك، له كتب مدرسية منها «تقريب الهندسة» و«حقائق الأخبار في أوصاف البحار»، و«تذكرة المهندسينو» و«سوق الجيوش» و«الاستحكامات العسكرية».<sup>3</sup>

كانت نظارة المعارف في وزارة رياض باشا، هي آخر مناصب علي مبارك فلما استقال سنة 1891 م، لزم بيته، ثم سافر إلى بلده ليسهر على أملاكه، ورجع إلى القاهرة للعلاج، وحيث اشتد به المرض، فوفاته المنية في 14 نونبر 1893 م.<sup>4</sup>

### ب: التعريف برحلة محمد علي مبارك :

ليس واضحاً تماماً متى بدأ علي مبارك في تأليف كتابه الذي حمل عنوان "علم الدين" وصدر في الإسكندرية سنة 1882 عن مطبعة جريدة "المحرسة". وهو عمل موسوعي رتبته المؤلف بأسلوب جديد، حيث تناول عدداً هائلاً من المواضيع والعلوم والفنون تحت أبواب منفصلة دعاها "مسامرات" بلغت مئة وخمسة وعشرين

1- الرفاعي : عصر إسماعيل، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الرابعة، 1987 م، ج 1، ص 236.

2- عمارة محمد : تقديم الأعمال الكاملة لمحمد علي مبارك، مصدر سابق، المجلد الأول، ص 73 .

3- فوزي حسين النجار : علي مبارك أبو التعليم، دار الكتب العربي، القاهرة، 1967 م، ص 23 .

4- أمين، أحمد : زعماء الإصلاح في العصر الحديث، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، بدون سنة، ص 184.

مسامرة. وأدرج هذه المسامرات في إطار روائي حيث يجري الحوار بين شيخ مصري اسمه علم الدين وابنه برهان الدين من جهة، وبين مستشرق إنكليزي من جهة أخرى. ويقوم هذا المستشرق، بعد أن اصطحب معه كلا من علم الدين وبرهان الدين إل فرنسا، بشرح معالم الحضارة الأوروبية، بينما يساهم الشيخ المصري في إبداء آرائه انطلاقاً من ثقافته الإسلامية وإحاطته بالتراث الإسلامي والعلوم القرآنية . وعلم الدين، عالم أزهري لجأ إليه المستشرق الإنكليزي عندما هبط أرض القاهرة بغية تصحيح وطباعة كتاب "لسان العرب" لابن منظور. ولا يقتصر كتاب علي مبارك على تفاصيل الرحلة الباريسية هذه، بل يشكل موسوعة ضخمة شملت كل العلوم والفنون في الشرق والغرب. وهكذا نجد مسامرات تتناول مواضيع مثل البحر وعجائبه، والبراكين والإنسان وهيئة الاجتماع، والقهوة، والحشيش، واللؤلؤ، وشتى أنواع الحيوانات وتاريخ العرب في الجاهلية، إضافة إلى المواضيع الأوروبية البحتة.

يعد كتاب "علم الدين" من الكتب الفذة، إذ جمع بين دفتيه الأدب والتاريخ والسياحة واللغة والقصص وغير ذلك. أما طريقة الكتاب فتجمع بين السهولة والسلاسة مع الأسلوب الجذاب الذي يشد القارئ فيصعب عليه تركه. يقول بعض الباحثين أن هذا الكتاب هو أول كتاب ألف على هذا النحو القصصي في الأدب العربي الحديث ، لأنه سبق كتاب "حديث عيسى بن هشام" للمويلحي<sup>1</sup> .

عبر علي مبارك في بداية نصه الرحلي عن شوقه وتلهفه لمعرفة باريس والوقوف على أسرار رقيها قائلاً :  
"وعندي من الشوق إلى معرفة أحوال هذه البلاد العظيمة، والوقوف على أحوال أهلها، والتعرف على آثارها الباهرة وصنائعها الزاهرة ما تشدد به الحاجة إلى استطلاع أخبارها... فلقد امتازت في التقدم، وكثر بها المؤلفون، ورحل إليها كثير من أهل أوروبا، وخفت فيه العقوبات، فكل إنسان يتكلم بحريته، ويكتب ما شاء

---

1- محمد إبراهيم المويلحي ( 1868\_1930)، نفي من مصر على إثر اشتراكه في ثورة أحمد عرابي، وأقام ثلاث سنين قضاها بين إيطاليا وفرنسا وإنجلترا، زار معرض باريس سنة 1900، فجمع نصوصه الرحلية في كتاب وسمه بـ"حديث عيسى بن هشام" وإن كان هذا الكتاب رحلة خيالية قام بها المويلحي في أرجاء القاهرة ، مقارنة بين أحوال مصر قبل الإحتلال وبعده، إلا أنها كانت =رحلة ضمنها خلاصة ما شاهد واختبر أثناء احتكاكه بأوروبا. فرواية المويلحي رحلة متخيلة، في زمنين مختلفين غير متكافئين، يكشف الأول تفسخ المجتمع المصري وفكر مواطنيه، بينما يكشف الثاني عن وجهة النظر المقابلة التي تعكس تماسك المجتمع الأوروبي. راجع نص الرحلة بالموقع [www.al-mostafa.com](http://www.al-mostafa.com) تاريخ زيارة الموقع، 16\_03\_2012 .

من أحوال الخلق، خصوصية أو عمومية، سياسية أو دينية،.. فظهر فيها رجال ذوو أفكار، وانتشرت كتبهم في سائر الأقطار، فانجلت عنهم غياهب الجهل، وتميزوا عن غيرهم بالعقل"<sup>1</sup>.

طمح علي مبارك في هذا العمل إلى تدييح كتاب رحلة موسوعي المضمون يطغى على "تخليص الإبريز في تلخيص باريز" لرفاعة رافع الطهطاوي، ويتجاوزه ويحل محله كمرجع أساسي حول الحضارة الحديثة، يقول علي مبارك : "وقد وقع لي منها نسخة، فرأيت أنه قد أكثر فيها من مدح باريز وأهلها، وأطرب في وصف نساها ورجالها، وطاف حول الدن إلا أنه لم يدندن، ورتع حول ذلك الحمى وحام، وما رفع عن وجه ليلي اللثام. وأظنه لم يأتها من أبوابها، ولا كشف له عند وصفه لها عن نقابها. ومع ذلك فجميع ما ذكره ورآه قد تغير الآن، ومضى من وقته إلى الآن نحو ثلاثين سنة، وفي هذه المدة تقدمت العلوم والصناعات تقدما زائدا، وظهر في أعمال الخلق النتائج المفيدة، فصلح لذلك شأنها واتسعت دائرة ثروتها. ففي وقت رفاعة بك كان الغاز مستعملا إلا أن الطرق التي كانت جارية في استعماله واستخراجه لم تكن كما هي الآن، وما حصل من التحسينات والاستكشافات أزال كثيرا من المضرات التي كانت تحصل من عدم صفائه إذ ذاك، وهكذا أخذ كل شيء في التقدم والتحسين"<sup>2</sup>. والجدير بالذكر أن علي مبارك هو الذي وقع كوزير للأشغال عقد إنارة القاهرة بالغاز سنة 1865، وذلك مع شركة أوروبية .

إن أوروبا ليست وفق كتاب "علم الدين" قطعة جغرافية أو كتلة سياسية ومجموعة دول معينة، بل هي العصر الحديث نفسه، إنها كل ما توصل إليه الإنسان من علوم وفنون واختراعات وأنظمة واقتصاد وتكنولوجيا، وذلك بعد أن عرف الأوروبيون كيف يستفيدون من حضارة الشعوب التي سبقتهم مثل العرب وأهل الصين والهند. يمثل كتاب علم الدين نوعا من الموسوعة يمكن لقارئها أن يلم بالأوجه المختلفة للتقدم الأوربي. وقد كان أمام علي مبارك الوقت الكافي ليشرح بإسهاب جميع ما أراد تبيانه وإبرازه، من ذلك أنه يفرد للحديث عن البخار مثلا ما يزيد عن 15 صفحة. عدا عما يفرد من صفحات طوال للحديث عن المسرح والتربية والزراعة والجغرافيا وغير ذلك، وعنده أن الإفرنج يعتنون بإتقان جميع الأشياء<sup>3</sup>. ولعل هذا الإتقان هو السبب في تقدم أوربا الذي يصفه على النحو التالي: "ومن ثم انتظم أمر الملاحة والتجارة، فحسنت بذلك جميع الأحوال، وصلح شأن

1- مبارك، علي : المصدر السابق، المجلد الثاني، ص.425.

2- نفس المصدر، ص . 434.

3- نفس المصدر، ص . 387.

الناس في المحال والمآل، وحصلت المساعدة الكلية لأحوال الزراعة فأخذت في التقدم، وبعد اقتصار الخلق على جواز البحيرات والأنهار الصغيرة، والسفر في البقاع القريبة، جازوا المحيط نفسه، فانكشف لهم الغطاء عن جزائر وسواحل معمورة بأمم شتى، عارين عن التمدن وأسبابه، فحاربوهم ووضعوا عليهم وأدخلوهم بالقهر تحت طاعتهم، واستحوذوا على أرضهم واستعملوهم في خدمتها لنفعهم ونفع بلادهم، لا لنفع أهلها، فزادت بذلك شهرتهم وقويت سطوتهم على من جاورهم، ولما رأى الغير اتساع دائرة عيشتهم رغب في السير على آثارهم، وهكذا.... فكان هذا هو أول باعث لأهل أوربا على الاستحواذ على بقاع الأمريكان وسواحل إفريقيا وعدة بقاع من آسيا وعلى جميع جزائر المحيط الاطلنطيقي والمحيط الجنوبي والمحيط الهندي، حتى صارت بقعة أوربا أغنى البقاع وأكثرها ثروة".<sup>1</sup>

فمنذ البداية، وحتى المسامرة الأخيرة من مسامرات علم الدين، فإن الإعجاب بمظاهر التقدم في الحضارة الأوروبية أمر واضح للعيان، لا لمجرد الإعجاب، بل وكما يقول علي مبارك باشا: "لأننا نريد لوطننا أن يدخل في هذا الميدان كي يتمتع أهله بهذه الثمار"، فعلي مبارك يعجب من تلك المفارقة الشاذة التي جعلت الأوروبيين علمين "من أمور بلادنا وما بها من الآثار العظيمة، والمباني القديمة أكثر مما نعلم، فهم يذكرون ذلك أمورا ليست في علمنا، ولا اطلعنا على نص لها في كتبنا".<sup>2</sup>

كما نبه علي مبارك في رحلته إلى أثر العقل والعلم والاستنارة وتنظيم المعلومات في ذلك، فكتاب "وصف مصر" الذي قدم فيه علماء الحملة الفرنسية أدق دراسة للمجتمع المصري، في ماضيه وحاضره، سياسيا واجتماعيا واقتصاديا وفكريا وفتيا، قد جاء ثمرة لإقامة لم تتعد ثلاث سنوات على أرض هذه البلاد، فتساءل مستغربا: "ككيف تفحصوا هذا التفحص واستكشفوا هذا الاستكشاف؟ وكانوا مع ذلك في هذه السنوات في قتال دائم مع المصريين، ثم فتش عن العثمانيين الذين بقيت مصر في أيديهم قرونا.... ولم يحدثوا من ذلك شيئا"<sup>3</sup>.

---

1- نفس المصدر، المجلد الأول، ص. 452.

2- نفس المصدر، المجلد الثاني، ص. 73.

3- نفس المصدر، ص. 374.

أينما حل علي مبارك، وحيثما ارتحل، وكلما وقع بصره على مظهر من مظاهر التقدم في فرنسا، نجد صورة المقابل في وطنه وحاله ماثلة في الذهن، الذي يقارن، ويزن، ويبحث عن أسباب الفروق الشاسعة، وكيف السبيل إلى اللحاق؟

فعندما يتجول الشيخ مع ابنه برهان الدين والانكليزي في شوارع مرسيليا وحول مينائها، يتذكر القاهرة والإسكندرية، فوجد بينهما وبين مرسيليا فرقا كبيرا، وأن ذلك ليس إلا من تفاوت أحوال التقدم. ونظر إلى المارين بالطرق وقارن أحوالهم بما يعلم من أحوال أهل بلاده، فوجد أن لا نسبة بينهما إلا في الصورة فقط، لأنه رأى الكل يسعى مع الاجتهاد والغيرة والنشاط في طلب الرزق، وعليهم آثار الرخاء والثروة والنعمة. ومما زاده تعجبا ما رآه من اجتماع خلق كثير لا يسمع لهم صوتا ولغطا، كما هي عادة المصريين وأهل المشرق، "بل كل مشغول بأمير نفسه، سائر في طريقه، محترز من أضرار غيره أو تغيير خاطره، ومع تنوع الأشغال والأعمال وكثرة العمال فلا ضرب ولا سب، فكأنهم اجتمعوا للصلاة أو لسماع منشور من أحد الولاة، فلا يسمع بينهم إلا ألفاظ لا بد منها من المتعاملين من غير صياح ولا صراخ"<sup>1</sup>.

وتأكد للشيخ أن أصل الصياح والضجيج عند أهل المشرق والهدوء والنظام في مدن الغرب قد انبثق "من قوانين الضبط الابتدائية وطرق التربية الأولية، فتعود كل على ما نشأ عليه". وعندما رأى أطفال باريس، تذكر القاهرة وأحوال أطفالها الوخيمة، وقارن بين الحالتين، وتغنى أن "تكون تربية أطفال المصريين كالجاري بباريس، لتخلص الأطفال من ربة الأمراض الناشئة عن عدم تربيتهم، وحبسهم داخل بيوت أهلهم"<sup>2</sup>.

وعلى غرار الطهطاوي، لم يقف علي مبارك أمام الحضارة لأوربية موقف المنبهر، الذي حجبت الدهشة عن بصيرته نقاط الضعف في بنائها وثمرات تطبيقاتها، فهو لا يدعو إلى التقليد الأعمى كما هو حال المتغربين من بني جلدتنا، ولا يجذب النقل الكلي، ولا يرى كل ما صلح للقوم صالحا لنا. بل لقد كانت حاسة النقد وملكة التمييز من بين ما امتاز به موقفه، وتميزت بها وقفته عندما واجه تلك الحضارة الزاهرة المزدهرة العملاقة.

فمنذ البداية، يؤذن الرجل في قومه بضرورة الخروج من عالم العصور الوسطى، الذي كان يقسم فيه العالم حسب تصورات أهله إلى "مؤمنين" و"كفار"، فنحن المؤمنون، وعلينا أن ننزل في وطننا، دار الإسلام والسلام، ولا

1- نفس المصدر، المجلد الأول، صص. 631-632.

2- نفس المصدر، المجلد الثاني، ص. 236.



وأمام هذه القناعات الفكرية الراسخة في أذهان النخبة العاملة، وقف علي مبارك المصري رافضا لها، ومبشرا بمنطق جديد وفكر حديث، لا يقسم العالم والبشر إلى "مؤمنين" و"كفار"، إنما إلى "متقدمين" و"متخلفين" وإلى "أصدقاء" معاهدين و"أعداء" محاربين، ويدعو قومه إلى مودة المتحضرين المعاهدين لما فيه مصلحة الوطن، وتقدم بلاد الإسلام، فيقول علم الدين لتلاميذه: "إن هذا الرجل من المعاهدين لنا، الذين لم نعهد نقضهم لعهدنا، وربما كان في تعليم العلم لمن لم يكن على ديننا فائدة ... فيسلم ... أو يبقى على دينه، ولكنه يرد

عن ديننا الأقاويل التي يلقيها، في بلادهم، بعض علمائهم في حقنا ... وقد قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ أَنْ يَقُولُوا ذُرِّيَّةَ بَنِي آدَمَ وَبَنِي نُوْحٍ وَبَنِي إِبْرَاهِيمَ وَبَنِي إِسْمَاعِيلَ غَيْرُ آدَمَ وَنُوْحٍ وَبَنِي إِبْرَاهِيمَ وَبَنِي إِسْمَاعِيلَ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَنَا بِمَبْهُوتَاتٍ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ١٠١ ﴾

وقد نزلت في المشركين الذين نقضوا العهد، فنبذ الرسول إليهم عهدهم وأمر بقتالهم ... وهذا الرجل ليس بمثابة هؤلاء الخارئين من المشركين، فالنهي عنهم، إنما هم

الخاربون للمسلمين، لا كل من خالف دينهم، كما يدل عليه ما بعد هذه الآية من قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ أَنْ يَقُولُوا ذُرِّيَّةَ بَنِي آدَمَ وَبَنِي نُوْحٍ وَبَنِي إِبْرَاهِيمَ وَبَنِي إِسْمَاعِيلَ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَنَا بِمَبْهُوتَاتٍ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ١٠١ ﴾

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ أَنْ يَقُولُوا ذُرِّيَّةَ بَنِي آدَمَ وَبَنِي نُوْحٍ وَبَنِي إِبْرَاهِيمَ وَبَنِي إِسْمَاعِيلَ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَنَا بِمَبْهُوتَاتٍ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ١٠١ ﴾

1- سورة التوبة، الآية. 6 .  
2- سورة الممتحنة، الآية. 8 .

واستدل أيضا بالإمام الحافظ جلال الدين السيوطي (849-911 هـ 1445-1505م) الذي "سئل عن حكم صحبة الكفار وقبول هديتهم؟ فأجاب بجواز ذلك معللا حكمه بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: **اطلبوا العلم ولو بالصين**<sup>1</sup>، ومن المعلوم أن أهل الصين وثنيون، وإن كان المقصود من الحديث السفر إلى طلب العلم"<sup>2</sup>.

وهو لا يدعو قومه إلى فتح النوافذ فقط، واستقبال الوافدين والنظر في أفكارهم، بل يطلب إليهم الرحيل إلى موطن الحضارة، والسفر إلى مهادها. لقد أصابتهم العزلة بأمراض سموها حب الأرض وكراهة مغادرة البيئة، والعزوف عن فراق الأوطان، فجاء علم الدين ليعلمهم أن المدح والذم لا يتعلق بالسفر أو القرار، هكذا بإطلاق، وإنما يتوقف على عنصر "المنفعة" و"الثمرة" التي يحققها الإنسان وتحققها الأمة من وراء كل من الارتحال أو القرار، فالذين يتكون أوطانهم لتحصيل منافعها هم حضور في هذه الأوطان، لحضور أوطانهم في العقول والقلوب الطامحة الباحثة، بينما نجد الحاضرين بلا ثمرة مضافة، هم غائبون عن الأوطان مسافرون عن ميادين المنفعة<sup>3</sup>.

لقد حث محمد علي مبارك على السفر إلى أوروبا، خدمة للوطن وتمكينه من اللحاق بالأمم التي تجاوزته حضاريا، وتفوقت عليه اقتصاديا، وسحقته عسكريا، يقول علي مبارك: "فينبغي لكل عاقل أن يطوف ما استطاع من البقاع، ليرى ما لأهلها من الأحوال والعادات، وما يترتب على كل حالة من المضار والفوائد، ويقارن بينها وبين ما هو جار في بلاده وبين أهل وطنه، وينبههم على ما رأى نفعه وما علم ضرره، فمن سافر واطلع على أحوال غير بلاده كمن عاش زيادة على عمره، وليس حب الوطن خاصا بملازمته وعدم مفارقتها، وليس المقام به دليلا على حبه، ولا الرحيل عنه دليلا على بغضه... فمن أحب الوطن حقيقة سعى في نفعه ونفع أهله بما أمكنه سفرا أو حضرا"<sup>4</sup>.

### 3- رحلة محمد عبده: رحلة إلى صقلية

#### أ- التعريف بالمؤلف:

هو محمد عبده حسن خير الله، ولد بمصر بمحافظة البحيرة سنة 1266هـ-1849م، ونشأ في أسرة، تعززت بكثرة رجالها، ومقاومتهم لظلم الحكام، وتحملهم في سبيل ذلك العديد من التضحيات: هجرة، وسجنا،

1- حديث موضوع: انظر سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة للألباني برقم/416.

2- نفس المصدر، ص. 359.

3- نفس المصدر، المجلد الأول، ص. 377.

4- المصدر نفسه، المجلد الأول، صص 375، 377.



وتشريداً، وضياح ثروة ... وهو يحكي عن هذا الأمر فيقول : "إنه قد سعى واش بأهلي عند الحكام بحجة أنهم ممن يحمل السلاح، ويقف في وجوه الحكام وأعوامهم عند تنفيذ المظالم ، فأخذوا جميعاً، وزجوا في السجون واحداً بعد واحد، ومن دخل منهم السجن لا يخرج إلا ميتاً، وكان جدي حسن، شيخاً بالبلدة، وهو الذي بقي من البيت مع ابن أخيه إبراهيم"<sup>1</sup>. فتشرب منها الإباء حتى قال فيه أستاذه الأفغاني : "أي أبناء الملوك أنت؟" تعلم بقريته القرآن وشيئا من العلوم، ثم انتقل إلى طنطا ليتعلم بالجامع الأحدي ما هو أعلى. ثم التحق بالأزهر . وقد مال فيه إلى الاتجاه المحافظ منهم ، ولما قدم الأفغاني إلى مصر لازم مجلسه العلمي فتعلم الفلسفة والتصوف والمنطق، وتأثر به أيما تأثر. وبعد تخرجه في الأزهر عمل به مدرسا، كما درس بدار العلوم وبمدرستي الألسن والإدارة. وقد كانت له مآخذ على طرق التدريس في الأزهر فاخط لنفسه منهجا مخالفا يقوم على التحليل والنقد والحوار.

وإلى جانب اهتمامه العلمي التربوي، بدأ يهتم بالحياة السياسية تأثرا بأستاذه الأفغاني، وانضم إلى الحزب الوطني الحر الذي أسسه جمال الدين، وظل يكتب مقالات في الصحف تتناول مواضيع شتى في التربية والسياسة والشؤون العامة<sup>2</sup>.

ذهب إلى لبنان وأقام فيه نحو سنة، ثم غادره إلى باريس، للقاء جمال الدين الأفغاني، فأسسها بها جمعية العروة الوثقى، وأصدرها مجلة باسم الجمعية. ثم سافر إلى انكلترا حيث قابل عددا من المؤلفين الانجليز، وقد دامت إقامته في باريس نحو ستة أشهر .

عاد إلى بيروت بعد توقف مجلة العروة الوثقى عن الصدور، فدرس العقائد الإسلامية في المدرسة السلطانية وفسر القرآن في الجامع الكبير .

بعد وفاة الخديوي توفيق سنة 1892 م خلفه عباس الثاني، فاتصل به محمد عبده فعينه عضوا في مجلس إدارة الأزهر. ثم تولى منصب الإفتاء العام للديار المصرية سنة 1899م. وأصبح تبعا لهذا المنصب عضوا في مجلس شورى القوانين، وفي مجلس إدارة الأوقاف. ترأس عام 1900م جمعيتي إحياء العلوم العربية والخيرية الإسلامية توفى سنة 1323هـ - 1905 .

---

1- عبده محمد : الأعمال الكاملة ، دراسة وتحقيق : عمارة محمد، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، 1980م، المجلد الأول . ص 23.

2- النجار : المرجع السابق ، ج ، 3 ، ص . 88 .

## التعريف برحلته :

لعله من الجائز القول ، إن شهرة محمد عبده ، تقوم أساسا على كتاباته الإسلامية الإصلاحية، والفتاوى التي أصدرها وفق مفهوم عصري يطمح إلى إرساء ممارسة متطورة لأحكام الشريعة، وتفسيره للقرآن، وإن كان لم ينجزه بأكمله، فتنكب لهذه المهمة بعد غيابه تلميذه محمد رشيد رضا، غير أن لمحمد عبده تراثا أدبيا لا يتصل بالمسائل الشرعية الدينية اتصالا مباشرا، وهو تراث ينطوي على إعجاب عميق بالأدب العربي في مرحلتيه الجاهلية والإسلامية ، واطلاع دقيق على مآثر كتابه وأدبائه وفلاسفته ومؤرخيه.

كان الإمام محمد عبده ممن يعتقد بأن الكتب وحدها لا تكفي لمعرفة الحياة والناس، بل كان يرى أنه لا بد أن يكمل الإنسان ثقافته بالإطلاع على ذلك الكتاب الكبير "كتاب العالم"، كما يقول العالم الفرنسي ديكرت، لهذا كان الإمام محمد عبده حريصا على أن يقوم كل عام ببعض الرحلات إلى خارج بلاده ، وكان يقول عندما يريد السفر إلى أوروبا : " إنني أذهب لأجدد نفسي"، وقد زار الإمام كثيرا من بلاد أوروبا وأفريقيا وآسيا للوقوف على أحوالها وفهم روح أممها، وتحدث عن أثر تلك الأسفار، لا سيما الأوروبية منها، فقال : "ما من مرة أذهب إلى أوروبا، إلا ويتجدد عندي الأمل في تغيير أحوال المسلمين إلى خير منها، وذلك بإصلاح ما أفسدوا من دينهم وتشحيذ عزائمهم إلى معرفة شؤونهم وامتلاك ناصيتها بأيديهم دون إفراط في ملتهم ، وهذه الآمال وإن كانت تضعف في نفسي عندما أعود إلى ديارى لكثرة ما ألقى من العنف، وشدة ما أصادف من المصاعب، وسوء ما أرى من انصراف المسلمين عن النظر في منافعهم، وشدة عدواتهم لأنفسهم، وقوة رغبتهم في تمكين ظالمهم من رقابهم، وحبهم في الاستعباد لهم لغير سبب معقول، ولكنني متى عدت إلى أوروبا ومكثت فيها شهرا أو شهرين تعود إلي تلك الآمال، ويسهل علي تناول ما كنت أعده من المحال"<sup>1</sup>.

انطلاقا من هذا النص، يتضح أن محمد عبده لم يكن غريبا عن أوروبا، سواء لجهة الإقامة أو الثقافة أو الاحتكاك المباشر، فلقد التحق بجمال الدين الأفغاني في باريس، واصر الإثنان من هناك جريدة "العروة الوثقى"، ثم زار عبده بريطانيا، حيث التقى بصديقه الكاتب والشاعر الانكليزي ولفرد بلنت.

---

1- أمين، عثمان : دروس للشباب في سيرة الأستاذ محمد عبده، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، عدد 40، نونبر 1964م ، مكتبة الإسكندرية ، ص . 111.

نسبت كثير من الكتابات العربية كلاما لمحمد عبده، يعبر فيه عن انبهاره بالحضارة الغربية، وهي أنه حينما سافر إلى أوروبا، قال : "رأيت هناك مسلمين بلا إسلام، ورأيت هنا إسلاما بلا مسلمين." وقد نفى محقق كتبه وأعماله محمد عمارة نسبة هذه العبارة إليه، وطالب عمارة من المدعين لذلك بتحديد مصدر هذه العبارة قائلًا : "متى وأين قال هذا الكلام ؟ أنا أنتظر من أي شخص يدعى أن محمد عبده هو قائل هذه العبارة أن يدلنا على المصدر."<sup>1</sup> وبين بوضوح من أقوال محمد عبده وكتابه والنصوص الثابتة ما يؤكد أن هذه العبارة مدسوسة عليه، ولم يكن إطلاقًا من المنبهرين بالحضارة الغربية، والداعين إلى اعتبارها نموذجًا صالحًا للإنسانية، فهو الذي قال عن الحضارة الغربية : "إن هذه المدنية، مدنية الملك والسلطان، مدنية الختل والنفاق، وحاكمها الأعلى هو "الجنيه" عند قوم و "الديرة" عند قوم آخرين، ولا دخل للإنجيل في شيء من ذلك"<sup>2</sup>.

من النصوص التي تركها لنا العالم المصري محمد عبده مجموعة من الفصول حول "رحلة في صقلية"، قام بها سنة 1903، وذلك بعد مروره بكل من فرنسا وانكلترا، ونشر نص رحلته في مجلة "المنار" لصاحبها محمد رشيد رضا، ثم أعاد هذا الأخير نشرها في المجلد الثاني من كتابه "تاريخ الأستاذ محمد عبده"<sup>3</sup>.

ولعل اختياره للكتابة عن صقلية، وهي جزيرة إيطالية لا أهمية لها في ميدان الحضارة الأوروبية الحديثة، نبع من قرار مسبق هدفه تجنب الخوض في وصف التقدم الفرنسي والبريطاني، مثلًا، في وقت كانت بريطانيا تحتل بلده مصر، وتسيطر فرنسا على الجزائر وتونس. كما أن الوضع الثقافي والاجتماعي والديني في صقلية أتاح لرحلتنا إبداء ملاحظات يمتزج فيها النقد والتقويم الصارم بالإعجاب واستخلاص الدروس، من دون التعرض لتهمة النفخ في أبواق الدول الاستعمارية<sup>4</sup>.

---

1- عمارة : فكر التنوير بين العلمانيين والإسلاميين، نخصة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، 2007م، ص. 69.

2- عبده : المصدر السابق، ج، 3، ص. 205.

3- قد اعتمدت على النص الذي حرره الدكتور محمد عمارة : محمد عبده، الأعمال الكاملة. المصدر السابق، الكتابات الاجتماعية، الجزء الثاني، صص . 167- 202.

4- أفرد ابن حوقل لصقلية كتابًا، مستقلا، وكتب عنها فصلا في صورة الأرض، وأبدى موقفا سلبيا إزاء أهلها وعاداتهم وخص بالإستهجان سكانها المسلمين، أما في القرن الثاني عشر فإن العالم الجغرافي العربي الشريف الإدريسي ( 1100-1165 ) فقد ألف في صقلية تحت رعاية حاكمها الملك روجر النورماني ( توفي سنة 1154 ) كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مجلدان، عالم الكتب، بيروت 1989، وأظن في وصف مدن صقلية وحصونها وعمارتها وازدهار تجارتها وخصبها حتى ليخال القارئ أنها

سيرا على منهج من سبقه من أفراد النخبة المشرقية التي انشغلت بمعرفة أوروبا والوقوف على حقيقة التحولات الفكرية والسياسية والإقتصادية التي شهدتها في القرن التاسع عشر، أكد عبده في نصه الرحلي على ضرورة معرفة اللغات الأوروبية، لاسيما الفرنسية والإنجليزية، وكان عبده حريصا على مطالعة الفكر الأوروبي على نطاق واسع، وكانت مكتبته تحتوي فيما تحويه من الكتب العديدة مثل كتاب «إميل» لجان جاك روسو (1712\_1778م)، وكتاب «حياة يسوع» لديفيد ستراوس (1808\_1874م)، وتأليف ارنست رينان (1823\_1892م) وكتاب «التربية» لهربرت لسبنسر، (1820\_1903)، ومؤلفات ليوتولستوي (1828\_1910م).

دفع عمل محمد عبده في أجهزة الدولة القضائية والتربوية دفعه أولا إلى تعلم اللغة الفرنسية، وذلك بعد أن بلغ من العمر أربعة وأربعين عاما، وأكمل تعلم الفرنسية أثناء العطلات الصيفية التي يقضيها في فرنسا وجنيف، وفي سنة 1901م، قام بزيارة فيينا وبرلين ثم عرج على جنيف حيث قضى بضعة أسابيع هناك يدرس اللغة الفرنسية.

يروى لنا محمد عبده كيفية تعلمه اللغة الفرنسية، فيقول: "بدأت بتعلم اللغة الفرنسية عندما كانت سني أربعاً وأربعين سنة، ولكن ميلتي إلى تعلم لغة أجنبية ابتداءً في أثناء الحوادث العربية، فتعلمت الهجاء ثم تركته ونسيتته تقريبا، وعندما سافرت إلى فرنسا أول مرة أقمت هناك عشرة أشهر كنت أحرر فيها جريدة "العروة الوثقى" ولم أتعلم شيئا من الفرنسية، لأن اجتماعي كان بالسيد جمال الدين، وبرفاق من العرب، واشتغالي بتحرير تلك الجريدة ما كان يسمح لي بوقت كاف للتعلم بدراسة منتظمة... أما بعد عودتي من النفي إلى مصر، واشتغالي بالقضاء في المحاكم الأهلية والحكم بها، خصوصا في الجنايات على أصول القوانين الفرنسية وجلوسي بين قضاة يغلب عليهم العلم بتلك القوانين في لغتها، فقد قوي عندي الميل إلى تعلم اللغة الفرنسية، حتى لا أكون في معرفة القوانين أضعف ممن أجلس معهم مجلس القضاء"<sup>1</sup>.

وقد تمكن محمد عبده من اللغة الفرنسية تحداً وقراءة وفهماً، وهو ما شهد به أحمد لطفي السيد حين ذكر أن الإمام عبده كان يجلو لإخوانه المصريين ما غمض من عبارات الفيلسوف الفرنسي "تين" في كتابه المشهور

---

= نصف القارة الأوروبية. للاطلاع على تفاصيل هذه الرحلات راجع، الكيلاني شمس الدين : صورة أوروبا عند العرب في العصر الوسيط، دار الثقافة، سوريا، الطبعة الأولى، 2004 م.  
1- عبده : المصدر السابق، الجزء الثاني، ص . 335.

عن "الذهن"، وقد أملى الإمام عبده في مرض موته فصلا كاملا بالفرنسية نشره المسيو "دي جرفيل"، في كتابه عن مصر الحديثة بعنوان «وصية سياسية للمرحوم المفتي محمد عبده»، فضلا على أن الإمام قد ترجم عن الفرنسية كتاب "«التربية» للفيلسوف الإنجليزي هربرت سبنسر، ترجمة تدل على تمكنه من تلك اللغة<sup>1</sup>.  
بعد سفر محمد عبده إلى إنجلترا تأكد له في نهاية المطاف أن الانكليزية هي اللغة الأكثر انتشارا فقال: "وجدت أن الذي يعرف الانكليزية أسعد حقا في فرنسا من يعرف الفرنسية في انكلترا، فإنك لا تجد نزلا في البلاد الفرنسية إلا وفيه كثير من الخدم يعرفون الانكليزية، سألت عن السبب في ذلك فقيل لي أن أهل فرنسا قلما يسيحون في بلاد الانكليز، أما الانكليز والأمريكيون فيملأون سهول فرنسا وجبالها ويدهشون بالذهب صغارها ورجالها، فاضطر الفرنسي إلى ترويح الانكليزية في بلاده لتعجب الزائرين، وليستكثر من الناثرين"<sup>2</sup>.

وإضافة إلى الأسباب المتعلقة بالوظيفة وحيثيات فهم القوانين الفرنسية، يورد لنا عبده سببا أكثر دلالة وأبعد أثرا، ولعله كان يلخص بذلك آراء النخبة المثقفة في المشرق العربي آنذاك، يقول: "ثم إن الذي زادني تعلقا بلغة أوروبية، هو أنني وجدت أنه لا يمكن لأحد أن يدعي أنه على شيء من العلم، يتمكن به من خدمة أمته ويقتدر به على الدفاع عن مصالحها كما ينبغي، إلا إذا كان يعرف لغة أوروبية. كيف لا وقد أصبحت مصالح المسلمين مشتبكة مع مصالح الأوروبيين في جميع أقطار الأرض، وهل يمكن مع ذلك لمن لا يعرف لغتهم أن يشتغل للاستفادة من خيرهم؟ أو للخلاص من شر الشرار منهم؟"<sup>3</sup>.

على الرغم من انتقاده لصخب بعض الصقليين وتسولهم وكسلهم ووساختهم<sup>4</sup>، فإنه يثني على اهتمامهم بحفظ آثارهم ومخطوطاتهم، ولفت نظره اعتناؤهم بالمتاحف وبساتين النبات والحدائق. وكما أنه يتوقف مطولا أمام ظاهرة انتشار الصور (اللوحات الزيتية) والتماثيل، ووقف مشدوها أمام خزانة الكتب واهتمامهم بالمطالعة والقراءة.

1- أمين عثمان : المرجع السابق، ص . 12.

2- عبده محمد : المصدر السابق، ص . 185 .

3- نفس المصدر، ج ، 3 ، ص . 189 .

4- نفس المصدر، ج ، 2 ، ص . 192 .

كما لم يفته أن يقارن في رحلته إلى صقلية، بين المقابر في إيطاليا ونظيرتها المصرية، معبرا عن استغرابه من الاهتمام المبالغ فيه بجمالية المقابر ورونقها من طرف الصقليين، يقول محمد عبده : "ماذا أقول في وصف هذه المقبرة ؟ مدينة جميلة المناظر، بديعة المداخل، بعيدة المخارج، الداخلة فيها أكثر من الخارج، قد اختير لها شجر الصنوبر زينة من بين الأشجار، لأنه في خضرة دائمة، كأن أرواح من يموت تنتقل إليه بعد مفارقة الأجساد... مدينة زينها الأحياء في حياتهم، ليعدوها لإقامتهم، فيما يزعمون، عند مماتهم...أخاطبك وأنت مصري من سكان القاهرة لا ترى في مقبرتك ولا في الطريق الموصلة إليها إلا ما يخيفك من الموت وينغصك فيه غمر من الغبار، وتلؤلؤ من التراب، تتذكر بها أنك من التراب وإلى التراب"<sup>1</sup>.

كان محمد عبده، بعد عودته من المنفى إلى مصر سنة 1888م، قد وطد العزم على عدم التورط في أعمال سياسية ذات نفحة تنظيمية أو نضالية، غير أن حاسته الاجتماعية والثقافية ظلت متوقدة، يزيد توقدها الاضطراب القسري للإقلاع عن التعبير السياسي المباشر، وتنبئنا ملاحظاته التي دونها إثر رحلته إلى صقلية عام 1903، عن رهافة هذا الحس الاجتماعي، يقول بعد أن حط الرحال في بالرمو عاصمة الجزيرة : "ثم بعد ذلك بدأت بزيارة قصر الملك، ولا حاجة بي إلى وصفه، فإن ذلك من شأن صاحب جريدة أو سائح يطلب إظهار البراعة في حسن الوصف، وسعة العبارة. وغاية ما أقول إنه قصر أو سراي واسع كبير البيوت، باهر الزينة والأثاث كسائر قصور الملوك في أوروبا، أو في غيرها من البلاد الشرقية والعربية، مما تنفق فيه الأموال بحساب وبغير حساب، ولا شيء منها من كد الملك أو الأمير، وإنما هي من أموال الرعية وكسب الحفاة الذين لا يجدون ما به يستترون ويشتهون، لو انفق على جدران أبدانهم وأركان أجسادهم جزء من المليون الذي انفق على حيطان تلك القصور وزواياها وسقوفها"<sup>2</sup>.

كما استنكف عن وصف "كنيسة الملك" التي زارها، لكنه توقف طويلا أمام كنيسة أخرى تعود إلى القرن السادس من التاريخ الميلادي، وسبب هذا التوقف يعود إلى فتح المسلمين لصقلية في القرن التاسع، وبقيت الحضارة العربية الإسلامية مسيطرة عليها حتى بعد احتلال النورمانديين للجزيرة في القرن الحادي عشر. وأثار بقاء هذه الكنيسة إعجاب محمد عبده ، واعتبر ذلك دليلا صادقا وحجة ساطعة على تسامح المسلمين وقبولهم بالمخالف لهم في الدين، فيقول : "ومن ذلك تعرف أن العرب، رحمهم الله، لم يمسوا هذه الكنيسة بسوء مع

1- نفس المصدر، ص . 188.

2- نفس المصدر، ص . 174 .

عظمة سطوتهم وامتداد ملكهم في سيسيليا<sup>1</sup> ، وتلمح من هذا أن العرب وإن فسق كثير منهم عن أمر ربهم ، فروح الدين الإسلامي كانت تنوس في كثير من أعمالهم، نهي الدين عن هدم الكنائس إذا لم تكن مريضاً لشر يخشى خطره على الدولة، فحفظوا لرعاياهم كنائسهم ومعابدهم، ولم يصنعوا بها ما صنع غيرهم ممن جاء بعدهم ولم يريدوا أن يقتفوا أثراً خصومهم ممن كان يهدم مساجدهم ويخرب معابدهم، فحيا الله أيامهم<sup>2</sup>.

وبعد أن تذكر الماضي بعظمته ، عرج على الحاضر وقد تجسست أمامه إمكانات الوحدة العربية فعلق قائلاً: "لا جرم إن الإسلام عربي وأحق الناس برعايته والوقوف عند حدوده، هم العرب، فأين هم؟ يمكن أن يقول قائل: إنهم في جزيرة العرب، أو في الشام أو في العراق، أو في مصر، أو في تونس والجزائر، أو في المغرب الأقصى، أفلم يكفك كل هذا العدد في أكثر من ألف بلد. حتى نقول أين هم؟ ولكني أقول له: إنما يكون أولئك القوم إذا بقيت لهم أخلاقهم وحياة أرواحهم، فان كان لم يبق إلا أشباح تشبه أشباحهم، فليسوا بهم، فلي الحق أن أقول عن العرب: فأين هم؟"<sup>3</sup>.

---

1- يقصد صقلية

2- نفس المصدر، ص . 174-175.

3- نفسه .

## المبحث الثالث: الرحلة الشامية إلى أوروبا.

### المطلب الأول : السياق التاريخي.

إذا كان الاحتكاك المصري بأوروبا احتكاكا جماعيا مباشرا، فإنه في بعض المناطق العربية الأخرى مثل سوريا ولبنان كان فرديا، مما جعل الوعي بالتجاوز أقل وأضعف فيها، حيث لم يكن شعبيا في حين أنه كان في مصر رسميا وشعبيا، ولكن لبنان بتموضعاته الدينية والإثنية أسبق إلى الاتصال بأوربة، وكان لأبناء لبنان "صلات أوثق من الصلات التي كانت قائمة بين الغرب وسائر الأقطار العربية. فكان لبنان أشبه بمعبر تعبره التيارات الفكرية الغربية إلى الولايات الآسيوية في الإمبراطورية العثمانية"<sup>1</sup>.

حاولت تلك البعثات التبشيرية أن تلعب دور الفاتح الذي لعبه المسلمون الأوائل حين أدخلوا الكثير من النصراني في الدين الإسلامي، كذلك حاولت المدارس التبشيرية تنصير الكثير من روادها.<sup>2</sup> وقد توسعت مناهج تلك المدارس وتعددت في أواخر القرن التاسع عشر، إضافة إلى ازدياد عدد المدارس نفسها "وقد بلغ عدد تلك المدارس بنوعها المسيحية والمختلطة قبل نهاية القرن التاسع عشر قرابة 23 مدرسة، تدرس مختلف العلوم، إضافة للعلوم الدينية المسيحية."<sup>3</sup>

لقد كانت أرض المسلمين الشامية في لبنان وسوريا وفلسطين، ثم العراق فمصر، قبلة للإرساليات التبشيرية من مختلف الطوائف النصرانية، كاليسوعيين والمرسلين واللاتينيين والإنجيليين. وهذا الوجود القوي للطوائف النصرانية في بلاد المسلمين يفسره، أساسا، روح التسامح الإسلامي تجاه عقائد الديانات السماوية غير الإسلامية، وكذلك الحقوق التي حفظها الإسلام لغير المسلمين في شأن ممارسة شعائرهم والاحتكام لشريعتهم. وقد يضاف إلى هذا التفسير موقع المنطقة الشامية، من الناحية الجغرافية الإستراتيجية، في قلب العالم الإسلامي وفي ملتقى القارات، ولذلك أهمية حضارية وتجارية واقتصادية كبيرة في حسابات العدو المتربص وتخطيطات قادة الغزو الاستعماري، هذا

---

1- للاطلاع على تفاصيل مدارس البعثات، ينظر : جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، الطبعة الثانية، 1978م، الجزء الرابع .

2- البرت، حوراني : الفكر العربي في عصر النهضة، ترجمة : كريم عزقول، دار نوفل، بيروت، الطبعة الاولى، 1979م، ص. 78.

3- المحافظة : المرجع السابق، ص . 27.



فضلا عن قرب المنطقة من عاصمة الدولة العثمانية شوكة المسلمين يومئذ، وكذلك قربها من مراكز إسلامية ذات رمزية خاصة لدى المسلمين، وخاصة في فلسطين وفي شبه الجزيرة العربية .

من المدارس التي كانت آنذاك: مدرسة عينطورة والكلية اليسوعية وغيرها في لبنان، وانشئت في مصر مدارس تبشيرية أيضا ولكن بعدد أقل، وربما يعود السبب إلى أن مصر كانت دولة مستقلة حتى دخول الإنجليز إليها محتلين عام 1882. ولم يهتم الإنجليز بالتبشير باهتمام الروس والفرنسيين والأمريكيين، وقد قام الجميع بإنشاء مدارس وكليات ومجلات عربية، وخصوصا في لبنان، وكان أقدمها الكلية الأمريكية في لبنان ثم مثلتها في مصر. وكانت تلك المدارس والكليات تعمل على تنشئة جيل جديد على أسس غربية في الشرق الأدنى، وهذا يعني أن المدارس والمبشرين كانت الغاية منهم جميعا خدمة بلادهم ونزعاتها الاستعمارية في البلاد العربية، وليست خدمة أبناء الطوائف المسيحية العربية كما كانوا يصرحون حين مجيئهم إلى بلاد العرب، وهذا ما أشار إليه **طلال عثريسي** مستدلا بعبارة لأحد الفرنسيين يقول فيها متحدثا عن تلك المدارس: "إن الأهالي الذين يكسبهم المرسلون يتحولون إلى أنصار جدد يضحون في سبيل مصالحنا، ونمارس عليهم حمايتنا الرسمية أو على الأقل وصايتنا".<sup>1</sup>

**إضافة** إلى تلقينهم وتعليمهم وتبصيرهم بالثقافة الغربية وتحولاتها وتياراتها، فحولتهم بذلك إلى دعاة مخلصين لبلادهم وللقومية العربية، والعمل من تم على استقلال البلاد العربية فيما بعد وتحليليها من الدولة العثمانية. كما أن المدارس والبعثات التبشيرية قد خرجت أفواجا من المنبهرين بالحضارة الحديثة، وذلك ما لا يمكن نفيه، لأن أولئك حين وعوا عالم أوربا "عدوا أنفسهم بمعنى من المعاني جزءا منه".<sup>2</sup>

لا يخفي الفرنسيون في رسائل قناصلهم وسفرائهم التي كتبوها من لبنان إلى وزارة الخارجية في باريس في القرن التاسع عشر أهدافهم من تأسيس المدارس وتقديم المنح للطلبة، فالأول أن يجعلوا أتباعا لهم من بين العائلات التي تم اختيار أبنائها لهذه المنح، والثاني تحفيز الطلاب ومسؤولي المؤسسات على دراسة اللغة الفرنسية، وأن تعليم الأطفال الذي ترعاه فرنسا هو من بين السبل التي يمكن بواسطتها نشر النفوذ الفرنسي، وأن المنح المقدمة تسعى إلى إعداد قادة إنسانيين ومستنيرين في لبنان.<sup>3</sup>

1- عثريسي طلال : "مركزات الغزو الثقافي"، مجلة الفكر العربي، ع 21 ، 1981، ص . 38.

2- حوراني : المرجع السابق، ص . 77.

3- عثريسي : المرجع السابق ، ص . 39 .

الأمر نفسه ينطبق على بلد سوريا، حيث أشاروا وبكل وضوح إلى الهدف من إنشاء المدارس التبشيرية بهذا البلد المشرقي، ومن ذلك قولهم: "ولاشك أن التأثير التي نمارسه على هذا البلد -سورية- في القرن 19 وما يضطلع به في تطوره الصناعي والاقتصادي وفي إدارته المالية، قد ساهم في نشر لغتنا. كما أن مدارسنا الطائفية بتوسعها وانتشارها وخدمتها في اجتذاب مختلف الطبقات، قد فعلت الشيء الكثير في هذا المضمار."<sup>1</sup>

لقد كانت الإرساليات الكاثوليكية والبروتستانتية تعمل بحرية أوسع من قبل، فتنشئ المدارس على نطاق أوسع وعلى مستوى أرفع، وتؤلف كتباً مدرسية وتترجمها وتطبعها على مطابعها، فخرجت من المدارس طبقة جديدة من المثقفين أتقنت إلى جانب اللغة العربية لغة أو أكثر من اللغات الأوروبية، واطلعت بقصد من أساتذتهم أم بغير قصد على أفكار القرن التاسع عشر.

واستنتاجاً مما سبق، يمكن القول أن المدارس التبشيرية ومعها المبشرون قد أدوا دورين متناقضين أحدهما مقصود، وكان الآخر رغماً عنهم ودون قصد منهم. وقد أشرنا إلى الدور الأول، أما الثاني وهو الذي له علاقة بإشكالية بحثنا، فيتجلى في تنوير وتبنيه أذهان الشاميين على التفاوت الكبير بين مجتمعاتهم والمجتمع الغربي. إن هذه المدارس والمعاهد كانت قد فتحت المجال أمام العرب لتعلم اللغات الغربية والانفتاح على الحضارة الغربية ومنجزاتها التقنية والعلمية، فشكلت بذلك عاملاً من عوامل الوعي العربي بالتجاوز الحضاري، وكانت دافعا للرحالة المشاركة الشاميين للرحيل إلى "الأخر" لاستقصاء ومشاهدة مظاهر حضارته مباشرة.

**المطلب الثاني : نماذج من الرحلات الشامية إلى أوروبا**

**1- فارس الشدياق : " كشف المخبأ عن فنون اوربا".**

**أ- التعريف بالمؤلف :**

ولد فارس الشدياق في سنة 1801 م في حارة الحدث بالقرب من بيروت، وقد تعلم الشدياق مبادئ القراءة والكتابة في القرية على يد معلم؛ لم يقرأ في حياته سوى كتاب الزبور الذي وصفه بالغموض، وفساد ترجمته إلى العربية، وركاكة عبارته حتى كاد أن يكون "ضرباً من الأحاجي" ثم أرسل إلى مدرسة عين ورقة في كسروان،

---

1- نفس المرجع ، ص . 122.

فأتقن اللغة السريانية والعربية والنحو والمنطق وعلوم البلاغة واللاهوت، وأتم فيها المرحلة الابتدائية، إلا أن المعلم نصح أباه بإبقائه في البيت، وتدريبه على إجادة الخط والنسخ، ففعل ذلك حتى برع فيهما.<sup>1</sup>

رحل أحمد فارس الشدياق إلى أوروبا في العام 1848، عاقدا العزم على الاستقرار في إنجلترا وتدريس اللغة العربية هناك. غير أن أسبابا عدة حالت دون تحقيق هذه الأمنية. وكان الشدياق اعتنق المذهب البروتستانتي، وكلفته بعثة التبشير الإنجيلية في بريطانيا بترجمة التوراة إلى اللغة العربية. وبعد أن قضى في مصر نحو عشر سنوات (1825-1834) حيث تولى هناك رئاسة تحرير الجريدة الرسمية "الوقائع المصرية"، انتقل إلى مالطا، ومكث فيها إلى أن استدعته البعثة البروتستانتية إلى إنجلترا لإكمال الترجمة. وفي بريطانيا طلق الشدياق زوجته الأولى، واقترن بامرأة انكليزية. وإثر انتهائه من ترجمة التوراة، استقر الشدياق في باريس، ثم انتقل إلى تونس في العام 1857، واعتنق الإسلام، واتخذ اسم أحمد وتحلى عن اسم العائلة فأصبح منذ ذلك الحين أحمد فارس، لكنه ما لبث أن تلقى دعوة من السلطات العثمانية في اسطنبول للعمل هناك. وفي اسطنبول باشر الشدياق بإصدار جريدة "الجوائب" التي صدر العدد الأول منها في 2 تموز يوليو 1861 م، وتوقفت عن الصدور في العام 1884م وحقق الشدياق عبر "الجوائب" شهرة عربية وإسلامية وعالمية، إضافة إلى استمراره في نشر الكتب والدراسات.<sup>2</sup>

ولعل أكثر مؤلفاته شهرة هو كتاب «الساق على الساق في ما هو الفاريق» الذي صدر في باريس سنة 1855، وكتاب «المخبا عن فنون أوروبا» الذي صدر في تونس سنة 1866، وله أيضا «الواسطة في معرفة أحوال مالطا» الذي صدرت طبعته الأولى في سنة 1836م، ثم عاد، فدمج «كشف المخبا» و«الواسطة» في كتاب واحد عام 1881م سماه «كشف المخبا عن فنون أوروبا».

### ب: التعريف برحلة الشدياق :

لم يفصل بين رحلة أحمد فارس الشدياق إلى مالطا سنة 1834م، ومنها إلى بريطانيا وفرنسا، عن رحلة رفاعة الطهطاوي إلى فرنسا إلا سنوات ثمان سبق فيها الثاني الأول إلى اكتشاف العلم الجديد الذي صنعه المدنية

---

1- للاطلاع على تفاصيل حياة فارس الشدياق راجع :

- زيدان جرجي: مشاهير الشرق، مطبعة الهلال، القاهرة، الطبعة الأولى، بدون تاريخ الجزء الثاني، ص. 101. تاريخ آداب اللغة العربية، مصدر سابق، الجزء، 1 صص. 184 - 185 .

- الزركلي: المصدر السابق، ج 1، ص . 261.

2- الصلح عماد : أحمد فارس الشدياق، آثاره وعصره، دار النهار للنشر، بيروت، 1980م، ص . 65.

الأوربية الحديثة. والشدياق بهذا الاعتبار، في جملة أوائل من اتصلوا بينا بين تلك المدنية وظواهرها في الاجتماع والسياسة والثقافة، وتعرفوا إليها بعيدا من مناخات الصدام بين أوربا المستعمرة ومجتمعات العرب والمسلمين.

حث الشدياق الأغنياء العرب على السفر إلى بلاد أوربا قائلا: " فأما أنت ياسيدي الغني ، فالأولى لك أن تسافر من مدينتك العامرة، حتى ترى بعينك ما لم تره في بلدك، وتسمع بأذنك، وتخبر أحوال غير قومك وعاداتهم وأطوارهم، وتدرى أخلاقهم ومذاهبهم وسياستهم"<sup>1</sup>، وقد أشار إلى الأخبار التي سمعها عن إنجلترا قبل سفره إليها، فوجدها عند قدومه إليها تختلف عما وصفه الناس، فقال: " هذا الفاريق حين نوى السفر من الجزيرة إلى بلاد الإنجليز كان بعض الناس يقول له: إنك سائر إلى بلاد لا تطلع عليها الشمس، وبعضهم يقول: إني أخاف عليك أن تفقد فيها رثتك لعدم الهواء... فلما سار إليها وجد الشمس شمسا، والهواء هواء، والماء ماء، والرجال رجالا، والنساء نساء... فلو أنه سمع لأولئك الناس لفاته رؤية ذلك أجمع"<sup>2</sup>.

لقد تعددت أسبابه في تدوين رحلاته وتفاوتت بين مجرد نقل مرئيات متفاوتة في القيمة والأهمية، وبين توجيه التدوين نحو أغراض اجتماعية وسياسية تفيض عن مجرد الإعلام بالشيء والتعريف به، لكن الذي لا يرقى شك إليه أن الشدياق لم يكن، شأنه في ذلك شأن الطهطاوي، يكتب نصا أدبيا أو يتلهى بالوصف والسرد، بقدر ما كان ينقل إلى مجتمعه خبرة مجتمعات أخرى مختلفة، لكي يطرح عليه أسئلة وجودية من خلالها. لعله كان أكثر قسوة على مالطا، التي بدت له مجرد "صخرة قرعاء" من بريطانيا وفرنسا اللتين بدتا له أكثر تقدما من الأولى وأدعى إلى الاهتمام. غير أنه لم يمنع نفسه من رؤية ما هو مميز ويستحق التنويه به في تلك "الصخرة القرعاء" نفسها.

من نافلة القول أن رواية الشدياق لمشاهداته في أوربا لم تكن فعلا وصفيا عاديا قابلا للتحقيق دون آثار نفسية، فالرجل روى ما رواه بغير قليل من المعاناة الناجمة عن تشغيل حاسة المقارنة، اليقظة لديه، التي لا تتوانى في وضع أحوال مجتمعنا العربي البئيسة في ميزان المقارنة، مقابل أحوال مجتمعات أوربا.

ومع أن بعض المكابرة يسعفه في التخفيف من حدة ووطأة الشعور الضاغط بالفارق الحضاري ويفتح أمامه بأسه أفق الشعور بالتميز وأحيانا التفوق في ميدان القيم والأخلاق، إلا أن تلك المكابرة لا تلبث أن تتراجع تاركة المجال للحديث عن الإصلاح والتغيير لدى الأغلب من النهضويين العرب في القرن التاسع عشر، ومن دونوا منهم

1- الشدياق: الساق على الساق، دار الرائد العربي، بيروت، الطبعة الأولى، 1982م، ص 521.

2- نفس المصدر، ص 525.

رحلاتهم خاصة، بيد أن ما انفرد به الشدياق عن أضرابه من الكتاب العرب المعاصرين له أن تلك الممانعة عنده اتخذت شكلا نقديا للمجتمعات الغربية أكثر مما اتخذت شكلا دفاعيا عن الموروث الحضاري العربي الإسلامي فكانت، لذلك السبب ، اقل انكفاء من غيرها من الممانعات التي أبدتها أمثاله.

غير أن أهم ما ميزه على الإطلاق تلك الدرجة العالية من الموضوعية والحياد في سرد مشاهداته ومرويياته عن أوروبا، وعلى نحو رفع كثيرا من قيمة ما كتبه وصفا لها وتعريفها بها، حيث كتب الشدياق في مقدمة رحلته : "وليكن معلوما، عند القارئ والسامع والداري، أي في كل ما وصفت به الانجليز والفرنسيين وغيرهم من أهل أوروبا، لم يمل بي هوى ولا غرض ولا بغضا أو حبا، إذ ليس لي حذل مع أحد منهم ولا ضلع، ولا انحراف ولا ميل ولا ضر ولا نفع، وإنما رويت عنهم ما رويت، وحكيت ما حكيت بحسب ما ظهر لي أنه الصواب، فلا ينبغي أن يحمل قولي على ضغن أو إغضب، وأعوذ بالله من أن أبخس الناس أشياءهم." <sup>1</sup> وهو حقا ما بحسبهم، وإنما ذهب في الوصف والرواية المحايدين والموضوعيين إلى حدود تحطت أحيانا، ما فعله الطهطاوي، وفي ذلك يقول الشدياق : "ظل خاطري حاقما على مورد التأليف...وقلبي هائما بسفر طريف... إلى أن مكنتني التقادير الممكنة...بعد لبثي على تلك الصخرة الدرنة...نحو أربع عشرة سنة .. من السفر إلى بلاد الانكليز المتمدنة، فاغتنمت تلك الفرصة عجلا، وظننت أنني أدركت أملا. وعولت على أن أشفع تأليف الوساطة برحلة يعظم وقعها، ويعم نفعها، فصرت أقيد ما عن لي من الخواطر وصفهم وسنح وتارة انتقل من الكتب ما ليس فيه للفكر مسرح، وللطرف إليه مطمح، فان شؤوهم متشعبة وأحوالهم مستغربة، وأحساءهم شتى، ومقاصدهم تستغرق وصفا ونعتا، ويعلم الله أي مع كثرة ما شاهدت في تلك البلاد من الغرائب، وأدركت فيها من الرغائب، كنت دائما منغص العيش مكرها، كمن فقد وطره، ولزمته معسرة، لا يروقي نضار ولا نضرة، ولا نعمة ولا مسرة، ولا طرب ولا لهو، ولا حسن ولا زهو، لما أي كنت دائم التفكير في خلو بلادنا عما عندهم من التمدن ، والبراعة والتفنن .<sup>2</sup>

كان الشدياق ذا نزعة عربية واضحة على الرغم من إعجابه بتقدم العلوم في أوروبا من جهة، وعمله في اسطنبول كناشر لصحيفة "الجوائب" شبه الرسمية من جهة أخرى. وعندما وصل إلى الإسكندرية قادما من بيروت، أثناء حكم محمد علي، لفت نظره تغطرس الأتراك ومعاملتهم للعرب معاملة تنطوي على السطوة والتجبر، فعلق

1- الشدياق : كشف المخبا عن فنون أوروبا، مطبعة الجوائب، قسطنطينية، الطبعة الثانية، سنة 1881م، ص . 3 .

2- نفسه .

قائلا: "ما سبب تكبر هؤلاء الترك على العرب، مع أن النبي صلى الله عليه وسلم كان عربيا والقرآن أنزل باللسان العربي والأئمة والخلفاء الراشدين والعلماء كانوا كلهم عربا، غير أن أكثر الترك يجهل ذلك فيحسبون أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول شويله بويله أو بقالم قبالم"<sup>1</sup>.

إذا كان الشدياق سباقا إلى وصف الحياة والناس في مالطة، فإنه لم يكن كذلك عندما وجد نفسه تحت سماء أوروبا عام 1848، حيث سبقه إليه الشيخ الطهطاوي باثنين وعشرين سنة، وكتب عن حاضرتها باريس، رحلته الأنفة الذكر، والتي أتيج للشدياق الإطلاع عليها، لذا أثر أن يكتب عن الجوائب التي لم يتطرق إليها سلفه وعن البلدان التي لم يزرها الطهطاوي أثناء وجوده في أوروبا، فاختصر الشدياق الكلام عن باريس، وأفاض في الحديث عن بلاد الانكليز، فقال: "وإنما لم أطل الكلام في وصف باريس لما تقدم آنفا من أن الشيخ رفاعة بك ألف رحلته فيها، ولأن البلدة معروفة عند سكان البلاد الشرقية أكثر من لندرة"<sup>2</sup>.

وبالنظر إلى تباين المشاغل الفكرية بين الطهطاوي والشدياق، فإن الأخير لم يوجه اهتمامه إلى دراسة أسس المدنية الأوربية، والنظم السياسية في تلك البلاد بقدر اهتمامه بالحديث عن المجتمعات الأوربية، وما يتصل بها من العادات والتقاليد والأخلاق، وما أحرزوه من تقدم في مجالات العلوم والآداب، والفنون، والتكنولوجيا، فكان اهتمامه بالثمرة دون الشجرة<sup>3</sup>.

وعلى رغم إعجابه بالتقدم العلمي والتطور الصناعي في أوروبا، ظل الشدياق محتفظا بروح نقدية جعلته يرى السلبيات إلى جانب الإيجابيات، فهو لا ينكر أن الدول الأوروبية تبذل في سبيل العلوم قصارى جهدها، لكنه يشير إلى ناحية أخرى تجاهلها غيره، فيؤكد: "أنه مهما يظن أن دول الإفرنج تبغي تعميم المعارف لدى جميع رعاياها فليس الأمر كما يظن. إذ ليس من نفع الدولة والكنيسة أن تكون العامة متكيسة ومتفقهة ولاسيما عامة فرنسا فإن معارفهم سبب لتخطئة الدولة، ولهذا يقع فيها من التغيير ما لا يقع في غيرها"<sup>4</sup>.

---

1- نفس المصدر، صص. 152-153. ويضيف قائلا: "لا والله. ما هذا كان لسان النبي ولا لسان الصحابة والتابعين والأئمة الراشدين رضي الله عنهم أجمعين" ..

2- الشدياق: كشف المخبأ...، مصدر سابق، ص. 122.

3- وهب، قاسم: "تجليات الحداثة الأوربية وتأويلها في النصوص المبكرة للرحالين العرب إلى الغرب"، ندوة، الرحالة العرب والمسلمون: اكتشاف الآخر المغرب منطلقا وموتلا، وزارة الثقافة، الرباط، الطبعة الأولى، 2003 م، ص. 353.

4- الشدياق: كشف المخبأ...، مصدر سابق، ص. 144.

كما صادف وصوله إلى باريس خلع الملك لوي فيليب، وصعود الجمهوريين إلى سدة الحكم، ففر الملك وأهله إلى إنجلترا "ملجأ الفارين ومأمن القارين"<sup>1</sup>. ففي تعليقه على هذا الحدث ما ينم عن استنكاره لما جرى في فرنسا، ولانعدام الأمن فيها، وثقته بما توفره بلاد الانكليز من مأمن للخائف وملجأ للطريد .

كان الشدياق مولعا بالمفاضلة والمقارنة في البلاد التي زارها كباريس ولندن وغيرهما، إذ يعقد الشدياق مقارنة مطولة بين صفات وعادات كل من الانكليز والفرنسيين، واستخدام نمطا في الحكم يقوم على التصنيف والموازنة في مفاضلته بين الانجليز والفرنسيين، يقول: "يحق لي أن أقول في الإنجليز والفرنسيين ما قاله الآمدي في أبي تمام والبحثري، وهو أن الجيد من الإنجليز خير من الجيد من الفرنسيين، والرديء من هؤلاء خير من الرديء من أولئك، ومآل الكلام أن عامة الفرنسيين أفضل، وأن خاصة الإنجليز أجل وأمثل"<sup>2</sup>.

وعدد المزايا الانكليزية التي أعجبهت فإذا بها : عدم الفضول، والصدق، وغياب النميمة، وتقسيم العمل والوقت، والدقة في أداء الواجبات الخاصة والعامة، وعدم الشك في النساء من دون مبرر، واطمئنان الجميع إلى سيادة القانون، حيث يقول في ذلك : "ويعجبي من الانكليز خصالا منها أنه ليس عندهم فضول وتكليف على الدخيل فيهم، بل وعلى من هو منهم، فلا يزورنه في غير وقت الزيارة ولا يستعيرون منه ولا يتعرضون لما يأتيه...."<sup>3</sup>.

وبعكس أهل بلاده، تأكد للشدياق، أن الانجليز يتعدون عن الشماتة ونكاية الخصم والحسد، وقليل ما يتظلمون أو يجدفون حتى أنك "لا تكاد تسمع خادما يطعن في مخدومه، أو خادمة تعيب مخدومتها، وإن كان يعتقد أنه هو أولى بالسيادة، أو أن شرف مخدومه متوقف على بقائه عنده"<sup>4</sup>.

ولفت نظره استتباب الأمن في الشوارع، خصوصا عند الخروج ليلا حتى "أن البنت التي تبلغ عشر سنين لتسعى بعد نصف الليل وتمر بالشرطة فكأنها مرت على بعض أقاربها، فتسألهم ويجاوبونها وتسترشدهم بغير

---

1- نفس المصدر، ص . 35 .

2- نفس المصدر، ص . 274 .

3- نفس المصدر، ص . 144 .

4- نفس المصدر، صص . 145-144 .

حشمة ولا انقباض فيرشدونها ويذهبون معها... وفي البلاد الشرقية إذا كلمت المرأة بعض الشرطة أو العسس ليلا لم يلبث أن يمد إليها يده ويهتك حجابها وهيئات أن ينتقم منه منتقم"<sup>1</sup>.

ويستنتج الشدياق أن اطمئنان المواطن إلى ممثلي القانون والدولة وعدم الخوف منهم هو الذي يميز الغرب عن الشرق، ويؤدي إلى نتائج تعكس نفسها على شتى مرافق الحياة: "وعندي أن عدم الهيبة والخوف على صغر هو الذي يورث جيل الإفرنج جميعا الإقدام والجرأة على الأمور والكلام، ويزيدهم بسطة في الجسم والعقل، ويبطئ بهم عن الشيب والهزم. فإن إلقاء الرعب في قلب الصغير كلوافح الرياح العاصفة على الغرس، فمتى تمكن منه جعله بعد ذلك غير صالح للمساعي الجليلة، وما عدا خوف الحكام والظلام ورؤساء الديانة في بعض البلاد الشرقية، فإن الأمهات يزرعن في قلوب أطفالهن الخوف من العفريت والروح الشرير..."<sup>2</sup>

كما لفت الأنظار إلى ما أنجزه الغربيون في ميادين الحياة كافة من فنون وعلوم، وصناعة، وتجارة، وما استحدثوه من آلات عجيبة، كالتلغراف، والقطار، والمطبعة وغيرها...

ورغم إطراء الشدياق للفرنسيين وقوله أنهم "أمة قديمة مشهورة مشهود لها بالفضل والتقدم والمساعي العظيمة"، وإدراك أنهم "قد حذقوا كل علم وبرعوا في كل فن"، أنكر عليهم عدم اعتقادهم بضرورة "وجود الدين" ورأى أن "اتصاف أمة بعدم الدين من أعظم ما يهين شرفها ويخفض قدرها". كما استنكر حالة الفقر التي عاينها أثناء سكنه في لندن قائلا: "والحاصل أنه لا فقير أشقى من فقير لندرة، كما أنه لا غني أترف من غنيها". وعاب على الانكليز جهلهم بصناعة الطبخ خاصة في المطاعم العمومية؛ حيث لا "مرفقة في الشتاء ولا أرز ولا عدس ولا حمص ولا فول... وإنما هو الشواء والبطاطس أو شيء من البقل مسلوق سلقا" وقال المديح لصحف الأخبار والكتب الصادرة في لندن، ولكنه رأى فيها عيبا كبيرا وهو عدم استقصاء أخبار "البلاد الشرقية وسائر الممالك الإسلامية. فإذا كان فيها خبر عنها فإنما هو مخصوص بالتجارة"<sup>3</sup>.

استنكر من عاداتهم "حلق لحاهم وشواربهم"، و"تفافتهم على الشهرة". و"ادعاء علمائهم ما ليس فيهم"<sup>4</sup>، وأخذ على بعض علمائهم انتصارهم للعبرانية والسريانية على العربية، كما سخر من غفلتهم مع ما هم

1- نفس المصدر، ص . 148.

2- نفسه .

3- نفس المصدر، صص . 181، 183 .

4- نفس المصدر، ص . 120.



عليه من التقدم في ميادين العلم، فهم ، "قوم يعلمون عدد نجوم السماء، ورمل البحار، وهم مع ذلك يأكلون ما يضر البهائم فضلا عن البشر."<sup>1</sup>

## 2- فتح الله مراش الحلبي: "رحلة الى باريس"

### أ : التعريف بالمؤلف

قليلة هي المصادر التي عنت بحياة فرنسيس المراش وقليل هم متداولوها، ونظرة سريعة على هذه المصادر ستعكس ذلك، فنجد أن المراش ينتمي إلى عائلة لها باع في الأدب والعلوم والوجاهة، وقد برزت عائلته بين نصارى حلب في منتصف القرن التاسع عشر في طليعة حركة النهضة الفكرية، واعتبروا في منزلة تماثل منزلة اليازجيين والبساتنة في لبنان والشام، وفي هذه الأسرة العريقة كان مولد فرنسيس سنة 1836. ولما بلغ الرابعة من عمره أصيب بداء الحصبة وثقلت وطأته عليه. وإذ لم تفلح الأساليب التقليدية المعروفة إذ ذاك في مداواة فرنسيس، كان لابد من أن يترك المرض في جسده من الآثار ما نغص عليه حياته كلها وأوهن قواه وأعل بصره، وأسقم نظرتة إلى العالم فغلب عليه التشاؤم في أكثر آثاره. ولفرنسيس أخ وأخت اشتهرا بالأداب، فأخوه عبد الله مراش (1839-1900) ترك من الآثار ما يستحق الدراسة مثل شقيقه فرنسيس وربما أكثر. أما مريانا مراش (1848-1919) أخت فرنسيس، فلها مكانتها البارزة بين أعلام النهضة النسائية في العالم العربي، ويذكر فيليب دي طرزي أنها "أول سيدة سورية أنشأت مقالة في مجلة أو جريدة"<sup>2</sup>.

انكب المراش على خزانة والده يطالع ما فيها من الكتب والمصنفات، مما كان له الأثر العميق في تفتح قريحته، واتجاهه إلى قرض الشعر في مرحلة مبكرة. وفي سنة 1850 اصطحبه والده معه إلى فرنسا ثم بيروت ثم عاد إلى حلب يشتغل بالأدب والعلوم، أما اللغات فقد درس الفرنسية والإيطالية بشغف كبير عبر عنه في "رحلة باريس". وفي الخامسة والعشرين من عمره بدأ المراش دراسة الطب مدة أربع سنوات على يد طبيب إنكليزي ثم مارس الطب سنة كاملة بعد تخرجه (1865-1866م). تبنى مبادئ الثورة الفرنسية بحماس منقطع النظر. ولعله أيضا أول من ألف رواية سياسية باللغة العربية لشرح هذه المبادئ وتعميمها، وهي «غابة الحق» المنشورة في

1- نفس المصدر، ص . 136.

2- الحلو، كرم : الفكر الليبرالي عند فرنسيس المراش، بنيته وأصوله وموقعه في الفكر العربي الحديث، مركز دراسات الوحدة العربي، بيروت، سلسلة أطروحات الدكتوراه، رقم، 60، ص. 53. انظر ترجمته الكاملة، جرجي زيدان، مشاهير الشرق ، مصدر سابق ، ص 447 \_ 451. - فيليب طرازي ، تاريخ الصحافة العربية، بيروت، المطبعة الأدبية، 1913م ، ص ص ، 141\_144 . - الزركلي : الأعلام ، مصدر سابق، ج ، 5 ، ص . 344.

العام 1866. وكان نشر بعد عام من ذلك كتابه «رحلة باريس»، وهو أقرب إلى الكراس، يصف فيه انطباعاته ويورد بعض آرائه السياسية والاجتماعية، وكانت حلب تشهد في تلك الحقبة نهضة أدبية تتبع تطوراتها سامي الكيالي في مؤلفه «محاضرات عن الحركة الأدبية في حلب» سنة 1957م.<sup>1</sup>

### ب : التعريف برحلة المراه:

شكا غير دارس من صعوبة الحصول على النص الأصلي لرحلة باريس لفرنسيس مراه، فالنص غير متوفر على رفوف المكتبة العربية أو غيرها، وقد يكون محفوظاً في سدة ما ولم يعد نشره بالشكل الذي يليق بمكانة هذه الرحلة وتناغمها مع رحلات نظرائه من المثقفين العرب الذين تهيأ لأعمالهم من ينشرها ويعقب عليها ويناقشها، أما «رحلة باريس» للمراه فلم تكتب لها هذه المزية إلا عام 2004م، عن طريق المؤسسة العربية للدراسات والنشر، وهذا يقدم إشارة حول إهمال كثير من مؤلفات النهضة العرب القاطنين في البلاد العربية الأخرى، الذين كانوا يعزفون على الوتر نفسه الذي عزفت عليه النهضة العربية في مصر آنذاك، فما كتبه المراه عن مدينة باريس لا يقل من حيث الأهمية ما قرأناه في كتاب الطهطاوي والشدياق وعلي مبارك، بل سخر رحلته رسالة إلى بني قومه هدفها تنويرهم وتبصيرهم للخروج من ظلمات الجهل إلى العلم، فالعلم المبني على التمدن والحرية تصنع الحياة وتتبدد عوالم الاستبداد والخرافات والأوهام، وتخرج العرب من حالة الركود والجمود الفكري والتخلف الاقتصادي والتأخر الحضاري واللحاق بالغرب المتقدم.

ترك مسقط رأسه، كما يخبرنا، في 7 سبتمبر سنة 1866، متوجهاً إلى الإسكندرونية عبر ميناء حلب، ممتطياً "ظهر كديش". وكانت المفاجأة الأولى التي تعرض لها، مشاهدته الإسكندرونية في حال من التدهور والإهمال الكاملين، فاعتزته "صاعقة لأنني رأيتها هاوية في أعماق هاوية من القهقرة والانحطاط".<sup>2</sup>

وتبدأ بعد الإسكندرية، رحلته في السفن البخارية، ومر بكل من اللاذقية وبيروت، فلمح بعض معالم العمران التي تنم عن بداية نهضة وتقدم إلى الإمام. وبعد أن صرف يومين في بيروت علق قائلاً: "فلا بد أن هذه المدينة قد جلست الآن على المرتبة الأولى ما بين مدن سوريا، وأصبحت مبرزا لكل نور يلوح في هذا الإقليم. ففيها جملة علماء عظام ومدارس معتبرة وجمع غفير من الأبنية الجميلة والشوارع الرحبة المستقيمة. وبالإجمال، فوجهها متجه على الدوام إلى آفاق التقدم والنجاح عصبا عن معارضة الظروف الساعية كل يوم

1- الكيالي، سامي : محاضرات عن الحركة الأدبية في حلب، معهد الدراسات العربية العالية، الطبعة الأولى، 1957 .

2- المراه ، فرنسيس : رحلة إلى باريس ، دار السويدية ، دبي، الطبعة الثانية، 2004، ص . 14.

بردع هم التمدن هناك"<sup>1</sup>. كما أعجب بالإسكندرية التي وصل إليها سنة 1866م، وأثنى عليها بقوله: "مدينة قائمة على ساق التجدد وآخذة طريق الإتساع والعظمة ، وقد أوشكت أن تنضم في صف مدن أوروبا"<sup>2</sup>.  
عندما وصل إلى مرسيليا، صرح قائلاً : "انقضى بي باشق البخار حيث وجدت نفسي مرتاحاً في حضن الغرب، متخطراً تحت سماء أوروبا." وبعدها توجه إلى ليون، وفي طريقه كتب عن مشاهداته : " فأني عين تشاهد تلك الأرض الممتد فيها ذلك الطريق، ولم تلبس حلة الإندهاش والتعجب، وتسكب على القلب سلسبيل الإبتهاج والطرب، وتدفع إلى النفس أنوار الأدب والتهذيب، فاتحة أبواب أجمد وأمنع القرائح. فلا يسعني هنا الشرح عما رأيت من خصب وازدهار هذه الأرض السعيدة، وما يلوح عليها من بديع عناية البشر المتمدنة ونتائج سمو أفكارهم ، لأن ذلك يحتمل مجلدات كبيرة ."

وصف معاناته في الطريق بين حلب والإسكندرية، مبرزاً المشقة والمعاناة التي لاقاها في طريقه، كما أشار إلى "القفار المحرقة الصخور المنفردة في العراض الخالية، والجبال الصلعاء القمم، والوهاد العميقة." وبالمقابل، وصف مفاتن الطريق بين مرسيليا وليون، ليكشف للقارئ حجم الهوة، وسعة البون، بين أحوال العمران في فرنسا وبلدان المشرق العربي، وفي ذلك يقول : "...إن جميع تلك المسافات التي أمر عليها، فلوات وجبالاً وهضاباً ، كانت بستاناً واحداً ومدينة واحدة . وما كنت أشاهد لون التراب الطبيعي سوى بين أسطوانات طريق الحديد حيث تكرر العجلات ، وما سوى ذلك فجميعه بساتين نضرة، وكروم مخصبة، وغياض أنيقة تتخللها الينابيع والأثمار، ورياض تبتسم بثغور الزهور المتنوعة الأشكال والألوان، تزهر رافلة بجللها السندسية النضرة التي لا تذبل غضاضتها ولا تجف بضاضتها .."<sup>3</sup>

لقد اقترب فرنسيس المراه من الحضارة الغربية في وقت كان العالم العربي يعاني صنوفاً من الجهل والظلم والقيود والتخلف، فلا عجب أن نقرأ انبهاره بحضارة الغرب وازدراؤه لحال الشرق.

لم يكن ارتحال المراه وفقاً على هذا الهدف، بل كان لغاية تعليمية، إذ كان هدفه هو استكمال دراسة الطب في باريس، يقول: "فشرعت أباشر الأمراض متلاعباً بصناعة أبقراط، وداومت على ذلك نحو سنة، ثم أوعز إلى ضميري أن أرحل إلى مدينة باريس محط عرش الإفرنسيس لكي أنضم إلى سلك مدرستها الشهيرة

1- نفس المصدر، ص . 16.

2- نفس المصدر، ص. 17 .

3 نفس المصدر، صص . 20\_21.

حيثما يأخذ الدارس حقه ، ويحصل على ما لا يوجد خارجاً<sup>1</sup>، ولكنه يمهد لهذه الرحلة بمقدمة انطوت على تأملات فلسفية تبحث عن تفسير لما يرى ويحس، يقول: "فلما أدركت رشدي وبلغت أشدي ، دخلت هذا العالم لأتحسسه وأرى كيف يجب اعتباره مني، وعلى أي وجه، وبالنسبة إلى أي مادة؟ فعندما تبصرته كافيًا، وانتقدته وافيًا، تبلبلت إشعاراتي نحوه، وهمت على وجهي، وما عدت أدري ماذا أعتبر منه، لأنني رأيتُه سوقاً عظيماً لا حد له، وجميع الخلائق أقامت في حوانيتها"<sup>2</sup>.

لم يستطع المرآش أن يخفف من شهقة انبهاره بما شاهد عليه باريس من تقدم وحضارة وعمران وبناء وجد وعمل وحركة دؤوب وطعام وشراب وعدل وعقل وتمدن وأخلاق وحرية، كلها مفردات عجت بها رحلته، فلم يتوقف عن توظيفها وصقلها وعرضها أمام القارئ حتى يندهشوا لدهشته. إن قيمة الوقوف المتكرر المتأمل عند مظاهر الحضارة الغربية في باريس وعند العظيم من الأمور وغير العظيم، لهو دليل على ذلك التأخر الذي يعيشه العالم العربي آنذاك، فمتقفوه وقفوا موقف المشدوهين مما رأوا وشاهدوا وإن لم يقارنوا مباشرة أو لم ينتقدوا، فالوقوف في مثل هذه الهيئة على حالة الاشمزاز من الواقع العربي آنذاك، وتدوين الرحلات لدليل آخر على الرغبة الحقيقية في التواصل الحضاري عن طريق الإخبار الأدبي لأبناء الأمة، فيتراضوا من أجل تحقيق شيء من مقومات التقدم والفائدة.

لقد شكلت هذه الرحلة من خلال تصويرها لحضارة الغرب رسالة تواصلية أدبية حضارية بين أمتين أو حضارتين متباينتين على مستوى التقدم والرفي الحضاري، وقد عبر عن ذلك بقوله: "وها أنا الآن في مركز مجد العالم وأعجوبته ، هو ذا تيار البخار قد دفعني الآن في مدينة باريس، مصب أثار العجائب وموقع أنوار التمدن والآداب. وها قد أخذت عيناى ترى ما كان يراه ذاك الذي خطفته أرواح الآلهة إلى السماء الثالثة..."<sup>3</sup> وباريس علاوة على ذلك، عروسة المدن، وشمس "يدور حولها فلك العالم البشري".

وبخلاف ضيق أسواق القاهرة وقبحها، فإن العاصمة الفرنسية "ذات شوارع رحبة العرض، مستقيمة الطول، حسنة التمهييد والتخطيط، مفروشة على الجانين بأشجار مستوفية النظام والنسق لكي ترد حرارة الشمس وتأذن لرطوبة النسيم، جامعة كل شروط النظافة والإتقان، فلا يقوم هناك للجيف الطاعونية

1- نفس المصدر، ص . 15.

2- نفسه .

3- نفسه .

انبعاث، ولا للأقدار الوبائية حشر، بل حدائق رياض وأزهار وساحات واسعة الفسحات، محكمة الأسلوب"<sup>1</sup>.

ليست المدينة الأوروبية إذن، مجرد سكان وعمران وأحياء تحترقها أزقة ضيقة؛ إنها انبثاق مباشر للعقل الخلاق، ونتيجة خطة محكمة قائمة على قواعد وأساليب من التخطيط والنظام والدقة المتناهية. فكيفما التفت المرء، لا يرى سوى "طرافة البناء، وحسن الانتظام والهندسة".

لم يكن مراش سائحا أو رحالة مر في باريس مرورا عابرا، فهو ذهب إلى هناك لدراسة الطب، فاطلع عن كتب على الحياة الجامعية واحتك بالأساتذة والطلاب. ويروي لنا بعض تجاربه ومشاهداته، متوقفا عند ظاهرة اجتماعية برزت إلى الوجود أثناء سنوات دراسته، فيروي لنا حادثة مقاطعة المحاضرات من قبل طلاب الطب والقانون، مما أدى إلى سوء صيت هاتين المادتين، والذين قاطعوا المحاضرات الدراسية كانوا جماعة من الدارسين "تائهين في عالم الشهوات، وضارين في أودية المعاصي، فهم يطوون النهار ويحيون الليل ما بين الدساكر والخمارات ومحلات الانهماك على الفساد، حيث لا تفتقر زمرات سكرهم ولا تسكت رنات أقداحهم"، وانعكس سلوكهم المشين في أزياء الملابس التي يرتدونها حيث أن بعض طلاب الطب والقانون "يلبسون بنطلونات هكذا ضيقة حتى تكاد تتمزق بين أفخاذهم، وسترات هكذا قصيرة حتى لا يخنفي شيء من الأليتين إلا قليلا. وشعورهم طويلة منقوشة، وبرانيطهم عريضة كثيرة الانفراج"<sup>2</sup>.

غير أن الغالبية العظمى من الطلاب، كما يؤكد مراش لقرائه، تسير "في سبيل مضاد... فتراهم دائما على الدراسة منصبين، وعلى الكتب والمطالعات منكبين".

ينهي المراش كتابة رحلته بكلمات ذات دلالة، وهي تعني أن المشاهدة غير الكلام، والإحاطة بأحوال باريس متعذر على زائر عابر، ولذلك كانت محاسنها فوق الوصف والشرح: " هذا ما أمكن للقلم الآن أن يتمخض به نثرا في الكلام على هذه المدينة البديعة، باريس، سيدة المدن، وعلى بعض أحوالها، ولكن من يأتي إليها، ويشاهد محاسنها عيانا إنما يراها فوق كل كلام وشرح"<sup>3</sup>.

---

1- نفس المصدر، صص . 28-29 .

2- نفس المصدر، صص . 43-44 .

3- نفس المصدر، ص . 51 .

ويضيف المراه إلى نص رحلته ملحقا قصيرا يدور حول معرض باريس العالمي لسنة 1867. ولكأنه ملحقان في آن معا، إذ أن ما شاهده هناك مجرد امتداد لعالمية الحضارة الفرنسية. وهكذا ضم المعرض كل "ما يدل على تقدم الشعوب واختراعاتهم وأعمالهم". ويعلن المراه إيمانه بقوانين السوق الرأسمالية حيث يؤدي التنافس إلى إطراد التقدم، "لأنه لا يوجد محرك للمغايرة بين الناس أشد فعلا من ضم كل إلى آخر في موقف مفاخرة وترقية هذا على ذلك أمام عينه . وماذا يوجد عند المغايرة سوى الدفع إلى الأمام على الدوام"<sup>1</sup>.

---

1- نفس المصدر، صص. 67-72.

# الفصل الثاني :

## التعريف بالرحلات المغربية وسياقها التاريخي.

- ✓ المبحث الأول : الرحلة الجزائرية إلى أوروبا .
- ✓ المبحث الثاني : الرحلة التونسية إلى أوروبا.
- ✓ المبحث الثالث : الرحلة المغربية إلى أوروبا :

## المبحث الأول : الرحلة الجزائرية إلى أوروبا.

في الأعوام 1852، و1878، و1901م، قام ثلاث رحالة جزائريين برحلات إلى باريس بناء على رغبة السلطات الفرنسية، وذلك كعمل دعائي هدفه إقناع الجزائريين بحسنات الاستعمار، انطلاقاً من إبراز ما تنطوي عليه الحضارة الفرنسية من معالم التقدم والحرية والعدل.

الرحلة الأولى، قام بها سليمان بن صيام وألف حولها كتاباً طبعته السلطات الفرنسية على نفقتها، وحمل عنوان: "رحلة السيد سليمان بن صيام إلى بلاد فرنسة، أو الرحلة الصيامية". والرحلة الثانية صاحبها أحمد ولد قاد، ولذلك دعاها: "الرحلة القادية في مدح فرنسا وتبصير أهل البادية" والرحلة الثالثة التي تمت العام 1901 حملت عنوان: "الوفد الجزائري من رؤساء العرب ورحلتهم إلى محروسة باريس". وقد قام زيادة خالد بتحقيق هذه الرحلات، وأصدرها في كتاب تحت عنوان: "ثلاث رحلات جزائرية إلى باريس"<sup>1</sup>.

### المطلب الأول : السياق التاريخي للرحلة الجزائرية .

بعد مرور ستة وعشرين سنة على غزو مصر، فكر الفرنسيون جدياً في تنفيذ احتلال الجزائر، بعد أن هادنوا الإنجليز ومهدوا العلاقات من أجل ذلك مع الدول الأوروبية الأخرى كروسيا وغيرها، وانتهزوا فرصة خلاف بسيط بين قنصلهم وبين الجزائر، وادعوا أن قنصلهم أهين، واتخذوا تلك الإهانة ذريعة لاحتلال الجزائر<sup>2</sup>. لقد كان للجزائر موقعا استراتيجيا دوليا متميزا، فهي البوابة الحصينة لقارة إفريقيا والوطن العربي، وهي سر من أسرار وحدة المسلمين في التصدي للهجمات الغربية وأطماعها، إذ استطاعت الجزائر في الربع الأول من القرن

---

1- زيادة : ثلاث رحلات جزائرية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، 1979م.

2- لقد اتخذت فرنسا من حادث "ضربة المروحة" الشهيرة سببا مباشرا واهيا لحادث تاريخي خطير دامت آثاره 132 سنة. فقد كان الساسة الفرنسيون يعدون الجزائر السوق الخارجية لتطور الصناعة الفرنسية في حين كان نابليون بونابارت يضيف دوما الجزائر إلى ممتلكاته المقبلة عندما تثار مسألة تجزئة الدولة العثمانية. ولم يحقق نابليون حلمه، ولكن فرنسا استفادت كثيرا من خطته وممسوحاته. ولقد كانت فرنسا تنتظر مثل هذا الحدث منذ زمن بعيد، إذ اتخذته سببا لقطع العلاقات، وعدت ذلك إهانة لشرف فرنسا، فضربت حصارا بحريا على الساحل الجزائري إلى حين استسلامها في 5 يوليو 1830. عن تفاصيل الاحتلال الفرنسي للجزائر انظر : محمد فريك بك المحامي : تاريخ الدولة العثمانية العلية ، تحقيق : إحسان حقي، الطبعة الثانية، دار النفائس ، 1983م، صص. 447 - 448 . انظر أيضا : قاسم محمود : الإمام عبد الحميد بن باديس، الزعيم الروحي التحرير الجزائرية، الجزائر، الطبعة 2، 1979، ص. 7 . أبو القاسم سعد الله : الحركة الوطنية الجزائرية، بيروت، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، 1992، ص. 16.



السادس عشر وبفضل امتلاكها أسطولا بحريا قويا أن تفرض إرادتها على الدول الأوروبية، وترغمها على دفع إتاوات مقابل ضمان الأمن والسلام لمراكبها في حوض البحر الأبيض المتوسط، كما امتازت الجزائر بغنى اقتصادي كبير يرجع إلى ثروتها الزراعية والحيوانية، مما حرك أطماع الإسبانين والانجليز والفرنسيين في الجزائر.<sup>1</sup>

واستمرت محاولات الغرب للهجوم على الجزائر، وتحطيم قوتها العسكرية مستفيدين من ضعف الخلافة العثمانية المتزايد، والانقسامات المتعددة على المستوى الاجتماعي بالشمال الإفريقي عامة، حيث أصبح يعيش حالة صراع مستمرة، نتيجة لسوء تدبير الحكام وسياساتهم القائمة على المصلحة الشخصية، إلى أن وقعت فريسة للإستعمار الفرنسي.<sup>2</sup>

ففي 13 شعبان 1245 هـ، الموافق 7 فبراير 1830م، قرر مجلس الوزراء الفرنسي المنعقد برئاسة الملك شارل العاشر<sup>3</sup> الاستيلاء على الجزائر، وأرسل لهذا الغرض جيشا مؤلفا من نحو 28000 ألف مقاتل، وعمارة بحرية مؤلفة من مائة سفينة وثلاثة سفن تحمل 27000 ألف جندي بحري، وفي 20 ذي الحجة 1245 هـ الموافق لشهر يونيو سنة 1830م، وصلت الحملة الفرنسية ونزلت بالقرب من الجزائر العاصمة وتصدى لها في التو الجزائريون، وبعد منازلة عنيفة غير متكافئة، سحق خلالها الفرنسيون كل من وقف في طريقهم، ليدخلوا محتلين قلعتها، المعروفة باسم سلطنة قلعة سي، والواقعة أمام مدينة الجزائر يوم 14 محرم 1246 هـ الموافق 5 يوليو 1830م، وكان هذا إيذانا بدخول الجيوش الغازية إلى المدينة نفسها، بعد أن خرج الداي حسين منها، لتعلن فرنسا امتلاكها للمدينة، وعلى الفور، أخذت فرنسا ترسل جيوشها إلى الجزائر تباعا لاحتلالها بالكامل، لكنها

---

1- أبو القاسم : المرجع السابق ، ص . 16.

2- انظر بتفصيل تاريخ محاولات احتلال فرنسا للجزائر، المليي، مبارك محمد الهيلالي : تاريخ الجزائر في القديم والحديث ، مكتبة النهضة الجزائرية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الطبعة الثانية، ج، 3، صص . 371، 392.

3- الملك شارل العاشر حفيد لويس الخامس، ولد بفرساي سنة 1757م، وتوفي بكوزيا الإيطالية، سنة 1836 م، بعد اعتلائه العرش الفرنسي بعد وفاة أخيه لويس الثامن عشر، حاول الإستيلاء على مجلس النواب الذي أصبحت داخله معارضة قوية، ثار عليه شعب باريس، وأرغمه على التخلي عن العرش، وكان قبل ذلك يحاول شغل الرأي العام في بلاده وصرف نظره عن مشاكله الداخلية بغزوه القطر الجزائري، ولكن بدون جدوى .

واجهت على الدوام مقاومة باسلة، بدأت منذ اليوم الأول للاحتلال بقيادة الأمير المجاهد عبد القادر الجزائري (1222-1300هـ) (1805-1883م).<sup>1</sup>

شكل احتلال الجزائر من طرف الفرنسيين مناسبة ثانية، نهت النخبة الجزائرية خاصة، والعربية الإسلامية عامة إلى خطورة التحولات العالمية، واختلال موازين القوى، وتشكل الوعي لديها بحالة الضعف والهوان التي عليها الشعوب العربية في مقابل حالة التقدم والتطور التي أصبح يتمتع بها المجتمع الأوروبي. و قد اتضح لنا تشكل هذا الوعي بالتجاوز الحضاري الأوروبي لدى النخبة الجزائرية من خلال الرسائل الثلاث التي وجهها الحاج أحمد باي قسنطينة<sup>2</sup> إلى السلطان محمود الثاني، التي تعكس نظرة النخبة السياسية الجزائرية لواقع الاحتلال والإستعمار الفرنسي، تقول الرسالة الأولى : " الحمد لله الذي أيد الدين بعز سياسة السلاطين واجتماع كلمة المسلمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد كاشف الغمة ومنور الظلمة أما بعد : فهذا غرض حال من أحذقت بهم الفتن وحلت بساحتهم جيوش الهوموم والخن، وذلك عند دخول الفرنسية الجزائر، وتشتت أحوال المسلمين رجالا وعلى كل ضامر فارين بدينهم وأعراضهم حيارى، لا يدرون متوجههم، تحسبهم سكارى وما هم بسكارى...<sup>3</sup> وأما الرسالة الثانية، فقد أبرزت انعدام التكافؤ في الإمكانيات العسكرية والتنظيمية بين الجيش الفرنسي المدجج بالعدد والسلاح الحديث، وبين الجيش الجزائري الباقي على وضعيته القديمة "... وفي اليوم الثالث هبط العدو في غربي الجزائر بجيله و رجاله، فلم يكن لي ولا للمتولي عساكر ولا فرسان قدر الكفاية.. ففطق الوالي سوء تديره يستجمع القبائل .. وبينما قدموا شرذمة بعد شرذمة، كان العدو قد حفر خنادقه، وأنزل عساكره، ورتب مدافعه، وصادف عساكر الإسلام مشتتين بدون بارود ولا زاد".<sup>4</sup> أما الرسالة الثالثة والتي كتبت في أعقاب احتلال قسنطينة في أكتوبر 1837م، فقد عكست بصيغة أوضح صدمة الإستعمار

---

1- بوزيان، عمر: جذور اتحاد المغرب والجزائر، 1832\_1845، منشورات عكاظ، المغرب، الطبعة الأولى، 1988 صص. 29\_28

2- هو أحمد بن محمد الشريف بن أحمد القلي، ولد سنة 1786 م، تولى منصب الباي على قسنطينة، وأثبت كفاءته السياسية والعسكرية، قاد معركة قسنطينة الأولى والثانية في أكتوبر 1837م، قاد المقاومة ضد الإستعمار الفرنسي، إلى أن أعتقل ووضع تحت الإقامة الجبرية في العاصمة الجزائرية سنة 1848، توفي سنة 1850 م .

3- مالكي، محمد : الحركات الوطنية والإستعمار في المغرب العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، سلسلة أطروحات الدكتوراه، رقم ، 20، الطبعة الأولى، 1994 ، ص . 223 .

4- المرجع نفسه ، ص . 224.

وانتكاسة السقوط بوجدان النخبة الجزائرية ، حيث تقول بعد التقديم : "... ياسيدي صاحب الدولة تيقظوا للضعف والإنحلال، الذي حل بالدين الإسلامي والأمة المحمدية، ولا تغفلوا عنا، لقد تشتت الشعب بإذن الله وانحل عقد نظامه، ولا حول ولا قوة إلا بالله. إن سبب عداوة الفرنسيين لنا هو أننا قررنا عدم تسليمهم أمر التصرف بالدين الإسلامي.... ولكن الفرنسيين أرادوا القضاء على الدين الإسلامي... زاد تصميمهم على سوء القصد، فأحضروا عساكر عديدة لا نعرف عددهم ... ومع أننا لم نتأثر من قصف العدو، إلا أن جدار المدينة المواجه للمدافع الفرنسية قد أشرف على الإنهيار في اليوم الثامن وجرح أكثر من داخله، وعليه فقد هجم الكفار على المدينة...إننا أهل الإسلام ولم نتعاون بمقدار ذرة، فقد أصبح من المحقق أن ينال الكفار مبتغاهم في هذه الولاية".<sup>1</sup>

بهذا الشعور أدركت النخبة السياسية والعامة بالجزائر لحظة الإحتلال، وإلى هذه الأسباب أرجعت واقع ضعفها ووهن مقاومتها للجيش الفرنسي النظامي الذي يتحرك وفق استراتيجية عسكرية محكمة، والممتلك لأسلحة حديثة ومتطورة وفتاكة، والتي لم يعد بإمكان النظم العسكرية العربية التقليدية المهترئة والهشة مجابهتها والتصدي لها .

في فترة الإحتلال، تمت ثلاث رحلات جزائرية إلى باريس، خلال فترات متباعدة، يفصل بينها زمن يمتد أكثر من خمسين سنة، الرابط الذي يجمع بين هذه الرحلات الثلاث كما أشرنا آنفا، هو كونها مجمعة قد تمت خلال استعمار فرنسا للجزائر، كذلك فإنها تمت بإرادة المستعمر، في كل مناسبة من المناسبات الهامة كمثلين عن الشعب الجزائري ، للمشاركة في احتفالات، أو أعياد، أو استقبال ملك، إلى آخره من المناسبات الفرنسية.

هذه الرحلات الجزائرية، كانت تطبع في الجزائر مع ترجمتها بالفرنسية على نفقة سلطات الإحتلال، لذا جاز لنا أنها كانت تستغل كنوع من الدعاية الفرنسية في الجزائر، أو الحكومة في فرنسا نفسها، لذا فإننا نلاحظ نوعا من الإعجاب القسري أو المصطنع بالمدنية أو الحضارة الفرنسية، تجلى لنا ذلك بشكل جلي في كيل المدائح والإكثار من عبارات التعظيم والإجلال لحكام العملات والضباط وغيرهم من رجال الإدارة الفرنسية، والتي عجت بها نصوص الرحلات الجزائرية، حيث عبر أصحاب الرحلات الثلاث عن انبهارهم بالمستعمر الفرنسي حد الحلول التام، وقد أنتج هذا الأخير خطابا تبجيليا ودعائيا لفرنسا الحضارة والمدنية.

---

1- نفسه .

إلا أن هذا الإعجاب لم يكن قسريا بمجمله، فمفاتن باريس وغيرها من المدن الفرتسية الساحرة التي أدهشت المشاركة من المصريين والشاميين دون إصطناع أو ضغط، كان لابد أن يثير إعجاب الرحالة الجزائريين ويلفت انتباههم ويستأثر باهتمامهم وينبهم إلى عمق التحولات التي تشهدها دول أوروبا عامة، وفرنسا المحتلة لوطنهم خاصة .

والمثير للإنتباه والإستغراب، هو انعدام حضور أصحاب هذه الرحلات، في جل الأدبيات التي أرخت للحركة الوطنية الإصلاحية الجزائرية، والتي أتيح لنا الإطلاع عليها، فلا نكاد نعثر في هذه الكتابات على إشارة واحدة لهؤلاء الأعلام، تمكننا على الأقل من معرفة تاريخ ولادتهم ووفياتهم، وإنتاجاتهم العلمية والفكرية، وأنشطتهم السياسية، ومواقعهم الوظيفية على غرار النماذج المشرقية السابقة، وحتى محقق هذه الرحلات، خالد زيادة، وفي سابقة فريدة في فن التحقيق، لم يقدم للقارئ ولو ترجمة مقتضبة عن مدوني النصوص الرحلية الثلاث.

## المطلب الثاني: التعريف بالرحلات الجزائرية . 1\_ رحلة سليمان بن الصيام : "الرحلة الصيامية".

أشار سليمان بن الصيام إلى دوافع رحلته بقوله : "وبعد، فيقول العبد الفقير إلى ربه السلام، سليمان بن صيام لما سبق في سابق علمه تعالى أني أمشي لرؤيا أرض الشمال ذات المحاسن العديدة، والكمال، أمرني من يجب علي امتثال أمره وهو والي دايرة الجزائر وقطبه، صاحب الرأي السديد والجود الذي ليس فوقه من مزيد، البطل الهمام والأسد الضرغام، سعادة السيد القبرنور راندون<sup>1</sup>، لا زال من ربه بعين العناية ملحوظا ومن شر حساده محميا محفوظا. فامتثلت أمره السعيد، وكان اليوم عندي كالموسم الجديد "<sup>2</sup>.

استغرقت رحلة سليمان بن صيام 35 يوما فقط، بما في ذلك مغادرة مدينة الجزائر والعودة إليها، أما حجم نص رحلته، وكما أشار إلى ذلك محقق الرحلة فلا يتجاوز في النص الأصلي العائد لسنة 1852م ثمانية وعشرين صفحة من الحجم الصغير، تحتوي الصفحة الواحدة من النص ما يقرب من خمسة عشر سطرا، ويحتوي السطر ما يقرب من العشر كلمات<sup>3</sup> .

---

1- Le gouverneur Raon-

2- زيادة : ثلاث رحلات جزائرية ، مصدر سابق، ص . 24.

3- نفس المصدر، ص . 15 .

يعتبر سليمان الصيام من أوائل الرحالة المغاربة الذين اقتصروا على التاريخ الميلادي في تأريخهم لأحداث رحلتهم بدلا من التاريخ الهجري، يقول مصرحا بذلك: "وتاريخنا في هذا الكتاب كله التاريخ المسيحي"<sup>1</sup>. ولا شك أن اعتماد التاريخ الميلادي لوحده في النص الرحلي، مؤشر على تحول التاريخ لصالح "الآخر"<sup>2</sup>، أي لصالح الغرب وأوروبا .

أشار مؤلف الرحلة الصيامية إلى وجود مجموعة من الوفود العربية الإسلامية حضرت لنفس الغاية استجابة للدعوة الفرنسية بقوله: "ووجدت بها جماعة من رؤساء العرب مأمورين مثلي بالسفر لهاتيك البقاع والمنازل"<sup>3</sup>. وصف سليمان الصيام في نصه أجواء الوصول وحفاوة الإستقبال الذي خص به مع رفقائه من طرف الفرنسيين، "ووصلنا المدينة مونبلي في 28 أبريل في يومنا، ولما دخلناها قصدنا واليها السيد الجنرال صانه الله. فلما مثلنا بين يديه رحب بنا مع إظهار الفرح بقدمونا ، وعرف إلى واحد منا السيد الكرنيل دريو، وأمر قبطانه أن يسير معنا إلى بستان عجيب، فلما دخلنا إلى ذلك المنتزه وجدناه من أحسن ما يكون، مشتملا على انهار وأزهار ومنازه ومقاعد ومياه متدفقة... ورأينا به ماء محمولا فوق أقواس في غاية العلو يتدفق في ذلك البستان... اخبرنا القائم به أن ذلك الماء مجلوب من جبل بعيد عايناه، وبينه وبين البلدة مسيرة ستة وثلاثين ساعة"<sup>4</sup>.

غادر مدينة مونبوليه ، متوجها إلى ليون عبر النهر، مبديا اندهاشه بما رأى فيه من حركة السفن وكثرة العجائب قائلا: "وكان سفرنا منها في النهر في مركب الدخان، وذلك النهر على الصفة المتقدمة من العرض والرصايف والقناطر وتعدد السفن الدخانية، وشواهد القلوع، ونحن نرى العجائب، إلى أن وصلنا إلى مدينة ليون في اليوم الثاني من مايو"<sup>5</sup>.

---

1- نفس المصدر، ص ، 6 .

2- مودن عبد الرحيم : تقديم رحلة الغسال الحسن بن محمد، الرحلة التتويجية لعاصمة البلاد الإنجليزية، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، الطبعة الأولى، 2003 ، ص . 53-54.

3- زيادة : ثلاث رحلات جزائرية ، مصدر سابق، ص. 26

4- نفس المصدر، ص . 28 .

5- نفسه .

أعجب بمدينة ليون وبعمرانها وبحسن تنظيمها ورفيها الحضاري فقال: "دخلناها فوجدناها من أعظم المدن وأجودها، وفي الحقيقة هي ثاني كرسي دولة فرانصة<sup>1</sup>، مشتملة على منارة ومقاعد وأشجار وأزهار ورنات أطيّار تغنيك عن سماع الأوتار، وفي وسطها واد عليه قناطر من حديد، لم تر العيون مثلها ولا سمعت الآذان بشبهها. قابلونا أهلها أحسن قبول وفرحوا بنا كلهم، منهم من فرح بلسان المقال وآخرون بلسان الحال، ثم مشوا بنا إلى كنيسة وجدنا من أعظم الكنائس وأجودها مع الضخامة والتشييد في البناء الغريب والرفاهية"<sup>2</sup>.

تغنى بباريس كما تغنى بها من سبقه من رواد الرحلة العربية بقوله: "وفي يومنا دخلنا المدينة بباريس، وهو اليوم الرابع من مايو، فلما رأيتها وجدتها أحسن مما وصفوها الوصافون، ولا يمكن لشخص أن يستوعب جميع محاسنها ولو أقام السنين"<sup>3</sup>. وأثناء حضوره لمحل كبير في غاية الرفاهية، أقامه أوتل دي برانس، وقف متأملاً، سارحا نظره على شكل هذه المدينة العجيب ووضعها الغريب ممعناً نظره في "سكانها من سلاطين ونحوهم وفي أنهارها وقناطرها ويساتينها وأشجارها ومياهها العذبة، وصحة هوائها والسؤال عن خزائن الكتب المنعوتة المختلفة ألسنتها وأجناسها، واعتناؤهم بالحروب وكثرة جيوشهم، وامتثال الرعية للأوامر الصادرة من أمرائها، وعدل الدولة في جميع رعيته، وعلو الديار وتشبيدها وقصور سلاطينها. وكذلك ضرب السكة وغرابتها وجمعهم لجميع الوحوش والقيام بشئونها، وديار النزهات والمزح، وغرابتها... أما ضخامتها فهي من أعمر مدائن الدنيا، وهي كرسي بلاد الفرنسيين وقاعدة ملك فرنسا"<sup>4</sup>.

ولشدة إعجابه بباريس، نظم في حقها شعرا جاء فيه :

كانت محادثة الركبان تجربنا  
عن فضلهم وعلاهم أحسن الخبر  
حتى التقينا فلا والله ما سمعت  
أذني بنصف ما قد عاينت بالبصر<sup>5</sup>

1- يقصد العاصمة الثانية.

2- نفس المصدر، ص . 30.

3- نفس المصدر، ص . 33.

4- نفس المصدر، ص . 34 .

5- نفسه .

ومما أثار انتباهه بباريس، محكمة الشرع التي زارها ، فوصف شكل بنائها بقوله : "هي دار في غاية ما يمكن من الكبر والعلو مع التشييد في البناء والرفاهية، كسواري الرخام الجيدة، وبالاختصار لو كانت هذه الدار في موضع وحدها، يظن ناظرها أنها قرية. ولما سرحنا نظرنا في محاسنها، وجدناها محتوية على منازة ومقاعد وتزليج وفرش وكراسي غالية الثمن."<sup>1</sup>

كما أبرز سليمان بن الصيام مشاعره لحظة خروجه من باريس وتأثره البليغ لفراقها ، قائلا : "وشرعنا في الخروج من حسناء باريس إلى ليون، خرجنا منها يوم ثمانية عشر من مايو، وما كدت استطيع فراقها، لأن أهلها كانوا للقلوب مغناطيسا، ولأن أفكارنا متعلقة بتلك المعاهد والأزهار، وتلك اللجنة التي تجري من تحتها الأنهار، والاجتماع بأولئك الأخيار... فسقى الله تلك البلاد التي قصر عليها الحسن والإحسان وحياتك تلك المعاهد التي تشتهاها الأنفوس وتتحلى بسماعها الآذان، وتتناقل محاسنها الأسفار، مترنمة بما في سائر الأقطار، فكم للناس اشتياق إلى متنزهاتها وساحات مسراتها.. فلا أقسم بهذا البلد وحسن منظره الذي يشفي من الكمد، ولو نظر الشاعر إلى بهائها المتألق، لآثرها بقوله ، فهي وصف بلاد جلق."<sup>2</sup>

أفرد سليمان بن الصيام حيزا من رحلته للحديث عن ملك فرنسا الإمبراطور لويس نابليون، مادحا إياه بحسن الصفات والنعوت، وفي ذلك يقول : "فهو سلطان كبير، فرع سلطان بالعدل والشجاعة، شهير ذو قدر جليل، خطير شهرته أغنى عن الوصف وفخره، لا يحتاج إلى إيضاح ولا إلى كشف، فارس مضمار وبطل وغا، كرار ذو فتكات معروفة وعزمات موصوفة، وكل الملوك بذلك يشهدون، وهو المعظم الأنجد سيدنا لوي نابليون، أطل الله مدته وأدام سعادته"<sup>3</sup>.

كما لم يفته أيضا أن يكيل المدح لوزراء فرنسا في محاولة دعائية للإستعمار، وتزيين صورته لدى الجزائريين المكتوبين بناره وجبروته واستغلاله لخبراته ، قائلا : "وأما الوزراء وكبراء الدولة، فهم قوم أختيار ذوو همم كبار، لا سيما سيدنا وزير الحرب المعظم سانطارنوا أدام الله بقاءه، ذو بأس في الحرب بطعن وضرب له في المعالي، همم

1- نفسه.

2- نفس المصدر، ص . 48 .

3- نفس المصدر، ص . 35.

عوالي ومقام معروف وعزم موصوف، مع حسن سياسة، وفضل رياسة، وبذل مال، ولين مقال، وجاه عالي، وعز غالي.<sup>1</sup>

يذكر المؤلف عددا كبيرا من التفاصيل، خصوصا ما يتعلق منها بالمكتشفات الحديثة، وقد رأى الكثير منها، وحاول شرحها لقرائه، معبرا عن اندهاشه واستغرابه منها، حيث كرر في نصه "وذلك من أغرب ما رأينا"، والتي أعادها تقريبا في كل صفحة من صفحات الكتاب .

## 2-رحلة أحمد ولد قاد : "الرحلة القادية في مدح فرنسا وتبصير أهل البادية".

جاءت رحلة أحمد ولد قاد برغبة من الإدارة الفرنسية على غرار رحلة سليمان بن الصيام ، وذلك لمشاركة الوفود العربية في معرض أقيم في باريس، ولقد كان هدف المستعمر من تنظيمه لهذه الرحلة الجزائرية، هو الترويج للتقدم الحضاري للدولة المستعمرة من جهة، وإبراز قدراتها العسكرية من جهة ثانية ، للتأثير على حركة المقاومة. وكانت رحلة أحمد ولد قاد هي الزيارة الثالثة له لفرنسا كما أخبرنا في نصه بقوله : "وبعد، لما تعلق القلب بزيارة فرنسا مرة ثالثة، واشتاق النفس للتمتع برؤية تلك المدن العظيمة والأمصار، والمعاطر والبساتين والديار، رجوت أن أكون مع من حضر، وقلت لعل غرس التمني يثمر"<sup>2</sup>. ولعل ذلك قد أثر بشكل واضح على نص الرحلة نفسه، فلا نكاد نجد عبارات الإعجاب والدهشة والإنبهار التي نجدها عند زميله بن الصيام، لأن مظاهر الرقي الحضاري التي أثارت إعجاب الرحالة العرب، صارت عنده مألوفة إلى حد ما، إلا أنه بالمقابل ركز على معالجة العلاقات بين العرب والفرنسيين .

صرح صاحب الرحلة بدواعي ومقاصد تدوين رحلته قائلا : " ثم خطر ببالي بعد الرجوع إلى وطني أن أجمع نبذة، أذكر فيها بعض ما عاينته في السفر قصدا في انتفاع من لم يكن معنا حاضر."<sup>3</sup>

على نهج الرحالة المشاركة والمغاربة، تغنى أحمد ولد قاد بباريس قائلا : "المدينة العظيمة باريس التي اجتمع بها ما افترق في غيرها من الحسن والإحسان، وضمت ما تشناق إليه الأنفس، وترغب في سماعه الآذان."<sup>4</sup>

1- نفس المصدر، ص . 36 .

2- نفس المصدر، ص . 57 .

3- نفسه .

4- نفس المصدر، ص . 58 .



تحدث عن حفاوة الاستقبال بتعابير تحمل في طياتها مبالغة في الإطراء قائلا : "فاستقبلنا أهلها بالبشاشة الدالة على المروءة، ذو وجوه كثغرة الصباح سميحة، وعقول ثابتة صحيحة، وصدور سالمة سمیعة، فنزلنا بأحسن المنازل الرفیعة ، مفرشة بالأفرشة البديعة. ولم يزالوا متفقدین لأحوالنا تفقد المرصعة لرضيعها ساعة بعد ساعة، ملحين علينا فيما نحتاج إليه بكرة وعشية، موائدهم للأضياف منصوبة، وعوائد برهم لكل طارق مرغوبة، فقل ما شئت فيهم من مديح تجدهم فوق ما نطق المديح"<sup>1</sup>.

لقد تمت هذه الرحلة بعد تحول فرنسا إلى جمهورية وذلك في أعقاب هزيمتها العسكرية أمام بروسيا سنة 1871م<sup>2</sup>، والجدير بالذكر أن الجزائر شهدت في الأيام القليلة بعدها ، انتفاضة ضد الاستعمار الفرنسي قادها أحمد المقراني<sup>3</sup>، وهي الفترة التي شهدت تدفق مستوطنين جدد إلى الجزائر من مقاطعتي الألزاس واللورين، وجنوب شرقي فرنسا، واستوطن هؤلاء في الأراضي التي انتزعتها الحكم الفرنسي من الجزائريين بحجة اشتراكهم في الانتفاضة<sup>4</sup>

---

1- نفسه .

2- الحرب الفرنسية الألمانية أو الحرب الفرنسية البروسية حرب قصيرة الأمد نشبت بين القوة المسيطرة في أوروبا آنذاك وهي فرنسا وبين القوة الصاعدة بقوة حينها. نشبت هذه الحرب نتيجة الصراع القائم بين الدولتين لسط النفوذ، والدفاع عن المصالح، والإضطلاع بالدور القيادي في أوروبا. وصل الألمان لأطراف باريس وضربوا عليها الحصار، بسبب امتلاكهم لأسلحة مخترعة حديثة جدا ، مكنت الألمان من تحقيق انتصار عظيم، سقطت على إثره باريس في القبضة الألمانية يوم 28 يناير 1871 م، وأعلن قيام امبراطورية ألمانيا من دخل غرفة المرايا وسط قصر فرساي. وعن هذه الهزيمة الفرنسية يقول المؤرخ المغربي خالد الناصري : "ولما بلغ نابليون الثالث إلى هذه الغاية فجثته وقعة البروس التي كسرت من شوكته، وفلت من غربه ، وقبض عليه باليد، وحوصرت دار ملكه باريس مدة طويلة ، فبلغ فيها لحم الحمار أربعة ريبالات افرنك لكل رطل على ما قيل، ولم تغب عنهم محنة" الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، وزارة الثقافة والاتصال، الرباط، 2001 م الجزء الثامن، صص 138 \_ 139 .

وللاطلاع أكثر على تفاصيل الحرب الألمانية الفرنسية . راجع ، فارس الشدياق : كنز الرغائب، مصدر سابق، ج ، 2 .

3- الشيخ محمد المقراني هو أحد قادة الثورات الشعبية التي شهدتها الجزائر في القرن التاسع عشر الميلادي بعد الغزو الفرنسي للجزائر عام 1830م . قاد ثورة ضد الاستعمار الفرنسي، بعد تأزم الأوضاع الاجتماعية بالجزائر بسبب المجاعة الكبيرة التي تعرضت لها سنة 1867، والتي راح ضحيتها آلاف الجزائريين الذين حصدهم الموت أمام مرأى ومسمع من الإدارة الفرنسية، التي لم تسارع إلى نجدة الأهالي، وهذا ما أكد للمقراني أن هذه الإدارة لا يهتمها في الجزائر إلا مصالحها، فقدم استقالته من منصب باشا آغا سنة 1871م، ليقود حركة مقاومة عظيمة ضد المستعمر، استشهد فيها في ماي من نفس السنة، وقاد الثورة بعد وفاته شقيقه بومزراق .

4- نفس المصدر، ص . 14.

. لذلك وجدنا ولد قادم المدنية ، والتقدم والعدالة في فرنسا في القسم الأول من رحلته، ثم يقدم لائحة بمطالب عرب الجزائر في القسم الثاني منها، وقد التقى الوفد الجزائري برئيس الجمهورية مكماهون ( 1837 - 1879 ) وبعده من الوزراء ورجال الدولة .

لا يذكر ولد قادم هزيمة فرنسا أمام ألمانيا، ولكنه يشير إلى نتائجها بأسلوب يوحي بالثقة، ويبدد أوهام الذين حسبوا أنها فقدت قوتها العسكرية، وفي ذلك يقول : "وقد كان العرب يظنون فرنسا عندما لحظتها عيون السوء انتقص شأنها، فلما وقفنا بها وجدناها قذى في أعين الحاسدين، وأنها أجل قدرا وأعظم قوة مما كانت عليه، من كثرة الجيوش والإقامة والآلات الحربية كما سيأتي بيانه، فحمدنا الله على ذلك"<sup>1</sup> .

ولاحظ أثناء سفره بين مرسيليا وباريس أن شعارات الثورة الفرنسية، الحرية والإخاء والمساواة، تكسو حيطان المدن والقرى، وهتف قائلا : "يا لها من كلمات يحق أن تكتب بماء الذهب"<sup>2</sup>. ثم أردف قائلا : "فلما استفسرناها وتأملناها، ازدادت قلوبنا تعلقا بمحبة الدولة الفرنسية، لما علمنا من حريتنا نحن العرب ومساواتنا مع النجباء أولاد فرنسا". هذا على الرغم من قناعته بأن أبناء بلده لا يعادلون الفرنسيين في العلوم والخدمة والكرامة. ويخالجه الأمل ببزوغ فجر جديد "يتمتع فيه العرب مع الفرنسيين، ويصيرون كذات واحدة ، يعيشون مع بعضهم أكثر مما هم عليه الآن عيشة مرضية"<sup>3</sup>.

ورأى أن العقبة الوحيدة التي تحول دون هذا الامتزاج هي عقبة "الديانة"، ولكنه ألغى الفوارق بين الأديان، واعتبر أنها جميعا تقوم على مبدأ "أن الإنسان يحب لنفسه ما يحب لغيره ويكره لنفسه ما يكره لغيره"<sup>4</sup>. ولذلك لم يعد ثمة من مبرر للامتناع عن إيجاد مشترك بين شعبين جمعتهما سلسلتان متينتان هما : "الاشتراف في الحروب سواء في المكسيك أو ايطاليا أو الجزائر نفسها أولا، واختلاف الأيدي على الطعام ثانيا"<sup>5</sup>.

يرتدي الفصل الرابع والأخير من رحلته أهمية خاصة إذ قيد فيه لائحة بالمطالب التي يتوخى عرب الجزائر تحقيقها من السلطات الفرنسية، وهذه المطالب هي على الشكل التالي :

\_ توسط السماسرة واليهود بالدرهم المتجاوزة الحد.

1- نفس المصدر، ص . 64.

2- نفس المصدر، ص . 65.

3- نفسه .

4- نفس المصدر، ص . 66.

5- نفسه .

— تضييع الوقت بالإطالة والترداد.

— مصاريف الطريق البعيدة.

— عدم المعرفة بأمر الشريعة.

تختص هذه المسائل المذكورة بقضية شراء الفرنسيين للأراضي وما نتج عنه من غبن في حق المواطنين وأصحاب الأرض الأصليين<sup>1</sup>، من جراء سرقة السماسرة واليهود لمال المواطنين وما ينتج عن إحالة الدعاوى إلى المحاكم من تضييع مال ووقت الفلاح، عدا عن كونه يجهل الأمور القانونية، فتضييع حقوقه مرة أخرى. وفي ذلك يقول ولد قاد موضحاً موقفه: " نعم، ومن الناس من هو ضعيف لا يملك غير شيء قليل من الأرض قدر معيشة عياله فقط، فيدخل في الحملة وتنزع بلاده من يده فيصبح عارياً من الحرثة التي هي حرفته أبا عن جد ، ويصير ميتاً .. مما يؤدي إلى خراب العرب وحرجهم .."<sup>2</sup>

كما ركز على ضرورة توعية أبناء الجزائر ليستطيعوا استيعاب القوانين والنظم الفرنسية ، ومعرفة كيفية عمل المحاكم والقضاء، ليتسنى لهم الدفاع عن حقوقهم، وطالب بتمثيل العرب في ديوان المشورة، حيث يقول: "فيكون لديهم نواب يدافعون عنهم تماماً مثل الفلاحين الأوروبيين"، وينتهي إلى القول: "أفلا تكن مصالح العرب الذين يشتمل عددهم على النحو الثلاثة ملايين تستحق النظر أكثر من مصالح الأوروبيين الذين عددهم يشتمل على النحو المائتي وعشرين ألفاً، وبأي وجه يحرم التماس النواب منهم للاستئثار معهم في المصالح العمومية إن كانوا في رفقة الأخوة والمساواة كما هو الزعم."<sup>3</sup>

1- سلطت كثير من الكتابات الضوء على جرائم المحتلين الذين استمرأوا اغتصاب أجود وأخصب الأراضي منذ دخولهم الجزائر سنة 1830م، واستمروا على نهمهم الإستعماري بعد مرور مائة عام على الإحتلال، حيث كان اغتصاب الأرض ما زال يمثل أهم الأولويات في سياسة الحكومات الفرنسية المتعاقبة، التي شجعت على الدوام الأفراد الفرنسيين خاصة، والأفراد الأوروبيين عامة على الهجرة والإستيطان في الجزائر. ونتيجة لهذه السياسة الاستعمارية الظالمة، تمكن الفرنسيون من امتلاك ثلثي الأراضي الزراعية الخصبة. حيث انتزعوا رسمياً ما يقارب 50179 هكتاراً من الأراضي، وأقامت أكثر من 107 قرى استيطانية. مما تسبب في انتشار الفقر بين الجزائريين على نطاق واسع، وقد صور مترجم الإدارة الفرنسية غورجو هذه المأساة بالقول: "إننا لا يمكننا أن نصور حالة الفقر والحرمان الشنيعين التي يتخبط فيها الجزء الكبير من السكان في القبائل من أقصى الجزائر إلى أقصاها الآخر".

قاسم محمود، المرجع السابق ، ص . 7.

2- نفس المصدر، ص . 67.

3- نفس المصدر، ص . 76.

عبر ولد قاد عن ألمه وأسفه لحظة وداع باريس ومغادرته إياها: "ولما آن وقت الرحيل جرعنا كأس الفراق، بعد حلاوة التلاق، ولم يصبنا يوم خروجنا من وطننا مثل ما أصابنا يوم الخروج من فرنسة، فانصرفنا والعيون ملتفتة إليها، وسفرنا والقلب مقيم بها"<sup>1</sup>.

3 \_ رحلة الشيخ الفغون القسنطيني "الوفد الجزائري من رؤساء العرب ورحلتهم إلى محروسة باريز."

رحلة "الوفد الجزائري من رؤساء العرب"، إلى فرنسا سنة 1901م، والتي كتبها محمد ابن الشيخ الفغون القسنطيني، هي أيضا رحلة تمت لحضور عرض عسكري في باريس، وذلك احتفاء بحليف فرنسا وصديقها قيصر روسيا، ويكتفي الكاتب بتسجيل وقائع المغادرة والوصول وحضور الاحتفال والعودة، ولا يلفت نظرنا سوى إبداء المؤلف إعجابه الشديد بقوة فرنسا العسكرية، وكأنه يريد إقناع أبناء قومه بعدم جدوى المقاومة، والإقلاع على اقتفاء آثار عبد القادر الجزائري الذي تصدى للغزو والفرنسي، أو أحمد المقراني الذي شن انتفاضة شعبية ضد المحتل الفرنسي كما سبقت الإشارة إلى ذلك .

ولاحظ الفغون كما فعل قبله الرحالة العرب دقة النظام والترتيب في كل الأمور. وهكذا يصف المأدبة التي أقامها وزير الحرب على شرف الوفد الجزائري بهذه الكلمات: "فوجئنا أمام كل كرسي ورقة فيها اسم صاحبه باللسان العربي. وكل منا كان مقعده بحسب رتبته، فشرعوا في تفريق الطعام على القوم بأحسن تنظيم وأتم ترتيب، فأكلنا وشربنا ما تشتهيئه الأنفس من طعام ملوكي والموسيقى تصدح بالألحان الفرانصوية والجزائرية"<sup>2</sup>.

تحدث عن الاستقبال الشعبي الذي خصص للوفد الجزائري، فقال: "فحين وصلنا إلى المدينة، خرجت إلينا جميع الأمة الساكنة بها، فرحبوا بنا ونادوا بقولهم: ينصر العرب، ينصر فرانصة، أما أنا فقد أخذت بمجامع قلبي الأمة الفرانصوية، خصوصا سكان رانس، فإنهم فرحوا بنا غاية الفرح ورحبوا بنا غاية الترحاب، لأنهم ذو أدب وسياسة بارعة، جازاهم الله خيرا"<sup>3</sup>.

1- نفس المصدر، ص . 81.

2- نفس المصدر، ص . 82.

3- نفس المصدر، ص . 101.

على غرار سابقه، أثنى ومدح الفغون رئيس جمهورية فرنسا بقوله : " .. وتشرفت أبصارنا برؤيته وهو شيخ وسوم الخير على وجهه تلوح كنور ساطع"<sup>1</sup>. ولم يكتف باللغة الثرية في مدحه لرئيس فرنسا، بل عمد إلى نظم الشعر تعبيراً منه عن تقديره وإجلاله لشخصه .

رئيس الجمهور كبدر السعود  
علينا تبدى ونحن وفود  
فيا له من سيد فاضل  
ومنه الخيور علينا تعود  
سألنا الإله بقا عزه  
وهو السميع المجيب الودود

بعد انتهاء مراسيم الاستقبال، عبر الوفد الجزائري عن استغرابهم لإحسان الرئيس والوالي لرعيتهما، وأرجع ذلك الشيخ الفغون إلى قيم العلم والمعرفة اللتين تربيا عليهما بقوله : "وكيف لا وهما قد شبا على رضاع لبان المعارف وفنون العلوم"<sup>2</sup>.

## المبحث الثاني : الرحلة التونسية إلى أوروبا.

---

1- نفسه .

2- نفس المصدر، ص . 102.

كان لاحتلال الجزائر، هزة عنيفة في تونس، أشعرت التونسيين بالخطر الداهم الذي لا يمكن الهروب منه إذا لم يجابهه المجابهة الحقيقية لتفاديه ومواجهته بالاتجاه إلى الأخذ بأسباب التقدم الحضاري والقضاء على التخلف الفكري .

ففي النصف الثاني من القرن التاسع عشر، اقتفى مؤلفون تونسيون أثر أتراجهم في بلدان إسلامية وعربية أخرى، خاصة في الدولة العثمانية وولاياتها العربية، مثل مصر وسوريا ولبنان، واهتموا اهتماما كبيرا بأقطار لم تكن من قبل مجهولة تمام الجهل لدى مثقفي البلدان العربية، لكنها كانت مهملة أو معتبرة أرض "حرب وعداوة".

ففي الكتب التي ألفت بتونس في القرن السابع عشر والثامن عشر، كانت أوروبا لا تشغل مكانا كبيرا، حتى في الكتب التي أرخت لأحداث معاصرة، رغم الدور الذي لعبته الجاليات الأجنبية وخاصة قناصلها، بدون تحفظ أحيانا في تونس، ورغم أهمية العلاقات الخارجية والاقتصادية التي ربطت في ذلك العصر تونس ببلدان أوروبا .

أما في القرن التاسع عشر، فقد صارت هذه العلاقات مع الدول الأوروبية تذكر بصورة أوفى من ذي قبل، وكذلك الدور الذي كان للجاليات الأوروبية في حياة البلاد التونسية. وعلاوة على ذلك ألفت كتب ترمي في جملتها وبجميع فصولها وأبوابها، إلى تعريف التونسيين بجغرافية الأقطار الأوروبية وتاريخها ونظمها السياسية والاقتصادية وأخلاق أهلها وعوائدهم، وقد أصبح لتلك الأقطار في السياسة العالمية دور هام ووزن كبير واشتد ضغطها على الإيالة التونسية وكذلك على السلطة العثمانية التي كانت تونس تابعة لها .

وكان مؤلفو هذه الكتب قد سافروا إلى الأقطار الأوروبية وأقاموا بها، وقد تعلم بعضهم لغاتها واطلعوا على آدابها. ومن هذه الكتب والنصوص الرحلية، التي اخترناها في بحثنا لاستقصاء تجليات الوعي بالتجاوز الحضاري لدى النخبة التونسية، رحلة ابن أبي الضياف إلى فرنسا رفقة الباي أحمد باشا والمضمنة في كتابه «إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان» ، ورحلة خير الدين التونسي المسماة «أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك» ، ورحلات محمد بيرم الخامس في كتابه «صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار»، إضافة إلى رحلة محمد السنوسي التي ألفت بعد الصفوة بسنوات ، وسمّاها «الرحلة الحجازية».

المطلب الأول : السياق التاريخي للرحلة التونسية إلى أوروبا.

كانت تونس مبدئياً قطعة من الدولة العثمانية منذ سنة 1574م، وكانت هذه التبعية تتجسد في اعتراف الباي بسيادة السلطان : فكانت تضرب النقود باسم هذا السلطان "خاقان البرين والبحرين" كما كانت الإيالة ترسل هدايا إلى الباب العالي عند تولية باي أو سلطان جديد، وتتلقى في مقابل ذلك فرمان التولية. وأخيراً كانت تونس تمد الأسطول العثماني بإعانة بحرية عند اندلاع حرب بين الدولة العثمانية وأحد أعدائها من المسيحيين .

لكن هذا الوضع الذي استقر شيئاً فشيئاً انطلاقاً من القرن السابع عشر وخصوصاً في القرن الموالي، أخذ يتغير في أواخر الربع الأول من القرن التاسع عشر تحت تأثير الأخطار الخارجية<sup>1</sup>. واختل التوازن اختلالاً كلياً، ذلك أن أوروبا التي دخلت في عصر الثورة الصناعية منذ منتصف القرن الثامن عشر غنمت أمرين هاميين هما التزايد الديموغرافي و تضخم التجارة، فكان لزاماً عليها أن تخلص السواحل النصرانية للبحر الأبيض المتوسط من آفة القرصنة لتفتح لتجارها ولتجارها حقلاً جديداً من النشاط. فكان مؤتمر فيينا سنة 1815 الذي ألغى القرصنة واسترقاق النصارى، وكانت زيارة اللورد اكسموث ( Lord Exmouth ) لتونس في عهد محمود باي في السنة الموالية لحمله على الاعتراف بمعاهدة فيينا.

ومنذ ذلك التاريخ ، فتح باب تونس على مصراعيه للتجارة الأوروبية، واستحوذ التجار الأجانب على السوق التونسية بتوريدهم البضائع المصنوعة، وتصدير منتوجات البلاد التونسية من زيت و قمح وصوف وجلد<sup>2</sup>. بعد احتلال الجزائر من طرف فرنسا سنة 1830م، صارت النخبة التونسية واعية بالخطر، وقد عبرت عن ذلك في غير ما مرة في مراسلاتها وفي مفاوضاتها مع استانبول. فهذا الباي نفسه يكتب "شيخ الإسلام" ويخبره بوضع الإيالة قبل إرساله في مأمورية سياسية إلى عاصمة الخلافة العثمانية . فيتحدث عن "أعين الكفار المجاورين لها"، ويفسر ذلك : "الاسيما وقد جاورنا بالجزائر من ظهرت صولته وضررتنا جورتته"، وأثناء رحلة ابن الضياف إلى استانبول يعلل رفض تونس لأداء سنوي تدفعه لاستانبول لعظمة الخطر الفرنسي : "وجارنا الفرنسي حربه لا

---

1- الشريف، محمد الهادي : "مشكلة الإصلاحات بتونس وارتباطها بمسألة العلاقات التونسية - العثمانية حوالي 1840م"، أعمال ندوة: الإصلاح والمجتمع المغربي في القرن التاسع عشر ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، سلسلة ندوات رقم، 7 ، 1983م، ص . 134 .

2- الشنوفي، المنصف : تقديم كتاب أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، الدار العربية للكتاب، تونس، الطبعة الثانية، 2004 م، ص .28.

يبتل إما بالإمكار والحيل أو بالمدفع والعساكر. فأهل تونس دائما في جهاد، والباشا دائما في حرب وحزم لسد ثلمات مفاصده "1.

تأسيسا على هذه المعطيات التاريخية ، ساغ لنا القول إن تفكير النخبة التونسية في الرحلة إلى أوروبا لم يخرج عن إطار الخشية من الهزيمة وشعوره بالخطر الأكيد المتجلي في وجود جيوش استعمارية على عتبة أبوابه وممتدة على طول حدوده، لاسيما بعد شن فرنسا الغارات على بني يزناسن وإحاقها بالجيش المغربي هزيمة نكراء في معركة ايسلي سنة 1844م.

ففي إطار الخشية إذن، و الوعي بالقوة المتزايدة لدول أوروبا، جاءت زيارة أحمد باشا، ومعه المؤرخ ابن أبي الضياف، إلى فرنسا كخطوة أولى لاستقصاء مظاهر قوة هذا "الآخر" الذي أصبح يهدد العالم الإسلامي برمته .

## المطلب الثاني: استعراض نماذج من الرحلات التونسية الى أوروبا

### 1\_ رحلة ابن ابي الضياف الى فرنسا 1846.

#### أ : التعريف بالمؤلف :

ولد المؤرخ والمصلح أحمد بن أبي الضياف في بداية القرن التاسع عشر، وتحديدًا سنة 1804م، أوائل القرن الرابع عشر الهجري بتونس العاصمة، في رعاية أبيه الحاج أبي الضياف الذي كان شديد العناية بتكوينه والسهر على حسن تنشئته وفق طرق العصر، ومتطلبات المحافظة على انتمائه إلى أسرة وثيقة الصلة بالعلم والمعرفة، فأخذ عن أشهر علماء عصره أمثال الشيخ التميمي ومحمد البحيري عبد الستار ومحمد بيرم الثالث وسيدي إبراهيم الرياحي وأحمد بن الخوجة<sup>2</sup>

واستهل حياته المهنية بالإشهاد، حيث عينه الباي حسين بخطة العدالة وعمره دون العشرين سنة، فتصدر لها بالحاضرة جليسا لشيخه وأستاذه محمد المناعي، وكان ذلك أحد أسباب شهرته ككاتب بارع، مما دفع الياي إلى جلبه إلى القصر وإحاقه بكتابة وزيره الشهير شاكر، صاحب الطابع، على كره من أبيه ، وذلك سنة 1242 هـ الموافق ل 1827 م. وظل ابن أبي ضياف يترقى في الخدمة إلى أن صار أمين لواء، وتقلد نيشان الافتخار سنة 1849م. وقد حظي أحمد بن أبي الضياف بمكانة خاصة لدى أحمد باي فقرّب منه، وكثيراً ما كان يبوح له بأسرار الدولة خصوصاً بعد أن عينه كاتب سره، بل واستشاره في تعيين بعض القضاة والمفتين، إلى جانب كل هذا ، كان

1- الشريف : المرجع السابق ، ص . 136.

2- صولة، عبد الله : الفكر الإصلاحى عند العرب في عصر النهضة، دار الجنوب للنشر، تونس، الطبعة الأولى، 1992، ص 65 .



أحمد ابن أبي الضياف من أشد المدافعين عن الأفكار الإصلاحية ومن المطالبين بضرورة الانفتاح على الحضارة الأوروبية. وهذا ما يفسر الدور الهام الذي لعبه في صياغة قوانين "عهد الأمان"، والمساهمة إلى جانب عدد من أفراد النخبة التونسية في صياغة أول دستور تونسي وذلك عام 1861م، وبعد ذلك عين عضواً في المجلس الكبير الذي أنشئ لتنفيذ القوانين الجديدة التي جاء بها عهد الأمان. ولما ثارت القبائل بقيادة علي بن غذاهم عام 1864م. انتقد أحمد بن أبي الضياف بشدة إلغاء الباي لـ "عهد الأمان" وسياسة القمع المريع التي انتهجت ضد الثائرين. وبسبب ذلك، عاش سنوات في عزلة وضيق، ولم يعد له الاعتبار إلا عندما أصبح الوزير المصلح خير الدين باشا التونسي صاحب «أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك»، وزيراً مباشراً، وذلك سنة 1873م.

ولم تطل حياة ابن أبي الضياف بعد ذلك، فقد فارق الحياة في شهر أكتوبر 1874م، تاركاً وراءه عملاً جليلاً أهله كي يكون من أكابر الأعلام والمصلحين. فكتابه «إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان» يعد كنزاً ثميناً إذ يعتبر خير أثر وأصدقه في التعريف بحال العصر وتصوير نواحيه الاقتصادية والاجتماعية والتاريخية، وقد ساعده على ذلك تفرغه له في أواخر حياته بعد أن عايش الكثير من أحداث الدولة في مباشرته لشؤون الحكم وسياسة الباي، فكان الخبير بالحاضر، المطلع على خفايا الماضي، والقادر على تخلص الحق من الباطل والصحيح من الزيف.

### ب: التعريف برحلته :

سافر ابن أبي الضياف ضمن الوفد الذي رافق أحمد باي لزيارة باريس بدعوة من الملك لوي فيليب يومه الخميس 5 نونبر 1846م. وأعلن الباي أمام وزرائه، لما عزم على السفر، بـ "أن المصلحة اقتضت أن أسافر إلى باريس ولندرة، والله يعلم أن شغفي بكم ومصالح المملكة يقضي أن اقتحم المخاوف لأمانكم، وأتحمل مشقة الأسفار لراحة أوطانكم. ومن عنده، والشكر لله، مثلكم من الحماة والأنصار، يستسهل الأسفار وبعد الدار .."<sup>1</sup> والمصلحة في هذا السياق سياسية؛ حيث كان أحمد باي يرغب في الحصول على المزيد من الضمانات من طرف القوى الأوروبية المهيمنة، وهي فرنسا وانكلترا. لمساندته في علاقاته المتوترة مع الدولة العثمانية<sup>2</sup>.

1- ابن أبي الضياف، أحمد : إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك ملوك تونس وعهد الأمان، الدار التونسية للنشر، 1990، الجزء الرابع، ص. 99.

2- الشريف : المصدر السابق، ص. 137 .

وقد بدأت رحلة أحمد باي إلى فرنسا في باخرة صغيرة، اسمها « Le dante » أهداه إياها ملك فرنسا لويس فيليب. وقد رافقه في رحلته تلك كبار وزرائه والمقربين منه مثل **مصطفى خزندار**، ووزير الحرب مصطفى باشا آغا، والعديد من الشخصيات الكبيرة الأخرى. وعند وصوله إلى ميناء طولون استقبله مترجم الملك الفرنسي دي غرانج « Des granges » وبعض الضباط والمسؤولين في الدولة. ويبدو أن الباي استاء من ذلك الاستقبال الذي اعتبره غير لائق بمقامه، غير أن واحداً اسمه السيد بورسيه « Pourcet » ، وصفه أحمد بن أبي الضياف بأنه كان "آية في الأهمية والنجاة ويتكلم العربية" قال له، محاولاً تهدئة خاطره : "يا سيدي إن مثلي لا يبعث لتلقي مثلك، وسلطاننا أمر بأن جموع فرنسا هي التي تتلقاك، وسترى ذلك عياناً، وحسي أن أهيب لك محل المبيت في الطريق ، والكراريس وغير ذلك مما يلزمك"<sup>1</sup>.

ولم يعترض أحمد باي على نظام « الكرنيتية » الذي كان معمولاً به في فرنسا آنذاك، قائلاً للمسؤولين الفرنسيين: "لا تعب عندي فيها ، لأنني أحكم بما بلادي، والإنسان يحكم على نفسه بمثل ما يحكم به على غيره"<sup>2</sup>.

وفي مدينة طولون حظي أحمد باي باستقبال حار من قبل أعيانها ومواطنيها، وزار بعض المنشآت الصناعية فيها، والتي وصفها أحمد بن أبي الضياف بأنها من "أعاجيب الدنيا" الدالة على "قوة المملكة وضخامتها وثروتها وآثار العقل الذي شرف الله به نوع الإنسان"<sup>3</sup>.

ومن طولون انطلق أحمد باي إلى باريس في عربة من الدولة الفرنسية تجرها ستة خيول. وفي كل مدينة يمضي فيها الليل، يستقبل كبار الضباط والأعيان والمسؤولين لتحيته والترحيب به. وعن حفاوة الإستقبال، يقول أحمد بن أبي الضياف "المدن أصبحت تتبارى في الاحتفال بقدمه"<sup>4</sup>، وقال ايضاً : "وتفنن هذا السلطان في إكرام الباي تفننا بديعاً، واحتفل في ضيافته احتفالاً يناسب باريس ... واستدعاه لذلك في قصوره ويستأنه مراراً، على كيفيات مختلفة...."<sup>5</sup>

---

1- ابن أبي الضياف : المصدر السابق، ص . 100.

2- نفس المصدر، ص. 101.

3- نفسه .

4- نفس المصدر، ص. 102 .

5- نفس المصدر، ص. 101.

لقد مكنت الرحلة ابن أبي الضياف، كما حصل ذلك لغيره ممن زار فرنسا أو أوروبا عامة من المسلمين في القرن التاسع عشر، من الوقوف على ما بلغته الحضارة الأوربية من تقدم على المستويات : العسكرية (مصانع الأسلحة، التنظيم العسكري..)، الاقتصادية (مثل مصانع قوبلن أو سيفر)، السياسية ( مقر البرلمان، أو دار البريفيت ) الثقافية، ( المسرح أو حدائق فرساي ).

لقد أدرك الكاتب بالمشاهدة ضعف المسلمين وتأخرهم ، كما تعمق لديه الوعي بحصول تجاوز حضاري من طرف العالم الأوربي للعالم الإسلامي، وعبر عن ذلك بقوله "إن القوم سبقونا إلى الحضارة بأحقاب السنين وتخلقوا بها وصارت من طباعهم وبيننا وبينهم بون بائن ، والله فينا عالم غيب ، نحن صائرون إليه" <sup>1</sup>.

كان لقاء ابن أبي الضياف مع باريس بمثابة الصدمة، بدت فرنسا من خلال وصف الرحلة عالما مختلفا تماما عن الذات وعن الصورة التقليدية المترسخة لدى المسلمين عن الغرب، فلم تعد أوروبا ذلك "الغرب المتماهي مع الكافر أو النصراني كما ترسخ في الذاكرة العربية الإسلامية بل آخر يضع نفسه في المواجهة، الغرب الفاعل المتقدم" <sup>2</sup>.

وهكذا أعجب بالنظام الفرنسي، وعبر عن ذلك بقوله : "غير أن السالك في تلك الطريق، يشاهد معنى العمران وصورة التقدم في ميادين الحضارة، ونتيجة الأمن والأمان، لا تكاد تجد موضعا معطلا من نفع شجرة أو حرث أو كلاً مستنبت. يسقى جميعها بغيوث العدل وسيوله المفعمة، يود السالك في تلك الطريق السهلة أن المسافة تطول، لما يشاهد من حسن الطريق وما حف من الأبنية والأشجار والمراع والأثمار، وكثرة المارين على اختلاف الأنواع. لا تكاد تسمع صوت منظم إلا من نفسه، وهذا من أعجب ما يسمع مع كثرة المغارم والمكوس. وسر ذلك أنها غير مجحفة، وأهلها يعرفون مقاديرها ومصاريقها في مصالحهم على اختلاف أنواعها" <sup>3</sup>.

عندما وصل ابن أبي الضياف باريس، لم يسعه إلا أن يصرح بانبهاره بعظمتها وجمالها وتمدنها، وفي هذا الصدد يقول: "...إلى أن وصل إلى باريس، وما أدراك ما باريس...هي الغانية الحسناء الباسم ثغرها في وجوه

1- نفس المصدر، ص. 103.

2- أفاية، محمد نور الدين : الغرب المتخيل ،صورة الآخر في الفكر العربي الإسلامي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2000 م، ص.16.

3- ابن أبي الضياف: المصدر السابق، ص . 98 .

القادمين، مشحونة بأعاجيب الدنيا، جامعة لأشتات المحاسن... ما شئت من علوم وصنائع، وثروة وسياسة، وظروف وحضارة، وعدل تزكو أثماره، وتسطع أنواره، تموج شوارعها بالسكان في مراكز الأمن ومضاجع العافية، يقودهم الأمل ويسوقهم الحرص على العمل، ولو تتبعنا الرحلة لكانت كتابا مستقلا، وقد أعطاها الشيخ رفاة الطهطاوي حقها واجتمعت به فيها".<sup>1</sup>

لقد رأى بن أبي الضياف فرنسا عالما مستعصيا عن الإدراك، متعاليا عن الوصف، عبر عن ذلك بقوله :  
"يستوقف الأذهان ولا يحيط به بيان".<sup>2</sup>

ذكر ابن ابي الضياف تنقلات الباي بباريس وحسرتة على افتقاد تونس لمظاهر العمران التي عاينها في رحلته: "ولم يزل مدة إقامته في باريس ينتقل كل يوم من نزهة إلى نزهة، ومع ذلك يتذكر تونس وعادات أهلها، وأماكنها عند مشاهدة كل عجب، ويقول : "ليث مثل هذا عندنا بالحل الفلاني بتونس، حتى أنه مر يوما بالمهيع المعروف بشان زلزلي، ومعناه ممشى الجنة، فقلت له : كاد أن يوافق الاسم المسمى.. فقال الباي: لا سأمحك الله ، لم تحملي على حب الوطن لذاته وعلى أي حالاته ؟ فقلت له : إن هذا البلد ينسي الوطن والأهل كما قال الشاعر :

ولا عيب فيهم غير أن نزيلهم يعاب بنسيان الأحبة والأهل .

فقال لي : إذا يصدق علينا المثل المشهور عند العامة ، من رأى قمح الناس لا ينبذ شعيره"<sup>3</sup> .

لقد اتخذ الكاتب موقفا إيجابيا من الغرب، وهو ما نلمسه من خلال تعليقه على مشاهداته التي تعكس عنده "معنى العمران وصورة التقدم" فالتياتروا "هو من الصناعات الشريفة ، وبيت وكلاء المملكة، فلك أن تقول بيت عمران المملكة وثروتها ونجاحها". وحتى في المستوى الديني كان وصفه هادئا ولم يستخدم بن أبي الضياف أي تصنيف ذي طابع ديني، ولم يشر إلى الفرنسيين لا بلفظ الكفار ولا حتى باستعمال لفظ المسيحيين، واقتصر على الإشارة إليهم باسم "الجنس الفرنساوي" أو "الإفرنج"، وهذا خلافا لما سنلاحظه لدى رحالة المغرب الأقصى في القرن التاسع عشر.

1- نفس المصدر، ص . 99 .

2- نفس المصدر، ص. 102.

3- نفس المصدر، ص. 109 .

تأسيساً على ما سبق، نستنتج أن الرحلة إلى "الآخر" كانت برغبة من "لأننا"، وهذا دليل قاطع على إحساس باي تونس، بالضعف والرغبة في الاستفادة من تجربة الآخر، وعلى أنه كان يرى فرنسا، التي يعتبرها رمزاً للحضارة الأوروبية، قادرة على أن تمده بما يساعده على القيام بالإصلاحات التي كان ينوي القيام بها، والتي كان يباركها المحيطون به من وزراء ومستشارين، وفي مقدمتهم كاتب سره أحمد بن أبي الضياف. وكانت تلك الرحلة هي الأولى التي يقوم بها باي تونسي متحدياً في ذلك "الباب العالي" الذي كان يعتبر تونس خاضعة له، وبالتالي لا يمكن أن تربط علاقات مع الدول الكبيرة الأخرى، خصوصاً الأوروبية منها إلا باستشارته وبإذن منه. وتجمع جلّ المصادر التاريخية على أن هذه الرحلة كانت حدثاً سياسياً كبيراً عاشته النخبة التونسية التي كانت في طور النشوء، والتي كانت تتطلع إلى إدخال إصلاحات على الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية في البلاد.

## 2- خير الدين باشا " أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك".

### أ : التعريف بالمؤلف:

لو أردنا اختصار حياة خير الدين التونسي في أسطر قليلة، لما وجدنا أفضل من خير الدين الزركلي نستعين به للتعريف بخير الدين التونسي، ففي أعلامه يذهب الزركلي إلى أن "خير الدين التونسي باشا وزير مؤرخ، من رجال الإصلاح الإسلامي، شركسي الأصل، قدم صغيراً إلى تونس، فاتصل بصاحبها الباي أحمد، وتعلم بعض اللغات، وتقلد مناصب عالية آخرها الوزارة. وبسعيه أعلن دستور المملكة التونسية سنة 1284هـ 1861م ولكنه ظل حبراً على ورق". ويضيف الزركلي قائلاً: "وفي سنة 1294 هـ 1877م، أبعده عن الوزارة فخرج إلى الأستانة فتقرب من السلطان عبد الحميد فولاه الصدارة العظمى سنة 1295هـ، فحاول إصلاح الأمور، فأعياه، فاستقال سنة 1296هـ، ونصب عضواً في مجلس الأعيان فاستمر إلى أن توفي بالأستانة. له أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك."<sup>1</sup>

جمع خير الدين باشا التونسي في شخصه صفات رجل الدولة، والمفكر، والكاتب، فهو ليس رجلاً نهضوياً على غرار الطهطاوي فحسب، بل صاحب مشروع سياسي شامل على مستوى الأمة يضعه في مقدمة كبار المصلحين في القرن التاسع عشر من أمثال: محمد علي باشا، والسلطان محمود العثماني، ومدحت باشا، وسواهم ممن قالوا بأن الأخذ بالتجربة الأوربية لا يتعارض مع جوهر الإسلام وقيمه.

1- الزركلي: المصدر السابق، ج ، 3، ص 327.

إن ما يجمع خير الدين بكل من الطهطاوي والشدياق وسواهما من المصلحين هو الانبهار بانجازات الغرب وقوته، لذلك دعا كل منهم إلى الجمع بين تكنولوجيا الغرب والثقافة الإسلامية، دون إثارة نقاط الخلاف بين ثقافة الغرب والثقافة العربية الإسلامية .

ومما يذكر لهذا الرجل الكبير إتقانه للعديد من اللغات، كالتركية والفارسية والفرنسية، إلى جانب العربية، وإلمامه بالثقافتين العربية الإسلامية والأوروبية، ناهيك بمعرفته العميقة بأوروبا ونظمها السياسية المختلفة. وفي هذا الصدد يقول خير الدين في مذكراته التي أملاها بالفرنسية "إن إقامتي الطويلة في فرنسا، ورحلاتي العديدة، مكنتني من دراسة أسس المدنية الأوروبية وأحوالها، فضلا عن مؤسسات الدول الكبيرة في أوروبا، فانتهزت فرصة اعتزالي الحياة السياسية، ووضعت مؤلفي السياسي الإداري : أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك"<sup>1</sup>.

### ب: التعريف برحلته :

كان خير الدين حريصا على التعريف برحلته وبرنامج الإصلاح الذي لدى كل الأطراف المعنية، فكتب مؤلفه باللغة العربية ليطلع عليه التونسيون والعرب والعلماء المسلمون، حيث تم تحرير " أقوم المسالك " سنة 1867 وطبع بإذن من الباي، أحمد الحسيني، في المطبعة الرسمية التونسية سنة 1868م، وكان ينوي ترجمته إلى اللغات التركية والفارسية والإنجليزية. ولما كان يتقن الفرنسية، فقد أشرف بنفسه على الترجمة الفرنسية التي تولاهها أحد مساعديه، وصدرت المقدمة بالفرنسية في باريس سنة 1668م، تحت عنوان " الإصلاحات الضرورية للأقطار الإسلامية" Reformes nécessaires aux etats musulmans . أما الترجمة التركية، فقد تأخرت إلى سنة 1878م، وهي سنة تعيينه صدرا بالآستانة. ولم يتسن له أن يرى الكتاب مترجما إلى الإنجليزية، إذ لم تحصل هذه الترجمة إلا بعد قرن من صدور الكتاب سنة 1967 م.

يشتمل كتاب "أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك" على خلاصة فكر مؤلفه، وتأملاته، ومشاهداته، خلال ترحاله في البلاد الأوربية، أراد منه أن "يكون تذكرة للعلماء، وإيقاظا للغافلين من رجال السياسة وسائر الخواص والعوام"<sup>2</sup> للانتباه لما يجري حولهم وما يدبر لاحتوائهم، إذا استمروا في غفلتهم، وفي ذلك إشارة منه إلى ما يحيق بهم من أخطار، وما يحاك لهم من مكائد، واحتلال الفرنسيين للجزائر مثال على ذلك.

---

1- التونسي، خير الدين : أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تحقيق ودراسة : زيادة معن، بيروت، دار الطليعة، الطبعة الأولى، 1978 م، ص.83.

2- نفسه .

ومما لاشك فيه، أن الهاجس الذي أوحى لخير الدين بمشروعه الفذ، يعود على وجه التحديد، إلى خشيته على العالم الإسلامي من الغرق. فقد ترددت في أذنه طويلا كلمة سمعها من بعض أعيان أوروبا تقول : "إن التمدن الأوروبي تدفق سيله في الأرض، فلا يعارضه شيء إلا استأصلته قوة تياره المتتابع، فيخشى على الممالك المجاورة لأوروبا من ذلك التيار إلا إذا حذوا حذوه وجروا مجراه في التنظيمات الدنيوية، فيمكن نجاحهم من الغرق"<sup>1</sup>. و لذلك علق خير الدين على هذا القول كما يلي : "هذا التمثيل الحزن لمح الوطن مما يصدقه العيان والتجربة، فإن المجاورة لها من التأثير بالطبع ما يشتد بكثرة المخالطة الناشئة من كثرة نتائج الصناعات"<sup>2</sup>. وهذا التعليق كاف لتأكيد أن خير الدين لم يكن منبها بأوروبا، ولم يسع إلى نقل أحوالها للمسلمين، إلا من موقع يقينه بأن التغافل عن التحولات التاريخية الضخمة التي حصلت في القرن التاسع عشر، سيوقع البلدان الإسلامية في أسوأ مصير، وهو الإنهيار أمام الطوفان الأوروبي والقوة الجارفة .

أعجب خير الدين التونسي إعجابا غير محدود بعبد الرحمن ابن خلدون وتاريخه، بل إن خير الدين حاول في كتابه "أقوم المسالك" أن يحدو حدو ابن خلدون فضمنه "مقدمة" و "تاريخا"، وإذ ركز في "المقدمة" على الأسباب التي أفضت إلى انحطاط المسلمين بعد عصور الازدهار التي عرفوها، وأيضا على السبيل إلى نهضتهم اتجه في "تاريخه" نحو آخر، بحيث يخيل للقارئ بأن أي رابط لا يربط بين الاثنين "المقدمة" و "التاريخ".

ففي هذا التاريخ، يضعنا خير الدين التونسي وجها لوجه مع المشهد الأوربي بما هو عليه من تمدن ورقي وحضارة. فهو يضعنا أمام الطبيعة والجغرافيا الأوربيتين، ثم يصف حال كل مملكة أوربية على حدة عارضا ما لديها من تنظيمات إدارية وسياسية وعسكرية ومالية. وفي هذا الإطار، تمكن خير الدين من وصف ممالك أوربية عدة، وعلى الأخص، فرنسا وإنجلترا وروسيا وألمانيا وإيطاليا وإسبانيا والبرتغال وهولندا والدانمارك وبلجيكا وسويسرا واليونان، بالإضافة إلى وصفه "المملكة العثمانية"، حيث كانت وقتذاك واحدة من الممالك الكبيرة وذات النفوذ في العالم، كل ذلك ليجعل القارئ واعيا بالهوة الحضارية التي أضحت تفصل بين الدول الأوروبية والدولة العثمانية وولاياتها العربية.

وانطلاقا من هذا يمكن القول بأن الرابط الذي افتقده القارئ بين "المقدمة" و "التاريخ" بات الآن على شيء من الوضوح ؛ فإذا كان خير الدين قد لجأ في "مقدمته" إلى تشریح وتفصيل الأسباب والعوامل التي أدت إلى

---

1- نفس المصدر، ص. 146.

2- نفسه.

الخطاط المسلمين، فقد سعى في " تاريخه " إلى تبيان وتوضيح الأسباب التي تخرجهم من هذا الانحطاط واللاحق بأوربا .

يدشن خير الدين كتابه بخطبة يخبرنا فيها بأن كتاب " أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك " يتضمن زبدة معارفه و خلاصة نظرتة حول نشوء الممالك وزوالها، وحول أسباب رقيها وانحطاطها. والكتاب، كما يخبرنا، إنما هو نتيجة تأمل طويل في المسار الذي ترسمه الممالك لنفسها سواء لجهة النشوء أو الأفول " إني بعد أن تأملت طويلا في أسباب تقدم الأمم وتأخرها جيلا فجيلا، مستندا في ذلك لما أمكن تصفحه من التواريخ الإسلامية والإفرنجية مع ما حرره المؤلفون من الفريقين فيما كانت عليه وآلت إليه الأمة الإسلامية، وما سيؤول إليه أمرها في المستقبل"<sup>1</sup>.

بعد الخطبة مباشرة، يضعنا خير الدين أمام مقدمة مسهبة، تضمنت جملة أفكاره الإصلاحية، ومن هنا أهمية المقدمة إذا قورنت مع ما تبقى من الكتاب الذي ينطوي على وصف لـ "الممالك الأوروبية" لجهة إدارتها وسياستها وتنظيماتها الاجتماعية والمالية وقوتها العسكرية.

في صفحات المقدمة يفصل المؤلف في الأسباب الداعية للتأليف، والمنظوية على شقين أو أمرين آيلين إلى أمر واحد:

**أحدهما:** "إغراء ذوي الغيرة والحزم من رجال السياسة والعلم بالتماس ما يمكنهم من الوسائل الموصلة إلى حسن حال الأمة الإسلامية ، وتنمية أسباب تمدنها بمثل توسيع دوائر العلوم والعرفان ، وتمهيد طرق الثروة من الزراعة والتجارة، وترويج سائر الصناعات، ونفي أسباب البطالة، وأساس جميع ذلك حسن الإمارة المتولد منه الأمن، المتولد منه الأمل، المتولد منه إتقان العمل المشاهد في الممالك الأوروبية بالعيان ، وليس بعده بيان".

**ثانيهما:** "تحذير ذوي الغفلات من عوام المسلمين من تماديهم في الإعراض عما يحمد من سيرة الغير الموافقة لشرعنا بمجرد ما انتقش في عقولهم من أن جميع ما عليه غير المسلم من السير والترايب ينبغي أن يهجر وتآليفهم في ذلك يجب أن تنبذ ولا تذكر، حتى إنهم يشددون الإنكار على من يستحسن شيئا منها، وهذا على إطلاقه خطأ محض، فإن الأمر إذا كان صادرا من غيرنا وكان صوابا موافقا للأدلة، لاسيما إذا كنا عليه وأخذ من أيدينا فلا وجه لإنكاره وإهماله، بل الواجب الحرص على استرجاعه واستعماله"<sup>2</sup>.

1- نفس المصدر، ص . 146.

2- نفس المصدر، ص. 149.



فالقضية عنده هي التمدن أولاً وآخراً، وهو بمثابة الحكمة "والحكمة ضالة المؤمن يأخذها حيث وجدها"<sup>1</sup> ومن سيضطلع بإنجاز هذا "التمدن هم رجال السياسة ورجال الدين من المسلمين"، لذلك عمد في تقرير هذه الضرورة وإثباتها بحجج عقلية ونقلية للبرهنة على جواز الاستفادة من الغرب والنقل عنهم، قناعة منه بحدوث هوة حضارية عميقة. يقول خير الدين : "لا يتهيأ لنا أن نميز ما يليق بنا، على قاعدة محكمة البناء إلا بمعرفة أحوال من ليس من حزيننا لاسيما من حف بنا وحل بقربنا"<sup>2</sup>.

يدعو خير الدين إلى اقتباس التجربة الأوروبية بطريقة تعيد إلى الأذهان ما كتبه رفاة الطهطاوي في «تخليص الإبريز» و «مناهج الألباب»، وما كتبه علي مبارك في «علم الدين»، ويهتم اهتماما خاصا بمحاولة إقناع معاصريه من المثقفين والقراء في القرن التاسع عشر، بضرورة الإصلاح والتغيير، وضرورة الإفادة من تجربة أوروبا واستعارة مصادر قوتها، ولاسيما العلم والمعرفة، خاصة وأن معاصريه كانوا في غالبيتهم الساحقة من المحافظين الذين كانوا يجردون في التغيير خطرا على الأوضاع القائمة بما فيها مصالحهم الخاصة.

كان خير الدين يؤمن إيمانا قاطعا بأن تحديث المجتمع وتجديده لا يمكن أن يتعارض مع الأصول الشرعية، وهو من قبيل المصالح المرسله والمستجدة، فالظروف تتغير وتتبدل وتأتينا بالجديد والطارئ، وهذا يقتضي إضافات شرعية وفقهية لا بد من تعاون أهل السياسة ورجال الدين في تقنينها، فلا يمكن رفضها بحجة أنها شرع جديد، فليس كل جديد متعارض مع الشريعة مجرد أنه جديد، فإذا تأملنا في أهميتها وحاجة المجتمع إليها وجدنا أن أصول الشريعة تقتضيها على وجه الإجمال . وخير الدين يلخص لنا هذا كله في العبارة التالية: "ثمة مصالح تمس الحاجة إليها ، بل تنتزل منزلة الضرورة، ويحصل بها استقامة أمورهم وانتظام شؤونهم لا يشهد لها من الشرع أصل خاص ، كما لا يشهد بردها ، بل أصول الشريعة تقتضيها إجمالا وتلاحظها بعين الاعتبار"<sup>3</sup>.

فالجري على مقتضيات مصالح الأمة، والعمل بها حتى تحسن أحوالهم، ويتجاوزوا الواقع المهترئ الذي هم عليه، وردم الهوة الحضارية ، بيننا وبين الأوروبيين، لا يمكن أن يكون متعارضاً مع الشريعة. وكل ما يحتاج إليه اتفاق نخبة من حملة الشريعة ورجال عارفين بالسياسات ومصالح الأمة، متبصرين في الأحوال الداخلية والخارجية، ومناشئ الضرر والنفع، يتعاون مجموع هؤلاء على نفع الأمة، يجلب مصالحها ودرء مفاسدها.

1- نفس المصدر، ص. 150.

2- نفس المصدر، ص. 146.

3- نفس المصدر، ص. 150.

وإذا كانت مسألة المصالح هي أكثر ما يركز عليه خير الدين في دفاعه عن الإصلاح والتجديد، فإن منهجه في الاقتباس عن الغرب لا يختلف كثيرا عن منهج الطهطاوي المصري، فهو يقدم الأدلة النقلية إلى جانب الأدلة العقلية، محاولا أن يستوعب الجديد القادم من الغرب في إطار الأصول العامة للفكر الإسلامي، وهو ينقب دائما في الموروث الفكري باحثا عما يدعم به دعوته إلى التجديد.

ولأن خير الدين كان يواجه معارضة من قبل بعض رجال الدين المحافظين لها مبدئيا، ومن قبل أولئك الذين رأوا فيها خطرا على احتكارهم للجهاز الشرعي وعلى نفوذهم السياسي والاجتماعي، فإنه يجد نفسه مضطرا إلى دعم سعيه إلى الأخذ عن الغرب بكل الموروث الفكري، بما فيه بعض ما حفظ لنا في الكتب من أحداث تاريخية تؤكد اقتباس العرب والمسلمين عن غيرهم من الشعوب. فهو يعيد علينا قصة سلمان الفارسي واقتراحه على الرسول صلى الله عليه وسلم حفر خندق لمنع الأعداء من الوصول إلى قواته، كما يذكرنا بما أخذه العرب عن اليونان، ويستشهد بما قاله النبي صلى الله عليه وسلم للصحابي الجليل، عاصم بن ثابت: "من قاتل فليقاتل كما يقاتل"، ويوضح أن معنى الحديث الاستعانة بما عند الغير من علم ومعرفة وخبرة وآلات، كما استشهد بقول علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: "لا تنظر إلى من قال، وانظر ما قال". ثم بعد ذلك علل دعوته للتفاعل مع المخالف الأوروبي، والإقتباس منه بأخذ السلف الصالح المنطق من غير أهل ملتهم، وترجمته من لغة اليونان لما رأوه من الآلات النافعة، حتى قال الغزالي: "من لا معرفة له بالمنطق، لا يوثق بعلمه"<sup>1</sup>. واستعان التونسي أيضا بما قاله الفقهاء من أن صورة المشابهة فيما تعلق به صلاح العباد لا تضر، ففي سنن المهتدين للعلامة الشيخ المواق المالكي<sup>2</sup> ما نصه: "إن ما نهيينا عنه من أعمال غيرنا هو ما كان على خلاف مقتضى شرعنا، أما ما فعلوه على وفق الندب أو الإيجاب أو الإباحة، فإنه لا نتركه لأجل تعاطيه إياه، لأن الشرع لم ينه عن التشبه بمن يفعل ما أذن الله فيه"<sup>3</sup>. وفي حاشية «الدر المختار» أيضا، للعلامة الشيخ محمد بن عابدين الحنفي<sup>4</sup> ما نصه: "إن صورة المشابهة فيما تعلق به صلاح العباد لا تضر".

---

1- الغزالي أبو حامد: المستصفى في علم الأصول، تحقيق: محمد عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1984 م، ج، 1، ص. 8.

2- الشيخ أبو عبد الله بن يوسف المعروف بالمواق، قاضي غرناطة المالكي، له، "سنن الدين في مقامات الدين"، توفي عام 1492 م، طبع كتابه في فاس سنة 1896 م.

3- التونسي: المصدر السابق، ص. 151.

4- الشيخ محمد أمين بن عمر بن عابدين، فقيه دمشقي حنفي. توفي سنة 1252 هـ الموافق 1836.

وهو ينكر على الذين يعارضون الاقتداء بالتجربة الأوروبية بحجة مخالفتها للشريعة ، تنافسهم على اقتناء البضائع الأجنبية والأوروبية من الملابس وأثاث المساكن خاصة، يقول : "إذا تأملنا في حالة هؤلاء المفكرين لما يستحسن من أعمال الإفرنج، نجدهم يمتنعون في مجاراتهم فيما ينفع من التنظيمات ونتائجها، ولا يمتنعون منها فيما يضرهم بذلك، فنراهم يتنافسون في الملابس وأثاث المساكن ونحوها.."<sup>1</sup>.

وهذا حسب خير الدين التونسي مانع للاستقلال موهن للقوة دال على تأخر الأمة في العلم والمعرفة والصنائع، في حين أن الإفادة من علم الغرب ومعرفته وتقدمه العمراني، والحذو حذوه ضمن تجربة خاصة، هو الذي يحفظ استقلالنا وهو الذي يصون وحدتنا، وهو الذي يعطينا القوة لضمان هذه الوحدة وذلك الاستقلال، وهل يظن هؤلاء المنكرون أن ذلك ممكن دون تقدم في المعارف وأسباب العمران المشاهدة عند غيرنا. وهل يبتسر ذلك التقدم بدون إجراء تنظيمات سياسية تناسب التنظيمات التي نشاهدها عند غيرنا في التأسيس على دعامي العدل والحرية، اللتين هما أصلان في شريعتنا، وهما أساس القوة والاستقامة في جميع الممالك.<sup>2</sup>

لقد كان خير الدين شاهدا على عصره، معبرا ومحذرا من الاستهانة بالمد الأوربي الاستعماري، واعيا بحقيقة التجاوز الحضاري الأوربي للمجتمعات العربية الإسلامية المنهارة في القرن التاسع عشر، ولئن لم يفلح في تحقيق مراده في الإصلاح وإلحاق الأمة العربية بالأمم المتقدمة الراقية ، فإنه قد أذكى شرارته أينما مر، وترك وثيقة من الوثائق الإصلاحية الأساسية، ألا وهي كتابه " أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك."

### 3 - رحلات محمد بيرم الخامس : "صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار"

#### أ- التعريف بالمؤلف :

محمد بيرم الخامس بن مصطفى بن محمد الثالث من بني بيرم، عالم رحالة، مؤرخ من علماء تونس، ولد في مارس 1840م / 1256هـ .

ترى الفتى بيرم الخامس في عائلة اشتهرت بالعلم والثروة والجاه، وأنجبت عسكريين وعلماء وقضاة وسياسيين بارزين، ساهموا في بناء الدولة الحسنية وإرسائها، وتصاهروا مع السلطات الحاكمة، ومن أبرز هؤلاء

1- التونسي: المصدر السابق، ص . 152 .

2- نفسه .

البيارمة الذي تتلمذ عليه بيرم مباشرة هو **محمد بيرم الرابع**<sup>1</sup>، وإلى جانب ذلك استفاد كثيرا من المكتبة العائلية التي كانت تملكها أسرته، وقد ساهمت بشكل بارز في إثراء ثقافته وتفتق مواهبه الفكرية، سعت أسرته، وعلى رأسها شيخ الإسلام الحنفي بيرم الرابع، إلى تعليمه على أيدي أبر علماء الزيتونة في تلك الفترة.

أشرف محمد بيرم الخامس، خلال وزارة خير الدين باشا على جمعية الأعباس منذ عام 1874م، وساهم في تنظيم التعليم بالمدرسة الصادقية عند تأسيسها سنة 1875، وفي إصلاح التعليم بجامع الزيتونة، وفي إصلاح المحاكم الشرعية، مستعينا بالعارفين لقواعد الفقه والاجتهاد. كلفه خير الدين باشا، في العام نفسه، بإدارة المطبعة الرسمية وجريدة الرائد الناطقة بلسان الحكومة الإصلاحية.

كان مقربا جدا من الباي أحمد، أولاه رئاسة الفتوى الحنفية، وهو أول من لقب بشيخ الإسلام في تونس، وهو صاحب تأليف ومساهمات علمية شهيرة .

**سافر إلى أوروبا**، ولما استولى الفرنسيون على تونس، هجر بلاده متجها إلى الأستانة ومكث فيها فترة من الزمن حتى توجه إلى مصر عام 1302هـ، وأنشأ جريدة "الإعلام" أو "الإعلام بجوادث الأيام ومقتضى المقام بعلوم الإسلام ونصائح الأنام" منذ عام 1885م، وهي التي استمرت نحو أربعة أعوام، وتوقفت عن الصدور بتوليته منصب القضاء في محكمة مصر الابتدائية الأهلية<sup>2</sup>. توفي بخلوان، ودفن بالقاهرة سنة 1307/1889هـ .

من مؤلفاته: «صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار» في خمسة أجزاء و «تحفة الخواص في حل صيد بندق الرصاص» ، و «التحقيق في مسألة الرقيق»، و «الروضة السنوية في الفتاوى البيرومية» .

## ب \_ التعريف برحلات بيرم الخامس:

قام محمد بيرم الخامس بثلاث رحلات إلى أوروبا سنوات، 1875 و 1879 و 1880م وكتابه، **صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار**<sup>3</sup>، يمثل ثمرة هذه الرحلات مجتمعة. وهو يتحدث كفقيه ورجل إصلاح، فتجده يتمسك بأهداب الدين الإسلامي من جهة، ويدعو إلى تدارك تدهور العالم العربي والإسلامي من جهة أخرى واللحاق بالدول الأوروبية التي تجاوزتنا وطمعت في أراضينا وخيراتنا. يقول بيرم في سبب سفره: "قد عرض

---

1- محمد بيرم الرابع، كان مقربا جدا من الباي أحمد، أولاه رئاسة الفتوى الحنفية، وهو أول من لقب بشيخ الإسلام في تونس، وهو صاحب تأليف ومساهمات علمية شهيرة. انظر بتفصيل، الصولي علي : الدين والدولة والمجتمع في مواقف وآثار محمد بيرم الخامس، دار الطليعة الجديدة ، الطبعة الأولى، 2003م، ص . 29.

2- صولة: المرجع السابق، ص . 128.

3- بيرم الخامس : المصدر السابق، ص . 94.

للعبء الحقيق السفر إلى أوروبا ثلاث مرات إلى هذا التاريخ ، فكان السفر الأول لأجل التداوي فقط على ما سيأتي بيانه، وأما المرة الثانية فكانت لما ذكر أيضا، ولأشغال سياسية أوعز إلي بها الوزير"<sup>1</sup>. حيث قدم في باريس تقريراً سياسياً إلى غامبينا رئيس مجلس النواب الفرنسي، بغرض تبديل القنصل العام الفرنسي بتونس روستان. وفي السفارة الثالثة، وأثناء إقامته بباريس للتداوي في صيف 1295هـ / 1878م، استقبله رئيس الجمهورية الفرنسية المارشال مكماهون ، وأكرم وفادته<sup>2</sup>.

وإثر إقامته في الأستانة من شهر صفر 1297هـ/ يناير 1880م إلى شعبان 1298هـ / يونيو 1881م، تقابل مع السلطان العثماني عبد الحميد الثاني وقدم له تقريراً في الإصلاحات المقترحة إدخالها في نظام الدولة، كما كلف بأنشطة سياسية التي ذكرها في كامل الأجزاء الخمسة من الصفوة ودعمها بوثائق ومكاتيب ومعاهدات سياسية كثيرة، جعلت من الصفوة مرجعاً تاريخياً وسياسياً مهماً خصوصاً فيما يتعلق بتاريخ القطر التونسي في أواخر القرن التاسع عشر ومكملاً لكتاب "الإتحاف" للمؤرخ الوزير أحمد بن أبي الضياف.

وعلى الرغم من إشارته إلى كتاب الشدياق « كشف المخبأ عن فنون أوروبا» عند تحدّثه عن انكسار، وثناءه على العلامة رفاعة بك الطهطاوي في نص رحلته إلى فرنسا، والموسوم ب«تلخيص الإبريز في تلخيص باريز» والذي "أطنب الإطناب الحسن في بيان تقسيم العلوم وترتيب إقراءها ، وإفادتها"<sup>3</sup> ، فإن كتابه يمثل قمة أدب الرحلات العربية إلى أوروبا في القرن التاسع عشر. فهو يمتاز عن سواه بدقة تقسيم المواضيع وشمولية السرد والحديث عن معظم الأقطار الأوروبية، إضافة إلى تركيزه على الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية في تونس ومصر والدولة العثمانية، وهذا يمكن القارئ من المقارنة بين العالمين الأوربي والإسلامي، ليخلص مع بيرم الخامس إلى الهوة السحيقة التي أضحت تفصل بينهما، والتي لم يعد بالإمكان التنكر لها. بل أصبح من الواجب على كل مسلم غيور ابتكار المناهج والإجراءات اللازمة اتخاذها للحاق ب"الآخر"، أو على الأقل التخفيف من حدة الهوة الحضارية .

---

1- هو الوزير مصطفى بن إسماعيل الملقب بالخنزدار .

2- نفس المصدر، الجزء الثالث، ص . 84.

3- نفس المصدر، الجزء الثالث، ص.150.

نشر بيرم "صفوة الاعتبار" بعد أن كانت فرنسا استكملت احتلال الجزائر، وقضت بريطانيا عل حركة أحمد عرابي في مصر، سنة 1882م، ودخلت بلاده تونس تحت الحماية الفرنسية، ولذلك نراه يربط دائما بين الأوضاع الداخلية ، والسياسة الخارجية للدول الأوروبية.

المتأمل في مقدمة كتاب صفوة الاعتبار وجزئه الثالث على وجه الخصوص، سوف يدرك طرافة وتفرد رؤية بيرم الخامس لأوروبا؛ فإثر حديثه عن أوروبا وموقعها الجغرافي، ووصفه لتقدمها الحضاري وتاريخها القديم والحديث يصرح أن: "هاته القارة رمقها السعد بأحاطه، وحط لديها أركابه، فكما تسعد أفراد الإنسان وتنحسن كذلك بقاع الأرض، حاشا البقاع المكرمة بالأنوار الإلهية، وإنما نعني البخت الدنيوي"<sup>1</sup>. وقام في مؤلفه بسرد لأكبر المحطات التاريخية التي عايشتها أوروبا ومرآحتها بين التمدن والتوحش، إلى أن دخلت العصور الحديثة بعد أن "شرع فيها تمدن منذ خمسمائة سنة على خلاف المعهود سابقا، وامتد فيها تدريجيا إلى أن بلغت في هذا العصر إلى الدرجة القصوى من التهذيب والتمدن والمعارف الدنيوية ، حتى صار لأهلها الوجاهة والنفوذ على جميع أقسام الأرض."<sup>2</sup>

عندما يصف بيرم الخامس في كتاب صفوة الاعتبار دولة من الدول الأوروبية التي يزورها، يتبع في ذلك الوصف ترتيبا هو دائما الترتيب الآتي : بعد ذكر سفره إلى تلك الدولة يصف عاصمتها وغيرها من المدن الكبرى، ثم يصف القطر وسكانه ونشاطهم الاقتصادي، ويشير إلى مستعمرات الدولة إن كانت لها مستعمرات، ثم يلخص تاريخ الدولة معتنيا اعتناء خاصا بالتاريخ الحديث الذي يبدأ عنده بإحداث النظام السياسي القائم في عصره.

فتاريخ فرنسا الجديد مثلا، حسب بيرم الخامس، يبدأ بالثورة الكبرى التي وقعت في سنة 1789، بعد أن "انتشرت فيهم المعارف، وعلموا ما لهم وما عليهم، ونالوا من بعض ملوكهم أحيانا إنصافهم، واشتهرت بينهم الصحف الخيرية المعلنة بالحمد والمذام ... وانعقدت فيهم جمعيات سرية للتدبير والعمل فيما يمكن لهم به حفظ حقوقهم ومملكتهم."<sup>3</sup>

كما يفرد بيرم الخامس أيضا لكل دولة من الدول التي يصفها فصلا يتعلق بسياستها الخارجية والاستعمارية مع عناية خاصة بتاريخ علاقتها مع الدولة العثمانية بعد تخصيص فصل لسياستها الداخلية. وهكذا يورد وصفا

---

1 - نفس المصدر، ص. 151 .

2- نفسه .

3- نفس المصدر ، صص . 102 - 103.

للاستعمار الانكليزي، فيميزه عن الاستعمار الفرنسي، ويذكر أن الانكليز يتركون أهالي المستعمرات "يجرون على حسب عقائدهم وعاداتهم وأحكامهم، وكذلك الأداء المرتب<sup>1</sup> للحكومة واستخلافه وتوزيعه إلى غير ذلك من غير تداخل الانكليز معهم في شيء سوى أنهم يشترطون عليهم أبطال المظالم والتعدي على بعضهم، وإبطال بعض العوائد القبيحة بالعقل الراجعة إلى ظلم الغير كإحراق الأحياء"<sup>2</sup>.

يصف محمد بيرم الخامس التونسي اتساع مستعمرات بريطانيا في مشارق الأرض ومغاربها، فيشير إلى سببين رئيسيين: "انتظامهم في داخليتهم، المثمر للغنى، المثير للقوة الحربية"، و"حسن الإدارة" في المستعمرات. ولاحظ الرحالة التونسي أن انكلترا لا تغير القوانين والشرائع الأساسية للبلاد التي تستعمرها فتجاري "الأهالي في مقاصدهم وعاداتهم وأحكامهم وكبريائهم وديانتهم"<sup>3</sup>. غير أن الانكليز هم أيضا "قساة وقلوبهم غليظة"<sup>4</sup> حيث لا يتورعون عن قمع كل ثورة تقوم ضدهم من طرف الأهالي المستعمرة .

يتبع هذه الفصول، فصول أخرى، وكلها تهم المؤرخين والساسة والاقتصاديين وتعلق بالثورة الزراعية والصناعية والتجارية والفكرية والعلمية لكل دولة من الدول التي زارها، ومعلومات عن نظمها الاقتصادية، وعن عملتها وعن أساليب المعاملات فيها، معبرا من خلال ذلك عن وعي حاد بحدوث تجاوز حضاري أوربي، وممكننا القارئ التونسي خاصة والعربي عامة، من الوقوف على قوة هذه الدول ، وازدهار اقتصادها ، وتطور نظامها العسكري، ورفي منظومتها السياسية.

لقد تغنى بباريس، كعادة الرحالة المشاركة، اندهاشا وانهارا بها، معبرا عن اعجابه بحضارتها "باريس وما أدراك ما باريس، هي نزهة الدنيا وبستان العالم الأرضي وأعجوبة الزمان. ولعمري أنها أحق باسم مملكة من اسم مصر، وهي أنموذج لغرائب مصنوعات البشر، وحق للفرنساويين التفاخر بها ومباهاة الأمم بحاسنها وجمالها وغناها ومعارفها ومصانعها، فمهما فكرت في إحداها هالتك، وقلت إن القوم قد انحصرت أعمالهم فيها ثم إذا التفت للأخرى تقول مثل ذلك."<sup>5</sup>

1 - يقصد الضريبة .

2- نفس المصدر، ص . 47.

3- نفس المصدر، ص . 58.

4- نفس المصدر، ص . 59 .

5- نفس المصدر، ص . 66.

ولفت نظره جمال شوارع باريس واتساعها وتنظيمها لاسيما و"أنه يوجد فيها غالبا محلات للبول مستورة بشكل ظريف على هيئة قباب في وسط الطريق والماء بها جار، كما توجد محلات الخلاء في غاية النظافة، وهي أيضا كثيرة وذلك من واجبات البلدان الكبيرة لبعده الماشي عن محله"<sup>1</sup>.

وكان بيرم الخامس قد وصل إلى فرنسا قادما إليها من إيطاليا بالقطار، فلاحظ "العمران واتصاله وإتقانه"، وهي ملاحظة طالما كررها الرحالة العرب حول البلدان الأوروبية. غير أن رجل الدولة التونسي يستطرد لشرح أهمية التواصل والإتقان عاقدا مقارنة مع بلده ؛ حيث انبهر بيرم بالنظام العمراني للمدن الأوروبية الحديثة وإتقانه، وهو ما لم نعهده في البلاد العربية والإسلامية . فحين جاوز مدينة بيزة الإيطالية، قال : "بدلت الأرض غير الأرض التي عهد منظرها في بلادنا، وما مررنا عليه من كيفية العمران واتصاله وإتقانه لا يوفي القلم بتصويره وتقريبه". والسر في ذلك هو اتصال ذلك العمران وامتداده وتماسكه إلى ما لا يحيط به البصر مع تحسين جهات الاتصال العامة. وبالجملة "فليس أن كل قطعة من العمران لم نعهدها، بل عهدنا مثلها ولنا قطع تضاهي أفراد تلك القطع سواء كانت في البساتين أو في القصور التي بها، أو في إثارة الأرض وتعميرها، لكن الذي لم يعهد لنا هو اتصال ذلك العمران وامتداده وتمثله إلى ما لا يحيط به البصر، مع تحسين جهات الاتصال العامة فإنها تحدث من ذلك هيئة اجتماعية لها اعتبار زائد فوق اعتبار قطيعات منفردة وإن بلغت من الإتقان ما بلغت"<sup>2</sup>.

تأسيسا على ما سبق، نستنتج أن أوروبا لم تعد بالنسبة إلى بيرم الخامس ديار " الكفر والفساد " كما هو سائد في ذهن كثير من معاصريه ، بل إن المتأمل في إنجازات الغرب الحضارية " يزداد يقينا في قدرة الخالق ". إلا أن الحديث عن أوروبا، لم يكن على وتيرة واحدة. وأن هذا الإعجاب ليس مطلقا ، بل إن الشيخ بيرم اتخذ مواقف من عدة مسائل تراوحت بين الاحتراز والتحفظ والنقد، رافضا بذلك الاقتباس الأعمى طبقا لمبدأ "الاعتبار دون الإنبهار".

فمما انتقده وركز عليه، الجانب الأخلاقي، حيث يقول : "وليس من عاداتهم الحياء، مثل ما هو عندنا، فترى البنت تخاطب زوجها وتفأكهه أمام والديها، بل وتفعل مثل ذلك مع خطيبها، وترقص مع الرجال أمامهم. هذا في البنات فكيف بالبنين. وعندهم أن الغناء ليس بمعيب من النساء، فترى أكبر الأعيان يحتفل

1- نفس المصدر، ص . 68.

2- نفس المصدر، ص. 20 .



في داره بدعوة عامة، وتصير بنته أو زوجته أو إحدى النسوة الأعيان المدعوات تغني في ذلك الملاء، وترقص مع الرجال على أشكال شتى، من معانقة ومحاصرة وغيرها، ولا تأثيم في ذلك، بل يروونه إكراما بحيث أن المسلم الغيور يكاد يتفطر مما يرى"<sup>1</sup>.

#### 4- رحلة محمد السنوسي : الرحلة الحجازية

##### أ: التعريف بالمؤلف.

ولد الشيخ محمد السنوسي، صاحب الرحلة الحجازية سنة 1267هـ- 1851م في مدينة تونس، وتلقى تعليمه في جامع الزيتونة على يد مشايخه حتى أحرز شهادة التطويح، وبرز بين أقرانه كشاب نابغ، عين كاتباً أولاً بإدارة جمعية الأوقاف، كما عين بعد ذلك مدرسا بجامعة حمودة باشا، وكاتباً في محكمة الوزارة، وحاكماً نائباً بالمجلس المختلط العقاري. في سنة 1876م، عين محرراً بجريدة الرائد التونسي، وشارك في الحياة السياسية بمشاركته في الاجتماع التونسي مع الإدارة الفرنسية، كما تزعم مظاهرة مكونة من ثلاثة آلاف شخصية تونسية بارزة ضد الحماية الفرنسية، مما أدى إلى عزله من وظائفه وإبعاده إلى مدينة قايس. توفي عام 1900م، عن عمر لم يكمل الخمسين .

ألف العديد من الكتب أهمها : «مجمع الدواوين» و «مسامرات الظريف بحسن التعريف» و«مطلع الدراري والروض الزاهر والمور والمعني»، كما نشر «ديوان محمد قبادو» بالمطبعة الرسمية.

##### ب: التعريف بالرحلة.

لئن كان السنوسي قد سمي رحلته ب"الحجازية"، لأن أداء فريضة الحج كان هو المحرك الأول والأعظم لهذه الرحلة، فإنه امتاز باقتضابه للعنصر الأساسي من ذكر خبر الحج ومناسكه، فلم يخص لذلك إلا بضع صفحات، من بين ثلاثة أجزاء مجموع صفحاتها سبعمائة وإحدى وثلاثون صفحة.

خصص السنوسي الجزء الأول من نصه الرحلي للحديث عن إيطاليا، والجزء الثاني للحديث عن الأستانة وآسيا الصغرى والحجاز، والجزء الثالث لتراجم من تعرف عليهم من أعلام العالم الإسلامي في القرن التاسع عشر. وقال محمد السنوسي بخصوص وسم رحلته بالحجازية بقوله : "...وبما أن أصل السفر للحجاز، كان هو أول

1- نفس المصدر، ص. 32 .

غرض فيما عرض ، نسبت إليه جميع الكتاب اعتبارا لشرف ما اختص به من المزية، وسميته الرحلة الحجازية"<sup>1</sup>.

على أن الأمر الذي يلفت نظرنا بشأن هذه الرحلة، هو السبب الشخصي الذي حرك همّة المؤلف إلى الأسفار ، فقد قال متحدثا عن نفسه : "هذا وللعبد الضعيف المكتفي بالموضوع عن التعريف، منذ عقلت فضيلة الاجتماع، وأدركت سر الله في التعاون لتجاذب الانتفاع، رغبة تدعوه في كل وقت للسياحة، للحصول على النظر الذي حمد الدين نجاحه ، إلى أن أتاحت لي الأقدار تيسيرا ، فنلت خلسة من الدهر، وكان ربك قديرا<sup>2</sup>، خرجت فيها لحج بيت الله الحرام ، وزيارة خير الأنام ... فأداني ذلك السفر الذي أولاني مطافه إلى بعض بلدان إيطاليا"<sup>3</sup>.

لقد روى السنوسي مشاهداته بأسلوب شيق يغلب عليه أحيانا صيغة الأسلوب التقريري متجنباً التكلف، واللفظ الغريب، وذلك بعد أن قيد أثناء رحلاته وجولاته ملاحظاته وكامل انطباعاته في حينها، مما سهل عليه بعد انتهاء الرحلة مهمة كتابتها وجمعها بدقة متناهية. "جمعت فيه ما شاهدته من الآثار، مشروحة الأصول بما يفيد الاعتبار، كما شرحت ما عرض من كل جديد، ومخترع مفيد، شرحا يحتاج إليه كل باع أديب، ولع بمحاسن التهذيب، وربما أدرجت فيه من التاريخ والأحكام، ما لا يستغنى عنه الناقد الهمام، ويحتاج إليه من أراد التحنك بالمعارف، والمتطلع للاستطلاع بظل الأدب الوارف، إلى غير ذلك مما يفيد السفر إلى البدو والحضر، وينسي وافية من المشقة الحاصلة ولو ببعده المشقة"<sup>4</sup>.

أما عن قصده من تدوين رحلته ، فقد أشار إلى رغبته الصادقة في خدمة الإنسانية وتخليد عمل يذكر به بعد مماته ف"لا يهتم العاقل للتعب الذي يلقاه في حياته بسبب قصد خدمة الجنس البشري، لأن مآل الحياة لا محالة إلى الفناء، وهل رأينا بطالا خلد في الدنيا، كلا بل إن التاعب فيما ينفع الناس، إذا انعدمت منه

---

1- السنوسي، محمد بن عثمان : الرحلة الحجازية، تحقيق : الشنوفي علي، الشركة التونسية للتوزيع، الطبعة الأولى، 1976م، ج 1، ص. 42.

2 - سورة الفرقان : الآية . 54 .

3- نفس المصدر، ص. 44.

4- نفس المصدر، ص. 43.

الحياة الجسمانية، تبقى الحياة خلاصة أعماله واختراعاته أو تسهيلاتة، فيكون حي الذكر مظهرًا للفخر في كل جيل<sup>1</sup>.

وصل السنوسي إلى نابولي في إيطاليا في 27 مايو 1882م، ووصفها بأنها "ذات ميناء أمن من أعظم مراسي إيطاليا"، وأسهب في بيان معالم المدن الإيطالية . ولاسيما نابولي وبومباي وصانيترو وليفورنو، وأطنب في وصف ما لفت نظره على الخصوص من المعارض والمتاحف والمسارح وعادات الأهالي.

أعجب السنوسي بالترامواي "ذات الخط الحديدي الذي يخترق البلد في سككها الرئيسية، من باكرة النهار إلى العاشرة ليلا مترددا كل مدة معينة"، كما أعجب بسوق تولدو أكبر أسواق نابولي وبصناعة المرجان المنتشر بكثرة هناك، وبالمتنزه العام الجميل المطل على البحر المجاور لميدان سباق الخيل، وبالمتحف القومي الإيطالي الرائع، كما زار مدينة بومباي التي حدث فيها زلزال عظيم بسبب بركان جبل فيزوفيو فدمرت تماما عام 62م، ثم أعيد اكتشافها حديثا ، هذا إضافة إلى حضوره بعض الحفلات في المسرح في نابولي، وقد أفاض في وصف المسرح وما فيه، و عدد مزاياه والموسيقى التي تكون في أوله وآخره، بل ومصاحبة ذلك لمعظم ما يدور فيه من مسرحيات وألعاب وعرض. وقد ركب السنوسي طريق القطار، من نابولي إلى روما التي وصفها بالجمال والنظافة والاتساع، وقال : "ومن أعاجيب الأبنية بما قنوات الماء فإن منها واحدة طولها أربعة وستون ميلا ولها في طريقها سلسلة من القناطر طولها ستة أميال ونصف وارتفاع بعض قناطرها بمائة قدم"<sup>2</sup>.

زار في روما كنيسة سان بطرس إحدى أعاجيب البناء البشري والتي فيها مقر البابا . كما قال عن روما: " أول ما وقع بصري على فوانيس الكهرباء فرأيت قوة نورها العجيب برومية<sup>3</sup> "، وهو، كعادته عند ذكر بعض الغرائب العلمية أو الاجتماعية، يستطرد في ذكر اكتشاف الكهرباء وتطور الصناعات بعدها وارتباط عجلة الحياة عموما بها. وزار السنوسي كذلك مدينة ليفورنو وبقي فيها مدة، وصف تجارتها ووصف اليهود التونسيين ووصف الحياة فيها.

---

1- نفس المصدر، ص. 133.

2- نفس المصدر، ص. 58 .

3- نفس المصدر، ص. 55 .

ونحن نتحدث عن الرحلة الحجازية لمحمد السنوسي تمهيدا لاستقراء تجليات الوعي بالتجاوز الأوروبي الحضاري عنده، يجدر بنا الوقوف عند أهم السمات التي تميزها عن باقي الرحلات المغاربية والمشرقية وقد أجملناها في ثلاث قضايا .

**أولا :** تميزت رحلة السنوسي، بطرح مسائل فقهية و أخلاقية مهمة مما صادفه أثناء تجواله في أوروبا أو تركيا أو الحجاز . ففي أثناء زيارته لأوروبا ورؤيته لحل إلقاء المواليد في مدينة بيزة الإيطالية، تناول مسائل فقهية أخلاقية تتعلق بالإجهاض. وذهب في هذه القضية مذهب أبي حنيفة، الذي يسمح للمرأة الحامل بأن تسقط حملها من أجل التداوي في فترة المائة والعشرين يوما الأولى من حملها، ما دام الجنين لم يتخلق قبل نفخ الروح<sup>1</sup> .

كذلك طرح التساؤل حول التمثيليات المسرحية التي تعرض فوق المسارح التي حضر بنفسه بعضها في إيطاليا أو اسطنبول، إضافة إلى مسألة مسابقة الخيل والرماية والمخاطرة عليهما. وأكثر من ذلك وأهم منه ما يتعلق بطعام أهل الكتاب من الإفرنج وذكاتهم، وهي مسألة شغلت بال الرحالة المسلمين إلى غير بلدان الإسلام. وقد كان الباي أحمد باشا، أمير تونس، أرسل قبل سفره إلى فرنسا سنة 1846م، بالسؤال عن ذلك إلى شيخ الإسلام، فأجابه بأن طعامهم حل بشرط التسمية وإن لم يذكر اسم الله عند الذبح فحرام<sup>2</sup> .

كما تناول السنوسي في رحلته حكم لبس المسلم للبرنيطة<sup>3</sup> والتي حكم الفقهاء بردة لابسها لخروجه على معهود المسلمين في اللباس وتغطية الرأس بالعمائم<sup>4</sup>. وقد دافع عن رأيه في تحريم الدخان<sup>5</sup>. وهكذا حفلت رحلة السنوسي بالقضايا الفقهية التي تناسب الأحوال والمقامات التي مر وبمر بها كل رحالة.

**ثانيا :** تميزت رحلة الشيخ محمد السنوسي بالمقارنة بين العالم العربي الإسلامي والعالم الغربي المسيحي مؤمنا أن لكل منهما خصائص ومبادئ، وأن ما يستنكر هنا ويستغرب يصبح عاديا هنا ومستحسنا، إلا أنه كان دائم الحمد لله على فضائل الإسلام وأخلاق المسلمين. فلقد وقف السنوسي من عوائد البلدان التي زارها موقفا اتسم بالنزاهة والموضوعية والتجرد من الذاتية، فرأى من كل أمة أسباب نفعها وضررها واختار لنفسه ما حل وضح عنده

---

1- نفس المصدر، صص. 158 ، 160 .

2- نفس المصدر، صص. 92، 94 .

3- يقصد القبعة الأوربية.

4- نفس المصدر، ص. 106.

5- نفس المصدر، ص. 107.

أن توسعة ظرف المكان بالسفر بمثابة طول الحياة المستفادة من سعة ظرف الزمان. وقال بخصوص ما استحسنه واستقبحه من عوائد الجهات التي رآها : "قد استفدت أن كل عادة صالحة بأهلها لا يسوغ لغيرهم إنكارها، لأني رأيت من الترك والهنود والأفغانيين وأهل جاوة والمغاربة والأوروبيين من تباين العوائد ما نكرته عادتي أولاً، وبالمخالطة صرت استحسن ما أنكرته أولاً. والإنسان ابن عاداته ، لا ينبغي له إنكار عادة غيره بعاداته المنكرة عند غيره" <sup>1</sup> .

كما أن المؤلف يرى أن للسياحة مزايا عديدة لا تحصى، وفي مقدمتها العيان الذي يبلغ الخبر، وفي هذا الصدد يقول : "لكن قد تبين في الخارج ما أوضح لنا حكمة طلب خصوص المسير [ هكذا ]، حيث أن السياحين في هاته العصور لما اختلطوا بأصناف الأمم وشاهدوا أحوالهم وآثارهم اكتشفوا كثيرا من أغلاط التواريخ، فكان المسير أفيد للحقائق، لأنه تحصل به المشاهدة للحالة الحاضرة، ثم في الأشياء الماضية تحصل مشاهدة الآثار الدالة على الأصول" <sup>2</sup>.

ثالثا : أسهب السنوسي في وصف العلوم والمخترعات التي برعت فيها أوروبا، فكان يؤمن بأن أدباء عصره عليهم دين لعجائب المخترعات والاكتشافات التي لم ير من سبقهم مثلها، وان أداء حق المخترعات بقي دينا على لسان العرب، لذلك نظم قصيدة فريدة رائعة في المخترعات الجديدة، وأطنب في وصفها معبرا عن إعجابه وانبهاره، ونوه بها وجعلها ظاهرة عصره، لاسيما وسائل النقل التي جعلت العالم أشبه بقرية صغيرة، وجعلت البعيد قريبا.

تدل كتب الرحلات التونسية في القرن التاسع عشر ، بمحتواها على أن النخبة التونسية لم تبق في أوائل النصف الثاني من القرن التاسع عشر تعيش في مجتمع ضيق منغلِق على نفسه، ولم تبق ضمن ذلك المجتمع في برج عاجي بعيدة عن التفكير في الشؤون العامة، بل صارت مهتمة بالعالم الذي يحيط بها، وخاصة أوروبا وسياساتها وحضاراتها، مدركة الهوة الحضارية التي أضحت تفصل بين مجتمعيها والمجتمعات الأوروبية، وهي في ذلك أشبه بالنخبة المشرقية التي رحلت إلى أوروبا قبلها كما تناولنا ذلك في الفصل الأول.

---

1- نفس المصدر، ص. 15

2- نفس المصدر، ص. 16



## المبحث الثالث: الرحلة المغربية إلى أوربا.

يعكس نوع الرحلة الذي سنتحدث عنه خصوصية مغربية، تمثلت في تميز المغرب خلال القرن التاسع عشر وقبله بقليل، بإرسال بعثات دبلوماسية مكونة في الغالب من وجهاء القوم إلى مجموعة من الدول الأوربية في شأن مهمات سياسية، أغلب التقدير أنها كانت تتعلق بمشاكل السلم والحرب والنزاع حول الحدود والتجارة والحماية القنصلية، دون خلالها كتاب المخزن مشاهداتهم أثناء إقامتهم المحدودة، التي ستعرض على أنظار السلطان والنخبة لمعرفة أسرار قوة " الآخر".

هذا " الآخر" الذي سبق لهم التعرف عليه فوق تراجهم بعد أن رحل إليهم، وهو في مظاهر قوته، إما عن طريق التبادل التجاري أو أثناء التهديدات والضغوطات الاقتصادية التي كان يمارسها، وإما في ساحة " الوغى" "يسلي وتطوان" حيث كان النصر حليفه، أو وقت دعوته للإصلاحات المتحيزة التي ظل يقترحها عليهم وصولاً إلى الحماية ثم الاستعمار... هو الذي سيتعرفون عليه من جديد، "بعد رحيلهم إليه" بحسب نظامهم الفكري وإحساسهم النفسي، لكن هذه المرة على أرضه التي شيد فوقها وتحتها إنجازات كبيرة في التحديث والترقي في سلم الحضارة، أجهرت الكتاب السفراء لدرجة أن من رآها لأول مرة "ربما اختل مزاجه من أجل ذلك"<sup>1</sup> بحسب تعبير الطاهر الفاسي.

وبحكم أن المغرب هو أكثر البلدان العربية الإسلامية قرباً من أوربا، فإنه من المنطقي أن تتوفر له ما لم يكن لغيره من بلدان العالم العربي الإسلامي، من حيث العلاقات السياسية و الاقتصادية مع أوربا الممتدة عبر قرون، وطابع الندية الذي وسم هذه العلاقات على المستوى السياسي والديبلوماسي خلال فترات قوة الدولة المغربية. ولهذا فإن كل هذه المعطيات التاريخية و الجغرافية انعكست بشكل مباشر على أدب الرحلة في المغرب، مما نجم عنه ظهور صنف غير مألوف في الرحلة العربية المعاصرة هو صنف الرحلات السفارية، الذي ظهر لأول مرة في المغرب في عهد الدولة السعدية ، وأول رحلة بلغتنا من هذا النوع هي رحلة "النفحة المسكية في السفارة

---

1- الفاسي، الطاهر: الرحلة الإبريزية الى الديار الإنجليزية، تحقيق : الأستاذ محمد الفاسي، مطبعة جامعة محمد الخامس، الرباط، الطبعة الأولى، 1967 ص . 66.

التركية"<sup>1</sup> الذي كتبها أبو الحسن علي بن محمد التامكروتي<sup>2</sup>، سفير المنصور الذهبي إلى الخليفة العثماني مراد الثالث سنة 997 هـ / 1589 .

المطلب الأول: رحلات المغاربة في القرن الثامن عشر، لحظة الوعي بالتفاوت مع مغالطة الذات.

## 1- السياق التاريخي للرحلة المغربية الى أوربا خلال القرن الثامن عشر:

من المعروف أن الانتصار العسكري الكبير الذي حققه السعديون في وقعة وادي المخازن<sup>3</sup> كان له أثر كبير في استرجاع المخزن لهيبته العسكرية على الصعيد الإقليمي والدولي.

1- يعتبر الكتاب وثيقة هامة تؤرخ لجوانب عدة من العلاقات المغربية التركية ، فهو يصف ما شاهده أو سمع به في المناطق التي كانت تحت أيدي الأتراك، بل يصف بلاد الترك نفسها، وهو من خلال ذلك يحاول أن يقدم الخطاب الرسمي للدولة السعدية، أي أن السعديين أحق بالخلافة من المماليك الأتراك، وهو يصف من خلال ذلك أيضا سفره البري الطويل، وأعمال القرصنة، وكذا وضعية الغور المحتلة. ولم يهمل الناحية العلمية فذكر بمختلف العلاقات التي كانت قائمة بين المغاربة وعلماء الشرق الإسلامي. انظر : محمد زروق : "العلاقات المغربية التركية من خلال أدب الرحلات، كتاب التفحة المسكية في السفارة التركية نموذجاً"، ضمن ندوة، أدب الرحلة في التواصل الحضاري ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، مكناس، سلسلة الندوات ، رقم ، 5 ، الطبعة الأولى، 1993م، صص . 349-355.

2- ولد التامكروتي بوادي درعة بمراكش، سنة 1534، وقيل سنة 1520، وتوفي رحمه الله سنة 1594 هجرية بمراش، نشأ في بيت علم وصلاح ، فجدّه هو محمد بن علي، من أعيان درعة، واشتهر والده محمد البكري بالصلاح والتقوى، وكان أخوه محمد عالما فقيها وإماما لجامع المشور بفاس، ونبغ أخوه الحسن في علوم اللغة . ذاع صيته بين طلاب العلم، فاستدعاه السلطان أحمد المنصور الذهبي للقدوم إليه بفاس، وكلفه بالسفر إلى السلطان العثماني وتبليغ رسالته وحمل هديته، الشاذلي عبد اللطيف : "مسألة الانتماء من خلال رحلة التامكروتي الى القسطنطينية سنة 1590 م"، ضمن ، ندوة الرحالة العرب والمسلمون ، إكتشاف الآخر، المغرب منطلقا وموتلا، وزارة الثقافة، الرباط، الطبعة الأولى، 2003م، ص . 37 .

3 - قيل الكثير عن هذه المعركة ، فهي في الرواية المغربية معركة وادي المخازن، ومعركة الملوك الثلاثة، وشبهها الإخباريون بغزوة بدر، وكان انتصار المغاربة انتصارا للإسلام وللملة المحمدية. واستبشر الفقهاء بهذا الانتصار ورأوا في موت ثلاثة ملوك رمزا وإشارة إلى انهزام التتليث، وذكر المغاربة ذلك في نثرهم وشعرهم. ففي قصيدة شعرية لأبي عبد الله محمد بن علي الفشتالي نقرأ:

|                             |                           |
|-----------------------------|---------------------------|
| وجردت في ذات الإله صوارما   | تصول بما والعاجزون نيام   |
| ضربت بما التتليث للحتف ضربة | فلم يبق بعد للصليب قيام   |
| وأمرت وبلا بالمخازن قطره    | بموت الأعداي يندق وسهام . |



وقد عبر تيمول عن هذه الظاهرة من خلال ما يلي: "إن انهزام دوسبستيان في أرض إفريقية، على ضفاف وادي المخازن كان له وقع كبير.... بين الدول المسيحية التي لم تصدق الخبر في البداية. فقد كان من الصعب تصديق أن بلدا قويا مثل البرتغال، الذي كان يسيطر سلطته على جزء كبير من البحار المعروفة، والذي حقق عدة انتصارات يمكن أن يهزم وأن يسحق جيشه في معركة واحدة خاضها في أرض مغربية. لذا لم تصدق البلاطات الأوروبية الخبر، واعتبرت ذلك مجرد إشاعة، لكن بعد مضي شهر من المراسلات المتبادلة بينهما، وقفت إنجلترا وفرنسا على الحجم الكبير للهزيمة البرتغالية من خلال الأخبار التي توصلت بها من لشبونة عن طريق أنغيس، في حين تحققت الإمبراطورية العثمانية من صحة الخبر عن طريق الأنباء المتأنية من الجزائر. ومن البندقية توصلت بخبر انتصار الجيوش المغربية"<sup>1</sup>.

وهكذا أعاد انتصار وادي المخازن للمغرب قوته وأضفت عليه صورة جديدة لدى البلاطات الأوروبية. وقد استفاد المنصور الذهبي من هذا الانتصار حيث جعله يحظى بتقدير الدول الأوروبية، وباحترام يليق بمنصر كبير، فاعترفت الدولة العثمانية وإسبانيا آنذاك بالمغرب كشريك سياسي. بل لقد قام فيليب الثاني وإليزابيث الأولى بالتفاوض مع البلاط السعودي من أجل إبرام تحالف معه أو الحصول على مساعدته العسكرية<sup>2</sup>.

بعد هذا الانتصار الكبير في معركة وادي المخازن، أحس المغاربة بمتعة الظفر والعزة والقوة، وهذا ما جعل السلاطين المغاربة، سواء السعديين، أو العلويين من بعدهم، لم يفكروا في تطوير النظم الموروثة عن أسلافهم، إذ وجدوا فيها الكفاية لإيقاف الغزو المسيحي الأوروبي. حتى إذا نزل الفرنسيون في الجزائر وانهمز بعد ذلك الجيش المغربي داخل حدوده في موقعتين متتاليتين، أميط اللثام عن الوضعية الجديدة في بر النصارى، فتجلى آنذاك لا التفوق العسكري الأوروبي فقط، بل نية هؤلاء في احتلال أراضي من التراب المغربي.

فالدولة المغربية حينما حصل لها الانتصار لم تستثمره في الدفع بالعمل الإصلاحية نحو الأمام، "لم تدرك زيادة في الاحتياط والحذر، بأن موازين القوى والمنافسة في العالم يمكن أن تتبدل، بل ركنت إلى ما عندها من

---

نقلا عن، القدوري عبد المجيد : المغرب وأوروبا ما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر ( مسألة التجاوز)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ، الطبعة الأولى ، 2000م ، ص. 174.

1-161. Timooule abdelkade, le Maroc à travers les chroniques mariitimes, tome1, 1989, p.

2- نفس المصدر ، ص ، 163

إمكانيات قليلة وفسرته بالجنوح الى القناعة والبساطة والزهد، ولعل هذا الأسلوب في تصور الحال والمستقبل قد ساهم إلى حد كبير في تعطيل حاسة النقد والمحاسبة مما تولد عنه بدوره تعطيل إدراك حقيقة تحديات العصر".<sup>1</sup>

أما أوروبا، فقد دخلت منعطفا جديدا، فقد تزايد تفوقها وتعمقت الهوة التي كانت تفصلها عن العوالم الأخرى. فتميز الإنسان الأوروبي خلال هذا القرن بتعطشه إلى المعرفة وإلى التجربة قصد اكتشاف خبايا الطبيعة. وليبلغ مرماه، سعى إلى تحرير الفكر الإنساني من كل ما قد يمنعه من التقدم، لأجل هذا أولى الإنسان الأوروبي أهمية قصوى للعقل، ولأساليب النقد. ولم يعد مقتصرًا على استعمال عقله في المجالات العلمية الصرفة، بل حاول تطبيقه كذلك في تسيير المؤسسات السياسية والاجتماعية، وحتى المعتقدات، "فلم يعد الناس يقبلون بسهولة قناعات كانت سائدة منذ أمد طويل. كتلك التي تقول بأن الرعايا على دين ملوكهم، أو أن تكون لهؤلاء سلطة مطلقة في البلاد وعلى العباد. فناهض فلاسفة الأنوار الاستبداد بجميع أنواعه، وسخروا فكرهم الحر الطليق لتحليل القناعات والمقدسات التي كانت سائدة ونقدها، ولم يقبلوا منها إلا ما كان يقبله العقل ويستصفيه المنطق".<sup>2</sup>

وهكذا خرجت أوروبا لتغزو أسواقا جديدة في مناطق عديدة من العالم، ولكن غزوها لهذه الأسواق كان مسبوقا بمعرفتها لذهنيات وثقافات أصحاب هذه القارات عن طريق سفرائها وجواسيسها، وبفضل كتاباتهم.

خلال هذه القرون، والتي شهدت تحولات عميقة في البنى والعقليات الأوروبية، كان المغاربة يرسلون بين الفينة والأخرى سفراء لهم إلى بعض عواصم البلدان الأوروبية لفك الأسرى أو لتجديد معاهدات الهدنة والصدقة، وعادة ما كان السفير أو كاتبه يتولى تدوين سفارته واصفا مظاهر حضارة البلد الذي زاره ليطلع عليها السلطان وحاشيته.

ففي القرن السابع عشر، زار أحمد الملقب بالشهاب الحجري أفوقاي، عددا من بلدان أوروبا، وناظر رهبانها في مسائل دينية كمسألة التثليث، ووصف بعض مظاهر حضارتها في رحلته المعروفة ب «ناصر الدين على القوم الكافرين»<sup>3</sup>. وفي عهد السلطان المولى إسماعيل، أرسل المغرب عددا من السفراء إلى أوروبا، كالوزير الغساني الذي أوفده السلطان إلى اسبانيا سنة 1690م وعبد الله بن عائشة إلى فرنسا.

---

1- الصولي، حميد : نظرية التحديث في الفكر المغربي، دار المدار الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، 2010، ص. 81.

2- القدوري : سفراء مغاربة في أوروبا، مرجع سابق، ص . 21.

3- قام بما سنة 1611م، حققها وقدم لها محمد رزوق، ونشرتها دار السويدية للنشر والتوزيع، أبوظبي، الطبعة الأولى، 2004م . يعد كتاب ناصر الدين أهم مصدر تاريخي أندلسي كتب بعد صدور قرار الأندلسيين المتبقين بالأندلس، فصاحبه يتكلم بمنأى

وفي عهد السلطان محمد بن عبد الله أرسل المغرب بعثة سفارية إلى اسبانيا سنة 1766 م برئاسة أحمد بن المهدي الغزال، بهدف إطلاق أسرى المسلمين.....وجريا وراء هذا الهدف نفسه زار الوزير محمد بن عثمان المكناسي مدريد التي مكث فيها مدة طويلة، وذلك في عهد كارلوس الثالث عام 1779. ومن المعروف أن بعض هؤلاء السفراء كتبوا، بأمر من السلطان، تقاريرهم أبرزها تقرير الوزير الغساني الموسوم بـ «رحلة الوزير في افتكك الأسير»<sup>1</sup> وتقرير أحمد بن المهدي الغزال الفاسي الذي أسماه: «نتيجة الاجتهاد في المهادة والجهاد»<sup>2</sup>، ولعل هذا العنوان خير معبر عن التصور السائد للعلاقة بين المغرب وأوروبا خلال هاته الحقبة. ثم تقرير محمد بن عثمان المكناسي المعروفين بـ «الإكسير في فكك الأسير»، و «البدر السافر لهداية المسافر إلى فكك الأسارى من يد العدو الكافر».

## 2- الوعي بالتفاوت عند الرحالة المغاربة في القرن الثامن عشر، رحلات ابن عثمان المكناسي نموذجا: أ- التعريف بالمؤلف :

هو محمد بن عبد الوهاب بن عثمان المكناسي (ت 1213هـ/1799م)، ولد ونشأ بمدينة مكناس في بيت علم، حيث كان والده وراقا وواعظا بأحد مساجد المدينة.

عاصر ابن عثمان ثلاثة سلاطين علويين هم المولى محمد بن عبد الله، (1757-1790م) والمولى اليزيد (1790-1792م) والمولى سليمان (1792-1822م)، وأصبح على عهدهم رجلا من رجالات المخزن العلوي، فأوكلت إليه مهام الكتابة ثم السفارة والوزارة، بدأ نشاطه المخزني لما اختاره المولى محمد بن عبد الله مرافقا

---

عن محاكم التفتيش، يجادل المسيحيين ويستعرض من خلال ذلك ما فعله الإسبان بالمورسكيين، وظروف انتقال هؤلاء إلى شمال إفريقيا .

1- طبعت أولا على الحروف في طنجة عام 1359هـ 1940م مع ترجمتها إلى اللغة الإسبانية، وأعدت نشرها كل من دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، والمؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، تحرير وتقديم النوري الجراح، 2002م. كتبها في السفارة التي بعثه بها السلطان المولى إسماعيل ( 1082-1139 هـ ) (1672-1727م) إلى ملك اسبانيا كارلوس الثاني عام 1690م ، للتفاوض معه في مسألة الأسرى بين الدولتين عقب الحروب البحرية التي دارت بينهما، والحصول على ما بقي بالمساجد الأندلسية القديمة من مؤلفات وتصانيف عربية.

2- كتبها في السفارة التي أرسله بها السلطان سيدي محمد بن عبد الله ( 1171-1204 هـ \_ 1757 - 1789 ) إلى ملك اسبانيا كارلوس الثالث عام (1179-1766م) للتفاوض في أسرى الدولتين . توفي سنة 1214 هـ - 1799م.

وجليسا لأحد أبنائه. وهو الأمير مولاي علي، ثم رقاہ كاتبا للقصر السلطاني، ومع حلول عام 1779م، اختاره للقيام بسفارة إلى اسبانيا قصد افتداء بعض الأسرى المسلمين، والتفاوض من أجل عقد الصلح والهدنة مع هذه الدولة، وقد وفق ابن عثمان في مهمته الدبلوماسية ووقع على إثرها اتفاقية أرخويس بين المغرب واسبانيا في 30 ماي 1780م، وقد قيد سفره هذا في كتاب قال عنه "سميته الإكسیر في فكاك الأسیر، ومن الله تعالى استوهبت الفتح واليسیر في المقام والمسیر"<sup>1</sup>.

وبعد عودته كافأه السلطان ورقاه وزيرا مكلفا بالشؤون الخارجية، كما أن محمد بن عثمان ترك صدى طيبا في الأوساط الرسمية الإسبانية نظرا لحسن تمثيله لبلده المغرب وبعد سنة، وجهه المولى محمد بن عبد الله مرة ثانية سفيرا إلى جزيرة مالطة، ومملكة نابولي سنة (1781-1782م)، من أجل افتداء أسرى المسلمين من أيدي نصارى هذه الجزر، فقيد هذه الرحلة في كتاب قال عنه: "وسميته البدر السافر هداية المسافر إلى فكاك الأسارى من يد العدو الكافر"<sup>2</sup>. وبعد عودة هذا السفير من إيطاليا، أرسله سيدي محمد بن عبد الله إلى اصطنبول، وكلفه بالنظر مع العثمانيين في المشاكل التي كانت تعترض العلاقات المغربية الجزائرية، وقد وفق في هذه المهمة، بعدما قضى بها ثلاث سنوات بدولة الخلافة الإسلامية من 1785 إلى 1788م.

#### ب- التعريف برحلات ابن عثمان وتجليات "الوعي بالتفاوت ومغالطة الذات":

إن ما يجده الدارس، في نظر سعيد سعيد العلوي<sup>3</sup> في رحلتي ابن عثمان المكناسي «الإكسیر في فكاك الأسیر» و«البدر السافر هداية المسافر إلى فكاك الأسارى من يد العدو الكافر» يعكس نظرة منفردة إلى الذات وإلى الغير، فسفارة المكناسي إلى إسبانيا ثم إلى نابولي ومالطا تبين أن الأمر عنده يتعلق بعملية "انتقال من دار الإسلام" إلى "دار الكفر"، وهو لا يتردد في استحضار مخزونه الديني في توجيه نظره إلى الوقائع والظواهر الجديدة التي يعاينها في رحلته. فأحكامه، حيث يطلق لها العنان، لا تقبل أي قدر من النسبية. "إن بلد النصارى دار كفر وضلال، لأنها أخيرا بلد لا تعرف الشرع ولا يكون الحكم فيها بما شرع الله: فهي بلد الطاغية"<sup>4</sup>.

---

1- المكناسي، محمد ابن عثمان : الإكسیر في فكاك الأسیر، تحقيق وتقديم : الفاسي محمد ، المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط ، الطبعة الأولى ، 1965 م .

2- المكناسي :البدر السافر هداية المسافر إلى فكاك الأسارى من يد العدو الكافر، دراسة وتحقيق : مليكة الزاهدي، منشورات كلية الآداب، المحمدية، سلسلة الرسائل والأطروحات، رقم 7، الطبعة الأولى، 2005 م .

3- العلوي بنسعيد : أوروبا في مرآة الرحلة.....، مرجع سابق، ص . 34.

4- المكناسي : الإكسیر في فكاك الكسیر، مصدر سابق ، ص . 161 .

ينتقد ابن عثمان عقائد النصارى القائمة على شبهات الصليب والتثليث بارتياح وثقة، وهو يعرف أن مصدر المسلمين القرآن الكريم، الذي يستمد منه سنده الديني يزخر بالآيات البينات الدالة على انحراف عقيدة أهل الكتاب من النصارى. وقد وجد ابن عثمان على أرض النصارى كثيرا من الأعمال التي يبجحونها لأنفسهم، وهي محرمة في شريعة الإسلام.

نعم، هي أرض "الكفر والضلال"، وهذا ما شهد به الكاتب وكان مقتنعا به، وجعله يعمل على تخلص المسلمين المحتجزين من يد "النصارى المشركين"، لأن المسلم لا يجوز له العيش بأرض مغصوبة لا يعبد فيها الله تعالى وحده، ولا الاختلاط بأهلها<sup>1</sup>، خوفا من فساد عقيدته الصحيحة .

ولقد هيمنت مواقف الاعتزاز بالذات، والنظرة الدونية والمهجاء لبعض مظاهر هذه المدينة، تظهر هذه النظرة الاستعمارية عند ابن عثمان كلما تعلق الأمر بالموقف الديني من السلوك المدني الأوروبي، إنها نظرة للفقير المسلم من عموم الكفار، ولهذا كلما تحدث الرحالة عن بلدة من هذه البلدان أردفها بالقول تحسرا "أعادها الله أرض إسلام"<sup>2</sup>، بل حتى عندما يذكر ملك البلاد الإسبانية لا يسميه باسمه تقيدا على الأقل بما تقتضيه الأعراف الدبلوماسية الحديثة، بل كان يسميه ب"الطاغية" حتى لو أقر له ببعض المكارم<sup>3</sup>. ومثل ذلك تحسره على كل الآثار الإسلامية في أوروبا ، يذكر مثلا ما حدث لبعض المنشآت الإسلامية هناك "إلا أن الكفار الساكنين

---

1- مما يؤكد ذلك ، قول الونشريسي (أبو العباس أحمد بن يحيى بن محمد التلمساني من فقهاء المغرب في القرن التاسع الهجري والعاشر) : " الهجرة من أرض الكفر إلى أرض الإسلام فريضة إلى يوم القيامة، وكذلك الهجرة من أرض الحرام والباطل بظلم أو فتنه. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " يوشك أن يكون مال المسلم غنما يتبع فيها شف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن " رواه البخاري وأبو داود والنسائي. ولا يسقط هذه الهجرة الواجبة على الذين استولى الطاغية لعنه الله على معاقلمهم وبلادهم إلا تصور العجز عنها بكل وجه و حال، لا الوطن والمال، فإن ذلك كله ملغى في نظر الشرع، قال الله تعالى: " إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا ، فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم" النساء: 98- 99 ، انظر : أسنى المتاجر، في بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر، وما يترتب عليه من العقوبات والزواج، ضمن المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء افريقية والأندلس والمغرب، تخريج مجموعة من الفقهاء بإشراف الدكتور محمد حجي ، دار الغرب الإسلامي، بيروت ، ص . 122 .

2- المكناسي: الإكسير ...، مصدر سابق، ص 36.

3- آثار انتباه المكناسي تواضع الحاكم. يقول : "إذا دخل بعض جناته ، ينزع الفؤوس من يد الخدمة ويخدم بيده" البدر السافر....، مصدر سابق، ص . 37.

بالصومعة المذكورة قد أفسدوا داخلها بالبول والقذارات ، حتى لا يمكن للإنسان أن يطلع إليها إلا ممسكا  
أنفه من شدة النتن. طهرا لله منهم البلاد وجعلهم فينا وغنيمة للعباد"<sup>1</sup>

لقد اتسمت نظرة النخبة المغربية إلى أوربا بنوع من الشموخ والاستعلائية والاعتزاز بالذات ، على الرغم من إدراكهم لواقع التفاوت الحضاري بين المغرب وأوربا ، ووعيهم بعمق ونوعية التحولات التي تحدث هنا، ومعاينتهم لبعض مظاهر التقدم والتطور التي أصبحت عليها دار "الكفر". فالعجرفة حاضرة حتى في ذكر ملكهم وحاكمهم، فهو لا يسميه إلا "الطاغية"، حيث ورد ذلك في كثير من صفحات نصوص ابن عثمان الرحلية ومن ذلك نذكر، تمثيلا لا حصرا قوله : "وقد بالغ هذا الطاغية في إكرامنا وتعظيمنا". وقوله "فقدم إلينا الكدش الذي بعث الطاغية لركوبنا... عادة الطاغية فيمن يرد عليه من وفود الملوك أن يضيفه ثلاثة أيام ونحن من شدة أعتناؤه بسيدنا ومولانا أمير المؤمنين أحسن ضيافتنا اثني عشر يوما التي قبل الملاقاة"<sup>2</sup>.

لا يكاد يجد القارئ في نصي ابن عثمان ما يشي برغبته في الاستفادة من تجليات التحديث التي وقف عليها شاهدا خلال إقامته بالديار الأوروبية، فلا نثر فيما دونه الكاتب إلا ذكرا لكرم الضيافة، التي كان يرى فيها رمزا لتقدير السفارة وقوة حضارة أهلها .

وفي اعتقادنا الشخصي، أنه قد تكون الضيافة وما كان يرافقها من حرص النصارى على اطلاع السفارة على الخزانة والكوميديا... دليلا على التقدير والحفاوة والتعظيم، لكنه قد لا يكون دليلا على اعتراف مسبق بقوة المغرب التي كانت حقا أقل قوة من النصارى آنذاك. بحيث كانت تشهد "دار الكفر"، كما يجب أن ينعتها ابن عثمان، تحولات فكرية وعلمية انعكست على الأوضاع الاجتماعية والسياسية بأوربا. إنما الذي يبدو أن النصارى حرصوا على ذلك، لعرض مظاهر قوتهم أمام السفير، إلا أن ابن عثمان اعتبره تعظيما ليس إلا للسفارة، لذلك كان تحت قوة الثقة بالنفس، التي كان من مظاهرها تردده في قبول دعواتهم إلا تحت الإلحاح.

لكن "الطاغية" الذي أحسن استقبالهم وضيافتهم لن يتوانى ابن عثمان في الدعاء على شعبه بالعقم حتى لا يكثر نسلهم، والتمني بأن تصبح حضارتهم غنيمة للمسلمين، حتى يرجع الحكم الإسلامي إلى سيادته جزء من أوربا المطللة على البحر المتوسط .

1- نفس المصدر، ص. 154.

2- نفس المصدر، ص. 146.

أما الوعي بالتفاوت الحضاري، فقد تجلّى في انبهاره بالعمارة والتنظيم وما شابه، إلى حد الإعجاب وأحيانا بالدهشة التي يعبر عنها: "وأما ما بها من الخيرات فحدث عن البحر ولا حرج، فالفواكه موجودة فيها في غير إبانها، حتى تجتمع فاكهة السنتين معا"<sup>1</sup>

ليس الأمر اعتباطيا ولا محاولة لتركيز الانبهار على عوامل طبيعية لا يد للمهارة الإنسانية فيها، بل الأمر يتعلق بتطور فن الزراعة وتقدم وسائل الإنتاج "فهى بلد خبرة ومعرفة بأمر الفلاحة، وهى بلد إتقان وجودة في صناعة السفن. وهى بلد معرفة بالصناعات العديدة المذهلة"<sup>2</sup>.

في وصفه لدار الحاكم "خزانة كبيرة موضوع فيها الغرائب" وفي وصف غرس وحدائق إشبيلية القريبة من القصر، قال: "ففيها من العجائب ما يقصر عن وصفه اللسان"، وفي وصف نابولي "الحاصل هذه المدينة من عجائب الدنيا، لا تنقضي عجائبها ولو أقام الإنسان سنين فيها لا يحصى عجائبها ولا يستوفيه"<sup>3</sup>.

كما لفت انتباه المخزن إلى اهتمام الإسبان بالبنية التحتية، وتمهيد الطرق وبناء القناطر والجسور "وقد رأيت النصارى شرعوا في تسويتها وأنزلوا للإقامة إليها لتمر بها الأكداش بسهولة، لأن لهم اعتناء كثير بتسوية الطرقات وصيغ القناطر حتى أنهم إذا رأوا مكانا يكثر فيه الطين يصنعون الطريق ويبلطونها بالتراب الأحرش والجير والحجارة كما هو مشاهد في بلادهم كلها"<sup>4</sup>.

كما اكتشف من خلال مشاهدته للتطور التقني، أهمية المكننة في التخفيف من حدة الاعتماد على الجهد العضلي للإنسان، وقد لمس ذلك في دار السكة بإشبيلية التي وصفها على النحو التالي: "وهي في غاية الكبر وفيها قوم موكلون بها ساكنون فيها بديارهم متأهلين بأولادهم، ولهم فيها من الآلات والنواعير والدواليب عدد كثير ولا كلفة عليهم في الخدمة لأن جل خدماتهم بالحركات"<sup>5</sup>.

ولما كان ابن عثمان المكناسي مهوسا بالجيش، كان التفصيل عند السفير في الأمور البحرية، فقد وقف ابن عثمان عند نظام الجندي فوصف دار صناعة السلاح الثقيل بإشبيلية<sup>6</sup>، ودار العدة بمدريد<sup>1</sup>، كما أثارته

---

1- المكناسي: الإكسير...، مصدر سابق، ص. 60.

2- نفس المصدر، ص. 61.

3- نفس المصدر، ص. 110.

4- نفس المصدر، ص. 55.

5- نفس المصدر، ص. 48.

6- نفس المصدر، ص. 49.

التحصينات العسكرية في المدن الإسبانية فوصفها بسبته، واستوقفته مدارس التعليم العسكري، فوصف المدرسة الحربية باشبيلية، ومدرسة الرماية باشقوية<sup>2</sup>.

انبهر ابن عثمان باهتمام الإسبان بالكتب، نادبا حظه على تفريط المغاربة في ذلك، حيث وصف خزانة الكتب بأنها: "كبيرة، في غاية الحفظ والصون، فأرونا كتب المسلمين وعدتهم ألف وثمانمائة سفير فيها نسختان من المصحف الكريم، وعدة تفاسير جلهم حواشي وكثير من كتب الطب، وقد طالعت ما سمح به الوقت مع ضيقه، فخرجت من الخزانة بعد أن أوقدت نار الأحرار بفؤادي، ونادت بالثارات فلم يأخذ أحد بثأرها، ياليتني لم أرها"<sup>3</sup>.

وبعد استعراضه لكثير من المنجزات ومظاهر التحديث التي أثارت انتباهه وإعجابه، شهد السفير لهم بشدة اعتنائهم بالأمور، واعترف بأن "بأن سائر أمورهم جارية على القوانين في غاية الضبط". وقد اختزلت هاته العبارة إحساسه العميق لعلة تفوق الإسبان، لكنه لم يكن قادرا على الجهر به، "فبريق التنظيمات ووسائل التمدن كان يتوارى سريعا مع استحضر العداء الديني ومشاهدة ممارسات أخلاقية مستفزة. فقد عسر عليهم الفصل بين الجوانب العقديّة والأخلاقية والتنظيمات ومظاهر التمدن الأخرى"<sup>4</sup>.

فابن عثمان أعجب بكثير من مظاهر التمدن الأوربي، لكنه استنتج في النهاية تأويلا يمكن اعتباره مركزيا في منطق رؤيته، تجلّى في أن كل ما أنتجه النصارى يدخل ضمن دائرة الاهتمام بأمور الدنيا التي لا تعدو إلا أن تكون مظهرا ماديا، قد لا يفيد في معرفة الآخرة، فلنفرض جدلا أن النصارى المجتهدين في أمور الدنيا، وهو اعتراف صريح منه بحدوث تفاوت حضاري، غافلون عن الآخرة، فهل يعني ذلك أن المسلمين المغاربة مطالبون بحسب ما يفهم من كلامه التخلي عن الاهتمام بشؤون الدنيا، لأنها مظهر زائل، قد يعيق المسلم عن التفرغ للآخرة.

نعتقد أن تنزيل النصوص الشرعية أو ما يفهم منها، تنزيلا بعيدا عن الدقة المطلوبة شرعا، في تفسير مستجدات الدنيا، والنوازل المعاصرة، من شأنه أن يشوش على قناعات المسلمين تجاه الحقائق الدينية، لأن تأويل

1- نفس المصدر، ص . 118.

2- نفس المصدر، صص. 123 - 130.

3- نفس المصدر، ص . 127.

4- المكاوي، أحمد : الرحالون المغاربة وأوروبا، مرجع سابق، ص . 29.



النصوص بشكل لا يتوافق ومقاصدها، الداعية في الأصل إلى الاجتهاد والعمل والإبداع، يمكن أن يكون سببا في تثبيط هم المسلمين عن نهج سبيل التطلع إلى معرفة علوم الدنيا من اكتشافات واختراعات مادية تغني الأمة بقوتها، بحيث سيعتبرون في هذا الحالة، الدين مانعا لهم من التجديد والتقدم، وهو ليس كذلك.

صحيح أن ما يراكمه الغرب من تجارب علمية تنفيذ حاجيات الإنسان المادية ومظهر من مظاهر الدنيا مقارنة بما أعده الله تعالى لعباده الصالحين في الآخرة، وبها حصلت لهم الغلبة في العالم، لكن أين حظ المسلمين من هذه القوة؟ كيف يمكن للمسلمين أن يبتكروا في شؤون الدنيا إذا اعتبروها حسب نظر السفير، مجرد مظهر مادي يسري عليه الفناء ولا يستحق منا الاهتمام والمكابدة-؟ كيف تتحقق الخيرية إذا بقي المسلمون عالة على الملل الأخرى في الحضارة وحاجيات الإنسان المعاصرة؟

يبدو أن هذه التحولات التقنية والتنظيم المحكم لمظاهر الحياة في البلدان التي زارها أثارت انتباهه وإعجابه، وأورد عنها روايات تنم عن استحسانها وتشكل بدايات للوعي المغربي بالتفاوت الحضاري، كمعطى مادي، يعيه كل مغربي زار أوروبا في هذه الفترة، لكن الأمر كان لا يزال بعيدا عن إدراك خطورة تلك التحولات وتشكل الوعي بالتجاوز الحضاري لدى النخبة المغربية والافتناع بتعمق واتساع الهوة الحضارية بين تلك المجتمعات الأوروبية والمغرب والإقرار بذلك، والدعوة إلى اللحاق بالمتجاوز .

فهؤلاء السفراء رغم استقرارهم بالبلدان الغربية لمدة زمنية من أجل تنشيط العلاقات السياسية والمبادلات التجارية بين تلك الدول والسلطنة المغربية، فإن نوعا من اللامبالاة كان يصرفهم عن الإدراك بأن ما عاينوه من معالم رقي هو وقوف ذاتي على حلول اللحظة المناسبة للقيام، عند العودة إلى الوطن، بالدعوة إلى الأخذ بما يليق من الأساليب الأوروبية لإصلاح الأوضاع العتيقة التي تعيش عليها البلاد. فكان من نتائج هذه السلبية أن ظلت الفكرة الإصلاحية ضبابية لم تصل إلى درجة محسوسة من الوعي، وظل ما دون في الصحف والمذكرات مقصورا عن " الإعجاب" بما شاهده هؤلاء الموفودون عند " الآخر" الأوربي<sup>1</sup>.

لقد وقع الإحساس بهذا الإعجاب في وقت كانت أوروبا تحسب ألف حساب لقوة الجيش المغربي وهيبة أسطوله ونشاط سياسته الخارجية، فكانت المناسبة إذن جد مواتية للدولة المغربية ونخبته بتحديث بنياتها والقيام بإصلاحات سياسية شاملة، تجعل منها دولة عصرية مواكبة للتطور الحضاري الذي شهدته الضفة الأخرى، ودولة

---

1- الحجوي، حسن، أحمد : العقل والنقل في الفكر الإصلاحي المغربي، 1257- 1912 ، المركز الثقافي العربي، الدار

البيضاء، الطبعة الأولى، 2003، ص . 16

متقدمة على الأصعدة السياسية والاقتصادية والعلمية والتقنية، كان من المتيسر الأكيد تحقيق هذا الانبعاث من دون خشية عراقيل ومثبطات خارجية، لأن الأطماع الأجنبية في النيل من كياناتها وعرقلة إصلاحاتها لم تكن قد اتخذت وجهها مخيفا، لاسيما وأنا لم نكن قد هزمنا في ايسلي وفي تطوان، ولم تكن مظاهر الضعف والتقهقر قد بدت بعد على جهازاتنا العسكرية والإدارية والمالية، أو أن مغربنا فقد جانب عظمته وهيبته وتقوضت شوكته الدفاعية في أعين الآخر الأوربي، فكان حتما أن يتخلف المغرب عن الركب الحضاري بمسافات طويلة (قدرها كثير من المغاربة المعاصرين الزائرين لأوروبا بمئات السنين) لعدم إقدامه على المسك بخيوط الارتقاء في الظرف المناسب لأنه أساء فهم السبل التي تمكنه من ملاحقة ما فاته .

إن الشعور المبطن بالاستعلاء الذي ميز نظرة السفير المكناسي إلى الآخر، يمثل في الواقع عنصرا مشوشا على عملية إدراك ثقافة الآخر ومقوماته ومظاهر حياته، والتنبيه إلى التحولات العميقة التي مست بنية المجتمعات الأوروبية، الشيء الذي حال دون وعي المكناسي وقبله بمسألة حدوث التجاوز الحضاري، ومن ثم التماذي في مغالطة الذات والاعتقاد بتفوقها مجرد أنها مؤمنة مسلمة، والآخر كافر مهزوم .

انطلاقا مما سبق، يمكن القول إن تقارير الرحلات السفارية التي كتبت قبل هزيمة إسلي سنة 1844م قد أنتجت صورة عامة عن المجتمعات الأوروبية وهي تنهض وتتقدم، إلا أن تقدمها ذلك لم يكن بالقدر الذي يجعله يولد لدى كتاب تلك الرحلات شعورا بالدونية والتأخر تجاه تلك البلدان. ولعل هذا ما يفسر أن أولئك الكتاب كانوا يرون أن التمايز الأساسي بين حضارة المجتمعين الأوروبي والمغربي، هو أولا وقبل كل شيء تمايز ديني يتعلق بمجموعة من القيم والتصورات والطقوس التي ترتبط بعقيدتي التوحيد الإسلامية والتثليث المسيحية. ذلك أن رحلات الغساني والغزالي والمكناسي تضمنت معلومات مفصلة عن إسبانيا من مختلف الجوانب، مقرونة في الغالب بالنقمة على الإسبان بسبب قوة الحمية الدينية<sup>1</sup> .

**المطلب الثاني : الرحلة المغربية خلال القرن التاسع عشر "لحظة الوعي بالتجاوز" .**

### **1- السياق التاريخي لرحلات المغاربة خلال القرن التاسع عشر :**

إن ما نعتناه بلحظة "الوعي بالتفاوت و مغالطة الذات" بسبب القوة والثقة في النفس التي كان يحس بها المغاربة بعد معركة وادي المخازن، لم تسمح للسفراء المغاربة قبل القرن التاسع عشر برصد وصفي لمكونات "الآخر"

---

1- المكاوي : الرحالون المغاربة .....، مرجع سابق، ص . 24.

بحكم أن شعور بن عثمان بالتعالي وبتفوق مرجعيته الثقافية، جعله لا ينظر إلى الظواهر والأشخاص في عينيتها وإنما من منطلق أحكام قيمة عن "بلاد الكفر" والفسق والرذيلة والطغيان .

غير أن الصدمات والرجات والإحباطات الهائلة التي عاشها المغرب في القرن التاسع عشر، وما تمخض عن ذلك من علاقات غير متكافئة مع الضفة الشمالية للبحر المتوسط، فرضت على المثقف المخزني وعلى رجال الدبلوماسية تغيير نظرهم ل "الذات" و "الآخر"، والتنبه إلى القوة والتطور الذين أصبح الغرب يتوفر عليهما في مطلع القرن التاسع عشر.

فلقد أصبحت أوروبا خلال هذا القرن ومطلع القرن العشرين قادرة على السيطرة على مناطق كثيرة من العالم، وصارت لا تتردد في ممارسة كل أشكال الضغوط على هذا البلد أو ذلك، من أجل تحقيق أهدافها الاستعمارية، ومن تم لم يعد للاستعلاء الذاتي من مبرر مقبول أمام التفوق الكاسح لأوروبا .

وقد لد الوعي بهذه الحقائق الجديدة لدى النخب المغربية إحساسا عنيقا بالضعف والهوان والانحزام أمام أوروبا، وتشكل الوعي عند كثير من الرحالة بحدوث تجاوز حضاري لم يعد ممكنا مداراته، مما دفع النخبة لممارسة النقد الذاتي، وإبداء رغبتها الجامحة في اكتشاف هذا "الآخر" والاقتراب منه والغرف من مدينته.

وقد تشكل هذا الوعي جراء صدمتين قويتين خلخلتا كثيرا من الثوابت السياسية الفكرية في المغرب، تمثلت الأولى في هزيمة المغرب في واقعة إيسلي سنة 1844م<sup>1</sup>، حيث اكتشفت النخبة المغربية أن ما ينقصها من شروط التفوق والقوة يوجد عند المخالف، والثانية هي هزيمة تطوان سنة 1860م<sup>2</sup>، والتي لم تكن نتائجه عسكرية

---

1- ففي 14 غشت من سنة 1844م، وفي مكان معروف بوادي اسلي في نواحي مدينة وجدة، انهزم جيش مغربي قوامه ثلاثون ألف فارس تزيد أو تنقص قليلا حسب تعبير الناصري أمام بضعة آلاف من الجنود الفرنسيين المنظمين والمسلحين بكيفية حديثة. وبدون جدال فقد كانت لتلك الهزيمة القاسية صداها المدوي والعميق داخل المجتمع المغربي على مختلف طبقاته وأصعده، بل لن بجانب الصواب إذا أكدنا أن تلك الهزيمة هي التي وضعت نخبتهم العاملة والحاكمة وجها لوجه مع واقع تأخرهم و ضعفهم، بمقابل تقدم وقوة الآخر الأوربي النصراني. ولقد كان لهزيمة إيسلي عدة آثار سياسية على المستويين الداخلي والخارجي. فعلى المستوى الخارجي، أفقدت هذه الهزيمة الهيبة العسكرية التي كان يتمتع بها المخزن منذ وقعة وادي المخازن. وهكذا أثار مياح إلى أن "هذه الحرب المغربية الفرنسية ورغم قصر مدتها، ورغم أنها لم تسفر عن أية تنازلات ترابية من طرف المغرب، فإنها قد شكلت تاريخا أساسيا في العلاقات الدبلوماسية مع المغرب ففي إيسلي لم يفقد المغرب جيشا عسكريا، بل فقد سمعة عسكرية". **Miege Le**

:**Maroc et l'Europe**, P.U.F, Paris, 1961 P.203

2- لقد هاجمت اسبانيا المغرب في 24 أكتوبر 1859، وبعد شهرين ونصف من المواجهة اللامتكافئة احتلت مدينة تطوان، واعتبر المغاربة احتلال هذه المدينة بمثابة الضربة القاضية على كيان المغرب كله، وعبر الناصري بمرارة من هذه الهزيمة ومضاعفاتها

وحسب، بل كانت نتيجتها فادحة من الناحية المالية، ويتجلى ذلك فيما فرض على المغرب دفعه لإسبانيا ، بموجب عقد الصلح واسترجاع المدينة.

لقد أظهرت هاتان الهزمتان أن باستطاعة إي جيش أوربي حتى من دولة ضعيفة، مثل إسبانيا، أن يتوغل في قلب المملكة دون القدرة على صدّه إلا بتهديد دولة أوربية أخرى. فبدأت حينئذ مرحلة الضغوطات الاقتصادية<sup>1</sup> والتنافس الاستعماري حول المغرب، ذلك التنافس الذي أغرق البلاد في الفوضى والبؤس .

ولذلك تساءل المغاربة بحسرة وأسف شديدين بعد هذه الغمة التي حلت بالمغرب حتى كادت أن تخنقه بعد هزيمة اسلي: لماذا انهزم المسلمون وهم مؤمنون ؟ ولماذا انتصر أعداؤهم وهم كفار ظالمون معتدون؟ ما التحولات التي عرفها الأوروبيون الكفار فحملت إليهم القوة والنصر والظفر، ولم يعرفها المسلمون ومن الواجب عليهم أن يعرفوها ويشخصوها ويفتي علماؤهم بشرعية اقتباسها منهم؟ وإن هذه الأسئلة تذكرنا بمثيلاهما التي طرحها مثقفوا الدولة العثمانية منذ هزيمة كارلوفيتس، مثلما طرحها علماء الأزهر منذ غزو نابليون بونابارت لمصر وفرار المماليك في معركة أمبابة .

فعلى نهج سليمان الحوات بعد اندحار المماليك واحتلال مصر من طرف الفرنسيين، بدأت النخبة العاملة بالمغرب بعد هزيمتي اسلي وتطوان، تراجع بعض المسلمات الفكرية وتنتقد بعض القناعات التي كان يروجها المخزن

---

قائلا: "ووقعة تطاوين هذه هي التي أزال الحجاب والهيبة عن بلاد المغرب واستطال النصرى بها، وانكسر المسلمون، انكسارا لم يعهد لهم مثله، كثرت الحماية ونشأ عن ذلك ضرر كبير نسأل الله تعال العفو والعافية في الدين والدنيا والآخرة".  
الناصرى : المصدر السابق، ج 8 ، ص . 78.

1-فتحت الانهزامات العسكرية المغربية الباب للأطماع الاقتصادية الأوربية التي كانت أساس التحركات الأوربية . فبعد اختلال موازين القوى في القرن التاسع عشر، حيث أصبحت الغلبة للبلدان الأوربية، صارت هذه الأخيرة تضغط على المغرب وتحصل على اتفاقيات توسع الامتيازات السابقة أو تلغي مجموعة من الشروط الواردة فيها، وأصبح المغرب يفقد بالتدريج المبادرة ثم القرار، وبالتالي السيادة. وكانت أخطر المعاهدات التي أبرمها المغرب مع إنجلترا سنة 1856م حيث كانت بمثابة الضربة القاضية، حيث مست في العمق السيادة المغربية، كما أصبحت المعاهدة الإطار والمرجع الذي اعتمده باقي الدول الأوربية في ضغوطها المتزايدة على المغرب. وبعد هزيمة تطوان أحرزت إسبانيا بفضل الاتفاقية المغربية الإسبانية عام 1861م على الامتيازات البريطانية نفسها، لتتوج المعاهدات بمؤتمر مدريد عام 1880 م الذي أكدت مقرراته الامتيازات الممنوحة للوجود الأوربي بالمغرب. وكان أسلوب المعاهدات أهم خطوة في المخطط الاستعماري. وقد نبه الحجوي الثعالبي إلى خطورة المعاهدات " إن المغاربة يجلبون الدمار ، بما يعقدون من المعاهدات من حيث لا يعلمون". نقلا عن، آسية بنعدادة : الفكر الإصلاحى في عهد الحماية ، محمد بن الحسن الحجوي نموذجاً، الدار البيضاء، المركز الثقافى العربى، الطبعة الأولى، 2003م، ص . 29 .

وسط العامة، وكمثال على ذلك ما قاله عبد الكبير بن المجذوب الفهري الفاسي، في إحدى خطب الجمعة في مسجد القرويين بفاس، حيث قام بدق ناقوس الخطر والإنذار بأنه "لا يأتي يوم إلا وبعده شر، ولا سوء إلا وما بعده أدهى وأمر، ونحن غافلون نعسا نعلل أنفسنا للخير بلعل وعسى، كما كنا هذه مدة نعللها بأخبار الواردين وأن النصر والغلبة لحزب الله والمجاهدين"<sup>1</sup> ولعل في ذلك تلميح إلى الأخبار التي يروجها المخزن طوال حرب تطوان عن انتصار المسلمين وخذلان العدو الكافر.

فمع مرور السنوات، وتوالي النكبات العسكرية، وتزايد الضغوطات الاقتصادية من طرف العدو "الكافر"، بدأ الوعي بالتجاوز الحضاري الأوربي يزداد حضورا عند النخبة المغربية، وبتمايز قوة الاستعداد المغربي عن قوة الأوربيين النصارى، لاسيما مع المؤرخ خالد الناصري الذي اعتبر حسب محمد المنوني من أوائل الأعلام المغاربة الكبار الذين انفتحوا على الثقافة الأوروبية الحديثة، وكان على حد قوله: "متشوقا دائما إلى الاطلاع على المعارف الحديثة والوقوف على حقائق العلوم العصرية والمخترعات الأوروبية، مولعا بالجرائد السيارة وترجمتها إن كانت بغير اللغة العربية(..). وكانت تأتيه من مصر والشام وإسبانيا وفرنسا وما زال الكثير منها محفوظا بخزائنه بسلا، وأن هذه اللفتة نحو الحضارة الحديثة أثرت في عقلية الرجل تأثيرا واضحا فكان يجب تعلم اللغات الأجنبية ويخالط رجالات أوروبا للاقتباس من معارفهم. وكان يهم بإرسال بعض أنجاله إلى أوروبا بقصد أخذ العلم في مدارسها وأن المترجم أول مؤرخ مغربي حديث اقتبس من المصادر الأوروبية كما نراه في تاريخه الاستقصا لإخبار دول المغرب الأقصى"<sup>2</sup>.

فلقد عبر الناصري في عدد من فتاويه، عن بدايات حصول الوعي بالتجاوز الحضاري عند جزء من النخبة المغربية، وبتمايز قوة الاستعداد المغربي عن قوة الأوربيين النصارى، مما حدا به وبكثير من فقهاء المغاربة إلى الإفتاء بعدم وجوب الجهاد ضد المخالف، إذ كيف يسوغ في منطق الشريعة ومقاصدها أن يحارب الأعرل الضعيف المتسلح القوي. كيف يقاوم المقعد الرجل الذي يمشي؟ كيف يحسن في رأي الناصري "المسارعة إلى عقد الحرب مع أجناس الإفرنج، وما مثلنا ومثلهم إلا كمثل طائرين: أحدهما ذو جناحين يطير بهما حيث يشاء. والآخر

---

1 ثريا، برادة: الجيش المغربي وتطوره في القرن التاسع عشر، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، سلسلة رسائل وأطروحات، رقم، 37، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1997 م، ص. 143.

2- المنوني: مظاهر يقظة المغرب الحديث، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، 1985، ج، 1، صص. 325-324.

مقصوصهما، واقع على الأرض لا يستطيع طيرانا، ولا يهتدي إليه سبيلا، فهل ترى لهذا المقصوص الجناحين الذي هو لحم على وضم أن يحارب ذلك الذي يطير حيث يشاء"<sup>1</sup>. ثم يضيف معبرا عن وعيه باختلال موازين القوى بين المغرب وأوروبا قائلا: "فهكذا حالنا مع عدونا فإنه بقراصينه الحربية يهجم علينا في ثغورنا إذا شاء ويبعد عنا فلا ندرکه متى شاء، وقصارانا معه الدفع عن أنفسنا إذا اتفقت كلمتنا ولم تشغلنا غوغاء الأعراب من خلفنا"<sup>2</sup>.

لقد أدى الوعي بالتخالف في ميزان القوة بين العام الاسلامي عامة والمغربي خاصة، إلى إبطال الدعوة إلى الجهاد والاقْتصار على الجناح إلى الصلح والهدنة. إذ من يقول بالجهاد، فإنما يقول بالفتنة والفوضى قال تعالى "﴿لَا يَأْتِيكُمُ الْيَقِينُ إِلَّا بِالْحَمْدِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحِيمُ﴾" <sup>3</sup>، دون هذا الوعي وما يثمره من عدم الوجوب، تصبح الدعوة إلى الجهاد فتنة، والفتنة كما جاء في القرآن الكريم: "﴿لَا يَأْتِيكُمُ الْيَقِينُ إِلَّا بِالْحَمْدِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحِيمُ﴾" <sup>4</sup>.

لقد اقتنعت النخبة المغربية علماء وحكاما، بأن أية مواجهة عسكرية في البر أو البحر مع الدول الأوروبية الاستعمارية: فرنسا، إنجلترا، إسبانيا، ألمانيا، لن تكون مجدية، ولا يمكن مطلقا التفكير فيها أو التعويل عليها لضمان استقلال البلد، والحفاظ على ما تبقى من كيان الدولة المغربية وسيادتها، من هذا الوعي لجأ الحكام المغاربة إلى اعتماد العمل الدبلوماسي كسلاح بديل لإذكاء روح التنافس بين هذه الدول كوسيلة لمواجهة طموحاتها. وهذا ما يفسر النشاط المكثف لهذا العمل الدبلوماسي من سنة 1845م إلى 1906م. فخلال هذه الحقبة وجه الحكام المغاربة الذين تعاقبوا على الحكم خلال هذه الفترة من تاريخ المغرب الحرجة عدة بعثات دبلوماسية إلى فرنسا وإسبانيا وإنجلترا وألمانيا وإيطاليا والفاكتان<sup>5</sup>.

1- الناصري: المصدر السابق، ص. 190.

2- نفس المصدر، ص 190.

3- سورة الأنفال: الآية، 61.

4- سورة البقرة: الآية، 190.

5- انظر تفاصيل هذه السفارات، عبد العزيز بن عبد الله: السفارات والسفراء بالمغرب عبر التاريخ، المعهد الوطني للدراسات القضائية، مطبعة الساحل، الرباط، 1985م.

تأسيسا على ما سبق، يتضح أن رحلات القرن التاسع عشر، جاءت في سياق تاريخي دبلوماسي محض بين قوتين : قوة "الأنا" المنهارة والموجودة في مأزق الهزيمة والاحتلال، وقوة "الآخر" المتفوق عسكريا وصناعيا وثقافيا، ولا تجيء النصوص المدونة، في هذا الصدد، لتعبر عن الموقف المغربي والمحدثات أو حتى تفاصيل المهمة الرسمية بشكل مباشر، بل تصبح الرحلة نصا شفافا ورمزيا ، وحقيقة أخرى موازية للحقيقة الرسمية.

تعكس نصوص «محمد الصفار»<sup>1</sup> و«إدريس العمراوي»<sup>2</sup> و«الطاهر الفاسي»<sup>3</sup> و«أحمد الكردودي»<sup>4</sup> و«إدريس الجعيدي»<sup>5</sup> عن رحلاتهم وسفارياتهم إلى البلدان الأوربية، لاسيما فرنسا وبريطانيا وإسبانيا، بدايات الوعي بالتجاوز الحضاري لدار الإسلام من طرف ما كان ينعت في الأدبيات المغربية "بدار الكفر".

و بمقدار ما كانت هذه الرحلات تندرج ضمن مهام "دبلوماسية" فإنها كانت ، وبموازاة ذلك ، مناسبة لمعرفة أوروبا واكتشاف ما في يدها من أسباب التفوق والقوة ، لهذا يشعر قارئ النصوص أن لدى الرحالة رغبة قوية في الاطلاع والمعرفة وفهم أسباب القوة الجديدة لأوروبا، وعيا منه بحدوث تجاوز حضاري أوروبي تجسد بشكل جلي في الهزائم العسكرية.

## 2- استعراض نماذج من الرحلات المغربية خلال القرن التاسع عشر.

أ : رحلة محمد الصفار إلى فرنسا. "صدفة اللقاء مع الجديد".

- التعريف بالمؤلف:

- 1- رحلة الصفار محمد بن عبد الله، صدفة اللقاء مع الجديد، دراسة وتحقيق: سوزان ميلار، تعريب ومشاركة في التحقيق : خالد بن الصغير، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، سلسلة نصوص وأعمال مترجمة، رقم 2، الطبعة الأولى ، 1995م..
- 2- تحفة الملك العزيز بمملكة باريز، منشورة في طبعة قديمة، دون تاريخ، من منشورات المطبعة الحفيفية، وقد أعاد زكي مبارك نشرها مع التقديم لها بدراسة قصيرة، مؤسسة التغليف للطباعة والنشر والتوزيع ، تطوان ، الطبعة الأولى، 1889 م .
- 3- الرحلة الإبريزية إلى الديار الإنجليزية، مصدر سابق .
- 4- التحفة السنية للحضرة الحسنية بالمملكة الاسبينولية ، تحقيق الأستاذ عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط 1965 م .
- 5- تحاف الأخبار بغرائب الأخبار، تحقيق وتقديم عز المغرب مغنينو، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبوظبي، الطبعة الأولى، سنة 2004 م .

هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله الصفار، أندلسي الأصل، تطواني المولد، أتى أجداده من مدينة جايين (jaén) الأندلسية، وكان والده يلقب بالجياي، يجهل كل شيء عن تاريخ ولادته كما هو شأن المعاصرين له، وعن فصول حياته الأولى، مع أن البيت الذي شهد ولادته ما يزال قائما إلى اليوم في تطوان. وهو مسكن بسيط من طابقين، لا تحتوي جهاته الداخلية على أي من مظاهر الزينة التي عادة ما تتميز بها دور الأثرياء. وتوحي بساطة البيت بان أسرة الصفار كانت متواضعة، وربما كانت غنية من حيث ثقافتها وأصلها المتميز، لكنها لم تكن على شيء من الثروة المادية. حلت أسرة الصفار بمدينة تطوان رفقة الجموع المهاجرة فرارا من حروب الاسترداد الإسبانية، عند نهاية القرن الخامس عشر، لالتحاق ببقية المسلمين الأندلسيين الذين أعادوا بناء مدينة تطوان، واتخذوها قاعدة للانطلاق منها لشن هجمات مضادة على إسبانيا والثغور الأجنبية المجاورة لسبتة وطنجة، ثم هاجر جزء من الأسرة إلى فاس.<sup>1</sup>

بدأ الصفار مرحلته التعليمية في تطوان، فتعلم على يد شيوخ عصره، وإن كانت أسماؤهم مجهولة لدينا. واتجه بعد ذلك إلى فاس لقراءة العلوم بجامع القرويين صحبة رفيقه الحميم محمد عزيمان، الذي أصبح فيما بعد قاضيا بتطوان.

مكث محمد الصفار بفاس أكثر من ثماني سنوات، انهمك خلالها في دراسة علوم الحديث والفقه والنحو والأصول، على يد العالم الشهير عبد الرحمان الحجري<sup>2</sup>. ولما عاد الصفار إلى تطوان في سنة 1836/1252م أصبح يلقب ب"الفقيه" دليلا على إحاطته بالفقه وما إليه من العلوم الشرعية.

### **-التعريف برحلة محمد الصفار إلى فرنسا :-**

يبدو أن السؤال الذي يفرض نفسه ابتداء، ونحن في معرض الحديث عن رحلة الصفار إلى أوروبا من أجل استقصاء أوجه وتحليلات الوعي بالتجاوز الحضاري الأوربي للمغرب خاصة، هو : ما السبب الذي دعا الصفار إلى تدوين رحلته ؟ هل أقدم على ذلك من باب الاحتفاظ الشخصي بوقائع سفر حصل كما يمكن أن يفعل أي فرد في تدوين يوميات سفره ؟

يقول الصفار، مبررا دواعي تدوين رحلته : " وكان من الحزم لمن تغرب عن وقتته، أن يقيد كل ما سمع ورأى، لما قد يوجد في ذلك من العلوم والعبر. وما حصلت جم الفوائد إلا من مخالطة البشر. ومن حكم

1- ابن الصغير، خالد : تقديم رحلة الصفار إلى فرنسا ...، المصدر السابق، ص . 48.

2- اسمه الكامل هو أبو العباس بن محمد عبد الرحمان الفيلاي الحجري، شيخ الجماعة بجامعة القرويين، كان يعتبر من كبار علماء عصره في المغرب. توفي سنة 1886.



الأولين : ما شبت عين من نظر، ولا أذن من خبر. عزمت إذ ذاك، بحول الله، أن أسود هذه الأوراق بما نراه ونسمعه في هذه السفارة، وما يتعلق بما مما رق أو راق. على أي حاطب ليل وساحب ذيل، لست من خيل هذا الميدان، ولا لي بما يستحسن من يدان. إلا أي جعلتها تذكرة لنفسي لأخبر بذلك من سألني عنه من أبناء جنسي.<sup>1</sup>

إن الرحلة السفارية للصفار، والتي أعقبت انهزام المغرب في معركة إسلي، كان عليها أن تجد للسلطان المولى عبد الرحمان، أجوبة سريعة عن أسئلة كبيرة، من قبيل: أين يكمن سر قوة الفرنسيين؟ كيف تمكنوا من الوصول إلى ذلك المستوى من القوة؟ كيف استطاعوا قهر الطبيعة وإحكام قبضتهم على مسارها بطرق وأساليب مازالت خافية عنا؟ كيف يعيش الفرنسيون حياتهم اليومية؟ وباختصار، ما هو وضع حضارتهم، وما هي أوجه اختلافها عن حضارتنا؟.

لقد ظهر لي بعد قراءة نص الصفار، أنه ذو وظيفة في المجتمع والفكر، يريد به أن ينشر في الناس خبرة مجتمع آخر ليحصل من ذلك العلم والعبرة، وتعليه في ذلك ما علل به الطهطاوي دعوته للاقتباس والنهل من الآخر، وهو أن محالطات البشر أساس تحقيق التفاعل وتبادل الخبرة والتجارب، فلاستفادة تقتنر بالمخالطة، المفضية إلى التفاعل الثقافي والمعرفي. وعليه فقد دون ما دون حتى يخبر أهل بلاده بما يجري في ذلك العالم الغامض والقوي أوربا، وهو ما جعله صاحب رسالة إصلاحية يبتغي من ورائها انتشار الأمة المغربية من وهدة التخلف واللاحاق بالآخر.

كان سبب رحلة الصفار إلى الديار الفرنسية قراراً من السلطان مولاي عبد الرحمن. وكان قد تقرّر بعث عبد القادر أشعاش عامله على تطوان للرحلة إلى فرنسا. وحينئذ طلب منه اختيار "عالم يقيم أمر الدين من صلاة وقراءة" إنحاً نفسها وضعية رفاعة الطهطاوي إلى حدّ ما، إلا أن رحلة الصفار جاءت في سياق وفد دبلوماسي، تكون من عامل تطوان عبد القادر أشعاش، وصهره، والشيخ الصفار، ثم شخص رابع، وتسعة مخازنية ومؤونة من ثورين وأربعين كبشا وتسعمائة من الدجاج البلدي والبيض والخضروات والتفاح والعنب... وذلك على باخرة

---

1- الصفار : المصدر السابق، ص . 94.

وصلوا بها إلى مرسيليا ثم ركبوا الأكداش، وفي باريز، نزلوا للضيافة محملين بهدايا مغربية للملك الفرنسي تمثلت في "أسد ونعامتين وثلاث غزلان وصنف بري من الماعز غير معروف في أوروبا".<sup>1</sup>

فلقد جاءت الرحلة السفارية بالنسبة للمغرب، في لحظة انكسار سياسي وعسكري عقب هزيمة إيسلي 1844، وانكشاف الضعف المغربي، مما أفسح للأسئلة العديدة أن تتوالد، فكانت الرحلة بحثا عن تسوية لسؤال واضح. بينما تدوين الرحلة هو بحث عن أجوبة غير مباشرة : لماذا تأخرنا وتقدم الآخر؟ لماذا انهزمنا وانتصر الآخر؟ لماذا انتصرت دار "الكفر" على دار "الإسلام" ؟ ومن ثمة إنصب نص الرحلة على تقييد المشاهدات في ما يخص الحياة العامة والمعمار والتكنولوجيا في خمسين يوما قضاها الصفار ضمن الوفد الرسمي، سيرويها عبر مقدمة وخاتمة وأربعة فصول على الشكل التالي :

- في سفرنا في البر من مرسيليا لباريس.

- مدينة باريس وما يتعلق بها .

- في عوائدهم في المأكل.

- في ذكر مكثنا في هذه المدينة ومدة إقامتنا وما رأيناه فيها وملاقاة سلطانهم وغير ذلك ومما يتعلق به.

إن القارئ لرحلة الصفار يلحظ أنها تنسج على منوال أدب الرحلة السائد في البلاد العربية مشرقية ومغربية، غير أن الصفار انفرد في رحلته المدونة بخاصية قد تكون غير مسبوقه في أدب الرحلة العربية الحديثة، هي التدوين لا على قاعدة توالي وقائع المشاهدة ( التدوين الكرونولوجي أو اليوميات ) وإنما على قاعدة "التصنيف في الموضوعات المشاهدة المدونة".

يتحقق ضمن هذا المسار الوصفي الموضوعاتي سرد بضمير المتكلم المفرد والجمعي، متقمصا دور الجماعة، أي الوفد، ومعبرا عن رأي كلف بالتعبير عنه. لذلك فهو يتجنب الحديث في الأعم، استعمال ضمير المتكلم

---

1- يقول الاستاذ أحمد المكاوي : " عكست نوعية الهدايا بين الجانبين المغربي والأوروبي الفوارق الحضارية الضخمة والتفاوت الحضاري بين المجتمعين ، ففيما اقتصرت الهدايا المغربية بشكل أساسي على بعض الحيوانات والصناعات التقليدية، حيث كانت ذات طابع سكوبي من حيث مكوناتها، مما يوحي بجمود المغرب، ضمت الهدايا الأوربية آخر ما استجد في عالم الأسلحة والمعدات التقنية ( بارومتر، ميكروسكوب، عدسات تلسكوب، نظارات، حاملات مصابيح، ساعات، هواتف، فاكس) والأواني الحديثة =والألبسة ... التي توحى بالتطور والتقدم الصناعي والتقني الذي أضحت عليه أوروبا . " الهدية في العلاقات بين المغرب وأوروبا (رصد أولي)" ضمن : **وقفات في تاريخ المغرب**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس الرباط، سلسلة بحوث ودراسات، رقم 27 ، ص. 321 .

المفرد، ويلجأ إلى أفعال إخبارية من مثل : "اعلم" لتقدير إخبارات يصفها السماع بالرؤية والمشاهدات، فتخلق سرودا متسلسلة متضمنة لاستطرادات ومقارنات وتقييمات، ولعل الراوي الذي هو رحالة كان منتشرًا بداخله، للفقيه والعدل المولع بالعد والإحصاء والوصف الدقيق، كما لو أنه يحسب إرثًا يقضي فيه<sup>1</sup>.

تقدم الرحلة صورة عن مدى اندهاش واستغراب الصفار بهذا العالم الجديد الذي ولجه. هذا الانطباع هو، بطبيعته، حاصل صدمة الاكتشاف الأول لمجتمع مختلف. وهكذا أشار الصفار إلى ماله علاقة بالقوة الفرنسية، فقد تحدث عن حماية المال والاهتمام بموظفي الدولة وتمجيد العمل وتقديسه، وتشجيع الكفاءات والاختراعات، وصدق المعاملات، وحرية إبداء الرأي وأهمية الصحافة والاهتمام بعنصر الخبر، والضبط الديموغرافي والإحصائي ووصف دار الكتب والمتاحف وكذا نسخ الأوراق والطباعة والتعليم وقوانين السفر، والحفاظ على البيئة، وحفظ الأطعمة وطريقة الأكل وتحلية ماء البحر، والجوانب الإدارية والعسكرية. ولا شك أن وصفه هذا كان مصحوبًا بذهنية مغربية، تستبطن عناصر الخلل الموازي في المغرب، وتدعو ضمناً إلى تجاوزها بطريقة ضمنية وان كانت خجولة في كثير من فقرات الرحلة.

إن قارئ الرحلة يعجب أحياناً من قوة الحس التوثيقي عند الصفار، ويتحدث مضيفوه عن ميله الشديد إلى التدقيق في كل ما يشاهده قبل إثباته في كناشة كتابه، حيث تميّز الصفار بالنباهة والذكاء والبحث، حتى كتب عنه بومي دوشاستو قائلاً : "إن الفقيه ، مشغول طوال الوقت، إن لديه موهبة عقلية نادرة، وهو بصدد إنجاز بحث حقيقي، فقد كتب أشياء كثيرة"<sup>2</sup>.

وكل هذه الأمور الداعية للعجب والحاملة على الإعجاب، ما تفتأ تشي، بكيفيات وألوان شتى، بهذه الرغبة الجارفة في الاكتشاف، وتعبر عن هذا المنحى القوي نحو "إرادة المعرفة" وعيا منه بحدوث تجاوز حضاري لم يعد بالإمكان التستر عنه بعد الصدمة العسكرية في إيولي.

يتضح من خلال قراءة نص رحلة الصفار، وسياقها التاريخي، بكونه لم يتبين ضعف أهل الإسلام وقوة "الآخر" وتجاوزه للذات الإسلامية وقت زيارته لفرنسا، فالرحلة أكدته ورسخته، أما الوعي به فقد كان قبل ذلك ببلاده، أثناء أول اصطدام مباشر هزم فيه المغرب أمام الجيش الفرنسي سنة 1844م. وما الاعتراف بالضعف

---

1- شعيب، خليفة: "الرحلة المغربية إلى أوروبا، النص والصورة"، ندوة: الرحالة العرب والمسلمون، اكتشاف الآخر، مرجع سابق، ص . 106.

2- بنسعيد العلوي : أوروبا في مرآة الرحلة ....، مرجع سابق، ص . 51 .

لحظات المشاهدة إلا دليل على إدراكه لضرورة تجاوزه، بمخالطتهم والبحث في أسرار نظامهم العجيب، الذي لم يجرؤ الرحالة المغاربة قبله على الاعتراف به وإثبات فوائده في عملية التحديث .

لقد وجد الصفار نفسه منذ وصوله إلى فرنسا أمام مشاهد وأشياء غريبة كانت غير معهودة لديه. وهكذا أبدى الصفار في كثير من فقرات تقريره نوعا من الإعجاب ببعض التنظيمات التي شهدها، ومن ذلك على سبيل المثال ما جاء في معرض وصفه لمظاهر السكن بنوعيه الحضري والبدوي. يقول: "اعلم أن هؤلاء القوم ليس عندهم في مساكنهم لا إخصاص ولا خيم ولا نواويل، وإنما يعرفون البناء لا غير، إلا أن بناء البوادي متميز عن بناء الحواضر، فقراهم في الحقيقة من جملة المدن يوجد فيها ما يوجد في الحاضرة من الأسواق وما يباع فيها وغير ذلك، وقد رأينا في طريقنا ما يشهد شهادة حق لأهل هذه البلاد بالاعتناء التام والتبصر العام بأمور دنياهم وإصلاح معاشهم وإتقان تديبرهم"<sup>1</sup>.

كما أعجب الصفار بالنظام الذي يسود ذلك البلد، فما من موقع يقع عليه بصره إلا ويشاهد فيه الدلائل الناطقة بمدى النجاح في وضع الأشياء في أماكنها الصحيحة: "فالأشجار تنمو في صفوف منتظمة مستقيمة والحقول محروثة بطرق هندسية بديةة والشوارع أنيقة ومحتويات الخزانة مرتبة بدقة، والعساكر يمشون في صفوف متراسة، والخيول مطيعة لراكبيها، وحتى النساء يصففن شعورهن بكامل الدقة والعناية. ان فرنسا هي بلاد النهج القويم و التخطيط البديع، والبلد الذي أخضعت فيه الطبيعة للإنسان، والوطن الذي روض سكانه حتى يكونوا طائعين لحكامهم"<sup>2</sup>.

تأسيسا على ما سبق، أمكننا القول إن نص الصفار شكل بداية فكرية حقيقية نبهت الدوائر المخزنية لعناصر القوة الغربية ودورها في تفسير اختلال التوازن بين الغالب والمغلوب، ولا شك أن وظيفته العدلية سمحت له بتوثيقها بموضوعية وأمانة، وبلغة قوية و متماسكة و رصينة، فلقد أتاحت للصفار وهو في أوروبا فرصة الاطلاع على حضارة أوروبا ممثلة في فرنسا، فشاهد ما يمكن للعقل البشري تحقيقه حينما يفسح أمامه المجال لممارسة قدراته الإبداعية .

ورغم مظاهر وصور الإعجاب التي تعج به رحلة الصفار، إلا أنه يلاحظ على المستوى الديني، أنهم لا يزالون يعيشون في الكفر، وعبر عن شعوره بالاستهجان لمشاهدته صليب في إحدى ساحات باريس، وبعد أن

1- الصفار : المصدر السابق، ص . 65 .

2- نفس المصدر، ص . 167.

أسهب في وصفه، طفق يعلق عليها متخذاً عقيدته مرجع الحكم وموئله ليقول: "وما زادتنا رؤية ذلك إلا تبصراً بكفرهم واطلاعا على إبطال معتقدتهم وسخافة عقولهم . فالحمد لله الذي هدينا للملة الحنيفية ."

فالصفار، الذي لم يفته الحس المقارن طوال فترة المشاهدة، لم يقدم لنا المجتمع الفرنسي كأنه نموذج مثالي يوتوي خال من العيوب، ليقندي به المغرب ويسير على منواله في كل صغيرة وكبيرة، بقدر ما ينقل لنا صورة عن مجتمع بشري تمكن من إثبات وجوده وتجاوزه للعوامل الأخرى بالجد والعمل والمثابرة، الشيء الذي يمكن بلوغه بالنسبة للمغرب، شريطة امتلاك الجرأة عند النخبة المغربية والمخزن المغربي للإقرار بهذا التجاوز أولاً، ولممارسة النقد الذاتي ثانياً. فما أهلك المغرب قبل إيسلي، إلا الاغترار بالذات وتضخيمها، ومن ثم الغفلة عما كان يقع ويحدث بالمجتمعات الأوروبية من تحولات معرفية وسياسية واقتصادية والاستكانة إلى سياسة الاحتراز خوفاً على "الهوية والعقيدة".

### ب – رحلة ابن ادريس العمراوي : "تحفة الملك العزيز بمملكة باريز" - التعريف بالمؤلف :

لا نعرف تاريخ ولادة إدريس بن عبد الله بن محمد بن إدريس العمراوي المراكشي، فقد نشأ وترى في مدينة مراكش، داخل أسرة ذات جاه وعلم، إذ كان والده وزيراً خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، واستفاد من محيطه العائلي وتعلم في كل من مراكش وفاس، وأثناء سفره إلى الحج، توقف بمصر وأخذ الكثير عن علماء الأزهر، وكان له ميل متميز للأدب. يقول عنه صاحب الإتحاف "أديب شهير ناظم ناثر، إمام الصنائع وحامل لوائهما بدون مين، تزرى ببديع الزمان بدائعه وأوابده، وتنجل الفتح بن حاقان رقائقه وفرائده"<sup>1</sup>.

لما عاد العمراوي من المشرق عينه السلطان كاتبه الخاص وكلفه بسفارتين : الأولى إلى إسبانيا، والثانية إلى فرنسا<sup>2</sup>. فأما رحلته السفارية إلى فرنسا التي سنشتغل عليها، لنكشف من خلالها عن مظاهر ومؤشرات الوعي بالتجاوز لدى النخبة المغربية في القرن التاسع عشر، فإننا، كما يقول محققها زكي مبارك : "نعرف مراحلها وتفصيلها منذ أن غادر فاس إلى يوم عودته إلى طنجة. لقد دون السفير ابن ادريس كلما صادفه، وشاهده وسمعه، كما أنه نقل الأحاديث التي دارت بينه وبين المسؤولين الفرنسيين على مختلف مستوياتهم، وهكذا جاءت رحلته ناطقة عن المجتمع الفرنسي سنة 1860م . . قد توفي سنة 1296هـ / 1879م.

---

1- ابن زيدان، عبد الرحمان : إتحاف أهل الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، المطبعة الوطنية، الرباط، الطبعة الأولى، 1931 م ، ج 3 ، ص 189 .

2- المبارك ، زكي : تقديم رحلة، تحفة الملك العزيز بمملكة باريز، المصدر السابق، ص . 19.

## - التعريف بالرحلة :

تم تصنيف رحلة السفير المغربي ابن إدريس العمراوي "تحفة الملك العزيز بمملكة باريز" وما نتج منها من فكر وأدب، من أدب الرحلات الذي كان له أثر كبير في التبادل الثقافي بين فرنسا والمغرب، فقد أقام فيها فترة قصيرة لا تتجاوز الأربعين يوماً، ولكن السفير خلال هذه المدة القصيرة استطاع أن يتغلغل داخل المجتمع الفرنسي، فتعرف على العديد من جوانب الحياة فيها لينقلها لنا، وقد صدرت الرحلة عن مؤسسة التغليف والطباعة للشمال في المملكة المغربية، قدم وعلق عليها الأستاذ الباحث بالمعهد الجامعي للبحث العلمي في جامعة محمد الخامس ، زكي مبارك.

يتكون الكتاب من 126 صفحة من القطع المتوسط، ويشتمل على توطئة، ثم تقديم حول الإطار التاريخي للرحلة وتعريف بالسفير إدريس بن إدريس العمراوي. ثم يبدأ المؤلف في عرض موضوع الرحلة منذ التحضير لها والإقلاع من ميناء طنجة وكيفية السفر والوصول إلى مدينة مرسيلية، والتي قدم وصفًا كاملاً عنها وعن مينائها . وابن إدريس هذا، كما أشرنا، من أدباء المغرب وشعرائه المشهورين، ورحلته جامعة بين رؤية أديب، ذي حس فني في التصوير، نقل مشاهداته بأسلوب وصفي بديع رغم الطابع التقريري الذي تغلب عليه المعلومة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، "دون أن يستطيع العمراوي تمالك نفسه من وصف هدير التحولات الكبيرة في المجتمع الأوربي عامة والفرنسي خاصة، ومن مميزات نص العمراوي، أنه يتضمن بدوره، رؤية بوجهين في لعبة مرآتية، فهو يلتقي مع نص الصفار في بناء هذه الصورة المزدوجة، ويختلف معه في كون العمراوي، هو السفير المكلف بالسفارة، لذلك كانت مفرداته الرسمية في وصف الآخر هي انعكاس أمين تشعر به الدولة المغربية تجاه الآخر."<sup>1</sup>

لم يذكر العمراوي كسابقه أسباب الرحلة ولا موضوعها بالضبط. وقد اعترف بذلك قائلاً : "ولما رجعت من هذه الوجهة ... ظهر لي أن أقيد ذلك في هذه الرسالة اقتداء بمن تقدمني من أولي النباهة والجلالة وإن كنت لست من خيل ذلك المضمار، وهل تشبه سبائك الذهب بالمسمار. ولكن هذه النفس الأمانة مغرمة بحب الإشتهار حريصة على الظهور والاستنكار، ولو أراد الله بها خيراً لاختارت الحمول جلباباً وما طرقت للظهور باباً على أي في ذلك تابع للإشارة ممثل ما صدر من دست الامارة."<sup>2</sup>

1- حليفي : المرجع السابق، ص . 110.

2 - العمراوي : المصدر السابق ، ص. 34 .

إلا أن قراءتنا لمقدمة رحلته جعلنا نستقرئ بعض الإشارات التي تشي بالسياق التاريخي الذي جاءت فيه هذه الرحلة والأسباب الدافعة إليها، يقول العمراوي: " ولما رأى أعزه الله تكالب النصارى على الثغور والمراسي وحدثت منهم أمور تمور منها الرواسي، تدارك بسياسة ذلك الخرق فأرقعه، وعرف محل الداء العضال فأساه بدوائه وأوقعه، واقتضت المصلحة الدينية أن عين أعزه الله سفراء تتوجه للمجاورين لإيالته المحمية من الإفرنج دمرهم الله حرصا على ما يدوم به الائتلاف وقطعا لمادة الشنآن والخلاف ومسارعة إلى استجلاب ما تصان بها الثغور من العدة وتفسح لأخذ الأهبة... فوجهني أعلا الله قدره ونشر في الخافقين ذكره الشريف إلى طاغية الفرنصيص".<sup>1</sup>

يصف العمراوي الفرنسيين، في تلك الفترة، بالمتكالبين على الثغور المغربية ويدعو عليهم بالدمار، ويصف حاكم فرنسا نابليون الثالث بالطاغية، وهو منظور رسمي يحمل السفير قبل وصوله إلى فرنسا، حيث ستصبح أوصافه لكل المجالات والأماكن التي رآها وزارها ممزوجة بدهشة بليغة تعكس حوارا حميميا مع الحضارة الفرنسية، وأسباب التقدم في كل المجالات، دون أن يجروا على انتقاد واقع المغرب باستثناء لجوئه إلى قبول فقرات ينقل فيها رؤية الآخر عن الوفد المغربي، وهي تعبر عما عجز عن الصراخ به: "وقد داروا بنا في ذلك الجنان على كبره ونحن نمشي على أرجلنا على أكثر من ثلاثين محلا من هذه المياه، كل محل في نوع، وما أكملنا تعبنا ولم نر مثله في هذه السفرة، وانضم إلى ذلك ما غشينا هنالك من الآدمي، ينظرون إلينا ويتعجبون من هيئتنا، فقد كان يتبعنا هنالك من المتفرجين أكثر من ثلاثة آلاف بين رجال ونساء.. والنساء أكثر زيادة على من يتبعنا منهم حتى كنا نرى الجنان يموج بهم موجا وأينما ذهبنا تبعونا، وقد كان معنا نحو العشرين من العسكر، يفتحون لنا الطريق في وسط الناس ويدافعون عنا ولولاهم هلكنا من شدة الازدحام. وقد أخبرنا ترجمان كان معنا أنه سمع امرأتين منهم تتحدثان في شأننا فسألناه عم يأكل هؤلاء الناس وهل أكلهم مثل أكلنا فأجابهما رجل كان يسمعهما بأنهم يأكلون الآدمي، وأن سلطاننا يهدي لهم كل يوم امرأة يأكلونها فتعجبنا من ذلك"<sup>2</sup>

إنها بالتأكيد، صورة يريد من خلالها العمراوي تأكيد رؤية الآخر للمغرب والمغاربة، وهي رؤية غرائبية خيالية تحتوي على كثير من المغالطات وإن كانت تتضمن في عمقها تعبيراً عن تخلف المغرب وعدم مسيرته

1- نفس المصدر، ص. 33.

2- نفس المصدر، ص. 57.

للحضارة المنطلقة، إنها بتعبير شعيب حليفي "صورة عن اختلال الحوار بين الآخر القوي والأنا الضعيفة والمهددة، بين أوروبا التي تجهل عن المغاربة والمغرب تاريخهم وقيمهم، وترسم لهم صورة عجائبية وأحياناً خرافية وهمجية انطلاقاً مما كتبه بعض رحاليهم أو تواتر بالسمع فقط".<sup>1</sup>

وعندما وصل السفير العمراوي إلى مدينة باريس وصفها قائلاً: "وهذه المدينة كبيرة جداً من أكبر مدن الدنيا يقال: إن أعظم مدن الدنيا ثلاثة: قسطنطينية العظمى التي هي اصطنبول، حرسها الله وعمرها بدوام ذكره، والوندرينز<sup>2</sup>، وهي قاعدة ملك الإنجليز وهذه، على أن الفرنسيس يزعمون أن هذه المدينة أكبر من هاتين، أما أنا فلا أقدر أن أصف كبرها، ولم أكن أظن أن في الدنيا مدينة قبل أن أراها مثل ذلك، ولقد رأيت في مصر القاهرة وسلكت أكثر طرقه. فقدرت أنها أكبر من مدينة فاس بأربع مرات، وأظن أن هذه أكبر من مصر بثلاث مرات، فتأتي على هذا أنها أكبر من فاس باثنتي عشرة مرة"<sup>3</sup>.

كما وصف المؤلف المساكن في باريس، وعادات الأكل والشراب فيها وشوارع المدينة ونظافتها وحركة السير فيها، ثم وصف لنا حديقة الحيوانات التي سماها جنان النباتات والوحوش، وما تحتويه من أنواع الحيوانات والطيور والزواحف والأسماك وغيرها. وتوقف المؤلف عند دار السلاح، التي تعد متحفاً حريماً يجمع فيه كل أنواع الأسلحة مع تطورها. وكذلك وصف دار السكة، وهي المكان الذي يتم فيه سك النقود المعدنية ووصف أيضاً دار الطباعة ودار الكتب، وقصر فرساي والمسارح والألعاب التي كانت تتم فيها. ما تحدث عن عادات أهل باريس، ومنها أن المرأة هي رئيسة البيت والرجل تابع لها، إذ "طاعة النصارى لنسوانهم، ومبالغتهم في إتباع مرادهم أشهر من أن تذكر"، الأدهى والأمر من ذلك كله أن "الغيرة في أزواجهن نادرة جداً، فيرى الرجل زوجته آخذة بيد رجل آخر ذاهبة معه تتحدث في الخلاء، فلا ينكر عليها، وربما وجه بعضهم زوجته مع جاره أو صاحبه لمتنزه أو فرجة"، وعن الخلالن الخلقى يقول: "وجلهن يتعاطين الفواحش"، والنساء الفرنسيات كما ظهر له "مطلقات الأعنة في ميادين الفجر والفواحش من غير أن يقدر أحد على منعهن مما يردنه من ذلك".<sup>4</sup>

1- حليفي: المرجع السابق، ص. 111.

2- المقصود بما لندن.

3- العمراوي: المصدر السابق، ص. 57.

4- نفس المصدر، ص. 61.



لقد اطلع السفير ابن إدريس العمراوي على رحلة رفاة الطهطاوي واستفاد منها، وساعدته على فهم العديد من الأمور التي ما كان يقبل بصحتها لولا أنه وجدها مذكورة في مؤلف الطهطاوي "تخليص الإبريز في تلخيص باريز". لقد تأثر ابن إدريس برحلة الطهطاوي منهجًا وأسلوبًا ودراسة وتحليلًا لمختلف جوانب الحياة في فرنسا.

إن رحلة العمراوي تكتسي أهمية بالغة، فهي ليست تأليفاً أدبياً فقط، بل تعتبر بحق مصدراً تاريخياً واقتصادياً واجتماعياً، بل أكثر من هذا وذاك، هي دراسة مقارنة لمجتمعين، أحدهما متجدد ومتغير ومتطور ومتوسع، والآخر خامل وجامد ومهترئ ومنكمش. وبعبارة أخرى، فالعمراوي وعى مثل سابقه الصفار، أن المجتمع الغربي قد تجاوزنا حضارياً. لذا حرص على إبراز هذه الحقيقة من خلال نهجه أسلوب المقارنة بين المجتمعين عسكرياً واقتصادياً وسياسياً وثقافياً، وقد تحلى بنزاهة فكرية وموضوعية، وبأمانة علمية وضحاها في قوله: "ونعذر لأولي النقد والإعلام عما زادت به الأقلام وجلبته من فضول الكلام، وإن رأوا عورة فليسدلوا عليها الغطاء، فما على مثلي يعد الخطأ، وليظنوا بي الظن الجميل. فما زغت عن الحق ولا عنه أميل، على أي أطنبت في بعض المجال بوصف حالهم وشقشقت بمحالمهم واستحسننت بعض أفعالهم، فمقصودي أن أزين منها ما وافق الشرع، وسلمه العقل والطبع، ولعلمهم قلدوا في بعض ذلك سلفنا الصالح الذين كانوا على السيل الواضح"<sup>1</sup>.

### 3\_ رحلة إدريس الجعيدي: " تحفة الأخيار بغرائب الأخبار "

#### - التعريف بالمؤلف :

ولد إدريس الجعايدي أواسط القرن 13هـ بمدينة سلا، وهو من الأسر الشهيرة بمدينة سلا، وقد كانت هذه المدينة كما يخبرنا الناصري "إذ ذاك زاهرة بالعلوم الإسلامية والعربية، وفيها جماعة وافرة من العلماء والمدرسين والأساتذة القراء الذين يعتمد عليهم في تحقيق الفنون ودرس أصول العلوم والمتون"<sup>2</sup>.

وقد كان الجعيدي بارعا في الأدب والعلوم الرياضية والهندسة وأحكام النجوم والتوقيت والتعديل والحساب والفرائض، وغير ذلك، وكانت له مع الشيخ الناصري خلة كبيرة ومراسلات في الرياضيات والموسيقى والأدب. توفي الجعيدي ببلده سلا، في صفر 1308 هـ، الموافق أكتوبر 1890م.

#### - التعريف برحلته :

1- نفس المصدر، ص . 45 .

2- الناصري : المصدر السابق، ج ، 1 ، ص . 123 .

تعتبر رحلة الجعيدي أضخم رحلة سفارية مغربية خلال القرن التاسع عشر، وتشمل الجوانب السياسية والعسكرية والمالية والثقافية الأوروبية، درسها وحققها الباحث المغربي، معينو عز المغرب، وقامت بطبعها دار السويدي للنشر والتوزيع بأبو ظبي، والمؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، سنة 2004 م.

في أجواء الأزمة المغربية، واشتداد وعي المخزن المغربي بالضعف أمام القوى الأوروبية، وتزايد ضغوطها العسكرية والاقتصادية والسياسية، وجه السلطان الحسن الأول سفارة الحاج الطاهر الزبيدي الرباطي<sup>1</sup>، إلى أوروبا في صيف سنة 1876م، وبالضبط إلى فرنسا ثم بلجيكا وإنجلترا وإيطاليا، "ورافقه في سفارته هذه الأمين السيد بناصر بن أحمد غنام الرباطي<sup>2</sup>، برسم القيام بخطة الأمانة، وصاحبنا الفقيه الأديب، فلكي العصر وحاسبه، الشريف أبو العلاء إدريس الجعيدي برسم القيام بخطة الكتابة."<sup>3</sup>

كانت هذه السفارة تهدف إلى معرفة مواقف هذه الدول تجاه تحركات إسبانيا بالمغرب، وحثها على الوقوف ضد أطماعها فيه، وفي ذلك يقول الجعيدي: "فاقتضى نظر مولانا السيد، ورأيه الموفق الرشيد أن يرسل لهؤلاء الأجناس...سفيرا من خاصة خدامه .. ويتوجه معه إليهم كاتب أمين، ونفر من جيشه السعيد من ذوي الوجاهة والتمكين .. ليشرح هذا السفير لعظمائهم حال بعض نوابهم من نقض بعض العهود"<sup>4</sup>.

أما عن دوافع تدوين رحلته، فقد ذكر صاحب الرحلة، إدريس الجعيدي، في مقدمته أن أحمد الناصري هو من اقترح عليه تسجيل تفاصيل هذه الرحلة السفارية " ...سمع بها بعض علماء الغائبين عن حضرتنا، وكان من خاصة أهل محبتنا، علامة الزمان، الأديب الفرد في هذا الأوان .. سيدي أحمد الناصري ... اقترح علي أن أجعل في سفري وتستغرق نهارى وسهري، تكون جامعة لكل خبر غريب، ولما نراه في الأوطان من كل أمر

---

1- السفير أبو عبد الله محمد الطاهر الزبيدي، من أعيان الدولة المغربية وكبار موظفيها، ذو حزم ونصح للمخزن، توفي ببلده رباط الفتح في فاتح ربيع الأول 1304، الموافق 28 نونبر سنة 1886م. الإستقصا، ج، 8، ص. 168.

2- من رجالات المغرب البارزين أيام السلطان المولى الحسن والسلطان المولى عبد العزيز، والسلطان المولى عبد الحفيظ، عين عضوا في عدة سفارات إلى الدول الأوروبية، وتقلب في عدة مناصب سامية، وكانت وفاة السفير ببلده رباط الفتح في منتصف شهر صفر 1334، الموافق ل 23 دجنبر سنة 1915 م رحمه الله . الإستقصا، ج، 8، ص . 169.

3- الناصري : المصدر السابق، ج 8، صص . 168\_169.

4- الجعيدي : المصدر السابق، ص . 98 .

عجيب، إلى غير ذلك مما لا يحظر بالضمير، حتى تكون قائمة مقام الأنيس السمير، فكتبت له مجيبا، وأجبتة بمضمن ذلك تسلية لخاطره، من باب الوعد الذي يجب الوفاء به .."<sup>1</sup>

وامثالاً لذلك، حرص الجعيدي على وصف مظاهر القوة في حياة المجتمعات الأوروبية التي زارها وصفا دقيقا لدرجة أنه كان يقيد ما يشاهده في عين المكان ويستعين فيما يكتبه بالرسوم والخطاطات، وكأنه يهين صفات قابلة للتجسيد والتحقق والتطبيق في المجال التكنولوجي والاقتصادي والعسكري والمعماري للحاق بالمجتمعات الأوروبية المتقدمة، متى استوعبت استيعابا تاما من طرف النخبة المغربية.

ولقد أخبرنا أحمد الناصري نفسه بذلك قائلا : "وفي هذه الواجهة قيد صاحبنا، أبو العلاء المذكور، رحلته البديعة المسماة : بتحفة الأخيار بغرائب الأخبار، قد اشتملت على كل نادرة وغريبة، وأفصحت عن صنائع الفرنج وحيلها العجيبة<sup>2</sup>. ولما عاد إلى المغرب قدمها إلى السلطان، وأنشأ في ذلك قصيدة مدحية رائعة، ومما جاء فيها :

وهذي بنات الفكر مني هدية إلى الملك المنصور ذي الجود والرفد

فإن أهملت عدلا فإني مهمل وإن صادفت وقت القبول فإيا سعدي<sup>3</sup>

قسم الجعيدي نص رحلته إلى أجزاء وأبواب مع تصور للموضوع وتحديد الغاية منه في تواضع واعتذار عن عدم استيفائه للمقصود، وكانت منهجيته تعكس مستواه الفكري والعلمي، فتكوينه في علم الحساب والهندسة جعلت مكانته بارزة بين أفراد البعثة المغربية، بل فرض وجوده إلى حد ما على السفير الزبيدي في التعامل مع الأشياء التي تحتاج إلى الدراية العلمية والإحصائية، وما أكثرها إذ ذاك في أوروبا الناهضة في مختلف المجالات<sup>4</sup>.

إستصحبت سفارة الزبيدي معها هدايا نفيسة، تتضمن أجمل ما أبدعته يد الصانع التقليدي المغربي، وتشتمل في الغالب ملابس حريرية مطرزة بالصقلي المذهب والتريش، وحياك وكساوى في غاية الجودة والإتقان، وصواني الصفر وسبائل من الفضة الخالصة وحلي ذهبية وسروج الخيل بإقامتها، كما حملت معها أموالا طائلة، حيث وزعت هبات وتبرعات نقدية منحت إلى مؤسسات خيرية واستشفائية خاصة بالفقراء والبؤساء والمرضى

1- نفس المصدر، ص . 102.

2- الناصري : المصدر السابق، ج ، 8 ، صص . 168 - 169.

3- نفس المصدر ، ص . 170.

4- معنيو ، عز المغرب ، تقديم إتحاف الأخيار بغرائب الأخبار، المصدر السابق، ص . 37.

والضعاف من الشعوب الأوروبية، وفي هذا الصدد يقول ابن زيدان : " ودفع السفير المغربي لفقراء باريس عشرة آلاف فرنك حسبما جاء في رسالة الشكر الذي وجهته له الحكومة على ذلك ، ومما جاء فيه : وطبقا لرغبتكم بإرسال المبلغ المذكور إلى عامل مقاطعة لا سين، مشيرا علينا بتوزيعه على مختلف ملاجئ الإحسان في باريس .. أعرب لسعادتكم عن ممنونية الحكومة مما منحتوه لديار الإحسان يا سعادة السفير"<sup>1</sup>. وقد عملت الصحافة الأوروبية، على نشر تفاصيل هذا العمل الإنساني النبيل الذي نال إعجابها.

في فرنسا، تغنى الجعيدي ، كعادة من سبقه من السفراء والرحالة المغاربة والمشاركة بباريس، وأظهر انبهاره بها قائلا : " .. توجهننا لطريق الحديد بقصد الرحيل لقاعدة باريس، ذات الحسن الفريد، الجامعة لما تشتهيهِ النفس في الأرض على وجه ما تحب وتريد، إذ هي، كما قيل، جنة الدنيا بلا منازع، ومأوى الحكماء والعقلاء والنبلاء بلا معارض. فإليها تصبو نفوس العشاق، ويحن لوطنها قلب المشتاق." ولشدة إعجابه بها، توجه إليها مخاطبا، ومنبها من لها عنها ولم يعرها بالا ولا اهتماما :

أباريس إن كانت على الأرض جنة      فأنت هي المأوى على رغم حاسد  
فما تشتهيهِ النفس من كل رائق      كثير بها لكنه غير خالد<sup>2</sup>

تحدث عن طرق باريس واتساعها، حيث يكون الضوء مشعولا في مناراتها المنصوبة في الطرق إلى الشروق، والأشجار ممتدة معها من الجهتين، كما أثار فضوله نظافة باريس وأناسها ومرافقها، وأشار إلى ذلك بقوله : "وقيل لي ذات يوم إن الذباب لا يوجد في مدينة باريس ، فقلت وهل يتركون له شيئا من القاذورات التي ينزل عليها ، مع براح ديارهم وغالب أسواقهم مقببة بالزجاج. ثم تتبعته ذلك، فلم أر شيئا منه في الدار التي كنا فيها ولا في محل المطبخ ، ولا في الزقاق، عدا يوما واحدا رأيت فيه ذبابة واحدة في حانوت جزار، ما أنظفها وما أظرفها "<sup>3</sup>. كما مر في تجواله في باريس على " أجنة ذات أشجار وأثمار وفلك جاريات أسرت غزلانا وأقمارا .. فنزلنا هنيئة من الزمان فسرحنا الأبصار في المراني الحسان، وقلت عند نزولنا في هذا المكان :

بالله عرج على تلك الجنان ولا      تحد عنها، فما عليك من حرج  
فلج معاهدها واقصد حدائقها      ذات انتهاج بقرب نهرها الهائج

1- انظر رسالة الشكر، ابن زيدان، إتحاف أعلام الناس...، مصدر سابق، ج، 2، ص . 334.

2- الجعيدي : المصدر السابق، ص . 146.

3- نفس المصدر، ص . 148.

وانظر إلى الفلك من الأنهار ساجحة  
وانظر لأشجارها بالشاطئين غدت  
يا لائمي حسدا جرب وإلا فمت  
تصيد ريم البيدا تضيئ كالسرج  
تهدي السلام بميل غصنها النهج  
حزنا فما أنت إلا من ذوي العرج .

لقد دلت الإشارات السابقة أن النخبة المثقفة المغربية في القرن التاسع عشر، أبدت لطفة وشغفا كبيرا لمعرفة المخترعات التكنولوجية ولمعرفة ثقافة الغير بعيون مغربية، وذلك لاكتشاف أسرار قوة الخصم، وبالتالي فهو اعتراف ضمني بجداهاها، وصلاحيه الاقتباس منها عكس من يتهم النخبة المغربية جميعها في القرن التاسع عشر بالانغلاق والازدراء والاحتقار والرفض لحضارة الآخر لأن ذلك من فعل الكفار.

## المطلب الثالث: الرحلة المغربية الى أوروبا بداية القرن العشرين "لحظة تعميق الوعي بالتجاوز والرغبة في اللحاق بالآخر".

### 1- السياق التاريخي :

لقد عاش الرحالة المغاربة الذين زاروا أوروبا بداية القرن العشرين، مرحلة حرجة من تاريخ المغرب المعاصر، مرحلة المد الاستعماري وفرض الحماية سنة 1912م، وهو السياق التاريخي الذي أطر رحلاتهم إلى أوروبا. فإذا كانت مرحلة نهاية القرن التاسع عشر قد عرفت اشتداد الضغط الأوربي على المغرب والتدخل فيه سياسيا وعسكريا واقتصاديا وماليا، فإن بداية القرن العشرين عرفت بداية الزحف الأوربي، فقد واجه المغرب خلال فترة حكم المولى عبد العزيز ( 1900 - 1908م ) مشاكل ضخمة لم تكن ناتجة عن الأوضاع الداخلية المزرية وإنما عن الضغط والتدخل الأجنبيين اللذان استهدفا إضعاف المخزن المغربي بهدف إخضاعه لأطماعه الاستعمارية. استغل الأوربيون الثورات والتمردات الداخلية لا سيما بعد وفاة الحاجب أحمد بنموسى في مطلع القرن العشرين<sup>1</sup>،

---

1- لقد أجمل المؤرخ السليماني هذه التحولات في كتابه "اللسان المعرب عن التهافت الأجنبي" وقام بالأمر بعده - يقصد الحسن الأول - حاجبه ووصيه أحمد بنموسى، فصدر للإمارة أصغر أنجال الفقيد، مولاي عبد العزيز، مستبدا دونه بالأمر ومنفردا بسياسة الجمهور. " ثم يقول: "غير أنه بموته انكشف ذلك الإست وطلعت البيادق فرزانات في الإست، وتطلعت رؤوس الشياطين من أطراف الزراع وتجار البلديين، فعبثوا بصولجان المسلمين وخذعوا أميرهم ابن سيد المرسلين وأعانوا عليه الأجناب وسلطوا عليه الرزايا من كل جانب"، نقلا عن الشاوي عبد القادر : التخلف والنهضة، حول الفكر الإصلاحي بالمغرب في بداية القرن العشرين، منشورات الموجة، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، 1998، ص . 31.

كثورة بوحامرة<sup>1</sup> خاصة، لتكريس حالة الفوضى والاستقرار وتعزيز سياسة الانقسامات وتفكيك الوحدة الوطنية. ولقد تعمق هذا الوضع واستفحل مع سياسة القروض<sup>2</sup> لتغطية النفقات الكثيرة للمخزن، مما أفقده حق السيادة تدريجياً، بسبب تقييد حريته وتحركاته السياسية والاقتصادية.

وعلى هذا الأساس فقد المغرب التحكم في مصيره، وحسم أمره بإخضاعه فرنسا وإسبانيا بعد اتفاقيات 1902 ثم 1904 و 1906 م، ونتيجة لذلك أصبحت المؤسسة المخزنية في مأزق خطير أدى إلى خلع المولى عبد العزيز ومبايعة المولى عبد الحفيظ عام 1908، لكنه عجز عن التوفيق بين شروط البيعة والإصلاحات الداخلية، وشروط ومطالب فرنسا التي عمقت أزمة السلطان المولى عبد الحفيظ صاحب "داء العطب قديم".<sup>3</sup> لقد اعتقدت النخبة المغربية بخلعها للسلطان المولى عبد العزيز، وتولية أخيه عبد الحفيظ، قدرته على قيادة الجهاد وتعبئة الجماهير وإيقاف التدخلات الفرنسية في الشاوية والمنطقة الشرقية، لكن يبدو أن الإنتظارات كانت بعيدة كل البعد عن الإمكانيات الواقعية لأسس حكم ملغوم من الداخل ومضايق من الخارج، وما كان من السلطان الجديد، إلا أن قبل، ضدا على رغبة أتباعه، بنود عقد الجزيرة متخلياً عن المواجهة العسكرية المباشرة مع

---

1 - هو الجيلالي الزهوني : الملقب بأبي حمارة، ( 1860-1909 )، أوقد نار الفتنة بعد وفاة الحاجب أحمد بن موسى، ضد المولى عبد العزيز في الريف، وادعى سنة 1902 أنه المولى محمد بن الحسن الأول ( الأخ الأكبر للمولى عبد العزيز ) محاولاً الانتقال من الحمارة إلى الإمارة كما قال بعضهم، أسس مخزناً خاصاً به مكوناً من عناصر جزائرية وشرع في فرض سيطرته على القبائل الريفية .... تصدى له المولى عبد الحفيظ، وألقى عليه القبض بفاس، وعرضه على الجمهور الفاسي ثم أعدمه سنة 1909 م ونرى من المفيد هنا سياق شهادة دالة لمحمد الحجوي، يكشف من خلالها عن أسباب سقوط النظام : "في هذه السنة - 1902- بدأ انقلاب الأحوال بثورة أبي حمارة التي سببت فقر مالية المغرب والسلف الأوربي، ثم سقوط المالية بيد إدارة السلف وفناء حماة المغرب وأبطاله في الحروب الداخلية، وقد اختل النظام وضاع الأمن، وفسدت الأخلاق، وضاعت الفضيلة والأمانة، وتكالبت الناس على الرياسات الوهمية وجمع الحطام، وتسلط على مناصب الدولة كل دخيل جاهل ، فجر ذلك إلى تلاشي الدولة العزيرية، وتتابعت المحن، وأظلم جو المغرب " . الحجوي الثعالبي : الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، المكتبة العلمية للمدينة المنورة ، المطبعة الجديدة، 1977، ج 1، ص . 15.

2- كانت الاستنادة ظاهرة متواترة ومتنامية في المغرب خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وقد أسهب المؤرخون في تصوير العواقب الوخيمة التي كانت للدين الجبري للمخزن على اقتصاد البلاد. الناجي، محمد : التوسع الأوروبي والتغيير الاجتماعي في المغرب ق 16- 19 ، ترجمة، حزل عبد الرحيم ، جذور للنشر، الرباط، 2004 ، ص . 93 .

3- المولى عبد الحفيظ : داء العطب قديم، مخطوط متوفر في الخزانة الحسنية تحت رقم 11400 ص، 2. ضبط وتحقيق، الراضي محمد كنون الإدريس، نقلا عن الموقع الإلكتروني: chikh-skirdj . com بتاريخ 12-04-2012 .

جنود الاحتلال. وكان من شأن هذه المبادرات أن عرضت هيئته ونفوذه لمحنة قاسية ودفعت بعض القبائل إلى رفض سيادته، وتبعاً لذلك تحصن المولى عبد الحفيظ داخل قصره بفاس، وأرغم على توقيع معاهدة 30 مارس 1912 القاضية بإقامة حماية فرنسية في المغرب .

لقد كان المولى عبد الحفيظ يدرك حق الإدراك صعوبة المرحلة التي يجتازها المغرب؛ ففي "داء العطب" يوضح فيه السلطان سبب نزول مخطوطه قائلاً : "أردنا أن نضع كتاباً فيه (التاريخ) يستفيد منه القارئ أموراً كانت في طي الإهمال ويتحقق منه ما هو مستتر من الأحوال، والقصد من ذلك هو البحث عن الأسباب التي كانت سبباً لاضمحلال المغرب ومتى كانت، بعد أن يعلم القارئ أن الغرض من هذا التقييد ليس هو تتبع مسيرة الأجداد وما فعلوا من المصالح الدنيوية والأخروية ، لأن ذلك مثبت في عدة تواريخ، وإنما المقصود هو التنبيه على ما طرأ عليهم من الحوادث التي صدقهم عن تتبع أوائلهم في السهر عن السياسة والخارجية حتى قبلوا شروط الدول الأجنبية"<sup>1</sup>. ويضيف قائلاً : "وها أنا بحول الله، آتي عقب كل ملك بشروطه التي التزم الوفاء بها حتى يعلم كل منصف ما تكابده الملوك من المشاق والمصائب بسبب جهل الرعية وعدم الانقياد... ليس هذا في زمن أواخرنا ، بل داء العطب قديم"<sup>2</sup>.

## 2- استعراض نماذج من الرحلات المغربية في فترة الحماية .

### أ :- رحلة محمد الحجوي : "الرحلة الأوربية" . - التعريف بالمؤلف:

"الحجوي التعالي طهطاوي المغرب"، قد يبدو في هذا الوصف بعض نزوع إلى المبالغة والتهويل، غير أن من يطلع على آراء الحجوي وإنتاجه الغزير، وروح فكره التي ترشح من مؤلفاته الفقهية والتاريخية والنوالية، يدرك أن في هذا الإطلاق تنقيص من شأن علم الرجل وفتحه، ذلك أن الحجوي بالإضافة إلى ما سبق، كان من دعاة الإصلاح، ولا شك أن جهله اللغة الفرنسية وعدم نشر رحلته في إبانها حال دون تبوئه المكانة التي يستحقها. لكن يبدو أن مسار الحجوي السياسي وموالاته للمستعمر الفرنسي، ولعب بعض أبنائه أدواراً طلائعية في حكومة ابن عرفة سلطان فرنسا المفروض على المغرب بعد نفي الملك محمد الخامس، جعل الرجل يطرح وإنتاجه الفكري في رف الإهمال، إلى أن بدأ الدارسون مؤخراً في نقض بعض الغبار عن مخطوطاته القابعة بالخزانة العامة بالرباط .

1- نفس المصدر، ص . 2

2- نفسه.

يعتبر المؤرخ عبد الله العروي من أوائل من استثمروا مخطوطات الحجوي في دراسة تاريخ المغرب في جملة من مؤلفاته. ومن أبرز المهتمين به بعد ذلك، سعيد بن سعيد العلوي في مجموعة من مؤلفاته.<sup>1</sup>

يعود أصل محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي الجعفري إلى ثعالبة الجزائر، ولد الحجوي سنة 1874م، وعلى غير عادة علماء عصره عرف بنفسه في كتابين من كتبه: "الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي"، هذا بالإضافة إلى ملخص فهرسته المطبوع بعنوان "مختصر العروة الوثقى"، ويرقى نسبه إلى جعفر بن أبي طالب، كما ذكر ذلك في رحلته.

عاش حياة حافلة، إذ بالإضافة إلى اشتغاله بالتجارة والفلاحة، ورحلاته المختلفة، واشتغاله بالتدريس والتأليف تولى عدة مناصب منها: مندوبا للمعارف بين سنتي 1912 و1914، و وزيرا للمعارف ما بين 1921 و 1939 م. ، رويسا لمجلس الاستئناف الشرعي، ثم وزيرا للعدل.

وقد مكنته هذه المناصب من الإسهام في مجريات السياسة المغربية في عصره، كما مكنته من الصدع بمشروع تحديثي طموح في محاولة للإجابة على سؤال النهضة، مشروع يمزج بين الدعوة إلى العلم والإيمان به، وبين تقبل ما يفد من الغرب وخوض باب الاجتهاد لتسويغه، كل ذلك أمام تيار ارتدادي منكمش على الذات، يتجلى ذلك من خلال مؤلفه الهام الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، الذي يعد عمدة في بابه في المشرق والمغرب، والذي " لو لم يكن له سواه لبرهن عن اطلاعه الواسع وقدرته على البحث والمقارنة، والأخذ بما يراه كنتيجة لأبحاثه دون الإخلاد إلى التقليد لأحد الطرفين إلا في المسلم نصا وتحقيقا"<sup>2</sup>، ومن فتاويه المتفتحة التي بعضها بذيل كتاب "الاجتهاد ودراسة في الفكر السلفي في المغرب"، ولعل ذلك ما جعل مؤلف الكتاب المذكور يقول إن "قراءة الحجوي تجعلنا أمام صورة عجيبة ومثيرة بل ونادرة من حيث قوة الوعي بها، تلك هي صورة الفقيه التاجر التي يوجد فيها جنباً إلى جنب السلفي المنتور والليبرالي المتمسك بالفكر السلفي"<sup>3</sup>.

---

1- الفاضلي، سعيد: تقديم للرحلة الأوروبية، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، الطبعة الأولى، 2003 م، ص. 12.

2- الحجوي، حسن أحمد: العقل والنقل في الفكر الإصلاحي المغربي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة لأولى 2003 م، ص. 67 .

3- بنسعيد العلوي: الاجتهاد والتحديث، دراسة في أصول الفكر السلفي في المغرب، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الثانية، 2001م، ص. 48 .



وإنصافاً للفقهاء الحجوي، يرى عبد الإله بلقزيز أن هذا الذي أصابه الإجحاف "لاعتبارات سياسية للأسف"، لم يكن تعامله مع "الحماية ثمرة خيانة وطنية، وإنما جاء لأسباب أخرى مختلفة"، أوردها الكاتب في فترات بالغة ليستنتج "أنه سيكون على التحليل العلمي للتاريخ الفكري في المغرب لكي ينهض ويتحرر من قيود الفيتو السياسي الوطني الذي مورس على كثيرين منهم الحجوي وابن المواز... بل آخرون أحياء من رجال الفكر والوطنية"<sup>1</sup>.

وقد خلف الحجوي زخماً من المؤلفات في ميادين شتى تتراوح بين الفقه والتفسير والتاريخ والتربية والرحلات، فقد ذكر الحجوي في كتابه "الفكر السامي في الفقه الإسلامي"<sup>2</sup> أن تأليفه بلغت خمسين مؤلفاً سنة 1921م، وفي "مختصر العروة الوثقى"<sup>3</sup> ذكر مائة كتاب، ويقدر مجموع مخطوطاته بمائتين وثلاثة وستين مخطوطاً، نقلت إلى المكتبة الوطنية في ثمانية عشر من شهر مارس سنة 1960م، وأضيفت إليها المجموعة الثانية سنة 1966م، كما هو مسجل بسجل مخطوطات المكتبة الوطنية.

وتجدر الإشارة إلى أن جل مؤلفات الحجوي عبارة عن مسودات وتقايد وفتاوى فقهية، ومحاضرات وأسئلة وأجوبة، فهي ليست كسائر المؤلفات المشهورة منظمة ومرتبطة ومصححة، بل هي وثائق بعضها يؤرخ للدولة العلوية، في فترتي المولى عبد العزيز والمولى عليد الحفيظ، لذلك اكتسبت القيمة العلمية والتاريخية، ولعلها فاقت مؤلفات معاصريه لأنها اعتمدت الأسلوب المنهجي القائم على الحجج والأدلة والبراهين .

ففي التعليم، ترك عدة مؤلفات من بينها "إصلاح التعليم العربي"<sup>4</sup>، و " تعليم البنات المسلمات"<sup>5</sup>، و"تعليم الفتيات لا سفور المرأة"<sup>6</sup>، و " المعارف في المغرب وجهود الحكومة"<sup>7</sup> . وفي الاقتصاد، ألف " مستقبل تجارة المغرب"<sup>8</sup>، و " بالاقتصاد حياة البلاد"<sup>1</sup>.

---

1- بلقزيز، عبد الإله: الخطاب الإصلاحية في المغرب، مرجع سابق، صص . 212-213 .

2- دار الكتب العلمية، بيروت، 1995 م.

3- مخطوط المكتبة الوطنية رقم، 129 ح .

4- مخطوط المكتبة الوطنية رقم، 129 ح.

5- مخطوط المكتبة الوطنية رقم، 115 ح ، 237 ح.

6- مخطوط المكتبة الوطنية رقم، 127 ح، نشره سعيد بن سعيد العلوي ضمن الإجتهد والتحديث، صص . 200 - 229.

7- مخطوط المكتبة الوطنية ، 152 ح .

8- مخطوط المكتبة الوطنية رقم، 199 ح، نشره بن سعيد العلوي ضمن الإجتهد والتحديث، صص . 149-165.

ومن مؤلفاته التي نافح فيها عن الدين الإسلامي كتابه "أساس التهذيب الإسلامي"<sup>2</sup>، و"الحق المبين والخبر اليقين بما في قراطيس حجة المنذرين بما يخالف الدين"<sup>3</sup>. و"النظام في الإسلام"، و"الوثام في ظلال الإسلام ما بين العرب والقبائل والبربر الكرام"<sup>4</sup>.

وفي الرحلة كتب "حديث الأنس عن تونس"<sup>5</sup>، و"الرحلة الأندلسية الفيشية"<sup>6</sup>، و"الرحلة الحجازية المصرية"<sup>7</sup> و"الرحلة الأوروبية" التي سنركز عليها في بحثنا.

### - التعريف بالرحلة :

تحيل رحلة الحجوي إلى البلاد الأوروبية على نموذج قريب من تجربة الطهطاوي في عمق الإحساس بسؤال النهضة وألويته. وهي تجربة تتميّز بنباهة صاحبها، حيث جمع بين الوظيفة السياسية والبحث العلمي والنشاط التجاري. إنها تجربة فاعل سياسي إصلاحي، لم يقف عطاؤه عند سرد أحوال الرحلة، بل لا يزال يقدم من المشاريع الإصلاحية ما طال بالاهتمام والمعالجة كافة القطاعات والمجالات. وعلى الرغم من أن باريس كانت هي إحدى أهم مدائن أوروبا التي تعرّض لها رحّالتنا بالوصف الدقيق، وأظهر فيها من الإعجاب الكثير، إلا أنها لم تكن هي أفق الرحلة الحجوية الوحيد. لقد أضاف إليها أفقاً آخر هو مدينة لندن؛ حيث لم تنحصر مقارنته بين المدينة الأوروبية والمغرب، بل قام بنوع آخر من المقارنة الدقيقة بين باريس ولندن. وهذا عمل يذكرنا بما قام به الرحالة فارس الشدياق في "كشف المخبأ عن فنون أوروبا" حينما أجرى مقارنة بين الفرنسيين والانجليز في كثير من مجالات الحضارة.

يوجد كتاب "الرحلة الأوروبية" بالخزانة العامة بالرباط، تحت رقم 1115/4 في نسخة بخط مؤلفها، وقد أكد نسبتها للحجوي تلميذه المؤرخ عبد السلام ابن سودة المري مع بعض تحوير في العنوان يقول: "الرحلة

1- مخطوط المكتبة الوطنية رقم، 115 ح 237 ح.

2- مخطوط المكتبة الوطنية رقم، 227 ح.

3- مخطوط المكتبة الوطنية رقم، 232 ح، طبع بتونس.

4- مخطوط المكتبة الوطنية رقم، 118 ح.

5- مخطوط المكتبة الوطنية رقم، 115 ح.

6- مخطوط المكتبة الوطنية رقم، 269 ح.

7- مخطوط المكتبة الوطنية رقم، 126 ح.

الأوروبية لشيخنا أبي عبد الله محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي استهلها بقوله "حمدا لمن أمر بالسير والنظر إلخ"<sup>2</sup>.

وقد قام المؤلف بهذه الرحلة سنة 1919م باعتباره عضوا في الوفد المغربي المشارك في احتفالات العيد الوطني الفرنسي في 14 يوليوز الذي قرن تلك السنة بالاحتفال بإحراز النصر في الحرب العالمية الأولى، ويأتي ذلك في إطار سياسة الخطوة التي نهجها ليوطي في تجاه النخبة الحضرية، وتتجلى بعض مظاهرها في إرسال وفود من هذه الفئة إلى فرنسا على نفقة الدولة الحامية لحضور الاحتفال بذكرى 14 يوليوز، وذلك لترسيخ مجد هذه الدولة وعظمتها، وقد صار هذا الاحتفال عادة دأبت عليها منذ 1918م. وقد دامت الرحلة شهرا وعشرين يوما من 4 يوليوز 1919 إلى 24 غشت منه، وكانت نواتها محاضرة طورها المؤلف فيما بعد، شأها في ذلك شأن كتابه الفكر السامي وغيره من المؤلفات، يقول الحجوي متحدثا عن مؤلفاته: "وبعض منها يكون مسامرة أو محاضرة ألقيا في موضوع علمي أو اجتماعي، أو أخلاقي، أو اقتصادي، أو نحو ذلك، فيقع موقع الاستحسان فيصير تأليفا"<sup>3</sup>، غير أن ضبطه أوقات الانطلاق والوصول والتنقل بالساعات والدقائق وإثبات فحوى الخطب المتبادلة، ومؤشرات نصية أخرى، كل ذلك يدل على أنه كان يعمد بين الفينة والأخرى بعد هذا التاريخ إلى تنقيح مؤلفه والإضافة إليه، وتدل إحدى الإضافات على أنه استمر في هذه العملية إلى سنة 1943م على الأقل، وهو تاريخ وفاة إحدى الشخصيات السودانية المذكورة في الرحلة<sup>4</sup>.

إن الرحلة الأوروبية للحجوي تنقسم إلى قسمين: "رحلة سفارية، دبلوماسية إلى فرنسا" أعقبتها رحلة حرة بقصد "السياحة والتجارة إلى لندن".

---

1- قام بنشرها سعيد بنسعيد العلوي ضمن كتاب، أوروبا في مرآة الرحلة ...، مصدر سابق، وترجمت إلى اللغة الفرنسية اعتمادا على هذه النشرة بعنوان :

Voyage d'Europe. le périple d'un réformiste Muhammad ben al Hassan al Hajwi traduction et postface, Alain Roussillon Abdellah Saaf, Afrique, Orient 2001 .

ثم قام بنشرها سعيد الفاضلي، ضمن منشورات دار السويدية للنشر، دبي، سنة 2003 .

2- ابن سودة، عبد السلام المري : دليل مؤرخ المغرب الأقصى، دار الكتاب، البيضاء، الطبعة الأولى، 1965م : الجزء 2، ص. 359 .

3- الحجوي : الفكر السامي...، مصدر سابق، ص. 15.

4- نفس المصدر، ص. 167.

لقد كانت رحلته الأوروبية، من أهم الرحلات المغربية التي قدّمت باللغة العربية صورة إيجابية وموضوعية في مجملها عن فرنسا، ومما زاد رحلة الحجوي قوّة أنه قبل أن يكتب رحلاته كان قد اطلّغ على رحلات سابقه واهتم بها. كما لخص بعضها الآخر. كذلك فعل مع رحلة ابن عثمان المكناسي من خلال كتابه "أنس السائر في اختصار البدر السافر". ويعتقد الحجوي أن هذه الرحلة كان بإمكانها أن تفيد الملوك والكبراء لو أنها كتبت بأدب سهل. بل "ولخصت بسببها نهضة مغربية تكون سبباً في إخراج المغرب من بحر ظلماته إلى نهار المدينة".

رحلة الحجوي رحلة بروتوكولية سفارية إلى فرنسا، استثمرها الحجوي لعرض مشاهداته وتعليقاته ومقارناته، وأيضاً رغباته، وهو المهووس والمهموم بسؤال التقدم وتجاوز حالة لحظات الضعف، لذلك كانت رحلته صورة حية لما يخامر من تمجيد للعلم والتقنية والتصنيع والعمران والفكر.

فرحلة الحجوي الأوروبية، ليست أدياً للتسلية، بل هي رسالة للنهضة والإصلاح. كذلك فهمها الحجوي، ولهذا السبب تحديداً طوّر الكتابة الرحلية لتخدم هذا الغرض وتكيف مع النشاط الإصلاحية. فسعى إلى خط رحلته بهدف تقديم وصف يساعد على الرقي الحضاري وإحداث النهضة. ولهذا الغرض أيضاً، حاول قدر الوسع تجنّب الإنشاء الصعب في الوصف وتيسير العبارة لتحصل الفائدة. كما تجنّب القسوة في وصف المظاهر السلبية في أوروبا والتركيز على الفوارق المدنية والتفاوت الحضاري، لأن المقصود من وصف الرحلة ليس التسلية والاستئناس، بقدر ما هو تحريض المغرب وحث المخزن على سلوك طريق المدنية والرقي الحضاري. ولهذا السبب نجد يتحدث بقسوة عن ظلمات المغرب وعن الانحطاط وكل ذلك، لأنه كان يريد الإصلاح ويحمل همه بلا هوادة. ذلك لأن المصلح لا يجامل الفساد ولا يهادن التخلف. فقد تراجع معه سؤال الأنا والهوية، وبرز بشكل كبير سؤال النهضة والترقي. فعبر عن مقصوده من الرحلة التي وافقت سنة 1919م بأمر من السلطان يوسف حينما قال: "ورأيت أن أقيّد ما شهدت في رحلتي هذه، لإفادة أهل المغرب الذين لم يرحلوا ولم يعرفوا شيئاً من أحوال أوروبا"<sup>1</sup>.

رأى الحجوي، أن رحلته استطاعت، على الرغم من قصر مدتها، أن تقدم ما هو مفيد، "لا سيما لعلمائنا الذين يرحلون لتلك الديار ويتصورونها بصورة لا تنطبق على الحقيقة عند الاختبار"<sup>2</sup>.

---

1- الحجوي : الرحلة الأوروبية ، مصدر سابق ، ص. 23

2- نفس المصدر، ص. 24

مثل سائر الرحالة المشاركة وبعض المغاربة ممن أشرنا إليهم آنفاً، كان الوعي بالتجاوز حاضراً في نص الحجوي، ويكاد يلازم تعليقه على كل ما كان موضع دهشة من رقي الأوروبيين. و يؤكد دائماً، بالتصريح أو التضمن، أن الغرب فاتنا وتجاوزنا بمئات السنين، وأن المسلمين هم أولى بهذه الحضارة وهذا الرقي من غيرهم. وأحياناً يظهر ذلك من خلال عقد مقارنة بين حال المدنية الفرنجية وحال المغرب وعموم بلاد المسلمين. الحسرة عند الحجوي ليست أمراً عابراً، ولا مسألة اندهاش. بل هي حسرة مصلح يعيش قلق سؤال النهضة ويتحسس أزمة مجتمعه ويرفض التسامح مع تخلفه. فهاجس الإحساس بالتخلف والوعي به يحضر طيلة الرحلة دون مركب نقص، وهو وعي واعتراف يكاد الحجوي ينفرد به بين الرحالة المغاربة السابقين واللاحقين على السواء، ويتجلى تصريحاً كما في قوله: "بذلك القدر ارتقى مجموع الأمة من الحضيض الذي وقع فيه مجموع الأمم غير المتمدنة التي لا يعرف غالب أفرادها كتابه ولا أدباً ولا حساباً ولا، ولا.. كأهل المغرب الأقصى مثلاً"<sup>1</sup>.

كما نسجل تعدد المقاطع التي يعترف فيها "للآخر" بالتحضر والمدنية وحرية الفكر. هذا، بخلاف ما عهدناه لدى عدد كبير من الرحالة المغاربة الذين اشتركوا في عدم إحساسهم بعلامات التراجع والتقهقر التي ميزت وطبعت تاريخ "دار الإسلام" في مقابل "دار الكفر"، إلا أن الحجوي عبر عن وعي عميق بفصله بين الإسلام والمسلمين في تناوله، في سياق آخر لمعضلة التخلف قائلاً "إن سببه كامن في المسلمين، لا الإسلام وليس الإسلام هو الذي أضرهم، بل المسلمون هم الذين أضرروا الإسلام فلم يتأخر إلا بتأخرهم"<sup>2</sup>.

لقد قدم الحجوي صورة ايجابية نسبياً عن أوروبا، إذ اعتدنا عند كثير من الرحالة المغاربة إلى أوروبا نفورا من الغرب وحضارته وإنكاراً لجدواها واستنجاذا بالدين لتبرير دعوتهم إلى الانغلاق، وتكريسا لوهم التفوق المتوارث، أو التعلل والتستر بمبدأ الزهد والإعراض عن الأخذ بأسباب الحضارة، ونكتفي بإحدى الشواهد الذي تزخر بأمثاله كتب الرحلات المغربية، وهو الطاهر الفاسي الذي زار أوروبا مكتوباً بنار الهزيمة، ومع ذلك لم يستطع تجاوز الشعور بالاعتزاز بالذات، حيث قال: "والحاصل، إنهم أتعبوا أنفسهم أولاً في إدراك المسائل النظرية، وكابدوا على تحصيلها حتى صارت عندهم ضروريات، ولازالوا يستنبطون بعقولهم أشياء كثيرة، كما أحدثوا البابور

---

1- نفس المصدر، ص. 49

2- الحجوي: التعاضد المتين بين العقل والدين، نشره سعيد بن سعيد العلوي، أعمال ندوة، التاريخ والفقه، أعمال مهداة إلى المرحوم محمد المنوني، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 2002م، ص. 51.

وغيره. <sup>1</sup>... فبالرغم من إقرار أبي الجمال محمد الطاهر الفاسي بالتفوق الإنجليزي سواء في مجال التكنولوجيا العسكرية أو المدنية، تفوقاً جعله يكتب عن الإنجليز بأنهم "يستعملون أشياء تدهش سيما من رآها فجأة، وربما اختل مزاجه من أجل ذلك". فإنه لم ير في ذلك التفوق إلا "إشارة إلى أن الدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة"، وأن "الدنيا جنة الكافر وسجن المؤمن" والآخرة جنة المؤمن وسجن الكافر.

ولما كانت الآخرة، حسب الطاهر الفاسي، هي دار البقاء، والدنيا دار الفناء، فإن التفوق الإنجليزي عابر زائل، إذ سرعان ما تدور عجلة الزمن لتعود بالتاريخ البشري إلى أصله. والأصل هو تفوق المؤمنين المسلمين على الكفار النصارى وغيرهم. لذا يتعين الاكتفاء بالعلوم الدينية في نظره لأن "العقل على قسمين ظلمياني ونوراني، فالظلمياني به يدركون الأشياء الظلمانية ويزيدهم ذلك توغلاً وكفراً، والنوراني به يدرك المؤمن المسائل المعنوية"<sup>2</sup>.

لكن في رحلة الثعالبي، لا نجد مجالاً للحديث عن الانغلاق، فضرره كان أكثر من نفعه، وقد ظهر ذلك جلياً عقب أول هزيمة عسكرية، فحيث كان وقت السفر هو عصر التحولات المفوضية إلى نظم جديدة تدير شؤون الدنيا، كان قمينا بنا نحن المغاربة، وقد أصبحنا طرفاً معنياً بهذا التحول، أن نبحت عن أسباب هذه النظم التي صيرت المركب الصغير في البحر "إماماً والكبير مأموماً لما عند ذلك الصغير من زيادة العلم، فعلمنا أن الرياسة ليست بكبر سن ولا بعظمة جثة، وإنما يستحقها من له مزيد علم ومعرفة، « ﴿مَنْ جَادَلَ الْجَاهِلِينَ فَاصْطَلْحْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ لَعَلَّكَ تَدْرِي سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ »<sup>3</sup>. ولا غرابة في ذلك فأميركا، التي لم يمر على استقلالها سوى قرن ونصف القرن استطاعت أن تبلغ من القوة والثروة والاستعداد درجات عليا <sup>4</sup>.

وكل أعماله الأخرى تصب بشكل مباشر في عملية الإصلاح. نستطيع معرفة حقيقة الحسرة وأبعادها كلما اطلعنا على كتابات ورسائل الحجوي وتجربته السياسية والإدارية في مجال الإصلاح. نجد هنا وهناك موقفاً يفيض

1- الفاسي، الطاهر : المصدر السابق، ص . 19.

2- نفس المصدر، ص . 21.

3- سورة المجادلة : الآية 11.

4- الحجوي : الرحلة الأوروبية ...، مصدر سابق، ص . 145 .

حسرة وبتفجّر ألما. ولكنه لا يقف عند الحسرة بمجرد إبداء الدهشة، بل قدّم برامج إصلاحية عملية أثناء توليه لمناصب إدارية في الدولة المخزنية، كما سنبين ذلك في الباب الثالث بإذن الله.

أطنب الحجوي في وصف باريس والتغني بها ومدح أهلها على غرار كثير من الرحالة المشاركة والمغاربة، فباريس فطر أهلها على "الشغف بالنظام في كل شيء وإتقان كل عمل يأتونه"<sup>1</sup> والنظام هنا ثمرة تربية إنسانية واستعداد قوي لاستثمار إمكانيات العقل في التحديث، وهكذا أصبحت باريس التي "هي عاصمة افرانسا، بل عاصمة العلوم العصرية والآداب الأوروبية، والأخلاق الجليلة، والظرافة، واللطافة، والكياسة والسياسة. بل أنموذج الكياسة، وموقف السياسة، ومسعى التجارة والكسب، ومسعر الهيجاء والحرب. معدن المدينة العصرية والنظامات الأوروبية، والحرية المنظمة والأخوة المحكّمة والمساواة الملزمة، والاختراعات البديعة، والشوارع الوسيعة وطرق المواصلة الممهدة والمركبات التي تقرب من عدد النجوم المنجدة، والجمال الفاتن في المنازل والمساكن وما في داخل المساكن... وبالجملية فهي حلية معاصم العواصم، وأجمل مدينة قطعت إليها أكباد الرواسم. فسبحان من جمع لها الجمال وتجلى لها بالجمال الدنيوي الظاهر في كل شيء يراه الناظر"<sup>2</sup>.

كما رسم الحجوي للمرأة بباريس صورة مثيرة، إذ لم يستطع هذا الرحالة كبح جماح إعجابه بجمال المرأة الفرنسية وافتتانه بها، حيث يقول مستعرضا مشاهداته في غابة بولون: "وفي كل وقت أتيت هذه الغابة وجدتها تسرح فيها غزلان الإنس، وترتع فيها صواحب الألبسة الجميلة والمراكب الفارهة والجمال الفاتن. والهدوء والسكون سائد على كل من هناك، وترع النهر ترح فيها زوارق الوصال لا زوارق الأثقال، وزوارق التنعم والطرب، لا زوارق الكد والنصب، حتى إن سماءها وأرضها يخيل إليك أنها تجارب حيواناتها الناطقة وغير الناطقة. وبالجملية جمعت جميع المحاسن، فلا يرى فيها إلا مفتون أو فاتن."<sup>3</sup>

كما لم يستطع الحجوي مقاومة إعجابه بباريس حتى في لحظة الوداع: "وداعا لك يا باريز، رغما عنا والقلوب أودعناها، وأسفنا على فراقها أسف محب فارق حبيبه، فارقناها وأي طبع لطيف يقوى على فراقها"<sup>4</sup>.

---

1- نفس المصدر، ص 97.

2- نفس المصدر، ص 78.

3- نفس المصدر، ص 79.

4- نفس المصدر، ص 146.

على أن انبهار الحجوي بالغرب وإيمانه بأسس تقدمه لم يكن مطلقا ، إذ كثيرا ما اتخذ من بعض مظاهره مواقف نقدية انطلاقا من قيمه الإسلامية وثقافته الرصينة، وهكذا نجد موقفا معاديا لوجه أوروبا الاستعماري وحمله قسطا كبيرا من مسؤولية الأزمة الاقتصادية التي تلت الحرب العالمية الأولى.

ورغم إعجاب الحجوي بجمال نساء باريس في أكثر من مناسبة ، نجد ينتقد في نفس الوقت انطلاقهن "وتبرجهن تبرجا لا يتصور فوقه إلا فساد الحيوانات في الطرق جهارا". ويضيف قائلا : "إلى هذا الحد وصلوا أو قربوا منه وفعلوا مقدماته جهرا، فهذا شيء أفسد الأخلاق ولا تستحسنه الأذواق، ولا يقول به طبع ولا عقل ولا شرع". وأضاف معينا حرص المرأة الفرنسية على الأنيق من اللباس واللهت وراء عالم الموضة قائلا : "بلغن به حد النهاية، حتى أنه يضرب بمن المثل في أوروبا وغيرها ... نتيجة الرفه الزائد، والحرية المطلقة ، وعدم التمسك بأهداب الدين"<sup>1</sup>.

## ب رحلة ابن عبد السلام السائح : " أسبوع في باريس " .

- التعريف بالمؤلف:

لقد ترجم العديد من المغاربة لمحمد بن عبد السلام السائح<sup>2</sup> إلا أنها ترجمات شحيحة وتكرر نفس المعلومات مما لا يسمح بمعرفة جميع جوانب حياة هذه الشخصية على الرغم من أهميتها العلمية والتاريخية، فالرجل يبدو من خلال رحلته ذا تكوين موسوعي متين أهله للعب ادوار مهمة في المغرب وخارجه، كان من ضمنها ترأسه للوفد المتجه إلى فرنسا لتحديد سمت القبلة عام 1922.

---

1- نفس المصدر، ص . 77

2- ترجم له : - الجيراري عبد الله، الشيخ المبدع محمد بن عبد السلام السائح، سلسلة شخصيات مغربية، الدار البيضاء، دار النجاح الجديدة، 1979م - معلمة المغرب، تنسيق محمد حجي، ج 14 - 4831- ابن سودة ، المصدر السابق، ج 1، صص . 245- 271 .



ولد محمد بن عبد السلام السايح برباط الفتح في ثاني عشر ربيع النبوي من عام تسعة، أو عشرة، وثلاثمائة وألف " (1309 هـ \_ 1891م ) لوالده عبد السلام بن عبد الرحمان بن محمد السايح الذي ينحدر من أصول أندلسية<sup>1</sup>.

ستهل محمد بن عبد السلام السايح حياته الدراسية بحفظ القرآن الكريم على يد ثلة من الأساتذة منهم: الفقيه العدل السيد عبد السلام بن محمد كيلطو، والفقيه السيد المهدي بن محمد الصحراوي. ولقد ذكر رحمه الله، أنه بعدما حذق القرآن ، عكف على أخذ العلم بهمة لا يحوم حولها الوني، فأخذ عن الشيخ التهامي بن المعطي الغري، وأخذ المنطق والأصول والفقه والفرائض والحساب والتوقيت عن العلامة عبد الرحمان بن ناصر برباط، كما درس الفقه على يد أبي عبد الله محمد بن عبد السلام الرندي.

كما استهل السايح ، سيرا على نهج النخبة المثقفة من أبناء عصره، حياته العلمية أستاذا بالمدرسة اليوسفية بالرباط، ثم بمعهد الدراسات العليا بعد ذلك. ثم انتقل الرحالة السايح إلى سلك القضاء حيث عين في مجلس استئناف الأحكام الشرعية بالقصر السلطاني، وتولى بعد ذلك مهمة القضاء بمدينة مكناس التي وافاه بها الأجل المحتوم يوم الإثنين 16 ذي القعدة سنة 1367هـ \_ 1948م.

خلف محمد بن عبد السلام السايح تراثا فكريا غنيا ومتنوعا توزع بين الأدب والفقه والتاريخ والأصول، وقد ذكر، رحمة الله عليه، في الترجمة التي خص بها نفسه جزء من هذا التراث، ومن ذلك. « الخمار المذهب في أحكام التعامل بين مختلفي المذهب » و«نجحة الرائد في ابتناء الحكم والفتوى على المقاصد والعوائد» و« إثم [كذا] الجفن في عدم إعادة صلاة الجنائز الناقصة التكبير بعد الدفن» و« الغصن المهصور بمدينة المنصور». بالإضافة إلى هذه الكتب التي لا تزال مخطوطة، فإن بعضا من إنتاج محمد بن عبد السلام السايح قد عرف طريقه إلى المطبعة وانتشر بين الناس، مثل : «الاتصال بالرجال» و «سوق المهر إلى قافية ابن عمرو» و «لحة بصر على البلاد المقدسة» و «المنتخبات العبقرية لطلاب المدارس الثانوية».

#### - التعريف برحلته :

اكتست رحلة السايح «أسبوع في باريس» أهمية قصوى وذلك للاعتبارين التاليين :

أولا : انه بخلاف الرحلات المغربية إلى أوروبا مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين والتي ركزت على

1- الجيراري ، عبد الله: المرجع السابق، ص . 9 .

نقل مشاهد أوروبا إلى المغاربة ، فإن رحلة "أسبوع في باريس"<sup>1</sup> لم تقتصر على نقل صورة أوروبا، وفرنسا منها على وجه الخصوص، وإنما قامت بنقل أفكار وتقنيات إسلامية إلى أوروبا، والمتمثلة في تحديد اتجاه الكعبة، بل والسعي إلى الإجابة على عدد من الأسئلة الملحة والمتعلقة بالجالية المسلمة بفرنسا .

ثانيا : إن رحلة " أسبوع في باريس " لمحمد بن عبد السلام السايح، تؤرخ للبداية الأولى لعملية استقرار المسلمين المنحدرين من شمال إفريقيا وجنوب الصحراء بأوروبا، وتحديد فرنسا، مع ما يعنيه ذلك التحول إلى النظر إلى أوروبا كدار "حرب" وتحولها إلى دار "صلح"، أو حتى دار "إسلام"، بحكم استقرار جالية مسلمة كبيرة بها وبناء المسجد والمعهد الإسلامي، هذا بالإضافة إلى أن عبد السلام السايح أجاب عن أسئلة مسلمي باريس في عدة مسائل فقهية ودينية، ومن الأسئلة الفقهية التي طرحت على السايح كقضايا جديدة وطائرة، الدجاجة المفتول عنقها، وشحم الخنزير، والتعطر بعطر النصرى، ودخول غير المسلم إلى المسجد، وذبيحة أهل الكتاب<sup>2</sup>، وكلها أسئلة كانت تستوجب أجوبة بل واجتهادات معاصرة. بمعنى آخر، إن رحلة السائح كانت في قلب التحولات التي عرفتها أوروبا عامة وفرنسا خاصة مع نهاية الحرب العالمية الأولى، وبداية استقرار المسلمين بها .

ومما يلفت الانتباه في رحلة السايح أنه لا يكتفي بالوصف بل يحاول أن يستوعب المنطلقات التي اعتمدها فرنسا لتحقيق الرقي الحضاري، ويجري مقارنات في كل مسألة بين هذا البلد الأوربي وبلده المغرب الغارق في الجهل والتخلف، ولا يتردد في توجيه الكلام إلى المغاربة لكي يعتمد العلم طريقا لتحقيق التقدم والرقي.

يقول السايح، مادحا باريس ومبديا قبوله بها : " ثم على الساعة السادسة مساء حللنا بباريس، وما أدراك ما باريس، بهجة الدنيا ومنبت الحضارة، ومهد الرقي ومنبت العلوم، ميدان سوابق الأفكار، ومجلى سوانح الأنظار، ديوان المبتدأ والخبر . ومراة ما حضر وما غبر ..."<sup>3</sup> . بهذا الوصف ابتدأ السائح حديثه عن العاصمة الفرنسية باريس بكثير من الإعجاب والتقدير ، فهي عاصمة عالمية، عاصمة الحضارة والعلوم والفلسفة والنظريات الفكرية. والسايح بهذا التصوير يعكس حقيقة باريس كما كانت مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية العشرين من حيث كونها قبلة السياسيين والاقتصاديين والمتقنين والعلماء والفنانين من مختلف بقاع العالم، فهو " يعكس وجهها آخرا لباريس غير الوجه الاستعماري، وهو وجه الحضارة والمدنية والحداثة، ومن خلال ذلك نستطيع أن نصنف

---

1- السائح، عبد السلام : أسبوع في باريس، تحقيق وتقديم الدكتور سليمان القرشي، دار السويد للنشر والتوزيع، أبوظبي، الطبعة الأولى، 2004 م .

2- نفس المصدر، ص . 104.

3- نفس المصدر، ص . 37 .

السايح كنموذج لنخبة مغربية تميزت بفكرها الذي لم يكن ينظر إلى فرنسا كمستعمر بل كحضارة وقيم حديثة، ولذلك تميز تعامله مع فرنسا بنوع من العقلانية والتجاوب أو التفاعل بدل الرفض أو المواجهة"<sup>1</sup>.

استغرقت إقامة السائح بباريس أكثر من أسبوع، إلا أنها في الواقع كانت كافية بالنسبة إليه للوقوف أولاً على " عجائب وغرائب المبتكرات " وثانياً ازدادت قناعته " بعظمة العلم وان قدره لا يساوم بسوم " كيف لا وهو يشاهد بعينه " ما وصل إليه القوم الذين تفانوا في حب العلم، ومنهم من قصر حياته لخدمته، وبذلوا النفس والنفيس في اقتنائه، وعانوا بكل صبر وجلد، وقد تجسمت في مخترعاتهم ومصنوعاتهم وعلومهم الغزيرة المتنوعة تجسماً بادياً للعيان "<sup>2</sup>.

لقد كانت المهمة التي بعث من أجلها محمد بن عبد السلام السايح مهمة علمية، وهي تحديد سمت القبلة لمسجد باريس، إلا أنها لم تمنع الوفد المغربي من زيارة أهم معالم العاصمة الفرنسية والتي ترمز إلى الحضارة والحداثة الفرنسية، فقد زار متحف اللوفر، وبرج إيفل، وقوس النصر والمترو، وبستان النباتات، وفرساي.

فمع محمد عبد السلام تجوب الشوارع، وتشاهد العمارة، وتستمتع بالحداثق، وتزور المتاحف والمسارح، وتركب الترامواي، فهو يصف ما رأى، لكنه يحسن وصفه ويزيدك بعضاً من الخيال، لقد غرق في وصف بعض من تلك الملاهي حتى قال: " ولهم نشيد ورنين، وللموسقيين تطريب وتلحين إلى مطارحة ذكران ونسوان، وأزياء ما أنزل الله بها من سلطان، حتى حُيِّل لي أي في عرس بلقيس في عالم الأباليس. مما كان أجرى المقام بقول أبي الطيب:

ملاعب جنة لو سار فيها سليمان لسار بترجمان"<sup>3</sup>

وتعكس انطباعاته عن هذه المعالم المدنية والحضارية، بشكل عام حالة الإعجاب والافتتان التي أصابت السايح، إذ من خلالها أحس بجدّة الفوارق، وعبر عن نضج الوعي المغربي في هذه الحقبة بحدوث تجاوز حضاري من طرف الآخر الفرنسي الأوربي لأننا المغربية العربية الإسلامية.

---

1- الغاشي، مصطفى : "النخبة المغربية وأوروبا، رحلة أسبوع في باريس"، أعمال ندوة، انتقال الأفكار والتقنيات في المغرب والعالم المتوسطي، مصدر سابق، ص . 182 .

2- السائح : نفس المصدر، ص . 40.

3- نفس المصدر، ص . 34

## خلاصات جزئية للباب الأول :

-إذا كان الفكر العربي اعتبر أن بدايات الوعي الإسلامي بالفارق الحضاري الغربي قد حدث مع حملة نابليون بونابارت على مصر سنة 1798م، فإن نصوص السفارتنامية العثمانية في القرن الثامن عشر التي تعرضنا لبعضها أثبتت بما لا يدع مجالاً للرد أن العثمانيين أدركوا قبل قرن من الحملة الفرنسية أن العسكرية الأوروبية باتت متفوقة على القوات العثمانية، وأجروا على امتداد القرن الثامن عشر العديد من المحاولات لاكتشاف التنظيم والعلم العسكريين الأوروبيين.

-إن الرحالة هم أول من تأمل الغرب في دياره خلال العصر الحديث. وهم أول من تحدثوا لأبناء أمتهم عن حياة فكرية وسياسية واجتماعية واقتصادية ومدنية مغايرة لحياتهم في هذه المجالات، جاعلين من تلك الاختلافات النوعية بداية لمشروع جواب على السؤال المركزي والمحوري : لماذا تخلفنا عرباً ومسلمين وتفوق الغربيون ؟.

-إنه بالرغم مما يقال من أن ظروف الرحلات خلال القرن التاسع عشر، كانت متباينة، وهو قول له وجهته، فالذي لا يمكن إغفاله أن الرحلات العربية الحديثة، ابتداء من الطهطاوي المصري و انتهاء بعهد السلام السياح المغربي، قد أتت في لحظات الابتلاء بالهزيمة أو لنقل غير مترددين، أن القاسم المشترك الذي طبع سياقتها العام، هو الوعي بواقع الضعف والهوان مقابل واقع القوة والعظمة، التي يمثلها "الآخر الآوري، ذلك أن شعوراً قويا بالعجز على المواكبة واللحاق بالغرب.

-لقد اقتنعت النخبة العربية بعد أن واجهتها مواجهة عسكرية في ميدان الحرب والقتال، في مصر والجزائر والمغرب... وواجهتها في رفعتها الجغرافية القارية مواجهة سلمية في أثناء المهمات السفارية والسياسية والبعثات العلمية مواجهة سلمية، بتفوقها الساحق اقتناعاً راسخاً، وأصبحت أوروبا بموجب هذا الاقتناع نموذجاً، حاز قصب السبق، منذ زمان، في مضمار الحضارة وحسن الترتيب والتنظيم والقوة في الاقتصاد والاجتماع والسياسة والعلم والتكنولوجيا على السواء .

-اكتشاف النخبة العربية لذلك الوجه الحضاري للغرب الذي يناصر العقل والتنوير والعلم كأداة للرقى والتمدن. ومحاولتها تجاوز الأطروحة التقليدية المتشددة التي تدعو إلى مقاطعة الغرب والعودة إلى الماضي المجيد، فالدعوة من هذا القبيل مرفوضة عند النخبة العربية، لأن الغرب لم يصل إلى ما وصل إليه إلا بفضل الماضي المجيد للحضارة العربية الإسلامية، ومنطق التاريخ عنده يقضي بالانفتاح عليه والاستفادة منه لا الانغلاق على الذات ونبد الآخر، فهذه الرؤية الإقصائية لا تفيدنا في شيء بل ستزيد من التخلف الذي نعيشه.

- إن من أبرز القضايا التي استحوذت على اهتمام الرحالة المثقفين إبان القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين هو عقد المقارنات بين العالم العربي المتردي والفاقد الهوية والغرب المتحضر فائق المدنية والنظام والحسن والترتيب .

## الباب الثاني :

---

تجليات الوعي بالتجاوز الحضاري  
من خلال الرحلات العربية الحديثة

## مقدمة الباب :

إن دراسة نصوص الرحلة المشرقية والمغربية على السواء، تسمح للدارس بإمكانية الوقوف عند الكيفيات التي نظر بها العرب إلى واقع تأخرهم وانحطاطهم، ووعيمهم بجدة التفاوت الحضاري الذي بات يفصل عالمهم الإسلامي عن عالم أوروبا المتقدم والمتفوق.

فقد حرص مؤلفو هذه النصوص الرحلية على تقديم صورة تكاد تكون مفصلة وشاملة عن مختلف جوانب ومجالات التجاوز الحضاري الأوروبي، حيث اهتمت أوصافهم بالتعريف بأهم منجزات التقدم التقني وخصائص العمران، كما اعتنت برصد أوجه النشاط السياسي، كحديثهم عن المؤسسات السياسية القائمة ووظائفها واختصاصاتها، وعن تشريع القوانين السياسية ودور الصحافة. كما أولت اهتماما للتنظيمات الاقتصادية والتكنولوجية ودور الدولة والطبقة البورجوازية في الحياة الاقتصادية، كما حرصوا على نقل كثير من المعطيات والحقائق عن المنظومة التربوية والتعليمية ومؤسساتها من مدارس وكليات وجامعات ومكتبات ومختبرات علمية، مبرزين دورها في الرقي الاقتصادي والحضاري في البلدان الأوروبية .

إلا أن ما استرعى النخب المغربية أكثر من أهل المشرق، هو ما كان مرتبطا بالمجال العسكري، فأطنبوا في وصف مؤسسة الجيش، ومكوناتها وتنظيماتها وقوانينها، وقدموا أوصافا مستفيضة ومدققة للفبريكات الصناعية الحربية المزارة، وأنواع الأسلحة المدمة المشاهدة، ومختلف وحدات الجيش التي كانت تستعرض في بعض المناسبات الأوروبية.

ولأن هذه الصور والملاحظات والارتسامات، قد وردت متناثرة ومتفرقة لا يضبطها ناظم منهجي، فسنعمل على لم شتاتها وتركيبها في بناء متكامل، يطال أربعة مجالات حضارية، وهي المجال العسكري والعلمي الثقافي والسياسي والاقتصادي.

إن عملنا في هذا الباب، سينصب على إبراز طبيعة الصور التي كونها الرحالة المشاركة في الفصل الأول، و المغاربة في الفصل الثاني، عن الحداثة الأوروبية، والتي عكست بشكل جلي وعيهم باختلال موازين القوى بين الدول الأوروبية القوية المتحضرة والمتعلمة والمنتجة، وبين الدول العربية الضعيفة والجاهلة والعاطلة عن الإنتاج . فماهي أهم الصور والمواقف والملاحظات التي قيدها الرحالة في نصوصهم الرحلية والتي تعتبر في رأينا تجليا لتشكّل وحصول الوعي العربي بالتجاوز الحضاري الأوروبي ؟

# الفصل الأول:

## تجليات وعي المشاركة بالتجاوز الحضاري.

المبحث الأول: المجال العسكري. ✓

المبحث الثاني: المجال التعليمي والثقافي. ✓

المبحث الثالث: المجال السياسي. ✓

المبحث الرابع: المجال الإقتصادي. ✓



## المبحث الأول : المجال العسكري.

تجدر الإشارة بداية، إلى نقطة جوهرية، تتعلق بالحضور الضئيل للجانب العسكري في المتن الرحلي المشرقي مقارنة بنظيره المغربي، فلا مكان في هذا المتن لوصف الاستعراضات العسكرية والمصانع الحربية ونوعية الأسلحة والذخيرة، والمدارس والأكاديميات العسكرية. ولم نظفر من خلال رصدنا لأغلب نصوص المتن الرحلي المشرقي في القرن التاسع عشر، لما يشير إلى انبهار الرحالة المشاركة بهذا المجال والتفاتهم إليه. ويعزى ذلك في نظري إلى أن الرحلات المشرقية الحديثة إلى أوروبا، بداية برائدها رفاعة الطهطاوي، لم تتم إلا بعد مرور أزيد من عقدين عن بداية الإصلاحات التي شرع فيها الباشا محمد علي باشا، لا سيما في الجانب العسكري. فإلى أي حد أثر نجاح تحديث مؤسسة الجيش في عهد محمد علي على الكتابات الرحلية المشرقية وضآلة الإنبهار بالقوة العسكرية الأوروبية فيها؟

### المطلب الأول : تحديث مؤسسة الجيش في عهد محمد علي .

لم تستطع النخبة المصرية أن تنفلت من تأثير نابليون بونابارت وجيوشه التي اجتاحت القارة الأوروبية، أو من الدمار والخراب الذي خلفته، ولا بد أن محمد علي ذاته ، باعتباره رجلا عسكريا قادمًا من أوروبا، كان متلهفًا إلى معرفة المزيد من هذه الجيوش التي أحدثت صدمة قوية لدى النخبة العاملة الأزهرية، بسبب هول الفارق في القوة والقدرات العسكرية التي تجسدت للعيان من خلال معركتي "شبراخت" و"امبابة"، وخصصوا صفحات من مؤلفاتهم التاريخية، كما هو الحال عند الجبرتي ومعاصره نقولا الترك ، لوصف القوة العسكرية الفرنسية وبيان أسباب تفوقها، وعيا منهم بحدوث تجاوز حضاري من طرف القوى الأوروبية المسيحية. وكان محمد علي شديد الاحترام للإمبراطور، حيث أمر فيما بعد "بترجمة سيرة نابليون إلى التركية، وطبعها في مطابع بولاق الأميرية"<sup>1</sup>. كما كان جيش نابليون النمط الذي أنشئ وفقه الجيش المصري الجديد.

لقد اختار محمد علي أن يشرع أولاً في تحديث الجيش وتنظيمه على شاكلة الجيوش الأوروبية الحديثة. فقد التفت إلى الجيش باعتباره السند القوي لدولته في البر والبحر بعد أن وجد جيش مصر القديم، وقد أصبح بالياً رثاً بأجهزته وأنظمتها وأعرافه وتقاليده، وأنه لا يستطيع الصمود أمام القوى العسكرية الأوروبية المتطورة، فقد أدرك

---

1- فهمي، خالد : محمد علي وجيشه وبناء مصر الحديثة، ترجمة : شريف يونس، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الأولى، 2001 ، ص. 114.

محمد علي وعلماء مصر من خلال معركتي "شبراخيت" و "امبابه" أن تقدم الأوربيين كان كبيرا في هذا الميدان وميادين أخرى، وعليه، فقد كان طموحه أن يبني أولا جيشا مصريا عصريا في أجهزته وقوانينه وأسلحته على النمط الأوربي.

لم تكن عملية بناء الجيش والأسطول في عهد محمد علي مجرد عملية هدفها مجرد بناء مؤسسة عسكرية من الجنود النظاميين المحترفين، بل كان الجيش والأسطول هنا هما الدعامة الأساسية التي بنى عليها محمد علي دولته المستقلة رغبة منه في **اللحاق بالغرب المتفوق**، فكل مشروعات محمد علي ارتبطت بعملية بناء الجيش والأسطول. وبالمثل فإن قيام قيامه بإنشاء العديد من المؤسسات التعليمية العليا أو المتوسطة ارتبط ببناء المؤسسة العسكرية للحصول على الضباط المؤهلين .

ولم يقتصر الأمر على ذلك ، بل كان أحد أهداف البعثات العلمية إلى أوروبا هو استيعاب العلوم العسكرية، لكي يحل المبعوثون عند عودتهم محل المدربين الأجانب في المدارس الحربية ، لهذا تم توجيه الكثير من المبعوثين لدراسة الفنون العسكرية والإدارة الحربية، والملاحة والفنون البحرية، أو لدراسة العلوم والمهارات المرتبطة بالصناعات العسكرية بشكل مباشر مثل الهندسة الحربية، وصناعة الذخائر، وصب المدافع والقنابل، وصناعة السيوف والبنادق والطبنجات، وبناء السفن .

كما ارتبطت عملية بناء القاعدة الصناعية بدورها في ظل تجربة محمد علي باشا باحتياجات تطوير المؤسسة العسكرية وتسليحها، سواء كانت صناعة عسكرية مباشرة خاصة بالتجهيزات العسكرية، أو صناعات مدنية مرتبطة بتوفير الاحتياجات اللازمة للجنود، **يقول عبد الرحمن الرافي:** " فلقد رأى محمد علي بثاقب نظره أن إنشاء جيش يحمي الديار أمر لا قوام له إلا بأن يجد كفايته من السلاح والذخيرة والمدافع في داخل البلاد، إذ الاعتماد على جلب السلاح من الخارج يعرض قوة الدفاع الوطني للخطر ويجعل الجيش والبلاد تحت رحمة الدول الأجنبية" <sup>1</sup>.

وبجانب هذا أسس محمد علي باشا ترسانة الإسكندرية عام 1829م التي أنشأت أول بارجة حربية نزلت البحر سنة 1831م، واستطاعت الترسانة الحربية أن توفر على مصر جزءا كبيرا من شراء السفن من أوروبا، حيث تحولت إلى واحدة من أعظم المنشآت الحربية وكانت تصنع فيها السفن والبوارج دون أي حاجة إلى استيراد أي شيء على الإطلاق، لتصبح هذه الصناعة إحدى البوابات الكبرى التي دخلت منها مصر ومعها العالم العربي إلى عالم الصناعة. وكان للإرادة الوطنية الصادقة اليد الطولى في تهيئة الظروف الملائمة، وقد ساهمت البعثات والمدارس

1- الرافي : عصر محمد علي، مرجع سابق، ص . 337 .

والمعاهد والكفاءة المحلية في تحقيق ففزات نوعية كبرى، حطمت أسطورة التفوق الأوروبي أو كاد ، وأثبتت أن الشعوب تستطيع أن تفعل المعجزات، وكتب بهذا الخصوص مشاهد أوروبي فقال : "إن دار بناء السفن في الإسكندرية، التي كان العرب يقومون فيها بكافة الأعمال، والتي كان باستطاعتها أن تنافس كل دور بناء السفن في العالم، تشير بوضوح إلى ما يمكن عمله بهذا الشعب، وقد لا يتمكن الأوروبي أبدا من بلوغ مثل هذه النتائج لمدهشة بمثل هذه المدة القصيرة"<sup>1</sup>.

## المطلب الثاني : ضالة الحضور العسكري الأوروبي في النصوص الرحلية المشرقية .

لقد تحول الجيش المصري في عهد محمد علي باشا إلى أقوى الجيوش العسكرية العصرية، وأصبح يضاهي جيوش أوربا، كما بينا ذلك سابقا، لذا كان طبيعيا أن لا تتجه أنظار النخبة العالمة التي رحلت إلى أوربا في فترة ولاية محمد علي إلى المجال العسكري. فبعد استقراءنا للمتن الرحلي المشرقي، لم نظفر إلا بإشارات قليلة للقوة والحدائث العسكرية الأوروبية، ففي سياق المقارنة المطولة التي عقدها الشدياق بين صفات وعادات كل من الانكليز والفرنسيين، ذهب في مقارنته إلى حد تقدير القوة العسكرية لكل من فرنسا وانكلترا مقارنا بينهما، ويفسر سبب ضخامة عدد الجيش في الأول، ومحدوديته في الثانية قائلا : "وفي السنة المذكورة، كان لها من العساكر البرية نحو خمسمائة ألف، وأمكن لها في أي وقت شاءت أن تجهز من الجيوش البحرية نحو سبعين ألفا"<sup>2</sup>.

أما الطهطاوي فقد إكتفى بالإشارة إلى بعض طباع الجنود الفرنسيين وتشابها مع العرب بقوله : "ومما يستغرب أن في رجال العسكرية منهم من طباعه توافق طباع العرب العربا، في شدة الشجاعة الدالة على قوة الطبيعة، وشدة العشق الدالة ظاهرا على ضعف العقل، ومزاجهم كالعرب في الغزل بالأشعار الحربية"<sup>3</sup>. كما رأى تشابها بين كلامهم وكلام بعض شعراء العرب ، وضرب على ذلك مجموعة من الأمثلة نورد منها قول الشاعر مخاطبا محبوبته :

ولقد ذكرتك والوغى بحر طغى      والنقع ليل والأسنة أنجم .  
فحسبته عرسا ونحن بروضة      وأنا وأنت بظله نتنعم<sup>4</sup>.

- 1- لوتسكي : تاريخ الأقطار العربية الحديث ، دار الفارابي ، بيروت ، الطبعة التاسعة، 1997 ، صص . 67 – 68 .
- 2- الشدياق : كشف المخبأ ....، مصدر سابق، صص. 253-255.
- 3- الطهطاوي : تخلص الإبريز ...، مصدر سابق، ص. 108.
- 4- نفسه .

## المبحث الثاني : المجال التعليمي والتربوي .

عرف المسلمون عهداً زاهرة في الكثير من نواحي الحياة خلال القرون السبعة التي أعقبت ظهور الإسلام، فكانت حواضرهم من أهم المراكز الفكرية الناشطة يومئذ، لتغيير البنية الإيديولوجية للعالم القديم ووضع مفاهيم جديدة لأخلاقيات المجتمع البشري. وقد ساهموا خلال هذه الفترة بأعمال جلييلة في مسيرة التقدم الإنساني، وكان لبعضها أثر في تكوين العقل الحديث واتجاهاته. ولكن منذ أواخر القرن الثاني عشر تقريباً، بدأ هذا العطاء الحضاري الرائع يتلاشى، نتيجة عوامل داخلية وخارجية عاتية ، استنزفت قوى المسلمين العسكرية والاقتصادية والبشرية، وجعلتهم فريسة لأطماع الغزاة من الشرق والغرب.

فخلال فترة التراجع الحضاري هذه، كان الفكر العربي والإسلامي يمر بمرحلة جمود واستسلام لأحداث القدر، في وقت كانت شعوب الضفة الأخرى التي كان يصطلح عليها بـ " دار الكفر " تتهياً لوضع مفاهيم جديدة عن الإنسان والكون والحياة، مستمدة من العلم التجريبي والاستقراء المنعقد من سيطرة الخرافات والتقاليد المقيدة والمعرقة لكل تطور خلاق في مجال الحضارة. فكيف كانت الأوضاع التعليمية بالمشرق؟ وما هي أهم الملاحظات التي استوقفت الرحالة المشاركة أثناء إقامتهم بالديار الأوروبية . ؟

### المطلب الأول: الوضع التعليمي بالمشرق ومسألة التجاوز.

هل كان يتوفر المشرق العربي على نظام تعليمي بالمعنى الصحيح؟ ألا توجد علاقة بين النظام التعليمي والعملية التربوية والواقع الاجتماعي؟ هل نستطيع أن نتحدث عن مشروع تربوي في المشرق العربي خاصة والعالم العربي عامة قبل الحملة الفرنسية؟ هل هناك علاقة بين النظام التربوي ومسألة التجاوز؟.

يجمع المؤرخون على أن الجهل كان متفشياً، وأن المشرق في تلك الفترة قد رزح، حسب جرجي زيدان صاحب "رحلة إلى باريس"<sup>1</sup> والتي قام بها سنة 1902 م، "تحت نبر الاستغلال وظلام الجهالة، وحرمت البلاد من معاهد التعليم، ولم يبق بها سوى الجامع الأزهر الذي كان قائماً منذ قرون، وبعض المدارس الملحقة بالمساجد، فكان الأزهر هو المعهد الوحيد الذي تدرس فيه العلوم، ولولاه لانطفأت شعلة العلم في مصر، وكان في القاهرة

---

1- جرجي زيدان ( 1861\_1914م )، زار لندن سنة 1886 ، ثم قضى صيف 1912 في أوروبا، ما بين فرنسا وإنجلترا وسويسرا ، ونشر انطباعاته في الهلال المصرية، سنة 1912م، ثم أصدرها سنة 1912 في كتاب " رحلة إلى أوروبا " وأعدت دار السويدي للنشر والتوزيع بالإمارات العربية المتحدة سنة 2002م نشرها، والتي حررها الدكتور قاسم وهب .

وبعض البنادر والثغور كتاتيب ينفق عليها من أموال الصدقات والأوقاف، لكنها كانت ضعيفة الأثر في تبيد ظلام الجهالة في البلاد"<sup>1</sup>.

أما المدارس الأخرى التي انتشرت وازدهرت في العهدين الفاطمي والأيوبي فيشير علي مبارك باشا صاحب رحلة "علم الدين" إلى ذلك بقوله: "فقد آل أكثرها إلى الخراب، حتى انقطع التدريس عنها بالكلية، وبيعت كتبها وانتهبت، ثم أخذت تتشعث وتنخر من عدم الالتفات إلى عمارتها وحرمتها. فامتدت أيدي الناس والظلمة إلى بيع رحابها، وأبوابها وشبابيكها، حتى آل بعض تلك المدارس الفخمة والمباني الجليلة إلى زاوية صغيرة تراها مغلقة في أغلب الأيام، وبعضها زال بالكلية. وصار زريبة أو حوشا أو غير ذلك، والله عاقبة الأمور"<sup>2</sup>.

انطلاقا مما دونته النخبة المشرقية، لا سيما من رحل منهم إلى ديار الغرب، نستشف أن بلدان المشرق كغيرها من المجتمعات العربية الإسلامية وقتئذ كان تعاني ركودا خطيرا في سوق الإنتاج الفكري والعلمي، بحيث أصبح معظم أفرادها ضحية للجهل والأمية، وهذا يستفاد أيضا من كتابات الرحالة والدبلوماسيين الأوروبيين الذين زاروا المشرق في هذا الزمن.

فالسائح الفرنسي "مسيوفولني Volnez" الذي زار مصر والمشرق عامة، أكد على "أن الجهل في هذه البلاد عام وشامل، مثلها في ذلك مثل سائر البلاد التركية"، يشمل الجهل كل طبقاتها، ويتجلى في كل جوانبها الثقافية، من أدب وفن وعلم، والصناعات فيها في أبسط حالاتها، حتى إذا فسدت ساعتك لم تجد من يصلحها، إلا أن يكون أجنبيا"<sup>3</sup>.

ولم يركز القنصل الروسي في القاهرة "دوهاميل" في تقريره الذي كتبه عن حالة البلاد عندما تولى الحكم فيها محمد علي سنة 1805 م، عن الفن والعلم والأدب والصناعة، كما صنع "فولني"، بل تحدث عن الذين بلغوا من العلم مرتبة القراءة والكتابة، فيقول: "إن مصر حين وليها محمد علي لم يكن بها أكثر من مائتين يعرفون القراءة والكتابة، باستثناء الكتبة من القبط"<sup>4</sup>.

---

1- جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية، مصدر سابق، الجزء الرابع، ص. 16.

2- المبارك علي باشا: الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدتها وبلادها القديمة والشهيرة، بولاق المطبعة الأميرية، 1306 هـ، الجزء الرابع، ص. 38.

3- أمين: المرجع السابق، ص. 6.

4- ذهني: المرجع السابق، ص. 23.

إن الغالب الأعم في المشهد الثقافي والعلمي في مصر قبل الحملة الفرنسية هو أزهري يكتنفه الجمود، وعلماء لا يذهبون في علومهم إلى أبعد من علوم الدين التقليدية، وعمامة مأخوذة بالتصوف والمتصوفة وبالشعوذة والخرافات<sup>1</sup>. أما العلوم غير الدينية فلم يكن لها أثر، أو أنه لم يكن لها إلا أثر ضئيل لا يكاد يحس، ولعل من المفيد استذكار إحدى الروايات التي يرددتها الكثير من الباحثين نقلاً عن الجبرتي. إذ لما وصل أحمد الباشا المعروف إلى مصر سنة 1163 هـ، ليكون والياً عليها، وهو كما يقول الجبرتي: "من أرباب الفضائل، وله رغبة في العلوم الرياضية، قابله العلماء في ذلك الوقت وهم: الشيخ عبد الله الشبراوي شيخ الجامع الأزهر، والشيخ سالم النفراوي، والشيخ سليمان المنصوري، فتكلم معهم، وناقشهم وباحتهم، ثم تكلم معهم في الرياضيات فأحجموا، ونفوا أن تكون لهم معرفة بهذه العلوم، ولم يسبق لهم الإشتغال بها"<sup>2</sup>.

يحكي الجبرتي أن والي تعجب من هذا الأمر وسكت، ثم عاود الحديث في يوم آخر مع الشيخ الشبراوي في أمر العلوم الرياضية، وموقف الأزهري منها، وحصيلة العلماء منها، فقال الوالي: "المسموع عندنا بالديار الرومية، أن مصر منبع الفضائل والعلوم، وكنت في غاية الشوق إلى المجيء إليها فلما جئتها وجدتها، كما قيل: تسمع بالمعيدي خير من أن تراه. فقال له الشيخ: هي يا مولانا كما سمعتم: معدن العلوم والمعارف. فقال الوالي: وأين هي؟ وأنتم أعظم علمائها، وقد سألتكم عن مطلوب من العلوم فلم أجد عندكم منها شيئاً، وغاية تحصيلكم، الفقه، والمعقول، والوسائل، ونبذتم المقاصد. فقال الشيخ: نحن لسنا أعظم علمائها، وإنما نحن المتصدرون لخدمتهم وقضاء حوائجهم عند أرباب الدولة والحكام، وغالب أهل الأزهري لا يشتغلون بشيء من العلوم الرياضية إلا بقدر الحاجة إلى علم الفرائض والموارث. فقال الوالي: وعلم الوقت كذلك من العلوم الشرعية، بل هو من شروط صحة العبادة، كالعلم بدخول الوقت واستقبال القبلة وأوقات

---

1- يروي الجبرتي عدداً كبيراً من الحوادث التي تدل على انتشار الفكر الخرافي بين عامة المصريين، وتجدد مدى التخلف الفكري في المجتمع المصري ومدى تزم العلماء ضد كل تغيير أو إصلاح، فالدعوة التي قام بها واعظ "تركي" في مصر سنة 1123 هـ للرجوع إلى العقيدة الإسلامية الخالصة وترك ما يفعله أهل مصر بضرائح الأولياء وإيقاد الشموع والقناديل على قبور الأولياء وتقبيل أعتابهم". هذه الدعوة قوبلت بالرفض من السلطة، الأمر الذي أدى في النهاية إلى نفي الواعظ من مصر. ويدل على تخلف المستوى الفكري في مصر آنذاك ما ذكره الجبرتي ضمن أحداث 1173 هـ حول اعتقاد الكثيرين في "عنز" زعموا لها نوعاً من القداسة، "فأقبل الرجال والنساء من كل فج لزيارة تلك العنز، وأتوا إليها بالندور والهدايا" ويفصل الجبرتي قصة هذا العنز والشعر الذي قيل في ذلك تفصيلاً، الجبرتي: المصدر السابق، ج، 3، صص. 34 - 35.

2- الجبرتي: المصدر السابق، ج، 1، ص. 276.

الصوم والأهله، وغير ذلك . فقال الشيخ : نعم .. معرفة ذلك من فروض الكفاية، إذا قام به البعض سقط عن الباقين ، وهذه العلوم تحتاج إلى لوازم وشروط وآلات وصناعات وأمور ذوقية، كرفة الطبيعة، وحسن الوضع، والخط والرسم والتشكيل، والأمور العطاردية، وأهل الأزهر بخلاف ذلك، غالبهم فقراء، وأخلاق مجتمعة من القرى والآفاق، فيندر فيهم القابلية لذلك...<sup>1</sup>."

ثم يتحدث عبد الرحمن الجبرتي، كيف أن الشيخ الشبراوي قد أخبر الوالي بأن الشيخ حسن الجبرتي (1698-1774) والد المؤرخ، له إلمام يمثل هذه العلوم، وكيف قامت علاقات عملية بين الوالي وبين الشيخ حسن الجبرتي، وكيف وجد الوالي عنده بغيته من المعرفة بالرياضيات، فخفت حدة غضبه على أهل مشايخ الأزهر بهذه العلوم، ثم يحكي الجبرتي كيف كان سرور الشيخ الشبراوي بذلك فيقول: "كان المرحوم الشيخ عبد الله الشبراوي كلما تلاقى مع المرحوم الوالد يقول: سترك الله كما سترتنا عند هذا الباشا... فإنه لولا وجودك، كنا جميعا عنده حميرا"<sup>2</sup>.

نحن نعتقد أنه ليس هناك أبلغ وأصدق من هذه الكلمات، وتلك الحقائق التي تضع يدنا عليها هذه القصة وذلك الحوار... ففيهما التجسيد النموذجي لحالة التأخر العلمي والفكري التي وصل إليها العالم العربي الإسلامي في عصور التأخر والتراجع الحضاري .

لقد أصيب المشرق العربي بالضعف الفكري ، وذاق من جراء تلك الإصابة مرارة التأخر الحضاري ، لأن الضعف الفكري ما أصيبت به أمة من الأمم ، أو مجتمع من المجتمعات ، إلا كانت الحالة انحطاطا في التفكير ، واهتماما بالخرافات والأساطير.

إذا كان هذا هو وضع التعليم بالمشرق ، فإن "الأخر" الأوربي ، قد بدأ يحقق منذ القرن الثالث عشر، وخصوصا بعد الاكتشافات الكبرى، قفزات نوعية ستؤثر في الحياة اليومية فيها، فقد صار الإنسان واعيا بمؤهلاته وطاقاته، وأدرك أن العالم الذي يعيش فيه أصبح عالما معروفا، لذلك آمن الإنسان الأوروبي بإمكان السيطرة عليه، فأعطيت للفرد مؤهلات خارقة وركزت الحركة الفكرية على إبراز قدرات الإنسان الهائلة الكامنة فيه، فقد اعتبرت المناهج الجديدة الإنسان مركزا للكون، له الحق في أن يختار لنفسه ما يريد، وأن يكون على

---

1- الجبرتي : المصدر السابق، ج ، 1 ، صص. 276- 278

2- نفس المصدر، ص . 278.

الشكل الذي يريد، ولم تبق غاية العلم والإنسان غاية مقدسة، بل كان غايته الأساسية المعرفة النافعة، وأصبح النظام التربوي الجديد يهدف إلى تحرير الإنسان، وإعطائه الوسائل اللازمة للسيطرة على الطبيعة<sup>1</sup>.

لقد حاولت أوروبا تجاوز مرحلة الانغلاق الثقافي، وبرز دعاة التربية الجدد في أوروبا كلها، فقد كان رابلي العالم المحيط بهم. وقد فرق رابلي بين الجسد والعقل في الإنسان، وأكد أن الطفل لا بد أن يكرس حياته كلها لمعرفة الطبيعة، وأن يخصص جزءا من وقته لزيارة أصحاب المهن ودراسة أساليبهم. ويرى أنه "يوجد في كل فرد شيء كوني جدير بالاحترام، فمع أننا يجب أن نسلم بالمميزات والفروق الفردية، إلا أن كل فرد يستطيع أن يساهم في الأنشطة التي تطور كيانه فوق نطاق طبيعته الجسدية والروحية"<sup>2</sup>. وفي هذا السياق دان رابلي المناهج التعليمية القائمة على حشو ذاكرة المتعلم وإثقالها بما لا فائدة فيه، وفي المقابل، ركز على ضرورة إتاحة الفرصة للمتعلم ليوظف ذكائه في دراسة الطبيعة بكل حرية، وفي ضوء مبادئ العقل.

فالتربية الجديدة عند رجال النهضة الأوروبية تحرر الإنسان من المناهج العقيمة وتجعله يهتم بالحاضر بكل ما يحمل هذا الحاضر من آمال للمستقبل. لقد زعزع رابلي بطريقته الساخرة المألوفة الأسس التربوية التي كانت سائدة، وساهم في خلق الإنسان الجديد الملائم لعالم جديد. كما اعتبر كتاب " إيميل " "Emile" لجان جاك روسو الذي نشر سنة 1762م، ثورة تربوية، فقد وضع هذا المؤلف الطفل مركزا لكل عملية تربوية، وبنى مشروعه البيداغوجي على مبادئ أساسية لعل أهمها "ضرورة اعتبار العمل التربوي عملا مبنيا على مبدأ الحرية، وأن المرابي الحقيقي هو الذي ينجز الطبيعة وكل ما تعطيه له ليتمكن المتعلم من إدراك حدوده، فعلى المعلم من جهة ثانية أن يساعد الطفل على تجاوز ضغوط العائلة التي تكون مبنية على طغيان العاطفة وضغوط المجتمع الذي يبنني على عدم المساواة". كما ركزت النظرية التربوية لروسو على وضع المتعلم داخل محيطه الطبيعي حتى يكون إنسانا طبيعيا، كما ألح على تلقينه وإرشاده إلى تعلم الجغرافية والمناخ وعلم النباتات، ثم الحرف، وكذلك معرفة العلوم المرتبطة

---

1- جون، هارمان راندل: تكوين العقل الحديث، تعريب: جورج طعمة، دار الثقافة، بيروت، 1966 م، الطبعة الثانية، ج 1، ص 42.

2- أولحاج، محمد: التصورات البيداغوجية الحديثة أسسها واتجاهاتها ومناهجها، منشورات صدى التضامن، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2002، ص 32.



بالإنسان كالتاريخ والسياسة. وإذا لم يتمكن من إدراك كل ذلك أيام التعلم ، فلا بأس ، لأنه سيصل إلى ذلك وحده عن طريق المنهج الذي يمكنه من التعلم بلا توقف<sup>1</sup> .

يظهر مما سبق ذكره، أن العلم والتعلم العملي كان أساس العمليات التربوية البيداغوجية في أوروبا، وعلى العكس من ذلك بقي النظام التعليمي في العالم العربي عموماً، مرتبطاً بالمنهج التقليدي الجامدة العقيمة التي كانت تفرض على طلاب العلم مختصرات لا تفهم إلا بشروح وحواشٍ وتقارير، وإنما تزحم ذاكرتهم بحشد مشوش من المعلومات النحوية المتشابكة والتدقيقات اللفظية التي تزهق الفكر وتعوقه عن النمو والابتكار والإبداع<sup>2</sup>.

كما اتضح لنا من جهة أخرى وجود علاقة بين المشروع التربوي والتحويلات والمنعطفات التي تعيشها المجتمعات، وهكذا أفرزت النهضة الأوروبية بيداغوجياً الإنسان الكامل الملائم لمتطلبات العصر، وأدى عصر الأنوار إلى ظهور الإنسان المواطن. على العكس من ذلك، لم يعرف المشرق العربي تحولات اقتصادية واجتماعية عميقة، ولهذا لم يعرف ظهور مشاريع تربوية ناجعة، مما ساهم بشكل كبير في حدوث التجاوز الحضاري الأوربي للمجتمعات العربية الإسلامية.

### المطلب الثاني: تجليات الوعي بالتجاوز العلمي في المتن الرحلي المشرقي :

لقد شاهد الرحالة المشاركة الذين زاروا أوروبا في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، مظاهر الثروة والمدنية في أوروبا، ووقفوا عند معالم الرقي الحضاري، وأدركوا أن هذا التطور المادي مرهون بتطور العلوم والفنون. فما هي أهم الملاحظات والإرتسامات التي قيدها الطهطاوي والشدياق وغيرهما، والتي تجسد الاختلافات الكبرى بين المنظومتين التربويتين؟ وما هي القضايا التي استأثرت باهتمامهم والتي جسدت بالنسبة لنا تجليات لوعيهم بالتجاوز العلمي الأوربي للمجتمعات المشرقية ؟

#### 1- قوة انتشار المعارف والفنون.

لقد كان أول انطباع للرحالة المشاركة، بعد التأمل في أوضاع أوروبا عامة وفرنسا خاصة، هو أن المعارف البشرية قد انتشرت وبلغت أوجها في هذا العصر بهذه القارة. ولكي يعبر الطهطاوي على مدى تمكن أهل باريس

---

1- مذكور، علي أحمد : نظرية المناهج العامة ، دار الثقافة، القاهرة، 1984 ، صص. 56\_ 57 .

2- السورطي، يزيد عيسى : السلطوية في التربية العربية، عالم المعرفة، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، عدد 362، ص. 24.

من تلك العلوم البشرية وارتفاع مستوى أدائها فيها، انتحل مقولة قال إنها لبعض أجراء الحكماء، وهي " الأمور بتمامها، والأعمال بخواتيمها، والصنائع باستدامها"<sup>1</sup>.

يعزى انتشار المعارف والفنون في هذه البلاد الراقية إلى الحضور العقلاني المكثف. يصف الطهطاوي شهرة مسيو جومار بقوله: "تفضيل القلم على السيف، لأنه يدبر بقلمه ما لا يدبر غيره بسيفه ألف مرة. ولا عجب، فبالأقلام تساس الأقاليم. وهمته في مصالح العلوم سريعة، كثيرة التأليف والأشغال. والغالب أن هذه الخصلة في سائر علماء الإفرنج.. فإن مثل الكاتب كالدولاب إذا تعطل تكسر، والمفتاح الحديد إذا ترك ارتكبه الصدأ. وجناب مسيو جومار يشتغل بالعلوم آناء الليل وأطراف النهار"<sup>2</sup>.

كما لفت انتباه القارئ إلى انعدام الأمية في المجتمع الفرنسي بقوله: " فالباريسيون يعشقون الاستزادة من المعارف ويرفضون التقليد ويتطلعون إلى الإبداع. وقد انعدمت فيهم الأمية حتى غدا عامتهم متعلمين، وعلومهم مدونة بعناية في كتب تفننوا في صناعتها."<sup>3</sup>

ويبدو من خلال رصد ملاحظات الرحالة في هذا المجال، أن أهم ما لفت نظر النخبة العاملة بالمشرق العربي هو هذه العقلانية<sup>4</sup> العملية التي شكلت أهم ميزة لأهاليها، والتي تعدت إلى مجالات مختلفة، أهمها انتشار التعليم. فالباريسيون يتميزون حتى عن باقي النصارى في نظر الطهطاوي بالذكاء والعمق وغوص ذهنهم في العويصات<sup>5</sup>، مما يعني أن المسألة لا تتعلق بخصوصية اعتقادهم الديني، بل توحى هذه المقارنة إلى أن جميعنا في الشرق سواء. فالأقباط المصريون في نظر رحالتنا يعانون مما يعانيه غيرهم في هذه الربوع، ومن هنا يقوم الفارق بين نصارى فرنسا ونصارى بلادنا. فهم حسب الطهطاوي نصارى، ولكن مذهبهم وتحررهم لا يضعهم في جمود المذهب "

---

1- الطهطاوي: تلخيص الإبريز...، مصدر سابق، ص. 177.

2- نفسه.

3- نفس المصدر، ص. 91.

4- يعني مفهوم العقلانية أولوية العقل وسيادة أحكامه وتقريراته في مجالات المعرفة المختلفة، وخصوصا المعرفة العلمية. وقد ارتبطت فلسفة العقلانية بصورة خاصة بفلاسفة معينين منذ القرن السابع عشر والثامن عشر انطلاقا من ديكارت واسبينوزا وليبيتز وغيرهم، ويستعمل مصطلح العقلانية في وصف وجهات النظر الخاصة التي يجتج بها مفكرو الأنوار ممن يعتقدون بقدرة العقل والبحث العلمي على كشف الحقائق ووضع أسس الحرية المتناغمة مع النظام الاجتماعي. ولذلك فقد قدموا العقل بوصفه وحده القادر على إعادة صياغة المعرفة في كل حقولها وفق قوانين وقواعد العقل الجديد.

5- نفسه.

الأرتودوكسي " الذي تدين به الكنيسة القبطية المصرية ، والذي يحسب المسلمون المصريون أن كل النصارى كمثله " الأرتودوكس مقلدون قديرون"، فعند الطهطاوي أن أهل باريس ، "ليسوا مثل النصارى القبطية في أنهم يميلون بالطبيعة إلى الجهل والغفلة ، وليسوا أسراء التقليد أصلاً. بل يجوبون دائماً معرفة أصل الشيء والاستدلال عليه حتى أن عامتهم أيضاً يعرفون القراءة والكتابة ، ويدخلون مع غيرهم في الأمور العميقة، كل إنسان على قدر حاله"<sup>1</sup>.

لقد قرر الطهطاوي أن عموم "البلاد الإفرنجية مشحونة بأنواع المعارف، والآداب، التي لا ينكر إنسان أنها تجلب الأنس وتزين العمران، وقد تقرر أن الأمم الفرنسية ممتازة بين الأمم الإفرنجية بكثرة تعلقها بالفنون والمعارف، فهي أعظم أدبا وعمرانا"<sup>2</sup>، وقد تعدى الأمر عوامهم من الرجال إلى النساء، "فهنّ وخلافاً لما هي عليه أوضاعهن في بلادنا، متعلمات ينافسن الرجال في طلب المعرفة وإحراز العلوم. بل للنساء منهم تأليف عظيمة فيها من براعة السبك وحسن العبارة وجودتها ما يؤكد على نبوغهن"<sup>3</sup>.

وقد غيرت المساواة في التعليم ذلك النوع من التنميط السائد بين جمال المرأة وعقلها. فقد غدا جمال المرأة أيضاً في عقلها، ومن هنا يظهر لك أن بعض أرباب الأمثال "جمال المرء عقله وجمال المرأة لسانها" لا يليق بتلك البلاد، "فإنه يسأل فيها عن عقل المرأة وقريحتها وفهمها وعن معرفتها، فهنّ كالرجال هناك، متولعات بحب المعارف والوقوف على أسرار الكائنات والبحث عنها"<sup>4</sup>.

وأضاف الطهطاوي مادحا باريس "الذي يظهر لمن تأمل في أحوال العلوم والفنون الأدبية والصناعية في هذا العصر بمدينة باريس أن المعارف قد انتشرت وبلغت أوجها بهذه المدينة وأنه لا يوجد من حكماء الإفرنج من يضاهي حكماء باريس"<sup>5</sup>. ومن خاصيات علماء باريس، كما يقول الطهطاوي : " إنهم يتقدمون بعلومهم كل يوم، حتى صارت العلوم عندهم في حالة زيادة دائمة، فإنها لا تمضي سنة إلا، ويكتشفون شيئا جديدا، فإنهم قد يكشفون في السنة الواحدة عدة فنون جديدة، أو صناعات جديدة أو وسائل

1- نفسه .

2- نفس المصدر، ص . 27 .

3- نفس المصدر، ص . 110 .

4- نفسه .

5- نفس المصدر، ص . 177 .

وتكميلات"<sup>1</sup>. ثم إن الغربيين يعلمون أن العلوم جميعها، نظرية كانت أم عملية، ضرورية لتطور المدنية ولذلك لا يفاضلون بينها، " حتى علوم السوق فإنها لها مدارس كمدرسة الطبخانة"<sup>2</sup>.

كما أشار إلى دور التدوين في تطور المعارف وكذلك تشجيع الدولة والمجتمع على الإبداع في جميع الحقول المعرفية والاجتماعية والاقتصادية فقال: "...وسائر العلوم والفنون والصنائع مدونة في الكتب لإتقان صنعته، وكل صاحب فن من الفنون يجب أن يبتدئ في فنه شيئاً لم يسبق له أو يكمل ما ابتدعه غيره. ومما يعينهم على ذلك، زيادة على الكسب، حب الرياء والسمعة ودوام الذكر"<sup>3</sup>.

يلفت نظرنا، في حديث الطهطاوي، هذا، أنه يقدم " الرياء والسمعة " كأشياء مستحسنة، لقيامها على أساس من العمل والعلم والاختراع، وهي مفاهيم جديدة، بل ومضادة لما كان شائعاً على السنة المتصوفة والزهاد في ربوع الشرق في ذلك الحين. فقبل عصر الطهطاوي كانت هناك نغمة سائدة في الميدان الفكري، يرى أصحابها أن الاشتغال بالعلوم التي تصرف الإنسان عن إعطاء كل عمره للعبادة هو ضلال وعبث لن ينفع الإنسان في حياته الأخرى ، هذا إذا لم يضره، ولقد عبر أصحاب هذه النغمة شعراً ونثراً ، من ذلك كما أورد الطهطاوي نسبة إلى بهاء الدين العاملي ( 1547 \_ 1626 م).

|                          |   |
|--------------------------|---|
| على كتب العلوم صرفت مالك | وفي تصحيحها أتعبت مالك                  |
| وأنفقت البياض على السواد | إلى ما ليس ينفع في المعاد               |
| بهذا الأمر صرف العمر جهل | فقم واجهد فما في الوقت مهل <sup>4</sup> |

كما أورد قولاً آخر يعكس خطورة هذه هذه الدعوات ومناقضتها لمنطوق النصوص الشرعية الآمرة بتحصيل العلم ونشره.

|                            |  |
|----------------------------|--|
| أيها القوم الذي في المدرسة | كل ما حصلتموه وسوسة                      |
| فكركم إن كان في غير الحبيب | ما له في النشأة الأخرى نصيب <sup>5</sup> |

1- نفسه.

2- نفس المصدر ، صص . 109-110.

3- نفسه.

4- نفس المصدر، ص. 30 .

5- نفس المصدر، ص. 31 .

أما الشدياق فقد أشار في نصه الرحلي «كشف المخبأ عن فنون أوروبا» إلى أهمية التعليم المبكر للأطفال قائلا : "يؤسس العلم في أولادهن على صغر، فإن الولد لا يبلغ هنا خمس سنين إلا ويكون قادرا على القراءة، أما عندنا فيذهب سن الصبا باطلا، فمتى أخذ بعد ذلك في التعليم وجده بعيد المأخذ صعب المرتقى، وأشهد لو أن نساء بلادنا يتزحجن في المعارف على صغر لفضلن جميع نساء الإفرنج فضلا باهرا، فإنهن أرق أذهانا وأسرع فهما." <sup>1</sup>

وعن أهمية التعليم ومكائنه في أوروبا قال المراه: "لما كان حظ الدارسين والعلماء عندهم نوال الارتقاء والتقدم بين الجمهور، ومنح علامات الشرف من الحكومة لا عدم العبء والاكتراث، كان إسراع الناس إلى طلب العلم والمعارف يشبه انحدار الغدران من أعالي الجبال، فترى الآباء يسرعون إلى وضع أولادهم في المكاتب حال بعد فظامهم، والأولاد تتراكم إلى المعلمين كالفراخ إلى مرايبيها، والشبان تنقض على المدارس كالنسور على جبالها، وهكذا فلم يبق عندهم للجهل أدنى مجال، ولا عار عندهم أقبح من قول الإنسان لا أعرف، فكل منهم ملزوم في شريعة حسن التربية أن يدري شيئا من التاريخ، وعلم الأرض، والحساب، وبعض أصول الهندسة لتوسيع دائرة أفكاره، وتقوية قوة إدراكه." <sup>2</sup>

إن التطور الذي آمن به الرحالة العرب في السياسة أو في الاقتصاد أو في الاجتماع، تطوير يحدثه العقل البشري وما توصل إليه من اختراعات واكتشافات. "كل هذا الجمال العجيب والكمال الغريب الذي رقت إليها هذه المدينة العظيمة إنما هو نتيجة ما بلغ إليه العقل عندهم من التقدم والنجاح. فلا ريب أن سلطان عقل هذا الجيل في هذه الديار قد جلس الآن على قمة كمال عرش كماله، وأخذ يشن على العالم غارات قواته ليفتح معادل الطبيعة، ويقلب ممالك الظلام" <sup>3</sup>.

## 2- تفوق أوروبا في العلوم المادية والعقلية :

لقد درست النخبة العاملة، وعلى رأسها الطهطاوي، وقرأت في الأزهر كتبا مثل صحيح البخاري والحكم لعطاء الله السكندري، ومتونا وشروحا كبيرة منها : جمع الجوامع في أصول الفقه، ومشارك الأنوار في الحديث، وشرحي الأشموني و ابن عقيل على ألفية ابن مالك، وتفسير الجلالين للسيوطي والمحلى، ولعل أكثر الكتب التي

1- الشدياق : كشف المخبأ عن فنون أوروبا....، مصدر سابق، ص. 50 .

2- المراه : رحلة إلى باريس ، مصدر سابق، ص. 46 .

3- نفس المصدر، ص . 45 .

قرأها الطهطاوي أصالة وابتكارا هو كتاب ، مغني اللبيب في النحو لابن هشام، أما أكثر الكتب التي أتاحت للطهطاوي آنذاك فكانت متونا وشروحا لمؤلفين متأخرين .

لا تعبر هذه الكتب عن التراث العربي إلا في صورة نادرة باهتة شاحبة، ولا تقدم منه إلا قدرا من النحو وقدرا من الفقه والحديث، وكأن المسلمين الذين بنوا حضارة الإسلام لم يشغلوا أنفسهم إلا بهذه العلوم التي عبروا عنها آنذاك بمصطلحي المعقول والمنقول. ولم يكن علماء الأزهر آنذاك علماء بالمعنى الحديث للكلمة، بل كانوا يدرسون ما لخصه مؤلفون متأخرون عن علماء متقدمين. وكان مفهوم "العالم" في المشرق، يطلق على الحافظ لمثل هذه المتون، العارف بشرح من شروحها، فإن أراد هذا العالم أن يكون عالما مؤلفا وضع الحواشي والتقريرات على الشروح والمتون، أو نظم المتن في منظومة تعليمية .

لذا كان طبيعيا أن يظهر هذا الفارق عند النخبة المشرقية بين العالم العربي الإسلامي والعالم الأوربي في العلوم، علوم الدين وعلوم الدنيا، لقد تفوقت "الأنا" في علوم الدين، في حين تفوق "الآخر" في علوم الدنيا. "الأنا" صاحب العلوم الشرعية "والآخر" صاحب العلوم الدنيوية، وإذا كان سبب قوة أوربا هو العلوم الدنيوية ، فإن سبب ضعف الأمة الإسلامية العربية هو ضياع هذه العلوم منها. لقد كان سبب استعمار الأوربيين عند الطهطاوي لأمريكا قدرتهم على ركوب البحر ومعرفة قواعد علوم الفلك والجغرافيا وحبهم للسفر والمغامرة ورغبتهم في المعاملات والتجارات، كما أتقن الإفرنج الرياضيات والطبيعات، بل أتقنوا ما وراء الطبيعات وأقاموا البراهين على خلود الأرواح واستحقاق الثواب والعقاب<sup>1</sup> .

كما أن الطهطاوي في نص رحلته، وهو في سياق حديثه عن عصور الجمود الفكري، وتغليب النخبة العالمة للعلوم الشرعية والنقلية على العلوم العقلية والطبيعية، حاول إبراز الواقع الحضاري للحضارة الفرنسية في هذه القضية لنقد الواقع المحلي والإشارة إلى ما هو أمثل، وفي ذلك يقول : "لا تتوهم أن علماء الفرنسيين هم القسوس، لأن القسوس إنما هم علماء في الدين فقط، وقد يوجد من القسوس من هو عالم أيضا، وأما من يطلق عليه اسم العالم ، فهو من له معرفة في العلوم العقلية التي من جملتها علم الأحكام والسياسات ومعرفة العلماء في فروع الديانة النصرانية هينة جدا، فإذا قيل في فرنسا هذا الإنسان عالم، لا يفهم منه أنه عالم في دينه. بل إنه يعرف علما من العلوم الأخرى"<sup>2</sup>.

1- الطهطاوي : تلخيص الإبريز ...، مصدر سابق، ص . 56 .

2- نفس المصدر، ص، 180.

وإذا كان الغرب قد برع في العلوم الرياضية والطبيعية ولم يهتد إلى طريق النجاة في الآخرة، فإننا قد برعنا في العلوم الدينية ولم نهتد إلى طريق الصلاح في الدنيا ، فالأمم الأوروبية كما أكد رفاعة قد "بلغت أقصى مراتب البراعة في العلوم الرياضية والطبيعية وما وراء الطبيعة أصولها وفروعها، ولبعضهم نوع مشاركة في بعض العلوم العربية"<sup>1</sup>، أما البلاد الإسلامية فإنها " قد برعت في العمل بالعلوم الشرعية والعمل بها .. وأهملت العلوم الحكيمة بجملتها"<sup>2</sup>.

وقد لاحظ علماء أوروبا أن "علماء الإسلام إنما يعرفون شريعتهم ولسانهم فحسب"، وذلك على الرغم من اعترافهم لنا "بأننا كنا أساتيدهم في سائر العلوم، وبقدمنا عليهم"<sup>3</sup>. ومع أن الفضل للمتقدم، إلا أن واقعا جديدا قد حصل وحدث، وهو أنه قد "قويت شوكة الإفرنج ببراعتهم وتدبيرهم ومعرفتهم في الحرايات واختراعاتهم فيها ... ولولا أن الإسلام منصور بقدرة الله سبحانه وتعالى لكان كل شيء بالنسبة لقوتهم وسوادهم وثروتهم وبراعتهم وغير ذلك"<sup>4</sup>. ونحن إذا نظرنا بعين الحقيقة رأينا "سائر هذه العلوم المعروفة معرفة تامة لهؤلاء الإفرنج ناقصة أو مجهولة بالكلية عندنا، ومن جهل شيئا فهو دون من أتقن ذلك الشيء، وكلما تكبر الإنسان عن تعلمه شيئا مات بحسرتة"<sup>5</sup>.

توقف الطهطاوي مطولا عند العلوم الطبية والأطباء ، مؤكدا لقراءه أن " الحكماء في باريس كثيرون جدا، حتى يوجد في كل خط<sup>6</sup> عدة حكماء. بل الطرق مملوءة من الحكماء، حتى أن الإنسان إذا أصيب في الطريق بداء فإنه لا بد أن يجد الحكيم حالا لكثرة الحكماء"<sup>7</sup>.

لكي لا يدع الطهطاوي فرصة لظان أنه يصف فقط حال الفرنسيين دون أن يعني نقد الوضع في الشرق، وحتى يمكن القارئ من الوقوف على حقيقة التفاوت بين فرنسا المتعلمة وبلدان المشرق الجاهلة على المستوى العلمي والمعرفي والفكري، استطرد الرحالة لينتقد صراحة تخلفنا وتأخرنا الذي يجعل من علمائنا ودور العلم عندنا،

---

1- نفسه.

2- نفسه.

3- نفس المصدر، ص 27.

4- نفس المصدر، ص 29 .

5- نفسه.

6 - يقصد شارع.

7- نفس المصدر ، ص.137 .

لا صلة لهم ولا لها بحقيقة العلوم، فتحدث إلى قارئه قائلاً : "وسيطظهر لك فضل هؤلاء النصارى، في العلوم  
عمن عداهم ، وبذلك تعرف خلو بلادنا عن كثير منها، وأن الجامع الأزهر المعمور، بمصر القاهرة، وجامع  
بني أمية بالشام، وجامع الزيتونة بتونس، وجامع القرويين بفاس، ومدارس بخارى، ونحو ذلك... كلها زاخرة  
بالعلوم النقلية وبعض العقلية، كعلوم العربية والمنطق ونحوه من العلوم الآلية."<sup>1</sup>

في نفس المنحى أكد الشدياق مشيراً بالإيماء أيضاً إلى مظهر من مظاهر أزمة التعليم بالمشرق العربي  
بقوله : "إن العلم عندهم لا يكون بمعرفة قواعد النحو والصرف أو بنظم قصائد، وإنما هو مطالعة اللغتين  
اليونانية واللاتينية ومعرفة أدبهما ومعرفة التاريخ والفلسفة والهندسة والرياضيات، فمن حصل ذلك فقد قبض  
على مفتاح الرزق، ومن اخترع شيئاً مفيداً فقد استغنى به وذلك إما أن يبيعه لأحد من الأغنياء،  
وإما أن يستبد بصنعه فلذلك كان العلم في أوروبا دائماً مورد الاستنباط والابتكار، بل كثير منهم يحرزون به  
لقب الشريف"<sup>2</sup>.

كما انتبه المشاركة أيضاً إلى أن منهج الأوروبيين في البحث العلمي، والذي كان أيضاً من أسباب تطور  
العلوم عندهم، فأكدوا أن الغربيين يعتمدون حرية البحث والتفكير، وأنهم يدققون ويتبحرون في المعارف، وأنهم  
يفسرون الحقائق العلمية دائماً بالسببية، ولذا يطمحون دائماً إلى تحطّي ذواتهم وما وصل إليه أسلافهم.

### 3- إشادة المشاركة بنجاعة المناهج اللغوية في أوروبا :

لعله من دقة التحليل وبعُد النظر أن أدرك الرحالة سر هذا الانتشار السلس للمعارف والعلوم، وجعلوا من  
بين أسباب ذلك سهولة تعلم اللغة. وهذه من بين الملاحظات الذكية والمبكرة التي لفتت انتباه الرحالة المشاركة  
وجعلتهم بذلك رجال تربية بامتياز، وفي غاية الاقتدار على المعالجة الإصلاحية ومقاربتها الشمولية. إن مشكلة  
اللغة العربية ليس في قدرتها على التكيّف مع التطور العلمي كما يروج خصومها من المتغربين والمنبهرين بأوروبا في  
بلادنا. فالعربية من هذه الناحية لها قدرة على التكيّف لا تُضاهى. لكن ما يشير إليه الرحالة هو مشكلة صعوبة  
تحصيلها بالنسبة للناشئة، بحيث تتأخر الاستفادة من التعرف عن طريقها على المعارف. فهي تستهلك من عمر  
متعلميها وجهدهم ما لا تستهلكه لغات أخرى مثل الفرنسية. مما جعل الطهطاوي يصرح بذلك: "ما يعين  
الفرنساوية على التقدم في العلوم والفنون سهولة لغتهم وسائر ما يكملها، فإن لغتهم لا تحتاج إلى معالجة

1- نفس المصدر، ص 180.

2- الشدياق فارس : كشف المخبأ عن فنون أوروبا....، مصدر سابق، ص . 140.



كثيرة في تعلمها، فأني إنسان له قابلية وملكة صحيحة يمكنه بعد تعلمها أن يطالع أي كتاب كان، حيث إنه لا التباس فيها أصلاً فهي غير متشابهة.<sup>1</sup>

فلا يحتاج المعلم إن أراد أن يدرس كتاباً أن يحل ألفاظه، فهي واضحة بينة. "وليس لكتب الفرنسيين شرح، ولا حواشي إلا نادراً، وقد يذكرون تعليقات خفيفة تكميلاً للعبارة. فالمتون من أول وهلة كافية في إفهام مدلولها. فإن شرع الإنسان في مطالعة كتاب في أي علم، تفرغ لفهم مسائل ذلك العلم وقواعده دون محاكاة الألفاظ، فيصرف همته في البحث عن موضوع العلم، وإما غير ذلك فهو ضياع. ليس لهذا الولوج بالعلوم والمعارف حد؛ بل هو شامل لكل الأشياء.. وهم يهتمون بالمعارف وفي كل علم وضعوا قاموساً لشرح المصطلح الخاص بذلك العلم"<sup>2</sup>. وقد بلغ ذلك حسب الطهطاوي حدّ "الهوس".

هذا الوصف يؤكد المشكل التربوي وعدم القدرة على تصيير اللغة وسيلة سهلة لتحصيل المعارف، التي يحتاج قارئها إلى معرفة الصرف والنحو والبيان والبديع وما إليها من علوم لغوية، علاوة على الحواشي والمتون والألفيات، ليقراها ويفهمها. ويبدو أن الطهطاوي أدرك من غيره بما ينتج عن الإغراق في هذه الشروح على المتون التي أرهقت العقل العربي وقيدت انطلاقته في رحاب الإبداع وحولت مشكلته المعرفية إلى مآزق لغوية.

كما انتقد الشدياق تحجر اللغويين في عصره، وتمسكهم بالشواذ من قواعد الصرف والنحو، وعاب تكلف الكتاب بالبيان والبديع، وبين أن الأسلوب الذي يروقه هو الأسلوب السهل الواضح.<sup>3</sup>

كما أن لغات الأوروبي حسب الشدياق "بنيت في الغالب على التمدن، والتمدن عندنا بني على اللغة" ولذا كانت لغاتهم "تحتوي على أسماء القديم والحديث من المخترعات والآلات وغيرها، على نقيض اللغة العربية"<sup>4</sup>.

واعتبر الرحالة مراش أن إتقان لغة من اللغات، نطقاً وكتابة، قضية مركزية في تقدم الأمم، إذ أن العقل لا يحقق ما يصبو إليه من دون لغة سليمة منضبطة اللفظ والمعنى. يقول: "والفرنسيون يتقنون لغتهم نطقاً وكتابة، وعلى كل منهم أن يعلم قواعد لغته، ويفهم أصولها، والذي يجهل ذلك يعتبر عندهم كالحیوان العديم النطق

---

1- الطهطاوي : تلخيص الإبريز ...، مصدر سابق، ص . 178.

2- نفسه .

3- الشدياق : كنز الرغائب، المطبعة الرحمانية، الطبعة الثانية، ج، 1، ص . 178 .

4- نفس المصدر، ص . 179.

لعدم معرفته صحة النطق، لأنه متى زاغ النطق زاغت الأفكار لوجود علاقة الدلالة بينهما، على أنه متى زاغ الدليل زاغ المدلول، فلا جرم إذا إن يعتبر زائع الفكر بھيمة لكون زيغان الأفكار دواما يستلزم زيغان الإنسانية"<sup>1</sup>.

وتقوده هذه الرؤية في أهمية اللغة، وارتباط الدليل والمدلول، إلى استنكار الإهانة والاحتقار اللذين يتعرض لهما "عندنا من له هوس ما في العلم، فيعيش فقيرا من دون دخل"، في حين أن العلم في أوروبا يقود إلى الشرف والثروة، والكرامة والارتقاء. "وكلما ازداد الشخص معرفة وتعمقا بلغته ازداد اعتبارا وكرامة وارتقاء إلى أن يجعلوه قاضيا في محكمة اللغة، بعد أن يمنحوه كل علامات الشرف والافتخار، وهكذا يفعلون مع مشاهير كل صنف من العلوم"<sup>2</sup>.

ثم يتأسف الرحالة المرآش ويبيدي حسرته لحال رجال العلم بالشرق العربي، فالعالم في الشرق محارب ومحتقر، وهو في باريس محترم ومقدر قائلا: "فيا لسوء حظنا نحن بني المشرق ويا لشدة نحسنا لأنه إذا وجدت الصدف عندنا من له هوس ما في العلم عاش مقطوع الخرج، وربما يحتقر ويهان فلا ينال من الشرف سوى الجهل به والسخرية. ولا يحصل على شيء من الجوائز سوى قول الناس عنه هذا نحوي بارد، أو شاعر مشعر، أو "بعرفينو" أو "فلفسوس". وإذا كان يروي شيئا من التاريخ يقولون عنه: هذا حكاكاتي تعبيرا عن الاحتقار"<sup>3</sup>.

#### 4- وصف المكتبات والجامعات والبرامج التعليمية :

وصف الرحالة العرب ما شاهدوه في الغرب من مدارس وأكاديميات وجامعات ومكتبات خاصة وعامة، داعين الحكومات والأفراد إلى الاقتداء بالأوروبيين في هذا المضمار. كما عرضوا مفصلين لأسماء العلوم والفنون التي اعتنى بها الفرنسيون، معرفين بموضوعاتها، ملخصين محتوياتها وبرامجها، موضحين الفرق بين مراحل التعليم المختلفة. أسهبت النخبة المشرقية في وصف المؤسسات والجامعات والمعاهد العلمية، ليثبتوا للقارئ أن هذه البنية التحتية العلمية التي تتوفر عليه أوروبا، هي أساس النهضة العلمية الأوروبية، والتي من مقوماتها مجامع العلماء،

1- المرآش: رحلة إلى باريس، مصدر سابق، صص. 40- 41 .

2- نفس المصدر، ص . 47 .

3- نفسه.

ويقصد بها الطهطاوي الأكاديميات والمعاهد، وهي في فرنسا خمسة : أكاديمية اللغة الفرنسية، أكاديمية العلوم الأدبية، أكاديمية العلوم الطبيعية والهندسية، أكاديمية الصنائع الحرفية، أكاديمية الفلسفة<sup>1</sup>. وبعد إسهابه في التفاصيل حتى المملة منها، انبرى الطهطاوي يشرح أسباب تقدم فرنسا، من خلال تقدم العلوم فيها التي لم تنس حتى فاقد البصر فجعلت لهم " مكتب العميان السلطاني". ولكي تكون نظرتهم للعلوم متكاملة، اعتبر أن عمل المدارس والأكاديميات (الكليات) والمكتبات العمومية، مكمل بمحامل أخرى مثل "الجرنالات" وهي الصحف، والمجلات وسائر الدوريات.

استمر إنبهار وإعجاب النخبة المشرقية بالمؤسسات العلمية والأكاديمية في أوروبا، فقد أكد جرجي زيدان في بدايات القرن العشرين، أن للحكومة الفرنسية عناية كبرى في التعليم تنفق في سبيل ذلك الأموال الطائلة على يد نظارة المعارف، والمدارس عندها طبقات : "مكاتب - كتاتيب - ومدارس ابتدائية وثانوية وعالية. وتحدث عن نظام التعليم في الجامعة، الذي هو حر مطلق بناء على قرارات رسمية صدر آخرها سنة 1897، والجامعة عندهم تحتها كليات ومدارس تختلف أسماؤها باختلاف مواضيعها"<sup>2</sup>.

وبعد إسهابه في الحديث عن الكليات والمدارس بفرنسا وانجلترا عبر جرجي زيدان في نصه الرحلي، عن حدة وعيه بالتفاوت الحضاري في المجال العلمي بقوله : "والاطلاع على أسماء هذه المدارس يدل وحده على الفرق العظيم بين التعليم عندنا وفي تلك المملكة الراقية، فقد ذكرنا عشرات من المدارس الابتدائية والثانوية التي عندنا مثلها. على أن مدارسنا هذه أحط كثيرا من أمثالها عند الفرنسيين، والابتدائية أقل كثيرا من المدارس الابتدائية عندهم، والمدارس الثانوية كذلك، وحامل البكالوريا المصرية أقل معرفة من حامل البكالوريا الفرنسية... فالتعليم عندنا ضعيف جدا من كل وجه"<sup>3</sup>.

ومن مظاهر انتشار المعرفة والتعليم بأوروبا انتشار المكتبات وخزانات الكتب، وتعميم التعليم وبناء المدارس وشيوع القراءة والكتابة ومحو الأمية وازدهار تجارة الكتب وتراكم التأليف والإبداع الأدبي، وهذا الذي أثار انتباه الرحالة المشاركة، ولا يزال مطلب إصلاحيا لم يتحقق حتى اليوم في بلداننا التي تواجه عجزا في تعميم التمدرس ومحاربة الأمية والتشجيع على العلم والتعلم والنهوض بالمؤسسات الثقافية، لا سيما المكتبات والخزانات، وهو كاف

1- الطهطاوي، تلخيص الإبريز...، مصدر سابق، صص . 184-185.

2- زيدان : رحلة إلى أوروبا، مصدر سابق، صص . 28-29.

3- نفسه .

لوضعنا أمام واقع تخلفنا وحتمية انهزامنا الحضاري أمام أمم أسست لانطلاقتها في رحاب المدنية والحضارة. يقول الطهطاوي : "ولندكر لك مجامع العلماء والمدارس المشهورة وخزائن الكتب ونحو ذلك، لتعرف به مزية الإفرنج على غيرهم، فمن خزائن الكتب الخزانة السلطانية . وفيها سائر ما أمكن الفرنساوية تحصيله"<sup>1</sup>.

ويضيف مسهباً ومبدياً انبهاره وحسرتة لافتقاده وطنه لمثل هذه المؤسسات "ومن خزائن الكتب الخزانة المسماة خزانة مسيو، وتسمى خزانة الإرسال، ومعنى الإرسال ترسانة، وهي أعظم الخزائن بعد الخزانة السلطانية، وبها نحو مائتي ألف مجلد مطبوعة، وعشرة آلاف منسوخة (...). ومنها خزانة مزارية، وفيها خمسة وتسعون ألف مجلد مطبوعة، وأربعة آلاف منسوخة، ومنها خزانة الأنسيطوت، أي دار العلوم، وفيها خمسون ألف مجلد، ومنها خزانة المدنية وهي نحو ستة عشر ألف مجلد في العلوم الطبيعية، ومنها خزانة الرصد السلطاني وفيها كتب علم... ولكل إنسان من العلماء أو الطلبة أو الأغنياء خزانة كتب على قدر حاله، ويندر وجود إنسان بباريس من غير أن يكون تحت ملكه شيء من الكتب، لما أن سائر الناس تعرف القراءة والكتابة، وسائر بيوت الأعيان فيها خلوة مشتملة على خزانة الكتب، وعلى آلات العلوم وأدواتها، وعلى التحف الغربية التي تتعلق بالفنون"<sup>2</sup>.

ولتسهيل الدراسة والمطالعات ، أشار المرآش إلى أنهم " قد أقاموا في كل جانب من المدينة مكتبة عظيمة تحوي من الكتب كل ما يطلبه القارئ، وكل هذه المكاتب معدة لقبول الجمهور مطلقاً، فيدخل الناس إليه أفواجا، ويقرؤون ما يريدون، وينسخون ما يشتهون بكل راحة وهدوء بال "<sup>3</sup>.

ما أثار محمد عبده في رحلته إلى صقلية، أثناء زيارته لدار "مخطوطات الدولة"، هو حرصهم على حفظ المخطوطات، وفي وصفها يقول : "...وهي مثل الدفترخانة عندنا، إلا أنها لم تبع أوراقها ولا دفاترها لا بالقنطار ولا بالرطل كما فعل بالدفترخانة المصرية، بل هي محفوظة على ما كانت عليه من عدة قرون، لا يفرط في ورقة واحدة منها "<sup>4</sup>.

---

1- الطهطاوي : تلخيص الإبريز ...، مصدر سابق ، صص . 181.

2- نفس المصدر ، ص ، 182.

3- المرآش : رحلة إلى باريس ، مصدر سابق، ص . 45

4 عبده :رحلة في صقلية، مصدر سابق ، ج ، 2 ، ص . 181 .

## المطلب الثالث : وعي المشاركة بالفارق الحضاري في مجال الثقافة والفنون .

اهتمت النخبة المشرقية في نصوصها الرحلية، ولو بدرجات متفاوتة، بعدد من مظاهر الحياة الثقافية في أوروبا، وعلى رأسها المعاهد العلمية والفنون الجميلة والمسرح ثم الصحافة الغربية.

### 1 – المسرح:

عرف العالم العربي المسرح الحديث، عن طريق مصر، في عهد نابليون بونابرت ، الذي استقدم فرقة من الممثلين الفرنسيين، وقاموا بالتمثيل في منزل كريم بك ببولاق. وبعد أيام أنشأت الحملة الفرنسية مسرحاً في الأزبكية، أطلقوا عليه اسم مسرح الجمهورية والفنون، وعن هذا المسرح يقول محمد سيد كيلاني : " أنشأ نابليون مسرحاً ضخماً بوجه البركة مثلت فيه الروايات باللغة الفرنسية ترفيها عن الجنود وتسلية لهم<sup>1</sup> " ويحفظ لنا التاريخ اسم مسرحيتين تم تمثيلهما به وهما: "الطحانين" و"بونابرت في القاهرة". وقد اشترك في تمثيل المسرحية الثانية أغلب علماء فرنسا بمصر، وفي هذا الوقت تأتي إلينا أقدم إشارة عربية عن مسرح الحملة الفرنسية، وهي ما ذكره الجبرتي في تاريخه ضمن حوادث شهر شعبان عام 1215هـ، قائلاً: " وفيه كمل المكان الذي أنشأه بالأزبكية عند المكان المعروف بباب الهواء وهو المسمى في لغتهم بالكمدى وهو عبارة عن محل يجتمعون به كل عشر ليال ليلة واحدة يتفرجون به على ملاعب يلعبها جماعة منهم بقصد التسلي والملاهي مقدار أربع ساعات من الليل وذلك بلغتهم ولا يدخل أحد إليه إلا بورقة معلومة وهيئة مخصوصة"<sup>2</sup>.

لقد عنت النخبة المشرقية بالمسرح أكثر من عنايتهما بالفنون الجميلة ، ولعل ذلك عائد إلى أن المسرح كان فناً جديداً كل الجدة بالنسبة إلى الإنسان العربي، والدليل على ذلك خلو اللغة العربية من مصطلح يترجمه، فسماه الطهطاوي والشدياق " تياترو" ونعته فتح الله مرآش " استحضارات واستظهارات" وأحياناً "مرسحا".  
نبه الطهطاوي في وقت مبكر إلى أهمية المسرح، وما يقدم على خشبته من العروض التمثيلية الجادة والهزلية، وما تهدف إليه من تهذيب أخلاقي "فإن الإنسان يأخذ منها عبرة عجيبة، وذلك لأنه يرى فيها سائر الأعمال الصالحة والسيئة... حتى أن الفرنسيين يقولون إنها تؤدب أخلاق الناس وتهذبها، فهي وإن كانت مشتملة

1- كيلاني محمد سيد : في ربوع الأزبكية، دار العرب للبستاني، مصر، الطبعة الأولى، 1958 م، ص . 108 .

2- الجبرتي : المصدر السابق، الجزء الثالث، ص . 202.

على المضحكات فكهم فيها من المبكيات ومن المكتوب على "الستارة" التي ترجى بعد فراغ اللعب، قد تنصلح العوائد باللعب، فالنيابة عندهم كالمدرسة العامة يتعلم فيها الجاهل والعالم".<sup>1</sup>

ويخبرنا الطهطاوي بأن باريس تتوفر لوحدها على عدد كبير من المسارح، التي يقبل عليها الناس إقبالا عظيما، وعيا منهم بأهميتها في التربية والتعليم قائلا: "ففي مدينة باريس العديد من المسارح "التياترات" التي يقبل عليها الناس إقبالا عظيما. وصورة هذه التياترات أنها بيوت عظيمة لها قبة عظيمة، وفيها عدة أدوار، كل دور له أود موضوعة حول القبة من داخله. وفي جانب من البيت مقعد متسع يطل عليه من سائر هذه الأود بحيث إن سائر ما يقع فيه يراه من هو في داخل البيت"<sup>2</sup>. ولهذا المسارح حسب الطهطاوي "تصاميم داخلية متقنة والممثلون يرتدون الملابس المناسبة للأدوار التي يمثلونها، وهو منور بالنجفات العظيمة..<sup>3</sup>.

كما أخبر قراءه بأن باريس يوجد فيها أماكن للرقص والغناء ودور للأوبرا وحدائق للنزهة ومعارض للسيرك سماها سبكتاكلات يلعب فيها الخيل والفيلة ونحوها "ولو لم تشتمل التياتر في فرنسا على كثير من النزعات الشيطانية لكانت تعد من الفضائل العظيمة الفائدة"<sup>4</sup>.

إذا كان الطهطاوي قد أفرد في نصه الرحلي ثلاث صفحات للمسرح الأوروبي، فإن علي مبارك باشا قد خصه بالحديث في واحد وخمسين صفحة<sup>5</sup>، الأمر الذي أتاح له أن يقدم من التفاصيل عن نشأة المسرح ووصفه ودوره ما لا نجده عند الطهطاوي، حيث تحدث عن نشأة المسرح وتاريخه قديما وحديثا، وأنواعه وفنونه، كما أبرز وظيفته الترفيهية والتربوية، ولفت انتباه القارئ إلى مدى إهتمام الدولة بالمسرح، ودعمها المادي لدوره الشهيرة، مثل أوبرا باريس، كما تناول أهم الكتب والحكايات المسرحية، والتي كادت أن تفوق ما ألف في غيره من باقي العلوم والفنون.

ولم يفت علي مبارك أن يورد في كتابه "علم الدين" ملخصا وافيا لإحدى المسرحيات الدرامية التي مثلت على مسرح باريس. وإليك بعضا من كلامه الذي يثبت تأثره البالغ بما يمثل على خشبة المسرح، ووعيه الكامل لوظيفته التربوية في نشر القيم والأخلاق الفاضلة، يقول علي مبارك: "...فمن ذا الذي لا يرجف قلبه

---

1- الطهطاوي رفاة: تلخيص الإبريز...، مصدر سابق، ص. 139.

2- نفسه.

3- المصدر نفسه، ص. 140.

4- نفس المصدر، ص. 141.

5- المسامرة السابعة والعشرون والتي سماها "التياتر" انظر الأعمال الكاملة، المجلد الأول، صص، 154-204.

وتضطرب مفاصله حين يرى فعل قاتل النفس عند القتل ؟ وأي نفس لا تتأثر وقلب لا يتحرك وجلده لا يقشعر عند معاينته قاتل الولد الوالد للحصول على بعض الأغراض والمفاسد ؟ وأي همة لا تتحرك عند رؤية فاضل كريم من الناس يفدي غيره بروحه وماله ؟ وأي عقل لا يستفزه حب الفضل وأهله وكل متمسك بجبله عند مشاهدة تجرد الأفاضل من الرجال من حياتهم ومالمهم وعبالمهم لتخليص وطنه وأهله من سطوة الأعداء المفسدين وقهر الجبابرة المتمردين ". ليخلص من خلال هذا الكلام إلى الإقرار بفرادة الوظيفة التربوية التي يضطلع بها المسرح قائلًا : "كل هذه الأمور لا يخفى تأثيرها في القلب وفعلها في النفس ، وليس لها غير " التياتر " ما يكشف حقيقتها ويعطيها قوتها"<sup>1</sup>.

ولقد كان فارس الشدياق من أكثر الرحالة المشاركة اهتماما وعناية بفن المسرح ، وصف مثلا مسرح الإيماء، وبين عن إحساس مرهف وذوق ناضج إذ استطاع أن يدرك " أن للإشارات شجونا وفنونا أكثر من الكلام ولا تكاد تدخل تحت حد وتعريف ولا تنتهي إلى مدى"، ويضيف قائلًا عن المسرح: "ومن أحسن ما رأيته في هذه المواضع على كثرة ترددي إليها، تمثيلهم فتح الإسبانيولين مدينة بيرو في أميركا واجتماع أهلها في هيكل لهم يسمى هيكل الشمس للاستغاثة بها على العدو، فجعلوا دائرة جهة المشرق شبيهة بالشمس ولها شعاع بهي وبين يديها مذبح عليه شعلة نار سنية. وقام كاهنهم يحضهم على القتال ثم اندفعت الرجال والنساء يرتلون لها ترتيلا مطربا وكانوا جمعا عظيما حيث المكان يتزلزل لأصواتهم."<sup>2</sup>

كذلك تناول المسرح العادي، فوصف موضوع المسرحيات التاريخية والأدبية وأساليب إخراج المسرحية، وفن الآداب والتمثيل وأوضح الفرق بين التراجيدي والكوميدي وعرض للغة المسرح في البلاد الأوروبية، وأصل المسرح عند اليونان ، وقارن بين المسرح الإنجليزي والفرنسي.<sup>3</sup>

ثم إن الشدياق تميز عن بقية رحالينا أنه نقد المسرحيات نقدا فنيا تناول الموضوع والعقدة وحسن حيكها وقيمة الفكاهة فيها، "وقد جرت العادة بأن ابتداء اللعب يكون غالبا في الساعة السابعة وختامه بعد الحادية عشر، وكان كثير من ألعابهم سخيفا، فلو قصرنا الوقت وأجادوا اللعب، لكان أولى"<sup>4</sup>.

1- المصدر نفسه، ص . 178 .

2- الشدياق : كشف المخبأ ...، مصدر سابق، ص . 312 .

3- نفس المصدر، ص . 309 .

4- نفسه.

كما بين العلاقة بين لغة المسرح والحياة فجاءت معظم آرائه في هذا المضمار صائبة تنم عن فهم عميق وتقسيم لهذا الفن الجديد بالنسبة للعرب، ومن هذا المثل قوله في لغة المسرح : "إن في هذا التمثيل يكسب كلام الشاعر رونقا أكثر مما بقي في الكتب أو أنشد مجرد إنشاد"<sup>1</sup>.

وقد حاول الشدياق أن يؤصل للمسرح الغربي في التراث العربي، تمهيدا لدعوته باقتباس المسرح ونقله إلى المجتمع العربي الإسلامي، فقال: "ولا شك أن مبدأ الملاهي عند اليونان كان مثل اجتماع العرب في عكاظ، ثم توسعوا فيها، فإن جميع العلوم والفنون، بل الأديان نفسها، تكون في مبدئها ضعيفة"<sup>2</sup>.

تمنى الشدياق لو تنبه العرب إلى أهميته ، عندما نقلوا عن اليونان الفلسفة وسواها "وبودي لو كانت العرب نقلت عن اليونانيين شيئا من هذه المحاورات كما نقلوا عنهم الفلسفة أو أنهم ألفوا فيها"<sup>3</sup>.

لفت رحالة مشرقي آخر، وهو محمد كرد علي<sup>4</sup>، الذي جال بلدان أوروبا، وكتب حولها نصا رحليا ممتعا وسمه ب"غرائب الغرب"<sup>5</sup> إلى أهمية المسرح في التربية والتهديب الأخلاقيين بقوله : "وكنت كلما ألفت اصطلاحاتهم في أحاديثهم وحركاتهم وسكناتهم ومظاهرهم ورقصهم وغناهم، تبين لي سر تغالي الغربيين بالتمثيل، وأنه حقيقة مدرسة تهذيب وفضيلة عملية ودار سلوى وارتياح أرواح، فلا عجب إذ عدوه من أكبر العوامل في نوضهم وتثقيف مجتمعاتهم ، وشغفوا بفصوله ، ولا شغف الشرقي، بفضوله، وحرص الفرد منهم

---

1- نفس المصدر، ص . 310 .

2- نفسه .

3- نفسه .

4- كرد علي محمد، ( 1876م\_ 1953 ) ، مفكر سوري من رجال الأدب والفكر، ومن أشد المدافعين عن اللغة العربية، أول وزير للمعارف والتربية بسوريا، اضطر إلى مغادرة الشام في خريف 1908 ، بعد أن نشر في " المقتبس " مقالة أغضبت الوالي العثماني ، فصادر الوالي الصحيفة وأغلق المطبعة . وزار كرد علي بعض المدن الفرنسية، ثم سافر إلى الآستانة ، وعاد إلى وطنه في مطلع 1909 . ورحل ثانيا إلى إيطاليا سنة 1914 لمطالعة الكتب والمخطوطات الثمينة في مكتبة المستشرق الإيطالي الأمير ليوني كيتاني، حتى يتمكن من وضع كتابه "خطط الشام" . تم نوجه إلى سويسرا ، وبعدها زار فرنسا والمجر وأثينا ، وقد ضمن الجزء الأول من كتابه " غرائب الغرب " مشاهداته وانطباعاته في هذه الرحلات كلها . لمزيد من التفاصيل عن حياة محمد كرد علي ينظر: أعلام الزركلي ، مرجع سابق، ج 7 ، ص ، 73 .

5- كرد، علي محمد : غرائب الغرب، المكتبة الأهلية، مصر، الطبعة الأولى، 1923 م، ج ، 1 .



على ساعاته حرصه على عزيز أوقاته"<sup>1</sup>. ويضيف معددا فضائل المسرح الغربي ومزاياه : "ولقد كنت أتمثل نفسي في حضرة أعظم فصحاء الأرض وعلماء الاجتماع والنفوس، ساعة تنتهي إلى مسمعي أصوات الممثلين والممثلات، وتتفتق ألسنتهم بكلمات الحكمة والأدب. ويشخصون الفضيلة في أبهى مظاهرها، كأنك تراها. فلا أتمالك من توقيير الممثلين والممثلات وإكبار فائدة التمثيل في المدارس لتنشئة الصغار، في وقت معين من السن. ودور التمثيل مدارس دائمة للصغار والكبار تلقنهم من أيسر السبل حكمة وآدابا وتلقنهم عبرة مفيدة وفكاهة رشيدة "<sup>2</sup>

## 2 – الفنون الجميلة.

أول ما يلفت نظرنا في هذا المضممار هو الاختلاف بين المسيحي والمسلم في موقفهما من فن الرسم والنحت. ففيما أشار المراس الحلي الى التماثيل المرمية التي تزين البرك في باريس، ووصف وصفا مفصلا بعض تماثيل اللوفر، واللوحات والنقش في باريس<sup>3</sup>، أغفل الطهطاوي تماما كل روائع الرسم والنحت في العاصمة الفرنسية، مع أنه عرض للفنون الجميلة الأخرى .

إلا أنه مع تنامي التواصل بين المشاركة والأوروبيين ، ازداد اهتمام الرحالة بالفنون الجميلة، وأولوا عناية خاصة باللوحات والتماثيل التي شاهدوها في معارض أوروبا ومتاحفها وحدائقها وشوارعها، ولم يسقطوا من أوصافهم الكنائس الرائعة التي لم يأت الطهطاوي وعلي مبارك على ذكرها. فأشاروا أحيانا إلى طرازها الهندسي، ووصفوا ما زينها من صور وتماثيل وما فيها من تحف قيمة. ثم وصفوا التحف في متاحف أوروبا المختلفة، والآثار الهندسية والتاريخية التي زينت المدن والساحات العامة، كالقصور والدور الأثرية والفنية والأقواس والجسور والأعمدة، وآثار اليونان والرومان، أو القصور والجوامع العربية في الأندلس، وأشاد بعضهم بعناية الغربيين بتنسيق الحدائق والمدن تنسيقا فنيا رائعا.

إن العناية الكبرى التي وجهها أفراد النخبة العاملة إلى مختلف الفنون الجميلة، تكشف مدى تأثرهم بالثقافة الغربية التي تلعب فيها هذه الفنون الجميلة دورا هاما، إذ شعروا أن الفنون الجميلة عامة مظهر من مظاهر التجاوز الحضاري. كما حاول أفراد آخرون أن يثبتوا فضل العرب على الغربيين في هذا المضممار، وأن أوروبا مدينة للعرب

1- نفس المصدر، ص. 136 .

2- نفس المصدر، ص. 137.

3- المراس: رحلة إلى باريس، مصدر سابق، ص. 21 .

بتطورها الفني ، فبينوا الأثر البعيد الذي تركته الفنون الإسلامية في هندسة أوروبا وحرفها اليدوية، كما أكدوا أن الحضارة الإسلامية خلفت في أوروبا المسيحية حركة قوية انبثقت منها نهضة أوروبا الفنية والأدبية. فلولا شعور رحالينا بأن تأخر الفنون من مظاهر التأخر الحضاري كله، لما فخرنا بفنون العرب القدامى هذا الفخر كله.

أثنى محمد عبده صاحب "رحلة في صقلية"، على اهتمامهم بحفظ آثارهم ومخطوطاتهم، وفي هذا يقول: "فلهؤلاء القوم حرص غريب على حفظ الصور المرسومة على الورق والنسيج، ويوجد في دار الآثار عند الأمم الكبرى ما لا يوجد عند الأمم الصغرى كالصقليين مثلا، يحققون تاريخ رسمها، واليد التي رسمتها ، ولهم تنافس في اقتناء ذلك غريب، حتى إن القطعة الواحدة من رسم "روفائيل"، مثلا ربما تساوي مئتين من الآلاف في بعض المتاحف، ولا يهتمك معرفة القيمة بالتحقيق، وإنما المهم هو التنافس في اقتناء الأمم لهذه النقوش، وعد ما أتقن منها من أفضل ما ترك المتقدم للتأخر، وكذلك الحال في التماثيل، وكلما قدم المتروك من ذلك كان أعلى قيمة ، وكان القوم عليه أشد حرصا ."<sup>1</sup>

وعن سر اهتمام الأوروبيين بالتماثيل والصور يقول الإمام عبده : " وهل تدري لماذا ؟ إذا كنت تدري السبب في حفظ سلفك للشعر وضبطه في دواوينه والمبالغة في تحريره ، خصوصا شعر الجاهلية، وما عني الأوائل رحمهم الله بجمعه وترتيبه، أمكنك أن تعرف السبب في محافظة القوم على هذه المصنوعات من الرسم والتماثيل، فإن الرسم ضرب من الشعر الذي يرى ولا يسمع، والشعر ضرب من الرسم الذي يسمع ولا يرى، إن هذه الرسوم حفظت من أحوال الجماعات في المواقع المتنوعة، ما تستحق به أن تسمى ديوان الهيئات والأحوال البشرية"<sup>2</sup> .

ليخلص بعد ذلك إلى هذا الحكم الذي يدل حقيقة على مدى إعجاب النخبة المصرية بالفنون الجميلة، ووقوفها على حقيقة التجاوز الحضاري للمجتمعات الإسلامية، الذي كان شاملا لكل الجوانب والمجالات، بما فيها الجانب الثقافي والفني، يقول عبده بعد شرح مستفيض لدلالات ورموز بعض التماثيل والصور : " فحفظ هذه الآثار حفظ للعلم في الحقيقة، وشكر لصاحب الصنعة على الإبداع فيها"<sup>3</sup>.

1- عبده : المصدر السابق، المجلد الثالث، ص. 197 .

2- نفس المصدر، ص . 198 .

3- نفس المصدر، صص . 198 - 199 .

يظهر أن رحلات الأستاذ محمد عبده إلى أوروبا اجتذبت نظره إلى جهات من الجمال كان مصروفًا عنها، فلم يلبث أن أدرك بجهتها بذوقه اللطيف، مما دفعه إلى تناول قضية موقف الإسلام من هذه الفنون وأصحابها، فيدلي بالقول الفصل في فائدتها، ومن ثم حلها، وذلك لتغيير الملابس والعلل التي دعت إلى نفور المسلمين منها في عصر البعثة النبوية، يوم كانت الرسوم والصور والتمائيل إنما تتخذ كي تعبد من دون الله، أو على الأقل كانت مظنة شبهة، لتعظيمها دينيا، فكان أن نهي عنها الرسول صلى الله عليه وسلم، أما الآن وبعد زوال هذا الخطر بالكلية، وبعد أن لم تعد الرسوم والتمائيل مظنة شبهة العبادة أو التعظيم الديني، وبعد أن وضحت وتأكدت منافعها في ترقية أذواق الأمة وحفظ حقائق تاريخها وعلومها، فإن رضاء الإسلام ومباركته لها، أمر لا شك فيه. يقول: "ربما تعرض لك مسألة عند قراءة هذا الكلام، وهي ما حكم هذه الصور في الشريعة الإسلامية، إذا كان القصد منها ما ذكر من تصوير هيئات البشر في انفعالاتهم النفسية، وأوضاعهم الجسمانية، هل هذا حرام؟ أو جائز؟ أو مكروه؟ أو مندوب؟ أو واجب؟ فأقول لك: إن الراسم قد رسم والفائدة محققة لا نزاع فيها، ومعنى العبادة وتعظيم الصورة أو التمثال قد محى من الأذهان، فإما أن تفهم الحكم من نفسك بعد ظهور الواقعة، وإما أن ترفع سؤالاً إلى المفتي وهو يجيبك مشافهة، فإذا أوردت عليه حديث "إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون" فالذي يغلب على ظني أنه سيقول لك أن الحديث جاء في أيام الوثنية، وكانت الصور تتخذ في ذلك العهد لسبيين: الأول: اللهو، والثاني: التبرك بتمثال من ترسم صورته من الصالحين، والأول مما يبغضه الدين، والثاني مما جاء الإسلام نحوه، والمصور في الحالتين شاغل عن الله أو ممهّد للإشراك به، فإذا زال هذان العارضان وقصدت الفائدة، كان تصوير الأشخاص بمنزلة تصوير النبات والشجر في المصنوعات"<sup>1</sup>.

أما الحديث الذي يخبر فيه الرسول صلى الله عليه وسلم بأن الملائكة لا تدخل بيتا فيه صور، فلا يدل على التحريم لتغيير العلل والأحوال، يقول الإمام عبده: "...أما إذا أردت أن ترتكب بعض السيئات في محل فيه الصور، طمعا في أن الملكين الكاتبين، أو كاتب السيئات على الأقل لا يدخلوا محلا فيه صور كما ورد، فإياك أن تظن أن ذلك ينجيك من إحصاء ما تفعل؟ فإن الله رقيب عليك وناظر إليك حتى في البيت الذي فيه صور، ولا أظن أن الملك يتأخر عن مرافقتك إذا تعمدت دخول البيت الذي فيه صور"<sup>2</sup>. ويضيف معللا

1- نفس المصدر، ص 200.

2- نفس المصدر، ص 201.

شرعية الفنون الجميلة وعدم مخالفتها لروح الإسلام : "ولا يمكنك أن تجيب المفتي : بأن الصورة على كل حال، مظنة العبادة، فإني أظن أنه يقول لك : إن لسانك ، أيضا، مظنة الكذب ، فهل يجب ربطه ؟ مع أنه يجوز أن يصدق كما يجوز أن يكذب"<sup>1</sup>. ليخلص بعد مناقشته للأدلة واعتماد منهج التعليل والترجيح، إلى الإفتاء بجواز هذه الفنون، وعدم مخالفتها للشرعية الإسلامية، لاسيما بعد ذهاب خشية عبادة شخصها، ومن ثم غدت سبلا لترقية الذوق وحفظ التاريخ ، فهي برأي الإمام ذاكرة الأمة التاريخية والفكرية . وفي ذلك يقول محمد عبده: "وبالجملة إنه يغلب على ظني أن الشريعة الإسلامية أبعد من أن تحرم وسيلة من أفضل وسائل العلم، بعد تحقيق أنه لا خطر فيها على الدين لا من جهة العقيدة ولا من جهة العلم.... وليس هناك ما يمنع المسلمين من الجمع بين عقيدة التوحيد ورسم صورة الإنسان والحيوان لتحقيق المعاني العلمية وتمثيل الصور الذهنية"<sup>2</sup>. هكذا صاغ محمد عبده، في الفنون التشكيلية ما يشبه الفتوى الشرعية، فأقر أنها أداة لحفظ الحقيقة العملية والتاريخية، بل هي وسيلة من أعظم وسائل العلم، وأنها فنون راقية ترتقي بذوق الإنسان، كما يرتقى به فن الشعر، وغيره من الفنون التي ليس على الإبداع فيها كلام ولا ملام في الإسلام .

### 3- الإعلام والصحافة الأوروبية :

رأى الطهطاوي الصحف لأول مرة أثناء إقامته في باريس، فسماها جرنال وجمعها جرنالات، ووصفها لمواطنيه مبينا أنواعها، وكيف تباع وتشترى، وعرف محتوياتها وكذبها أحيانا . وهذا يوضح أن المواطن المصري خاصة والعربي عامة لم يكن يعرفها في بلاده. يقول الطهطاوي: "وأما المادة الثامنة فإنها تقوي كل إنسان على أن يظهر رأيه وعمله وسائر ما يخطر بباله مما لا يضر غيره، فيعلم الإنسان سائر ما في نفس صاحبه، خصوصا الورقات اليومية المسماة بالجرنالات والكازيطات، فإن الإنسان يعرف منها جميع الأخبار المتجددة، سواء أكانت داخلية أو خارجية، أي داخل المملكة أو خارجها، وإن كان قد يوجد فيها من الكذب ما لا يحصى"<sup>3</sup>. كما أبرز بعض ثمارها وفوائدها قائلا : "ومن فوائدها، أن الإنسان إذا فعل عظيما أو ردينا وكان من الأمور المهمة، كتبه أهل الجرنال ليكون معلوما للخاص والعام ، لترغيب صاحب العمل الطيب، وردع صاحب الفعلة الخبيثة. وكذلك إذا كان الإنسان مظلوما من إنسان، كتب مظلمته في هذه الورقات، فيطلع عليها الخاص

1- نفسه.

2- نفس المصدر ، ص . 202 .

3- الطهطاوي رفاة : تلخيص الإبريز ...، مصدر سابق ، ص . 125 .

والعام فيعرف قصة المظلوم والظالم، من غير عدول عما وقع فيها ولا تبديل، وتصل إلى محل الحكم ويحكم فيها بحسب القوانين المقررة، فيكون مثل هذا الأمر عبرة لمن اعتبر"<sup>1</sup>.

أشادت ونوهت النخبة المشرقية أيضا بحركية ودينامية الصحافة والطباعة والنشر في البلاد التي زاروها، فالشدياق قد أبدى إعجابه وانبهاره بتطور قطاع الصحافة في إنجلترا فقال : " وكانت الآلة المفردة تطبع على وجه واحد في كل ساعة ألفا وأربعمائة صحيفة، ثم قام مستر لتل و اخترع آلة مزدوجة يطبع بها في الساعة من عشرة آلاف صحيفة إلى اثني عشر ألفا، وفي بلاد أميركا مطبعة تطبع في الساعة عشرين ألف صحيفة ما بين جرنال وغيره...والحقيقة فإن جميع ما اخترع من الصنائع في هذا العالم هو دون صناعة الطبع، نعم إن الأقدمين بنوا أهراما ونصبوا أعلاما وشادوا هياكل وحصنوا معاقل وحفروا خلجانا وأقنية للماء ومهدوا مسالك للعساكر، إلا أن صنائعهم تلك بالنسبة إلى صناعة الطبع، إن هي إلا درجة ترق فوق درجات " <sup>2</sup>.

في أواخر القرن التاسع عشر لم تبق الصحافة ظاهرة جديدة بالنسبة للزائر العربي، الذي ساح في أقطار أوروبا، فتم التركيز على حرية الصحافة في الغرب، وبين أن الغرض من هذه الحرية هو انتقاد النقص في الحكومة أو في الشعب، ليتسنى الإصلاح، حيث أشار محمد كرد علي إلى أن "حرية الضمير والرأي والعبادة مضمونة في أرض سويسرا، بموجب قانون الاتحاد السويسري الأساسي ولكن لا بصورة مبهمة، بل إن لكل مديرية قانونها الخاص للاجتماع والدين والصحافة ، ينظر فيه حين بعد الآخر، ويطبق بحسن ارتقاء الشعب وأخلاقه. وحرية الصحافة لم تنقلب قط إلى عدااء ومماحكات، ومع شدة الانتقاد والجدال في المنازع السياسية. فإن لهذا حدا تقف عنده لا تتعداه أعظم الصحف السويسرية. لذلك كانت صحافتهم على صورة لا تشبه صحافة الأمم الأخرى، وربما كانت هي والصحف الإنجليزية صحف الحرية الحقيقية مع الاعتدال الغريب"<sup>3</sup> .

لم نعثر خلال رصدنا لمواقف الرحالة المشاركة على مأخذ على حرية الصحافة سوى عند فارس الشدياق، وذلك لأسباب أخلاقية، فانتقد صحيفة دافع أحد محرريها على العلاقة الجنسية بين غير المتزوجين، وتهجم على مؤسسة الزواج<sup>4</sup> . ولكن هذا المأخذ لم يدفع الشدياق قط إلى المطالبة بالحد من حرية الصحافة .

---

1- نفسه.

2- الشدياق فارس : كشف المخبأ عن فنون أوروبا....، مصدر سابق، ص . 353 .

3- كرد علي : المصدر السابق، ص . 234 .

4- الشدياق: كشف المخبأ عن فنون أوروبا....، مصدر سابق، ص . 325 .

لقد أحس الرحالة جميعا بحاجة بلدانهم الماسة إلى هذا السلاح الفكري، الذي يعمل على تنبيه الشعب من غفلته والرفع من وعيه السياسي والفكري، ويساعد على تقويم الدولة والحكام، ومن ملاحظات وارتسامات الرحالة على حرية الصحافة الأوروبية وقيمتها وفائدتها انطلقت حركة الصحافة العربية فيما بعد.

## المبحث الثالث : المجال السياسي.

لقد كان من نتائج التطورات الاقتصادية التي عرفتها أوروبا مع بداية العصور الحديثة قيام البرجوازية الأوربية، وسعي هذه البرجوازية إلى انتزاع بعض الامتيازات من الأسر الملكية من جهة، ومن الكنيسة من جهة أخرى، وقد أدى هذا كله إلى قيام ثورات ضد امتيازات الملوك والكنيسة على حد سواء. وقد أدى نجاح هذه الثورات إلى تأسيس أنظمة سياسية بديلة للأنظمة السياسية التي عرفتها القرون الوسطى، مما ساهم إلى حد كبير في نهضة أوروبا وتجاوزها للعوامل الأخرى .

وكان أهم معلم من معالم هذه الأنظمة السياسية نزع الطابع الإلهي عن سلطة الملوك، بعد فصل الدين عن الدولة، فقد كان الملوك يعتبرون أن سلطتهم من سلطة الكنيسة، وبالتالي من سلطة الله. فجاءت الثورة البروتستانتية ثم جاءت الثورة السياسية لتضع حداً نهائياً لإضفاء طابع القداسة على الدولة، والتقليل من تداخل الدين بالسياسة إلى الحدود الدنيا الممكنة .

لقد وصف الرحالة العرب في المشرق النظام السياسي الأوربي دون الالتفات إلى التباين الحاصل بين المرجعيتين الفكريتين، الغربية والإسلامية. ولا ريب في أنهم لم يبالوا بهذه التفاصيل إلا ليكشفوا لمواطنيهم الفرق الشاسع بين تطبيق النظم الديمقراطية في أوروبا وتطبيقها في البلاد العربية التي مازالت تعاني الاستبداد والعسف والجبروت السياسي.

### المطلب الأول : أوروبا بلاد المؤسسات السياسية .

لقد كان من نتائج اتصال العرب بالغرب عبر قناة الرحلة، أن تعرفوا على الحركات السياسية وأنظمة الحكم الغربية والمبادئ التي كانت تنادي بها تلك الحركات والأسس التي قامت عليها تلك الأنظمة ، واقتبسوا منها مفاهيم جديدة مثل الحرية والديمقراطية والدستور والوطنية والقومية.

فقد قدر للطهطاوي أن يعيش أحداث فرنسا وان يتمثل روح الثورة الفرنسية، وكانت ثقافة الطهطاوي من ناحية النظرية السياسية خير معين وزاد له على فهم الأحداث والتعليق عليها، فقد تعرف بفضل عصاميته على الآراء السياسية لمونتسكيو وروسو وغيرها من فلاسفة السياسة<sup>1</sup>. فمعرفة الطهطاوي بأهم كتب الفلسفة السياسية

---

1- ذكر الطهطاوي أنه اهتم أثناء إقامته في باريس بالكتب السياسية وقرأ فيها وحده أو مستعينا ببعض الأساتذة مجموعة هامة من فلسفة السياسة، يقول الطهطاوي : " وقرأت في الحقوق الطبيعية ( Droit naturel ) مع معلمها كتاب برلماكي )

التي كونت الفكر السياسي الأوروبي، جعلته يدرك مدى اختلاف الفكر السياسي الحديث عن نظرية الحكم كما كانت مطبقة في مصر والعالم العربي في ذلك الوقت .

من الأشياء الهامة التي لفتت نظر الطهطاوي وغيره من الرحالة المشاركة بباريس، الديمقراطية ومؤسساتها السياسية ودستورها وقوانينها. ولقد أعطى الرجل هذه الناحية اهتماما كبيرا، ورام من وراء حديثه عنها وترجمة لدستورها، بل وشرح مواده ووصفه لمؤسساتها، أن يدخل هذا الفكر السياسي إلى الشرق الذي سادت وتسود فيه أنظمة الحكم الفردي وشريعة الاستبداد بالسلطات والسلطان ... فهو يعلل اهتمامه بكشف الغطاء عن تدبير فرنساوية وأحكامهم فيذكر الهدف من ذلك بقوله : " ليكون تدبيرهم العجيب عبرة لمن اعتبر"<sup>1</sup>.

إن ما استوقف الطهطاوي هو تدبير الدولة الفرنسية وسياستها، فنظام الحكم فيها آنذاك ملكي وراثي، والملك أصل القوة في تدبير شؤون الدولة يعاونه في ذلك مجموعة من الدواوين، مثل ديوان "البير" وهو في قصر بباريس سمي قصر لكسمبورغ، والديوان الثاني في قصر بوربون، ثم يلي ديوان "رسل العمالات"، وديوان الوزراء والوكلاء، ثم ديوان سمي الديوان الخصوصي، وبعد ذلك يوجد ديوان سير الملك وديوان سمي ديوان الدولة<sup>2</sup> المستورة. ولكل ديوان من هذه الدواوين صلاحيات محددة في القانون، ولأعضاء هذه الدواوين شروط ينبغي اختيارهم على أساسها. كما أن الملك صاحب قوة تامة في المملكة، بشرط رضا تلك الدواوين المذكورة<sup>3</sup>.

---

= (Burlamaqui وترجمته وفهمته فهما جيدا ، وهذا الفن عبارة عن التحسين والتقبيح العقليين ، يجعله الإفرنج أساسا لأحكامهم السياسية المسماة عندهم شرعية . وقرأت أيضا مع مسيو شواليه جزئين من كتاب يسمى " روح الشرائع " مؤلفه شهير بين فرنساوية يقال له منتسكيو Montesquieu ، وهو أشبه بميزان بين المذاهب الشرعية و السياسية ، ومبني على التحسين والتقبيح العقليين " ويلقب عندهم بابن خلدون الإفرنجي ، كما ان ابن خلدون يقال عندهم منتسكيو، الشرق أي منتسكيو الإسلام، وقرأت أيضا في هذا المعنى كتابا يسمى "عقد التانس والعقد الإنساني" مؤلفه يقال له روسو(Rousseau) ، وهو عظيم في معناه . وقرأت أيضا في كازيطات ( كتب ومجلات ) " العلوم اليومية الشهرية التي تذكر كل يوم ما يصل خبره من الأخبار الداخلية والخارجية المسماة البوليتيكية وكنت مولعا بما غاية التولع " . نفس المصدر، ص ، 17.

1- الطهطاوي رفاة : تلخيص الإبريز ...، مصدر سابق، ص . 113 .

2- نفس المصدر، ص. 114 .

3- نفسه .



ومن ذلك يخلص الطهطاوي إلى " أن ملك فرنسا ليس مطلق التصرف، وأن السياسة الفرنسية هي قانون مقيد، بحيث إن الحاكم هو الملك شرط أن يعمل بما هو مذكور في القوانين التي يرضى بها أهل الدواوين، وأن ديوان البير يمانع عن الملك ، وديوان رسل **العمالات** يحامي عن الرعية"<sup>1</sup>.

ثم تحدث الطهطاوي عن مصادر التشريع والتقنين لدى الفرنسيين ، فذكر أن قوانينهم قائمة على الحقوق الطبيعية التي تعتمد على العقل في التحسين والتقيح، وأنها ليست مستوحاة من الكتب الدينية، ومع ذلك فهي عادلة، وأنها تمتاز بالمرونة في الفروع، مما يجعلها قابلة للتطور بتطور الظروف والمصالح " فأحكامهم القانونية ليست مستنبطة من الكتب السماوية، إنما هي مأخوذة من قوانين آخر ، أغلبها سياسة، وهي مختلفة بالكلية عن الشرائع ، وليست قارة الفروع"<sup>2</sup> .

كما أثنى الطهطاوي على ما جاء في الدستور من أحكام بقوله : "فلنذكر لك وإن كان غالب ما فيه ليس في كتاب الله ولا في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، لتعرف كيف قد حكمت عقولهم بأن العدل والإنصاف من أسباب تعمير الممالك وراحة العباد ، وكيف انقادت الحكام والرعايا، لذلك عمرت بلادهم وكثرت معارفهم وتراكم بناهم، وارتاحت قلوبهم، فلا تسمع فيها من يشكو ظلما أبدا، والعدل أساس العمران"<sup>3</sup>.

كما لفت الطهطاوي انتباه القارئ إلى أن القانون هو الحكم والمرجع في تنظيم العلاقات بين الحاكم والمحكوم من جهة، وبين المحكومين فيما بينهم من جهة أخرى قائلا : "وذلك لأن معنى الحكم بالحرية هو إقامة الشورى في الأحكام والقوانين، بحيث لا يجور الحاكم على إنسان، بل القوانين هي الحكمة والمعتبرة". وبهذا النص يصبح رفاة رافع الطهطاوي أول من يتحدث في العصر الحديث باللغة العربية عن سيادة القانون.

إن الطهطاوي بهذا قد نظر إلى الواقع العملي في أنظمة الحكم السائدة حتى عصره، فوجد في الميثاق الدستوري الفرنسي منهجا لتحقيق العدل في ظل إحساس المواطنين بالثقة والإطمئنان، ولعل صورة الباشا، نائب السلطان العثماني في مصر كانت ماثلة أمام الطهطاوي، فقد كان الباشا صاحب سلطان مطلق يملك إعدام الأشخاص ومصادرة الأموال دون محاكمة أو ضابط قانوني واضح، وتمتلى صفحات الجزئين الأول والثاني من

---

1- نفس المصدر، ص. 115.

2- نفس المصدر، ص. 37.

3- نفسه .

"عجائب الآثار" للجبرتي، بأخبار هؤلاء الولاة المتعجرفين، الذين أذاقوا كل ألوان الإذلال والقهر والعسف للمصريين والمشاركة.

كما بين الطهطاوي في ترجمته للميثاق الدستوري الفرنسي عدة جوانب تتصل بالسلطة التشريعية، حيث نصت مجموعة من المواد على كيفية تكوين مجلس **رسل العمالات**، وقرأ المثقف العربي لأول مرة عن الانتخاب غير المباشر وعن فكرة العمالات<sup>1</sup> وتحديد عددها، كما بين ما يتعلق بالترشيح من شروط من ناحية السن والحد الأدنى الضريبي. ونص الميثاق أيضا على كيفية الانتخاب والتصويت ومدة العضوية وعلنية الجلسات وشروط عقدها سرية، واللجان البرلمانية وكيفية فرض الضرائب، وسلطة حل المجلس والدعوة لانتخابات جديدة، والحصانة البرلمانية، وعلاقة الوزراء بالمجلس ومسؤولية الوزراء أمام المجلس وجواز اتهامهم. كما تناول الميثاق الدستوري أيضا كيفية تكوين مجلس البير ونظام التصويت فيه وحدد كيفية عضوية الأسرة المالكة به، كما ذكر اختصاصات المجلس، والحصانة البرلمانية لأعضائه<sup>2</sup>، وكل هذا جديد على القارئ العربي<sup>3</sup>.

أما الشدياق، فقد لفت انتباه القارئ إلى حرص الإنجليز على تطبيق القانون، حين وضع كيف أنه " لا يستطيع أحد تجاوز الحقوق الممنوحة له بالقانون، وليس بإمكانه التدخل بشؤون غيره، في حين أن ناظر المدافع [في الشرق] جدير بأن ينظر في جلود بني آدم، ويصبغها بلون الدرّة أو السوط"<sup>4</sup>.

كما وصف الشدياق مجلسي الأعيان والنواب في إنجلترا مبينا ما نجم عن هذا النظام من أمن وعدل وازدهار "واعلم أن أهل المجلس ينقسمون إلى قسمين: الأول يقال له مجلس الأعيان، والثاني مجلس النواب. أما أعضاء مجلس الأعيان، فقد يكونون من أصحاب الوظائف العالية سواء كانت دينية أو دنيوية، وعدتهم 462 منهم 26 من مطارنة أولاند، و 28 من أعيانها، وما حكم به هؤلاء السائدون لا ينقضه أصحاب مجلس النواب إلا في أمور

---

1- الدوائر الانتخابية .

2- انظر ذلك بتفصيل، المصدر نفسه، صص . 117\_120.

3- لم تعرف مصر والعالم العربي حتى ذلك الوقت فكرة السلطة التشريعية، المكونة بالانتخاب، ولكن مصر عرفت في العصر العثماني مجالس أخرى لم تكن تهدف إلى تمثيل شعبي، وكانت في المقام الأول مجالس إدارية . وبذلك كانت السلطة الحقيقية في يد الوالي، فلم تعرف مصر، ولا باقي أنحاء الوطن العربي حتى ترجمة الطهطاوي للميثاق الدستوري، فكرة السلطة التشريعية المكونة على أساس انتخاب الأمة لأعضائها .

4- الشدياق: كشف المخبأ عن فنون أوروبا....، مصدر سابق، ص . 139.

مخصوصة، ولكل منهم أن يحتج عن نفسه حين تقام عليه الدعوى... وإذا قضى مجلس النواب شيء فلا بد وأن يعرض على مجلس الأعيان، وللملكة أن تبطل حكم المجلسين. ولكن ، قلما تتجرأ على ذلك".<sup>1</sup>

وفي سياق حديثه عن قيم الترتيب والتنظيم، يربط ذلك بالقرارات السياسية، فيقول : "هذه الصفة أي حسن الترتيب ، يظهر أثرها بزيادة من أهل الرئاسة والسيادة والإدارة منهم، فإن رجال الدولة إذا أرادوا أن يباشروا أمرا من الأمور الجسيمة فإنما يباشرونه بعناية الأحكام والضبط؛ بحيث لا يوجب تغييرا ما في الأحكام ولا إزعاجا بشيء على الرعية، فإذا اضطروا مثلا في وقت الحرب إلى تجنيد جيوش وتجهيز بوارج وذخائر، فلا يكون ذلك موجبا لاضطراب الناس وتغيير أحوالهم أو لغلاء الأسعار، وإذا شاؤوا أن يجعلوا للناس ضريبة لسد مصاريف الحرب، أحيل ذلك على مجلس المشورة النائب عن الجمهور. ومعلوم أن الإنسان ليهون عليه أن يؤدي شيئا على يد نائبه أكثر من أن يؤديه على يد غالبية القاهرة ، ففي بعض البلاد إذا شرعت الدولة في تجهيز العساكر للحرب رأيت جميع الناس يخوضون في التهاويل، فيظلم إذ ذاك القوي الضعيف ويأخذ المرء بثأره من خصمه وتختل أسباب التجارة ويعدم الأمن بين المتعاملين، فتكون غائلة الحرب مشعورا بها في داخل المملكة أكثر من خارجها".<sup>2</sup>

لم يعتبر الرحالة المشاركة أن حسنات الحكم الدستوري في أوروبا مقتصرة على العدل وحده، فأشار المرآش إلى ما نجم عنه من غنى وأمن وطمأنينة<sup>3</sup>، فيما بين الطهطاوي أنه السبب في تطور الصناعة والتجارة والعلوم والقوة العسكرية التي مكنت الدول الأوربية من تجاوز العوالم الأخرى بما فيها العالم العربي والإسلامي، والسيطرة عليها واستعمارها.

### المطلب الثاني : أوروبا بلاد الحرية.

من أبرز النتائج والمكاسب التي تمخضت عن عصر النهضة في الغرب، قيمة الحرية التي شقت طريقها بثبات عبر الثورة البرجوازية في أوروبا التي جسدتها الثورة الفرنسية سنة 1789م، إذ حررت الإنسان الأوربي عامة والفرنسي خاصة من استبداد النظام الملكي وهيمنة رجال الدين على الحياة المعرفية عندما رفضت سلطة الكنيسة عليها، وأقامت دعائم الحريات المدنية في ظل الحكم النيابي والدستوري المعبر عن إرادة الشعب وتوقه إلى الحياة

---

1- نفس المصدر، ص. 314.

2- نفس المصدر، ص . 314.

3- المرآش : المصدر السابق، ص . 13 .

الكرامة الهنيئة ، ففصلت بين السلطات وأتاحت لكل مواطن حرية القول والرأي والاعتقاد، وحرية النشر وحرية الاجتماع.

فمن المعاني التي اهتم بها الرحالة المشاركة في القرن التاسع عشر معنى الحرية، واللفظ ليس جديدا بل قد تردد في كتب العرب القديمة وفي مؤلفات فقهاء الإسلام، إلا أنه لم يستعمل بنفس حملاته الدلالية التي استعمل بها في القرن التاسع عشر، وقد اتسع مدلوله في ذلك القرن اتساعا لم يعرف من قبل نتيجة تأثير النظم الأوربية والتفكير الأوربي على كتاب العرب في هذا القرن.

إن الفكرة السياسية المركزية في "تلخيص الإبريز" هي من غير أدنى شك فكرة "الحرية"، وقد كان من السهل ترجمة Liberté الفرنسية بالعربية "حرية"، ولكن إيصال محتوى الكلمة الفرنسية إلى القارئ بالعربية كان أصعب، لأن كلمة "حرية" في العربية كانت لا تعني بذاتها ما تعنيه Liberté بالفرنسية، كما أن الحرية في مصطلح ما قبل عصر الطهطاوي، لم تكن تحتوي على الأخص الشحنة المتفجرة للكلمة الفرنسية<sup>1</sup>.

أبرز الطهطاوي في "تلخيص الإبريز" أن التطلع إلى الحرية كان وراء الثورة الفرنسية التي عايشها سنة 1831م ، وأوضح أن أسباب قيام الشعب الفرنسي على الملك في هذه الثورة تمثل في إسناده المناصب العسكرية لقادة مشهورين بمعاداتهم للحرية، فرأى الشعب في هذا الإجراء خيانة لمذهب الحرية، لاسيما الفرنسيين الذين عهدوا الحرية وألقوها منذ الثورة الأولى لسنة 1789م ، واعتادوا عليها وصارت عندهم من الصفات النفيسة.

واعتبر الطهطاوي الثورة التي شهدتها فرنسا سنة 1789م ثورة للحرية، وعرفها قائلا بأنها "حرية الإنسان في التصرف في نطاق القوانين والأحكام المنصوص التي يستوي أمامها كل الناس، وأن القانون لا يعاقب إلا من خرج عنها"<sup>2</sup>.

---

1- كانت كلمة حرية التي استخدمت فيما بعد كمعادل liberté تستخدم كمقابل للتعبير "عبد"، كما أن تعبير حرية كان يشير إلى الأصل والشرف، فالحر هو الرجل الشريف، والأحرار هم ذوو الأصل، وعند أهل التصوف فإن الحرية هي العبودية الكاملة لله ". وحتى أواسط القرن الثامن عشر لم يكن قد طرأ أي تبدل على مفهوم الحرية في الإسلام، فالتهانوي في معجمه " كشف اصطلاحات الفنون " يقدم للحرية التفسير التالي : " إن الحر يقابله الرقيق ، والحرية عند السالكين انقطاع الخاطر =من تعلق ما سوى الله تعالى...والحرية نهاية العبودية ، فهي هداية العبد عند ابتداء خلقته " . نقلا عن زيادة خالد، المسلمون والحدائثة الأوروبية، مصدر سابق، ص 152.

2- الطهطاوي رفاة : تلخيص الإبريز ...، مصدر سابق، ص. 279 .

ويتضح بناء على ما سبق ، أن الطهطاوي رأى الحرية مركزا للنظام السياسي الفرنسي الحديث، وأنها مقصد الثورتين الفرنسيتين الأولى والثانية، وكان هدفه من وصف النظام السياسي في فرنسا وبيان مقوماته التي احتلت الحرية فيها حجر الزاوية والركن الركين، إبراز أن السلطة المطلقة الجاثمة على البلدان العربية الإسلامية لا ينبغي أن تتواصل، وأن الأمة مسؤولة بصفة مباشرة عن النظام السياسي الذي يمثلها ، مبرزا أن ذلك متضمنا في أصول الشريعة الإسلامية رغم أن الممارسة السياسية تنافيه وتناقضه.

رغم إعجاب الطهطاوي بالحرية الغربية، إلا أنه لم يتنكر لهويته ومرجعيته، حيث نظر إليها عندهم كمعادل للعدالة والإنصاف حيث يقول: "وما يسمونه الحرية ويرغبون فيه، هو عين ما يطلق عليه عندنا العدل والإنصاف، وذلك لأن معنى الحكم بالحرية هو إقامة التساوي في الأحكام والقوانين، بحيث لا يجوز الحاكم على إنسان بل القوانين هي المحكمة والمعتبرة، فهذه البلاد حرية [كذا] بقول الشاعر:

وقد ملأ العدل أقطارها      وفيها توالي الصفا والوفا"<sup>1</sup>.

على هذا الضوء وحده نفهم تركيب الإطار الذي وضع فيه الطهطاوي تعريفه للحرية، وهو بسبيل الحديث عن مواد الدستور الفرنسي "قوله في المادة الأولى: سائر الفرنسيين مستوون قدام الشريعة معناه سائر من يوجد في بلاد فرنسا من رفيع ووضيع لا يختلفون في إجراء الأحكام المذكورة في القانون حتى أن الدعوة الشرعية تقام على الملك، وينفذ عليه الحكم كغيره. فانظر إلى هذه المادة الأولى فإنها لها تسلط عظيم على إقامة العدل، وإسعاف المظلوم وإرضوءء خاطر الفقير بأنه كالعظيم، نظرا إلى إجراء الأحكام، ولقد كادت هذه القضية أن تكون من جوامع الكلم عند الفرنسيين وهي من الأدلة الواضحة على وصول العدل عندهم إلى درجة عالية وتقدمهم في الآداب الحضارية".

كما أشاد الطهطاوي بالحرية الاقتصادية ، فقال: "إن أعظم حرية في المملكة المتمدنة حرية الفلاحة، والتجارة والصناعة ، فالترخيص فيها من أصول فن الإدارة الملكية. وقد ثبت بالأدلة والبراهين أن هذه الحرية من أعظم المنافع العمومية، وأن النفوس مائلة إليها من القرون السالفة التي تقدا فيها التمدن إلى هذا العصر"<sup>2</sup>.

1- نفس المصدر، ص. 124.

2- نفس المصدر، ص. 137.

لم يختلف موقف المرآش عن رفاعة من الحرية ، فقد ذهب المرآش إلى أن للشعوب إرادة مستقلة وقدرة على توجيه مصيرها ، وأنها ليست مجرد آلة تنفذ إرادة الحاكم ، فقال : "بما أن الإنسان قد خلق حرا بأفعاله الذاتية فوجب عليه حينئذ أن يسعى بدفع ما يؤثر خلاا بحريته هذه. ولذلك فطالما نرى الشعوب الذين هم مستنيرون بأنوار الحكمة والآداب مجتهدين باستيصال كل عبودية تحسب شوكا في رياض التمدن الأدبي الذي يرعاه كل ذي عقل"<sup>1</sup>. ويضيف قائلا : "وإن أحرزت فرنسا هذا القسط الوفير من التطور والمدنية والحرية، فلأنها أقامت نظمها على الإيمان بالعقل البشري وإرادة الإنسان الحرة"<sup>2</sup>.

أما الشدياق، فقد اتخذ موقفا مخالفا للطهطاوي والمرآش من الحرية ، ونظر إليها من وجهة نظر أخلاقية ، حين قال إن : "الحرية إنما تكون حميدة مفيدة ما، إذا ما روعي فيها مصلحة عمومية على أخرى خصوصية لا بالعكس"، و أفاض في هذا العكس، كأنه ينبه إلى مساوئ الحرية أكثر من حسناتها، ففي وصفه لمالطا قال : "أي إنصاف .. أن تطوف السكارى في الأسواق ضاجين زائطين بالغناء واللغظ، ثم يقال إن ذلك حرية، لعمرى إن فلق المحتسب في بلادنا خير من هذه الحرية ( .. ) فتبا لحرية تفضي إلى تسويد اللئيم على الكريم"<sup>3</sup>، وكتب في مقالة عن أصول السياسة وغيرها قائلا : "إن كثيرا من الناس وخصوصا الذين خالطوا منا الإفرنج في بلادهم وغيرها يرون أن من مستلزمات التمدن أن يكون للإنسان حرية في كل شيء، إذ لا يكون تمدن حقيقي من غير حرية تامة، إلا أن مفهوم الحرية غير متفق عليه بعد إذ هي تابعة للعادات"<sup>4</sup>. ووصف الشدياق بعض هذه العادات التي تبيح للمرء سوء التصرف، وانتهى إلى قوله "فهل يعد هذا من الحرية الملازمة للتمدن، لا جرم أن الحرية أمر حسن يتمناه جميع الناس إلا أنها متى آلت إلى انتهاك الأدب وجب منعها"<sup>5</sup>.

المطلب الثالث: مبدأ الفصل بين السلطات.

---

1- المرآش : المصدر السابق، ص . 52.

2 - نفس المصدر ، ص. 53.

3- الشدياق: كشف المخبأ عن فنون أوروبا... ، مصدر سابق، ص.48.

4 - الشدياق: كنز الرغائب ، مصدر سابق، ج ، 1 ، ص. 115 .

5 - نفس المصدر، ص . 117 .

كان الطهطاوي هو أول مفكر عربي تناول قضية فصل السلطات العامة في الدولة حينما ترجم المواد الخاصة بذلك في الميثاق الدستوري الفرنسي لسنة 1814، ثم فصل القول في طبيعة ووظيفة السلطات الثلاث بعد ذلك في "مناهج الألباب". وترجع أهمية الطهطاوي إلى أنه عرف آراء فلاسفة السياسة السائدة عند مثقفي أوروبا في عصره ، فإذا كانت فكرة تحديد وظائف الدولة بالمداولة والأمر والقضاء تعود إلى أرسطو ، فإن فكرة الفصل بين السلطات الثلاث والفصل بين الأجهزة التي يقوم كل منها بإحدى هذه السلطات قد اتخذت شكلها الواضح عند منتسكيو في كتابه "روح الشرائع". وقد عرف الطهطاوي هذا الكتاب وكان أحد مقومات ثقافته السياسية أثناء بعثته في فرنسا .

فقد قسم الطهطاوي السلطان، أو قوة الحكم على حد تعبيره إلى ثلاثة أركان : " القوة الأولى قوة تقنين القوانين وتنظيمها وترجيح ما يجري عليه العمل في أحكام الشريعة أو السياسة الشرعية ، والثانية قوة القضاء وفصل الحكم، والثالثة قوة تنفيذ الأحكام بعد حكم القضاء بما"<sup>1</sup> .

ففي الفصل الثالث من المقالة الثالثة في تدبير الدولة الفرنسية من تخلص الإبريز ، أشاد الطهطاوي بمبدأ الفصل بين السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية باعتبار هذا الإجراء أحد دعائم النظام الديمقراطي الحديث الضامن للحرية، وأعجب بلوائح الحقوق المدنية للمواطنين، واعتبرها ثمرة العقد الاجتماعي بينهم الذي أسس له روسو وسماه الطهطاوي "عقد التانس والاجتماع الإنساني"، الذي جنى منه الفرنسيون المساواة القانونية في الحقوق والواجبات ، وهذه من تجليات الحرية في مستوى التطبيق.

وفي نفس الاتجاه، نبه الشدياق إلى العدل الناجم عن فصل السلطة القضائية عن التنفيذية<sup>2</sup> . كما بين أن من عوامل العدل أيضا وجود مجلس أعلى للقضاء ومجالس إستئنافية ومجالس خاصة بالقضايا التجارية أو الجنائية أو السياسية، وهذا كله غريبا عن الفضاء والمجال المشرقي العربي بصفة عامة .

---

1- الطهطاوي :مناهج الألباب في مباحج الآداب المصرية، مصدر سابق، ج، 1 ، ص. 345 .

2- الشدياق : كنز الرغائب، مصدر سابق، ج،1، ص . 60 .

## المبحث الرابع : المجال الإقتصادي .

لقد كان للاقتصاد مكانته في أدب الرحلات قبل القرن التاسع عشر بقرون عديدة، وكان ذلك طبيعياً، نظراً للاقترب الشديد بين أدب الرحلات ، وعلم الجغرافيا ، خاصة وأن لهذه الأخيرة فروعاً ، ومنها الجغرافيا الاقتصادية<sup>1</sup> . كما أن الاقتصاد كمحور أساسي في أدب رحلات العرب في القرن التاسع عشر الميلادي ليس إلا تلك القطاعات الاقتصادية من فلاحية وصناعة وتجارة وخدمات، التي رأى الرحالون أنها من أسباب تقدم بلاد الغرب، ورأيناها نحن من تجليات الوعي بالتجاوز الحضاري الغربي<sup>2</sup> للمجتمعات العربية الإسلامية عند النخبة المشرقية .

لم يصف الرحالة العرب في القرن التاسع عشر القطاعات الاقتصادية الأوربية ويسهبوا في وصفها عبثاً، أو أنها مقصودة لذاتها، على عادة أدب الرحلات في العصر الوسيط، وإنما قد وصفوها مقتزنة برسالة محددة وهي ضرورة الاقتباس والاستفادة منها، كدعامة أساسية من دعائم التقدم واللاحاق بالغرب، وكمفهوم من مفاهيم مقومات الإصلاح والنهضة والإحياء .

---

1- هي أحد فروع الجغرافيا البشرية، تختص بسلوك الإنسان الاقتصادي في البيئة أو المكان بمكوناته، وتهتم بالحرف والأنشطة كظواهر لها مقوماتها الطبيعية والبشرية، كما تعالج هذه الحرف كقطاعات إنتاجية أو اقتصادية، وتعرض لارتباط هذه الحرف ( زراعة ، صناعة ، رعي )، بالأرض التي تقوم عليها، أي تحللها كأنماط لاستغلال الأراضي، كما توضح العلاقة بين هذه الحرف والقطاعات الإنتاجية. وقد تطورت الجغرافيا الاقتصادية كقسم مستقل عن الجغرافيا بعد تعاضل المعرفة الجغرافية في المجال الاقتصادي.

2- إن من تجليات ومعالم التجاوز الحضاري الغربي للعالم العربي والإسلامي ، ظهور أنظمة اقتصادية جديدة، وأنماط إنتاج مستجدة مرتبطة بهذه الأنظمة. فقد أسهم التطوران العلمي والتكنولوجي واختراع الآلة البخارية في ظهور النظام الاقتصادي الرأسمالي على أنقاض نظم اقتصادية أخرى أهمها النظام الإقطاعي، وقد أدى هذا بدوره إلى ظهور تناقضات اجتماعية وإلى فرز طبقي جديد، كان من نتائجه قيام ثورات اجتماعية وظهور نظريات اقتصادية جديدة، وفلسفات سياسية مرتبطة بها. يضاف إلى ذلك الاستخدام المتزايد للطاقة والإفادة من مستجدات تكنولوجية أكثر فعالية في جميع النشاطات الاقتصادية لا سيما على مستوى وسائل النقل والاتصال، ومن الطبيعي أن يؤدي هذا إلى تقدم الصناعة وغلبة الطابع الصناعي على المجتمع. وتوفر المزيد من السلع وارتفاع مستوى الدخل القومي نتيجة زيادة الإنتاج والتسويق الخارجي والبحث الدائم على أسواق جديدة ولاسيما في العالم غير المصنع. وهذا يؤدي بدوره إلى انقسام العالم إلى قسمين جديدين منتج ومستهلك. انظر ذلك بتفصيل، البرعي أحمد حسن: الثورة الصناعية وآثارها الاجتماعية والقانونية، دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الأولى، 1976 م .



وهكذا وصف الرحالون مظاهر الثروة التي شاهدها في أوروبا ، فقد عقد الطهطاوي فصلا كاملا من تخلص الإبريز حول "كسب مدينة باريس ومهارتها" متكلما عن الصناعة والتجارة وطرق المواصلات، وأنها السبب الرئيسي في غنى وازدهار الحياة الفرنسية وتجاوزها للمجتمعات الأخرى .

كما أفرد الشدياق صفحات عديدة من "كشف المخبأ"، أثبت فيها بالإحصاءات المتعلقة بالإنتاج الزراعي والتجاري والصناعي والمعادن والمواصلات والبريد في إنجلترا، كما وصف المراسح الأسواق والمصانع وطرق المواصلات في باريس ليؤكد أن " لا حياة إلا في المال ولا عيشة إلا مع الغنى"<sup>1</sup>.

فماهي أهم الملاحظات التي رصدتها الرحالة المشاركة والتي تجسد الاختلافات الكبرى بين الحالة الاقتصادية في المشرق ونظيرتها في أوروبا ؟

### المطلب الأول : إعجاب الرحالة بقيمة العمل عند الأوروبيين .

بحث الرحالون العرب في عوامل النمو الاقتصادي، وحدثوا التجاوز على المستوى الاقتصادي من طرف الممالك الأوربية، فوعى الرحالة المشاركة دور الشعب في تطوير اقتصاد الأمة، ولذلك لم يحملوا الأوروبيين وحدثهم مسؤولية التخلف الاقتصادي في الشرق، بل بينوا أن سببه أيضا تقاعس الشرقيين واستسلامهم للقضاء والقدر. وقد تنبه محمد علي باشا مبكرا إلى ذلك، فحاول بكل الوسائل فرض العمل والخدمة على كل مصري، حيث تشير بعض الروايات التاريخية إلى أن محمد علي شككا لأحد ضيوفه الأجانب قائلا : "إن علي أن أحكم شعبا أوضح صفاته العجز والكسل والطمع والجهل وسوء النية"<sup>2</sup>، ويضيف محمد علي أنه "إذا لم يحمل هذا الشعب على العمل سيبقى عاطلا" ، لهذا يرى أن واجبه يحتم عليه أن يقود هذا الشعب كما يقود الأطفال، لأنه لو تركه وأخذ الأمور باللين، سيعود إلى حالته التي تطبع بها ردها من الزمن .

وفي خطابه لأحد أفراد أسرته وكبار رجال دولته يؤكد أنه "من حسن الطالع أن أنعم الله علينا بأرض كأراضينا لا مثل لها بين أراضى العالم، وعندى أن التقاعس عن بذل ما كل ما يمكن بذله من الجهود في سبيل مضاعفة يسرها ورخائها، لدليل العقوق الذي لا يمكن أن يرضاه قلبي ، ويستحيل أن يقره، فلا محيص

1- المراسح : رحلة إلى باريس، مصدر سابق، ص . 45.

2 -يونان ، لبيب رزق : تحديث مصر في عهد محمد علي، مكتبة الإسكندرية، الطبعة الأولى، 2007، ص . 28.

لي من أن أناشدكم في كل حين من أن تسهروا على أداء واجباتكم، لكي نصل إلى الغاية التي جعلناها نصب أعيننا، وحذار من العجز والكسل"<sup>1</sup>.

وبدورهم، أكد الرحالة المشاركة في متوهم الرحلية الفرق الشاسع في هذا المضمار بين الشرقي والغربي، وبينوا كيف أن هذا الأخير يتميز عن نظيره في المشرق، بجده وكده ونشاطه ودأبه على العمل، فكانت هذه الصفات في نظرهم، من أهم العوامل التي أنتجت وساهمت في تقدم أوروبا الاقتصادي وتطورها وثروتها. وفي ذلك يقول الطهطاوي: "اعلم أن من المركز في أذهان هؤلاء الطوائف محبة الكسب والشق به، وصرف الهمة إليه بالكلية، ومدح الهمة والحركة، ودم الكسل والتواني، حتى أن كلمة التوبخ المستعملة عندهم على ألسنتهم في الدم هي لفظة الكسل والتنبلة، وسواء في محبة الأشغال، العظيم والحقير، ولو حصل من ذلك مشقة أو مخاطرة بالنفس"<sup>2</sup>.

لم يغفل الشدياق تنبيه القارئ إلى العوامل الأساسية في التقدم الاقتصادي عند الأوروبيين، فالعامل الأول كما رآه عند الإنجليز مثلا أن "دين القوم العمل، فهم لا يستريحون إلا إذا استراح هو منهم، لذلك يعمدون إلى تنشيط أولادهم إلى الأشغال وتمرينهم على ما يكسبهم وإياهم الرزق الكافي، والمواظبة على الأعمال، والصبر على ما يتعاطونه"، ويضيف قائلا: "فما من بناء فيه إلا وهو مصدر للحركة والعمل وما أحد يخطو فيه إلا للكسب والشغل، ولا يتحرك به لسان إلا للنفع والفائدة، ولا تطلع عليه شمس ولا يوقد فيه نور إلا للسعي، ولا يختلج صدر خلوق خاطر إلا للتحصيل والاقتناء"<sup>3</sup>. وفي سياق مدحه لنشاط الأوروبي وحيويته قال: "إن الإفرنج يسعون ويجدون في الليل، كما يسعون ويجدون في النهار على حد سواء، ولا سيما في ليالي الشتاء الطويلة، وهذا عندنا متعذر، فليالينا بأجمعها تذهب في الكلام الفارغ والأحاديث عن الجن والعفريت، فهذان ركنان عظيمان من أركان التمدن"<sup>4</sup>.

كما ربط المرآش بين حب العمل وما بلغه الغربيون من أسباب الراحة والازدهار فقال: "فلم يكتف الفرنسيون، بل الغربيون بما بلغوه من أسباب الراحة والرفاهية، بل تراهم يعملون ليلاً ونهاراً لئلا يسبق

1- نفسه .

2- الطهطاوي : تلخيص الإبريز ...، مصدر سابق، ص. 169 .

3- الشدياق : كنز الرغائب ، مصدر سابق، ج، 1 ، ص. 45 .

4- نفسه .

بلد آخر أو مملكة مملكة أخرى، كأن المنافسة التي من أعظم عوامل الارتقاء قد تجمعت في صدر الكبير والصغير من الإفرنج ، فكان من آثارها ما يبهتنا من تلك الحضارة الراقية والسعادة الشاملة"<sup>1</sup>. ويضيف قائلاً في إبراز قيمة العمل عند الأوروبيين علاوة على قيمة التضامن الاجتماعي بين أفرادهم في إحداث الفارق الحضاري بين الأمم : "فما لكل هناك موقع ولا للملل موضع، وما للأفكار تتأؤب على الأفواه أو نوم في أعماق الرؤوس. فهناك الجميع يتسابقون في ميادين التقدم والفلاح... وهناك الجميع يجرون إلى الأمام ، الجميع يتحركون، الجميع يتسارعون، الجميع يشتغلون، الجميع متعاضدون سوية ومنضمون إلى قوة واحدة للركض إلى اقتحام كل المصاعب والوصول إلى قمة الكمال والجمال، عالين أن الهجوم إلى الأمام يورث مفخرة، والحركة نمواً، والتسارع اعتباراً، والشغل ثروة وغناء، والانضمام قوة وسطوة، والوصول إلى ذلك شرفاً واقتداراً. وأن التهاون يلد تأخراً، والسكون قهقرة، والبطء احتقاراً، والبطالة فقراً وفاقة، والانقسام ضعفاً وانحطاطاً."<sup>2</sup>

لقد رأى الطهطاوي ما وسعته الرؤية وأسعفته الظروف، اقتصاد فرنسا الرأسمالي والمظاهر الاجتماعية لهذا الاقتصاد، فالعمل الدائم والحوافز الذاتية تفعل فعلها في تحقيق المكاسب والأرباح. حتى أنه " يوجد بباريس من أهالي الحرف الدنيئة من إيراده كل سنة أبلغ من مائة فرنك "<sup>3</sup> وتقديرهم للعمل وضرورته يجعلهم "ينكرون ما نسميه نحن بالكرم والإحسان إلى القادرين على العمل، ذلك أن البلاد المتحضرة يقل كرمها، وأيضا يرون أن إعطاء القادر على الشغل شيئاً فيه إعانة على عدم الكسب"<sup>4</sup>.

أما جرجي زيدان في نصه الموسوم بـ "رحلة إلى أوروبا"، فقد لفت انتباهه نشاط العامل الفرنسي الذي "يدأب على العمل بحماسة وهمة، ولا سيما أهل الزراعة منهم ، فإنهم قويو الأبدان يعملون في حقولهم بنشاط، ولا تجد في فرنسا بقعة تقبل الزراعة غير مزروعة، وكذلك العمال والصناع، وسائر طبقات الناس، فإنهم نشيطون في ذهابهم وإياهم، في كلامهم وأشغالهم وفي أسفارهم، فإن أحدهم ينزل من القطار ويحمل حقيبته "الشنطة" بيده، فإذا كان منزله قريباً سار إلى بيته ماشياً لا يرون في ذلك بأساً (...). وهي صفة

---

1- المراه : رحلة إلى باريس ، مصدر سابق، ص. 37 .

2- نفس المصدر، صص. 33-34.

3- الطهطاوي : تلخيص الإبريز ...، مصدر سابق، ص . 165 .

4- نفس المصدر، ص . 166 .

يشارك فيها أهل أوروبا كافة ، ويتأثر بها الشرقي حاملاً يطاق تلك القارة ، وتقوم في نفسه رغبة في الهمة والنشاط فإذا رجع إلى بلده عاد إلى طبعه ، إلا إذا توطن أوروبا طفلاً..<sup>1</sup> . ويضيف مادحا نشاط الفلاح الفرنسي وكده "والفلاح يشتغل وامرأته تشتغل وأولاده يشتغلون كل على قدر طاقته وحسب ميله".<sup>2</sup>

### المطلب الثاني : الصناعة الأوروبية.

لقد كانت الصناعة في مصر كباقي البلدان العربية تعاني من التأخر والجمود، وقد أرجع بعض الباحثين في تاريخ مصر الحديث، تأخر الصناعة وتدني الحرف إلى الحكم العثماني، لا سيما في عهد السلطان سليم الأول ( 1512-1520)، فقبل مغادرته لمصر، وقبل رجوعه إلى مقر الخلافة، قام بترحيل ما يقرب من خمسمائة من العمال وأرباب الحرف إلى اسطنبول، للاستعانة بهم في ترقية الصناعة في عاصمة الخلافة العثمانية. وكانت هذه خسارة كبيرة لمصر، إذ أنه اختار أقدر من وجده في البلاد، فحرمت مصر من علمهم وحرمت من فنههم<sup>3</sup>.

وقد لفت هذا التأخر في الحرف والصناعات كل الرحالين الذين وفدوا إلى مصر قبل الحملة الفرنسية، يقول فولني : "إن الفنون الآلية ما يزال أبسطها في دور نشأته، وأشغال النجارة والحدادة والأسلحة بعيدة عن الإحكام والإتقان، وإنك لتجهد نفسك لتحصل على من يصلح لك ساعتك في القاهرة، وإذا عثرت عليه فهو أجنبي".<sup>4</sup> ومن ثم لم يكن غريباً أن يتوقف المشاركة عند مظاهر رقي الصناعة في أوروبا، وسعة الهوة بينها وبين نظيرتها المصرية، على الرغم مما بذلته دولة محمد علي في تحديث هذا القطاع، حيث تعرض الطهطاوي في مقدمة رحلته لذكر الصنائع المطلوبة وأهميتها ولزومها لكل دولة من الدول، وتأسف عن فقدان مصر لها في قوله : "وهذه الفنون إما واهية في مصر أو مفقودة بالكلية"<sup>5</sup>. وبعد ذكره لهذه الصناعات والفنون ، أكد الطهطاوي على التطور الصناعي الفرنسي "في مدينة باريس معامل سلطانية ومعامل غير سلطانية، فمنها معامل المعادن كأشغال الفضة والذهب واتخاذ الآنية منهما، ومنها معامل الصبني والفرפורي، ومعامل الشمع الاسكندراني، ومعامل الصابون والقطن

---

1- جرجي زيدان : رحلة ألى أوروبا، مصدر سابق، ص. 37 .

2- المصدر نفسه، ص . 38 .

3- جلال ، يحيى : المرجع السابق، ص ، 199- 200 .

4- ذهني : المرجع السابق، ص . 27 .

5- الطهطاوي رفاة : تلخيص الإبريز ...، مصدر سابق، ص. 32 .

والجلود المدبوغة، وشغل المختبان ونحو ذلك، وصناعتهم تعظم جودتها شيئاً فشيئاً ، حتى أنهم كل ثلاث سنوات يعرضون أشغالهم على رؤوس الأَشهاد، ويظهرون ما اخترعوه وما كملوه.."<sup>1</sup> .

تحدث الطهطاوي عن صناعات أثقل من الصناعات السابقة ، مثل تعميم طرق البر، وطرق البحر، وصناعة الخلجان والمراكب والقوارب التي تسيّر بالدخان ونصب القناطر، ونصب دواوين تسفير العربات الكبيرة .

كما ربط الطهطاوي بين تقدم الصناعات بفرنسا وتطور المعارف والعلوم، وقد كنا في حديثنا عن التعليم الفرنسي في مبحث **التجاوز العلمي**، قد تعرضنا لذكره من لدن الطهطاوي، واقتصرنا على ما له علاقة منه بالعلوم الأساسية، لكن هناك تعليم قطاعي من شأنه أن يساعد على تجويد الصناعة وإنشاءات **البنى التحتية**. وفي هذا الباب ذكر الطهطاوي ما يلي من المعاهد والمدارس والمراكز الصناعية :

- **المكتب السلطاني لتعليم علم المعادن .**

- **مدرسة الفنون والحرف وفيها سائر آلات الصنائع الموجودة إلى هذا العصر.**

- **مدرسة بستان السلطان ، وهي تعلم علم الحشائش وغيره<sup>2</sup> .**

فمن شأن هذا التعليم أن يجدد الصناعة ، فمدرسة المعادن مثلاً، تخرج المختصين في نوع من الأشغال مثل الفضة والذهب والشمع الإسكندراني والصيني والفرفوربي، فضلاً عن الصناعات الأخرى مثل الصابون والجلود المدبوغة والقطن والسختيان ، وهو نوع من الجلد .

ومما لاشك فيه، أن ذلك التعليم الصناعي الذي وصفه **الطهطاوي** هو الذي كان سبباً في إحراز الصناعة الفرنسية، ومن بعدها الاقتصاد الفرنسي، تقدماً ملحوظاً، ذلك أنه في القرن الثامن عشر كانت الصناعة الفرنسية صناعة تقليدية، في معظمها، مثلما تذكر كثير من المصادر التي تناولت الاقتصاد الفرنسي في القرن الثامن عشر.

وفي سياق مقارنة الشدياق بين إنجلترا وفرنسا، رأى أن الصناعة الفرنسية ذات سمعة أفضل حتى في بلاد الانجليز ، مما "دفع هؤلاء أن يكتبوا على صناعتهم أنها فرنسية". كما تحدث عن صناعة التعدين، وأثرها في تشغيل اليد العاملة ، وصناعة النسيج، والجدوى الاقتصادية والاجتماعية الناتجة عن ذلك عند الانجليز ، ويرجع كل هذا التطور والنمو إلى الثورة الصناعية ، لذلك اعتنى الأوروبيون بكل وجوه الترغيب الممكنة لرعاية وتشجيع المخترعين والمبدعين، فصنعوا التماثيل للمخترعين ، ووضعوها في الميادين العامة، وسمو الجسور والشوارع بأسمائهم.

---

1- نفسه .

2 - نفس المصدر، ص . 189 .

خلص الشدياق بعد استعراضه أيضا لملامح التطور الصناعي والحرفي بفرنسا وإنجلترا ، إلى أن سبب تطور الحرف عند الإفرنج يكمن في احترامهم وتقديسهم لعلاقة المتعلم بمعلمه القائمة على التقدير والاعتراف بأفضلية الثاني على الأول وذلك في قوله : "كل من عاشر الإفرنج ودرى أحوالهم، درى أنه ليس من فرق بيننا وبينهم لا في العقل ولا في الفهم ولا في الذكاء. وإنما برع علينا الإفرنج في هذا العصر في الصنائع اليدوية والحرف المعاشية، وذلك من تربيتهم وانتظام أحوالهم، فإن من أراد أن يتعلم منهم صنعة ما، لزمه أن يمارسها عند أستاذه إلى أن يتقنها فلا يخرج من عنده إلا بشهادة منه، وبذلك تم لهم حفظ الصنائع... ووقايتها من الخلل خلافا للعادة عندنا، فإن من تعلم منا مبادئ الصناعة في سنة أو سنتين، ظن أنه قد أتقنها، فيخرج من عند معلمه ويفتح دكانا مقابلا لدكانه ويأخذ في مغايرته ومفاضلته بأجرة أقل مما يأخذ معلمه، وهكذا يفعل فيه من يتعلم عنده، فلا تزال الصنائع عندنا تتدنى، وعند الإفرنج تترقى، وقس على ذلك التجارة، ومعلوم أن التجارة والصنائع هما أصل ثروة البلاد فلهذا يستحيل علينا أن نجاري الإفرنج في ثروتهم وغناهم"<sup>1</sup>.

كما أشاد كذلك بقيمة اعتماد الأوروبي على ذواتهم في تلبية حاجات مجتمعاتهم وعدم اللجوء إلى الاستيراد إلا عند الضرورة، على عكس البلدان الإسلامية العاجزة عن الإنتاج، يقول الشدياق : "والحاصل أن من مقتضيات التمدن أن المتمدنين في مدينة أو مملكة لا يأخذون من الممالك الأجنبية إلا ما كان تحصيله من بلادهم متعذرا، وهذا شأن الإفرنج، فإن جميع الأثاث والملبوسات التي يستعملها أهل البلد مصنوعة في بلادهم ومعامله.. وكذلك الإنجليز، لا يكاد يأتي من لندرة إلى باريس إلا ما كان من قبيل الخصائص الطبيعية... لكن نحن يأتينا السمن من الروسة والأرز من إيطاليا والبطاطس من مالطة والسيكار من أمريكا والزيت من مرسلبية والشمع من عدة جهات بأوربا، ونحو ذلك مما لا بد منه ولا استغناء عنه"<sup>2</sup>.

وبسبب ذلك انتقد الشدياق اعتماد الدول الإسلامية على الاستيراد من الدول الأخرى بدلا من التكامل الإقتصادي والصناعي والزراعي فيما بينها، مما أدى إلى خنق كثير من النشاطات الصناعية والزراعية في العالم الإسلامي، وإلى استنزاف أموال المسلمين واستغلالهم ، وفرض السيطرة عليهم من قبل الدول الموردة وتكثلاتها الصناعية والتجارية والزراعية، وفي ذلك يقول : "فما زلنا محتاجين إلى أن نشترى ملابسنا وأثاث ديارنا من البلاد الأجنبية، وعلى كثرة ما في بلاد الدولة من الشجر، ولاسيما الجوز، فلا يوجد من النجارين في الأستانة

1- الشدياق : كنز الرغائب، مصدر سابق، ج، 1، ص. 148 .

2- نفس المصدر، ص . 151.

وغيرها من يحسن عمل كرسي واحد، ولو كانت مثل هذه الأشياء ترد إلينا من البلاد الخارجية رخيصة الثمن، لكننا نقول أن الصناع هنا يتهاونون في عملها لرخصتها". وضرب مثلا لمناديل اليد التي لا يستغني عنها، "فكيف يهمل ما يحتاج إليه كل واحد من أصناف الناس، و ينتظر جلبه من إحدى دول أوروبا"<sup>1</sup>.

### المطلب الثالث : الفلاحة الأوروبية .

من الملاحظ، أن كل الدول التي عرفت الثورة الصناعية اعتبارا من منتصف القرن الثامن عشر، كانت قد عرفت من قبل تطورا هاما وملحوظا في قطاع الزراعة، تقديما بلغت درجته إلى حد أن وصفه بعض الكتاب بـ " الثورة الزراعية" تجلى ذلك في كثافة الإنتاج، نتيجة لتطور وسائل وأساليب الزراعة، مما ترتب على ذلك قيام نظام الزراعة الرأسمالية وظهور الملكيات والمزارع الكبرى .

وفي الوقت الذي كانت فيه أوروبا تخوض الثورة الصناعية والزراعية ، كان العالم العربي عموما ما زال يعتمد على الزراعة بشكل أساسي، والزراعة ذاتها تتم بالأدوات والأساليب البدائية التي ظلت مستخدمة منذ آلاف السنين دون تغيير<sup>2</sup> ، مما جعل البلاد عرضة للعديد من المجاعات والأوبئة والكوارث الطبيعية.<sup>3</sup>

---

1- نفس المصدر، ص . 149.

2- ذكر الرحالة الأجانب الذين تعاقبوا على زيارة مصر في القرن الثامن عشر، أن المصريين استخدموا الأدوات القديمة المعروفة مثل الساقية والمحراث، وأوضح سافاراي أهمية استخدام السواقي في حمل المياه إلى المناطق البعيدة، والواقع أن ما ذكره الرحالة عن الأدوات المستخدمة في الزراعة ذكرها أيضا علماء الحملة الفرنسية ، فكانت لهم نفس الملاحظات عن السواقي وغيرها من الأدوات البدائية . ذهني : المرجع السابق، ص . 162.

3- لا يمكن تتبع كل المجاعات والكوارث الطبيعية التي حلت بالشرق العربي عامة ومصر خاصة، وأهمها انتشار وباء الطاعون ، وإنما نكتفي بالإشارة إلى أهمها لنرى مدى قسوتها وما كانت تتعرض له البلاد من متاعب وآلام بسببها ، من ذلك ما حدث في عام 1695م . حيث وقعت مجاعة شديدة في هذا العام بسبب نقص فيضان النيل ، فأصبحت الأراضي " شراقي" وقلت المحاصيل وساءت الأمور كثيرا في العاصمة والأقاليم، وهجر الفلاحون قراهم، وحضروا إلى القاهرة، فامتألت بهم شوارعها وأزقتها، وتقدمت جموع الشحاذين والفقراء لمهاجمة مخازن الباشا ونائبه بالقلعة، وزاد الكرب، واشتدت المجاعة، حتى أكل الناس "الجيف"، ومات الكثيرون من الجوع وانتشرت أعمال الخطف بسبب الجوع، فكان الفقراء يخطفون الخبز من الأسواق ، ومن الأفران ، حتى اضطر الناس إلى تشديد الحراسة على خبزهم " فكان يذهب الرجلان والثلاثة مع طبق الخبز، يحرسونه من الخطف وأيديهم =العصى، حتى يخزوه بالفرن ثم يعودون به . انظر ، الجبرتي : المصدر السابق، ج، 1، صص 234\_238. أما أشد تلك الأوبئة والطواعين فكان "وباء الطاعون الذي حل بمصر في عام 1791 م، فقد كان يحصد آلاف الأرواح كل يوم، ومات به عدد لا يحصى من الأطفال والشبان، والجواري والعبيد، والمماليك والأجناد "ولم يبق للناس شغل إلا الموت وأسبابه فلا تجد إلا

كما تحملت طائفة الفلاحين والصناع كل ألوان الإذلال والقهر وعاشت ضحية التعسف والاستغلال ، وحصدت المجاعات والأوبئة الآلاف منهم، وتمتلئ صفحات عجائب الآثار بأقاصيص الإذلال التي نسجتها تصرفات المماليك لهؤلاء الضحايا، سواء في المدن أو القرى، من نهب و سرقة وقتل وتشريد وإحراق البلاد والقرى و انتهاك الأعراض وأبسط مبادئ الإنسانية .

إذا كان هذا هو وضع القطاع الفلاحي بالمشرق، وهذا هو حال فلاحيه، كان من السهل على الرحالة المشاركة استيعاب حجم التفاوت في هذا المجال، حيث استعرض الشدياق مجموعة من الأرقام والإحصاءات المتعلقة بالنشاط الزراعي، ومن ذلك قوله : "والظاهر أن بلاد الإنجليز أعظم حرثا وأعمر من بلاد فرنسا، وكل شيء فيها من نبات وحيوان تراه في غاية النمو، وكنت قبل حضوري إليها أحسبها كلها جبالا لما كنت أجد من شدة بردها، فإذا هي قاعا صفصفا"<sup>1</sup>.

وفي طريقه بين مرسيلية وليون، رأى الأرض كلها بستانا واحدا، وفي ذلك إشارة منه إلى كثافة استغلال الأرض، و قال في هذا المنظر الخلاب شعرا .

#### وأقفارهم ذات الوحوش مزارع بها تأنس القطعان والذئب نافر

كما وقف الشدياق عند الاهتمام الذي يوليه الأوروبيون لقطاع الماشية ، حيث تخصصت بعض المزارع كلية في تربية وتسمين الحيوانات للإفادة من تنمية الثروة الحيوانية، وهو ما أدى إلى ارتفاع مستوى الإنتاجية في كلا النوعين من المزارع ، فيقول : "وفي بعض الصحف أن في كل من انجليز وفرنسا يربي نحو خمسة وثلاثين مليوناً من الغنم"<sup>2</sup>.

لفت الرحالة علي مبارك باشا قراءه إلى أن التقدم العلمي الذي شهدته أوروبا، سمح باكتشاف واستخدام الأسمدة الصناعية، فقل بذلك اعتماد الفلاحين على الحيوانات لإمدادهم بالأسمدة الطبيعية، وأصبح في الإمكان الاعتماد على الأسمدة الصناعية في تسميد الأرض الزراعية، وهكذا تجاوزت الفلاحة بأوروبا الممارسة التقليدية، ولقد وصف علي مبارك الفلاحة الحديثة في أوروبا وخصص لها مسامرة، مما يوحي بالانبهار والإعجاب بالمستوى

---

مريضاً، أو ميتاً، أو عائداً، أو معزياً أو مشيعاً، أو مشغولاً في تجهيز ميت، أو باكياً على نفسه موهوماً". المصدر نفسه، ج، 2 ، صص. 345 .

1- الشدياق : كنز الرغائب، مصدر سابق، ج، 1 ، ص . 78 .

2- نفس المصدر، ص . 82 .



الذي آل إليه هذا القطاع بقوله: "ثم قاموا لينظروا محل التجارب، فلما وصلوا إليه وجدوه مكانا متسعا يبلغ نحو ثمانين فدانا مقسوما إلى أقسام معتدلة بطرقا كذلك حسب الانتظام طولاً وعرضاً كل قسم مربع محاط بأشجار في بعضها انواع الخضراوات وفي الآخر أنواع من نبات الأقوات كل نوع في حوض ويعرف نبات كل جهة من أوراق ملصوقة في قطع من الخشب قائمة في زوايا الحيضان [كذا] مكتوب فيها قدر البذر وعمره وسعة الأرض التي هو بها والبلد التي ورد منه ووقت بذره ومدة مكثه"<sup>1</sup>.

كما أشار علي مبارك إلى الأساليب الحديثة المعتمدة في الفلاحة، فقال: " وذهبنا إلى المكان الذي به آلات الزراعة مثل المحارث ذوات العجل وآلات البذر والحصد والدرس فكانت أنواعا منها القديم المتروك باختراع أحسن منه، ومنها المستعمل من مدة وعلمت نتيجته، ومنها ما هو جار تجربته وجميعا مخالف لما يعلمه الشيخ في مصر، ثم عادوا إلى القصر وجلسوا فيه ينظرون من شبائكه إلى البستان وما حوله فرأوا الغابات على أحسن شكل وصورة الأرض في غاية البهجة وأنواع المزارع تسر الخاطر وتروق الناظر"<sup>2</sup>.

ولقد ساهم تطور الفلاحة وارتفاع إنتاجها في تقدم البلاد وأهلها، حيث جزم علي مبارك بأن " مدار العمارة على الزراعة، فإنه لا تحل الثروة بجهة إلا إذا تقدمت فيها الزراعة" ولتأكيد قناعته، استعرض علي مبارك أرقاما وإحصاءات رسمية لمداخيل وأرباح فرنسا من هذا القطاع، و التي تصاعدت سنة بعد أخرى قائلا: "ففي أرض فرنسا مثلاً تقدمت الزراعة تقدماً جيداً، حين بحثت الحكومة عن هذا الخصوص، وذلك التقدم ابتداء سنة 1790م إلى سنة 1846م، فكان محصول زراعة القطن سنة 1790م مليارين ونصف، وفي سنة 1846م وصلت قيمته ضعف ذلك وازداد الربح من سنة إلى أخرى..."<sup>3</sup>

وإذا كانت المجاعات والأوبئة التي اجتاحت المشرق بسبب تأخر الفلاحة فيها، قد سببت نزيفاً ديموغرافياً حاداً، أثر بشكل سلبي على أوضاعها المجتمعية، وحال دون إقلاعها لتساير التحولات التي كانت تعرفها الضفة الأخرى، فإن تطور الفلاحة في أوروبا، كما رصد ذلك أغلب الرحالة المشاركة، قد انعكس على النمو الديموغرافي،

---

1- مبارك : المصدر السابق، ج 2، ص . 470 .

2- نفس المصدر، ص. 471 .

3- نفس المصدر، ص . 476.

وعن ذلك يقول علي مبارك : "وبسبب هذا الفرق زادت أهالي القطر، فإن عددهم من سنة 1791م إلى سنة 1815 م، كان يزيد في كل سنة عن التي قبلها بمائة وعشرين ألف نفس"<sup>1</sup>.

### المطلب الرابع : التجارة الأوربية.

إن أهم حادث أثر في المشرق العربي ومصيره سياسيا واقتصاديا معا في مطلع العصور الحديثة هو تحول طريق التجارة بين أوروبا والشرق إلى طريق رأس الرجاء الصالح الذي كشفه " فاسكوه ذي جاما" البرتغالي، بعد أن كشف كولمبس طريق العالم الجديد ، فأحدث هذان الاكتشافان انقلابا ذا شأن في عالم التجارة، إذ انتقل المركز التجاري العالمي من حوض البحر الأبيض المتوسط إلى المحيط الأطلسي، وكان لهذا الانتقال أسوأ الأثر على تجارة الدول التي تمس سواحلها البحر الأبيض المتوسط مثل البندقية ومصر<sup>2</sup>.

وقف الطهطاوي منبها أمام التطور التجاري في باريس ، وتوقف عند أهم ملامح هذا الرقي وتحليلاته، وأهمها النظام الذي يحكم المعاملات التجارية بهذا البلد، كما أشار إلى دور الدولة في تلقين الشباب الفرنسي في مدارس خاصة بتعليم التجارة وتلقين مبادئها وقيمها قائلا : "وفي باريس عدة خانات عظمى توجد فيها سائر المبيعات، ووكانل وحوانيت وبيوت للتجارة والصناعة ، مكتوب على واجهتها اسم التاجر واسم تجارته، وبعض الأحيان قد يكتب اسم المتجر. ولا يملك أن يشرع الإنسان في التجارة إلا إذا دفع لبيت المال شيئا

---

1 - نفسه.

2- لاشك أن أول خطوة عجلت بتعديل ميزان القوة الدولية بين العالم الإسلامي وأوروبا هي اكتشاف البرتغاليين طريق رأس الرجاء الصالح، كمر تجاري مائي بديل عن طرق المواصلة التجارية البرية إلى الشرق والهند، التي كان يسيطر عليها العالم الإسلامي في ذلك الوقت. أدى هذا الاكتشاف الجغرافي إلى تقليل أهمية العالم الإسلامي في إستراتيجية التجارة الدولية القديمة، وحققت لأوروبا نقلة مهمة في الصراع السياسي مع العالم الإسلامي، الذي كان يلعب دور الوسيط التجاري.

تناولت كثير من الكتابات العربية واقع تراجع العالم العربي وحدوث التجاوز الأوربي له، فأكدت أن اقتصاد العالم العربي قد بني منذ القديم على الوساطة في التجارة البعيدة المدى بحكم موقعه الجغرافي الذي هو بمثابة صلة وصل بين الشرق الأقصى وأوروبا. ولاحظت أن الأمم التي تبني اقتصادها على الوساطة تبقى أما هشة، فلما تحول مركز الاقتصاد من البحر المتوسط إلى المحيط الأطلسي على إثر الاكتشافات، أصيب اقتصاد العالم العربي بخلل في توازنه. وبسبب ذلك تراجعت مكانته وانقسم، وسترزاد حالته سوءا من جراء الهجومات الاستعمارية فيما بعد .

ولو هينا، فيأخذ نيشانا علامة على الإذن له في التجارة ... وللتجارة مكتب مخصوص سمي مكتب التجارة، يتعلم فيه للتلامذة علم التجارة ، وعلم تمييز صفات أنواع الأشياء المباعة، ومعرفة الأثمان والقيم"<sup>1</sup>.

نبه الشدياق القارئ العربي إلى ما يقوم به التجار في أوروبا من أعمال إجتماعية واستثمار أموالهم في تنمية بلدانهم، حيث ينفقون أموالهم "في سبيل البر وإغاثة الملهوفين، وإنشاء المدارس والمستشفيات، وفي تصليح الطرق وتحسين المدينة وإزالة الأوساخ والعفونات منها"<sup>2</sup>. ولعل في ذلك إشارة إلى فشل طبقة التجار في العالم العربي، بحيث أن هذه الأخيرة لم تبادر إلى توظيف فوائد أرباح التجارة من أجل تنمية بلدانهم إقتصاديا واجتماعيا وثقافيا، وخلق رأسمال داخلي وتوليد على غرار ما حصل في أوروبا، على العكس من ذلك ، فقد أتلف التجار العرب أموالهم في البذخ والترف والسفه.

كما أن التجارة عندهم، حسب ما أثبتته الشدياق ، هي فن من الفنون العظيمة ، وللتجار عندهم اعتبار زائد وهم مشهورون غالبا بالصدق والأمانة والضبط، ولا سيما الذين يرسلون البضائع أو يجلبونها، فشأنهم أعظم من شأن الملازمين للدكاكين. ومن حسن ترتيب البيع والشراء عندهم "هو أنك إذا أردت شراء شيء في دكاكينهم، وجدت سعره مرقوما عليه سواء كان كثيرا أو قليلا، فلا تحتاج معه إلى المفاوضة [كذا]، فتشتري وأنت مطمئن الخاطر لعلمك أن الثمن الذي دفعته فيه هو ما يدفعه غيرك، بخلاف العادة هنا، فانك لا تكاد تشتري شيئا من تاجر إلا وتحسب أنه غبنك فيه، لأنه إذا كان المتاع يساوي مائة قرش، تقاضاك مائتين، فتقول له غيرك يبيعه بأقل من هذا، فيقول غيري ليس عنده من هذا الصنف، وإنما عنده ما يحاكيه، فتقول خذ مني ثمانين فيحلف أنه اشتراه بمائة وخمسين ... فإذا فصلت عنه وقصدت غيره ناداك بصوت عال، تعال تعال، فإني أريد الاستفتاح منك هذه المرة ... وفي المرة الآتية ان شاء الله تعوض علي ما خسرتة ، فهذا لا يسمى عند الإفرنج بيعا ولا شراء وإنما يسمى قمارا"<sup>3</sup>.

كما توقف الرحالة المشاركة طويلا، للحديث عن المؤسسات المالية ودورها في تنشيط الحركة الاقتصادية بصفة عامة، والتجارية بصفة خاصة، فالتجاوز الاقتصادي الأوربي للعوامل الأخرى كما وعته النخبة المشرقية لم يكن البتة، منحصرًا ومتجليا فقط في الاختراعات والاكتشافات وتطور الفلاحة والصناعة، بل وأيضا في استثمار الأموال وتنظيم عمليات الائتمان، لا سيما بعدما تراكمت الأموال في أوروبا، وخصوصا بعد الفتوحات الاستعمارية

1- الطهطاوي : تلخيص الإبريز ...، مصدر سابق، ص.171.

2- الشدياق : الساق على الساق ...، مصدر سابق، ص . 378 .

3- الشدياق : كنز الرغائب، مصدر سابق، ج، 1 ، ص. 92 .

واستغلال الدول المستعمرة، الشيء الذي تطلب إنشاء المؤسسات المالية الحديثة ممثلة في الأبنك والبورصات التي استأثرت باهتمام الرحالة المشاركة. في هذا الصدد يقول الطهطاوي: "إن أعظم التجارات وأشهرها في باريس معاملات الصيارفة، والصيارفة قسمان صيارفة المملكة والميري، وصيارفة باريس، ووظيفة صيارفة الدولة بالنسبة للتجارة أن يضع الناس ما يريدون وضعه ويأخذون كل سنة ربحه المعين في قانونهم، فلا يعد عندهم هذا الربح ربا. إلا إذا زاد عما في القانون. وللإنسان أن يأخذ ما وصفه من المعاملة عند صيارفة الدولة متى أراد، ومثل ذلك صيارفة باريس فإنهم يأخذون ويعطون الأموال بالمراحة"<sup>1</sup>.

كما أفرد علي مبارك "مسامرة" كاملة للحديث عن البورصة في باريس، ويعرفها على لسان تاجر طلياني فيقول إنها "مكان تجتمع فيها الصيارفة الكبار والسماصرة وعظماء التجار، وهو من ضمن العمارات العظيمة التي تتباهى بها باريس... ومما يزيد الإنسان تعجبا أنه لا يوجد هناك غير الكلام، وأما المبادلة وقبض الدراهم فشيء نادر"<sup>2</sup>.

ويتبادر إلى ذهن الشيخ أن لحارة اليهود في القاهرة، التي تضم عددا من الصيارفة والمرابين، شبيها بالبورصة من حيث الاقتراض والرهن وطلب الضمانة. ويمضي قائلا: "والعجب أن الربا محرم في الشريعة الإسلامية، ومع هذا لم يبق من الناس في هذا العصر فقير ولا غني إلا وهو واقع فيه، ومن كثرة التعود عليه صار كأنه من الأمور الجائزة".

ولعل علي مبارك تعمد إيراد هذه الوقائع ليدحض رأي الطهطاوي حول انتشار الربا في الغرب من جهة، ويقنع قراءه بأهمية المصارف ذات النمط الأوربي، من جهة أخرى. ولذلك يبادر الخواجا الطلياني إلى إظهار الفارق النوعي بين ربا حارة اليهود وعمل البورصة، فيوضح بأن "المعاملة في هذا المكان خاصة بالشركة التجارية ليس غيره"، ويستطرد ناعنا الصيارفة في بلاد المشرق بأقبح النعوت حيث لا هم لهم سوى "سلب نعمة الأهالي"<sup>3</sup>.

## المطلب الخامس : وسائل النقل والاتصال .

1- الطهطاوي رفاة : تلخيص الإبريز ...، مصدر سابق، ص. 170.

2- مبارك : المصدر السابق، ج، 2، ص . 102 .

3- نفس المصدر، المجلد الثاني، ص . 103 .

تطورت وسائل النقل تطورا هائلا حوالي نصف القرن التاسع عشر، بما سمح للقطاع الزراعي بتصريف منتجاته في أسواق جديدة وبيع محصولاته من المواد السريعة التلف، كما سمح تقدم وسائل النقل بمد المدن بما تحتاجه من تموين، وسمحت أيضا بتركيز المشروعات الصناعية دون خوف من نقص الطاقة، لأن الوسائل المتقدمة في النقل تسمح بوصول الفحم إلى المصانع بانتظام وبسعر مناسب .

وقد أشار الرحالة المشاركة إلى تطور وسائل المواصلات البرية والبحرية ، ودورها في الازدهار الاقتصادي الذي عرفته أوروبا بداية من القرن الثامن عشر، وفي ذلك يقول الطهطاوي: "من الأمور التي تعين على النجامة والكسب تعمير طرق البر والبحر، فمن ذلك صناعة الخلجان والقوارب التي تسير بالدخان . ونصب القناطر ونصب دواوين تسفير العربات الكبيرة. والتلغراف، وهي الإشارة، ونصب البريد بالساعي والبريد بالخيول وغير ذلك ، فانظر إلى مدينة باريس ، فإن حولها أربعة خلجان تأتي منها المتاجر وفي نهر السين تسير قوارب على صورة العربات، وقوارب تمشي بالنار بسرعة السير"<sup>1</sup>. و أشار أيضا إلى دقة تنظيم البريد ووصول الرسائل بانتظام واحترام المراسلات "فلا يمكن لإنسان أن يفتح مكتوبا معنونا باسم آخر ولو كان متهما بشيء."

كما أفرد الرحالة المشاركة صفحات من نصوصهم الرحلية للتلغراف، وأبدوا اندعاشهم وصدمتهم لهذا المخترع الذي حير عقولهم وفتن ألباهم، وفي هذا الصدد نورد ارتساما لرحالة مشرقي آخر، هو سليم بستر<sup>2</sup> صاحب رحلة "النزهة الشهية في الرحلة السليمية"<sup>3</sup> ، فبعد أن يشرح شرحا دقيقا وشاملا كيفية تراكيب آلاته وعملها يهتف قائلا : "يا للعجب من هذا الرسول الذي في نصف دقيقة يوصل أخبار باريس إلى لوندرة . وفي دقيقة ونصف إلى مرسيليا . وفي أقل من ساعتين إلى بلاد روسيا . ويتكلم مع كل الدنيا بأخبار كل

---

1- نفس المصدر، ص . 107 .

2- بستر سليم ( 1839-1883)، ينتمي إلى عائلة مسيحية أرثوذكسية ذات نشاط تجاري معروف برز فيه عدد من رجال المال والأعمال ، ويعتبر سليم بستر من الرحالة المشاركة القلائل الذين توجهوا إلى أوروبا نتيجة دافع شخصي بحث، وليس نتيجة بعثة دبلوماسية أو علمية. كما قرر سليم بستر بعد رحلته الأوروبية الإستقرار نهائيا في لندن حيث أنشأ هناك محلا تجاريا .

3- بستر، سليم : النزهة الشهية في الرحلة السليمية ، حررها قاسم وهب، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبوظبي، الطبعة الأولى، 2003 م .

الدنيا، فسبحان من وهب الحكمة الباهرة لذاك الذي أنشأ هذا الإختراع البديع الذي يفوق الطاقة البشرية"<sup>1</sup>.

توقف المراهق الحلبي طويلا عند القطار<sup>2</sup> مبديا إعجابه وانبهاره بصنعه وسرعته ، وقد قال شعرا يصف ركوبه متجهاً إلى باريس في قصيدة بلغ مجموعها ستة وعشرين بيتاً، ومنها هذان البيتان:

إلى جنة الفردوس هل أنا سائر      ترى أم إلى دنياي أخرى مسافر  
وهل أنا مع نسر السما طائر إلى      سما أم بخار الماء بي هو طائر<sup>3</sup>.

كما انبهر علي مبارك أيضا بالقطار، وأفرد لهذا المخترع العجيب أزيد من ستين صفحة من نصه الرحلي، فعندما سافر الشيخ علم الدين مع ابنه والخوارج الانكليزي بالقطار من القاهرة إلى الإسكندرية، بغية التوجه إلى فرنسا، شرع علي مبارك في وصف سكة الحديد وكيفية استخدام قوة البخار التي تحرك القطار، فقال على لسان الشيخ : "أتفكر في هذه الباخرة الجارة لهذه العربات، وأأمل فيما لها من الحركة العجيبة وشدة السرعة الغربية التي حملت الأغرار من بعض العامة على أن يقولوا انها إنما تسير بقوة جماعة من الجن والشياطين مسخرين لها بواسطة العزائم والسحر والطلاسم وأمثال ذلك مما حملهم عليه غرابة الأمر وعدم علمهم بحقيقة السر، وقد عرفت أنها تسير بواسطة النار التي أرى كثرة دخانها وأفواج شررها المتطايرة ..."

وهنا يتولى الانكليزي، الذي لا نعرف اسمه على امتداد الكتاب، وكأنه مجرد نموذج لأي أوروبي مثقف، شرح مواصفات هذا الاختراع الجديد، ومدى فائدته العملية والتجارية. وكان الشيخ وابنه يركبان هذه الآلة العجيبة للمرة الأولى في حياتهما. وبينما يقوم العالم الانكليزي بتقديم المعلومات عن آلات الحضارة الحديثة وعلومها وآدابها، ينطلق الشيخ المصري في رواية معالم التراث الإسلامي وشعائر الدين والمواسم والأعياد، مثل الاحتفال بمولد السيد البدوي في طنطا ، أثناء توقف القطار في محطتها<sup>4</sup>.

---

1- نفس المصدر، ص . 77 .

2- عرف القطار، أو السكة الحديدية ، إزدهارا موازيا للنهضة الاقتصادية، الناتجة عن الثورة الصناعية التي عرفت أوروبا خلال القرن التاسع عشر، وساهم بالحظ الأوفر في التغيرات الاقتصادية، بل وحتى السياسية للعديد من الدول، وكان ظهوره بصفة عامة سنة 1829 م، عندما نجح الإنجليز ستيفنسون في صنع قاطرة بخارية تسير بسرعة 24 كلم في الساعة . وتجر تقريبا 13.000 طنا من الأثقال .

3- المراهق : رحلة إلى باريس، مصدر سابق، ص . 37 .

4- مبارك : المصدر السابق، المجلد الأول، المسامرات السابعة، والثامنة والتاسعة والعاشر، صص . 383-449.

كما توقف فارس الشدياق لوصف الجسور والقناطر والمراكب، وتوقف عندها مبديا انبهاره وإعجابه بالتطور الرهيب في هذا المجال، حتى أنه يجبل لمن لم يكن خبر أحوال البلد، " أن الناس متأهبون للخروج إلى الحرب والقتال. إذ يمر عليه في كل دقيقة نحو عشرين مركبا ما بين عاجلة وحافلة وعجلة وما أشبه ذلك... قال بعضهم، يرد في كل يوم ستون ألفا من مراكب البر على اختلاف أنواعها في نحو خمسين شارعا منها اثنتا عشر ألف مركب يمر على جسر لندن في ظرف أربع وعشرين ساعة"<sup>1</sup>.

استمر الإعجاب بوسائل النقل في أوربا في النصوص الرحلية المشرقية، حيث تعرف الرحالة المشاركة على أنواع جديدة من المواصلات، كالأوتوموبيل والترامواي والأوتوبيس والأمنييس و المترو وغيره...

## الفصل الثاني:

---

1- الشدياق: كشف المخبأ عن فنون أوروبا... ، مصدر سابق، ص . 345 .

# تجليات وعي المغاربة بالتجاوز الحضاري الأوروبي.

المبحث الأول: المجال العسكري ✓

المبحث الثاني: المجال التعليمي والثقافي. ✓

المبحث الثالث: المجال السياسي. ✓

المبحث الرابع: المجال الإقتصادي. ✓



## المبحث الأول : المجال العسكري .

ليس من شك في أن وقع احتلال الجزائر كان كبيرا ورهيبا، على المغرب وعدد غير قليل من البلدان الإسلامية، لأنه بالذات، نبه إلى قوة أوروبا، التي تجرأت على الدولة العثمانية ومدت يدها لاقتلاع سلطة الباي وإخراج الجزائر من نفوذ "الدولة العلية". وليس من شك في أن هذا الانتباه إلى قوة فرنسا سيتزايد، بل سيتفاقم، بعد أول تجربة احتكاك عسكري بها من طرف المغرب، على شاكلة الذي وقع بمناسبة معركة إيسلي عام 1844م، أي بعد احتلال الجزائر بأربعة عشر سنة. ولن تنتظر النخب المغربية كثيرا، حتى تكشف وتعي أن هذه الهزيمة هي نتيجة طبيعية للتفوق الفرنسي الكاسح، الذي بنى وأعد لنفسه من الأسباب ما جعله قادرا على إنزال هزيمة من هذا القبيل بالجيش المغربي .

لقد كشفت قراءتنا للنصوص الرحلية المغاربية في القرن التاسع عشر، الحضور المكثف للمجال العسكري، حيث قدمت هاته النصوص أوصافا مستفيضة ومدققة لفبريكات الصناعة الحربية المزارة، وأنواع الأسلحة المدمرة المشاهدة، ومختلف وحدات جيوش البر والبحر المستعرضة بمناسبة أو بدونها . وهذا ما دفعنا للتساؤل عن ما إذا كانت هناك نية مبيتة لدى الأنظمة الأوروبية آنذاك من أجل إبحار القادمين من البلاد المغربية وترهيبهم بالترسانة العسكرية التي أصبحت أوروبا تتوفر عليها، من أجل دفعهم للاستسلام والرضوخ والخنوع للأطماع الأوربية التي ازدادت شراستها في القرن التاسع عشر.<sup>19</sup>

---

1- أرجع الأستاذ المكاوي هيمنة الشأن العسكري في نصوص الرحلات المغربية خلال القرن التاسع عشر، إلى عاملين متداخلين أحدهما ذاتي والآخر خارجي، ففيما يتعلق بالعامل الأول "كان من الطبيعي أن ينصب اهتمام المغاربة على المسألة العسكرية بفعل التفوق الكاسح الذي أظهره الأوروبيون خلال مواجهتهم معهم، ولذلك رغبوا في الاطلاع واكتساب ما منح الأوروبيين القوة والتفوق. ويتمثل العامل الثاني في أن المسؤولين الأوروبيين حرصوا على إثارة انتباه أعضاء السفارات المغربية إلى ما لديهم من قدرات عسكرية من خلال برمجة وترتيب زيارات للمدارس العسكرية والمصانع الحربية ومتاحف السلاح واستدعائهم لحضور استعراضات وصادرات عسكرية، كان القصد من ذلك تحقيق غرضين:

- إرهاب المغاربة عن طريق إظهار الترتيب ووفرة العدة والذخيرة الحربيين خصوصا من لدن إسبانيا وفرنسا أكثر الدول الأوربية اهتماما بمصير المغرب.

- محاولة إقناع المغاربة واستمالتهم إلى اقتناء الأسلحة أو بعث إرساليات طلابية أو استقدام أطر منها في إطار المنافسة الشديدة التي كانت قائمة بينها حول هذه الأمور". المكاوي: الرحالون المغاربة وحضارة أوروبا، مرجع سابق، صص. 40\_ 41.

## أولا : وصف الاستعراضات العسكرية والإقرار بقوة أوروبا.

إذا كان احتلال الجزائر سنة 1830م ، خلق لدى المثقف المغربي شعورا حادا بالفارق بين دول المغرب وأوروبا، واستفزته في وعيه بحكم التفوق التقني الهائل لجيوش أوروبا قياسا إلى التكوين التقليدي للمحاربين المغاربة، فإن الرحالة المغاربة، تونسيون وجزائريون ومغاربة، سيعيشون توزعا كبيرا في النظر عند مشاهداتهم لاستعراض الجيش، في فرنسا وغيرها من بلدان أوروبا الغربية. فلقد اختلط لديهم الإحساس بالحزن والدهشة، وتداخلت اعتبارات الإعجاب والرغبة في الفهم، ذلك " أن تلك المشاهد تنقل المسافر، دفعة واحدة، إلى حيث يستحضر هزيمته في مقابل انتصار الغير، وتجعله يقف على أسباب التقدم مجتمعة، حيث النظام، والنظافة، والعلوم، و العدل.<sup>1</sup>"

رأى الصفار المغربي الذي زار فرنسا بعد نكسة إيسلي ، في دعوة الوفد المغربي لحضور حفل استعراض عسكري إمعانا من الآخر في تبيكيتهم والتنكيت عليهم "ومن بعد الغد، أمر لنا السلطان بسرد العساكر، لأنه لا يفعل ذلك إلا لمن هو عنده حظوة، وزيادة في تبيكيتنا والتنكيت علينا باطنا"<sup>2</sup>. ولعل هذا الإحساس المفعج مرده تلك المقارنة غير المتكافئة التي جالت بخاطر الصفار، وقلبه يلتهب غيظا وهو يرى قوتهم وحسن سيرتهم، ونظامهم العجيب، وضبطهم الغريب، وحزمهم وإتقانهم، وانصياعهم لقوانينهم، واستعدادهم وحسن ترتيبهم، ووضعهم كل شيء في مكانه اللائق به .

كما وصف باستفاضة، لمناورة عسكرية بحرية أقيمت احتفاء بالوفد المغربي، لكن الصفار اعتبرها تخويفا وقرحة، على الرغم من أن ظاهرها فرحة، وفي ذلك يقول : "... ومن طبعهم، أنهم يعجبهم أن يرونا ما عندهم، ولا يتركون عندهم شيئا جليلا أو حقيرا، إلا أطلعونا عليه. فمن جملة ما فعلوا لنا في هذا النايوس، مما هو في الظاهر فرحة وفي الباطن تخويف وقرحة، مع أنا والحمد لله لا نخافهم، وإنما نخاف الله، إنهم أرونا كيفية حربهم بالمدافع، في هذا المركب، إذا عرض لهم فيه حرب"<sup>3</sup>. ولا يتمالك الصفار نفسه وهو يصف أسلوب قتال هذا الجيش من أن يبدي حسرته وألمه وحيرته وانبهاره بعظمة قوة العدو، قائلا : "ومضوا وتركوا قلوبنا تشتعل نارا، لما

1- العلوي : أوروبا في مرآة الرحلة...، مرجع سابق، ص . 46 .

2- الصفار : المصدر السابق، ص. 194.

3- نفس المصدر، ص . 195 .

رأينا من قوتهم وضبطهم وحزمهم وحسن ترتيبهم ووضعهم كل شيء في محله، مع ضعف الإسلام، واختلال قوته، واختلال أمر أهله. "1

بعد سنة من وصف الصفار لقوة الجيش الفرنسي، سيعمد ابن أبي الضياف التونسي أيضا إلى وصف الاستعراض العسكري المخصص للباي أحمد في باريس سنة 1846م، مبديا إعجابه بالتنظيم العسكري الفرنسي: "وركب الباي بمن معه، ولما وصل إلى مجتمع العسكر، تلقاه ابن السلطان وقال له : إن التعليم صنع لأجلك، فأنت أميره في الحقيقة . وشرعوا في صرخ المدافع والمكاحل حتى اسود النهار، وكان يوما باردا، فقال الباي لابن السلطان: "إن العسكر آلمه البرد والثلج، ويكفي ما حصل، فأمر بالانفصال، وكان يوما مشهودا".2

كما أطنبت الرحلات الجزائرية في وصف الاستعراضات العسكرية الفرنسية ، فقد وصف سليمان بن صيام الذي زار فرنسا سنة 1852م، استعراضا عسكريا نظم في باريس ، وخصص له ما يزيد عن ثلاث صفحات من نصه الرحلي الموسوم ب"الرحلة الصيامية"، مبديا إعجابه وانبهاره بالقوة العسكرية الفرنسية، وفي ذلك يقول: "وجدنا به خلقا لا يحصى والعساكر المختلفة التي لا تعد ولا تحصى ولا تستقصى، مصففة على مد البصر، مع اختلاف ملابسهم وكثرة مدافعهم وشدة حزمهم ، وزينة الجيش الراكب على عتاق الخيل." ويضيف متعجبا من كثرة أفراده وضخامته: "سرنا إلى محلنا متعجبين مما رأينا في ذلك اليوم من كثرة الجيش، ولاسيما من الجيش المتذرع بدروع الحديد، وذلك من أعجب ما رأينا ... ولما سألنا عن عدد العساكر التي حضرت هذا المهرجان، أخبرونا أنه ثمانون ألف نفر"3.

وفي مدينة ليون وصف سليمان بن الصيام مجمعا عسكريا أقامه الجنرال كسطلان إكراما لقدوم الوفد الجزائري، "فلما وصلنا أنزلنا في موضع مرتفع لنرى جميع ما يقع، وأمر أهل المدافع والخيالة والعساكر المتذرع بالحديد وغيره، مما لا يأتي عليه الحصر، وقد رأينا للعساكر في ذلك اليوم ما لم نر قط من رمي المدافع

1- نفسه .

2- ابن أبي الضياف : المصدر السابق، ج ، 4 ، ص . 107 .

3- زيادة : ثلاث رحلات جزائرية ، مصدر سابق، صص . 45 - 46.

والضرب بالسيوف والرمي بالبنادق، وخفة تلك العساكر وتدريبهم وخدمتهم وترتيبهم وذلك من أعجب ما رأينا، ودام ذلك اللعب من وقت الزوال إلى عشية ذلك اليوم.<sup>1</sup>

كما وصف خلفه أحمد ولد قاد، الذي قام برحلة إلى فرنسا سنة 1877م، وسمها ب "الرحلة القادية في مدح فرنسا وتبصير أهل البادية" استعراض الجيوش الفرنسية وطرق تدريبها وتنظيمها قائلا : "ففي يوم الأحد الخامس عشر من سبتمبر تشرف البعض من أعيان العرب بالحضور في تسراد العساكر وتدريبها وتنظيمها ... فلقد تمتعت نواظرنا وانشرحت خواطرنا ورقصت أفكارنا طربا، وأخذنا من ذلك المنظر الحسن عجا وعجبا، فيا له من يوم مشهود يبلغ خبره الحاضر للغايب، ويسير بذكره في المشارق والمغرب، يبقى حديثه على مر الأيام ترويه أقوام بعد أقوام، فما ترى غير بوارق السيوف الساطعة في دياجي الغبار ، وسوابق الخيول التي لا يجد العدو منها فرار، والصفوف الهائلة الرؤية، الشديدة الوطأة التي لا يدخل نظمها اختلال ولا يطمع في تفريق كلمتها عدو محتمل"<sup>2</sup>.

ويضيف مخبرا عن عدد الجند ودقة تنظيمهم قائلا : "...وهذا الجيش الذي رأيناه يشتمل على نحو الخمسين ألفا ما بين المشاة على اختلاف اصنافها والخيالة على أنواعها والطبجية بمدافعها .. ثم شرعت العساكر في المرور بين الحقلين تمر مر السحاب، في غاية التنظيم والتحكيم الحربي ، والخيالة قد أطلقت الأعنة كالسيل الغزير دفعة واحدة ثم وقفت مصطفة وقفة فارس واحد كبنيان مرصوص"<sup>3</sup> .

أما المغربي إدريس الجعيدي، والذي تزامنت رحلته مع رحلة ولد قاد الجزائري، وألف حولها نصا رحليا موسوعيا، سماه ،"تحاف الأخيار بغرائب الأخبار"، فقد أثار إعجابه منظر الجيش الفرنسي خلال الإستعراض الذي نظمه رئيس الجمهورية الفرنسية في باريس، وانبهر بنظامه الناجم عن توزيع أفراده إلى: مشاة، وخيالية، ومدفعية وموسيقيين، وتوزيع كل هذه الأسلحة إلى فرق منظمة تنظيما وترتبيا، مما جعله يستوعب جيدا وضعية المغرب المهترئة مقارنة بالدول الأوروبية التي زارها، وأدرك أن بلده يتعذر عليه توفير ما يستطيع أن يوازي به أية قوة أوروبية تأطيرا وتجهيزا وانضباطا<sup>4</sup>، فبعد أن يصف الجعيدي جيش المشاة الذي استعرضه "كبير الدولة" موزعا إلى

---

1- نفس المصدر، ص . 49.

2- نفس المصدر ، ص . 78.

3- نفس المصدر، ص . 79.

4- المكاوي : الرحالون المغاربة .. ، مرجع سابق، ص . 47.

فرق، كل فرقة مسبوقة بفرقة موسيقية تؤدي معزوفاتها العسكرية بإتقان، تجده يصف بقية الجيوش الأخرى التي شاركت في "التسراد" المذكور قائلا: "ثم أتت فرسان العسكر ومعها الطنابرية، وأصحاب الموسيقى، ومروا صفا بعد صف، وهم خمس فرق، في كل فرقة نحو ألف كما تقدم... فعلى هذا يكون جملة العسكر الذي حضر التسراد في ذلك نحو خمسين ألفا بين فرسان وراجلية... وقيل إن ذلك العسكر الذي حضر التسراد هو عسكر باريس لا غير".<sup>1</sup>

فلقد اهتم الجعيدي وأحمد ولد قادم خاصة ، بالجهد المبذول من طرف الفرنسيين لإعادة تنظيم الجيش الفرنسي الذي انهزم أمام بروسيا ( 1870م - 1871م )، وذلك قصد إعادة الاعتبار والثقة لسمعة فرنسا الدولية ، ومرهبا بطريقة غير مباشرة للسفارة المغربية الممثلة للدولة المغربية وجارتها الجزائر .

### ثانيا : الإهتمام بالمصانع والأسلحة والذخيرة الأوروبية .

لاحظ الشيخ محمود قبادو التونسي<sup>2</sup> ، الذي قام برحلة إلى أوروبا ولم يدونها ، أن "الدولة الإسلامية لما نشرت لها راية الرعب وخفقت في كل قلب، لم تزل الكفرة في طلاب المنجاة منها تمشي تحت كل كوكب وفي ارتياد المفازة عنها تتشقق كل كوكب. وما منهم إلا من آب بعد الأين بخفي حنين، إلى أن قضى القدر المتيح والجد المريح بأن يكون إقبال المراد وإقبال المواد في هذا العهد الحديث، غب ذلك السعي الحثيث لأحلام السفنج، رجرجة الفرنج، فاستحدثوا تلك الطامة التي هي إحدى الكبر، وذات الودقين التي لا يعفو لها أثر، لواحة البشر، التي لا تبقي ولا تذر، الصواعق الصناعية، الصادرة عن الأسلحة النارية . فأرادوا بها دائرة البوار، على اليلب المدار، وأباحوا حمى الدلاص المادية، والموضونة الحطمية، وقلصوا ظلال القنوات، وبتروا البيض الباترات فزق حديث البسالة للمنزل المهجور ولعبت به ريحا صبا ودبور".<sup>3</sup>

1- الجعيدي: المصدر السابق ، صص . 168- 170 .

2- ولد محمود قبادو ( 1813- 1871 ) بتونس، كان منذ نشأته ميالا إلى التزهّد والتصوف، ارتحل إلى استانبول وبقي عشر سنوات ولم يرجع إلا سنة 1841 ، كان من أنصار التجديد والإصلاح والانفتاح على أوروبا، زار أوروبا لكنه لم يدون رحلته في نص، أشرف على تعريب عدد كبير من الكتب الحربية، ترك ديوانا من الشعر طبعه في جزئين تلميذه محمد السنوسي سنة 1878 م، انظر الفاضل بن عاشور، أركان النهضة الأدبية بتونس، تونس، مكتبة النجاح، الطبعة الأولى، 1965م ، ص . 45 .

3- قبادو، محمود : ديوان الشيخ قبادو قبادو، نقلا عن، جدعي، فهمي : أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، 2010، ص . 127 .

نستشف من كلام الشيخ قبادو، أن الأوربيين ظلوا يرهبون جانب الدولة الإسلامية ، ويخشون بأسها، إلى أن تم لهم استحداث "الصواعق الصناعية"، أي الأسلحة النارية الفتاكة التي لم تعد الأسلحة التقليدية قادرة على التصدي لها، والتي باتت تلحق الدمار بالحمى. وترتب عن ذلك تغييرا في الأنظمة العسكرية وتطورا في المخترعات التي أقاموها على أساس من الرياضيات والفيزياء التجريبية، بحيث أصبحوا يتحكمون في أمور الدنيا.

أما خير الدين التونسي فقد خص **القوة العسكرية** بفقرة في كل فصل متعلق بكل دولة من دول أوروبا وعيا منه بالتفاوت الحاصل في القدرات العسكرية بين المسلمين عامة وأوروبا، وأحصى عدد الجيوش والمعدات ليكون ساسة المسلمين على بينة من قوى الدولة الأوربية. كما قدم محمد **بيرم الخامس** أرقاما عن القوة العسكرية للدول الأوربية، فأورد أرقاما عن عدد الجند والعساكر والفرسان، وعدد السفن الحربية المدرعة العاملة والاحتياطية والمدافع، لكل دولة من الدول الأوربية التي زارها، مبينا حدة التفاوت الحاصل في المقدرات والإمكانات العسكرية بين الدول الأوربية القوية وبين الدول العربية الضعيفة المهانة.

أما علماء المغرب الأقصى، فقد أطنبوا في وصف مصانع ومعامل إنتاج الأسلحة، حيث سجل الصفار وجود عدد من القلعات المحيطة بباريس "سكنها العسكر وفيها أبراج المدافع، وبها يسكن الطبخية، لهم بها بيوت عديدة فيها فرشهم وأسلحتهم، وبها بيوت وخزانات لأنواع السلاح الذي يحمل من سيوف ومكاحل وتوافل وبيضات ودروع"<sup>1</sup>. كما أفرد الصفار البحرية الفرنسية بوصف دقيق كما رآها أثناء زيارة لمدينة طولون، وقد فعل ذلك وعيا منه بحاجة المغرب القوية إلى سلاح البحرية ، الذي افتقر إليه المغرب للدفاع عن موانئه، وذلك منذ أن قام المولى سليمان بتصفيته خوفا من أن يورطه في نزاع وخيم العواقب مع الأوربيين، يقول الصفار: "وهذه المدينة هي مأوى عساكرهم البحرية ومرسى سفنهم الحربية ، وهي صغيرة لكنها في غاية التحصين، لها سوران وخلف كل سور حفير عظيم واسع... فصعدنا فرأينا فيه من الطبخيات والمدافع وسائر آلاتها وإقامتها، ومن العساكر وترتيبها ووضع الأشياء في محلها ، وإسراع من به لإجابة أمر كبيرهم وطاعتهم له، ومن الإتيان والحزم والضبط ما ينبئ عن عظيم قوتهم وحدة عقولهم وحسن إعدادهم وتديبيرهم واستعدادهم للأمر قبل أن تنزل بهم"<sup>2</sup>.

1- الصفار : المصدر السابق، ص . 140 .

2- نفس المصدر، ص . 134 .

انبهر العمراوي صاحب رحلة "تحفة الملك العزيز بمملكة باريز"، والذي زار أوروبا سنة 1860م، بمحتويات دار السلاح في باريس، وما تتوفر عليه من أسلحة حديثة ومتنوعة، حيث وصف دار السلاح بأنها " دار كبيرة متسعة جدا وفي أعلاها بلاطات طويلة عريضة .. وفي تلك البلاطات سراجيب مشرفة على وسط الدار، وتلك البلاطات مشحونة بأنواع السلاح القديم والجديد من أول الدنيا إلى وقتنا". وتوقف منبها عند الأسلحة الحديثة، "...وصلنا للسلاح الجديد المستعمل عندهم الآن من المكاحل ذات الحبة، وهناك من آلات الدفع والعجلات التي يحمل عليها من الأنواع مالا يأتي عليه حصر... وكل شيء من هذا السلاح مكتوب عليه في بطاقة ملصقة به تاريخه والقوم الذين كانوا يستعملونه ... وهذا المحل من أعظم المحال التي رأينا عندهم، في رؤيتها عبرة للمعتبرين وآية للمتفكرين"<sup>1</sup>.

كما اتضح لنا من قراءتنا المتكررة لرحلة "تحفة الأخيار بغرائب الأخبار"، أن صاحبها إدريس الجعيدي كان كثير الاهتمام بالاطلاع على ما تصنعه المعامل البلجيكية من مدافع حديثة، خاصة المدافع الصغيرة التي يسهل على الجندي حملها، وجرها، والعمل بها سرعة وخفة... ولعل هذا الاهتمام كان يعبر عن اهتمام المخزن بالأسلحة التي تمكنه من التوفر على طاقة نيران كثيفة فعالة ملائمة للحرب ضد القبائل "السائبة المتمردة". ولذلك نجد الجعيدي يصف وصفا دقيقا كيفية صنع هذا النوع من المدافع مدعما وصفه برسم توضيحي على طرة الصفحة. وقد أظهر الجعيدي مزايا هذا النوع من المدافع، ذكرا أصنافها، وقدرتها النارية، ومداهها، قائلا: "... ثم تكلم كبير الدار مع بعض الخدمة التي فيها وهو ولد صغير يبلغ سنة ثلاثين سنة... فعمد إلى ذلك الدفع، وفصله عن كريبته، ودفعه، ووضع على كتفه، وبقي واقفا به هنيهة، ووضع على كريبته، ثم أتى معه ولد آخر في قدمه وجعلا كالعصا على رجل الكريطة لأنها لها رجل واحدة، وأخذ كل واحد منهما بطرفها بيد واحدة، وخرجا به إلى وسط الدار، وصارا بجريان به، وهما يحركانه، وفورمته وراءهما. ولم يكن عليهما في ذلك كبير مشقة. ثم رداه إلى محله. ووجدنا مدفعا آخر مصنوعا مثل هذا أكبر منه بنحو ذراع فيه ثنتان وثلاثون عمارة كما في الآخر، ووجدنا آخر فيه سبعة وثلاثين عمارة قيل أنه يرمي في الدقيقة الواحدة ستمائة رصاصة، وغاية البعد أنه يرمي به اثنتان وعشرون مائة مرة، وهي تنيف عندنا على ثلاثة وأربعين مائة

---

1- العمراوي : المصدر السابق، صص . 74\_75 .

ذراع... ووجدنا آخر أكبر من تلك المدافع طوله نحو ثلاثة أذرع، وليس فيه إلا سبع عمارات، فورمة كل واحدة قدر دور نصف الريال، قيل أنه يرمي بمقدار خمس وثلاثين مائة متر<sup>1</sup>.

ولما كانت مهمة البعثة السفارية المغربية وكاتبها الجعيدي ، تقتضي الاطلاع على أنواع الأسلحة المستحدثة في أوروبا، كما أشرنا سابقا، فإن الجعيدي لم يكتف بوصف معامل الأسلحة التي زارها، بل أضاف إلى ذلك إخبار المخزن بأثمان منتوجاته كالبنادق والمدافع وغيرها ، ففي زيارته لمصنع بلجيكي للبنادق يقول الجعيدي: " توجهنا لدار فابريكة صنع المكاحيل... فحين وصلنا إليها تلاقانا كبيرا بالترحيب والتعظيم... فصعد بنا الخزين بأعلاه، فوجدنا فيه جميع العينات التي تصنع للأجناس كما تقدم، وجميع عينات الكوابس، ومن المكاحيل ماله جعبتان، وثن هذه العينة أربعون ريالاً. ومنها ماله جعبة واحدة وتعمر من الخزنة وهي من العينة المختصرة في الوقت الذي لم يظهر حينئذ أرخص منها، وثنها ثمانية عشر ريالاً، وهناك بأقل من ذلك، حتى أن هناك عينة بالزناد ذات جعبة واحدة ذكر أن ثمنها ريال وألف ريال<sup>2</sup> .

ثالثاً : أسرار قوة أوروبا العسكرية عند السفراء المغاربة :

لما كان الجيش الفرنسي من أشهر الجيوش الأوروبية وأقواها، اقتضى ذلك من الرحالة المغاربة، أن يفردوا حيزاً من رحلاتهم للحديث عن الأسباب الموضوعية التي اقتضت شهرته وجعلته جيشاً قويا مهاب الجانب، وقد حصروا ذلك فيما يلي:

**أ: إجبارية الخدمة العسكرية :** فقانون فرنسا حسب خير الدين التونسي وإدريس العمرابي يلزم التجنيد على كل فرنسي بلغ السن المحدد في القانون، بدون تمييز طبقي بينهم، ويعفى من ذلك من له عذر معتبر في القانون<sup>3</sup>.

**ب: التأطير والتدريب والخضوع للقانون والنظام :** عزا السفراء المغاربة نظام الجيش الحديث وقوته إلى ارتكازه على قوانين يعترف بها الجميع، ويخضع لها في مجال الجيش كافة المنخرطين في صفوفه، ويلتزمون باحترامها مهما كانت مراتبهم ومراكزهم ورتبهم، ولذلك اهتمت الدولة بتأسيس مدارس عسكرية يتعلم فيها الجنود العلوم والقوانين العسكرية، فقد زار عدد من أفراد النخبة المغربية مجموعة من المعاهد والمدارس المخصصة لتعليم

1- الجعيدي : المصدر السابق، ص . 216 .

2- نفس المصدر، صص . 217- 218 .

3- التونسي : المصدر السابق، ص. 159. العمرابي : المصدر السابق، ص. 117.



الفنون الحربية، يقول الجعيدي : " فوجدناها مملوءة بفئة من العسكر كانوا جالسين على الأسرة من عود، وكل واحد قدومه كتاب وكبيرهم مقابل لهم، فعند إشرافنا على الدخول عليهم تكلم معهم الكبير فوقفوا وأشاروا بالسلام، ذكر أنهم يأتون إلى هذه الدار في الساعة الخامسة من صباح كل يوم، ولا يخرجون منها حتى تصل الساعة الحادية عشر ليلا، فيكون مقامهم بهذه الدار ثمان عشر ساعة، وتبقى لهم من اليوم بليلته ست سوانع للنوم والاستراحة... " <sup>1</sup>

كما لفت انتباه الرحالة المغاربة حرص الفرنسيين خاصة، على العدل وتطبيق القانون دون محاباة ولا تمييز بين الناس في ذلك، يقول الصفار : "إن صدرت من واحد منهم زلة أجروا عليه شريعتها، سواء كان رفيعا أو وضيعا.. لا يطمع أحد منهم في غير ماهو له ، ولا يخاف على ما في يده أن ينزع منه". <sup>2</sup>

هذه الملاحظة التي لفت إليها الصفار، عزها العمراوي بعد خمسة عشر سنة، حيث أشار إلى أن "الأحكام اللازمة للعسكر من لزوم الطاعة وامتثال ما يأمره به كبيره، وأن من خالف يكون له كذا. ومن قتل يكون له كذا، ومن فر يكون له كذا، فلا يخرج من تلك المدرسة حتى يكون عارفا بجميع الملازم والأحكام المرتبة على الجرائم" <sup>3</sup>. وعندما تحدث نزاعات بين بعض أفراد الجيش مهما اختلفت مراتبهم يحتكمون إلى القانون قصد ترسيخ النظام ووحدة الصف "ولو شكأ أدنى عسكري من باشا الجيش، رفعوا قضيته معه لمجلس الحكم ونظروا فيها حتى تفصل بالعدل، فبذلك وقف كل واحد عند حده فأمنوا بوائقه وفتنه. فترى قائد المائة يتفقد مائه واحدا بعد واحد كأهم أولاده. ولا يخاطب أحدا منهم إلا بالسيادة، ولا يشتم لأحدهم عرضا ولا أبا ولو كان مجرما، بل يأتي بالجرم فيجمع عليه العسكر وقواد المائة، ويذكر جريمته ويقول له إن القانون حكم عليك بكذا لكونك فعلت كذا، ويمكنه من المدافعة عن نفسه وإظهار حجته حتى يغلب بالحجة ثم ينفذ فيه الحكم من غير إظهار شماتة وتشف" <sup>4</sup>.

**ج: الترقية حسب مبدأ الاستحقاق والأهلية :** اعتبر المغاربة النزاهة والشفافية المعتمدة في ترقى الجنود، من أهم نقاط قوة الجيش الفرنسي، فلا يمكن لأحد أن يصير ضابطا في العسكر إلا بالاستحقاق، وذلك يتم

---

1- الجعيدي : المصدر السابق، ص . 323.

2- الصفار : المصدر السابق، ص . 135 .

3- العمراوي : المصدر السابق، ص . 100.

4- نفسه.

حسب خير الدين بأميرين، " أولهما تعلم العلوم العسكرية في المكتب العسكري، فإذا شهد بنجاجة المتعلم أهل المعرفة خرج من المكتب فيسالا صغيرا ملازما، ثم يترقى بحسب أهليته، والثاني أن يخدم في الجندية ستة أشهر على الأقل، فيترقى إلى ما فوق بالشروط المقررة عندهم"<sup>1</sup>. وإلى ذلك نفسه يشير العمراوي بقوله: "ويدركون المراتب عندهم بالمزايا، فمن ظهرت له مزية وهو عسكري استحق أن يكون مقديما، وإن كان مقديما استحق أن يكون قائد المائة وهكذا لا ترى أحدا منهم يدرك التقدم بغير الهزيمة، ولا يخطر في خاطر أحد من الرؤساء أن يقدم أحدا في العسكر لكونه صديقه أو قريبه"<sup>2</sup>.

**د: نظام العقود:** آثار الصغار النظر إلى جانب من جوانب القوة العسكرية الأوروبية متمثلا في العمل بنظام العقود بين الجيش والمنخرطين فيه، وهي عقود محددة في الزمان يلتزم بموجبها المنخرط بأداء مهامه خلال مدة العقد، وهي ثمان سنوات عند انقضائها يبقى له الخيار في تجديد عقده أو عدم تجديده، إذ أن الفرنسيين "يحددون في كل عام ثمانين ألف من العسكر. ومن دخل في العسكر يجب أن يبقى في الخدمة ثمان سنين ثم هو بالخيار"<sup>3</sup>.

**ه: سن نظام التقاعد:** انتبه كثير من النخبة المغربية ممن زار منها البلاد الأوروبية، إلى أن من الأمور التي تجعل الجندي متفان في خدمة الوطن والدفاع عن حوزته، هو الاطمئنان على نفسه وأسرته بعد العجز أو الوفاة، حيث ينص القانون الفرنسي على "أن من خدم في العسكر مدة معلومة أو عجز، قبل تمام المدة بسبب الخدمة، فإنه يعطى مرتبا للتقاعد على كيفية مبينة في قوانينه، وقد يعطى لزوجته بعد وفاته ثلث ذلك"<sup>4</sup>.

**و: تخصيص دور لعلاج الجرحى:** لفت انتباه ابن أبي الضياف عناية الفرنسيين البالغة بالجرحى من الجنود الذين أصيبوا في الخدمة، تهيأ له ذلك أثناء زيارته رفقة الباي، محلا عسكريا يسمى الأنفليد<sup>5</sup>، وهو "موضع من أصيب من العسكر في الحرب بنقص عضو ونحوه، فأثاه<sup>6</sup>، ولما دخله اصطف له من له قدرة على القيام، هذا برجل من خشب، وآخر بغير ساعد.. فأثاهم وسلم عليهم وآنسهم وقال لهم: إن ما وقع لكم من

1- نفس المصدر، ص . 101.

2- العمراوي: المصدر السابق، ص . 118 .

3- نفس المصدر، ص . 218 .

4- التونسي: المصدر السابق، ص ، 160.

5- Les invalides

6- أي الباي.

النقص البدني، الذي هو كمال في الإنسانية، شهادة لكم بالثبات والصبر وحب الوطن. ووجد من لا قدرة له على القيام، كل واحد في سريره، موكول به امرأة تناوله ما يشتهي، وتزيل عنه ما يلزم زواله، وهي حانية عليه حنو الوالدة على الفطيم. وبه مارستان كبير لمن طعن في السن وعجز عن الخدمة، تجري على الجميع جرايات واسعة ونفقة لها بال، من أحسن ما يتمنى الإنسان".<sup>1</sup> ويضيف مبرزاً دوره في رفع معنويات الجنود الفرنسيين قائلاً: "وهذا المحل مما يقوي قلوب عساكرهم حين يرون مثال العاجز منهم وأنه لا يترك نسياً منسياً، وهذا هو شأن شريعة الإسلام ولمثل هؤلاء حق شرعي في مرتب بيت مال المسلمين".<sup>2</sup> الشيء ذاته، استأثر باهتمام نخبة المغرب الأقصى، حيث زار العماروي ما سماها بدار العسكر العاجز، ووصفاً قائلاً: "وهي دار كبيرة جداً مشتملة على بيوت عديدة بعضها فوق بعض، ولها كنيسة ومطبخة كبيرة ومارستان وفيه خدمة العسكر ولم يبق في خدمته نفع أو أصابته آفة في الحرب أو غيره، فأقعد أو قطعت بعض أعضائه أو شبه ذلك وأراد الدخول لذلك المحل، فيدخل لها ويعطاه فراش وكسوة مرتبة ويرتب له طعامه هناك ليلاً ونهاراً فيبقى هناك إلى أن يموت، ومن أراد منهم الخروج لا يمنع، فإذا وصل وقت الأكل والنوم أتى لخله... وقد رأينا شيوخاً قد رقت أجسامهم وفنيت عظامهم وضعفت قواهم حتى لا يقدرّون على الجلوس وحدهم، ولا يتناولون الأكل بيدهم، وكل واحد منهم على سرير من الحديد مغطى بثياب بيض نقية.. ورأينا بعضهم أجلسه نسوة على طرف السرير وجعلن يناولنهم أكلاً رطباً مثل العصيدة بمغرفة صغيرة".<sup>3</sup>

**ز: وجود وزارة خاصة بالشؤون الحربية ذات ميزانية مالية ضخمة:** يخبر الصفار المغربي أنه اطلع على ميزانية فرنسا لسنة 1845م مطبوعة في كتاب فسر له بعض المترجمين الفرنسيين، وأورد مقدارها الإجمالي، وعدد مداخيلها المتنوعة مخصصاً لصفحات من نصه الرحلي لذلك، وكأنه بذلك يحاول إفادة أصحاب القرار في المخزن، بما يمكن أن يكون حلاً للضائقة المالية التي عاشها المغرب في القرن التاسع عشر، كما يخبرنا الصفار بوجود وزير الحرب، الذي "يختص بتدبير الشؤون العسكرية لدولته بعد أن تمكنه هذه الأخيرة من غلاف مالي من الميزانية العامة يكون أداة لذلك التدبير".<sup>4</sup>

1- ابن أبي الضياف: المصدر السابق، ج 4، ص 104.

2- نفسه.

3- العماروي: المصدر السابق، ص 81.

4- الصفار: المصدر السابق، ص 167.

كما تطرق التونسي بنوع من التفصيل لمهام وزير الحرب بقوله : "ومن أعماله حصر عدد العساكر والبرية وإدارة المهمات الحربية من المؤونة واللباس والأسلحة وفبريكاتها والحصون والمكاتب والممارسات العسكرية ومجالس أحكام العسكر وسجونهم، وهو الأمر على حركات الجيش في وقت الصلح والحرب، والمكلف بإدامة الطاعة منهم، وتعيين المبلغ الذي يدفعه لمن أراد إعفاء نفسه والخروج من الخدمة العسكرية، ويقدم لموافقة الملك ولاية من وجب تقديمه من ضباط العسكر على اختلاف مراتبهم وموظفي وزارته والمكلفين بخدمة مهمات الجيش ممن له تعلق بالوزارة..."<sup>1</sup>.

تأسيساً على ما سبق بيانه، اتضح لنا أن لجيش الفرنسي الذي احتل الجزائر دون مقاومة عسكرية تذكر، والذي قابله المغاربة في إيّسلي على غاية من الترتيب والنظام، لم يحصل ذلك اعتباراً أو مجرد صدفة، فواء ذلك سيادة المؤسسات وسيادة القانون ووجود تراتبية محددة في الجيش، ووجود ميزانية مالية مضبوطة تمكن الحكومة من وسائل تسيير أجهزة الدولة ومن بينها الجيش . فلقد ركز المغاربة على الجانب التنظيمي لهذه القوات، وكيفية سير طوابره، لما كانوا يعلمونه من أحوال بلدانهم المغاربية التي تعتمد على الأساليب القديمة والإمدادات الطفيفة والأسلحة العتيقة التي لا ترقى لمستوى التنظيمات العسكرية للجيش الأوروبي الحديث .

---

1- التونسي: المصدر السابق، ص . 159.

## المبحث الثاني: المجال العلمي

لقد أتاحت الفترة التي قضاها الرحالة المغاربة في أوروبا، أن يضعوا أيديهم على المفصل الرئيس الذي يميز المرحلة الحضارية الجديدة التي بدأت في أوروبا الغربية مع مطلع عصر النهضة. ففي أوروبا عرف هؤلاء مدى التقدم العلمي الذي أحرزه الغربيون، وفي أوروبا وقفوا على أحدث النتائج المترتبة على التطور العلمي، ليس في ميدان الاختراع والصناعة فقط، بل بانعكاس ذلك كله، على كافة مجالات الحياة الإنسانية وفي كافة الميادين أيضا.

**المطلب الأول : الوضع التعليمي بالبلدان المغاربية ومسألة التجاوز .**

لقد كانت الحياة العلمية في الغرب الإسلامي أشبه بكثير بما كان في المشرق، ككتاتيب في القرى والمدن غايتها تحفيظ القرآن الكريم، وقلما يبلغون هذه الغاية، ولا يستطيع المتعلم بسبب مناهج التعليم والدراسة السائدة أن يحسن القراءة والكتابة ولو قضى بها عشر سنوات، وكل ما يبلغه النجيب منهم أن يحفظ القرآن أو بعضه .

لقد تعرض ابن خلدون في أماكن مختلفة من "المقدمة" إلى مواضع تتعلق بالتعليم ، وتناولها من منظور اجتماعي وتربوي، حيث انتقد العملية التربوية وأساليبها ، ولاحظ تراجع التعليم في الغرب الإسلامي ، بل يربط سقوط الأندلس بهذا التراجع، وتأسف لعدم ربط التعليم بالواقع اليومي، إذ يقضي المتعلم وقتا ثميناً من عمره في دراسة علوم قد لا يحتاجها، "فالظاهر أن المتعلم ولو قطع عمره في هذا كله ، فلا يفي له تحصيل علم العربية مثلا الذي هو آلة من الآلات ووسيلة ، فكيف يكون في المقصود الذي هو الثمرة"<sup>1</sup> كما لاحظ ابن خلدون ارتباط العلم في المغرب بالأمور النظرية، وأرجع ذلك إلى اعتياد العلماء في تحاليلهم المنهج المبني على القياس المتخذ في الفقه، وأنهى ابن خلدون كلامه قائلاً بخصوص العلماء : "ولا تزال أحكامهم وأنظارتهم كلها في الذهن، ولا تصير إلى المطابقة إلا بعد الفراغ من البحث والنظر، فلا تصير بالجملة إلى المطابقة"<sup>2</sup>.

كما أشار الرحالة محمد بيرم الخامس إلى المستوى التعليمي السائد في تونس، ناقدا طريقة ومحتوى التدريس القرآني في الكتاتيب الذي يعتبر الأرضية العلمية التي تهيئ التلميذ للارتقاء إلى جامع الزيتونة، من ذلك أن الهيئة المشرفة على هذا الصنف من التعليم كانت حسب عبارته "قاصرة للغاية في هاته المكاتب"<sup>3</sup> الابتدائية، ولو في

1- ابن خلدون، عبد الرحمان : مقدمة تاريخ ابن خلدون ، دار الفكر ، بيروت ، 1981م ، ص . 501 .

2- نفس المصدر، ص . 503 .

3- المقصود الكتاتيب.

الحاضرة بحيث يمكن أن يبقى التلميذ فيها عشر سنين ولا يحصل على حسن القراءة والكتابة، وإنما النجيب منهم يخرج حافظا للقرآن المجيد فقط".<sup>1</sup>

ورغم ما شهدته الزيتونة من محاولات إصلاحية منذ قيام الدولة الحفصية أوائل القرن السابع للهجرة، الثالث عشر ميلادي، إلا أن المتأمل في هذه الإصلاحات، سوف يدرك أن التعليم الزيتوني لم يشهد تغيرا جذريا يواكب الأوضاع المتطورة، وأن محتواه التقليدي بقي على هامش التيارات العلمية والفلسفية الكبرى التي اجتاحت عالم الفكر في القرن التاسع عشر الميلادي الذي شهد ثورات علمية وأساليب ومناهج تربوية متطورة.

وفي الجزائر المستعمرة، عمل المحتل الفرنسي على تحطيم المدارس وتحويل المساجد إلى كنائس تمارس فيها الطقوس المسيحية، فأنحط المستوى العلمي انحطاطا كبيرا، وحاولت السلطات الفرنسية أن تعوض هذه الكنايات بالمدارس الابتدائية، لكن تلك المدارس لم تف بحاجات الراغبين في التعليم، إذ أن التعليم في هذه المدارس لم يكن قوميا ولا وطنيا ولا دينيا، بل إنهم كانوا يدرسون تاريخ وثقافة فرنسا، فانتشرت الأمية بين مختلف طبقات الشعب، ولم تتجاوز نسبة التعليم ثمانية في المائة، بين أطفال الجزائر في المدارس التابعة لحكومة الاحتلال من عدد الأطفال الذين هم في سن الدراسة الابتدائية، مما يفسر محاولة الإدارة الفرنسية طمس الشخصية الجزائرية الوطنية، ومحاولة تنصير أبناء الجزائر، لاسيما وأن فرنسا اعتبرت الجزائر منذ السنوات الأولى من الاحتلال قطعة من فرنسا<sup>2</sup>.

في المغرب الأقصى، شكل جامع القرويين أعظم المعاهد للعلوم العربية والدينية في العالم العربي والإسلامي، لاسيما بعد سقوط الأندلس، وبما أن دروسه كانت محل تطوع، فإن ذلك كان يتم من غير نظام، ولا ترتيب لسير الدروس، ولا للموظفين المتخرجين منه، الذين كانوا يضطرون لممارسة حرف موازية لهزالة الرواتب التي كانوا يتلقونها، مما أدى ببعضهم إلى الانقطاع عن الجامع لعدم قدرتهم على التوفيق بين التدريس والعمل الحر، ومن ثم تعطلت دروس وتخصصات .

لقد كانت جامعة القرويين والمدارس التابعة لها خلال القرن التاسع عشر، وبداية هذا القرن مثلا لأقصى ما يمكن أن تصل إليه مؤسسة علمية عتيقة من أنواع الانحطاط والتخلف،" فلم يكن عدد المنتسبين إليها في عهد

1- بيرم : المصدر السابق، ج، 1، ص. 143.

2- مالكي : المرجع السابق، ص . 245 .

الحسن الأول يتجاوز ألف طالب، 400 من فاس و600 من خارجها، وهو عدد سينخفض إلى النصف خلال العقد الأول من هذا القرن.<sup>1</sup>

فصل محمد حجي القول عن التعليم في المغرب الحديث، فميز في دراسته بين العلوم الشرعية والعلوم الأدبية والعلوم البحتة، ووقف كثيرا عند المناهج التعليمية التي كانت مبنية على الحفظ حتى قيل: "من لا يحفظ النص فهو لص"، وكانت ظاهرة الحفظ تمس كل مراحل التعليم، فيضطر الطالب إلى حفظ أمهات الكتب كـ"ألفية مالك" و"لاميته". ومن أجل تسهيل هذه العملية، انتشرت ظاهرة المختصرات المبنية على تلخيص المتون، ثم تلخيص التلخيصات. وخلص محمد حجي إلى القول بأن آفة التعليم في الغرب الإسلامي، "آتية من الحفظ والاختصار".

والملاحظ أن ظاهرتي الاختصار والحفظ، طبعت المناهج التعليمية منذ العصر الوسيط، وكانت موضع انتقاد من طرف أعلام المغرب الكبير أمثال ابن خلدون وابن القباب الفاسي وعلي بن ميمون الغماري وأبي العباس الونشريسي وغيرهم، إلا أن محاولاتهم لم تلق أذانا صاغية، إلى أن طغت المختصرات على كثير من المواد الدراسية وكانت سببا في جمود الدراسات وتأخرها، كما طبعت المادة العلمية بنوع من العقم، فانعدم الابتكار، وأثر هذا بالتالي في الطلاب، فأصبحوا يعيدون ما يسمعون ويعنون بالمسائل الشكلية التافهة، ويعتمدون على الاستدكار والحفظ عن ظهر قلب دون الفهم أو الوعي السليم.<sup>2</sup>

### المطلب الثاني: إقرار المغاربة برقي المنظومة التعليمية الأوروبية.

بناء على الوضع التعليمي السائد في بلدان الغرب الإسلامي، وعت النخبة المغربية حدة الفارق بين المنظومة التربوية التعليمية في البلدان المغاربية، ونظيرتها في أوروبا، حيث أدركت النخبة عن طريق مشاهدة الرقي العلمي في أوروبا، أن البشرية قد دخلت مرحلة حديثة تقودها أوروبا، ووقفت أيضا على حقيقة التلازم بين المدينة الأوروبية الحديثة وتجاوزها للعوامل الأخرى وبين التقدم في مجال العلوم والمعارف.

1- الجابري، محمد: أضواء على مشكل التعليم بالمغرب، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، بدون تاريخ، صص. 7- 8.

2- حجي، محمد: الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، مطبعة فضالة، الحمديّة، الطبعة الأولى، 1977، ج1، ص

## 1 – قوة انتشار المعارف بأوروبا .

لقد وجد الصفار المغربي في فرنسا جل ما كان مفتقدا بالمغرب، "وأهل باريز موصوفون بذكاء العقل وحدة الذهن ودقة النظر، ولا يقنعون في معرفة الأشياء بالتقليد، بل يبحثون عن أصل الشيء ويستدلون عليه ويقبلون فيه ويردون"<sup>1</sup>، في حين أن نظام المعرفة بمغرب القرن 19، وإن كان مؤهلا بحكم أصوله الإسلامية لاكتساب مراتب عليا في العلم النظري المقرون بالأعمال التطبيقية، فهو لم يتجسد في واقع المجتمع كذلك، لغلبة التقليد والجمود في تلقي المعرفة على الاجتهاد والتجديد لإنتاج المعرفة وبناء الحضارة .

فالنصارى بباريس كما يخبر الصفار "من اعتنائهم بذلك، أنهم كلهم يعرفون القراءة والكتابة"، وكل ما يسمعونه أو يرونه أو يستنبطونه أو يبلغ إليهم علمه يدونوه في الدواوين، حتى الصنائع، "فلا بد أن يكون الصانع يعرف الكتابة والقراءة ليتقن صنعته". فلا يكفي، وإن كان متعلما أن يبقى جامدا على صنعة واحدة في مجتمع ينبض بالحياة والحركة، يسعى باستمرار للإرتقاء والتطور في مدارج الحضارة ، بل وكما يقول الصفار: " يجب أن يبتدع في صنعته شيئا لم يسبق به، ولأنه إن فعل زادت مرتبته وعلت حظوته عند دولتهم ، ويعطونه على ذلك ويمدحونه ويذكرونه بما استنبط، ترغيبا منهم في الترقى في الأمور". لأن من شأن تشجيع الدولة للمتعلمين على الخلق والابتكار أن "يحملهم على تدقيق النظر وإمعان التأمل، واستكشاف دقائق الحفريات في سائر تصرفاتهم"، وللحفاظ على هذا المجهود من الضياع وإعطائه صفة المشروعية توجد هناك مؤسسات: "مدارس ومكاتب ، حتى في علوم الطبخ والغرس والبناء والزراعة ومعالجة النباتات وإنتاج الحيوانات"<sup>2</sup>.

وأثناء زيارته لإحدى المدارس، أثار استغراب الصفار حرص المتعلمين على التعلم واستغلال الوقت في ذلك، يقول الصفار : "ومن قانون المتعلمين بها، أنهم يأكلون في الساعة الثانية عشرة من النهار، وفي حين أكلهم يقف واحد في مرقاة هنالك، ويسرد عليهم كتابا من علم التاريخ ونحوه، لئلا تذهب تلك اللحظة ضائعة"<sup>3</sup>.

على منوال الصفار المغربي ، نفى سليمان بن الصيام الجزائري عن الفرنسيين صفة الجهل والأمية والتقليد قائلا: "وليسوا بالمقلدين في الأمور أصلا، بل يطلبون دائما إدراك معرفة أصل الشيء والاستدلال عليه، حتى

1- الصفار : المصدر السابق، صص . 166 – 167.

2- نفسه .

3- نفس المصدر، ص . 215.



أن عامتهم أيضا يعرفون القراءة والكتابة، ويدخلون مع غيرهم في الأمور العميقة، كل إنسان على قدر حاله، فليست العوام بهذه البلاد كعامة غيرها من البلدان. لو ما كانت سائر العلوم والفنون والصنائع الوضيعة مدونة بالكتب، يحتاج الصناع بالضرورة إلى معرفة القراءة والكتابة لإتقان صنعهم، وكل صاحب فن من الفنون يجب أن يبتدع شيئا لم يسبق إليه، أو يكمل ما اخترعه غيره ابتغاء الثناء في حياته وحسن الذكر بعد وفاته. وقد أشار ابن دريد في مقصورته إلى هذا المعنى حيث قال :

وإنما المراد حديث بعده فكن حدثت حسنا لمن وعاء<sup>1</sup>

عرف خير الدين التونسي العلاقة الوثيقة بين العلم والطور الجديد من أطوار التمدن، لذا أفرد ما يقرب من نصف مقدمته للحديث عن المعارف والاختراعات في أوروبا، بدءا من القرن الثالث عشر وحتى القرن التاسع عشر، محاولا أن يبين كيفية تشكل العقل الحديث، وانعكاس ذلك على حياة الإنسان وسعادته ورفاهيته وتقدمه وقوته وعلى كل ميادين نشاطه ومجالاتها.

وفي هذا الإطار، يشير التونسي إلى كتاب رفاة الطهطاوي عن رحلته الباريسية لمعرفة المزيد عن علوم أوروبا وعلاقة العلوم بالتمدن والعمران، "فقد كشف رفاة في هذا الكتاب الغطاء عن تدير الأمة الفرنساوية التي رفعت راية التمدن، وأجاد في ذلك وأفاد<sup>2</sup>".

لم يترك صاحب أقوم المسالك عالما أو مفكرا أو كاتباً أو فنانياً أو رجلاً دينياً أو رجلاً سياسة ممن أسهم في التطور العلمي والفكري والديني والسياسي والفني والأدبي وغيره، إلا وذكره مشيراً إلى المجال المعرفي الذي برع فيه، فهو يشير أولاً إلى حركة الإنسانيين من الشعراء والفنانين، كما يشير إلى أركان الحركة العقلية، وينتقل بعد ذلك إلى الحديث عن بعض الاختراعات والمكتشفات التي ساهمت في تطور الحركة العلمية والدفع بها إلى الأمام .

ولا ينسى صاحب، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، أن يشير إلى ما عرف باسم الثورة الكوبرنيكية، وإلى التطورات العلمية على يد غاليليو، وإلى إسهامات كوبرلر في علم الفلك، وانعكاس ذلك على التفكير عموماً ومناهج البحث في العلوم خصوصاً، وإسهامات فرنسيس بيكون وغيره في هذا المجال، وهو يعرف أن غرب أوروبا هو مركز هذه الحركة العلمية الجديدة الواسعة ، وقد عبر عن ذلك كله بأسلوب سهل نسبياً رغم ما كان يواجهه من صعوبات في نقل الأحداث والأسماء والمفاهيم إلى اللغة العربية .

1- زيادة : ثلاث رحلات جزائرية ، مصدر سابق، ص. 35 .

2- التونسي: المصدر السابق، ص. 214 .

وإذا كان التونسي قد اهتم بمونتسكيو، فلأنه كان أحد مصادر فكره السياسي إلى جانب فولتير وجان جاك روسو، وهو يسميهما **ولتير و جانجاك روسو**، ويقول عنهما إنهما الكاتبان المجيدان اللذان أنشأ ثورة أهل فرنسا سنة تسع وثمانين وسبعمائة وألف. ولا ينسى آدم سميث وهيوم وبنجامين فرانكلن وعشرات غيرهم من المفكرين والمخترعين أمثال **جيمس واط**، وهذا الأخير هو الذي اخترع الكيفية العجيبة في الاستفادة من الآلة البخارية، ومتحدثا عن نتائج اختراع الآلة البخارية على الصناعة والتجارة واقتصاد أوروبا عموما، وكل ذلك بمعونة الآلات المذكورة، وقد كبرت بلدانها الصغيرة، أي بلدان أوروبا، بسبب دخول الاقتصاد في آفاق جديدة. وبدل على ذلك كله بإعطاء الأمثلة وذكر الإحصاءات وتسجيل البيانات، مقدما بذلك تقريرا مفصلا عن أحوال أوروبا وعن الأحداث والتطورات التي صاغت العقل الحديث<sup>1</sup>.

أما **بيرم الخامس**، فقد وقف مشدوها أمام الرقي العلمي بأوروبا، ففي تعريفه بأوروبا وأقطارها، القسم الثاني من الأرض، حسب ترتيبه في الصفوة، ذكر بيرم الخامس بأن هذه القارة بلغت أقصى درجات التقدم والرقي في مختلف المجالات بسبب استفادة أقطارها من العلوم باللغتين اللاتينية واليونانية، وكذلك من المسلمين في الأندلس، حيث أخذوا عنها العلوم الرياضية وتهذيب الأخلاق والجغرافيا، واستفادوا من الإسلام في المشرق أثناء الحروب الصليبية، "وتعلموا منهم مسالك الترقى والقوة وفنون المعارف، فانبث فيهم في جهات عديدة في وقت واحد"<sup>2</sup>. والنتيجة هي بروز علماء في الفلسفة وغيرها، ساهموا في إحداث ثورات فكرية غيرت في العقليات وفي الواقع المتخلف الذي كانت تتخبط فيه أوروبا بسبب الجهل وهيمنة الكنيسة المعادية للعلم والعلماء وغطسة الملوك وظلمهم.

إن طلب العلم والمعارف بفرنسا خاصة يصل حد الهيام، والتعليم هناك إجباري، حيث يتحدث الحجوي الثعالبي المغربي عن مرحلة لم يكن التعليم في بلاد المغرب إجباريا قائلا: "فكل صبي بلغ سن التعلم، لا بد أن يدخل المدرسة ويتعلم التعليم الابتدائي: القراءة والكتابة ومبادئ الحساب، والتاريخ والجغرافيا، والأدب، ثم من كان غنيا وأراد التعلم الثانوي تقدم إليه، ومن كان فقيرا وليس له داعية للعلم فلا بد أن يعرف صناعة من الصناعات". والنتيجة لهذا الاهتمام الأوربي والحرص على العلم أنك "ترى قدرا من العلم اشترك فيه الذكر والأنثى والغني والفقير. بذلك القدر، ارتقى مجموع الأمة من الحضيض الذي وقع فيه مجموع الأمم الغير

1- نفس المصدر، صص . 214 - 217.

2- بيرم : المصدر السابق، الجزء، 1، صص . 41 - 42 .

المتمدنة التي لا يعرف غالب أفرادها كتابة ولا أدبا ولا حسابا ولا ولا (...). كأهل المغرب الأقصى مثلا<sup>1</sup>. كما لفت انتباهه كثرة المدارس والأندية العلمية بمجموع مدن فرنسا ، ومشاركة المجتمع المدني إلى جانب الحكومة في تعميم التعليم ونشره، وفي هذا الصدد يقول الحجوي : "ثم هذا الذي قررنا ليس خاصا بأهل باريس، بل عموم فرانسوا يوجد فيها هذا القدر من التعلم، بل عموما أوروبا تقريبا. فكل مدينة أو قرية أوروبية ترى فيها المدارس مشيدة، ونوادي العلم عامرة، وقد نظمت لذلك جمعيات في كل مدينة أو قرية، زيادة على عمل الحكومات التي جعلت للمعارف وزارات، فهم لا يتكلمون على الحكومة في كل شيء مثلنا، ولا سيما في العلم الذي هو أهم ما يهم، ولذلك سادت غيرهما من القارات، ولهذا استبحر العمران ، في باريس وازداد عدد سكانه، وكثرت قصاده من الآفاق البعيدة"<sup>2</sup>.

## 2- تطور العلوم المادية والطبيعية في أوروبا .

على غرار النخبة المشرقية، انهبرت النخبة المغربية بتطور العلوم المادية والعقلية في أوروبا، مستحضرين في كتاباتهم ضعف الإهتمام بهذه العلوم في مجتمعاتهم التي ينتمون إليها ، فالعلوم العقلية كعلم الكلام والفلسفة والطب والفلك والتاريخ والجغرافية والكيمياء، لم يكن لها مكان في الثقافة المتداولة رسميا في المعاهد الإسلامية بدول المغرب، بسبب جمود المجتمع المغربي وانكماشه على ذاته، مما لا يسمح بوجود منافذ ومراكز اجتماعية للمشغلين بهذه العلوم. وكان الفقه وأصوله والحديث تكون المعارف الأساسية الأصلية السائدة، ترتبط بها علوم مساعدة كالنحو والبلاغة والمنطق والحساب والأدب والتوحيد، وما يندرج في إطاره من بحوث صوفية<sup>3</sup>. اجتهد الصغار في تحديد مفهوم جديد للعالم، كما عاين ذلك في رحلته الباريسية، فأشار إلى أن مفهوم العالم عند الفرنسيين هو "من له قدرة على استكشاف الأمور الدقيقة، واستنباط فوائدها الجديدة، وإقامة الحجج السالمة من الطعن على ما أبداه، ورد ما عارضه به من عداه. وليس اسم العالم عندهم مقصورا على من

---

1- الحجوي الثعالبي : الرحلة الأوروبية، مصدر سابق، ص 117 .

2- نفسه .

Laroui, Abdellah : Les origines sociales et culturelles du nationalisme marocain, 1912-1930, -3

François ,Maspero,paris,1977,.p. 196 .

يعرف أصول دين النصرانية وفروعها وهم القسيسون، بل ذلك ربما كان عندهم غير ملحوظ بالنسبة لغيره من العلوم العقلية الدقيقة"<sup>1</sup>.

يصف الصفار، على امتداد صفحات كثيرة، المؤسسات التعليمية التي زارها والنظام المحكم السائد فيها، وأنواع المعارف والعلوم المتداولة في مستوياتها المختلفة؛ حيث وقف مليا وبنبرة يكتنفها الإعجاب أمام "مدرسة... يتعلم فيها الحساب والهندسة، والفلسفة واللسان وعلم الفيزيك والكيمياء والطبيعات وكيفية التصوير والتشريح"، كما نلمس انبهاره بالفارق الشاسع في مجال العلوم والمعارف بين المغرب وفرنسا في قوله: "...ذهبنا لدار من ديار تعلمهم يسمونها دار الفزك"<sup>2</sup>، وهو اسم علم عندهم ويترجمون عنه بعلم الطبائع وبعلم الكيمياء، ومداره على علم معرفة طبائع ذوات الأشياء، كجذب المغناطيس للحديد، وتموج الهواء بالصوت الذي يسير عنه، وغير ذلك مما لا نعرف له اسما"<sup>3</sup>. كما وصف بدقة هذه الدار التي تحوي "آلات غريبة وأشكال عجيبة"<sup>4</sup>. فقدم مشاهداته للمختبر ولبعض التجارب فيه، وعرف آلات وظواهر جديدة لم يعرفها من قبل، مثل المجهر والكهرباء.

كما عبر التونسيون بدورهم، وبشكل صريح ومباشر، عن وعيهم التام بحقيقة التجاوز العلمي الأوروبي، فقد زار ابن أبي الضياف رفقة الباي دار التعليم الكيميائي، مشيرا إلى دورها في الإختراعات العلمية والتقنية قائلا: "ووجدتهم إذاك في اختراع سلك الإشارة، الأعجوبة الموجودة الآن، وشاهد حال التلاميذ ومقدار ما لكل واحد من التقدم، وما أهل الله له النوع الإنساني، وما وصلت إليه العقول السليمة"<sup>5</sup>.

كما أشار خير الدين التونسي إلى مدى اهتمام الأوروبيين بالعلوم العقلية والفنية، وخصص لها مطلبا من كتابه "أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك"، تجسيدا لقناعته الراسخة بجداها في إحداث الثورة العلمية في أوروبا، "ولما كان تقدم أهل أوروبا في ميدان التمدن الذي من نتائجه الاختراعات المشار إليها، إنما كان

---

1- الصفار : المصدر السابق، ص . 217 .

2- إن كلمة فزك من تعريب الصفار، أخذها عن لفظة "Physique" وقال إنها تعني "علم دراسة الطبيعة" " غير أنه في واقع الأمر استعمل المصطلح بمفهوم أوسع، يشمل في معناه " العلوم التجريبية " حيث عاين الصفار إجراء تجارب في الكهرباء السكنونية والضغط والموجات الصوتية والتكبير الظاهري بواسطة العدسات المكبرة . " المصدر نفسه، ص ، 200 .

3- المصدر نفسه ، ص . 201.

4- نفسه .

5- ابن أبي الضياف : المصدر السابق، ج ، 4 ، ص . 103 .

بتمهيد طرق العلوم والفنون، وتسهيل أسباب استحصائها"<sup>1</sup>، لذا تطرق التونسي إلى عناية الفرنسيين بدراسة علم الطب المتناول للتشريح، وتركيب الحيوان، وقانون الصحة، ومعرفة الأمراض الظاهرية والباطنية، وكيفية المعالجة ومواد الأدوية، وعلاج الجراحات، وأحوال الولادة، وهناك مكاتب كبار لتعليم كيفية تركيب الأدوية ومكاتب أخرى للاستعداد لتعاطي فن الطب. كما أشار إلى علم الهيئة والفلك، وعلم الجبر والمساحة، وعلم المكنيك، أي التصرف بالآلات كجر الأثقال، وعلم الكيمياء، وعلم استعمال الآثار الطبيعية كالتصوير بالمرآة...<sup>2</sup>

آمن الرحالة المغاربة بجلال العلم والعلماء، واجترحوا مفهوما جديدا للعلم، وفي ذلك يقول صاحب رحلة "أسبوع في باريز"، عبد السلام السائح المغربي: "العلم هو الغوص على مغازي المعاني ثم النفوذ منها إلى حيز العمل. وليس العلم مجرد الوقف على الرسوم بالأحاط والتنزّه في محاسن المعاني من وراء زجاج الألفاظ، كلا والله، بل هو النفوذ إليها ومزاولتها حتى تلين بين البنان وتصبح صبغة للجنان".<sup>3</sup>

### 3 \_ انبهار المغاربة بالبنية التحتية لقطاع التعليم .

#### أ : المدارس والمجامع والجامعات .

خصص خير الدين حيزا مهما في كتابه "أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك" للتعليم في فرنسا، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، عرض فيه مراحل من تعليم ابتدائي، وتعليم ثانوي، وتعليم عال، جاعلا من الأكاديميات شيئا مختلفا عن الكليات، بخلاف ما كنا رأيناه عند الطهطاوي يقول: "لما كان تقدم أهل أوروبا في ميدان التمدن الذي من نتائجه الاختراعات المشار إليها، إنما كان بتمهيد طرق العلوم والفنون، وتسهيل أسباب استحصائها، وكان للمملكة الفرنسية مزيد شهرة بحسن التنظيم في أطوار التعلم والتعليم، رأينا أن نبين تراتيبها الناجحة، ليقاس عليها بقية الممالك، لاقتداء بعضهم ببعض... إعلم أن طبقات المتعلمين عندهم ثلاث، لأن المتعلم إما مبتدئ أو متوسط أو منته"<sup>4</sup>.

إن الشغف بالعلم في تصور النخبة المغربية، لا يكون اعتناء بالتعليم فحسب، بل إنه احتفاء بالمجالس والمحافل والمؤسسات العلمية، ذاك ما كان بالأمس سببا في ارتفاع الإسلام وتفوق أهله، حيث كان أهل العلم موضع تجلة وتقدير، والعلماء مكان احترام وإجلال، وفي هذا الصدد يقول الحجوي المغربي: "وما تم سلطان

1- التونسي: المصدر السابق، ص. 230.

2- نفس المصدر، ص. 231.

3- السائح: المصدر السابق، ص. 41.

4- التونسي: المصدر السابق، ص. 232.

الجهل على العلم في بلاد الإسلام إلا بانقطاع الوصلة بين طبقات الأمة، فلا يلتقي جاهل بعالم إلا في قاعة الطريق وطرق المدن المغربية ضيقة تضيق عن إمكان المفاهمة فلا تتحاك الأنظار.

إن ما كان سببا في تفوق المسلمين بالأمس هو ما يصنع قوة أوربا وتفوقها اليوم، ذلك ما يقوله الفقيه الحجوي ويؤكد في مشاهداته في رحلته، وذلك ما يثبته في فهرسته التي يجيز بها طلبته فيأذن بارتقائهم إلى سلك العلماء: "وغير خفي عن أحد أن منتديات أوربا هي السبب الأكبر في رقي أفكار أهلها. وبالمنتديات يبتدىء الرقي الفكري في كل الأمم قبل المدارس، بل هي بذرة المدارس، وبتلك المسامرات والمحاضرات التي تكون بتلك المنتديات زحرت أوربا بالعلوم وعمت الحركة العلمية سائر الطبقات".<sup>1</sup>

ب- المكتبات والخزانات .

وصفت النخبة المغربية العاملة أحب الأماكن عندها، وهي خزانات الكتب وأماكن المطالعة، فأخذت في الوصف الدقيق للرفوف والصناديق، ونظافة المكان، وحسن ترتيبه، ولطف القيمين عليه، وإمامهم بكل ما يتوفر فيه من الكتب على مختلف اللغات، كما أن خدماتها، حسب محمد الصفار المغربي، دائمة مستمرة لا تفتقر، يقول الصفار: "حتى يتعجب الإنسان أين تدخل هذه الكتب، ولكن كل شيء عندهم مدون في الكتب، ولا ترى عندهم مكانا خاليا من الكتب، لهم بما استثناس واستفادة"<sup>2</sup>. وأشار إلى أن هذه الخزانات مفتوحة لروادها " ولا يمنعون من أراد الدخول لها ، لكن يدخل ويجلس في بيت معلوم في وسطه طبلة احتف بها كراسي للجلوس ، وينسخ منه إن أراد ويطالع ما أراد حتى يقضي غرضه ويذهب"<sup>3</sup>.

إلا أن الذي لفت انتباه "الصفار"، هو وجود المصحف الشريف بين كتبهم ، وفي هذا الصدد يقول: "طلبنا منهم الكتب العربية، فأحضروا لنا مصحفا عظيما في مجلد كبير يحمله اثنان من الناس بينهما لكبره، وهو خط مشرقى لم ير مثله حسنا وبهجة ورونقا وكمالا، ولا يوصف ما فيه من الحلية والذهب مما يستحسن أن يكون في خزانة ملوك الإسلام أظفرهم الله به وأنقذه من أيدي الكفرة".<sup>4</sup> إضافة إلى وجود عدد كبير من

---

1- الحجوي : مختصر العروة الوثقى في مشيخة أهل العلم والنقى، تحقيق : محمد بن عزوز، مركز التراث الثقافي المغربي، دار ابن حزم ، الدار البيضاء، 2003 م . ص . 25 .

2- الصفار : المصدر السابق، ص . 210 .

3- نفسه.

4- نفس المصدر ، ص . 193 .

أمهات الكتب الإسلامية في مختلف العلوم الشرعية كموطأ الإمام مالك بخط أندلسي، وشرح العيني على الجامع الصحيح، وكتاب كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، وغيرها من الكتب العربية.<sup>1</sup>

زار ابن أبي الضياف رفقة الباي دار الكتب، ووصفها معبرا عن وعيه بالتفاوت الحاصل في مجال الاهتمام بالكتاب والمطالعة قائلا: "دار الكتب المرتفعة المتسعة الهائلة، وبها عدد كثير من المصاحف القرآنية وكتب الأحاديث النبوية والدواوين الفقهية والتفسير وغير ذلك من الكتب الإسلامية، وما لا يحصى من الكتب الإفرنجية في سائر الفنون، يطلب الجالس في طابقها الرابع من قيم البيت الأسفل كتابا، فيطلع إليه الكتاب في الحين بآلة، ويسمع الأسفل كلام الأعلى من حلاقيم نافذة من كل طابق إلى ما يليه. وفيها من المصاحف المنمقة ما يذهل الفكر ويستوقف الناظر، ومنها مصحف بصندوق يخصه، ذكرا أن الرشيد العباس أهداه لمن في عصره من ملوكهم"<sup>2</sup>.

أما سليمان بن الصيام الجزائري فقد ربط بين العدل في فرنسا وشيوع المكتبات والخزانات قائلا: "ثم أن أهل الدولة من كثرة عدلهم واعتنائهم بالأمر، جمعوا أنواع الكتب الموجودة، وجعلوا لها خزائن وحفظوها من كتب جميع الأجناس، حتى أن كتب المسلمين المعتبرة التي قل نظيرها في بلاد المسلمين موجودة هناك وغيرها مما لا يحصى مع اختلاف متونها..."<sup>3</sup>.

كما تحدث خير الدين التونسي، بشيء من التفصيل، عن خزائن الكتب الموجودة في أوروبا وعلاقة هذه المكتبات بتسهيل العلم والمعرفة وتوسيع دائرتهما، وفي هذا يقول: "ومن آثار اعتنائهم بتوسيع دوائر العرفان، الذي هو أساس التمدن والتهديب لنوع الإنسان، كثرة خزائن الكتب الجامعة لسائر الفنون، وتسهيل طرق الانتفاع بها بحسن الإدارة والترتيب الحاسم لمواد العوائق"<sup>4</sup>. كما يتضح ذلك بالتفصيل، حيث يقدم إحصاءات تفصيلية عن أعداد المجلدات الموجودة في المكتبات الأوروبية المختلفة، ويقسم أعداد الكتب على أعداد المواطنين ليرى نسبة الكتب والأفراد في كل دولة على حدة.

1- نفسه.

2- ابن أبي الضياف: المصدر السابق، ج 4، ص 108.

3- زيادة: ثلاث رحلات جزائرية، مصدر سابق، ص 36.

4- التونسي: المصدر السابق، صص 237-238.

وفي سياق مقارنة الرحالة محمد السنوسي بين العالم الإسلامي والعالم الغربي المسيحي أثناء حديثه عن زيارته للمعرض الأهالي بنابلي، والتي كشف من خلالها عن حجم الهوة في مجال العلم والمعرفة، وخاصة فيما يتعلق بمجال الإهتمام بالكتاب والمطالعة، يقول السنوسي: "وفي مجموع المحل نحو المليونين من الكتب المختلفة الفنون، وكل واحد من القيمين مشتغل بعمله ولا يدخل أحد إلى محل المطالعة إلا خفيف الحركة ويمشي الهويناء خشية أن يشوش على المطالعين"<sup>1</sup> ليتوجه بعدها مباشرة بالنقد والتجريح لعلماء تونس بقوله: "وهناك وقفت مليا أفكر في أمر أهم هذا الجيل وما لهم من الاعتناء بتكثير المعارف والتنقيح عليها ونشرها إلى نفع عموم الجنس البشري حتى وصلوا إلى هذه الغايات، وبذلك تحققت سبب تقهقر أمرنا بين أمم العالم، فلاحظت أن أفراد علمائنا يتباهون بأن الواحد منهم له كتاب غريب يبخل به على بني جنسه، وبعضهم كتم ما يجد لأسلافه من الآثار العلمية، ثم أن لنا في خزائن الكتب من تأليف الفحول التي تتوق إليها النفوس ومع ذلك منها ما لم تزد نسخه على نسخة المؤلف، ومنها ما تلاشى بعضه، وهذه المطابع العربية كلها تجارية لا تطبع إلا ما يتحقق المشتركون فيه رواجه، ولا توجد عندنا جمعية لطبع غرائب التأليف وإخراجها من كنه خزائنها"<sup>2</sup>.

كما عبر الحجوي المغربي عن اندهاشه بما رآه في الخزانة الوطنية في باريس، عندما دخل إحدى غرف الخزانة ورأى أنها: "تعدل بمكتبة القرويين ومراكش معا إلا أنها مطبعية، فقلت في نفسي: هذه أمة جاءت في الزمن الأخير ألف علماءها هذا العدد من الكتب، وما استقلت إلا منذ نحو مائة وخمسين سنة، فما أعظم مدارك البشر إذا كان عائشاً في جو صافٍ يستنشق فيه هواء الحرية المطلق ويتغذى بلبان العلو والتهذيب، ليت شعري، ماذا ألفه علماء المسلمين في هذه المدة، وإن اللغات الموجودة كتبها في هذه الخزانة تبلغ اثنين وخمسين لغة، وقد دخلنا لغرفة أخرى فقيل: هذه لعلم الموسيقى فتأمل".!

لم يفت الحجوي أن يعبر عن استغرابه من ضعف العناية بالكتاب من طرف بعض أعضاء الوفد المرافق له، حيث "ملوا كثيرا وضجروا من كثرة ما رأوا وأرادوا الخروج، فقلت لهم: ألسنتم طلبتم رؤية الكتب الخطية فنحن ننتظر وصول المكلف بها؟ عجباً لكم: ما حصل ملل لمن ألف، أو كتب، أو طبع، أو سفر،

1- السنوسي: المصدر السابق، ص. 106.

2- نفس المصدر، ص. 113.



أو ادخر، أو بنى، أو رصف، أو جنس، ولا لمن يرينا ويطلعنا ! فلا أمل في ارتقاء من به داء الملل، الملل آفتنا العظمى وسبب من أسباب تأخرنا وتقدم غيرنا، إنا إذا لمن العاجزين ، ولو كنتم في ملهى لما مللتم"<sup>1</sup>.

### المطلب الثالث : إعجاب المغاربة بالمجال الثقافي والفني .

كان للرحالة المغاربة اهتمامات بالمجال الفني والثقافي الأوروبي، من مسرح وموسيقى ومتاحف وفنون تشكيلية، كباقي الرحالة العرب الذين زاروا أوروبا في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. وعبروا عن انبهارهم وإعجابهم بتطور الفنون في أوروبا، وخصصوا صفحات من نصوصهم الرحلية للحديث عن ذلك.

#### 1 : المسرح :

كان تأثير المسرح على النخبة المغربية واضحا كفن قائم بذاته، باعتباره الأداة التصويرية المعبرة عن مشكلات وقضايا وهموم الإنسان الأوروبي. فمن شدة إعجاب الصغار المغربي بالمسرح، نراه يعدد مزايه وفوائده، ويسرد صيغ الفرحة الهادفة التي يتيحها، يقول الصغار: "ومن محال فرجاتهم المحال المسماة بالتياترو، وتسمى الأوبرة، وهو محل يلعب فيه بمسغرات اللعب ومضحكاته، وحكاية ما وقع من حرب أو نادرة أو نحو ذلك. فهو جد في صورة هزل، لأنه قد يكون في ذلك اللعب اعتبار أو تأديب أو أعجوبة أو قضية مخصوصة، ويكتسبون من ذلك علوما جمّة"<sup>2</sup>. كما تحدث عن إقبال الأوروبيين عليه بمختلف فئاتهم الإجتماعية قائلا: "وهذا التياترو ليست مجمعا للحرافيش والأوباش، بل يحضرها أكابره، وأهل المروءة منهم، ويحضرها الرجل وزوجته وبناته، والرجل وأصحابه. ويجعلها السلطان في داره. وله محل معد لها، فيدعو للعاين المتفرجين، ويجلس هو وأولاده ونساؤه وأولاده وجميع وزرائه وخواصه، وأهل اللعب يلعبون بالرقص والتعاشق، وغير ذلك، وهم ينظرون وينشطون بذلك، ويزعمون أن في ذلك تأديبا للنفوس، وتهديبا للأخلاق، وراحة للقلب والبدن ليعود إلى شغله بنشاط وقريحة"<sup>3</sup>.

للتوفيق بين الهازل والجاد أو المضحك والمفيد في المسرح ، وبالتالي خلق موفق منسجم من هذه الفرجة التي ظاهرها تنكيت وباطنها تبكيت، لجأ الصغار إلى التراث العربي الإسلامي، شعره ونثره، ليمنح الشرعية الفقهية الإسلامية للمسرح، من أجل إقناع المخزن والنخبة العاملة بالمغرب باقتباسه. فبعد أن ذكر ما يدعيه الغربيون من

1- الحجوي : الرحلة الأوروبية، مصدر سابق، ص . 133.

2- الصغار : المصدر السابق، ص . 156.

3- نفس المصدر، ص . 157.

فوائد اللعب على القلب والبدن والنفس والخلق، راحت الأمثلة تتناسل في متنه على نحو يقطع الشك باليقين ،  
ومن ذلك قوله :

أفد طبعك المكدود بالجد راحة يجم وعلله بشيء من المزح.

"وسئل الشعبي<sup>1</sup>: هل كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم  
يضحكون؟ قال: نعم، والإيمان في قلوبهم مثل الجبال الرواسي<sup>2</sup> ، وكان نعيمان  
الصحابي من أولع الناس بالمزاح، وكان بدريا. قيل: إنه ذكر عند النبي صلى الله عليه وسلم أنه يكثر المزاح  
والضحك، فقال: يدخل الجنة وهو يضحك. ومن مزح نعيمان ما روي أنه أهدى لرسول الله صلى الله عليه  
وسلم جرة غسل اشتراها من أعرابي بدينار، وجاء بالأعرابي إلى باب النبي صلى الله عليه وسلم وقال: خذ الثمن  
من ها هنا. فلما علم صلى الله عليه وسلم بذلك، قال لنعيمان : ما حملك على ما صنعت؟ فقال: أردت برك ولم  
يكن معي شيء، فتبسم وأعطى الأعرابي ثمنه..<sup>3</sup>"

خصص ابن أبي الضياف جزءا من تقريره لوصف التياترو، مستعرضا للقارئ تفاصيل المسرحية التي عرضت  
على شرف الباي أحمد، ومما قاله في وصف شكله وإبراز مقاصده: "ومحصل هذا التياترو : بناء ضخمة عليه قبة،  
مرتفعة، وبه رواشن مطلة على ساحة المجتمع، مدخلها من غير الساحة. ومحل العمل يقابل سائر الناظرين من  
نصف دائرة ، وأعماله حكايات بعض وقائع تقدمت، يبرزونها من الفكر لحس المشاهدة، ويختارون لذلك  
البلغاء والخطباء ممن لهم معرفة بالأخبار والتاريخ والأشعار. وعدد العملة في ذلك أكثر من مائة. وهي من  
الصناعات الشريفة عندهم، لأن مرجعها تربية الناس وتهذيب أخلاقهم، لما يرون تحسين الحسن وتقبيح  
القبیح معاينة ، وذلك أوقع في النفس."<sup>4</sup>

1- الشعبي هو عمر بن شرحبيل الشعبي من مشاهير القرن الثامن الميلادي .

2- الحديث أورده ابن الحجر العسقلاني المتوفى في ( 852 \_ 1449 ) في كتابه الإصابة في تمييز الصحابة، الجزء 3،  
570\_569

3- نفس المصدر، صص. 157\_158.

4- ابن أبي الضياف : المصدر السابق، ج، 4 ، مصدر سابق، ص . 102 .

بسبب غياب المسرح عن الفكر العربي الإسلامي خلال القرن التاسع عشر، قدم خير الدين التونسي تعريفه الغريب نسبياً للمسرح على أنه " المجمع المعد لتهديب الأخلاق المسماة عندهم بالتيارات"<sup>1</sup> أما إدريس العمراوي المغربي، فلم يدع مادة حجاجية يدعم بها ويشرع تعلقه بالمسرح الفرنسي إلا وأثبتها، من ذلك انطواء الهزليات على مسائل الجد التي تؤدي وظائف تربوية وتعليمية وترفيهية، بل أكثر من ذلك سارع إلى التوفيق بين ظاهرة المسرح لدى الغرب، ومألوف المروييات في المغرب كالأزلية والفداوية، وفي ذلك يقول: "ومن المحال المعدودة عندهم للتفرج فيها الكميديات"<sup>2</sup>: وهي عبارة عن محال عندهم يلعبون فيها بأنواع من اللعب: من ركوب على الخيل وطيران في الهواء، وقلب الأعيان، والغناء والرقص، وحكايات الأخبار والأشعار بلغتهم، والمحاجة والأسئلة والأجوبة، ونصب مجالس يحاكون بها مجالس الحكام والوزراء، وذكر مساوي في الناس، وغير ذلك". كما لفت انتباهه إقبال الناس عليها، على اختلاف مراتبهم الاجتماعية، وتعلقهم بهذا الفن، يقول العمراوي: "وهذه مسائل هزليات، لكنهم مغرمون بها كل الغرام، ومولعون بها كل الولوع. ويعطي الداخل لتلك المحال دراهم معتبرة لكل رأس لرؤية ذلك. ويدخلها جميع الناس من مرؤوس ورئيس ورفيع وخسيس حتى الوزراء والحكام."<sup>3</sup> كما صرح العمراوي بأنه كان يضحك من ذلك، ويعدده من "جملة المزاح الذي لا يعبأ به ولا يؤبه له، وأنه ليس من الجد في شيء، حتى وقفت على كلام الشيخ رفاة المصري في رحلته، حاصله أنها أمور جدية في صفة الهزل"<sup>4</sup>. كما أشار العمراوي إلى فائدة الغناء والموسيقى ودورها في الترويح على النفس بقوله: "وقد ذكر الحكماء و الأطباء أن للغناء أثر في النفوس والأرواح حتى أن بعض اللآلام يبرئها سماع الغناء وآلة الطرب".

تحدث السنوسي عن ظاهرة انتشار المسارح في العصر الحديث، في عموم البلدان الأوروبية، حتى صار المسرح علماً يدرس للتلاميذ في المدارس والجامعات. كما تحدث عن التدريبات التي تسبق عرض المسرحية، كحفظ

---

1- التونسي: المصدر السابق، ص . 212 .

2- قاعة المسرح والرقص.

3- العمراوي: المصدر السابق، ص . 89 .

4- نفسه .

الروايات، وإتقان الرقص، وسرعة التناول للأشياء. وأفرد حينها من نصه الرحلي للحديث عن صور المسرح ،  
التياتروات<sup>1</sup> ، [ هكذا ] وأجملها في أربع صور :

**الصورة الأولى** تتعلق بتشخيص نازلة حالية، جرت في بعض الدول، أو صدرت من بعض الحكام،  
استدعت التفات الأنظار إليها لدقتها، **والصورة الثانية** تتمثل في تشخيص روايات تاريخية من وقائع مشاهير  
الرجال من الملوك أو غيرهم، ممن مضت عليهم العصور السالفة، **والصورة الثالثة** عبارة عن ألعاب تنبني على خفة  
أصحابها في المشي على الحبال والرقص فوقها، والمسابقة على الخيل والمصارعة والرماية، وغير ذلك من أنواع  
الألعاب والآلات. أما الصورة الرابعة فهي أنواع من **الشعبذة الآتلة** إلى قلب الحقائق ، وهي نادرة بالمقارنة مع  
بقية الصور والأنواع، كما أشار السنوسي إلى أن جميع صور التياترو تصاحبها الموسيقى في كل مراحل المسرحية.  
وقدم كذلك ملخصات للمسرحيات التي حضرها، معبرا من خلالها عن جدية القضايا والمواضيع التي تعالجها .  
استمر الإعجاب بالمسرح، والوعي بقيمته التربوية عند النخبة المغاربية في بداية القرن العشرين، حيث آمن  
الحجوي بسر هذا المسرح الغربي الذي هو في نظره رواية خيالية، وفي هذا الصدد يقول: "ويكفيك إجلالا في  
وصف هذا الملهى أنه تكلف على الدولة بثلاثين مليوناً من الإفرنك، وفي درجه وداخله صور رجال التمثيل  
والتأليف في الروايات، وهو عندهم علم مهم ولرجاله شهرة، وإن كانت الرواية لا حقيقة لها كـ "مقامات  
الحريري" ولكن يأتون بها لمقاصد مهمة أخلاقية تهذيبية. فرواية يمثلون فيها العشق، وأخرى يمثلون فيها العفة،  
وأخرى الفضيلة، وأخرى الكرم، وأخرى الشجاعة، فيكون ذلك تكميلا لمحاسن الأخلاق يفهمه من يعرف  
اللغة ومارس العوائد الفرنسية والأخلاق الأوروبية"<sup>2</sup>. إلا أنه عاب توظيف بعض المسرحيات لبعض الكلمات  
المخللة بالقيم والأخلاق الفاضلة قائلا: "إلا أن المنتقد له أن ينتقد أمورا لا تناسب الأخلاق العالية، كالتكلم  
بكلمات بذيئة سفيهة، والرجل هناك يحضر ومعه أخوه وولده ووالده، وفيه ما يهيج شبق النفس للخنا  
وارتكاب الفواحش وغيرها، فلو خلا هم هذه الأمور، لكان من أحسن المدارس التهذيبية"<sup>3</sup>.

## 2 \_ الفنون الجميلة:

1- السنوسي : المصدر السابق، صص . 131 – 142 .

2- الحجوي : الرحلة الأوروبية، مصدر سابق، ص . 146 .

3- نفس المصدر، ص . 147 .

لقد أولى أغلب الرحالة المغاربة اهتماما خاصة باللوحات والتماثيل التي شاهدها في معارض أوروبا ومتاحفها وحدائقها وشوارعها ، كما وصفوا التحف في متاحف دول أوروبا، والآثار الهندسية والتاريخية التي زينت المدن والساحات العامة، كالقصور والدور الأثرية والفنية والجسور والأعمدة ، وآثار اليونان والرومان، وأشاد بعضهم بعناية الغربيين بتنسيق الحدائق والمدن تنسيقا رائعا ، ووصفوا أيضا ما حضروا من موسيقى وغناء ورقص .

وصف سليمان بن الصيام الجزائري دار التماثيل التي زارها في باريس، وأبدى إعجابه بها، مظهرا مدى التطور الحاصل في الفن التشكيلي عند الفرنسيين، يقول: "رأينا بهذه المدينة دارا يسمونها دار التماثيل، ملائحة بالتصاوير المنحوتة من الرخام والمرمر الجيد، وتصاوير أخرى في حيطان تلك الدار بحسن الصناعة التي لا فرق بينها وبين الآدمي إلا بعدم الكلام، حتى إنك إذا حققت النظر في الصورة التي في الحائط تراها تتبعك بنظرها، فيا لها من صنعة غريبة ، سألنا عن تلك التماثيل فأخبرونا أنها صور أوائلهم"<sup>1</sup>.

في نفس المنحى، أشار المغربي إدريس العمراوي، إلى مدى ولع الفرنسيين بالآثار القديمة والنظر إليها والاعتبار بها ومعرفة حقائقها وتاريخها والملوك التي صنعوها، كما أشار إلى الأموال الطائلة التي تصرفها الحكومة الفرنسية من أجل اقتناء هذه الآثار حيث "ذكر لنا الملك الذي أتى بها من مصر صرف عليها في مجيئها خمسة وثلاثين ألف ريال، وقد أخبرونا أن تلك الصور المنقوشة بها علامة على حروف وأن المكتوب فيها حكم وتواريخ، وأنهم لا يزالون يستخرجون معاني ذلك إلى الآن، وأن علماء النصارى يقصدونها من أقصى أرضهم ينظرونها ويبحثون عن معرفة ماهيتها"<sup>2</sup>. كما أشار إلى نصب التماثيل داخل المدينة بشكل ملفت قائلا : "وفي داخل المدينة من الأثر ما لا يأتي عليه حصر، ولكني قادت منها ما وقفت عليه، وحضرتي حين التقييد، وإلا فأموهم كلها عجب يعلمون ظاهر الحياة الدنيا"<sup>3</sup>.

كما أبدى الحجوي إعجابه بالصور المجسمة، دون أن يخوض في حكمها الشرعي قائلا : "من جملة ما رأيته في دار باريز دار الصور المجسمة من الشمع، لما دخلتها، وجدت فيها أشباح رجال قائمين على أرجلهم، لابسين ملابس عسكرية وغير عسكرية، فما يظن الظان إلا أنهم ناطقون أحياء، وصعدنا إلى غرفة متسعة مثلوا فيها إقبال ظلام الليل وطلوع القمر وظهور النجوم، ثم بزوغ الفجر وظهور غزالة النهار وغير

1- زيادة : ثلاث رحلات جزائرية ، مصدر سابق، ، ص . 48 .

2- العمراوي : المصدر السابق، ص . 67 .

3- نفس المصدر ، ص . 68 .

ذلك من الأمور التي يندهش لها ذهن الحاذق الجسور .... ومثلوا هناك غابات وأشجارا ودورا ومنازل يراها الرائي ماثلة شاخصة، وليس هذا من باب ما يمثل في الصور المتحركة بل هذا أعجب من ذلك، يرى مثل في فضاء متسع دائر بك حتى يظن الظان أنه من باب السحر لا من باب التمثيل".<sup>1</sup>

توقف عبد السلام السايح في نصه الرحلي للحديث عن متحف اللوفر، وخصه بوصف مستفيض، فهو "أعظم متاحف باريس، وهو قصر عظيم فسيح، يحتوي على طبقات كثيرة وأقسام عديدة، وصور دهنية، وتمائيل ونقوش جميلة، وصنایع دقيقة، ومصوغات جلييلة ثمينة".<sup>2</sup> كما تحدث عن أقسامه الكثيرة، ذكرا منها، قسم الآثار القبطية، وقسم المصوغات النفيسة والأحجار الكريمة، وقسم الآثار السورية، وقسم خاص بآثار الفنيقيين وقبورهم .

وإذا كان خير الدين التونسي قد اكتفى بإشارة عابرة إلى رقي إيطاليا وشهرتها في "الصناعات المستظرفة المسماة عندهم بوزار (Beaus Art) وهي صناعة الدهن والنقش وهندسة البناء والموسيقى، وحصلوا على ما أمكنهم تحصيله من العلوم والفلسفة"<sup>3</sup>، فإن محمد السنوسي التونسي قد وصف متحف نابولي الذي يعتبر من أشهر المتاحف في إيطاليا، باستفاضة تشي بانبهاره وإعجابه برقي الفنون الجميلة في دول أوروبا عامة وإيطاليا خاصة، حيث خصه بصفحات من رحلته الحجازية، وأشار إلى أنه مقسم إلى عدة أقسام نذكر منها :

القسم الأول : وفيه تماثيل ملوك رومية ومشاهيرها من عهد ثلاثة آلاف سنة أو أكثر، وهي مصنوعة من الرخام، وهي مختلفة النحت، فبعضها منحوت الرأس والصدر فقط، وبعضها تام الصورة منقوش على كل تمثال اسمه. كما أخبر السنوسي بوجود عدد كبير من علماء التاريخ "بأيديهم كتب تاريخية يعرفون من خلالها بأصحاب تلك التماثيل، وحيث أن النحت كان على أصل هيئة أصحابه في اللباس والطور، استفدنا من هنالك ما كانت عليه رجال العصور السالفة وشجعانها".<sup>4</sup>

---

1- الحجوي : الرحلة الأوروبية، مصدر سابق، ص . 141 .

2- السايح: المصدر السابق، ص . 41 .

3- التونسي : المصدر السابق، ص . 214 .

4- السنوسي : المصدر السابق، ص . 103 .

القسم الثاني : يحتوي هذا القسم كما أخبر بذلك السنوسي على أوان وأحجار من النوع القديم، مجموعة كل شكل منها إلى جنسه في خزائن من بلور مكتوب عليها ما عرف من حالها أو تاريخها، وأخبر أيضا بالإقبال الكثيف على هذا القسم من طرف السياح والأهالي الإيطاليين<sup>1</sup>.

ولم يفوت محمد السنوسي الفرصة ليكشف للقارئ عن سر اهتمام الأوروبيين الزائد بهذه الآثار، وعن مقاصدها ومنافعها، بقوله : "وفي جميع هذه الآثار القديمة عون عظيم لعلماء التاريخ والطبيعة على مباحث مهمة ، فضلا عن كون تلك الآثار ربما اهتدى به الناظر إلى شيء مما ينفع العموم، ولذلك تجد القيمين عليه هناك ملزومين بمساعدة الناظرين على ما يطلون تحقيقه على أكمل وجه ، وليس المراد من ذلك مجرد التفرج في أحجار وقطع من الأشياء لا قيمة لها عند بعض الناظرين"<sup>2</sup>.

### 3- قطاع الصحافة:

أ : المطبعة ودورها في الرقي بالمعارف والثقافة.

توقف خير الدين التونسي عند حدث اكتشاف المطبعة، وما ترتب عليها من توسع دائرة العلوم والمعارف حيث يقول: "ثم في القرن الخامس عشر، وهو الوقت الذي لا ينسى لغرابة حوادثه، اختراع غوتنبرغ ( Gutengerg ) من أهل ميانس ( Mainz ) بألمانيا طبع الكتب الذي حصل به تنمية مواد العلوم، وسرعة انتشارها في أقطار الأرض، ما يغني فيه العيان عن البيان"<sup>3</sup>. كما أشار محمد بيرم الخامس إلى أن "أعظم الوسائل التي أعانت أوربا على بلوغ المعارف هي صناعة طبع الكتب التي كثرت بها الكتب ورخصت، حتى تمكنت كل الطبقات من الاطلاع عليها بما في ذلك الأوساط الشعبية"<sup>4</sup>.

وصف عدد كبير من رحالة المغرب الأقصى المطبعة ، وخصصوا لها صفحات من نصوصهم الرحلية، وعيا منهم بأهميتها في نشر المعارف والعلوم، و دورها الكبير في التطور العلمي الأوروبي، حيث انبهر العمراوي بدار الطباعة ووقف عندها واصفا مشدوها، مبديا أسفه وحسرتة لعدم توفر المغرب على مطبعة ماثلة ، وتقدم بطلب للسلطان يلتبس فيه استحداث المطبعة في المغرب قائلا : "هي دار كبيرة أكبر من دار الضرب بكثير وخدماتها

1- نفس المصدر ، ص . 104 .

2- نفس المصدر، ص . 106.

3- التونسي: المصدر السابق، ص . 213.

4- بيرم : المصدر السابق، ج ، 3 ، ص . 345 .

أكثر عدد منها، وفيها أيضا الآلة التي تحرك البخار وسطها، وفيها أقلام عديدة ولغات كثيرة يطبع بها ما يريد الإنسان بأي قلم شاء، وبأي لغة أراد (...). وهذه الآلة اتخذوها للطبع في كل الأمور، عامة النفع معينة على تكثير الكتب والعلوم، وأثرها في ذلك واضح معلوم. وقد اتخذوها في جميع بلاد الإسلام واعتبط بها مشاهير العلماء الأعلام، ويكفيك شرفها وحسن موقعها، رخص الكتب التي تطبع بها<sup>1</sup>. كما زار الجعيدي دار المطبعة الوطنية بباريس وشرح كيفية الطبع والتسفير وغير ذلك<sup>2</sup>.

## ب\_ الصحافة الأوروبية في كتابات المغاربة الرحلية.

تعرفت النخبة المغربية على وسيلة الصحافة والإعلام من خلال قناة الرحلة، وأثارت انتباههم ونالت إعجابهم وأبدوا تأسفهم لافتقاد بلدان المغرب لها، حيث كان التواصل قبل وخلال القرن التاسع عشر، بين مكونات المجتمع يقوم على قنوات بدائية تقليدية<sup>3</sup>.

لذا فقد اندهش الرحالون المغاربة من الصحافة الأوروبية، ونبهوا إلى دور مؤسسة الإعلام، أو ما أسموه بدار الكازيطة، في تنوير الرأي العام وانتقاد الأشخاص مهما بلغت درجتهم في هرم الدولة. لذلك لم تكن "الكازيطة" أو "الصحافة" أو "الأوراق اليومية" أو "الجرنالات" لتمر دون أن تثير فضولهم وهم الفقهاء المنتورون القادمون من حضارة، الكلمة فيها أنفذ من السنان.

بفضل الطباعة انتشرت الصحف، و أصبحت لها تأثير كبير على الحياة الثقافية، وفي هذا الصدد يقول محمد بيرم الخامس: "حتى أنه يوجد [في فرنسا] ثلاثمائة صحيفة بين يومية وشهرية وأسبوعية، في السياسة أو التجارة أو العلوم. ومنها ما يطبع منه يوميا أزيد من خمسمائة ألف نسخة..<sup>4</sup>". وقد أصبحت قراءة الصحف من الأشياء التي تعود عليها المواطن إلى درجة أنك لا تجد في بعض الأحيان نسخة للبيع، وأصبحت مطالعة

1- العمراوي: المصدر السابق، صص . 79 – 80 .

2- الجعيدي: المصدر السابق، ص. 167.

3- من أهم هذه الوسائل البراح الذي يتجول رافعا صوته بالأخبار الجديدة في الأحياء والأسواق حيث تتبادل السلع و المعلومات .

المسجد والزواوية والمدارس العتيقة حيث يتجمع المصلون والمتعلمون لتلقي الأخبار ومناقشة قضاياهم.

4- بيرم: المصدر السابق، ج ، 3 ، ص . 86 .



الصحف جزءا من التقاليد الثقافية التي سادت المجتمع، "فلا تكاد تجد سائق كروسة أو عجلة حمل بدون أن تكون عنده صحيفة يومية يقرأها"<sup>1</sup>.

كما تحدث الصفار مبكرا عن دور الصحافة في الرقي الحضاري : "فلأهل باريس، كغيرهم من سائر الفرنسيين، بل وسائر الروم، تشوق لما يتجدد من الأخبار، ويحدث من الوقائع في سائر الأقطار، فاتخذوا لذلك الكوازيط : وهي ورقات يكتب فيها كل ما وصل إليهم علمه من الحوادث والوقائع، في بلدهم وغيرها من البلدان النائية أو القريبة وبيان كيفيتها، أن صاحب دار الكازيطة يتخذ أقواما يرسلهم لالتقاط الأخبار من كل ما يسمعونه أو يرونه في ذلك اليوم من المهمات والحوادث والوقائع والنوادر، وغير ذلك مما يحسن الإخبار به. ومن جملة محال التقاطهم للأخبار: القمرتان الكبيرة والصغيرة اللتان يجتمعون فيها لتدبير قوانينهم. فإذا اجتمع أهل القمرة وأخذوا في الخوض في نوازلهم ووقائعهم، جلس أصحاب الكوازيط في ناحية، يكتبون كل ما تكلم فيها، فكل ما وقع الكلام عليه فيها، وانبرم من الأحكام، يصبح غدا في الكوازيط، ويشهر لسائر الناس"<sup>2</sup>.

على أن الصفار إذ يعي أهمية هذه "الكوازيط" في رفع وعي المجتمع الفرنسي بالأشياء والعالم، يعي أيضا أن العمل بها يجري على أساس ضمان مبدأ حرية الرأي والتعبير، التي منها حرية الخبر وحرية تدفقه وتداوله "ومن جملة قوانينهم التي أسسها لهم سلطانهم الوزير الثامن عشر، والتزموا إتباعها، أنه لا يمنع إنسان في فرانس أن يظهر رأيه، وأن يكتبه ويطبعه، بشرط أن لا يضر ما في القوانين، فإن أضر أزيل. وكان من جملة ما نقموا على ملكهم شارل العاشر، الذي كان قبل هذا الملك الموجود الآن، وكان السبب في قيامهم عليه، وخلعهم طاعته، أنه ظهر النهي عن أن يظهر أحد رأيه أو يكتبه ويطبعه في الكازيطات، إلا إذا اطلع عليه أحد من أهل الدولة. فلا يظهر منها إلا ما أراد إظهاره. ويكتبون في الكوازيط اعتراضات على أهل القمرتين، فيما أبدوه من القوانين. وإن جار سلطانهم، فضلا عن كبير من كبارهم، أو خرج عن القانون في أمر ما، يكتبونه في الكازيطة، ويقولون إنه ظالم، وليس على الحق، ولا يقدر أن يقابل من قال ذلك أو فعله بسوء. ومنها أن

---

1- نفس المصدر، ص . 150

2- الصفار : المصدر السابق، ص . 161.

من يفعل فعلا عظيما يمدح به أو يذم، فإنه يكتب في الكوازيط، ليكون معلوما للخاص والعام. فإن كان حسنا، مدحوه به ، لينشط ويرغب في مثله، وإن كان قبيحا ذموه عليه ليرتدع عن مثله".<sup>1</sup>

ولم يفته أن يعرف القارئ بمزايا ومنافع الصحافة التي منها أن " من كان مظلوما من أحد بمظلمة، كتبها في هذه الورقات ليطلع عليها كل الناس، فتعرف قصة المظلوم والظالم، من غير زيادة ولا نقص، حتى تصل لمحل الحكم وينظر فيها بما تقتضيه شرائعه. ومنها أن من أراد إشهار سلعته، فيكتبها في الكاويطة ليعلمه الناس".<sup>2</sup>

---

1- نفسه .

2- نفس المصدر ، ص . 162.

## المبحث الثالث : المجال السياسي.

لا سبيل إلى الشك في مقدار الإغراء الذي مثله النظام السياسي الأوربي بالنسبة للرحالة المغاربة، وقارئ المتن الرحلي المغربي يقف على ذلك. فلقد عنى لهم نوعا جديدا من أنواع الاجتهاد في إقامة الحكم على أركان العدل، وهو عند فقهاء الإسلام ومفكري السياسة، قوام الملك، وقد وصفوا باستفاضة وإسهاب المؤسسات السياسية الأوروبية مثل البرلمان والحكومة، وطريقة عملها، ونوع اختصاصاتها بدقة متناهية.

### المطلب الأول : أوروبا بلاد المؤسسات.

لا تعني أوروبا القوية التي تجاوزت الأمة الإسلامية بالنسبة للمثقف المغربي جيشا حديثا، وإدارة منظمة فحسب، بل تعني أيضا، دولة ذات قانون ومجتمع حر، وبعبارة أخرى تعني الكيان الديمقراطي، فقبل قرن ونصف قرن انتبه محمد الكردودي المغربي، الذي عاصر هزيمة إيسلي، إلى هذه الحقيقة، فكتب عن النظام البرلماني في أوروبا والدولة العثمانية في ما يشبه الإيماء والتلويح للمخزن المغربي ممثلا في السلطان عبد الرحمان بوجوب إقامته في المغرب قائلا: "قلت والروم لعهدنا، وكذلك الترك فيما يبلغنا، قصروا الشورى على أربعين رجلا، فلا يرم أمرهم عندهم إلا أن صدر عن رأيهم وإشارتهم وتسمى هذه الجماعة بالكرطي"<sup>1</sup>.

وقد انتبه غيره من أفراد النخبة العاملة بالمغرب الأقصى، ومن تلوا حقبة إيسلي وتطوان الصعبة إلى هذا النظام السياسي الحديث، معبرين بالتلميح أو بالتصريح، عن مدى انبهارهم به.

فلقد حظيت مؤسسة البرلمان بالتفاتة خاصة من قبل الصفار، الذي رأى فيها تجسيدا لروح الشورى. ونظرا لتكامل نظرتة الثاقبة والفاحصة لمكونات هذه المؤسسة الغربية، نثبت شهادته بكل مفاصلها وتفصيلاتها، والتي تكشف من خلالها رغبته الدفينة في توفيرها في بلاده، حيث تحدث أولا عن القمريتين الكبيرة والصغيرة، واصفا شكلهما وطريقة انعقاد جلساتها، يقول الصفار: "ذهبنا للقمريتين، الكبيرة والصغيرة. والقمرة دار يجتمعون فيها لتدبير قوانينهم، والكلام في أمورهم. وبناء موضع الاجتماع قبة على شكل فناء التياتروا، في أرضها المنحدر، وكلها مصففة بالكراسي. وفائدة الانحدار ليروا كلهم من يكون أمامهم. وعند انتهاء الكراسي مرقاة على شكل المنبر، إلا أن درجها من جانبها. فمن يريد التكلم، يصعد تلك المرقاة حتى يكون مشرفا على الجالسين ويتكلم بما يريد أن يتكلم به. وكل واحد من الجالسين، أمامه الدواة والقلم والكاغد (...). وظيفتهم

1- المنوني محمد : مظاهر يقظة المغرب الحديث، مرجع سابق، ج 1 ، 23.

إذا طال الكلام في مسألة، أن يمضوا الحكم فيها ويقطعوا الكلام، وذلك بقانون معلوم به يقع ترجيح أحد الجانبين. منها الحكم لأكثر العدد، فإذا قال عشرة كذا، وقال عشرون بخلافهم، فالحكم بما قاله العشرون، ولو زاد أحد الفريقين على الآخر شخص واحد"<sup>1</sup>.

كما أشار إلى الفرق بين القمريتين، الصغيرة والكبيرة، ووظيفة كل واحدة منهما بقوله: "وهذا هو شكل القمرة الصغيرة أيضا، والفرق بينهما أن القمرة الكبيرة تحامي عن الملك ورؤساء الدولة، وتعضد أمرها، والصغيرة تحامي عن الرعية، وتنصرها وتطلب حقوقها، فكأنها خصم للأخرى"<sup>2</sup>.

إلا أن الذي استرعى انتباه الصغار أكثر، لا تركيب هذه المؤسسة ونظائرها، وإنما نوع اختصاصها وحجم سلطانها إذ "لا يمضي قانون من قوانينهم، ولا حكم من أحكامهم، إلا إذا اتفق عليه أهل القمرة الصغيرة، والقمرة الكبيرة، والسلطان ووزرائه. وأما أحكام النوازل والجزئيات، فهي عندهم مدونة في الكتب ولا يستقل السلطان وحده بحكم من الأحكام."<sup>3</sup>

ومما استوقف الصغار جيدا، تصرف البرلمان في المالية العامة، فهو من يملك حق إقرارها وتديير وجوه صرفها وليس الحاكم. وفي هذا الصدد يقول: "اعلم أن من قوانينهم أن يجتمعوا كل سنة في القمريتين، ويجدثون قوانين لم تكن، أو يقررون ما كان منها موجودا. ومن جملة ذلك أنهم يقدرون جبايات العام وما يعرف فيه من بيت مالهم بموافقة السلطان وأهل الرأي منهم، فقدروا ذلك في عامهم هذا على عادتهم. وذلك الذي يقدرونه من الداخل والخارج، يكتب في كتاب ويبرز للناس، وتطبع منه عدة كتب تباع وتشتري، فحصل في يدنا كتاب هذا العام، وفسره لنا بعض تراجمهم. ومن قوانينهم أن جعلوا ذلك الداخل يدخل بيد وزير الخزنة، أعني أمير بيت مالهم، ويخرج على يد الوزراء جميعا، كل واحد وما يخرج على يده."<sup>4</sup>

كما أشار الصغار إلى المراقبة التي يجريها البرلمان على أوجه صرف المال العام، ومحاسبة الحكومة على سياسة الإنفاق، إذ "لا يستطيع رؤساء الدولة أن يزيدوا شيئا من ذلك أو ينقصوا منه من قبل أنفسهم، لأن أهل

1- الصغار: المصدر السابق، ص. 213.

2- نفسه.

3- نفسه.

4- نفس المصدر، ص. 216.

القمره الصغيره، وهم وكلاء الرعيه، أول ما يتدئون به في القمره إنهم يحاسبون الدوله على الداخل والخارج في العام الفارط".

ولم يفته أن يشير، في سياق تناوله للنظام السياسي الفرنسي، إلى وصف الجهاز الحكومي وتحديد وظائفه الإداريه التي مكنت عمل الدوله من أن يكون فاعلا، وقام باستعراض أهم الوزارات المكونه للحكومه، مشيرا في ذلك إلى وزاره الماليه، أو ما سماها بالخزنه، والخارجيه، والداخليه، والتعليم، والحرب، والبحريه، والتجاره والزراعه، والبناء والقناطر والطرق .

ذهل العمراوي بدوره، بالنظام البرلماني الذي كانت تتبعه فرنسا، واعتبره مفيدا، لأن اجتماع الفرنسيين فيها كان بهدف الدفاع عن مصالح الناس، وفي ذلك يقول. "ومن عوائدهم السياسيه التي جرى عليها عملهم أن يجتمع في كل سنه بباريز ستمائة رجل من كل مدينه... عدد معين من التجار والفلاحين وأرباب العقار... في دار معلومه، لذلك.... يحضر معهم فيها الوزراء وسائر رؤساء الدوله ويتذاكرون فيما يصلح بلادهم، ويذكرون ما وقع في سائر السنه الماضيه، فيحسنون الحسن ويقبحون القبيح، ويحاسبون الدوله على ما دخل عليها وما خرج..."<sup>1</sup>

أما النخبه التونسيه، فقد أفاضت في وصف المؤسسات السياسيه في أوربا، ويعتبر ابن أبي الضياف من أوائل التونسيين الذين لفتوا انتباه السلطه الحاكمه في تونس، في عهد البايات، إلى دور المؤسسات السياسيه في النهضه الأوربيه، كما أبدى رغبته في اقتباسها، فتحدث واصفا دار الندوه، وهي "بيت عمران المملكه وثروتها ونجاحها، وهي من المباني الضخمه المحترمه، وبيت الاجتماع، نصف دائره، بها مدارج تجلس الوكلاء عليها صفا وراء صفا، ويقابل تلك الدائره روشن للسلطان يجلس فيه يوم فتحها، ويقف فيه خطيبا بإلقاء ما يريد إلقاءه على المسامع لتفكر فيه عقول الحريه، وتحت الروشن كراسي للوزراء في الأرض، مقابله لأول درجه من درج الدائره، وفي الأرض شكل منبر يقابل الوكلاء، لمن يريد الكلام من الوزراء، بحيث أن المتكلم يسمعه ويراه كل واحد من الوكلاء".<sup>2</sup>

كما أدرك بيرم الخامس بالمعاينه أن التمدن الذي بلغته بلدان أوربا في جميع الميادين كان نتيجة إرساء المؤسسات في المجتمع والدوله، أفرزت بدورها نوعا من الفكر المؤسساتي نظم الحياه السياسيه والاقتصاديه

1- نفس المصدر، صص . 116-117

2- ابن أبي الضياف : المصدر السابق، ج 4 ، ص . 106 .

والاجتماعية والثقافية ، وساهم في تطويرها وترقيتها . فلا مكان للفوضى والتصرف العشوائي وتقلبات مزاج الحكام وشهواتهم ونزواتهم. فأول ما يلفت الانتباه هو أن : "جميع الممالك [الأوروبية] المار ذكرها، إلا ما استثني،<sup>1</sup> كلها ممالك قانونية ، يعني أن إرادتها منضبطة في السياسات بأمر محدود مكتوبة يعلمها الخاص والعام، ولا يجوز للمتصرف مجاوزتها ، والمباشر لإجرائها هم الوزراء بإذن رئيس الدولة على اختلاف لقبه من إمبراطور أو ملك أو رئيس جمهورية.. ثم يحتسب على الوزراء مجلسان أحدهما مجلس الأعيان من الأمة، والثاني مجلس النواب أي نواب الأمة ينتخبهم الأهالي لمدة معلومة بغاية الحرية في الاختيار على شروط تؤول إلى صفات تثبت حق الغيرة على الوطن ومعرفة مصالحه والأهلية لنصحه".<sup>2</sup>

لا يخفي بيرم الخامس إعجابه بالحكم المقيد بالقوانين، فيقول : "وقد تلخص مما تقدم أن دولة إيطاليا هي دولة ملكية قانونية شورية وللأهالي الحرية الشخصية والسياسية"<sup>3</sup> ثم إن المؤلف كثير الحديث عن التنظيم البرلماني بأوروبا وعن دور "مجلس الأمة" في الذود عن الحريات العامة أمام تسلط الحاكم، وعمما يدور داخل هذا المجلس من حديث حر دون ضغوط من أحد،<sup>4</sup> ويعجب الرجل بحديث دار بين الأعضاء وكان حضره مع رفقائه حول إمكان أن تصرف الدولة لعائلة رجل خدم الدولة ودافع عن الأمة مقدار خمسة آلاف، يقول : " واشتد الوطيس بين الفريقين (...). فقلت لرفقائي هل رأيتم ؟ إن الدولة لم تستطع تنفيذ أمرها في مال الأمة إلا بعد مشورة أهل الحل والعقد ، وبمثل ذلك لا يصرف المال الا في وجهه ولا على اختيار فرد ولا على مداراته ".<sup>5</sup> وفي موضع آخر يروي لنا بيرم قصة وقوف أعضاء المجلس كافة في وجه الرئيس مطالبين بخلع ولاية البلدان والعساكر الذين هم من حزب الملكية : " فامتنعت الوزراء وحل الرئيس المجلس"، وانتخب مجلس آخر إلا أنه واصل ما كان فعله المجلس السابق في شأن القضية نفسها " فحصل نزاع كاد يفضي إلى الشعب "<sup>6</sup>

إستمر الإعجاب بالمؤسسات السياسية الأوروبية عند النخبة المغربية في القرن العشرين، حيث انبهر محمد الحجوي الثعالبي "بالنظام"، ورآه منتشرا في كل أجهزة الدولة الليبرالية الحديثة، وفي المؤسسات التمثيلية ، وعند

1- مثل روسيا التي قال عنها : " أن بقاءها على أصول الاستبداد أوجب فيها قلة الثروة والمعرفة "، ج، 1، ص . 54

2- نفس المصدر، ص . 58

3- نفس المصدر، ج 3، ص . 16

4- نفس المصدر، صص 17- 18

5- نفس المصدر، ص . 90

6- نفس المصدر، ص . 83

وزراء الحكومة ورئاسة الدولة، ويطنب أحيانا كثيرة في وصفها وبيان اختصاصات وظائف كل منها وتكامل بعضها مع بعض تكاملا نسقيا.

لا ننسى أن حسن التنظيم الاجتماعي والسياسي هو من أبرز ما أثار ولع الرحالة العربي الحديث أثناء إقامتهم بالديار الأوروبية، ويعزو له كل هذا الرقي الذي ميّز هذه البلدان، وحقق لها رقيها الحضاري والعلمي والاقتصادي. وهنا لا مجال لمقارنة ذلك بما بنا، ففي وصف **الحجوي** الثعالبي للمجلس البلدي بباريس، عبّر عن حسرته لهذا الفارق الكبير، فمثلاً أشار إلى أهمية التراتيبات والأخلاق المهنية واختيار الرجل المناسب حسب الكفاءة، وذلك حينما يقول: "فتجد شيخ المدينة مثلاً أزيد أدباً ولطفاً ممن تحته في الرتبة، إذ لا يرشح للمناصب الكبار عندهم إلا الكبار وليس المراد الكبار الجثة أو العمامة أو، أو، بل الكبار قلباً وعلماً وأخلاقاً"<sup>1</sup> هنا لا مجال لقياس ذلك بحال مدينتنا. فالحجوي يلخص وصفه للمجلس البلدي بكلام غاية في الدقة: "وأجمع لك وصف هذا المجلس بأن نقول: إنه على قدر عظمة المدينة ورفاهيتها وارتقائها ، فلا تقسه ببلدية فاس مثلاً"<sup>2</sup>.

لا يزال هذا الفارق كبيراً حتى يومنا هذا بين طريقتين في التنظيم والتدبير، مما يجعل حسرة الحجوي وأمثاله من المصلحين تتوارث جيلاً عن جيل. فالمجالس المحلية، حضرية كانت أو قروية، في ربوعنا هي بالأحرى أوكار للفساد الإداري وفشل في تدبير الشأن العام. كما أن المناصب والتراتبيات ظلّت موسومة بالطغيان والتفرد والانتهازية، والعلم والكفاءة هما آخر المعايير التي ينتخب المرشحون على أساسها. فهي غنائم حرب انتخابوية وليست تنافساً شريفاً للنهوض بمسؤولية الارتقاء بالأمة إلى منازل أفضل.

### المطلب الثاني : العدل والحرية بأوروبا .

أعجب التونسيون بقيم العدل والأمن، فهذا ابن أبي الضياف يعبر عن ذلك بقوله: " غير أن السالك في تلك الطريق [الطريق الرابطة بين طولون وباريس] يشاهد معنى العمران وصورة التقدم في ميادين الحضارة نتيجة الأمن والأمان .. لا تكاد تجد موضعا معطلا من نفع شجرة أو حرث أو كلاً مستنبت ، يسقى جميعها بغيوث العدل وسبوله المفعمة..<sup>3</sup> أما لفظ الحرية، فقد وظفه ابن أبي الضياف في معناه السياسي المدني لا في

1- الحجوي : الرحلة الأوروبية، مصدر سابق ، ص. 79.

2- نفس المصدر، ص. 113 .

3- ابن أبي الضياف، المصدر السابق، ج ، 4 ، ص . 99.

معناه الديني كما فهمه الطهطاوي، أي في علاقة الفرد بالسلطة والمجتمع، وهذا هو المقصود بالجملة التي صاحبت بها الفتاة في المسرحية التي شاهدها ابن أبي الضياف صحبة الباي وبحضور ملك فرنسا، وانتهت الرواية بإعلان بطلتها أنها ستتزوج بالرجل الذي اختارته رغم أن نسبه دون نسبها، ولما قيل أن السلطان لا يرضى بذلك الزواج قالت حسب ما نقله ابن أبي الضياف: "بأي شيء يتصرف السلطان في أرواحنا بالقهر ونحن أحرار، وأقسمت أن تتزوج بالرجل إظهارا لحريتها... وصدق لويس فيليب لقولها ، هذا والتفت إلى أحمد باي قائلا له : يلزمي أن استحسن هذه المقالة سياسة لهذا الجمهور، ولو لم أفعل ربما يقال إني لا أحب الحرية، ويجب على أمثالنا مراعاة جلب القلوب بما تستحسنه العامة ، وأعظمه العدل الذي منه الحرية"<sup>1</sup>.

عدل وحرية وأمن وعقل، مصطلحات تتناقض في جوهرها مع تعسف السلطة المستبدة، وهي مبادئ كانت بهذا المعنى مفقودة تماما أو تكاد في محيط ابن أبي الضياف السياسي والاجتماعي، إذ كان البايات مطلقي التصرف في البلاد والعباد، وهذا ما عناه ابن أبي الضياف بذلك الحوار الذي دار بينه وبين الباي.<sup>2</sup> ففي الحديث شيء من الجرأة من طرف كاتب السر، وقد أشار ابن أبي الضياف إلى ذلك بقوله : " إنه تجاسر على مداعبة الباي، لأنه كان بباريس يتنفس هواء الحرية ويرد من مائها وقدماه بأرضها " فالحرية هنا ، هي حرية الرأي والقول وأن ينطق الإنسان بما في خاطره ولا يقيده خوف.

كما ربط سليمان بن الصيام الجزائري بين العدل في أوربا ورفيها الحضاري وتجاوزها لبقية الأمم بقوله: "واعلم أن ملوك فرانسة لو اتصفوا بالظلم والجور وعدم الرفق بالرعية لما قدروا على تحصيل بعض الغرض من عمارة البلدان وكثرة العساكر البرية والبحرية، وتحصين الثغور وتعميرها بالعدد والعُدَد وغير ذلك مما لا يمكن حصره. وبرهان ذلك ما رأيناه من امتثال الرعية بالأوامر الصادرة من أرباب الدولة، فهو أمر ظاهر بين لا يحتاج إلى إقامة دليل، إذ لو لم يكونوا ممثلين لما تم الأمر من محاسن فرانسة وعمارتها وكثرة مداينها ومراسيها وسفنها وقراها وآلات حروبها وعساكرها ، التي لا تحصى ولا تعد"<sup>3</sup>.

فالإعتناء بالزراعة والتجارة والصناعة والحرص على النظافة والعمران ، يرتبط بالنظام السياسي السائد وكيفية عمله، أي بامتثال الفرنسيين لأهل الحل والعقد بينهم أو لأمرائهم ، وهكذا نتج عن ذلك تحقيق العدل

1- ابن أبي الضياف : المصدر نفسه، ص . 108.

2- انظر النص كاملا في الفصل الثاني من هذا البحث.

3- زيادة : ثلاث رحلات جزائرية ، مصدر سابق، ص . 41.



والأمان، فقد أخبره بعض أصدقائه تأييدا لما ذهب إليه بقوله : " لو اتفق لبعض النسوة السفر في البر أو النهر، راكبة أو راجلة، تقطع المسافة من شرق البلاد إلى غربها من غير معارض ولا لص، وإن إمتلأت حقايبها ذهبا وياقوتتا، ولا يخطر ببال شخص تجريد الناس في الطريق، بل يعم الأمن والأمان والعافية والخصب وجميع النواحي"<sup>1</sup>.

أما أحمد ولد قادم، فقد لفت انتباهه شعار الثورة الفرنسية، حرية، إخاء، مساواة، وهو يرى أن الألفة والمودة القائمة بين الأقسام المختلفة إنما مردها إلى هذه الكلمات الثلاث . وقام بمدح هذا الشعار بعبارات إنشائية كقوله : "يا لها من كلمات يحق أن تكتب بماء الذهب"<sup>2</sup>.

أفاض خير الدين التونسي بعد تأملاته العميقة في أحوال المجتمعات وأسباب نهوضها وسقوطها، أو صعودها وهبوطها، فوجد أن نهوض المجتمعات يقترن دائما بالعدل والمساواة والأمن والحرية، في حين أن سقوط المجتمعات وتدهورها يقترن أبدا بالظلم والاستبداد. يؤكد هذا ما نجده من عمران وازدهار في المجتمعات الأوربية وما نجده من تدهور في المجتمعات الإسلامية ؛ لأن الأولى تخلت عن الظلم وأخذت بناصية العدل والأمن والحرية والثانية تخلت عن العدل وأخذت بناصية الاستبداد.

إذا كان الطهطاوي قد انتقل من القناعة بأن الحرية غير غريبة عن الإسلام إلى التوسع في استخدام مصطلح الحرية وإعطائه أبعادا جديدة تقترب من مفهوم الحرية الحديث ، فإن خير الدين قد سار على نفس الطريق أيضا . فالحرية عنده تنقسم إلى قسمين رئيسيين: الحرية الشخصية والحرية السياسية. ويرد منهما قسم ثالث هو حرية الرأي أو التعبير، ويسميه خير الدين بحرية المطبعة .

أما الحرية الشخصية، فهي إطلاق تصرف الإنسان في ذاته وكسبه، مع أمنه على نفسه وعرضه وماله، ومساواته لأبناء جنسه لدى الحكم، بحيث أن الإنسان لا يخشى هزيمة في ذاته ولا في سائر حقوقه، ولا يحكم عليه بشيء لا تقتضيه قوانين البلاد المقررة لدى المجالس. وبالجملة، فالقوانين تقيد الرعاة كما تقيد الرعية. والحرية بهذا المعنى موجودة في جميع الدول الأوربية، إلا في الدول البابوية والدولة السكوية<sup>3</sup> لأنهما مستبدتان.<sup>4</sup>

1- نفس المصدر، ص ، 33

2- نفس المصدر ، ص . 85

3- يقصد روسيا.

4- خير الدين التونسي : المصدر السابق ، ص.243-244 .

وأما الحرية السياسية، فهي مشاركة المواطنين في سياسة الدولة وإبداء الرأي فيما هو أصلح لها على نحو ما أشار إليه بقول الخليفة الثاني عمر بن الخطاب: "من رأى منكم في اعوجاجا، فليقومه"<sup>1</sup>، يعني انحرافا في سياسته للأمة وتدييره لشؤونها. ولكن لما كانت الديمقراطية المباشرة كممارسة للحرية السياسية بالمعنى الذي أشار إليه الخليفة الفاروق غير ممكنة في هذه الأيام، فقد استبدلت الديمقراطية المباشرة بديمقراطية تمثيلية تجسدها المجالس النيابية المنتخبة. فالفرق بين الحرية السياسية عند العرب والحرية السياسية كما عرفتها أوروبا في القرن التاسع عشر هو فرق يعود إلى اختلاف الأزمنة، وإلى الحاجة إلى تقنين هذه الحرية وتنظيمها منعا للهرج وضمانا للضبط، ذلك أنه "لما كان إعطاء الحرية بهذا المعنى، أي الديمقراطية المباشرة التي عبر عنها عمر بن الخطاب، لسائر الأهالي مظنة لتشتيت الآراء وحصول المهرج، عدل عنه إلى كون الأهالي ينتخبون طائفة من أهل المعرفة والمروءة تسمى عند الأوروبيين بمجلس نواب الأمة وتسمى عندنا بأهل الحل والعقد"<sup>2</sup>.

أما حرية المطبعة، فيشرح خير الدين هذا الضرب من ضروب الحرية قائلا: "هو ألا يمنع أحد منهم، [أهالي ومواطنين] أن يكتب ما يظهر له من المصالح في الكتب والجرنالات التي تطلع عليها العامة، أو يعرض ذلك على الدولة أو المجالس، ولو تضمن الاعتراض على سيرتها، أي على سياسة الدولة"<sup>3</sup>. ولا يغيب عن ذهن خير الدين أن الدول والمجتمعات تختلف في درجات حصولها على الحرية وتمتعها بها، وفي تمكن الشعوب من معارضة سلطة الدولة ونفوذها، فيقول: "وفي هذا المقدار، افتزقت الممالك الأوروبية، فمنهم من ناله مع الأول فتمت له الحرية المطلقة، ومنهم من ناله بشروط معتبرة عند الملوك التي لم ترخص لرعاياها ما تيسر لغيرها إعطاؤه من الحقوق. والواقع أن درجات الحرية تتوقف على مدى اتحاد الشعب ومدى انتظام العلاقة بينه وبين السلطة الحاكمة، فكلما كانت العلاقة سليمة، زادت إمكانية حصول الشعب على حريته حتى يمكنه الحصول على تمام"<sup>4</sup>.

وخلص خير الدين من تحليله لمفهوم الحرية وتجليته لمستوياتها إلى أن التقدم المشاهد في المجتمعات الأوروبية ليس إلا ثمرة من الثمار التي جناها الأوروبيون من دوحة الحرية، وأن هذه المجتمعات ما ارتفعت إلى أعلى درجات

1- نفس المصدر، ص. 243.

2- نفس المصدر، ص. 244.

3- نفس المصدر، ص. 203.

4- نفس المصدر، ص. 245.

العمران إلا بعد أن تأسست بها عروق الحرية. وإذا كان خير الدين قد انطلق منذ السطور الأولى لمقدمة كتابه، من أن النظام السياسي للمجتمع الأوربي الحديث قام على دعامي الحرية والعدل، فقد انتهى إلى أن أي نظام سياسي متى فقدت فيه هذان الدعامتان كان نظاما متداعيا يحمل بدور الانهيار والتقهقر، حيث قال: "وبالجملة، فالحرية إذا فقدت من المملكة تنعدم منها الراحة والغنى، ويستولي على أهلها الفقر والغلاء، ويضعف إدراكهم وهمتهم كما يشهد بذلك العقل والتجربة". وفي هذا إشارة بطريق التلميح أو لحن "الخطاب" إلى أوضاع البلاد العربية الإسلامية، ومنها البلاد التونسية.

كما أستأثر تواضع الحكام والأمراء بأوربا باهتمام النخبة العاملة؛ حيث أثار انتباه الجعيدي المغربي تواضع الأمراء، وقد سجل في ذلك كلمات تدل على إعجابه بذلك السلوك، قائلا: "وعند دخولنا إلى هذه العرصة، تلاقى الباشادور بولد السلطانة ونحن معه، فأظهر من الأدب والتواضع ما يتعجب منه. وهو واقف كأحد الناس لابس لباسهم، تارة يقف مع أناس وتارة يتمشى هو وآخر معه، وكان معه أربعة من إخوته ذكور دون البلوغ، وكل واحد منهم عليه كسوة من الكرية البيضاء مثل كساوي البحرية عندهم، قيل إنهم الآن يتعاطون علوم البحر ويخدمون فيه مدة معلومة عندهم، ثم يدخلون للعسكر فيخدمون فيه كذلك، ثم في علوم أخرى ليكونوا على بال من جميع العلوم، ويشاهدون ما يقاسيه الناس من الأهوال والحن برا وبحرا، ثم بعد ذلك يطوفون بالبلاد شرقا وغربا، برا وبحرا... فيكتسبون بذلك زيادة في عقولهم كما قيل"<sup>1</sup>.

### المطلب الثالث: الانتقال السلس للملك والسلطة في أوروبا.

إن الدولة الأوربية كما وعى ذلك الرحالة المغاربة، دولة ينظمها القانون المعبر عن إرادة الأمة، واتفق فئاتها المختلفة، فقد يموت الحاكم دون أن يتعرض نظام الدولة للتفكك والانهيار بسبب الفوضى والاختلالات الداخلية الناجمة عن معارك الخلافة<sup>2</sup>.

1- الجعيدي: المصدر السابق، ص. 279.

2- نظرا للظروف الصعبة التي كان يعيشها المغرب الأقصى داخليا وخارجيا، ونظرا لأن مسألة الإمامة لم تكن مقننة بتشريعات واضحة بسبب عدم إقرار نظام ثابت لولاية العهد محكم يفرض نفسه على الجميع، فإن البلاد كانت تعرف أزمات سياسية ونزاعات مسلحة دموية بين المتنافسين على عرش البلاد بمجرد ما يعلن عن وفاة السلطان الشرعي. وغالبا ما يكون المطالب

وهذا مما اندهش له الرحالة المغاربة، فمحمد الكردودي الذي رصد أوضاع إسبانيا السياسية ، لفت نظره أن الأمور تتحرك في هذا البلد بإرادة من العرش، واستغرب لعدم وقوع أي حادث يذكر عند دخول الوفد المغربي إلى مدريد، والذي تزامن ووفاة الملك الإسباني الفونسو الثاني عشر في 28 نونبر 1885، واندهش الكردودي وانزعج، لأنه كان يخشى اندلاع الفتنة على ولاية العرش، لكونه كان مستحضرا التجربة المغربية والأزمات السياسية التي كان يتخبط فيها المغرب عند وفاة السلطان بسبب قضية ولاية العهد. "وبعد هنيهة، ورد علينا باشدورهم بطنجة وحقق لنا ذلك، فسقط في أيدينا وخشينا من اضطرابهم، ووقوع الفتنة بينهم، فواقانا الله [كذا] مما توخينا، ولم يصدر بينهم شيء مما ظنناه، بل بقي أمرهم على حاله، كما كان حياة سلاطنهم، ولم يختلف أحد منهم في شيء."<sup>1</sup>

كما أعطى السفير الكردودي معلومات عن الطريقة التي يتم بها تعيين ولي العهد ، فإذا كان هذا الأخير صغير السن فيسند الأمر إلى الأم الحاضنة، حتى يبلغ سن الرشد، وإذا لم يكن الأمير ولدا، يرجع العرش لأكثر بنات المتوفى مع العلم أن الوزراء يتكلفون بتسيير شؤون المملكة، وليس على متولي الملك إلا الإمضاء. وانته

---

بالحكم من صلب العائلة الحاكمة نفسها ، مدعوما بجماعات اجتماعية تربطها به مصالح اقتصادية واجتماعية وهكذا ، فما إن مات السلطان المولى إسماعيل حتى عرفت البلاد صراعات مسلحة دموية بين أبنائه دامت حوالي ثلاثين سنة . وما إن مات السلطان محمد بن عبد الله حتى انقسمت البلاد إلى قسمين يفصل بينهما واد أم الربيع ، كل منهما يدين لسلطان بالولاء: المولى هشام في الجنوب والمولى اليزيد في الشمال، وعندما مات المولى اليزيد من آثار جراحه في حربه ضد أخيه هشام بمراكش، اندلع الخلاف مرة أخرى بين إخوته: المولى سليمان في مكناس وفاس، والمولى سلامة في وزان وتطوان ومناطق الشمال الغربي، والمولى هشام في مراكش وآسفي وأقاليم الجنوب. في هذه الصراعات حول مسألة الخلافة، ينقسم أهل الحل والعقد على أنفسهم إلى جماعات ، كل منها يبايع الذي يليه من أبناء السلطان المتوفى أو عائلته. وعندما تتم البيعة بهذا الشكل المفضي إلى تمزيق وحدة الأمة، يصير العنف العسكري حكما بين المتنافسين على الحكم، بكل بشاعته وجبروته وقوته التدميرية لمقومات وجود المجتمع ذاته. ولقد ساهم ذلك بشكل مباشر في عرقلة إقلاع المغرب ومسايرته لمحيطه وعصره، لأنها نخرت مؤهلاته وقدراته وطاقاته وجعلته عاجزا عن مواكبة سير الفاعلين الدوليين . انظر بتفصيل الأزمات السياسية بالمغرب، الضعيف، محمد بن عبد السلام : تاريخ الضعيف ( تاريخ الدولة السعيدة) ، تحقيق وتعليق وتقديم : أحمد العماري، دار المآثورات، الرباط، 1986، صص . 241-269 . شقير ، محمد : تطور الدولة في المغرب، إشكالية التكون والتمركز والهيمنة ، أفريقيا الشرق ،الدار البيضاء، 2002، صص. 265 - 266 . القدوري عبد المجيد، المغرب وأوروبا، مسألة التجاوز، مرجع سابق، صص 255-287 .

1- الكردودي : المصدر السابق ، ص . 44 .

السفير المغربي، كشاهد عيان، للتدابير السياسية الأولى التي اتخذت مباشرة بعدما نصب الملك الجديد، يقول الكروددي : "وأول ما فعلوه هو تأخير الوزراء وتعيين غيرهم، ثم الاتفاق على من يتولى أمر ملكهم، وبعد تمام الأمر وانبرامه وتأسيس الملك وأحكامه، أشاعوا ذلك في ورقات أخبارهم وأخبروا بمن ولي السلطنة والوزارة منهم، ولم ينقل عن أحد منهم أنه خالف في ذلك ولا أنجزه، بل جميعهم امتثل وأذعن لذلك وقبل واعترف".<sup>1</sup>

## المبحث الرابع : المجال الاقتصادي.

يبدو أن الرحالة المغاربة، قد اهتموا اهتماما كبيرا بتجارب أوروبا الاقتصادية في التجهيز والتكوين، وأدى بهم ذلك إلى الانتباه والتركيز على القواعد التي كان يبني عليه اقتصاد أوروبا، وكأنهم يأسفون ويتأسفون جها، وأحيانا سرا، على عدم قدرة المغرب والبلدان الإسلامية عامة على مسايرة النمو الرأسمالي للدول الأوربية، ونلمس حسرة هؤلاء الرحالة من خلال الأساليب التي اعتمدها في كتاباتهم كل واحد بطريقته الخاصة. فقد أورد سفراء القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين مقارنات معبرة عن تفوق أوروبا الباهر في هذا المجال، ولا غرو في ذلك، فقد حققت أوروبا في القرن التاسع عشر تقدما ماديا هائلا، بز كل تقدم علمي عرفته البشرية، وسمع عنه العالم المترامي

---

1- نفس المصدر، ص. 45 .

الأطراف، واستطاع أن يخرج من الأسرار والاكتشافات ما جعل عقول الرحالة المغاربة وأبصارهم تتعلق به. فما هي أهم الملاحظات التي قيدها الرحالة المغاربة في هذا المجال؟ وما هي أهم القطاعات الاقتصادية التي استأثرت باهتمامهم؟.

## المطلب الأول : قيمة العمل عند الأوروبيين .

لاحظ المغاربة الذين زاروا أوروبا، أن الأوروبيين قد حزموا أمرهم وخرجوا من الانحطاط الاقتصادي بفضل الاجتهاد والتنظيم والمثابرة، فصلح أمرهم وسادت دولتهم حتى آل الوضع إلى تغلب أوربا بجيوشها وبتمدنها، فقد بين خير الدين أن تقدم أوربا لا يعزى إلى دين القوم ولا إلى خصب أرضهم واعتدال مناخهم، فقد كان العرب أقوم ديناً وأحسن مناخاً وقد نالوا بذلك المنعة والثروة منذ قرون ، لكنهم بعد ذلك أضعوا الحزم وأسأؤوا التصرف ، فتقهقروا ووهنوا<sup>1</sup>.

وبدوره، نوه سليمان بن الصيام الجزائري بقيمة العمل عند الأوروبيين، قائلاً : "وأما أهل هذه البلدة، مع كثرة عددهم، لم تجد شخصاً منهم غير مشغول مع رفاهية عيشهم واعتنائهم بالصناعات المفيدة، كنسج الحرير والذهب بالآلات اللطيفة، وأمر أهل ليون بهذه النفائس واضح مشهور"<sup>2</sup>.

كما لم تحف نخبة المغرب الأقصى اندهاشها الكبير للإيقاع الذي تسير به حركة النمو الاقتصادي والمالي والتجاري في فرنسا، والنظام الذي تقوم عليه قواعدها، وقد وصفت ذلك في غير موضع من نصوصها الرحلية، محاولة تفسيره في الآن نفسه، فقد انتبهت جميعها إلى حرص الفرنسيين على تنمية ثروتهم وحبهم للعمل وانغماسهم في الإنتاج وتنافسهم فيه بصورة تنعدم فيها مظاهر الكسل والتواكل والتعيش من الآخرين<sup>3</sup> ، وفي هذا

1- التونسي: المصدر السابق، ص . 141

2- زيادة : ثلاث رحلات جزائرية، مصدر سابق، ص . 31.

3- إذا كانت الرحلات المغربية إلى أوروبا، ركزت على اجتهاد الأوربي وحيويته وحبه للعمل، فإن الرحلات الأوربية للمغرب ركزت على تكاسل المغربي وحبه للنوم وكرهه للعمل، فالرحالة دومينكو باديا الذي انتحل لنفسه اسم علي باي العباسي أكد على أن "الصفة المميزة لهؤلاء القوم هي الخمول، إذ أنك تراهم خلال ساعات اليوم كله جالسين أو مستلقين على طول الأريكة وفي كل الأماكن العمومية الأخرى" . انظر، باي علي : رحلات عبر المغرب ، ترجمة : مزوار الإدريسي، منشورات ليوطوغراف، طنجة، الطبعة الأولى، 2008 ، ص، 96 . يرى ارثور ليرد أن "العمال المغاربة خالين من كل رغبة في العمل" وأن المغربي بصفة عامة كسول، ولا يوجد بين المغاربة أحد على استعداد للمشى من أجل المشى، ويعبر عن ذلك أصدق تعبير مثلهم الذي يقول : "لا تجلس إذا كان في استطاعتك أن تستلقي، ولا تقف إذا كان في استطاعتك أن تجلس ولا تمش إذا كان في استطاعتك أن تقف ولا

الصدد يقول الصفار المغربي : "فالأهل باريز حرص تام على التكسب رجالهم ونساؤهم لا يتقاعدون عنه ولا يتكاسلون، والنساء مثل الرجال في ذلك أو أكثر، ولا تجد أحدا منهم خاليا عن شغل وإن كان عندهم من أنواع البطالات والفرجات العجب العجاب، لكن ذلك لا يلهيهم عن أشغالهم، فيعطون لكل وقت ما يستحقه، ولا يرضى أحد منهم أن يكون فقيرا، فإن الموت عندهم أهون من الفقر"<sup>1</sup>.

كما أشاد الحجوي الثعالبي بحب الأوروبيين للعمل ، وصدقهم في معاملاتهم التجارية ، وتقديرهم لقيمة الوقت ذاكرا المثل الساري بينهم شعارا : **Time is money**، مترجما إياه بالوقت من ذهب<sup>2</sup>.

### المطلب الثاني : الفلاحة الأوروبية

رغم أن حياة السكان المغاربة، كانت تركز بالأساس على الزراعة، فإن المزارعين، وإن كانوا قد تمكنوا من بعض تقنياتها الأساسية، بسبب تراكم الخبرات الزراعية، لم يكونوا قد استطاعوا التحكم في كل تقنيات الزراعة بشكل كاف، يجعل الإنتاج مضمونا ويؤدي إلى تراكم كمي من شأنه أن يوفر فائضا قد يعقبه تحسن في مستوى العيش، نتج عن ذلك عزلة المغرب الطويلة عن التطورات التي عرفتها أوروبا جارتها القريبة رغم انفتاحه على التبادل التجاري معها، وبذلك ظل تطور بلدان المغرب بطيئا، واستمرت بنيتها الزراعية عتيقة، لم يتبدل حالها منذ أقدم العصور، مما جعلها عرضة للآفات والكوارث والمجاعات<sup>3</sup>.

---

تجر إذا كان في استطاعتك أن تمشي " .وهذا الخمول نابع من عدم اهتمامهم بالزمن "ولما لم يكن للوقت أي ثمن في المغرب فإن المغاربة يصرفون عدة ساعات وهم جالسون يشربون الشاي" ليرد آرثور. **جولات في مغرب أمس**، نقلا عن ذاكر عبد النبي : **المغرب وأوروبا ، نظرات متقاطعة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة بن زهر ، الطبعة الثانية 2007 ، ص . 130.**

1- الصفار : المصدر السابق، ص . 143

2- الحجوي : **الرحلة الأوروبية** ، مصدر سابق، ص . 123

3- في الوقت الذي كانت فيه بلدان المغرب في حاجة إلى تعبئة وتكريس جميع طاقاتها وإمكانياتها البشرية والاقتصادية لمواجهة التحديات الخارجية ومسيرة التحولات التي تقع في الضفة الأخرى، في هذه الفترة كانت الكوارث الطبيعية والأوبئة والمجاعات تنهك قواها، وتشل حركتها، وتساهم من الداخل في تعويق تطورها وتعميق آثار الضربات التي كانت تتلقاها من الخارج على يد الرأسمالية الأوروبية، ففي المغرب الأقصى انتشرت الأوبئة الفتاكة، كالتطاعون انتشارا كبيرا فتك بالقوى المنتجة الأساسية بشرية وحيوانية ، في فترات متوالية تزامن بعضها مع وجود القحط والجفاف .. انظر ذلك بتفصيل محمد الأمين البزاز ، **تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر** . منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، سلسلة رسائل وأطروحات، رقم 18 ، 1992. وتسبب انتشار المجاعات والأوبئة في نزيف ديمغرافي حاد ونقصان مهول في اليد العاملة، وأدى ذلك إلى تقلص النشاط الزراعي لصالح النشاط الرعوي. "لقد كانت وطأة هذا التقهقر الديمغرافي ثقيلة على المجتمع المغربي

توقف **بيرم الخامس** عند تخلف الفلاحة بتونس في القرن التاسع عشر ووصفها قائلاً : "أهم صنائع الأهالي هي الفلاحة، وما زالت، إلا أنها على الطراز القديم، ويأخذونها عن بعضهم بالمشاهدة مع أنها فيها كتب عديدة بخزائن الكتب لا يلتفت إليها أحد، ولذلك انحطت رتبة هذه الصناعة عما كانت وقت العمران... وصناعة التلقيح في الأشجار لا يعلمها إلا قليل، ولذلك حصل **الأورباويون** على تقدم عظيم في القطر في هاته الصناعة ولو في زرع الحبوب وكانوا فيها أكثر رجحاً من الأهالي"<sup>1</sup> .

أما الفلاحة الجزائرية، وبسبب السياسة الجبائية المجحفة من طرف الدايات والتي "تشتغل على مظالم اجتماعية جعلت الفلاحين ينصرفون عن الفلاحة ، ويفضلون تربية المواشي، إذ يستطيعون أن يفروا بها في وجه الجبابة ، دون الحبوب التي تشدهم إلى مكا معين وتجعل منهم عبيد الأرض وعبيد الجبابة"<sup>2</sup>.

وفي المغرب الأقصى، وانطلاقاً مما دونه الضعيف في تاريخه نخلص أن المؤسسة المخزنية، لم يكن يعتني بتنمية القوى المنتجة في الفلاحة، بل وفي غيرها من القطاعات الاقتصادية المنتجة، كوسيلة لتطوير الإنتاج الفلاحي وتوسيع حجم الفائض المنتج. فلو كان قد اعتنت بذلك لنمت مواردها المالية دون أن تضطر إلى تفكير الفلاحين ونهبهم وتهديد الأحوال الأمنية للبلاد. فعلاوة على عدم الاهتمام بتدريس العلوم الطبيعية والتقنية والهندسية في

---

اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا، أعاققت تقدمه وتطوره، آية ذلك أن احتلال الناس واستثمارهم للسهول - بالرغم من خصوبة أراضيها كان ضعيفا هزيلا بمعنى أن اليد العاملة القادرة على الاستغلال المكثف لخيرات الأرض لم تكن كافية بالرغم من وجود أراضي شاسعة صالحة للزراعة وبعبارة أخرى كان حجم السكان أقل بكثير من حجم الموارد الطبيعية المتاحة القابلة للتحويل والاستثمار". **الخمير : النخبة المغربية وأسئلة التحديث**، مرجع سابق ، ص . 211.

كما تعرضت تونس كغيرها من الدول المغاربية في العصر الحديث لمجموعة من الأوبئة والمجاعات، عرقلت مسيرتها الاقتصادية والحضارية، وساهمت في حدوث التراجع الحضاري. فلقد عاشت تونس في أواخر ستينات القرن التاسع عشر انهيارا ديموغرافيا مريعاً، حتى قيل في كثير من الكتابات التاريخية أن " **النعوش تجاوزت المهود** " فما وقع هو نكبة ديموغرافية، وذهب المؤرخ أحمد بن أبي الضياف الذي عاصر تلك السنوات الرهيبة إلى حد القول "... ولا تحسبن الموت في الحاضرة فقط، بل هو في بلدانها وقبائل عربانها لاسيما في الجهة الغربية أشد وأكثر. وعند العقلاء من عامة الناس أن هذه الإيالة مات النصف من أهلها في هذه السنة، وقال لي بعض عقلاء العرب من أهل الخبرة " .... مات الثلثان وبقي الثلث .. كما أن الناس عجزوا عن الحفر لمواراة الموتى فصاروا يجعلونهم في مطامير خزن الحبوب لفراغها دون ما تأكله الوحش والكلاب ". ابن أبي الضياف، المصدر السابق، ج، 5، ص . 35 .

1- بيرم : المصدر السابق، ج 1 ، ص . 68.

2- الميلي: المصدر السابق، ج، 3 ، ص . 308.



المدارس الرسمية، نجد أن الدولة، حسب ما يورده الضعيف من أخبار، لم تكن تول اهتماما يذكر باستصلاح الأراضي وتوسيع المساحات المسقية وشق الطرق والبحث عن المياه الجوفية وتشجيع الابتكارات التقنية... ولذلك كانت الدولة تظهر أمام القبائل الفلاحية والرعية بمظهر الجهاز الطفيلي الذي يفرض عليها الضرائب والمكوس والكلف المختلفة دون أن يفيدها كبير فائدة. ومن هنا جاءت تمردات تلك القبائل على الدولة المخزنية وتكررت. كما تكررت حركات الدولة الهادفة إلى إخضاع القبائل لإرادتها وسلطتها<sup>1</sup>.

وهكذا تصف لوسات فلنزي L VALENSI بؤس وسائل الإنتاج الاقتصادي في منطقة المغرب الإسلامي في الفترة السابقة لانتصاب الاستعمار الفرنسي بها بداية من سنة 1830م، فتقول: "إن تلك الوسائل تتصف وعلى امتداد المنطقة، بضعفها التقني، وذلك سواء تعلق الأمر بشبه الرحل، أو بالغراسين فإنهم يستعملون كلهم أداة حرث وحيدة، وهو المحراث الخشي، فباستثناء سكة المحراث الحديدية، فإن كل الأدوات خشبية، كما أن الحصاد يتم بواسطة المنجل"<sup>2</sup>.

إذا كان هذا هو حال الفلاحة بالبلدان المغاربية، فإن الرحالة المغاربية الذين زاروا أوروبا، وعوا تجاوز الفلاحة الأوروبية لها، فيرم الخامس يقر بأن "الفلاحة عندهم متقدمة للغاية"، ويضيف مفصلا لهذا التطور قائلا: "اعلم أن هاته الصناعة لها ترق كبير لحسن الموقع واعتدال الهواء ومع ذلك لم تبلغ الى درجة النهاية، نعم هي في الجهة الشمالية مناكبة لما جاورها في فرنسا وغيرها، فلأهلها اعتناء واتفان للزراعة وتربية الأشجار وتنميتها حتى ترى الأرض كأنها حديقة متقنة ولا تجد أرضا خالية من الأشجار. والاراضي الزراعية تجدها مقسومة بصفوف من الاشجار وبينها براحات للمزروعات، فصاحب الأرض ينتفع بغلال الأشجار والحطب والزرع معا"<sup>3</sup>.

أشار بيرم الخامس الى استفادة الفلاحة من الوسائل الحديثة، حيث تجاوزت الممارسة التقليدية إثر إنشاء معاهد مختصة بالميدان تعتمد على المخابر والتحليل العلمية وإدخال الكيماويات والأسمدة لتطوير الإنتاج وتحسينه كما وكيفا "ثم إن صناعة الفلاحة لا يأخذونها بمجرد التقليد في العمليات، بل إنها علم مخصوص يدرس ويصور بالمشاهدة ولها مدارس مخصوصة، ويعتمد كثيرا من الكيماويات، وحول المدارس أراضي للبيان بالعيان والتجربة والعمل، وأراضي الرعي مخصوصة، ومن حسن التربية وحراسة الحكم لا يتجاسر أحد بالرعي ولا

1 - الضعيف: المصدر السابق، 1986.

2- ابن الأصفر: المرجع السابق، ص. 292.

3-بيرم: المصدر السابق، ج، 3، ص. 83.

غيره في أرض ليست له اما بالملك أو بالكراء حتى أنه ليس لبساتينهم طوايي تمنع الداخل ولا تقع عندهم سرقة الغلال الا نادرا"<sup>1</sup>. في نفس السياق أكد خير الدين التونسي استفادة الفلاحة من تطور التعليم قائلا : "ويوجد كثير من المدارس.... وثلاث مكاتب سلطانية لتعليم البيطرة، ومثلها لتعليم فنون الفلاحة، والعارفون بقواعد الفلاحة متوزعون في بلدان المملكة، ومن مكاتب ما هو دائم التعليم، ومنها ما لا يفتح الا في أوقات مخصوصة"<sup>2</sup>.

كما أعجب الرحالة الجزائريون أيضا باهتمام الأوربيين بالغراسة، يقول ابن الصوام : " وحاصل الأمر وغايته أننا منذ دخلنا هذه البلاد بأسرها لم نرى بها موضعا خاليا من الغراسة والحراثة، وكثرة الأشجار والظل المديد والحسن الذي ليس فوقه مزيد ، مع كثرة مدينتها وقراها وعمارتهم ونظافتهم ... وهي قرى مسلسلة متصلة بعضها ببعض، خصوصا مع جد السير، حتى أن الإنسان لا يظن إلا أنه في بلدة واحدة، والمسافرون غالبا في ظل الأشجار المرصوصة بترتيب مطرد في سائر الطرق "<sup>3</sup>.

أما رحالة المغرب الأقصى، فقد أولوا اهتماما كبيرا للفلاحة ، لأن المغرب بلد فلاحى بالأساس، فتحدث الصفار عن الفلاحة الفرنسية في رحلته ووفى، حيث ذكر ما للفرنسيين من صفات الجدية في العمل والإتقان والتعمير قائلا : "فلا وجود لأرض غير مغروسة، ولا يوجد عندهم خراب أو أرض موات .. حتى أن الأرض التي تراها رديء ينقلون لها التراب الجيد من أرض أخرى"<sup>4</sup>. كما أثار انتباهه ولع الفرنسيين بالغرسة "فالغراسة فن شائع هناك، وعملية الغرس في كل مكان حتى في حافات الأنهار ومجاري الخنادق بالمعالجة والعناية."<sup>5</sup> كما أشاد بطريقتهم في غرس الأشجار قائلا : "ولهم في غرس هذه الأشجار التي في البراري ترتيب وتصنيف عجيب في غاية من الإتقان، فيجعلونها صفوفها متساوية وخطوطها متوازية، لا ترى واحدة خارجة ولا بارزة عن أختها في الصف."<sup>6</sup>

---

1- نفس المصدر، ص . 84.

2- التونسي : المصدر السابق، ص . 236 .

3- زيادة : ثلاث رحلات جزائرية ، مصدر سابق، ص . 41 .

4- الصفار : المصدر السابق، ص . 116 .

5- نفس المصدر، ص . 119 .

6 - نفس المصدر، ص . 117 .

كما قارن الصفار بين أراضيهم الفلاحية وأراضيها، وأشار إلى أن "أرضهم على الجملة ليست أرض خصب وكلاً كأرض المغرب، إنما هي أرض صلبة قرعة خشنة، لولا دوام النباش فيها والتنزيل والخدمة وعدم وطء المواشي والأرجل لها، لما أخرجت ما تخرجه من الثمار وغيرها بما ذكر. ولم نر عندهم شيئاً من النباتات والعشب التي تكون عندنا في فصل الشتاء"<sup>1</sup>.

وسجل ابن إدريس العمراوي ملاحظاته عن تطور الفلاحة الأوروبية عندما قال: "ولهم اعتناء كبير بها، وولوع بتربية أشجارها وخدمتها، وكل أشجارها صفوف معتدلة غير معوجة. وربما جعلوا للشجرة أسلاكاً طويلة من الحديد يرجعونها بها ويثبتونها في الأرض حتى لا يميلها الريح... ولا نجد محلاً عندهم مهملاً... وكل ذلك تسهيلاً للانتفاع بها، وما عظم وطال جدا من تلك الأشجار جعلوه صواري للسفن، وغيره يخرج من اللوح الذي يستعملونه في أبنيتهم وآلاتهم، وما فضل من ذاك يجعل حطباً، ولا تجد شجرة تحتطب كلها من غير أن يخرج من عودها ما ينتفع به في نوعين أو ثلاثة من الانتفاعات"<sup>2</sup>.

أما الجعيدي، فقد كانت له التفات قليلة لميدان الزراعة لاعتبارات بيئية واجتماعية كثيرة، رغم أن النهضة الحديثة أولت لهذا القطاع عناية فائقة، لأن أنشطة السفارة المغربية كان جلها متمركزاً في المدن والعواصم الأوروبية، لكن الجعيدي شهد ذلك التطور الهائل من نوافذ القطار الذي كان يمر بهم وسط الأراضي الزراعية قائلاً: "ثم أخذ البابور في السير، ونحن بين جنتين عن اليمين واليسار، والأنهار جارية، وأشجار البساتين متقاربة لا متجافية..."<sup>3</sup> وهو إشارة إلى استغلالهم الفلاحي بكثافة ونظام متقن.

وعبر عبد السلام السانح بدوره عما آلت إليه الفلاحة الفرنسية في الربع الأول من القرن العشرين، وقارنها بالفلاحة المغربية، فقال: "فسرنا نحترق تلك الأراضي الخصبة التي اشتبكت المياه بتربتها اشتباك العروق بالجسد أو الروح بالشبح ما بين قرى ورياض، ومزارع وحياض، وكروم رائقة التنسيق، لطيفة التصفيف"<sup>4</sup>. وأضاف: "ومن الجدير بالالتفات أن الكروم عندهم قصيرة القامة جدا، لا يسمحون لها بإرسال أعنة الفروع والأغصان نحو السماء. وبهذه الطريقة لا تتصرف العصارة في الأوراق والأغصان، بل تتجمع كلها إلى

1- نفس المصدر، ص . 118.

2- العمراوي : المصدر السابق، ص . 54

3- الجعيدي : المصدر السابق، ص . 163

4- السانح : المصدر السابق، ص . 36.

العناقيد، فتزكو وتنمو، وكثيرا ما يغرسون أشجار القطن على جدار الأتار، ليمنع تراب الشواطئ من الانمحاء والانهيار.<sup>1</sup>

ويضيف قائلا: "ومما يوجب الالتفات إليه أيضا، أن للفلاح الإفرنسي شغفا زائدا بتحسين المناظر وتجنيس النباتات والأشجار، وتدبيج ألوان الأزهار، بخلاف الفلاح المغربي فإن همه مجرد الاستنتاج من مزارعه الفيحاء الشاسعة الأرجاء، مستدرا الخيرات وينبوع البركات، وذكر لي بعض المواطنين هناك، أن للفلاح الإفرنسي من محاصيل أرضه من حبوب وخصر وفواكه ومشروبات وماشية وما يقوم به أو بمعيشته، فتراه مكبا على بقعته صباح مساء ، وبذلك يمكنه التوفير، إذ لا يند عن جيبه إلا النزر اليسير".<sup>2</sup>

لفت الصغار انتباه المخزن إلى أهمية تشجيع الدولة للفلاحين بتخصيص عطايا لمن ظهرت له "مزينة لم يأت بها غيره من الفلاحين، ترغيبا منهم للزارعين في أن يجتهدوا في الحرث والازدراع ، وأن يأتي كل منهم بما يفوق به غيره في الزراعة"<sup>3</sup>.

### المطلب الثالث: الصناعة الأوروبية عند الرحالة المغاربة .

من خلال ما دونه ابن أبي الضياف في «إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان» وبيرم الخامس في «صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار» ، والضعيفي في «تاريخ الضعيفي» والميلي مبارك في «تاريخ الجزائر» تشكلت لدينا صورة قائمة عن الوضع الصناعي بدول المغرب؛ حيث كانت في أسوأ أحواله ، حيث بقيت منحصرة في حرف صغيرة تتآكل وتحتفي أمام الصناعات الأوربية المتطورة. فما هي أهم مظاهر الرقي الصناعي الذي أثار انتباه الرحالة المغاربة؟ وكيف فسروا أسباب هذا التطور الصناعي في نصوصهم الرحلية؟

#### 1: مظاهر وتجليات الرقي الصناعي الأوروبي

##### أ \_ صناعة السكة .

وقف الرحالة المغاربة عند صناعة النقود بدول أوربا، فوصف لنا ابن أبي الضياف دار السكة التي زارها رفقة الباي "وتوجه إلى دار ضرب السكة الخاصة، وعملها بالفابور، وحركوا آلاتها بمحضره، وهو ينظر الدراهم خارجة موزونة مطبوعة تجري جريان الماء في ساقية من خشب، وطبعوا بمحضره قطعا من خالص

1- نفسه .

2- نفسه .

3- الصغار : المصدر السابق، ص . 118.

الفضة، أكبر من الريال الدوروي، إلا أنها بغير آلة الفابور<sup>1</sup>، مكتوب على كل واحدة ما نصه: «سعادة بك تونس قد شرف دار السكة بباريس بحضوره في غرة ديسمبر سنة 1846 مسيحية» وبالجهة الأخرى صورة وجه السلطان، وطبعوا أمثالها من النحاس، وأهدوا جميع هذه القطع للباي وأتباعه<sup>2</sup>.

وكان مما اكتشفه السنوسي، من تراتيب العملة والنقود، قد جعله يقيم مقارنة بالوضع الذي كانت عليه أمور العملة بالبلاد التونسية عصرئذ، فمدح التراتيب القاضية بصيانة النقود من الغش وقال في هذا الصدد: "ولقد أخذت معي في هذا السفر عددا من نقود الفضة والفرنكات، فلما صرت لنابلي ورأيت أوراق المعاملة الخفيفة الحمل المقبولة في جميع الأسواق بقيمتها أردت استبدال الفضة بالأوراق، فلم يمكن ذلك إلا بإعطاء صرف قدره اثنان في المائة، أما الذهب فانه والأوراق سواء تستبدل أيهما تشاء بقيمته من الآخر من غير صرف. وأين هذا من تجارة الدولة في غش النقود لتحصل على ربح يضيع بسبه في كل يوم أضعافه المضاعفة."<sup>3</sup>

إنه الرحالة الجزائري ابن الصوام أيضا بصناعة الدراهم، وعبر عن اندهائه بتطور دار السكة التي زارها، ويستقرئ ذلك من خلال قوله: "وجدنا بها أربعة عشر مطبعة، في غاية ما يكون من قلة المشقة وخفة العمل وشدة الضرب، حتى جميع ما يحتاجون إليه من خدمة الآدمي يخدمونه بالآلات إلا في وقت الميزان فقط، أخبرني من أثق بخبره، أن كل مطبعة تضرب في اليوم مائة ألف دورو، فتأمل أيها الناظر، وذلك من أغرب ما رأينا وليس الخبر كالمعاينة."<sup>4</sup>

زار الوفد المرافق للجمعدي المغربي دار ضرب السكة بباريس، وسجل لنا تفاصيل هذه الزيارة الاستطلاعية انطلاقا مما شاهدوه في معرض النقود القديمة التي كانت سائدة عند كثير من الدول بما فيها المغرب، ثم تناول كيفية ضرب النقود المعدنية الفرنسية من الفضة والنحاس بواسطة آلات ميكانيكية انطلاقا من تدوير المعدن إلى أن يصبح قطعة نقدية جاهزة، يقول الجمعدي: "وحيث وصلنا إليها تلقانا كبراًؤها بالفرح العظيم والتعظيم... ثم نزلنا إلى محل خدمة السكة، فوجدنا في موضع منها مكينة عظيمة مثل مكينة البابور.... ويحرك المكينة

---

Vapeur - 1

2- ابن أبي الضياف، المصدر السابق، ص . 102

3- السنوسي : المصدر السابق، ص . 13 .

4 - زيادة : ثلاث رحلات جزائرية ، مصدر سابق، ص . 39

فيأخذ يتساقط من أسفلها واحد بعد واحد، وكلما سقط واحد من تلك الجعبة تخطفه حديدة أخرى رأسها مستدير ، بقدر نصف دور الريال، وتجذبه إلى محل آخر، فيسقط في داخل ثقبه هناك، وينزل إلى الطرف الموضوع لجمعه، فيخرج عنده وقد رقم في حرفه ما يرقم في حرف الريال من حروفهم. وبهذا يتم عمله"<sup>1</sup>. كما وصف لنا دار السكة بلندن الإنجليزية، لكنه وجدها دون مستوى التطور والتقدم الذي لمس في نظيرتها الفرنسية .

#### ب \_ وفرة المصانع والمعامل :

أشار بيرم الخامس إلى وجود معامل كثيرة بأوروبا، والتي هي " من أعظم أسباب الثروة والترقي " كما أشار إلى اجتهادهم في ترقيتها ، وذكر أمثلة منها : "...معامل للسلاح بأنواعه، ومعامل لإنشاء السفن والبواخر المدرعة، ومعامل التحليلات الكيماوية وللإعطار وللشمع المتخذ من الشحم للدباغة للجلود ولصناعة الورق وغسل القطن ونسج الجوخ والشاشية وأنواع المنسوجات الحريرية ، ولهم معامل الزجاج والفخار والعقيق والزهور الصناعية وآلات المرايا المكبرة"<sup>2</sup>. كما أقر بيرم الخامس بجودة السلع والمصنوعات الأوربية خاصة الفرنسية، لأن "مصنوعاتها متقنة ظريفة العناية يرغب فيها في سائر الأقطار لظرفها وتحسينها ورونقها وان كانت بعض الأقطار أمتن صناعة وفرنسا جامعة لكل الصناعات المعروفة في العالم حتى الخزف الصيني والمنسوجات الكشميرية يقلد عليها في فرنسا ويؤتى بالمصنوع مشابها للأصل. وقد برعوا في الآلات بأنواعها الكهربائية، وقد خصصوا لها معرضا سنة 1881 م لامتحان ما أثمرت من الفوائد، أما الصناعات فأعظمها عمل آلات الحديد بأنواعها والسفن والمنسوجات القطنية، ولهم فيها مهارة على سائر الممالك حتى صارت أرخص عندهم من غيرهم ، ثم المنسوجات الصوفية لاسيما المستخرجة من صوفهم الرفيعة المشابهة للحرير، وبقية الصناعات هي دون فرنسا في الحسن والرونق، لكن مصنوعاتهم متينة"<sup>3</sup>.

تعتبر مساهمة الكاتب المخزني إدريس الجعيدي من أهم ما جاء في هذا الجانب، فقد أولى هذا السفير اهتماما كبيرا للصناعة الأوربية. ويرجع ذلك إلى تكوينه العلمي وتفتحته على العالم الخارجي، ولاشك في أن لتكوين الجعيدي العلمي علاقة بوجود العدد الهائل من الرسوم التوضيحية والبيانات والجدول العلمية في مؤلفه. فكان

1- نفس المصدر، ص . 188 .

2- بيرم : المصدر السابق، ص . 94 .

3- نفس المصدر، ص . 65 .

يدون كل ما يرى فيه منفعة للمغرب ويرسمه ، لأنه كان يعلم اهتمام السلطان المغربي الحسن الأول بالصناعة، فقد أرسل هذا السلطان البعثات الطلابية إلى أوروبا من أجل التحصيل والتكوين، فحسب هذه المعطيات جاءت رحلة الجعيدي زاخرة بمعلومات كثيرة ومتنوعة عن الصناعة والصناع في أوروبا.

لقد وصف لنا الجعيدي لفابريكة السكر في مرسيليا ، حيث خصه الجعيدي بالبحث المستفيض لما شاهده من عمل الخدمة به، وكيفية نشره إلى قطع على شكل مربعات صغيرة، وفي ذلك يقول : "حتى انتهينا إلى دار تلك المكنية<sup>1</sup> فرأينا بأسفلها العجب العجاب، ما يتحير فيه الدهاة من أولي الألباب، فما أكثر ما هناك من النواعير التي تدور واختلافها صغرا وكبرا على نسبتها المقرر عندهم المشهور... وهناك آلات حديد متفاوتة في القدر والشكل. منها ما تراه يتحرك يمينا ويسارا، ومنها ما يكون تحركه من الأعلى إلى الأدنى ارتفاعا وانخفاضا. ولم أقف على أصل الحركة الأولى التي نشأ عنها سائر الحركات.. ثم صعدنا إلى طبقة فوق هذه ، فوجدنا في التي فوقها مناجير عديدة عظيمة قطر دائرتها بقرب من خمسة أذرع والنار توقد تحتها، وفيها شيء دائب يغلي من شدة النار التي تحته، وحول كل طنجير براميل عظيمة، تسع أزيد من عشرة قناطر من السكر الغبراء<sup>2</sup>، ثم استمر الجعيدي مدققا في وصف الآلات والعمليات التي يقوم بها العمال من أجل صناعة هذا القالب، وانتهى إلى القول : "وهكذا ثالثا ورابعا وخامسا حتى يتم القالب" . ولعل إفاضة الجعيدي في وصفه لصناعة السكر، يعود في نظري إلى رغبة السلطان الحسن الأول في إعادة تشغيل معمل صناعة السكر الذي أحدثه السلطان محمد بن عبد الرحمان، لسد حاجيات الاستهلاك الداخلي المرتفعة؛ حيث كانت تكلف المخزن المغربي مبالغ ضخمة في استيراده من الخارج .

كما وصف الجعيدي الصناعات النسيجية التي أصبحت تهدد الصناعة المحلية، لرواجها الكبير في السوق المحلية نظرا لجودتها وثمنها المناسب، وكان لذلك تأثير سلبي على الطبقات الحرفية التقليدية المغربية لفائدة طبقات من التجار المغاربة والأجانب الذين يستوردون الأثواب والمنتجات، وقد أدى ذلك إلى تحطيم الهياكل الاقتصادية التقليدية. ودقق في وصف عملية تغوير الفحم، فوصف لنا طريقة استخراجها عبر آبار عميقة ومتعددة، ينزل إليها الخدمة بالتناوب بواسطة المصاعد التي حاول رسم شكلها الخارجي بطرة الورقة، وتهوية المناجم لاستخراج الغازات السامة، وضخ المياه الباطنية، وغير ذلك ، وإن احتراقه ينتج عنه غاز الاستصباح الذي يخصص للطهي والإنارة،

---

1- مكنية صنع السكر القالب.

2- الجعيدي : المصدر السابق، صص . 138 - 139 .

الذي يظل مشتعلا في الطرق طول الليل ، حتى يستمر الرواج التجاري وحركة البيع والشراء إلى وقت متأخر من الليل، عكس ليل بلدته المظلم الجامد ، ويولد كذلك حرارة هائلة داخل الأفران العالية لصهر الحديد وغيره<sup>1</sup>. هذا الاكتشاف زاد من اهتمام **الجبدي** بالفاخر الذي اعتبره المصدر **الطاقي الوحيد** المعمد في تحريك الاقتصاد الأوروبي، وأصل حركة الانقلاب الصناعي، وسر المستحدثات التقنية الغربية.

أما محمد السنوسي فقد توقف طويلا عند صناعة الكهرباء متأملا، وعبر عن انبهاره بقوة النور المنبثق عن فوانيس الكهرباء في مبنى **التياترو**، أي في دار المسرح، لينبهر من جديد في محج **طريق كبرى**؛ حيث إن قوة ذلك النور الكهربائي جعلته يشاهد ما لا يمكنه مشاهدته عادة بسبب ضعف بصره. كما توقف عند تاريخ ظهور **الطاقة الكهربائية** التي وجدت في الطور الجيولوجي الثالث حيث كان عبارة عن صبغ شجرة صنوبر ليصل الى اختراع أديسون الأمريكي في المجال<sup>2</sup>، ويقصد بذلك توماس ألفا أديسون T-E Edison (1847-1931م) الذي اختراع المصباح الكهربائي سنة 1879 م. ثم انتقل الشيخ السنوسي إلى الحديث عما سماه "مؤتمر عموم منفعة الكهرباء"، وفي ذلك الإطار تعرض لعدة تطبيقات نفعية للطاقة الكهربائية<sup>3</sup>، مثل جر قطار سكة الحديد و دفع القوارب وجر آلات الحراثة والزراعة وإطلاق رنين الجرس وغيرها، أو الطبخ وصناعة التلغراف والتلفون والميكروفون، ونظرا لأهمية الكهرباء في عصر السنوسي ، فقد اعتبرها مقام بخار النار في كثير من الصناعات الجديدة<sup>4</sup>. لذا اعتبره السنوسي جديرا بأن يعد من مفاخر هذا العصر ، وأطلق على هذا الأخير "عصر الكهرباء"<sup>5</sup>.

### ج : المعارض الصناعية :

تعرضت النخبة المغاربية أيضا لمظاهر اقتصادية أوربية أخرى، مثل المعارض الصناعية والتجارية التي تتولى عرض نتائج المملكة من نباتات وحيوانات ومصنوعات مستغربة ونحوها. ولقد كانت هذه المعارض ظاهرة اجتاحت العالم الصناعي، بسبب جو التنافس العلمي الذي كان قائما بينهم، وقد برزت أنجلترا في هذا الميدان بإقامتها أول معرض عمومي دولي اشتركت فيه أغلب دول العالم، وهيئوا لذلك الدار الرحبية المعروفة بقصر البلور

1- نفس المصدر، ص ، 243 .

2- السنوسي : المصدر السابق، صص . 103 - 104 .

3- نفس المصدر، صص . 106 - 107 .

4- نفسه .

5- نفسه .



Cristal Palace منذ سنة 1851م. وقد بين خير الدين التونسي القصد من ذلك بقوله: "وكل ذلك ليقتدي المتأخر بالمتقدم في الصناعات ونحوها، مع ما يحصل لتجار تلك المملكة من الأموال الغزيرة، الناشئة عن معاملة ملايين من النفوس الأجانب الوافدين عليها لذلك. وإدارة هذه المجامع، وتعيين المنازل لأرباب الصناعات والبضائع، وتعيين من يستحق الجزاء ونحو ذلك، موكولة لنظر مجلس مرؤوس بأمر من البيت الملكي إظهارا لمزيد الاعتبار".<sup>1</sup>

خص الجعيدي هذا المعرض بدراسة مطولة، تناول خلالها جل الأشياء التي أثارت انتباهه واستغرابه، كالمحاولات الأولى للغطس تحت الماء بالاستعانة بأجهزة الهواء المضغوط المتصل بالخرطوم على سطح الأرض، وأجهزة اللعب الكهربائية، وقاعة عرض الصور الفوتوغرافية بواسطة آلات علمية كهربائية كبيرة، والتي سبقت ظهور السينما الحقيقية على يد الإخوان Lumiere سنة 1895م .

وبمعرض العلاج والإنقاذ ببروكسيل وصف لنا في رحلته بعض الوسائل المستحدثة في هذا الميدان ، نظرا لتضخم المدن، وتطور وسائل النقل، وذلك بهدف مواجهة الحوادث والنكبات، مثل عمل رجال المطافئ ومراكب الإنقاذ وجهاز التلغراف وغير ذلك .

كما وصف أحمد ولد قادم الجزائري معرض باريس، وخصه لوحده بفصل كامل في نصه الرحلي، حيث استعرض غرائب الصناعات الفائقة والإختراعات البديعة الرائعة بقوله : "فوجدناه أمر عجيب يحتوي على أصناف نتائج الزرع ونتائج الضرع والمعادن والتحف"، كما لفت انتباه أحمد ولد قادم الصناعات الحديثة التي يقول عنها : "كل شيء منها على حدة موضوع بالإتقان والتحكيم، وكل شيء يستخرج بالآلات والحركات العقلية"<sup>2</sup>.

والحركات العقلية عنده هي كل صناعة تقوم على الآلات، ومثال على ذلك قوله: "فترى الصوف مثلا في محل حملها تخرج خيطا، ثم يصير ملفا جيدا ومتوسطا وادنى، فتقول أين المشط وأين المغزل وأين المنسج". والحركات العقلية يمكنها أن تصنع المستحيل والمستغرب، وفي ذلك يقول : "وأغرب من هذا أن النار والماء ضدان، والضدان لا يجتمعان، فرأينا الثلج يستعمل من نار وماء بالآلات والحركات العقلية، فلو سمعنا بهذا لما صدقه العقل، لكن ليس الخبر كالعيان فوقفنا باهتين ..وقلت لنفسني اعتبر يا أحمد ولد قادم، وأخبر من

1- التونسي : المصدر السابق، ص . 253 .

2- زيادة : ثلاث رحلات جزائرية ، مصدر سابق، ص . 67 .

يعتبر<sup>1</sup> كما اطلع في معرض باريس على عملية تحلية ومعالجة المياه، واعتبرها من الصناعات العجيبة والغريبة، والتي لا يمكن لأمثاله أن تستوعبها عقولهم يقول: "كما رأينا الماء المكدر بالأوساخ، لا تشربه البهائم فضلا عن الآدمي يعالج ويخرج كاللجين صاف، وكذلك الماء بالمعالجة يصير حلوا"<sup>2</sup>. ومما أشار إليه، وكان جديدا كل الجدة على الإنسان العربي، تهجين الطيور، حيث قال: "ومن جملة ما رأيناه من أدنى الغرائب استخراج أفراخ الطيور من غير تخضين، فتراهم يجلبون أنواع البيض من كل بلد، ويعالج بالحرارة المناسبة لأمهاته، حتى يخرج أفراخا راغدة طالبة للمعاش"<sup>3</sup>.

## 2 : أسباب الرقي الصناعي الأوربي عند الرحالة المغاربة :

أسهب خير الدين التونسي وثلة من علماء المغرب، في بيان أسباب التقدم الصناعي الأوربي وتجاوزه للصناعة المحلية ووسائله، وفي مقدمتها تنظيم المدارس، وفي هذا يقول : "وبفضل التقدم العلمي تمكن الأوروبيون من عدد من الاكتشافات والاختراعات في القرون الأخيرة". وقد استعرضها خير الدين ذاكرة التواريخ والظروف التي تمت فيها هذه الاختراعات، مشيرا إلى اكتشاف الطرق البحرية البعيدة، واختراع المطبعة، ومعامل القطن والحديد، والبسط الرفيعة، ومعامل الذكير المذاب، واختراع جواذب الصواعق، والتلقيح ضد الجدري، واختراع الآلة البخارية واستعمالها في السفن، والارتفاع في الجو بالبالون، واستعمال الغاز للإسراج، واختراع الأرتال السائرة على السكك الحديدية، واختراع التلغراف .

كما أبرز خير الدين دور التشجيعات والهدايا التي تخصصها الدولة للمبدعين من الصناع في تطوير القطاع الصناعي والرقي به، حيث يعطى المخترع ميدالية بعد تداول لجنة من العارفين بحقائق الأشياء حولها قائلا : "فإن وجدوا شيئا منها مستبدعا أعطى مخترعه قطعة من نحاس أو فضة أو ذهب تسمى المداليا، على شكل المسكوك مرسوما في أحد وجهيها صورة الملك وفي الآخر مكان العرض وتاريخه، وقد يستحق متقن صناعته نشان الافتخار، فإن قيل : ما فائدة هاته القطع التي أعلاها قطعة ذهب، وهي لا تفي ببذل الجهد والمكابدة في الاختراع؟ فالجواب أن آخذ تلك القطع، زيادة على الشهادة له بالكمال والتقدم فيم هو بصدده من الأعمال، يتوصل بذلك إلى ما يؤمله من الرغبة في سلعته المثمرة لنمو مكاسبه. لأن سائر ما يقع في ذلك

1- نفس المصدر، ص . 68 .

2- نفس المصدر، ص . 69 .

3- نفسه .

المجمع يطبع في صحف الأخبار ليشيع في الناس. وربما أعطي المخترع مبلغا من المال، وقد كان نابليون الأول أصدر أمرا بإعطاء مليون فرنك لمن يحدث آلة الكتاب وحدها"<sup>1</sup>.

كما انتبه العمراوي المغربي أيضا، إلى دور الحوافز والتشجيعات التي كانت الدولة الفرنسية تخصص بها ذوي الابتكارات والمهارات العالية كأن تنشر أسماءهم ومخترعاتهم بالصحف، ليصبحوا قدوة لغيرهم: "وإذا رأوا هنالك مخترعا غريبا، كتبوه في ورقات الأخبار المسماة بالكازيبات وأشاعوه في جميع الأقطار. والسر في ذلك ظاهر"، علاوة على سن التشريعات التي تكفل حماية إنتاجهم من المنافسة الخارجية، وفي ذلك يقول: "وإذا جاءتهم سلعة من خارج بلادهم وعندهم مثلها، فإنهم يتغالون في عشورها حتى لا تدخل، حرصا منهم على نفاذ سلع بلادهم لتروج صنائعهم"<sup>2</sup>.

### المطلب الرابع : التجارة بأوربا .

يؤكد المفكر المغربي عبد الله العروي على ضرورة تسجيل مفارقة مؤلمة : ففي الوقت الذي كانت البلاد الأوروبية شمال الحوض المتوسط تعيش ما سمي "بالنهضة"، أي إحياء العلوم القديمة واستكشاف المعمور وامتلاك الأراضي وارتقاء الصناعة والتجارة التي كانت مصدر ثروة البلدان الأوروبية، كانت بلاد المغرب تسير في اتجاه معاكس عائد إلى حالة تتميز بركود التجارة وتراجع الزراعة<sup>3</sup>.

لقد كانت هناك أسباب تعيق ازدهار النشاط التجاري وتعرقل حركيتها، منها افتقار البلدان المغربية إلى الطرق المعبدة، وانعدام وسائل المواصلات من عربات جرارة واستعمال العجلة بحيث كان الاعتماد على الدواب كوسيلة فريدة في النقل .

وبسبب الضعف الكبير الذي كان يعرفه مجال التجارة ببلدان المغرب، انتبه الرحالة المغاربة الذين زاروا أوربا في القرن التاسع عشر، للتفاوت الحاصل في هذا القطاع الاقتصادي، وأشاروا إلى ذلك في أكثر من موضع في نصوصهم الرحلية، ذلك أن أول ما يستوقف الصغار، وهو يعرض لهذا المجال من الحياة اليومية الباريسية، اختراق الفضاء التجاري كل النسيج الجغرافي للمدينة، فالسوق هنا غير السوق في بلده، إذ هو غير مركز في منطقة من

---

1- التونسي : المصدر السابق، ص . 251

2- العمراوي : المصدر السابق، ص . 63 .

3- العروي : تاريخ المغرب محاولة في التركيب، ترجمة : ذوقان قرقوط، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، 1977، ص . 229 .

الحي بل منتشر في جميع مواقع السكن، وهو يتخذ شكل دكاكين، أو في ما سيبدو له أسواقا صغيرة مزروعة في كل مكان ، ثم إنها مجاورة لبعضها على غير ما هي عليه من عزل وانعزال في بلده، إذ "نجد حانوت اللحم والسّمك مجاورة لحانوت الذهب والجواهر ونفيس السلع"<sup>1</sup> والمثير أنه لا يجد في هذا التجاور سببا للاعتقاد في فوضى أو عفن إذ "هما في النظافة سواء"<sup>2</sup>.

انبهر العمراوي أيضا برقي التجارة في فرنسا وعبر عن ذلك بقوله : "وأكثر تكسب أهل هذه المدينة من التجارة . والتجار عندهم معتبرون اعتبارا زائدا، وهم ركن من أركان الدولة. وكلما زاد مال الرجل عندهم ونجحت تجارتهم، كان أرفع منزلة وأعظم مكانة، والعكس بالعكس. ويذمون البطل عندهم ذما بليغا ويتهاجون بالبطل ..... فأما دكاكين التجارة عندهم بباريز، فشيء من وراء العقول : كثرة سلع وترتيب وتزيين في أعين الناظرين . ويرتبون السلع في أبواب الحوانيت ، ويجعلون وراءها الزجاج ، ويوقدون داخل الحوانيت وخارجها الضوء الكثير، فظهر لذلك بمرجة تحمل الناظر على عشق تلك السلعة والتغالي في ثمنها. ولهم سعة أخلاق عند البيع وأدب في المعاملة"<sup>3</sup> . كما أشار إلى أن التجارة علم له قواعد مضبوطة لا بد من معرفتها، وهو من "جملة العلوم التي تدرس وتدون ولها مكاتب ومدارس"، ثم الغريب أن للتجارة وزيرا مخصوصا لهذا القطاع : " فإن ظهر لهم صلاح في أمر من أمور التجارة، أو خافوا ضررا أو خسارة في أمر من الأمور واجتمعوا عليها هناك ، وتفاوضوا فيه وكيفية إصلاح ذلك، رفعوا فيه لوزير التجارة وهو وزير مستقل. فيرفع أمرهم للديوان ويسعى في إصلاح أمورهم بعناية إكانه"<sup>4</sup>.

أما بيرم الخامس التونسي، فقد توقف عند تطور التجارة في أوربا قائلا : " وكذلك كثرت سكان الممالك المتمدنة، وكثر المتمدنون وكثر اتساع التجارة وإيصال البضائع إلى الأقطار الشاسعة التي لم تكن تصل إليها من قبل. فارتبطت الأشياء بعضها ببعض، واتسعت التجارة ، وازدادت الأرباح"<sup>5</sup>. والأمر نفسه أكد عليه بن الصيام " وأما أمر أهل فرانسة في الاعتناء بالغراسة والحراثة والنظافة والتشييد في البناء وتكثير التجارة

1- الصفار : المصدر السابق، ص . 245 .

2- نفس المصدر، ص . 246

3- العمراوي : المصدر السابق، صص . 57- 58

4- نفسه.

5- بيرم : المصدر السابق، ج، 3 ، ص . 356.

والصنایع، فهو أدل دليل على صلاح رأيهم وامتثالهم لمرائهم، حتى اشتهر العدل في برارهم وبحارهم"<sup>1</sup>. إن العامل الرئيسي في انتعاش الحياة الاقتصادية ولا سيما القطاع التجاري "هو الأمن الذي سوغ للأهالي عقد الشركات بإظهار أموالهم وترويجها، والشركات هي الأساس الثاني مع حسن الإدارة، وهو ما أورث أنموذج الغنى وتبعه ثروة الدولة التي هي بيت مال الأهالي بعد أن كانت منذ مدة ليست بطويلة في غاية العسر والفقر من سوء إدارة حكومتها والحروب الأهلية والخارجية"<sup>2</sup>.

حاول الحجوي إبراز التطور التجاري في أوروبا، حيث منطقتا التفاوت أصبح مؤكدا، وبالرغم من أثره البليغ على النفس، لم يكن الفقيه يجد مخرجا سوى المقارنة، بل هو ملزم بها، فالتجارة في أوروبا، أولا وقبل كل شيء تخضع لقوانين وضوابط صارمة، أولها العلم المتلقى والمدارس المتخصصة في تعليم قوانين التجارة وقواعدها الحقيقية من محاسبة وإمسك للدفاتر، واستغلال أحوال البوق في الجرائد والمجلات المتخصصة وتقص للأخبار... ثم معرفة أن التجارة ثانيا تقتضي من صاحبها النظام في معانيه كاملة. من النظافة وحسن الأناقة، وتوافر الحس الترتيبي "ييهت طرفك في نضارة المحل وزخرفته وجمال منظرة، ثم في منظر البضاعة وتنسيق وضعها: كل جنس مع جنسه ونوع مع نوعه، زد على هذا أن بضائع باريز هي من أحسن البضائع وأحدث المخترعات وإذا نظرت إلى من يبيع وجدته نظيفا ظريفا ذا كسوة جميلة ووجه بشوش، وأخلاق كريمة، وتربية حسنة، وصبر، وحذف، فيكون ساحرا لك فتشتري منه رخيصة أو غاليا"<sup>3</sup>.

وما كان المغاربة في حاجة إليه أكثر من غيره كما لا يفتر الحجوي عن تأكيده، وهو التشبع بالمبدأ البسيط الذي يقضي بأن "القليل في الكثير كثير"، وما أدرك الأوروبيون فائدته العظيمة، وما فاق فيه الإنجليز غيرهم فيه، هو "صدق المعاملة والقناعة بالريح القليل العدد الكثير". وهذه قاعدة مطردة ضرورية، فصدقهم في المعاملات الصدق التام في ذلك وغيرهم هو الذي مهد لهم الاستيلاء على معظم تجارة العالم، "فالنجليزي إذا سمى لك الثمن فخذ أو اترك ولا تفتحه في المهاودة هذا خلق الكثير أو الكل فيما سمعنا من طال مكثه بين ظهور

1- زيادة : ثلاث رحلات جزائرية ، مصدر سابق، ص . 43 .

2- التونسي : المصدر السابق، ص . 247

3- الحجوي : الرحلة الأوروبية، مصدر سابق، ص . 116.

الأمد الطويلة مع صدق لهجتهم وعدم خداعهم في التجارة لا في السياسة، فحصلت بهم ثقة تامة أعانتهم على اتساع متاجرهم في أقطار العالم<sup>1</sup> .

لفت خير الدين التونسي قراءه إلى دور الجمعيات في الرقي التجاري والصناعي بقوله: "بالجمعيات تتسع دوائر رؤوس الأموال فتأتي الأرباح على قدرها، وتتداول على المال الأيدي المحسنة لتنميته. ويتعلم الحرف، تكتسب الأموال الأربعة من غير رأس مال لذلك كثرت الجمعيات في سائر المعاملات المدنية والمتجرية وغيرها، وتكاثرت الخدمات برا وبحرا، وكثرت مجامع العلوم وجمعيات المحسنين للضعفاء والمساكين ، وتكرر التعاون على استخراج المعادن واصطناع الخلق ومجاري المياه التي تصعد بها السفن إلى الجبال ثم تنزل، وطرق الحديد إلى غير ذلك من المهمات التي لم تكن تحدث لولا وجود تلك الجمعيات"<sup>2</sup>.

من المشاريع الضخمة التي لا يمكن للأفراد تحقيقها ، يذكر خير الدين التونسي " شق خليج السويس " والطريق الجامع الجديد بين المحيطين الأطلنطي والهادي في أمريكا ، وثقب جبل الألب بين فرنسا وإيطاليا. ومن بين المؤسسات التي كان لها أثر عظيم يذكر خير الدين بصورة خاصة "كمانية الهند"<sup>3</sup> التي تملك بها إنجلترا مستعمرة تمسح بثلاثة ملايين وخمسمائة ألف متر مربع، وبنك فرنسا<sup>4</sup> الذي يفصل لنا خير الدين تاريخ نموه وسعة نشاطه.

كما تنبه رحالة المغرب الأقصى إلى العلاقة الوطيدة بين الدولة الرأسمالية، أو ما يسمونه ب"المخزن" والبورجوازية التي يسمونها "التجار"، حيث أبرزوا مشاركة التجار الفعالة في تنمية البلاد وتمويل المشاريع التي لا تستطيع الدولة وحدها القيام بها، كما عددوا الأمثلة العديدة التي تبرز متانة هذه العلاقة، ولعلمهم كانوا يريدون بذلك تقريب صورتها لقرائهم من رجالات المغرب لعلمهم يقتنعوا بانتحاليها واقتباسها والإستفادة منها . وفي هذا الصدد يقول الصفار : "ومنها جمعية تسمى الكنيية، وهي أن جماعة من التجار أو غيرهم ، يجتمعون ويخرج كل واحد ما استطاع من المال ، ويشتركون في استخراج المعادن وتصويب الطرق وبناء القناطر وعمل

---

1- نفسه .

2- التونسي: المصدر السابق، صص . 248-249.

3 - شركة الهند الشرقية.

4- نفسه.

القوارب والفلائك في الأبحار والأودية"<sup>1</sup>. أما العمراوي فقد فصل القول في مساهمة التجار في تطوير البنية التحتية بأوربا بقوله: "ومثال بعض أمورهم مع المخزن في ذلك، أنهم إذا أرادوا إصلاح طريق وعرة في جبل أو شبه ذلك، فإنه يتصدى لها تاجر أو تاجران، ويطلب من المخزن الإذن فيه بأن يقول له إني أردت إصلاح الطريق التي بين البلد الفلاني والبلد الفلاني، فأحرق ما فيها من جبال وأبني ما تحتاجه من جسور، وأرصف ما يحتاج إلى التزصيف على أن أقبض من الدابة كذا، ومن البغال كذا، ومن الكروسة كذا، وأستغل ذلك عشرين سنة مثلا، ويرجع ذلك إلى المخزن فإن شاء استخدمها بعد ذلك لنفسه وانتفع بمستفادها، وإن شاء تركها للناس مجانا، فيأذن له ويكتب له"<sup>2</sup>.

كما أبدى الرحالة المغاربة استغرابا وإعجابا أمام ميدان من ميادين التجارة يجهلونه تماما، هو المعاملات البنكية، إنهم أمام مؤسسات جديدة لا أشباه لها ولا نظائر في مرجعهم المجتمعي. فالصغار المغربي مثلا، إذ يقف أمامها بانبهار، يصف نظام البنوك وشركات التأمين بطريقة المؤرخ الحريص على تدوين تفاصيل الواقعة، قائلا: "ولهم من التجارات أمور خارجة عن البيع والشراء، منها ما يسمى بالبنكة، وهي أن يودع الرجل قدرا من رأس مال له وهو متصد لذلك، ويدفع له المودع عنده ربحه في كل سنة قدرا معلوما عندهم، فإذا أراد رب المال أخذ رأس ماله وهي على ضربين: بنكة الدولة وبنكة التجار، وفائدة بنكة التجار أكثر من فائدة بنكة السلطان، لكن بنكة السلطان أوثق وآمن لأن الدولة موجودة دائما لا تفلس بخلاف التجار، فقد يفلسون. ومنها جمعية تسمى بما معناه الشركاء في الضمانة، وهي المعروفة بالسكورو<sup>3</sup>، وذلك بأن تلتزم لمن لها قدرا معيناً في المال كل سنة أنه إذا تلف له بيته أو حانوته... فإنها تغرم له كل ما ضاع..."<sup>4</sup>

لفت خير الدين التونسي إلى تطور الأبنك في فرنسا، ضاربا المثل ببنك فرنسا فإنه "كان في سنة ثمانمائة وألف رأس ماله ثلاثون مليون فرنك متجمعة من ثلاثين ألف سهم. وفي سنة ثمان وأربعين وثمانمائة وألف بلغ

---

1- الصغار: المصدر السابق، ص. 166.

2- العمراوي: المصدر السابق، ص. 77.

3- المقصود بما شركات التأمين.

4- الصغار: المصدر السابق، ص. 165.

ما به من النقود واحدا وتسعين مليون فرنك ، وبلغت كواغده المالية الرائجة بين الناس في المعاملة رواج المسكوك مقدار اثنين وخمسين وأربعمائة مليون فرنك .."<sup>1</sup>

ويشير محمد بيرم الخامس إلى دور الأبنك والمؤسسات في تطوير التجارة وتشجيع الإستثمار بقوله : " .. ثم إذا لم توف أموال الافراد أو الشركات للمقصود من التجارة تراهم يقترضون من ديار الصيرافة، وهم ذوو الاموال ، اما ان تكون لواحد أو لعائلة أو للعموم بان يكون كل من له شيء من المال ولا يريد التعب في ترويجه والربح منه، أو العجز أو غيره، فإنه يدفع ماله لاحدى ديار الصرافين المسماة عندهم بالبنوك ويأخذ منها حجة في مقدار ما دفع وتاريخه ، ويأخذ على ذلك ربا في كل سنة، وهو لا يتجاوز ستة على المائة في السنة، ومهما أراد رأس ماله فإنه يحاسب على مقدار ما بقي عند الصراف ويأخذ ربحه ورأس ماله حالا، وكذلك إذا أراد أخذ البعض من رأس المال فله ذلك وكذلك إذا أراد إرجاع ما أخذ أو أكثر أو أقل فله أن يدفع متى أراد ويأخذه متى أراد ويحاسب متى أراد فسهل بذلك ارادة أموال العاجزين مع أرباحهم"<sup>2</sup>. هذا التنظيم المحكم للمجال المالي والاقتصادي هو الذي يفسر الوفرة في الإنتاج وفي الثروة المالية، ومما يوضح ذلك قول الصفار: "ولا يستغرب وجود هذا المال عندهم، فإن ما لهم كثير بحرصهم على التكسب وجمع المال، ولا اهتمام لهم إلا به، وكل وجه من وجوه مداخلهم كثير الفائدة من تجارة وصناعة وغير ذلك، لأنهم يضبطون أمورهم في ذلك غاية الضبط"<sup>3</sup>.

### المطلب الخامس : وسائل النقل والاتصال ومساهماتها في التطور التجاري.

لقد عبر الرحالة المغاربة أيضا عن انبهارهم بما وجدوه في أوروبا من تنظيمات اقتصادية. فوصفوا وسائل النقل والمواصلات وما بلغته من تطور يعين على ترويج الصنائع ويسهل استيرادها، كما يسهل على الناس السفر والتنقل بما ينشط الحركة الاقتصادية، فتحدثوا عن الطرق الصناعية والسكك الحديدية والبريد والتليفون بحيث صارت " أوروبا كلها كأنها بلد واحد في سهولة الانتقال والسرعة من مملكة إلى أخرى ومن بلد إلى آخر."<sup>4</sup>

1- التونسي : المصدر السابق، ص . 289 .

2- بيرم : المصدر السابق، ص . 58.

3- الصفار : المصدر السابق، ص . 226 .

4- بيرم: المصدر السابق، ص. 56.



أعجب خير الدين بنظام المواصلات ودوره في الرقي الاقتصادي ، وعبر عن ذلك بقوله : "من أهم ما اجتباه الأوروبيون من دوحة الحرية تسهيل المواصلات بالطرق الحديدية ... فبالطرق تستجلب نتائج البلدان القاصية قبل فوات إبان الانتفاع بها، بعد أن كان جلبها متعذرا لطوء الفساد عليها في الطريق، أو لزيادة كرائها على أضعاف قيمتها"<sup>1</sup>.

لقد قربت وسائل النقل بتعبير خير الدين التوتسي في هذه الأزمان ، تواصل الأبدان والأذهان، وكأننا بخير به يشير إلى ظاهرة العولمة التي شهدتها العالم في أواخر القرن العشرين، والتي لم تكن معروفة في عصره، فباتت " الدنيا بصورة بلدة متحدة تسكنها أمم متعددة، حاجة بعضهم لبعض متأكدة، وكل منهم وإن كان في مساعيه الخصوصية غريم نفسه، فهو بالنظر إلى ما ينجز بها من الفوائد العمومية مطلوب لسائر بني جنسه"<sup>2</sup>. كما أن أول ما أثار استغراب الصفار المغربي واندهاشه ، الكيفية التي بمقتضاها يجري السفر في أوروبا، إنها على درجة من اليسر لم يعهدوها، يقول الصفار : "اعلم أن قانون السفر في هذه البلاد أن المسافر لا يحمل معه زاداً ولا فراشا ولا خزانة ولا غير ذلك، وإنما يحتفظ بدراهمه ورياله وذهبه، وذلك أن هذا الطريق كلها أو جلها عمران، فلا يفارق المار عمارة حتى يدخل في أخرى ، وكلما وصل عمارة، وجد فيها من كل شيء يحتاجه المسافر وفيها دار أو ديار تسمى عندهم الأوكنضة"<sup>3</sup>.

لكنه إذ يسجل هذه الملاحظة يسجلها بعين مقارنة دون أن يفصح صريح النص عن هذه المقارنة، هذا ما نلاحظه مثلا في قوله: "ومن قانون السفر في هذه البلاد، أن المسافرين لا يركبون ظهور الدواب... ولا يسافرون على أرجلهم... وإنما السفر هنا في الأكداش والكراريس والحيل تجربها..<sup>4</sup>. يشير هذا النص بالتلميح إلى شروط السفر في المغرب، التي تجعله فعلا شاقا، وتحد من إمكانيات التواصل بين أقاليم البلاد، بل تجعل بعضها مغلقا على نفسه، هاهنا تبدو فرنسا فضاء مفتوحا للتنقل بسبب هذا اليسر الذي يؤمنه نظام السفر وبنيتها التحتية فيها<sup>5</sup>.

1- التونسي : المصدر السابق، ص . 246.

2- نفس المصدر، ص . 247 .

3 - الصفار : المصدر السابق، ص . 60 .

4 - نفس المصدر، ص . 61 .

5- يشير العروي إلى ظروف السفر القاصية بالمغرب، حيث كان المسافر وما يحمله معه من أمتعة، يثير التهديد بسبب انتشار الحراية . انظر كتاب الأصول، ص، 36

## أ : القطار .

لقد شكل القطار أو ما كان يسميه رحالونا بـ "بابور النار" أو "وابور البر"، معبرا لحداثة ذات وجه متوهج، قوي، متسارع، منتظم بإحكام ، جليل القدر والقدرات. فما كان منهم إلا أن انبهروا أمام هذا الاختراع الذي ظهر لهم وكأن ليس وراءه وراء، فطفقوا يصفونه بدقة متناهية، معددين فضائله ومزاياه في تحديث المجتمعات الغربية، وخاصة في مجال التجارة وريح الوقت وجلب الراحة.

يتحدث بيرم الخامس، واصفا أهمية السكك الحديدية في إيطاليا وأوروبا عموما : " أن سائر أطراف المملكة متصل بعضها ببعض بالطرق الحديدية، وكذلك تتصل بسائر الممالك المجاورة لها بالطرق الحديدية، وتلك الممالك متصلة بغيرها بذلك أيضا، فكانت أوروبا كأنها بلد واحد في سهولة الانتقال والسرعة من مملكة إلى أخرى ومن بلد إلى آخر".<sup>1</sup>

كما وصف الصفار باستفاضة نظام السكة الحديد "بابور البر" إلى درجة العرض التفصيلي لمكوناته، بحيث أدى وظيفته في نقل صورة أمينة إلى "أبناء جنسه" عما بلغه العقل الأوربي في مدارج المخترعات.

لا ينسى الصفار أن يصف النظام الدقيق لسفر القطارات وتواليها دون اصطدام، ولا القدرة على التصرف المطلق في الفضاء المكاني لتأمين طريق مستوية للقطار، حتى لو اقتضى أمر ذلك شقها في بطن الجبل. كما أشار إلى الاستثمار العمومي والاستثمار الخاص في قطاع السكة الحديد.

خصص العمراوي أربع صفحات من رحلته لبابور النار، فدقق في أوصاف القاطرة وبين الإجراءات التي اتخذتها المؤسسات لتجنب الحوادث، كما حاول تفسير الحركات الفيزيائية التي يسير بها القطار، وحاول من جهة أن ينقل إلى القارئ التجارب التي مرت منها عملية استعماله وسيلة من وسائل النقل "وقد أخبرنا أنه كم من مرة في أول اختراعهم له، كانت تقع لهم فيه الآفات من انقلابه... فبتكسر الجميع ويموت من فيه من الأدميين، لكنهم اليوم اعتنوا بأمره"<sup>2</sup>. واستمر العمراوي في ذكر ما وصلت إليه فرنسا من تجهيزات، فذكر أن القطار الذي ركبته قد مر من خمسة عشر جبلا، وعلى أزيد من مائتي قنطرة، وقارن العمراوي حمولة قطار واحد بحمولة ألف جمل. ولاحظ أن سرعته أكثر من سرعة بابور البحر.<sup>3</sup>

1- بيرم : المصدر سابق، ص . 56.

2- العمراوي : المصدر السابق، ص . 35 .

3- نفس المصدر، ص . 36 .

بلغت الدهشة بالعمراوي مبلغها ، كما هو واضح من شهادته الحائرة: "طريق الحديد المبتدعة عندهم وهي من عجائب الدنيا التي أظهرها الله في هذا الوقت على أيديهم تحير فيها الأذهان".<sup>1</sup> ويجزم الناظر " أن ذلك من فعل الجان وأنه ليس في طوق إنسان ". ويضيف معبرا عن صدمته برؤية هذا المخترع العجيب قائلا: "وبالجملة فما سمعت أذني ولا رأيت عيني ولا طالعت في كتب التواريخ بأعجب ولا أغرب من هذا البابور وكل ما حكيت عنه فهو دون ما رأيت"<sup>2</sup>.

حاول محمد الطاهر بن عبد الرحمان الفاسي في رحلته "الإبريزية إلى الديار الانجليزية"، النفاذ إلى أصل اختراع القطار، فجعل إحداثة مقرونا بشيطنة طفل صغير يلعب بناعورة من ورق، موصولة بجعبة في فم بقرج يغلي على النار، فجعلت تدور بقوة البخار، فتم تقليد فعله من قبل رجل أدرك بعقله "الظلماني" سر قوة البخار. و"العقل الظلماني" مقترن بالأشياء الظلمانية الدنيوية التي تقرب من العاجلة وتبعد عن الآجلة ، خلافا "للعقل النوراني" المتصل بالمعنويات والروحانيات وما يفضي إلى الإيمان بالله ورسله وملائكته واليوم الآخر، وفي ذلك يقول الطاهر الفاسي مجسدا صدمة النخبة المغربية بالحدائث الغربية ومخترعاتها العجيبة، والتي لم يستطع المغاربة كثير من أفراد النخبة العاملة بالمغرب الأقصى استيعابها: "وسبب إحداثهم له، أن صبيبا كانت بيده ناعورة صغيرة من كاغيد، فجعلها متصلة بجعب في فم بقرج على نار، وبعد اشتداد غليان الماء فيهن فجعلت تدور بقوة ذلك البخار، فرآه رجل فتعجب واستنبت هذا البابور المعروف بعقله الظلماني"<sup>3</sup>.

ركب سليمان بن الصيام الجزائري القطار اثر وصوله إلى ميناء سبت في جنوب فرنسا قاصدا مدينة مونبيليه، ويشرح لقرائه هذه التجربة الجديدة فيعلن: "وذلك اختراع عظيم بيانه أنهم جعلوا هذه الشرايط<sup>4</sup> في الأرض يمينا وشمالا مربعة مرتفعة مقوسة في أسفلها الذي تحت الأرض ، وفي الربع الأعلى ساقية تجري فيها رودة الكروسة<sup>5</sup> ولا تخرج عنها ... وذلك أغرب ما يكون مع استواء الطريق ووزنها بموازين الهندسة بحيث لا

1- نفس المصدر، ص . 13 .

2- نفس المصدر، ص . 17 .

3- الفاسي، الطاهر : المصدر السابق، ص . 28 .

4- أي سكة الحديد.

5- أي عجالات الكروسة.

يعلو موضوع على الآخر بشيء ما. ومهما تعرض لهم جبل شاهق في الطريق يمنعهم المرور دخلوا تحت ] هكذا [ بالتقرب فيكون حيطان تلك الثقبه منحوت وسقفه كذلك" <sup>1</sup>.

كما نظم محمد السنوسي قصيدة شعرية عنونها ب "قصيدة المخترعات"، ومما ذكره في قصيدته قطار سكة الحديد، ومما قال فيه :

أرأيت كيف تقارب البلدان  
بالمزجيات جرت على القضبان  
يمتد من سك الحديد ممرها  
بالأرض وهي جوالب العمران  
وفروعها بين البراري خططت  
خطا أقيم بآلة الإتقان  
أشكاله صينت بوضع مهندس  
في ملتقاها حار دو العرفان

وستشهد الكتابات الرحلية ظهور وسائل نقل أخرى لا تقل إدهاشا من القطار، فالإنجليز مثلا "لم يكتفوا بالقطارات التي تسير بالنار والبخار، بل زادوا قطارات تسيرها الكهرباء"<sup>2</sup>، كما تحدث محمد بن عبد السلام السائح في رحلته الباريزية عن الميترو، والذي احتل حيزا مهما في رحلته، بحيث نقف على الاهتمام الذي أولاه الفقيه المغربي ، لهذا الإنجاز التكنولوجي والعلمي الذي يعكس قوة العقل الفرنسي وما استطاع أن يحققه من حضارة وتقدم . فالمترو كما يعرفه السائح سنة 1922 "يمتد تحت أرض باريز، ويخترقها اختراقا في أنفاق واسعة، ينزل إليه بالدرج أو بالآلة الرافعة، وله محطات كثيرة جد بارزة على سطح الأرض. ويبعد ما بين المحطة والأخرى بنحو خمسمائة متر، ولتسهيل الحركة في أنفاق الميترو فإنها تستضاء بالأنوار الكهربائية وجدرانها منحوتة بالإعلانات المختلفة، بالإضافة إلى آلات لبيع ما قد يحتاجه الراكب من مشروبات وأكلات"<sup>3</sup>.

كما تحدث الرحالة المغاربة عن الأوتوموبيل والتراموي الكهربائي، بل وعن آلة التدفئة والتهوية في القطار الحديدي.

## ب\_ وسائل الاتصال التكنولوجية :

لعل وسائل الاتصال الحديثة، كانت وجها آخر من أوجه حداثة السرعة والنجاعة، لذلك ليس من قبيل الصدفة، أن تلتفت إليها عيون الرحالين التواقفة إلى نهضة فاعلة وفعالة. ويعتبر الصغار من أوائل الرحالة المغاربة وخيرتهم الذين حاولوا استكناه أسرار "التلغراف" عن طريق التجريب والاختبار بقوله : "ومن أعجب ما رأيناه في

1- زيادة : ثلاث رحلات جزائرية ، مصدر سابق، ص. 19

2- الحجوي : الرحلة الأوروبية ، مصدر سابق، ص , 161.

3- السائح : المصدر السابق، ص . 68.

هذا الخل وأغربه حركة يصل بها الخبر من محل إلى محل في لحظة، وإن كان بعيدا مع استيفائه واستيعابها.... وزعما أنهم أوصلوا هذه الحركة من باريز إلى أورليا، وبينهما تسعون ميلا، وإنما عندهم أيضا موصلة من القمر، التي يجتمعون فيها لتدبير قوانينهم إلى دار السلطان، بعمل مغيب تحت الأرض. ووكل بها من يحفظها من الجهتين، فيكلمون السلطان من القمر وهو في داره، ويرد عليهم الجواب، وبينهما مسافة طويلة<sup>1</sup>.  
أما العمراوي، فرأى أن "سلك الإشارة" أو "التلغراف" أعظم من بدعة "بابور البر" وأعجب منه، وعرفه بقوله: "الذي يكتبون فيه فيصل خبره في لحظة للأماكن البعيدة"<sup>2</sup>.

لم يخف الطاهر الفاسي تعجبه الكبير من "مكتب البرق" أو "محل السلك" الذي شاهده بإنجلترا: "والحاصل أن هناك محلا عظيما متسعا مشتملا على آلة في باطنها أسباب ومسببات غائبة عن الحس، وهي مما يدق وصفه ويصعب ذكره". وقد عبر عن صدمته شعرا بقوله:

الله أخر مدني فتأخرت حتى رأيت في ذا البلاد العجائب<sup>3</sup>

اعتبر الحجوي "التلفون" أحد عناوين الحضارة والرفاهية، "فكل بيت للنوم فيه التلفون تتكلم مع الإدارات الصغرى في الطبقات العليا، وخيط آخر تتكلم فيه مع الإدارة العامة في باب الأوتيل، وتكلم به من تشاء داخل باريز وخارجها وأنت على فراش نومك. فهذا ما بلغت إليه الرفاهية في باريز. فإذا علمت هذا وتأملتته، قس عليه دور الأغنياء والموظفين الكبار وإدارات السياسة وغيرها فتعلم مبلغ الحضارة في أوربا"<sup>4</sup> وبحسه التجاري الثاقب، أدرك قيمة التليفون ودوره في التواصل وتقريب الشقة على التجار والصناع والسياسيين: "وكل بيت فيه دفتر أسماء المشتركين في التليفون بباريز، فمهما دخلت بيتك عملت جميع دور التجارة والسياسة والصناعة وغيرها في باريز. ومهما عرفت اللغة الفرنسية إلا وتوصلت إلى قضاء جل أغراضك بأيسر وسيلة، تجارة أو غيرها، وأنت على فراشك، وهذا الدفتر مجلد ضخم، كنصف القاموس"<sup>5</sup>.

1- الصفار: المصدر السابق، صص. 204-205.

2- العمراوي: المصدر السابق، ص. 17.

3- الفاسي، الطاهر: المصدر السابق، ص. 33.

4- الحجوي: المصدر السابق، ص. 122.

5- المصدر نفسه، ص. 122.

يشير بيرم الخامس إلى الأسلاك الكهربائية ، أو التلغراف كإحدى "وسائط رواج التجارة"، وكذلك السفن البخارية التي حلت مكان السفن الشراعية، ويتابع واصفا الترابط بين أجزاء هياكل المجتمعات الأوروبية ككل.<sup>1</sup> لم يغفل سليمان بن الصيام وصف التلغراف في رحلته بقوله : "وفي مدة سفرنا رأيت بجانب الطريق نحو من ستة خيوط من سلك الحديد أرق من الخنصر ممدودة فوق الأرض في ارتفاع نحو ذراعين، وهي في بعض الجهات محمولة فوق أعمدة من خشب، سألت عنها فأخبرت أنها تلك الخيوط، طرفها بباريس والطرف الآخر بمدينة ليون ، يبعثون بواسطتها الخبر من باريس إلى ليون. ومن ليون إلى باريس في مدة طرفة عين. بل يحدث الشخص في باريس جلسه بليون مع بعد المسافة بينهما، والمحقة أنها مائة وتسع عشر فرسخا فرانسوايا.."<sup>2</sup>

### ج\_ الجسور والقناطر والطرق :

سجل الرحالة الأجانب توفر بلدان المغرب على عدد ضئيل من القناطر، حيث أشار دوفوكو في تقريره حول المغرب الأقصى إلى ذلك بقوله : "لذا أظن أني رأيت طيلة سفري كله أكثر من خمس أو ست قناطر، وتعب الأتجار على الأرجل"<sup>3</sup>. ففي الغرب أو الشاطئ الأطلسي عموما لا حظ الرحالة أن الآتي من مدينة طنجة مثلا يتوقف أمام العرائش بفعل وجود نهر اللكوس أمامه، وكذلك الشأن بالنسبة للمتوجهين من مدينتي الرباط وأزمور في اتجاه مراكش إذ يجدون صعوبة جمة في اختراق انهار هذه المناطق<sup>4</sup> .

لذا كان بديها أن يشكل العمران عموما، وهندسة القناطر وفوائدها، على وجه الخصوص، مادة إعجاب الرحالين المغاربة، ومن ثم لم يكونوا ليمروا عليها دون أن تسحرهم بقوتها وغرابة صنعها. فالصفار كعادته في الولع بأسباب التقدم والتطور، فصل القول في ما شاهده من أصناف القناطر بالديار الفرنسية التي شكلت مصدر إعجاب. وسنقتصر على النص التالي لكشف النقاب عن حس المقارنة المضمرة بين ما هو متوفر في أوربا ومفقود في المغرب ، يقول الصفار : "وتلك القناطر على أشكال: فمنها ما هو مبني على أقواس الحجارة، كغالب القناطر. ومنها ما هو أقواس الحديد، وبين الأقواس وسطح القنطرة دوائر عظيمة ن الحديد كبارا وصغارا، ينزل عليها سطح القنطرة: ومنها نوع آخر، وهو أعجبها، معلقة من فوق، وليست

1- نفس المصدر، ص. 123.

2- زيادة : ثلاث رحلات جزائرية ، مصدر سابق، ، صص 31-32.

3- شارل دوفوكو: التعرف على المغرب (1883-1884) ترجمة : المختار بلعري، دار الثقافة، الدار البيضاء ، 1999.

4- نفسه .

منزلة على الأقواس كغيرها : وذلك أنهم عمدوا إلى طرفي النهر، وبنوا فيهما بناء وثيقا، على شكل سارية، مفتوح وسطها بقوس ليتمكن المرور فيها. وربما زادوا بناء ثالثا في وسط النهر، إن كان عريضا جدا، وجعلوا أرض القنطرة، الذي يمر عليه من الخشب الوثيق، تحمل على سبائك من الحديد. وتلك السبائك ممسكة بقضبان من حديد قائمة على جوانب القنطرة، يدخل طرفها الأسفل في تلك الخشب حتى يصل بالسبائك التي تحمل عليها الخشب وتسمر فيها. وهذه القضبان القائمة، تمسكها من أعلاها قضبان آخر عظيمة ممتدة على حاشيتي القنطرة، تسلك في البناء المذكور. ومنه ابتداءؤها، وفيه انتهاءها. فهي التي تمسك القنطرة. فإذا كنت ماشيا على ظهرها تحس بما تهتز، لأنها ليست منزلة على الأساس من تحت بل هي معلقة من فوق بما ذكر، ومنها شكل آخر من الخشب كلها، وعلى حاشيتها- من فوق - ضربوز من الحديد، يمنع المار من الوقوع في النهر. وهو فيها وفي غيرها، إلا أنه في غيرها الغالب أن يكون بناء"<sup>1</sup>.

انهر التونسيون بالبنى الأساسية مثل الجسور الضخمة والطرقات التي بلغت في فرنسا وحدها أزيد من ثلاثة آلاف طريق . وفي هذا الصدد يقول بيرم الخامس في وصفها " إن باريس تزيد رونقا بما احتوت عليه من كثرة الطرقات المتسعة جدا، وبكثرة التنظيف والتنوير في الليل كما أنها تختص بأن بعض طرقها مستعوض عن تبيطه أو تحصيه بطليه بنوع صمغي يسمى اسفالت بحيث يكون بعد الجفاف رخوا، فإذا مرت عليه العجلات لا تسمع لها إلا همسا، وتسمع قرع حوافر الخيل على الأرض كالتصفيق المعطوط مع مزيد الهدوء للركاب حتى كأن العجلة لا تتحرك فتلك الطرق مروحة جدا "<sup>2</sup>. وتنقسم الطرق إلى ثلاثة أنواع :

"الأول يسمى أفنو Avenue والثاني يسمى، بلغار، Boulevard، وهو ما كان أضيق من الأول ويزيد عليه بأن يكون تحت القصور حوانيت بهيجة ، والثالث يسمى Rue ، وهو بقية الطرقات."<sup>3</sup>

أما سليمان بن الصيام الجزائري فأشار إلى أن قناطر نهر باريس بلغت ستة عشر قنطرة، "فمنها قنطرة بستان النبات لها أربع مائة قدم من الطول، وعرضها سبعة وثلاثون مليون قدما، يقال قد بنيت في خمس سنين وصرف فيها ثلاثون مليون فرنك، وتسمى أيضا هذه القنطرة قنطرة استرالتز، باسم محل غلب فيه

1- الصفار : المصدر السابق، ص . 141 .

2- بيرم : المصدر السابق، ص، ج 3 ، ص . 83 .

3- نفس المصدر ، ص . 84 .

نابليون ملك منامسة وملك المسكو، فيقال لهذه الواقعة واقعة استرلتز واقعة تنويج نابليون، فسميت القنطرة بهذا الموضوع، الذي وقع فيه الظفر لنابليون بملكين من الملوك المعترية تذكرة وابقاء لذكوره الجميل".<sup>1</sup>

كما عبر الحجوي عن هوسه بالقناطر وذكرها ووصفها والإشادة بها، وهو التاجر العارف بجدواها وأهميتها الاقتصادية الكبرى، خاصة وأنه يقارن كل مرة بين هذه القناطر وين نظيراتها في المغرب والجزائر على قلتها. وهكذا سحر الحجوي بالقنطرتين المبنيتين على وادي الغارون: "وتفرجنا على القنطرتين العظيمتين فوقه، وهما متوازيتان، إحداهما حديدية على أقواس بناء عالية عددها ستة عشر قوسا غاية في الضخامة، تسلك تحتها المراكب الصغرى وفوقها الأتومبيلات والمشاة وغيرهم، تسع أربع عجالات على الأقل في وسطها، دون ممشى المشاة يمينا ويسارا، وهذه القنطرة من عجائب الدنيا وغرائب أعمال البشر".<sup>2</sup>

فخلاصة القول، إن الرحالة المغاربة كانوا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، مدركين لأهم خصائص الاقتصاد الأوربي، واعين بالهوة والتفاوت في القدرات الاقتصادية بين بلدانها وأوربا، معجبين بهذا النشاط، فغلبت في تصورهم وأذهانهم ما كان ينبغي أن تقترن به من الاحتياط لأخطار توسعه وأضرارها، بالنسبة إلى الدول الضعيفة كغالب الدول الإسلامية في ذلك العهد .

---

1- زيادة : ثلاث رحلات جزائرية ، مصدر سابق، ص 37 .

2- الحجوي : الرحلة الأوروبية، مصدر سابق ، صص. 111-112.



## خلاصات جزئية :

يتضح من الرحلات السالفة الذكر، أن المثقفين العرب تعرفوا من خلال سفاراتهم ورحلاتهم ومقامهم بالديار الأوروبية عن مظاهر رقيها الحضاري، وواكبوا تطور هذه الحضارة الغربية فسجلوا خصوصياتها، وذكروا ركائزها وأركانها ومقوماتها في كل المجالات، فقارنوا بينها وبين نظيرتها العربية والإسلامية ، منتقدين بعض مظاهرها المتعارضة مع أفكارهم وأخلاقهم، منوهين ومؤيدين للجوانب التي لا تتعارض وتتناهي مع معتقداتهم .

ان النخبة العربية، علماء وحكاما، قد تعرفت على نفسها، أو بتعبير آخر، قد تنبعت الى حقيقة موضوع التسابق في العالم، بفضل احتكاكاتهما مع أوروبا، والتي كانت تختلف حدتها، من حيث الانسجام أو عدمه، بحسب ظروف كل مرحلة، والتي كانت لا تخلو، بالرغم من ذلك من نعم كثيرة، أدرك العرب من خلالها أن المسافة بينهم وبين "الآخر"، في احتواء ما حوته كنوز الأرض والسماء وعقول البشر ، من الخبرات والنظريات العلمية، قد أخذت تتسع وتعمق لدرجة، أصبح إزاءها كتاب الرحلة، ولا سيما المغاربة منهم، لا يردون على هذا التقدم المتصاعد والمخترق لكل أنواع السكون، إلا بالتسلية عن النفس، بواسطة إنجاز خطاب في الدهشة والإعجاب والاكتراث والدعاء على مبتكري التلغراف والتلفون والقطار والباخرة ونظام تنفيذ القانون وحرية الصحافة، بأن تتحطم حضارتهم .

## الباب الثالث:

---

# الرحلة العربية إلى أوروبا والمشاريع الإصلاحية.

### مقدمة الباب:

طرحت قضية الإصلاح والتحديث في الفكر العربي الحديث، وشغلنا فكر النخبة العربية بعد إدراكها للفارق الحضاري بين العالمين العربي الإسلامي والعالم الأوروبي في القرن التاسع عشر، أو ما اصطلاحنا على تسميته في هذا

البحث بالوعي بالتجاوز. في هذه اللحظة التاريخية الحاسمة في تاريخ العرب الحديث، اكتشف الفكر العربي، " الآخر" المتقدم، واكتشف معه " ذاته"، فوجدها تعاني التأخر والركود وجمود العقل. لقد تكشف للفكر العربي الحديث عبر قناة الرحلة أن عالما جديدا تمت صياغته في غيابه، وتحددت ملامحه الكبرى وفق مرجعية حضارية لم يكن له فيها رأي، ولا المكانة اللائق به، فظهر ذلك السؤال الإشكالية " لماذا تأخر العرب وتقدم غيرهم"؟ إنه السؤال الذي وضع تاريخ العرب الحديث كله موضع تساؤل، فتنوعت عنه أسئلة لا تقل صعوبة وتعقيدا، أسئلة متنوعة ومتقابلة ك « الشرق والغرب» «الأصالة والمعاصرة» «التراث والعصر» « الوافد و الموروث» «الخصوصية والكونية» « المقدس والمقتبس»، و غيرها من الأسئلة المتقابلة، التي كان مسعاها البحث عن مكانة للذات الإسلامية في هذا العالم الجديد، وهو سؤال دفع الكثيرين إلى التفكير في الإصلاح بكل أبعاده ومجالاته. كما دفع ذلك السؤال إلى تناول أسباب نكوص الحضارة العربية.

ولما وضع الفكر العربي الحديث تاريخه موضع تساؤل، كان هذا يعني أن وعيا بأزمة الذات يتشكل ويحمل في ثناياه إقرارا بواقع التجاوز الحضاري الأوروبي، محاولا البحث عن سبل الارتقاء بالأمة من حالة الشلل الحضاري إلى مستوى تاريخ التقدم الإنساني واللاحق ب"الآخر".

لقد خلق التجاوز الحضاري الأوروبي للمجتمعات الإسلامية عند النخبة العاملة، ممن وعوا حقيقته وهضموه واستوعبوه جيدا من خلال رحلاتهم، حالة "هوس" في القيام بالإصلاح وإحداث النهضة والرقى والتطور للحاق بالأمم المتجاوزة، وتحقيق التوازن في المجالات الحضارية الرئيسية. إنها حالة نفسية سرت عند كثير من رواد الإصلاح في المشرق والمغرب ابتداء من منتصف القرن التاسع عشر، ترفض بقاء الأوضاع على ما هي عليه، وتفكر باستمرار لخلق أوضاع، وبيئات محفزة للإبداع والمجد، والرقى والانطلاق نحو السمو والفعل الحضاري، والتأثير في البشرية كلها. ومن تم جاز لنا القول بأن الوعي بحقيقة التجاوز ينهض بالتغيير، لأنه يحيط ب"الذات والمخالف"، وبماضيه وحاضره، ومن تم يحسن فعل المستقبل ويرسم أهدافا واضحة فيه.

يبدو أن سؤال الإصلاح يجابه أية أمه تجد نفسها مهددة في مصيرها، وأوروبا لم تطرح على نفسها سؤال الإصلاح إلا عندما وجدت نفسها وجها لوجه مع انحطاط القرون الوسطى الذي كرسه التحالف الكنسي الإقطاعي الظلامي، بل إن مصطلح الظلامية نشأ أساسا كتعبير عن قوى كانت تقف عائقا في وجه التقدم التاريخي مما استلزم ضرورة تبيد هذا الظلام وتأسيس طريق الأنوار والحداثة.

أما في العالم العربي، فقد طرح فيه سؤال الإصلاح بعد الثورة الصناعية في أوروبا، وبعد الحركات الاستعمارية التي اجتاحت أجزاء عريضة من العالم العربي الإسلامي، مما جعله يحس بضرورة إصلاح ما أفسده التخلف

والتعاس عن مواكبة ركب الحياة ، ويستشعر ما آل إليه أمر أمة أريد لها الريادة والقيادة في الأرض، أمة تناست دورها ومسؤوليتها في بناء الحضارة الإنسانية، وقنعت بالخنوع والاستسلام .

من داخل الشعور بأحوال العرب و المسلمين، وما هم عليه من تحاذل وضعف وهوان ، انبثقت مظاهر الوعي لدى دعاة الإصلاح ، فكانت الدعوة إلى التجديد وإلى الدخول إلى معترك الحضارة الحديثة، والعمل على بعث الروح الإسلامية في مواجهة الحضارة الأوروبية الغازية بجيوشها وأفكارها وبضائعها.

لقد أدركت النخب السياسية والفكرية من خلال قناة الرحلة، كما رصدنا ذلك في الباب السابق، أن المجتمعات الأوروبية تتميز بسمات محددة صانعة لقوتها وتقدمها، وأن كل تفكير في تجاوز أوضاع التأخر الحاصلة في المجتمعات العربية، يقتضي الاستعانة بالأسس والمقدمات التي صنعت وما فتئت تصنع مظاهر النهضة والقوة في أوروبا وفي العالم .

## الفصل الأول:

# امتدادات وعي المشاركة بالتجاوز الحضاري

✓ المبحث الأول: امتدادات وعي المشاركة بالتجاوز

العلمي والثقافي.

✓ المبحث الثاني: امتدادات وعي المشاركة بالتجاوز الاقتصادي.

✓ المبحث الثالث: امتدادات الوعي المشرقي بالتجاوز السياسي.

## المبحث الأول : امتدادات وعي المشاركة بالتجاوز العلمي والثقافي.

ينبغي التأكيد بداية، على أن أهم الأسس الفكرية للإصلاحيين هي قضية العلم، التي اعتبرت أحد العناصر الأساسية للنهوض الأوربي، ففي مقالة "شرح الشارح" لجمال الدين الأفغاني، الذي رحل إلى أوروبا في أكثر من مناسبة، نقرأ ما يلي: "إن جهل الشرقيين أدى إلى انحطاطهم بقدر ما أن العلم ساعد الغربيين على السيطرة عليهم، وما كان بمقدرة الغرب أن يقوم بالفتوحات التي قام بها بدون معارفه ، إن ملك العالم ليس ما نراه من ملوك ، إنما هو العلم".<sup>1</sup> على هذا فإنه لا يخلو حديث لأحد رجالات الإصلاح من إثارة هذه المقولة التي اعتمدت مدخلا لمعالجة تأخر المسلمين بعد وعيهم التام بالتجاوز الحضاري الأوروبي، فلقد أجمع العقلاء من العلماء قديما وحديثا على أن نهضة الأمم تتوقف كل التوقف على إشاعة العلم الصحيح بين أبنائها.

أدرك رواد الرحلة الحديثة إلى أوروبا في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، أهمية التعليم في عملية الإصلاح والنهوض الحضاري تأسيا بالمجتمعات الأوروبية، فاهتم رفاة الطهطاوي بعد عودته من فرنسا بشكل خاص ، بتطوير التعليم وتحديث المناهج، حيث رسم معالم مناهج تعليمية محدثة في كتابيه الشهيرين، «مناهج الألباب المصرية في مباحج الآداب العصرية» و«المرشد الأمين في تربية البنات والبنين»، وأكمل ذلك عبر المجلة التربوية المسماة : «روضة المدارس»، ومن الواضح من عناوين كتب الطهطاوي التي ذكرناها، وكتبه الأخرى، ومن مضامين هذه الكتب وموضوعاتها مدى عناية الطهطاوي بالتعليم المدرسي كطريق للتحديث، وقد حذا محمد عبده حذو الطهطاوي وتابع مهمته في إحداث ثورة حقيقية في ميدان التعليم متناولا أساليب التعليم خاصة، ذلك أنه كان يرى أنه لا بد لأساليب التعليم هذه من أن تخدم الأهداف التربوية المرسومة ، وأهمها عنده تنمية الإدراك العقلي والتفكير الموضوعي.

## المطلب الأول : النخبة المشرقية ومحاولات الرقي بالمنظومة التعليمية :

---

1 - النيقر، أحمد : "النخب والوعي" : مجلة التسامح، وزارة والأوقاف والشؤون الدينية ، عدد 13 ، 2007 ، ص . 78

## 1\_ الدعوة إلى تعميم التعليم .

أمنت النخبة المشرقية بعد حصول الوعي لديها بالتأخر الحضاري، أن التعليم حتمية اجتماعية وحضارية تفرضها طبيعة المرحلة التاريخية وطبيعة الإشكاليات المطروحة على فكرها، ولنشر التعليم كان لابد من الإشارة إلى قيمة التعليم وإلى الفرق بين الإنسان المتعلم وغيره من بني البشر، يقول رفاة الطهطاوي "التعليم هو الوسيلة الوحيدة التي يكتسب بها الإنسان معرفة ما يجهله بالكلية، أو ما بقي له من تكميل علمه ببعض أشياء جزئية، فالتعليم جزء من التربية المعنوية التي هي تهذيب العقل وترويض الذهن"<sup>1</sup>.

فثمة رؤية اجتماعية سادت في عصر ما قبل الحملة الفرنسية على مصر، واستمرت سيادتها حيناً من الدهر، ألا وهي أن ثراء الرجل المادي هو مقياس عظمته، وأن الأمم لا تقاس بمقدار ما تحصله من علم ومعرفة، إنما كانت تقاس بعدد مواطنيها، أو مدى ضربها في عمق التاريخ، أو قدرتها على الإيذاء بجيرانها، أما التحضر أو الترقى أو التقدم فلم تكن من الكلمات المطروحة على ساحة الحديث المتناول هنالك، لا على ألسنة العوام، ولا على أقلام النخبة العاملة، لكن المشروع النهضوي الذي طرحه العلماء المشاركة، بعد عودتهم من رحلاتهم الأوروبية، حاولوا التأكيد على أن قيمة الأمم في علمها، وحضارة المدن في معرفتها التي يكتسبها أبنائها، يقول رائد الرحلة المشرقية رفاة الطهطاوي : "من المعلوم أن البلدة أو المدينة تبلغ من الحضارة على قدر معرفتها وبعدها عن حالة الخشونة والتوحش، والبلاد الإفرنجية مشحونة بأنواع المعارف والأدب، لا ينكر إنسان أنها تجلب الأنس وتزين العمران، وقد تقرر أن الملة الفرنسية ممتازة بين الأمم الإفرنجية بكثرة تعلقها بالفنون والمعارف، فهي أعظم أدبا وعمرانا"<sup>2</sup>.

وإذا كان تحضر الأمم رهين بما تحصل عليه من المعلوم والمعارف، فلا بد أن تشيع هذه الروح بين أفراد الأمة، إذا أردنا حقاً أن تصنع الأمة الإسلامية حضارتها وتصيغ تقدمها. ومن ثم حاولت النخبة المشرقية التأكيد في نصوصها الرحلية كما بينا آنفاً، على أن الحياة العلمية شملت جميع جوانب المجتمع الأوربي المتقدم، ولسان الحال يقول هنا : إنه يجب أن تسود لدينا نحن أيضاً هذه الروح العلمية المنظمة الممنهجة، حتى يرتقي هذا المجتمع الإسلامي ويخرج من حالة الجمود والتأخر الحضاري . ويخطئ من يظن النخبة العاملة كانت تدعو هنا إلى تقليد

---

1-الطهطاوي : المرشد الأمين للبنات والبنين، الأعمال الكاملة ، دراسة وتحقيق : عمارة محمد، دار الشروق ، القاهرة،

2010، ج، 2، ص. 388 .

2- نفس المصدر، ص . 107

المجتمعات الغربية تماما، أو كانت تدعو إلى غرينة البيئة الاجتماعية الإسلامية، إذ الصحيح، من وجهة نظري، أنها كان تدعو إلى حتمية سيادة التفكير العلمي، والى حتمية التخلي عن التفكير الخيالي والأسطوري الذي كان سائدا في البيئة الاجتماعية الإسلامية آنذاك.

كما أن التربية والتعليم مرتبطان بالتمدن ارتباطا جدليا، فهي من ناحية مرتبة تؤهل الأمة للوصول إلى التقدم، وفي ذلك يقول الطهطاوي: "فالأمة التي تتقدم فيها التربية بحسب مقتضيات أحوالها يتقدم فيها أيضا التقدم والتمدن على وجه تكون به أهلا للحصول على حريتها".<sup>1</sup> ومن جهة أخرى ف"التعليم والتعلم ركن من أركان التمدن".<sup>2</sup> لذلك نجد الطهطاوي يتحدث عن الوظائف الحكومية التي يؤهل لها التعليم في المدارس الحكومية ويدعو إلى ربط التعليم بما يحتاجه الوطن .

يبدو أن اقتناعه بأهمية العلم في بناء الحضارة جعله يؤكد واجب الدولة في تعميم التعليم ورعايته، إن الحضارة لا تزدهر إلا بالعلم، وتاريخ دول مصر والفرس واليونان في العصر القديم يثبت رأي الطهطاوي في أهمية العلم لاستمرار مجد الدولة. وفي هذا يقول: "وسبب ذلك، تعظيمهم للعلوم والحكمة، وتمكين من يشتغل بذلك، ورعاية جانبه، حتى كان أكثر ملوكهم علماء وحكماء؛ فمن تمام رونق المملكة إشتغالها على أئمة في هذه العلوم بأسرها، فما أضيع دولة قل علماءها وحكماؤها، وفسدت مزارعها، وكسدت منافعها، ولم تجد من يجيئها ولا من يجي بتحيات العلوم معالمها ونواحيها".<sup>3</sup>

بدوره، ركز الرحالة فتح الله المراه ، في مشروعه الفكري الذي طرحه في مؤلفاته التي دونها بعد أوبته من أوربا، ولا سيما في روايته الضخمة الموسومة ب«غابة الحق»، على ضرورة تمهيد سبل العلوم في العالم العربي، ويتحقق ذلك في نظره "بتشييد المدارس وتسهيل الدخول فيها لأجل كل من يرغب، وترقية الناجحين بالدراسة على قدر الإستحقاق". كما دعا إلى تثقيف العقل بالعلوم والمعارف، إذ "لا يعد الإنسان بغير ذلك إلا مع البهائم التي لا عقل لها، ولا يمكن أن يدعى متمدنا قط".<sup>4</sup>

---

1- الطهطاوي : مناهج الألباب ...، مصدر سابق، ج ، 1 ، ص . 279 .

2- نفسه .

3 - نفس المصدر . ص . 281 .

4 - المراه : غابة الحق ، دار الحمراء للنشر والطباعة، بيروت، الطبعة الأولى، 1990 ، ص . 41 .



أما محمد عبده، صاحب "رحلة في صقلية"، فتدخل التربية عنده في إطار المواجهة بين الشرق والغرب، فتصبح بذلك سلاحاً للحد من النفوذ الأوربي في المشرق العربي، فهو يرى أن أهل أوروبا "حتى الآن قد جعلوا العالم بيت نار، وهم قائمون على عبادتها وخدمتها بكل جد وإخلاص، وكيف نتمكن من حفظ ملتنا ودولتنا وديننا من شرر هذه النيران، بدون أن يكون عندنا ما يماثلها، إن لم نقل ما يزيد عنها"<sup>1</sup>.

وأوضح الإمام عبده أن ارتقاء الشعوب وتطورها يقاس بما لدى الأمم من معارف وأفكار، "فالأمة ذات البسطة في الأفكار، والمهارة في المعارف، هي الأقوى سلطاناً، وهي غالبية على من سواها من الأمم"<sup>2</sup>. كما دعا الإمام عبده إلى تشييد المدارس وتعميم التعليم في قوله: "إن إنشاء المدارس خير من إنشاء المساجد، لأن صلاة الجاهل في مسجد لا خير فيها، ولكن فتح المدارس يقضي على الجهل، فتؤدي الفرائض الدينية والأعمال الدنيوية على وجهها الصحيح، ولهذا كان التعليم أول ما يبدأ به"<sup>3</sup>.

في موضع آخر بين الإمام عبده أن "التأخر الحقيقي في البلاد، هو عدم سريان روح التربية الشرعية التي تجعل إحساس الإنسان بمنافع بلده، كإحساسه بمنافع نفسه، وشعوره بأضرار وطنه، كشعوره بأضرار نفسه"، وهو يرى أن التربية والتعليم مفتقدة في مصر منذ محمد علي، على الرغم مما قام به من تشييد المدارس وإرسال البعثات العلمية، وفي ذلك يقول: "حقاً إنه أرسل جماعة من طلاب العلم إلى أوروبا ليتعلموا فيها، فهل أطلق لهم الحرية في أن يبتوا في البلاد ما استفادوا، كلا، ولكنه اتخذهم كآلات تصنع له ما يريد"<sup>4</sup>.

تأسيساً على ما سبق، يتأكد حرص النخبة المشرقية الشديد على كشف مميزات التعليم والمكاسب النفسية والاجتماعية والعقلية التي يحظاها المتعلم، ولاشك أن الكشف عن هذه الأمور يعد من أفضل الوسائل لجذب الناس، والشباب خاصة، إلى الاهتمام بالتعلم واكتساب العلم الذي هو أولى خطوات المشروع التقدمي والنهضوي لديها.

---

1- عبده : المصدر السابق ، الجزء الثالث، ص. 21 .

2- نفس المصدر، ص. 99 .

3- نفس المصدر، ص. 98 .

4 - نفس المصدر، ص. 100.

## 2: تطوير البنية التحتية لقطاع التعليم .

### أ : المدارس والمعاهد.

إن التعليم الذي أنشأه الوالي محمد علي باشا ، والذي أشرنا إليه سابقا ، كان أساسه الجيش، وفي ذلك يقول أحمد أمين : "فالمدارس الحربية لتخريجه، ومدرسة الطب لتطبيبه، والهندسة لتصميماته، والمدارس الابتدائية لإمداده، والبعثات العلمية لسد حاجاته ، فإن جاءت من كل ذلك فائدة لغير الجيش، فبالتبعية لا بالقصد، حتى أن المدارس كانت ثكنات عسكرية في نظامها ومأكلها وملبسها، ورتب المعلمين والنظار والمديرين رتب عسكرية ...، وكل أنواع التعليم على هذا الوجه في القاهرة والإسكندرية فقط، أما المدن الأخرى والبوادي فليس لها حظ ونصيب من هذا التعليم"<sup>1</sup>.

بعد عهد محمد علي، وقعت انتكاسة في الحركة العلمية المصرية، فالمدارس قد ساءت أحوالها، في عهد عباس الأول وسعيد، وألغى معظمها، وأقفلت أبوابها، بين عالية وثانوية وابتدائية، ولم يبق منها إلا العدد اليسير، ولم يكتفِ عباس الأول بإغلاق معظم المدارس، بل نفى إلى السودان طائفة كبيرة من علماء مصر في ذلك العهد، مثل **رفاعة الطهطاوي** رائد الرحلة العربية الحديثة، و**محمد بيومي أفندي** كبير أساتذة الهندسة والرياضيات في مدرسة الهندسوخانة، بحجة إنشاء مدرسة ابتدائية بالخرطوم، والسبب الحقيقي هو إبعادهم ونفيهم من مصر، لإقبار أية جذوة علمية، وقد ساءت حالتهم، ومات منهم هناك، محمد بيومي.

حتى إذا جاء عهد إسماعيل الخديوي (1863-1879 م) بدأ هذا الوضع يتغير، ونالت الحركة الفكرية نصيبا عظيما من جهوده، وقرب منه أفراد النخبة العاملة، ومكثهم من مناصب حكومية، خولت لهم إنزال بعض مشاريعهم الفكرية على أرض الواقع، وأبرزهم رفاعة الطهطاوي العائد من منفاه بالسودان، و**علي مبارك باشا**، صاحب رحلة **علم الدين**، ولعل هذا القرب والتواصل والتكامل الذي حصل بين النخبة الحاكمة، والنخبة العاملة في فترة الخديوي إسماعيل، راجع في نظري إلى تأثرهم جميعا بالتجربة الأوروبية، ووعيهم بحدة الفارق الحضاري، لاسيما في مجال العلوم والمعارف، فالخديوي إسماعيل رحل بدوره إلى فرنسا لمتابعة دراسته في الهندسة والرياضيات، وأتقن الفرنسية، كواحد من أبنائها، وبهرته باريس بجمالها وغواية الحياة فيها، فتشكل لديه وعي تام بالتجاوز الحضاري الأوروبي، لذا سعى في حكمه إلى جعل مصر مواكبة للرقى الحضاري الأوروبي، واللحاق بالأمم المتقدمة،

1- أمين، أحمد : المصدر السابق، ص . 146 .

مستعينا بأفراد النخبة العاملة التي تتقاسمه هذا الهم الإصلاحى، ومن ثم أسند إلى علي مبارك وزارة المعارف، ووزارة الأشغال والسكك الحديدية والأوقاف.

فلقد تولى إسماعيل الحكم ومعظم المدارس التي أنشأها محمد علي مقفلة، ولم يكن باقيا منها سوى مدرسة الطب والصيدلة، ومدرسة الولادة التي كانت تسمى القابلات، ومدرسة حربية، ومدرسة ثانوية، وأخرى ابتدائية، ومدرسة البحرية بالإسكندرية، فبعث النهضة العلمية من مرقدتها، ونفخ فيها روح الحياة والنشاط، ورفع من موازنة التعليم، حيث كانت في عهد سلفه لا تزيد على ستة آلاف جنيه في السنة، فزاده إسماعيل إلى الأربعين ألفا، ثم ارتفعت لتصل إلى خمسة وسبعين ألفا في أعلى مرحلة وصلت إليها.

كان من أكبر المساهمين في هذه اليقظة العلمية، علي مبارك باشا، وذلك عندما تولى نظارة المعارف بمصر سنة 1867م، وهو أبرز من تولوها منذ إنشائها في عهد محمد علي سنة 1837 م.

وجه علي مبارك اهتمامه إلى بناء المدارس على اختلاف مراتبها وفنونها<sup>1</sup>. كما وجه اهتمام الدولة إلى التعليم في الريف، بعد أن كانت العاصمة وبعض المدن الكبرى فقط هي محور الاهتمام، حيث حول المكاتب الأهلية بالقرى والريف، إلى مدارس ابتدائية نظامية، وهياً لها سبل أداء رسالتها، ماديا وأديبا، وتوسع في عددها بالمدن الإقليمية والبلاد. حيث أعلن علي مبارك منذ وقت مبكر، وفي فصول روايته علم الدين "أن احتياج أهل الريف للتعليم أكثر... فهم أحوج إلى العلماء والمعلمين الذين طابت لهم حياة المدينة، فهجروا مواطنهم الأصلية وقراهم التي جاؤوا منها". وكانت غايته من ذلك هو إزالة ما بين المدينة والريف من فروق، فلا يقول قائل: "إن هذا قروي وذاك مدني"<sup>2</sup>. وترجمة لذلك، أقام علي مبارك في سنوات نظارته السبع من مدارس الأوقاف الابتدائية للبنين سبع مدارس، في الوقت التي شيدت فيه مصر في الفترة الممتدة من سنة 1863م إلى 1914م، تسع مدارس فقط<sup>3</sup>.

كما أولى اهتماما كبيرا بالتعليم العالى، وحقق فيه نهضة كبيرة، وبرزت إلى حيز الوجود مدارس العلوم الإنسانية، التي شكلت فيما بعد نواة لجامعة القاهرة، مثل مدرسة الحقوق سنة 1868م، وهي من أعظم المنشآت

1- جاد، طه: المصدر السابق، ص. 138.

2- مبارك: المصدر السابق، المجلد الثاني، ص. 779.

3- الرفاعي: عصر إسماعيل...، مصدر سابق، ج، 1، ص. 200.

العلمية التي أسست في عهد إسماعيل، وفي هذه المدرسة تخرج معظم رجال القانون الذين نبغوا في عصر إسماعيل وما يليه من العصور، ويعود لها الفضل الكبير في نهضة القانون والتشريع والقضاء والأدب والسياسية في المشرق . كما اهتم علي مبارك بمدارس العلوم العملية والصناعية، فهو الذي أنشأ في فترة توليه لنظارة المعارف «مدرسة الفنون والصنائع» ، وكانت تعرف بمدرسة «العمليات الملكية» وذلك سنة 1868م، لتخريج الصناع الفنيين، ومنهم مهندسو القطارات والسفن وسائقوها، والموظفون الفنيون في مصلحة السكك الحديدية ، وقد تخرج من هذه المدرسة مهندسون لصنع عربات السكك الحديدية والبواخر والآلات البخارية.

كما أسس مدرسة «التلغراف» سنة 1868م، والتي ألغيت سنة 1869م، ثم ألحقت بمدرسة الفنون والصنائع ، علاوة على تأسيسه لمدرسة «النقاشين» سنة 1869 م، ومدرسة «المساحة والمحاسبة» ، ومدرسة «اللسان المصري القديم» سنة 1869م، ومدرسة «الرسم بالمدارس الملكية» ، ومدرسة «الزراعة»، ومدرسة «العميان والحرس للبنين والبنات»<sup>1</sup>.

إن إنشاء هذه المعاهد في عهد إسماعيل من طرف وزير المعارف علي مبارك باشا، كان امتدادا واضحا لوعي النخبة العاملة بالتجاوز الحضاري الأوروبي للمجتمعات الإسلامية في مجال العلوم والمعارف، وإعجابها بتنوع المدارس والمعاهد والجامعات في أوروبا .

### ب: تشييد المكتبات والخزانات :

افتتحت القاهرة مكتبتها القومية العامة منذ أن بدد الأيوبيون مكتبة الفاطمية، وغدت المكتبة موزعة على المساجد والمكاتب ودواوين الأوقاف، يشرف عليها نظار ومحافظون جهلاء، يبيعون محتوياتها بأبخس الأثمان للسياح والمستشرقين وهواة جمع المخطوطات الأوروبيين، الشيء الذي ساهم بشكل كبير في تقهقر الحركة العلمية في مصر<sup>2</sup>، وبعدها كان علي مبارك باشا، قد شاهد المكتبة القومية بباريس وانبهر بها، وخصص لها عشرات الصفحات في متنه الرحلي ، علم الدين، وامتدادا لذلك، شرع بعد توليه نظارة المعارف في إنشاء كتبخانة المدارس ، إسوة بما شاهده في فرنسا، وقد صرح بذلك في نص واضح يقول فيه : "ظهر لي أن أجعل كتبخانة

---

1- نفس المصدر، صص . 200-209

2- سمير ، طه : "الحياة الثقافية في عهد إسماعيل"، أعمال الندوة العلمية : دراسات في تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي في العصر العثماني، تنظيم هيئة فولبرايت، دجنبر 1996 ، دار الآفاق العربية، القاهرة، الطبعة الأولى، 1997م، ص . 166.

خديوية داخل الديار المصرية، أضاهاى بها كتيخانه مدينة باريس، فاستأذنت الخديوي إسماعيل باشا في ذلك فأذن لي"<sup>1</sup>. وخصص لهذا المشروع مبلغا ماليا قدر بثلاثة آلاف جنيهه الإنجليزي .

وبدأت هذه المكتبة في سنة 1870م بثلاثين ألف مجلد، أغلبها من الكتب التي جمعت من الأوقاف والميري، لتتحول فيما بعد إلى دار الكتب القومية، بعد أن استجاب الخديوي لطلب علي مبارك أن تكون هذه الدار مقرا لمحتويات الكتيخانه القديمة، وكتبخانتي الأشغال والمدارس وغيرهم. كما وضع علي مبارك قانونا منظما لدار الكتب، ولائحة نظامها من 83 مادة التي تحدد نظام تزويدها بالكتب ، من كل اللغات وخدمة زوارها، وصيانة محتوياتها ، ونسخ مخطوطاتها .. إلخ.

وقد قام الخديوي إسماعيل بزيارة هذه الكتيخانه الجديدة في شهر أبريل سنة 1870م، وذلك قبل افتتاحها بعدة أشهر، وسر كثيرا من حسن النظام، لاشتمالها على المؤلفات المطبوعة وجميع المخطوطات النفيسة، والتي كانت متفرقة في المساجد القديمة<sup>2</sup>.

ولا ريب أن تجميع الكتب والمخطوطات في مكان واحد يسهل عمل الباحثين والكتاب، ويعد هذا العمل في هذا الوقت بالذات، عملا يدعو إلى الإعجاب، وقد وصف علي مبارك مشروعه هذا بأنه "من أنفع التجديدات التي حدثت في عهد الخديوي إسماعيل، وحصل به النفع العام للخاص والعام، واستحق الثناء من الأهلين والأغراب"<sup>3</sup>.

كما أبرز الأستاذ محمد عبده الذي انبهر بالخزانات الثقافية بأوربا، أهمية المكتبات، وقيمتها في تثقيف الشعوب وتهذيبها، وأوضح أن الاهتمام بإنشائها يدل على تقدم الدول ورفيها، وارتفاع وعيها الثقافي، وأشار إلى أن النهضة العلمية والتعليمية في الدول الإسلامية في عصورها الزاهرة، قامت على إنشاء المكتبات، حتى كان في القاهرة، في أوائل القرن الرابع الهجري، مكتبة تحتوي على ألف مجلد<sup>4</sup>.

وهو يعني ضعف الوعي المكتبي لدينا ، وإهمالنا في حفظ الكتب وإضاعته، وفي ذلك يقول : "ضاعت كتب العلم وفارقت ديارنا نفائسه، فإذا أردت أن تبحث عن كتاب نادر أو مؤلف فاخر، أو مصنف جليل

---

1- مبارك : المصدر السابق، المجلد الثاني، ص . 774 .

2- الإيوي، إلياس: تاريخ مصر الحدي ، مكتبة مدبولي ، القاهرة، الطبعة الأولى ، 1996م، ص . 144.

3- مبارك : المصدر السابق، المجلد الثاني، ص . 874.

4- فوزي، محمد عبد المقصود : الفكر التربوي للأستاذ محمد عبده، وآلياته في تطوير التعليم، الموقع الإلكتروني:

www.kotobarabia.com . تاريخ تحميل النسخة ، 16\_10-2013 . ص ، 78

أو أثر مفيد، فذهب إلى خزائن أوروبا تجد فيها ما تريد، أما بلادنا فقلما تجد فيها إلا ما ترك الأوروبيون من نفائس الكتب التاريخية والأدبية والعلمية... فنحن لا نعى بحفظ شيء ينفع من بعدنا، فليست ملكة الحفظ مما يتوارث عندنا، إنما الذي يتوارث هو ملكات الضغائن والأحقاد"<sup>1</sup>. كما طالب الأستاذ محمد عبده بطباعة المخطوطات المكتوبة الكوفية أو النسخ القديم، والعمل على تحقيقها، فذلك يساعد الدارسين على معرفة ما كتب فيها، ويتيسر لهم بعد ذلك قراءتها في أصولها<sup>2</sup>.

وإلى الإمام عبده، يرجع الفضل في إنشاء المكتبة الأزهرية وتخصيص مكان لها، وقام بجهد كبير في تجميع الكتب المبعثرة والممزقة في الأروقة، وتصنيفها إلى فنون، وترقيمها، وعمل فهرس لها<sup>3</sup>.

### 3 - العقل في المشروع الاصلاحى العربى المشرقى.

لقد كان الاهتمام بالعقل، كملكة إنسانية لها تفردا وخصوصيتها بين الملكات الإنسانية، من الأمور الواضحة في التراث الإسلامي، منذ بداية ظهور هذا التراث وتبلوره أو تأطره داخل عدة موضوعات وقضايا فكرية شغلته منذ لحظة الأولى.. وهذا أدى بالتالي إلى الاهتمام بالعلم والتأكيد عليه، ولعل الاهتمام بهذا وذاك منبثق بالدرجة الأولى من أمرين، أولهما: اهتمام الخطاب القرآني بالعقل، واعتباره الأداة الرئيسية نحو اكتشاف أسرار الطبيعة والوجود؛ بل باعتباره الأداة الرئيسية في معرفة الله عز وجل، فالنظر هو أول الواجبات على المكلف وثانيهما: إدراك المفكر المسلم لأهمية شيوع العقلية العلمية في البيئة الإسلامية؛ إذ أدرك القدامى أن التقدم والخلاص من البداوة لا يتأتى إلا عن طريق العلم، وأدركوا أن دينهم عندما أعلى من شأن العلم والعلماء، كان يريد حث المؤمنين بهذا الدين على اتخاذ العلم سبيلا للحياة.

والحق أن النخبة المشرقية، اقتدت بسابقتها من مفكري الإسلام في التأكيد على احترام العقل، باعتباره اشرف الملكات الإنسانية، واعتماد العلم سبيلا للخلاص من حالة النكوص الحضاري التي تمر بها الأمة. لذا سعت جاهدة في إحلال العقلية العلمية محل التقليد والتواكل، وسعت كذلك إلى جعل العلم يحل محل الخرافة التي كانت سائدة ومنتشرة آنذاك، بسبب ما أشاعه الدخلاء على التصوف من ربط الأمور جميعها بالغيبيات، وإشاعة أن الإنسان غير قادر على إعمار الكون، معتبرين أن ذلك يعد تغييرا في خلق الله أو تدخلا في مشيئته، ويمكننا

1- نفس المصدر، ص. 79.

2- نفسه.

3 - نفس المصدر، ص . 81.

الكشف عن جهود النخبة العاملة ممن رحلت إلى أوروبا في القرن التاسع عشر في سبيل انتشار العقلية العلمية من خلال معالجة هذه القضية على النحو التالي:

### أ : التوافق بين العقل والنقل:

الحضارة الغربية والنهضة الفرنسية والأفكار الفلسفية التي اطلع عليها وانبهر بها الرحالة المشاركة أثناء وجودهم بالخارج هي نتاج عقلي خالص، فلقد أسست النهضة على العقل، وبنيت على التفكير المجرد الخالي من أية توجيهات أو إرشادات. فالعقل هو الآلة الوحيدة المستخدمة، وهو المصدر الوحيد لإنتاج الفكر. والمفكرون المشاركة الذي لمسوا هذا كله من خلال رحلاتهم لأوروبا، وأدركوا جدواه وأهميته للنهوض، هم أبناء حضارة نصية، وحضارة منسوبة إلى دينها الإسلامي، هنا كان لابد أن يحدث في أذهانهم احتكاك، وتفاعل بين الموروث والمكتسب، وبين الدين والعلم الحديث، مما جعلهم يكشفون عن طبيعة العلاقة بين الدين والعقل، أو العقل والنقل.

والحق أن البحث مثلاً في فكر الطهطاوي ومحمد عبده وعلي مبارك باشا والشدياق وغيرهم ، يكشف لأول وهلة، عن إيمانهم وقناعتهم بأن العقل السليم لا يختلف مع صحيح المنقول، والتأملات العقلية والإبداعات الذهنية المنزهة عن الأغراض والمهادفة إلى مصالح الأمم لا يمكن أن تختلف مع النص الديني، لأن الدين جاء، كما ذكرنا سابقاً، لتمدن البلاد والأمم. وإذا كان الإبداع والتفكير هما وظيفة العقل؛ فإن هذه الوظيفة لن تؤدي إلا إذا توافر لدى الإنسان العقل الراجح الصحيح النظر الخالي عن الموانع، أي العقل الذي ينشد الحقيقة لذاتها، ويدرس الوقائع بدون أحكام مسبقة، ومعروف أن العقل إن لم يتخل ويتبرأ من هذه الأمور، فإنه يتعرقل عن الوصول إلى نتائج حيادية خالية عن الانحياز<sup>1</sup>.

لقد حث الطهطاوي في مشروعه الفكري الأمة الإسلامية على التفكير الفلسفي أو التفكير العقلاني الحر، وهو يرى أن لا خوف على سلامة المجتمع من هذا المنهج، لأن الذي يضار بهذا التفكير هو إنسان به خلل ذاتي، ولا نخاف على سلامة المجتمع الصحيح السوي مما يضار به صاحب العاهة والمريض، يقول الطهطاوي: "وإذا

---

1- سالم، أحمد محمد : العقل والدين، من الخطاب الإصلاحى إلى الخطاب العلماني، رؤية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 2011، ص. 113.

كانت هذه الشريعة حقا، وداعية إلى النظر المؤدي إلى معرفة الحق، فإننا معشر المسلمين، نعلم على القطع أنه لا يؤدي النظر البرهاني إلى مخالفة ما ورد به الشرع، فإن الحق لا يضاد الحق، بل يوافقه ويشهد له".<sup>1</sup>

وبدوره، حاول محمد عبده، المنافع عن دين الإسلام ضد الكتابات الإستشراقية والغربية التي اطلع عليها أثناء إقامته في أوروبا، توضيح ما قد يتوهمه البعض تعارضا بين العقل والنقل، عندما صاغ حقيقة هذه القضية فقال: "لقد تقرر بين المسلمين أن الدين إن جاء بشيء قد يعلو على الفهم، فلا يمكن أن يأتي بما يستحيل عند العقل"<sup>2</sup>. كما حدد من جهته في محاضرة شهيرة ألقاها في تونس سنة 1903م معنى العلم فقال: "إن الله يخاطب في كتابه الفكر والعقل والعلم بدون قيد ولا حد، أما نحن فعملنا منافع لما كتبه أسلافنا، وما تركوه من جواهر المعقولات في الكتب النفيسة المستودعة بخزائننا، والتي أصبحت ليومنا أكلة للسوس وفراشا للآتية.."<sup>3</sup>

بين الإمام عبده أن "الدين الإسلامي يرتكز على أصول عقلية، وأول هذه الأصول هي النظر العقلي لتحصيل الإيمان، والأصل الثاني تقديم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض بينهما، فإذا تعارض العقل والنقل أخذ بما دل عليه العقل، محاولين بعد ذلك تأويل ذلك الظاهر تأويلا يعطيه من المعنى ما يتفق مع أحكام العقل."<sup>4</sup>

هذه العلاقة المتأخية والمتكاملة بين العقل والنقل، هي التي أكد عليها أسلاف الرحالة المشاركة، إذ كشف أبو الوليد ابن رشد (520-595هـ) (1126-1198م) عن موافقة الشريعة لمناهج الفلسفة "إن الحق لا يضاد الحق، بل يوافقه ويشهد له، فالحكمة هي صاحبة الشريعة، والأخت الرضية، وهما المصطحبتان بالطبع، المتحابتان بالجواهر والغريزة"<sup>5</sup>.

---

1- الطهطاوي : مناهج الألباب...، ج 1، ص . 334 .

2- عبده : المصدر السابق، ج 3، ص . 301 .

3- نفس المصدر، ص . 303 .

4- نفس المصدر، ج 3، ص . 386 .

5- ابن رشد : فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال، دراسة وتحقيق : محمد عمارة، دار المعارف، القاهرة، 1999م، صص . 31-32



لقد أكدت النخبة المشرقية العاملة، أن الباب مفتوح على مصراعيه أمام العقل في سائر ميادين عالم الشهادة، وهو سبيل الفقه والفهم والتكليف في الشرع والدين، مع تأكيدهم على وجوب مؤازرة الشرع والنقل للعقل، فيما لا يستقل العقل بإدراكه من أخبار الغيب والحكم والعلل من وراء بعض أحكام العبادات في الدين .  
**ب: الدعوة إلى الجمع بين العلوم النقلية والعقلية .**

نشير بداية إلى أنه ليس ثمة ما يشير في الإسلام إلى أن المقصود بالعالم هو العالم بأمور الدين فحسب، إذ يحث ديننا الحنيف على دراسة مختلف جنبات الكون؛ حيث جاء في القرآن الكريم قوله تعالى :  
 ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ۚ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لِمَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَئِمَّا ظَنَّ الْقَوْمُ أَنَّهَا هَالِكَةٌ لِنَفْثَتِهِمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ۚ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ﴾<sup>1</sup>، ولم يقصد صفة العلم هنا على نوع واحد من العلماء، بل الآية الكريمة تشمل كل من له صلة بالعلم والبحث العلمي.  
 فقد دعا القرآن الكريم في مواطن عديدة إلى النظر والتفكير والاعتبار في الكون وفي كل ما يحيط بالإنسان، بل في الإنسان نفسه، وجاء ذلك في سياقات متعددة، طابعها الحث واستنفار الهمم حيناً، والتأنيب حيناً آخر، ولا شك أن هذا النظر ومرادفاته، يعني العلم أو ما يؤدي إليه، والعلم هنا هو العلم الديني قطعا. وقد يقال : إن دعوة القرآن إلى النظر غايتها دينية، بمعنى أنها ترمي إلى الإيمان وتقوية اليقين بعظمة الخالق، وهذا صحيح، لكن هذه الغاية ستمر قطعا بالعلم الطبيعي الذي يكشف أسرار خلق الله، وتتحقق بإصلاح الكون وعمارة الإنسان له.

وإذا كان الأمر كذلك، فإن لنا أن نتخيل مدى انحراف الفهم، وندرك عمق الشرح بين الرؤية وفهمها عندما نرى عالما جليلا مثل ابن تيمية ( ت 729هـ)، يقرر أن العلم هو العلم الموروث عن النبي صلى الله عليه وسلم، وأن غيره إما أن يكون غير نافع، وإما ألا يكون علما أصلا. وقبل ابن تيمية رأينا الماوردي المعتزلي (ت 450) يؤكد أن الأحاديث التي تنسب للنبي صلى الله عليه وسلم في الحث على طلب العلم، إنما تعني العلم الديني والشرعي فحسب، ومن هنا فهم بعضهم من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم الذي يقول فيه: **"أعوذ بالله من دعاء لا يسمع، وقلب لا يخشع، وعلم لا ينفع"**<sup>2</sup>، أن العلم الذي لا ينفع هو العلوم العقلية، لذا وجدنا في تاريخ الإسلام عددا من العلماء العرب المشهورين قد طعن في إسلامهم بسبب

1-سورة فاطر : الآية، 29 .

2- أخرجه ابن ماجة في سننه رقم الحديث 3837 ، كتاب الدعاء ، 2 باب دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ج ، 2 ، ص 1261 . قال الألباني : حديث صحيح .

اشتغالهم بهذه العلوم ، لكن ذلك لم يكن ليؤدي إلى ما يمكن أن نسميه، **موقفا عاما**، حتى أوشك القرن الثاني عشر على إنقضائه؛ حيث كان من نتيجة اجتهادات الفقهاء في العالم الإسلامي بتحريم دراسة العلوم الطبيعية والفلسفة ، بحجة أنها طريق إلى الإلحاد، أن أخذ القول بجرمة العلوم العقلية كالفلسفة والرياضيات والعلوم الطبيعية والإنسانية يتسرب شيئا فشيئا إلى الأزهر ونحوه من المعاهد الإسلامية، حتى انتهى الأمر بهجرها تماما، بل وصل الأمر إلى معاداتها وتكفير من يشتغل بها .

وتبدو الحالة التي عليها الأمة من التخلف الحضاري والتقني بمثابة خروج عن طبيعة الأمة وجوهر معدنها، ومخالفة لماضيها، وإذا كان الغرب قد نهض وتقدم حسب رفاة الطهطاوي "فإننا كنا في زمن الخلفاء أكمل سائر البلاد، وسبب ذلك أن الخلفاء كانوا يعينون العلماء وأرباب الفنون وغيرهم، على أن منهم من كان يشتغل بما بنفسه، فانظر إلى المأمون بن هارون الرشيد فإنه زيادة عن إعانة "ميقاتية" دولته كان يشتغل بنفسه بعلم الفلك"<sup>1</sup>. فثمة إشارة إذن، من الطهطاوي إلى القادة والحكام والسياسيين في حتمية أن يتحملوا مسئوليتهم التاريخية في تشجيع العلم والعلماء، ورفع المستوى الأدائي للباحثين والمفكرين عن طريق إعانتهم وتيسير سبل العيش الكريم لهم، وكذلك تبني رؤاهم العلمية وإبداعاتهم الفكرية، وأن تقوم الدولة بطرح إنتاج علمائها، ومفكراتها على بساط الواقع، وأن تستفيد من عصارة سهر وتبتل هذه العقول، وأن لا تنظر السلطة إلى العلم نظرة العدو اللدود، ولا إلى الفكر نظرة المخرب المدمر، طالما أنه يهدف إلى تحسين الواقع المعيش للأمة، ويعمل على تقدم بنية المجتمعات الإسلامية .

كما أشار الطهطاوي أن واجب الدولة لا يجوز أن يقتصر على رعاية علماء الشريعة ، ومن واجبها أن تقدر العلماء المختصين في كل حقول المعرفة الإنسانية وفروع العلم الحديث، وفي هذا يقول الطهطاوي : " إذ المراد بعلماء الشريعة : العارفون بالأحكام الشرعية والعقائد الدينية، أصولا وفروعا، يعني الأحكام المتعلقة بالعمل ، عبادات ومعاملات، ويلحق بهم أهل العلوم الآلية العقلية التي يتوقف عليها فهم العلوم الشرعية، لأن الوسائل تشرف بشرف المقاصد . وكذلك يحترم ويكرم العلماء المشتغلون بجملة علوم شريفة ينتفع بها ويحتاج إليها في الدولة والوطن، كعلم الطب، والهندسة، والرياضيات، والفلكيات، والطبيعات، والجغرافيا، والتاريخ، وعلوم الإدارة والاقتصاد في المصاريف، والفنون العسكرية، وكل ماله مدخل في فن أو صناعة فإن أهله يجب

1- الطهطاوي: تلخيص الإبريز..، مصدر سابق، ص . 26.

إكرامهم من أهل الدولة والوطن، وكذلك يجب إسداء المعروف واصطناعه لأرباب المعارف الأدبية والفصاحة العربية<sup>1</sup>.

لقد حاول الطهطاوي في سياق تفسيره للحديث الشريف "إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له"<sup>2</sup>. أن يدحض رأي بعض العلماء الذين حصروا العلم في العلوم الدينية، وأكد بعد شرح مستفيض لهذا الحديث، أن سائر أنواع العلوم، بما فيها علوم الحرف والصنائع، داخلة في هذا الباب، ولها هذا الشرف العظيم، وفي هذا الصدد يقول: "فالعلم النافع، سواء كان اجتهادا، كاجتهاد المجتهدين وعلومهم المخلدة عنهم، أو تدوين المدونين الواضعين للعلوم الشرعية والآلية والفنون، وكل علم نافع للملّة، ولو صنعة، ذات قواعد وموضوعات، فإنها تدخل في العلم، فيدخل فيه كتب الزراعة والتجارة ونحوها، اختراعا أو تكميلا، فكل هذه الأشياء اختراعها وتدوينها والتأليف فيها، وتكثير كتبها، بكتابة وطباعة، مما يحتمله فحوى العلم النافع"، ذلك أن "الفنون والصنائع عليها مدار انتظام الملك، وتحسين الحالة المعاشية للأمم والآحاد... فالفنون التي هي وسائل ذلك، ليس عنها مندوحة، وهي في الشرع ممدوحة، فلا مانع من دخولها تحت قوله صلى الله عليه وسلم: 'أو علم ينتفع به'، شامل لتعليم المعارف النافعة، سواء كانت علوما أو فنا أو صناعات أو آلات، فإنها لا تخلو من مدارك علمية"<sup>3</sup>.

وأضاف مؤكدا على أهمية الفنون والصناعات ووجوبها، من حيث "أن الشرعيات لا تتم إلا بها، وما لا يتم الواجب إلا به، فهو واجب، فإن الفنون والصنائع عليها انتظام الممالك وتحسين الحالة المعاشية للأمم والآحاد، فهي من فروض الكفايات"<sup>4</sup>.

إذا كان الطهطاوي قد أوضح في مشروعه الإصلاحية أن للتمدن ركنين أساسيين، هما: التمدن المادي والتمدن المعنوي، فإنه يرى تكامل جوانب العلوم الحقيقية من جانب، والعلوم الأدبية من الجانب الآخر، فالتقدم

---

1 - الطهطاوي: مناهج الألباب...، مصدر سابق، صص . 531- 532

2- أخرجه مسلم في الوصايا من صحيحه، عن يحيى بن أيوب، وأخرجه أبو داود، عن يحيى بن أيوب . وأخرجه الترمذي والنسائي جميعا عن علي بن حجر .

3- نفس المصدر، ص . 289 .

4- نفس المصدر، ص . 546 .

الحضاري لا يتم إلا بهما معا، والدول المتقدمة تختلف عن الدول المتخلفة من الجانبين معا. فالتقدم العلمي يكون في العلوم الحقيقية والعلوم الأدبية جنبا إلى جنب ، والتخلف يكون فيهما معا، وفي هذا يقول الطهطاوي : " العلوم الحقيقية والأدبية قليلة التقدم عند الأمم القليلة الحضارة". وقد أشار الطهطاوي إلى ضرورة العناية بالفنون الأدبية والعلوم الحقيقية الطبيعية لأهميتها وتكاملها بالعبارة التالية بقوله : "الفنون الأدبية المسماة بعلوم العربية ، وهي النحو والصرف والبيان والمعاني والبديع، وكل ما يعين على تحسين العبارات العلمية، كلها آلة للعلوم الحقيقية عقلية أو نقلية ، فبالتمكن من الفنون الأدبية يقتدر الإنسان على التعبير عما في الضمير ... ويحصل على ملكة تأدية العبارات العلمية بما يقتضيه الحال من اختصار أو بسط، فمن هذا يفهم أن المعارف الأدبية والعلوم الحقيقية متعلق بعضها ببعض". و لإقناع المتلقي بصحة أطروحته المتعلقة بالجمع بين العلوم، أكد أن الحضارة العربية الإسلامية عبر تاريخها ، سارت فيها الآداب والعلوم سيرا واحدا، متحد الخطوة "وصارت علوم الأقدمين وأدبهم وتواريخهم معلومة للمتأخرين ، مع ما أضيف إلى ذلك من تاريخ علماء الإسلام وتصانيفهم وما تجدد من نتائج قرائحهم الذكية وثمرات عقولهم المنيرة مع ما توارثوه في الأدبيات من أسلافهم"<sup>1</sup>. فالحضارة الإسلامية قامت على أساس الاهتمام بالعلوم والآداب، وبهذا أوضح الطهطاوي مبكرا، أن العلم الحديث شامل لفروع المعرفة المختلفة، وليس مقصورا على ما كان معروفا من المتون والشروح في الأزهر آنذاك، وأن التقدم العلمي والأدبي في إطار الحضارة الإسلامية كان يمضيان جنبا إلى جنب، فظواهر الحضارة متكاملة، والمعارف متنوعة .

قد اقتنع الطهطاوي اقتناعا تاما، بأن تقدم الأمم الأوروبية وتجاوزها للعوالم الأخرى، مرده إلى تقدم العلوم المادية والطبيعية، فهذه العلوم والمعارف "تتسلطن الأمة المتمدنة على من سواها، وتجلب لنفسها من المنافع جميع ما عند من عداها"<sup>2</sup>. والمثال الأوربي واضح الدلالة "فها نحن بعد النظر ، لا نجد سببا لترقيهم في الثروة والقوة إلا ارتقاء المعارف والعلوم فيما بينهم، حتى قادتهم إلى رشادهم فتنوروا خيراتهم فاكسبوها ومضراتهم فتكبوها عنها وتركوها، فإذا أول واجب علينا هو السعي بكل جد واجتهاد في نشر هذه العلوم في أوطاننا"<sup>3</sup>. وإمعانا في تأكيد رؤيته وقناعاته يقول الطهطاوي: "واعلم أن كل العلوم شريفة، ولكل علم منها

1- الطهطاوي : المرشد الأمين..، مصدر سابق، ص . 80 .

2- الطهطاوي : مناهج الألباب..، مصدر سابق، ص 312 .

3- نفس المصدر، ص . 313

فضيلة، والإحاطة بجميعها محال". فكل العلوم لها شرف خاص، وصعب الإحاطة بجميع العلوم، من ثم تأتي حتمية التخصص وحتمية وجود المتخصصين في كل ميدان من ميادين وحقول المعرفة الإنسانية، لإصلاح حال الشعوب والدول العربية والإسلامية .

اعتبر **مراش الحلبي** صاحب "رحلة إلى باريس"، أن اللحاق بالغرب وانتقال العرب مما هم فيه من جمود ووهن حضاري "لا يتم إلا بالتروض في العلوم والفنون ودراسة المعارف الطبيعية والأدبية"<sup>1</sup>، وذكر الطب والفلك والكيمياء والجغرافيا والتاريخ .

أما **علي مبارك** باشا، قد تصور العملية التعليمية بأنها عملية متكاملة، تأثرا منه بالمنظومة التعليمية الأوروبية أثناء دراسته بها، لذلك سعى أثناء توليه لِنظارة المعارف إلى تحقيق تكامل بين المؤسسات التي تقدم للطالب ذلك القدر المتكامل والضروري من العلوم، فاقترح على الحاكم الخديوي إسماعيل سنة 1871م، إنشاء معمل علمي للأجهزة والأدوات العلمية اللازمة للعلوم الطبيعية والحديثة، يلحق بمبنى دار الكتب، وسماه «دار المعارف» بحيث يتم فيها التدريس العام والشرح والتوضيح على الأجهزة العلمية المقتضية لتوضيح نظريات وقواعد العلوم الطبيعية والآلات البخارية وغيرها، وهدف من ذلك تأسيس مجمع علمي على غرار المجمع العلمي الذي أسسه نابليون بونابارت في مصر، وذلك حتى "تتم المعاينة والتمرن على استعمال الآلات، واجتلاء المعقول في صورة المحسوس، فيتعاقد الفكر والنظر العلم والعمل"<sup>2</sup>، وأن يعين للتدريس فيها جمع "من أفاضل العلماء أهل الدراية في جميع الفنون"<sup>3</sup>، لإفادة من يستفيد، وشرح ما خفي من أسرار تلك الآلات"<sup>4</sup>. على أن يكون

---

1- المرّاش : غابة الحق، مصدر سابق، ص . 43 .

2- مبارك : المصدر السابق، المجلد الثاني، ص . 4 .

3- ذكر سمير محمد طه أسماء المدرسين وأوقات محاضراتهم ، فقد عين الشيخ "حسين المرصفي"، لتدريس علوم الأدب وكانت محاضراته يومي الأحد والأربعاء، و عين منصور أحمد أفندي ، لقراءة علم الطبيعيات مع التجارب على الآلات باللغة العربية يوم السبت، وعين المسيو ويدال لتدريس فن السكك الحديدية باللغة الفرنسية، وذلك يومي السبت والإثنين، وتعين فرانس بك لتدريس فن الأنبية باللغة الفرنسية يومي الأحد والثلاثاء، ومسيو جيحون بك لتدريس فن الآلات البخارية باللغة الفرنسية يوم الأربعاء ... انظر بتفصيل : الحياة الثقافية في عصر الخديوي إسماعيل، ضمن الندوة العلمية، التي أقامتها هيئة أولفبرايت بالقاهرة، دراسات في تاريخ مصر الإقتصادي والاجتماعي في العصر العثماني، دار الآفاق العربية، القاهرة، الطبعة الأولى، 1996، ص، 186 .

4- مبارك : المصدر السابق، المجلد الثاني، ص . 932 .

التدريس بدار المعارف، هذه نظاميا، ومستهدفا تخريج مدرس علوم للمدارس، فصدرت أوامر الخديوي اسماعيل بتحقيق هذا المشروع، أي دار المعارف، في 28 يونيو سنة 1871 م، أي بعد اقتراحه باثني عشر يوما .  
لقد وعى علي مبارك ، أهمية الجمع بين العلوم المدنية العصرية، والعلوم النقلية الشرعية، حيث أكد أولا على دور علوم التراث وفنونه في تكوين الإنسان العصري المستنير، لذا اعتبرها أشرف العلوم عنده، ولكنها لا تحتكر الشرف وحدها من دون العلوم، فكل العلوم الضرورية شريفة، والقائمون بها مثلهم كمثل "القائمين على الثغور والمرابطين والغزاة المجاهدين في سبيل الله، فمنهم المقاتل، ومنهم المدد، ومنهم الذي يجلب لهم المؤونة، والذي يسقيهم الماء، ومنهم الذي يحفظ دوابهم ويتعهددها، ولا ينفك أحد منهم عن أجر، إذا كانت نيته حسنة، وكذلك العلماء".<sup>1</sup>

على منوال النخبة المشرقية في القرن التاسع عشر، كان الإمام محمد عبده بداية القرن العشرين، يؤمن بأن العلوم العصرية هي سبب قوة الأمم الغربية وغناها، ومن أجل ذلك طالب بإدخالها في الأزهر، ودخل في صراع عنيف مع علماء الأزهر بشأن ذلك، وقد عبر عن هذا الصراع قائلا: "هل غاب عن الأذهان ما كان ينشر في الجرائد بأقلام بعض علماء الأزهر من المقالات الطويلة الأذبال في استهجان إدخال علم تقويم البلدان<sup>2</sup> بين العلوم التي يتلقاها طلبة الأزهر، وكان كتاب تلك المقالات يعرضون بمن يريد إدخال هذا العلم وغيره بأنه يريد الغض من علوم الدين... ألا يتخيل المتأمل أن يسمع من جوف المستقبل صخبا ولجبا وضوضاء وجلبة مضطربة إذا قيل إنه ينبغي لطلبة الأزهر أن يدرسوا طرفا من مبادئ الطبيعة أو يحصلوا على جملة من التاريخ الطبيعي، ألا تقوم قيامة المتقين، ألا يصيحون أجمعين: هذا عدوان على الدين، هذا توهين لعقده المتين.. إن أول واجب هو السعي بكل جد واجتهاد في نشر هذه العلوم في أوطاننا، فدراسة ما في الكون، يؤدي إلى معرفة الله أكثر مما يؤديه الجدل والكلام"<sup>3</sup>.

وكان يرى أن العلوم التي يزعم علماء الأزهر أنها حديثة كالحساب والفلسفة والكيمياء والقانون الطبيعي والجغرافيا، وضعت قبل الإسلام بعشرات السنين، أما النحو والصرف والفقه الإسلامي والحديث فإنها لم توضع إلا

1- نفس المصدر، ص . 933 .

2- يقصد الجغرافيا .

3- عبده : المصدر السابق، ج 3 ، ص . 24 .

بعد الإسلام بعشرات السنين، وهو يعجب من رمي تلك الفنون بالحدائثة، مع أن القدم ظاهر في وجوهها، وإذا كانت هذه العلوم تسمى بالعلوم الحديثة، فهي حادثة بحدوث أفكار الطلبة فيها<sup>1</sup>.

لقد أكد عبده أن العلوم الحديثة هي الوسيلة التي لا وسيلة بعدها، لتجاوز الوضع المهترئ، وحالة الضعف التي تعيشها المجتمعات العربية الإسلامية، والحصول على القوة التي تحمي الأمة وتقوم بها، ومن ثم يجد فيها الدين حماية وطاقة، يقول عبده: "إنه لا دين إلا بدولة، ولا دولة إلا بصولة، ولا صولة إلا بقوة، ولا قوة إلا بثروة، وليس للدولة تجارة وصناعة، إنما ثروتها بثروة أهاليها، ولا تمكن ثروة الأهالي إلا بنشر العلوم فيما بينهم حتى يتبينوا طرائق الاكتساب"<sup>2</sup>.

قد نتصور من خلال قراءة النص، أن ما ورد لا يقوم دليلاً على مناداة محمد عبده بالعلوم الحديثة، لكننا لو تابعنا النص، فسوف نجد أنه يتحدث عن العلوم المادية عامة والحربية خاصة، فمن المعروف أن الآلات الحربية التي أصبح يمتلكها الغرب والتي بموجبها سحق الشعوب العربية والإسلامية وأخضعها للاستعمار والاحتلال، "لا تتأني لنا بالأشعار، وبيارق الصوفية وحكايات ألف ليلة وليلة.... وقد ولت أزمنة كان التحارب فيها بالأخشاب والنبال، والسهام وخزف الجبال، وما أشبه ذلك مما كان يمكن استحصاله بزهد القيم، وحضرنا زمان نضطر فيه إلى المراكب المدرعة، ومدافع المتراليوز، وبنادق الإبرة، وغير ذلك من الأسلحة التي تجددت وستجدد فيما بعد"، ثم يقول: "وكيف نتمكن من حفظ ملتنا ودولتنا وديننا من شرر هذه النيران، بدون أن يكون عندنا ما يماثلها، إن لم نقل ما يزيد عنها، وهل يمكن استحصالها بالخرز والخزف أو بداني الحرف؟ كلا.. بل لا بد من البحث عن وجوه الاكتساب من وجه الصواب، والاستضاء بنور المعرفة"<sup>3</sup>.

### ج: حتمية التخصص في الحقول المعرفية:

لم يكن الجهد المبذول من النخبة المشرقية في هذا الاتجاه يهدف إلى التأكيد على حتمية العلم للمجتمع فحسب، بل كان يهدف إلى خلق وإيجاد روح التفكير العلمي المنظم، بهدف تأكيد العقلية العلمية داخل البنية الاجتماعية ذاتها. وأول ما يكشف لنا عن ظهور المنهجية في طلب العلم وإذاعته وتعميمه هو الإشارة إلى حتمية أن يكون المتعلم متخصصاً في فرع من فروع العلم والمعرفة.. إذ الأمم لا ترقى ولا تتقدم إلا بتخصيص علمائها في

1- نفس المصدر، ص . 20 .

2- نفس المصدر، ص . 21 .

3 - نفس المصدر، ص . 22 .

فروع علومهم، والمبدع لا يبدع إلا إذا كان واعيا بأسباب الإبداع في تخصصه، تلك الأسباب التي يأتي في مقدمتها الإطلاع على المؤلفات التي حررت في تخصصه وفنه ، وفي هذا الصدد يقول الطهطاوي : "ولما كانت عمارة المسالك والممالك لا تستغني عن الفنون والصنائع وآلاتها وأدواتها، يسر الله تعالى لكل زمن من الأزمنة أناسا أرباب براعة كاملة لإحياء ما به يكون العمران ويتسع التمدن في البلدان، فمن هؤلاء علماء التاريخ، والعارفون بالألسن واللغات، والمولعون بمطالعة الكتب ومعرفة مؤلفيها من مشاهير الرجال، فهم أيضا يجددون للصناعة والبراعة، فكل صاحب علم أن صاحب فن لا يتصف بسعة دائرة معرفته إلا إذا اطلع على المؤلفات الجليلة من فنه"<sup>1</sup>.

كما أكد البرنامج العلمي المطروح من طرف النخبة العاملة التي اطلعت على المنظومة التعليمية الغربية ، عن حتمية وجود مختلف التخصصات العلمية ليتم الإبداع على مستوى الجو العلمي العام للأمة كي يكون النهوض محتويا لكافة القطاعات التي تتشكل منها بنية المجتمع، فلا بد من وجود علماء التاريخ، والعارفون بالألسن واللغات، والمتقنون العارفون بالكتب ومؤلفيها، وعلى صاحب كل علم أو فن أن يلم بما سبقه إلى إبداعه السابقون عليه من علماء هذا الفن.. تلك إذن هي النقطة الثانية، أو الأساس الثاني من الأسس التي يعتمد عليها البرنامج العلمي التقدمي الذي أراد الرحالة المشاركة أن يطرحوه للنهوض والحقاق بالغرب .

#### د- تحرير الفكر وفتح باب الاجتهاد :

تردد كثيرا في خطاب النخبة المشرقية ممن رحل منها إلى الغرب، وتشكل لديها الوعي بالتجاوز الحضاري الأوروبي، الدعوة إلى تحرير الفكر ونبذ التقليد، وفهم "الدين على طريقة سلف هذه الأمة قبل ظهور الخلاف، والرجوع في كسب معارفه إلى ينابيعه الأولى، والنظر إلى العقل باعتباره من أفضل القوى الإنسانية، بل هي أفضلها على الحقيقة"<sup>2</sup> .

ففي عصور التأخر الحضاري، والجمود الفكري والفقهي، كانت النعمة السائدة تقول : إن الأولين لم يتركوا للآخرين شيئا، أو شيئا يذكر ذا قيمة على أقل تقدير، وأن الخير كل الخير، في تقليد وإتباع السلف، والشر كل الشر، في محاولات التجديد والابتداع .

1- الطهطاوي : المرشد الأمين....، مصدر سابق، ج ، 2 ، ص .402.

2- شبار، سعيد : الاجتهاد والتجديد في الفكر الإسلامي المعاصر، دراسة في الأسس المرجعية والمنهجية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الطبعة الأولى، 2007 م، ص . 525 .



ولقد واجه الرحالة المشاركة هذه النعمة، بحسم المعارض القوي، فيما يتعلق بالعلوم الحديثة المستجدة، وبالذات العلوم العملية، التي كان يسميها الطهطاوي علوم "الحكمة العملية والطرائق المعاشية" وعاب على من يقرأ ويحفظ في كتاب جوهر التوحيد<sup>1</sup> قول الناظم :

وكل خير في إتباع من سلف  
وكل شر في ابتداع من خلف

ففي نقده لأنصار التقليد، عاب الطهطاوي هذا التعميم، ومن موقعه السلفي السني في الإلهيات والمعتقدات، سلم "بصواب التقليد والإتباع في الأمور الدينية، وإتباع الأحكام الشرعية من الحلال والحرام دون المباح"<sup>2</sup>، ولكن الطهطاوي أنكر الوقوف عند إنجازات السلف لاعتقاده بأن "مخترعات هذه الأعصر، المتلقاة عند الرعايا والملوك بالقبول، كلها من أشرف ثمرات العقول، يرثها ، على التعاقب، الآخر عن الأول، ويبرزها في قالب أكمل من السابق وأفضل."<sup>3</sup> بل لقد دعا الرجل إلى الاجتهاد، وإعادة النظر في تفسيرات السلف للنصوص المأثورة وتجاوزها إذا ظهر عدم صلاحها لزماننا، يقول الطهطاوي : "فلقد يستنبط من كلام النبوة ما لا يخطر ببال الصحابي" ، ومستشهدا بقول الرسول صلى الله عليه وسلم : «**من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين ، فرب مبلغ أوعى من سامع**»<sup>4</sup> . كما استشهد بقول الإمام مالك: «إذا كانت العلوم منحا إلهية، ومواهب اختصاصية، فليس بمستبعد أن يدخر لبعض المتأخرين ما عسر على كثير من المتقدمين»<sup>5</sup> .

وهاجم محمد عبده، التقليد والمقلدين قائلا : " .. فهم يعتقدون الأمر ثم يطلبون الدليل عليه ولا يريدونه إلا موافقا لما يعتقدون، فان جاءهم بما يخالف ما اعتقدوا نبذوه، ولجوا في مقاومته، وإن أدى ذلك

---

1- جوهر التوحيد، أحد أهم متون علم العقيدة والكلام عند أهل السنة والجماعة من الأشاعرة، لصاحبه إبراهيم اللقاني المالكي المتوفى سنة 1041 هـ، وهو عبارة عن منظومة شعرية تتألف من 144 بيت شعري .

2- الطهطاوي : المرشد الأمين ....، ج ، 2 ، ص 396 .

3- نفسه .

4- الحديث أخرجه الترمذي في سننه برقم 2868 بلفظ " نضر الله امرأ سمع منا حديثا فحفظه حتى يبلغه غيره ، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ورب حامل فقه ليس بفقير" . كتاب العلم ، 7 ، باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع، ج ، 10، ص ، 162 ، المكتبة الالكترونية .

5- نفس المصدر، ص. 405 .

إلى جحد العقل برمته، فأكثرهم يعتقد فيستدل، وقلما تجد بينهم من يستدل فيعتقد".<sup>1</sup> وكان يخشى من استمرار التقليد، وتعذر محو البدع والضلالات التي دخلت الإسلام، ويخاف على العقيدة التي تنهار بسبب طغيان الفكر الغربي الحديث، ولذلك شن أقسى الحملات على المقلدين قائلا: "فإن التقليد كما يكون في الحق يأتي في الباطل، وكما يكون في النافع يحصل في الضار، فهو مضلة يعذر فيها الحيوان، ولا تجمل بحال الإنسان".<sup>2</sup>

#### 4: تعليم المرأة وتحريرها إسوة بالمرأة الغربية.

أثار المفكرون العرب في القرن التاسع عشر جملة من المسائل السياسية والتربوية والاجتماعية التي نشأت بسبب الإتصال بالغرب عبر قناة الرحلة، وكانت قضية المرأة من أقدم القضايا التي عالجها الفكر العربي الحديث، كما كانت من أكثر القضايا إثارة للجدل بين أنصارها وخصومها، فأفردت لها كتب تناول فيها أصحابها بالبحث موضوع المرأة بصفة عامة أو جوانب مخصوصة تتعلق بها، من ذلك مثلا السفور والحجاب، والتعليم والعمل والمشاركة السياسية وتولي المناصب وتعدد الزوجات ..

وضع الشيخ رفاة الطهطاوي أول لبنة في الخطاب المنصف للمرأة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر حين كتب «المرشد الأمين في تعليم البنات والبنين» الذي مثل محاولة جلييلة لإعادة تعريف وتقديم المرأة ككائن اجتماعي له مكانته ودوره المتكامل مع دور الرجل، فقد تحدث في كتابه هذا عن تربية الأطفال والناشئة من الذكور والإناث، وعلاقة ذلك بصفاتهم النفسية والبدنية، كما تطرق إلى فضل العلوم وعلاقة التربية بتمدن الأوطان وعمارة البيوت وحفظ الأسر والأخلاق والصحة، وحرص على إقران البنات مع البنين في الحديث عن أهمية التربية والتعليم والتزود بكافة العلوم، مع بيان فضل ذلك على قضية التمدن وقضية حفظ بنيان الأسر كقضية أصيلة من قضايا التمدن. وإلى جانب الطهطاوي، فقد طرح علي مبارك مسألة المرأة أيضا في مؤلفه "علم الدين" الذي يعتبر أحد نماذج أدب الرحلات، علاوة على ما كتبه الشدياق وآخرون.

عندما وطئت أقدام رفاة الطهطاوي أرض فرنسا لأول مرة سنة 1826م، كان أول ما استوقف نظره الحرية التي تتمتع بها المرأة الفرنسية، ووضعها الممتاز في المجتمع الفرنسي بالنسبة إلى ما ألفه الطهطاوي من تقاليد بلاده.

1- عبده : المصدر السابق، ج، 3، ص . 109 .

2- نفس المصدر، ص . 110 .

واجه الطهطاوي في مجمل مواقفه من المرأة سواء في «المرشد الأمين» أو في «تخليص الإبريز» الأحكام المسبقة السائدة عن المرأة، واتسمت كتابته بطابعها السجالي، ولأنه يدافع في مشروعه النهضوي عن الإصلاح وعن التمدن، ضد كل الذين يرفضون التغيير، فإنه قد لجأ في موضوع المرأة إلى حصر مجموع التصورات المانعة لحصول التغيير في أحوالها، من قبيل رفض تعليم النساء القراءة والكتابة، والتصورات التي تلصق بالنساء مواصفات المكر والدهاء ونقص العقل، حيث لا تتجاوز وظيفة المرأة في نظر من يؤمن بما سبق حسب عبارة الطهطاوي "وظيفة الوعاء الذي يصون النسل"<sup>1</sup>.

وقد حاول الطهطاوي انطلاقاً من وعيه بمزايا التغيير الاجتماعي، الذي عاين ملامحه البارزة في فرنسا أثناء إقامته بها، أن يبني تصوراً يعبر عن موقف جديد في الثقافة العربية.

يلح الطهطاوي في لحظات مواجهته للخطاب التقليدي السائد في موضوع تعليم المرأة على أهمية العلم في الحياة، إن امتلاك النساء لملكة القراءة والكتابة يؤهلهن لتحصيل الأخلاق المرتبطة بالمعرفة، والمطلوبة في مجال التربية وإعداد الناشئة، بل إن إدراكه لأهمية تعليم البنات جعله ينظر إلى الراضين باعتبارهم من حماة تقاليد الجاهلية، وقد عمل بالحجج التاريخية على نقد تصوراتهم، كاشفاً أهمية التعليم في إضفاء مزايا الجمال المعنوية التي تمنح المرأة ذكاء يرفع من مكانتها داخل المجتمع. يقول الطهطاوي: "إن نفع تعليم البنات أكثر من ضرره، بل لا ضرر فيه أصلاً، ودخول البنات والعلمان للمدارس واجب قانوناً في جرمانيا، بل إن أوروبا كلها تعلم البنات والبنين على قدم المساواة، وهذا هو السر في أن بلادهم الآن هي أقوى البلدان، وفي هذه المناسبة أشير إلى أن بعض الآباء كانوا في ذلك الوقت يرفضون تعليم أبناءهم الذكور فكيف بالبنات ن حتى إن بعضهم كان يشوه الطفل لئلا يضطر إلى تعليمه مثلما كانوا يفعلون للتخلص من الخدمة العسكرية الإلزامية"<sup>2</sup>.

بعد صيحة الطهطاوي هذه، جاءت دعوة أحمد فارس الشدياق لتحرير المرأة، حيث ألف كتاباً في هذا الموضوع هو "الساق على الساق" الذي صدر لأول مرة سنة 1855م.

فلقد أثار انتباهه في أوروبا مشاركة المرأة إلى جانب الرجل، كما أن صفة التمدن بأوروبا صفة "مشتركة بين الرجال والنساء، فلماذا كانت نساؤهم مشاركات لهم في الأعمال والمساعي، فهن يبعن ويشترين ويتعاطين الفنون والصنائع ويكدحن في أمور المعاش، وذلك أغراهن بطلب السياسة أيضاً، فإنهن طلبن مشاركة الرجال

1- الطهطاوي : المرشد الأمين ....، مصدر سابق، ص . 324 .

2- نفس المصدر، ص . 328 .

في مجلس الشورى ... لذا تعين علينا أن نقول أن التمدن عندنا لا يمكن أن يكون صفة مشتركة، إذ هو مقصور على الرجال فقط، فإن نساءنا لا يحسن عمل شيء، وما أظن بعولتهن يحولون عن هذه العادة لكونها مبنية في زعمهم على شرف العرض ، وعلى هذا نقول إننا لا نحصل من التمدن إلا عل شطره فقط"<sup>1</sup>. كما دعا إلى تعليم المرأة قائلاً: " فأما تعليم نساء بلادنا القراءة والكتابة فعندي أنه محمّدة، بشرط استعماله على شروطه. وهو مطالعة الكتب التي تهذب الأخلاق وتحسن الإملاء"<sup>2</sup>.

أما علي مبارك باشا، صاحب رحلة "علم الدين"، فقد كانت دعوته لتعليم المرأة ورأيه فيها إمتدادا واضحا لتأثره بالمكانة اللائقة التي تحتلها المرأة في أوروبا ، فهو يدعو لتعليم المرأة، دون أن يفرض عليها الحجاب الصارم الذي كان يعرفه عصره، بل يدعو إلى الاختلاط المهذب بينها وبين الرجل، وعلي مبارك يلقي هذه الدعوة على لسان الانجليزي، ثم يتركها للتأمل والتدبر والاقتناع، لأن الأوضاع التي وجد فيها علي مبارك نفسه وقواعد المجتمع الصارمة وسطوة العلماء الراضين للتحديث والتغيير، لا تبيح له أن يتجاوز هذا الحد من العرض والتعريف، ولكننا نحس وهو ينطق السائح الإنجليزي بهذه الدعوة، أنه يؤمن بها ويتمنى أن يشاركه فيها أبناء وطنه هذا الإيمان.

ساق علي مبارك رأيه في تعليم المرأة عندما قال : "إن من حقها أن تتبحر في العلم إلى غايته" ثم أضاف: "إن الحياة الزوجية شركة يتعاونان فيها على العيش بالعمل والكسب"<sup>3</sup>. فقرر بهذا حق المرأة في التعليم، ثم في العمل الذي تقدر عليه، ولكنه قدم عليه عملها الأصيل ووظيفتها الأساسية، وهي رعايتها أسرتها وتربية أولادها وتنشئتهم، ثم جعل لها الأمر الأعلى في توجيه زوجها وإرشاده. ففي محاوره طويلة تستوعب المسامرة الخامسة، نراها تخوض معه في مناقشة دقيقة عن العمل والسعي لكسب الرزق يغلب فيها رأيها في أن السعي والغنى، ليسا قاصرين على أهل الجهل، وإن الفقر والقلّة والحاجة ليسا وفقا على أهل العلم والفضل، وإنما السعة والقلّة هما على قدر العمل والسعي لكسب الرزق، وبعد أن تحثه على السعي والعمل ابتغاء الرزق والكسب تقول له: "فإن اجتهدت في ذلك وسعيت ولم تصل ، فاعلم أن الذي تعلمته غير ما كان يلزم أن تتعلمه، أو أن هذا البلد غير البلد الذي ينبغي لك أن تقيم فيه ، فإما أن تغير الفن، أو تغير البلد، وغير ذلك لا أقول"<sup>4</sup>.

1- الشدياق : كنز الرغائب، مصدر سابق، ج، 1 ، ص . 116 .

2- نفس المصدر، ج، 1 ، ص . 117 .

3- مبارك : المصدر السابق، المجلد الثاني، ص . 806 .

4- نفس المصدر، ص . 812 .

وترجمة لوعيه برقي المرأة الأوروبية وسمو مكانتها الاجتماعية مقارنة بنظيرتها العربية ، أولى علي مبارك أثناء توليه لمسئولية نظارة المعارف بتعليم الفتاة المصرية، بعد أن كان تعليمهن قاصرا على الأولاد منذ عهد محمد علي، وبعد أن كان الانعطاف نحو هذا الميدان وفقا على بعض المدارس الأهلية، أجنبية وقبطية فقط. ففي 6 مايو 1869م، صدر أمر الخديوي إسماعيل إلى علي مبارك يقول: "قد اقتضت إرادتنا أنه بمعرفتكم يجري إنشاء محل بجينة تعليم البنات في أرض الميري المتخلفة من بعد التنظيم في شارع باب اللوق ، فيلزم المبادرة بإجراء مقتضى ذلك ، كما هو مطلوبنا"<sup>1</sup>.

وهكذا وامتدادا لدعوة النخبة المشرقية بتعليم البنات ، أنشئت أول مدرسة لتعليم البنات، وهي مدرسة السيوفية، سنة 1873م، تحت إشراف الزوجة الثالثة لإسماعيل السيدة جشم آفت هانم، وعلى نفقتها الخاصة. وكان بها حين افتتاحها نحو مائتي تلميذة، وبلغ عددهن سنة 1874م أربعمائة تلميذة، يتعلمن مجانا، فضلا عن الإنفاق على مأكلهن وملبسهن، ويتعلمن القراءة، والكتابة، وحفظ القرآن الكريم، والحساب والجغرافيا، والتاريخ، والتطريز والنسيج، وغير ذلك من الصناعات، وتولى نظارتها حسن أفندي صالح<sup>2</sup>.

كما شغلت قضية المرأة جزءاً من كتابات محمد عبده، وحاول بهذه الكتابات أن يسد الفجوة القائمة بين واقع المدينة الحديثة التي أعطت المرأة كثيراً من الحقوق، كما عاين ذلك في رحلاته الأوروبية، وبين الواقع الذي تعيشه المرأة المسلمة في عصره. كما أقر عبده بحاجة المجتمع إلى التغيير، وربط هذا التغيير بفهم مبادئ الإسلام فهماً صحيحاً، وأثبت أن الإسلام يقبل التغيير والتطور، بل يعد التطور من مستلزمات الحياة الضرورية، وأن الدين الإسلامي دين عالمي صالح لجميع الشعوب، وكل الأزمان، "وليس في ديننا شيء ينافي المدنية المتفق على نفعها عند الأمم المرتقية إلا في بعض المسائل"<sup>3</sup>.

ومن أجل تأكيد هذا المعنى اشترك في مناقشات حول حقيقة الإسلام، وكان مفتاح دفاعه عن الإسلام فهمه الخاص للدين، القائم على التمييز بين ما هو جوهرى وغير متغير فيه، وبين ما هو غير جوهرى ويمكن

---

1- نفس المصدر، ص . 820

2- عزت، عبد الكريم : تاريخ التعليم في مصر، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، الطبعة الأولى، 2011، ج ، 2، ص. 168 .

3- عبده : المصدر السابق، الجزء الثالث، ص . 613 .

تغييره، ويقع على عاتق العلماء هذا التطوير، ومن هنا اضطلع محمد عبده بهذه المهمة، أي أن يوائم بين المدينة الحديثة ووضع المرأة المسلمة في مصر.

ومن هنا سعى محمد عبده إلى تصحيح وضع المرأة، بطرح آراء متقدمة، وشملت نطاق الآراء التي أبداه، والقرارات التي اتخذها والأحكام والفتاوى التي انتهى إليها حل كثير من مشكلات المرأة، بل تطوير وضعها، ومن أمثال هذه القضايا: هل تعدد الزوجات محمود خلقياً أو مذموم؟ هل يترك حق الطلاق حقاً مطلقاً للرجل أم يقيد؟ هل التعليم أمر ضروري للمرأة أم الأفضل والأعف والأكرم أن تبقى بلا تعليم؟ وهي مسائل وقضايا أجاب عنها محمد عبده في حديثه عن حقوق المرأة في الإسلام.

ففي سياق الدعوة إلى إصلاح منزلة المرأة حتى يصلح المجتمع، يتعرض محمد عبده لحق المرأة في التعليم؛ لأن الإسلام يدعو إلى التفكير في أمور الدنيا والآخرة معاً، ليصحح أن المسلمين أمة وسط، تهتم بالدنيا والدين قائلاً: "كيف تسعد في الدنيا أو الآخرة أمة نصفها كالبهائم لا يؤدي ما يجب عليه لربه ولا لنفسه ولا لأهله ولا للناس، والنصف الآخر قريب من ذلك"<sup>1</sup>.

ووجه الإمام اهتمامه الفكري والعملية لهذا الهدف، فكتب عن تعليم المرأة، وضمنها في تفسيراته، وساهم في إنشاء الجمعية الخيرية الإسلامية التي كان من مهماتها إنشاء المدارس، وأنشئت أول مدرسة تابعة لها سنة 1878م، بل وتمنى أن تنهض بعض السيدات المتعلّمات بمهمة الدعوة إلى تعليم المرأة، ونصح الأميرة نازلي فاضل بأن تقوم بهذا الدور بدلاً من الاشتغال بالأمور السياسية<sup>2</sup>.

وإذا كان الأوروبيون انتقدوا وعابوا على الإسلام أنه حط من قيمة المرأة بإباحته لتعدد الزوجات، فوجب على الإمام أن يصحح هذا التصور، وأن يبين موقف الشرع الصحيح تجاه هذا الأمر، فكتب مقالة بعنوان "حكم الشريعة في تعدد الزوجات"<sup>3</sup>، تكلم فيها عن أصله وشروطه ومضاره، وقد صدرت في جريدة الوقائع، بالإضافة إلى تفسيره بعض الآيات التي تناولت أحكام التعدد وشروطه.

---

1- نفس المصدر، ص. 614.

2- عمارة: الإسلام والمرأة في رأي الإمام محمد عبده، كتاب الهلا، ع، 374، مصر، الطبعة الأولى، 1979، ص. 60.

3- عبده: المصدر السابق، الجزء الثاني، صص. 67-82.

## 5- تشجيع الترجمة لتعزيز التواصل الحضاري :

لقد آمن المشروع الإصلاحي بتمتية الاطلاع على "الآخر" المتقدم، الذي امتلك سبقا حضاريا وتكنولوجيا لم يتح لغيره من الأمم والشعوب المغايرة ، وخاصة الشعوب الإسلامية. ولأن المشروع التحديثي الذي صاغه الرحالة المشاركة يهتم بالعلوم الحديثة، ويعتبرها أداة فاعلة لها دورها الحيوي في عملية التقدم والنهوض، ولأنه مشروع يؤمن بالتواصل الحضاري دون الانقطاع، وبالتعاون دون التخاصم، وبالانفتاح دون الانغلاق، كان لابد من الترجمة للاطلاع على ما عند الغرب المتقدم من علوم وتكنولوجيا.

لقد رأى الطهطاوي أن البلاد في حاجة إلى نخبة من العلماء الأكفاء في الآداب العربية وفي آداب اللغات الأجنبية ليضطلعوا بمهمة تعريب الكتب الأجنبية، وخاصة الفرنسية، وليكونوا جسرا للتواصل الثقافي بين العالم العربي الإسلامي والعالم الغربي المسيحي، فاقترح على محمد علي باشا إنشاء مدرسة الألسن، وكان من مزايا محمد علي كما يقول الرفاعي أنه : "يحسن تقدير الاقتراحات والآراء السديدة التي تعود على البلاد بالخير والتقدم، فبادر إلى إنفاذ الإقتراح وأنشأ مدرسة الألسن بالقاهرة سنة 1836م<sup>1</sup>، وكانت تعرف حين إنشائها بمدرسة الترجمة، ثم عرفت بعد ذلك بمدرسة الألسن، وعهد بنظارتها إلى الشيخ رفاعة الطهطاوي .

وكانت أولى دفعاتها من الخريجين سنة (1839م-1256هـ)، وكان لهؤلاء الخريجين دورهم البارز في عملية تعريف المجتمع بالعلوم والآداب والفنون الأجنبية، وقرر رفاعة أنه إذا أراد أحد من خريجي هذه المسألة أن يترقى وظيفيا فعليه أن يقوم بترجمة أحد المؤلفات الأجنبية، شريطة أن يكون هذا المؤلف من اختيار الطهطاوي ذاته. وهذا ما يعكس الحرص الشديد على انتقاء ما يترجم للأمة، لأن الكتاب المترجم عندما يطرح مطبوعا على عقل الأمة فإنه سيساهم في تشكيل هذا العقل، من هنا تأتي أهمية اختياره، ولا يجب أن يترك أمر الترجمة على عواهنه حتى لا يقوم البعض بترجمة ما يضر ولا ينفع.. ويذكر أن مدرسة "الألسن" كانت تهتم بالدرجة الأولى بتدريس اللغات الحية آنذاك مثل التركية والإيطالية والانجليزية والفرنسية ، بالإضافة إلى اللغة العربية والجغرافيا والتاريخ.

وإذا كان الطهطاوي قد اهتم بالترجمة فوضعها في موضع هام من الناحية النظرية في المشروع، واهتم بما على مدى بعيد في المرحلة التطبيقية، حتى تم التحقق الواقعي للنظر في هذا السياق، فإن هذا الأمر يعد وكما سبقت الإشارة إليه، من إيجابيات محمد علي باشا الذي شجع هذا العمل وأولاه عناية كبيرة، لأنه أدرك ووعى أهمية

---

1- الرفاعي : عصر محمد علي، مرجع سابق، ص 440.

الاطلاع على أسباب نهوض "الأخر"، وطريقة تفكيره، والمسائل التي تشغل هذا الذهن المتقدم علميا وتكنولوجيا. وهذه كلها أمور تعد من إيجابيات عملية الترجمة أينما كانت وحيثما كانت.

توقفت حركة الترجمة في عهد عباس وسعيد، وفي عهد اسماعيل نشطت الترجمة بشكل ملحوظ، والتي كانت منصبة على الاهتمام بترجمة الكتب العلمية، ومع تولي علي مبارك لنظارة المعارف، نشطت ترجمة الكتب الأدبية والسياسية، ومن أهم هذه الكتب التي ترجمت في هذه الفترة «كتاب التحفة الأدبية في تاريخ تمدن الممالك الأوروبية»<sup>1</sup> للسياسي الفرنسي فرنسوا جيزو، وقد لعب هذا الكتاب دورا هاما في حركة التوعية السياسية والاجتماعية، وقد أعجب الإمام محمد عبده بهذا الكتاب، وكان يقوم بقراءته على تلاميذه في الأزهر<sup>2</sup>.

كما اهتم فارس الشدياق بالترجمة، وبرع في هذا الميدان، بل كان طليعا فيه، إضافة لترجمته للكتب المدرسية في مالطا، قام بترجمة كتاب «شرح طبائع الحيوان»<sup>3</sup>، كما قام بترجمة الكتاب المقدس.

كما حرص الشدياق على ترجمة أسماء المخترعات والمصطلحات العلمية الحديثة، إذ أن بعض الألفاظ التي استحدثها الشدياق في العربية ولدت على قلمه بالتدرج في كتابه «كشف المخبا عن فنون أوروبا»، ولكن أكثرها وأقواها على البقاء كانت تلك التي وضعها أيام صدور جريدة «الجوائب»، وترجم أيضا المقالات السياسية والعلمية والاجتماعية التي كان ينقلها إلى العربية وهي محفوظة بين دفتي المجلة، وقد كانت الجوائب تترجم عن معظم الجرائد الأجنبية ومن أمثلتها المقالات التي نشرتها عن قوة البخار واختراع الباخرة، وإبرة المغناطيس والغاز<sup>4</sup>. لقد أتيح للفكر العربي الحديث منذ أوائل القرن الماضي أن يتعرف إلى الحضارة الأوروبية وأن يطلّ بواسطتها على آفاق جديدة في الحياة، وذلك عن طريق الترجمة، أي نقل منتجات الفكر الغربي إلى اللغة العربية، وقد ساهمت الترجمة بملاء الفراغ الناجم عن الجذب العقلي والفكري الذي خلفه ما سمي في كثير من الأدبيات العربية بـ"عصر الانحطاط".

## 6- إصلاح المناهج اللغوية :

- 1- فرنسوا، جيزو : كتاب التحفة الأدبية في تاريخ تمدن الممالك الأوروبية، دار الحمراء، بيروت، 1990م .
- 2- عزت : المصدر السابق، ج ، 2 ، ص . 183-182.
- 3- الشدياق : شرح طبائع الحيوان ، مطبعة مالطة، الطبعة الأولى، 1841م .
- 4- صلح، عماد : أحمد فارس الشدياق وآثاره وعصره، شركة المطبوعات للنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى، 1987م، ص 15 .



حظيت لغتنا العربية في مسارها التاريخي الطويل باهتمام الدارسين ابتداء بأئمة النحو واللغة، من أمثال سيبويه والزمخشري وعبد القاهر الجرجاني، وغيرهم ممن بذلوا جهدا كبيرا في دراستها والتفكير لها في مختلف مستوياتها الصوتية والتركيبية والصرفية والدلالية، فكانت النتيجة إرثا لغويا زاخرا، يمكن اعتباره شاهدا حيا على الجذور التي استلهم الغرب منها نهضته اللغوية الحديثة .

وإنه لمن الطبيعي أن يكون تطور اللغات مقترنا إلى حد بعيد بتطور المجتمعات، ومرتبطا بنهضة الشعوب، ومن ثم كان من الطبيعي أن يتذبذب وضع اللغات في مسيرتها التاريخية بين تطور وتدهور، والعربية لغة طبيعية حالها كحال مختلف اللغات، شهدت في عصورها الأولى تطورا كبيرا اقترن بتطور فكري وحضاري كبير للأمة العربية الإسلامية، كما شهدت في عصورها اللاحقة ركودا وجمودا، ارتبط هو الآخر بتدهور كبير في الحالة الحضارة والفكرية دام قرابة الثمانية قرون.

فلقد كان من نتائج الجمود الفكري الذي عانته البلاد العربية قرونا، أن جهل أبنائها قواعد لغتهم ومفرداتها، وعندما ازداد اتصالهم بأوروبا، لا سيما عبر قناة الرحلة، رأوا أن اللغات الأجنبية خلت من ازدواجية العامية والفصحى كما هو الحال في البلدان العربية. فقامت فئة من العرب والمستغربين المنبهرين بأوروبا، تطالب بالاستغناء عن اللغة العربية الفصحى على أن تتخذ العامية بديلا<sup>1</sup>. فكان طبيعيا أن تثور نائرة علمائنا المشاركة، إذ

---

1- تقترن بدايات الدعوة إلى اعتماد العامية في التعليم وفي الكتابة بالفترة التي سبقت استيلاء القوى الاستعمارية على البلاد العربية والإسلامية، وقد كان الاهتمام بالعامية وجمع نصوصها وبالتنظير لها خطوة تمهيدية وإسهاما معرفيا ودعما ثقافيا قدمته النخب المثقفة للمشرع التجريبي الاستعماري، وقد كانت تلك النخب بحكم موقعها على وعي كامل بأهمية اللغة وقدرتها على الحفاظ على هوية الأمة من خلال ما تحمله الكلمة من بصمات حضارية وثقافية تصوغ الوعي وتحمي الخصوصية.

وقد أنجزت دراسات عديدة عن منشأ الدعوة إلى العامية في الشرق العربي، وكان من أهمها أطروحة قيمة تقدمت بها د. نفوسة زكرياء سعيد إلى جامعة الإسكندرية سنة 1964م وعنوانها "تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر"، نشرتها دار النشر للثقافة بالإسكندرية، الطبعة الأولى، 1964م، وقد كان لهذا العمل من الاستيعاب والتقصي على المستوى الذي جعله متفردا في حينه، فأثنى عليه محمود محمد شاكر وقال عنه: "لا أظن أنني قرأت منذ سنوات طوال كتابا يتناول المسائل العامة في حياتنا الحديثة بذل فيه صاحبه من الوقت والجهد والأناة ما بذلت نفوسة زكرياء في كتابها هذا". أباطيل وأسمار محمود شاكر، مكتبة الخانجي، الطبعة الثالثة، 2005، ص، 154. وبعد تتبع طويل واستعراض لجهود كثير ممن حملوا الدعوة إلى العامية، وفحص ما كان لهم من ارتباط وثيق بالدوائر الاستعمارية وبالمؤسسات التنصيرية، انتهت نفوسة زكرياء إلى استخلاص = أن غاية هؤلاء قد كانت هي الرغبة في إحداث القطيعة بين أفراد الأمة وكتابها الذي ظلت تستمد منه قيمها ومبادئها ورؤيتها للحياة وللوجود.

وعوا بأن الفصحى هي الصلة بين حاضر العرب وماضيهم، وأنها البرهان على بقائهم أحياء عبر القرون، فضلا عن أنها من الروابط التي تجمع الشعوب العربية كلها لتقف صفا واحدا في وجه أوروبا، وفي هذا الصدد يقول محمد كرد علي صاحب رحلة «غرائب الغرب»: «نتناغى بالوطنية وندب حظ العربية ونحن أبنائها الذين نعقها ولا نتعلمها... أنا إن كنت عربيا وأحب العرب وأريد نھوضهم ليتيسر لي كل ما أريد، إذا لم أخاطبهم واخطبهم بلغتهم التي يفهمونها، أنا إن كنت أريد الإطلاع على مجد آبائي وأجدادي أتمكن من ذلك بدون دراسة ما خلفوه من آثارهم، وهل يتيسر ذلك إلا باللغة التي كتبوا بها، أقول هذا وأنا آسف كل الأسف على قصور العرب عن تعلم لغتهم قصورا لا أبالي إذا قلت أن فيه العار والشنار»<sup>1</sup>

لقد وعى المشاركة أن اللغة هي أداة الفكر، ووعاء تصب فيه الآداب والعلوم، لذا كان بديهيا أن ينطلق العمل الإصلاحي للنخبة المشرقية من اللغة نفسها، يقول الطهطاوي في هذا المعنى: «إعلم أن اللغة، لما كانت ضرورية في إفهام السامع معنى سكوت المتكلم عليه، وكانت لازمة في التفهيم والتفهم وفي المخاطبات والمحاورات، وجب عند جميع الأمم أن يتندى بها ويجعلها وسيلة لما عداها»<sup>2</sup>.

أحس الرحالة المشاركة بتراجع وتأخر اللغة العربية في مضمار العلم والفن، وإلا لما استخدموا اللفظة الأجنبية في وصف مظاهر العلم والفن والصناعات في أوروبا. شارحين حسن معناها ليفهمها قراؤها، كما فعل الطهطاوي بألفاظ «الرسطوران» و«الباجي» و«التياترو»... والشدياق «الكوميدي» «التراجيدي» مثلا. ورغم إقرار الرحالة بالنقص في مصطلحات اللغة، إلا أنهم لم يوافقوا على أخذ المصطلحات الأجنبية وتبنيها، وطالبوا باشتقاق ألفاظ جديدة، أو نحتها من ألفاظ أخرى عربية ما أمكن ذلك.

وإزاء هذا النقص في اللغة، اتخذ رحالونا موقفا ينم عن مدى تحرهم من قيود القديم، فقد انتقدوا الأساليب التقليدية التي تكبل الفكر والقلب والخيال، وبينوا أن التمسك بها يقضي على وطننا ومعارفنا بالانحطاط والانحلال، فطالب الرحالة بلغة مألوفة واضحة طبيعية حية، تواكب العصر وتلبي حاجاته الفكرية والحضارية، وقادهم ذلك إلى المطالبة بإغناء اللغة وتطويرها عن طريق الاشتقاق أو النحت أو إحياء مفردات قديمة.

---

1- كرد، علي: غرائب الغرب، مصدر سابق، ص. 160.

2- الطهطاوي: تلخيص الإبريز...، مصدر سابق، ص. 246.

بدل الطهطاوي جهدا كبيرا في مجال تيسير النحو العربي، حيث ألف رسالة عنونها ب«التحففة المكتبية لتقريب اللغة العربية»<sup>1</sup>، وهي رسالة تعليمية ألفها الطهطاوي، بناء على رغبة علي مبارك باشا الذي ولى نظارة المدارس، وبادر بتقويم وتكميل وسائل التعليم، وتأليف رسائل في العلوم والفنون... وقد كان حظ رفاة من هذه الرسائل التعليمية التحففة المكتبية، والتي حاول من خلالها أن يخرج النحو العربي في صورة سهلة المأخذ، تفي بالمرام لجزالة اللفظ وحسن الانسجام، وتقرب البعيد للمريد المستفيد.

غير أن هناك سببا آخر في ظني هو الذي دفع الطهطاوي إلى تصنيف هذه الرسالة إضافة إلى تكليف السيد علي باشا مبارك، وهذا السبب يتجلى في قناعة رفاة بأن لغة دورها البارز في عملية التطوير وصناعة الحضارة، وهو في هذا متأثر إلى حد كبير بالحضارة الفرنسية، فالطهطاوي شأنه شأن جل المبتعثين إلى الخارج، قد أسرته طبيعة العقلية الغربية والفرنسية خاصة. فحين يتحدث عن النهضة العلمية والفنية في المجتمع الفرنسي؛ يرجع تلك النهضة إلى طبيعة اللغة الفرنسية، وما فيها من سهولة المأخذ، فهو يرى أن سهولة لغتهم وسائر ما يكملها هي التي تعين الفرنسيين على التقدم في العلوم والفنون؛ ويعلل ذلك بأن اللغة الفرنسية "لا تحتاج إلى معالجة كثيرة في تعلمها، فأني إنسان له قابلية وملكة صحيحة يمكنه بعد تعلمها أن يطالع أي كتاب كان، حيث أنه لا التباس فيها أصلا فهي غير متشابهة، إذا أراد المعلم أن يدرس كتابا لا يجب عليه أن يحل ألفاظه أبدا فإن الألفاظ مبينة بنفسها"<sup>2</sup>. يشير هذا النص إلى مدى اهتمام رفاة باللغة بشكل عام، وإعجابه بالفرنسية بشكل خاص، ومكمن الإعجاب هو سهولة تلك اللغة التي لا يفتقر قارئها إلى شروح أو حواش يحدد من خلالها احتمالية الألفاظ والكلمات والعبارات، لأن الألفاظ عندهم محددة المعاني قليلة الاحتمالات.

فهذه النظرة إلى قيمة اللغة وسهولتها وأثر ذلك في تسهيل التقدم العلمي والفني، هو الذي دفع بالشيخ الطهطاوي إلى محاولة تخليص النحو العربي من تعقيداته، ورفع ما فيه من شوائب علقمت بمتونه خلال أجيال متعاقبة ما بين ترديد وتأصيل واحتجاج واختلاف وشرح وتهميش وتقرير إلى غير ذلك.

وقد اعتمد الطهطاوي في تأليف رسالته على مجموعة من الدعائم الأساسية التي حاول من خلالها تقريب

القواعد النحوية، و تلك الدعائم هي:

أ- الفهم العميق للمؤلفات النحوية الأصيلة واقتباس القواعد الأصولية من خلالها.

1- الطهطاوي : التحففة المكتبية لتقريب اللغة العربية، نسخة إلكترونية محملة من موقع [www.almostafa.com](http://www.almostafa.com)

2- الطهطاوي : تلخيص الإبريز....، مصدر سابق، ص. 246 .

ب- البعد عن دائرة الخلافات النحوية الجدلية، والتخلص من الشروح والحواشي والتقارير التي تثقل كاهل العلم وتزيده صعوبة وغموضاً.

ج- إعادة التقسيم والترتيب والتبويب.

د- تبسيط طريقة العرض والاستعانة بالوسائل التعليمية المتمثلة في الجداول العلمية، والأمثلة العملية الميسرة .

ويصف الطهطاوي هذه الرسالة بأنها "سهلة المآخذ لدراسة المدارس الخصوصية والأولية، لاسيما وأنها مصوغة على أسلوب جديد، يقرب البعيد للمريد المستفيد... فهي جديرة بأن تعد من المحاسن التجديدية التي سمح بها عهد الدولة الإسماعيلية الأسعد حفظ الله ولي النعم"<sup>1</sup>. فلقد وضع الطهطاوي نصب عينيه هدفاً أساسياً هو تقريب العربية من أذهان الدارسين، والبعد عن مواطن الصعوبة والتعقيد، وترك ما في المصنفات من الإسهاب والتطويل، ولهذا فقد اتخذ من تبسيط عرض المادة العلمية واللجوء إلى إعادة التقسيم والتبويب، والاستعانة بوسائل الإيضاح الميسرة كالجداول والأمثلة المبسطة وسيلة لتحقيق هذا الهدف .

فالحرص على التقدم العلمي والرقى المدني هو الذي وجه الطهطاوي تلك الواجهة النحوية التي تبغي تسهيل اللغة وتحويلها إلى لغة علمية أكثر منها لغة أدبية، لتتواءم مع عملية النهوض العلمي الذي هو الهدف الأسمى من وراء البعثات العلمية، وقد تبلور ذلك في رسالة «التحفة المكتبية لتقريب اللغة العربية» والتي يظهر خلالها مدى تأثيره بالفكر اللغوي العام عند الفرنسيين ولاسيما المستشرق البارون سلفستر دي ساسي<sup>2</sup> الذي كان صديقاً شخصياً للطهطاوي كما ذكر في نص رحلته، وقد أشار الطهطاوي إلى مكانة دي ساسي العلمية في أكثر من موضع في كتابه تخلص الإبريز ، فيذكر عنه أنه شاع فضله في اللغة العربية ، حتى أنه لخص شرحاً للمقامات الحيرية وسماه مختار الشروح، وقد تعلم العربية بقوة فهمه ودكاء عقله وغيرة علم، ثم يذكر الطهطاوي أن من جملة مؤلفاته الدالة على فضله كتاب في النحو سماه: «التحفة السنوية في علم العربية» . ولعل تشابه العنوانين يدل بجلاء على قوة تأثير الطهطاوي بهذا المستشرق .

---

1- الطهطاوي : التحفة المكتبية ....، مصدر سابق، ص . 8 .

2 - ارتبط اسم دي ساسي بالمدرسة الخاصة للغات الشرقية الحية بباريس، وقد أسست هذه المدرسة بناء على قرار من الجمعية الوطنية الفرنسية في 20 مارس 1795 م بهدف تدريس اللغات الشرقية المختلفة ومنها العربية الفصحى والعامية، إلى جانب تنظيم دراسات حول الأحوال السياسية والاقتصادية لإفريقيا وآسيا وحول علاقة فرنسا بهذه المناطق، وقد عين دي ساسي أستاذاً للغة العربية، ونشر عدة دراسات وكتب أهلته لأن يكون أستاذاً للغة العربية بمدرسة اللغات الشرقية الحية بباريس، وبفضل دي ساسي، أصبحت هذه المدرسة مركز الدراسات العربية في أوروبا كلها .

كما دعا فارس الشدياق، الذي يعد من أبرز لغويي عصر النهضة ومن أكثر رجالها تاليفاً وإصداراً، إلى تطوير المعاجم العربية وتحسين محتواها من خلال نقده للقاموس التقليدي «القاموس المحيط» للفيروزآبادي (1415 - 1329)، إذ اتهمه بالتخلف عن السير على نهج التطور الحضاري نظراً لما حوى من مادة لغوية قديمة. وقد هاجمه الشدياق في كتابه الشهير «الجاموس على القاموس»<sup>1</sup>، ليوضح قصور المعاجم العربية وطرق تأليفها القديمة قائلاً: "أحببت أن أبين في هذا الكتاب من الأسباب ما يخص أهل العربية في عصرنا هذا على تأليف كتاب في اللغة يكون سهل الترتيب واضح التعاريف شاملاً للألفاظ التي استعملها الأدباء والكتاب، وكل من اشتهر بالتأليف"<sup>2</sup>، وقد تتبع فيه عثرات القاموس المحيط للفيروز آبادي، حيث بلغت نقوده على القاموس أربعاً وعشرين نقداً، منها إهمام التعاريف وقصور العبارات، والحشو، وتأنيث المذكر، وتذكير المؤنث وغيرها. وأصبح كتابه هذا مهد الدراسات المعجمية لمن جاءوا من بعده

كما ساهم كثيراً في مجال تعليم اللغة العربية كرائد لتيسير النحو التعليمي للطلاب بكتابه «غنية الطالب ومنية الراغب»<sup>3</sup> الذي يتكون من ثلاثة أقسام رئيسية، وهي النحو والصرف وحروف المعاني، وهو يتميز بسهولة وعدم الإطالة وخلوه من التعليل والشواهد المعقدة، ونقل آراء العلماء واختلافاتهم، حيث يقول المؤلف في مقدمته: "أما بعد، فإني رأيت كثيراً من ذوي الفهم والفتنة يجمعون عن تعلم العربية مع حرصهم عليها، وتوقفهم إليها، وذلك لتشعب قرائنها، وتبدد قرائنها، وقد طالما خلع ضميري، وشغل تفكيري، أن يتصدى أحد لتسهيل مصاعبها... فحررت هذه الرسالة على وفق المرام، وما المقصود بها إلا تسهيل العبارة... فإذا فرضت أن الطالب يتعلم منها في كل يوم درساً واحداً مع التفهم لقواعده، والترسم لفوائده لم يمض عليه ثلاثة أشهر من الزمن، إلا وقد أدرك جل ما يطلبه من هذا الفن"<sup>4</sup>. إن الهدف الأساسي لهذا المؤلف كما صرح المؤلف، تقريب قواعد اللغة العربية من المتعلمين، حتى إذا ما ألبوا واستوعبوا "هذه القواعد الكلية، وأرادوا الخوض في القضايا الجزئية، فعليهم حينها بالرجوع إلى الكتب المطولة والشروح المفصلة"<sup>5</sup>.

---

1- الشدياق : الجاموس على القاموس، مطبعة الجوائب، قسنطينة، الطبعة الأولى، سنة 1299 م .

2- المصدر نفسه، ص . 5

3- الشدياق : غنية الطالب ومنية الراغب، مطبعة الجوائب، الطبعة الأولى، 1288 هـ.

4- نفس المصدر، صص . 2 - 3 .

5- نفس المصدر، ص . 5 .

كما قدم فارس الشدياق العديد من المفردات المستحدثة عن طريق تعريب وترجمة كلمات إلى العربية أو إحياء مفردات سالفة في ترجماته وكتابه التي أضافت إضافة كبيرة إلى الدراسات العربية اللغوية. وحتى في عصرنا الحاضر نجد الكلمات الشدياقية<sup>1</sup> تضع بصمتها في الكتابات العربية الحديثة ولغة وسائل الإعلام وغيرها. وقد اتبع الأساليب التالية في وضعه لألفاظ الحضارة والمصطلحات :

أ – **الاشتقاق** : ويعتبره الشدياق من أهم الوسائل لصياغة اسم المكان أو اسم الآلة ، فيقول : " على أن أكثر هذه الأسماء هو من قبيل اسم المكان أو اسم الآلة. وصوغ اسم المكان والآلة في العربية مطرد من كل فعل ثلاثي . فما الحاجة إلى أن نقول فبريقة أو كارخانة، ولا نقول معمل أو مصنع، أو نقول بيمارستان ولا نقول مستشفى، أو أسطراب ، ولا نقول منظر"<sup>2</sup>.

ب- **النحت**: كان الشدياق من أشد المعجبين بالنحت وأول من شجع الكتاب والمثقفين على استخدامه، فقد أطلق على نفسه لقب " الفارياق" اختصارا لاسمه من فارس والشدياق، في دعوة منه لتنمية اللغة العربية كي تواكب التحولات الفكرية والحضارية الحديثة .

ج – **المجاز**: أي إحياء بعض الكلمات القديمة وإعادة استخدامها بدلالات أخرى، مثل السيارة للأتومبيلي، والهاتف للتليفون ، والبرق للتلغراف ... فقد استعان بهذا الأسلوب لتوليد كلمات حديثة، مثل كلمة القاعدة للعاصمة، والحافة للرصيف، والحافلة للعربة الكبيرة، وغيرها من الكلمات التي وردت في كتابيه المذكورين في أدب الرحلة.

استمرت دعوات الإصلاح اللغوي طيلة القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين تأسيسا بالنموذج الأوروبي، حيث رأى محمد عبده صاحب رحلة إلى صقلية، أن : "اللغة في حاجة إلى إصلاح فوق إصلاح التعليم لفنونها وآدابها. واتقان الكتابة والخطابة فيها ، وهو ما فعله الفرنسيين وغيرهم من شعوب العالم في أوروبا، من تأليف المجامع لوضع المعاجم اللغوية وتاريخ تطور اللغة وما دخل فيها من اصطلاح ومعرب وغيره، والمعاجم العلمية وفلسفة البيان والانتقاد وغير ذلك .. إن هذا النوع من الإصلاح لا يرجى لنا بلوغ شأو الفرنسيين فيه إلا

---

1- نسبة إلى الشدياق .

2-زبادي، يوسف ابراهيم : الأجناس الأدبية في كتاب "الساق على الساق في ما هو الفارياق" لأحمد فارس الشدياق، مكتبة الإسكندرية، تاريخ التحميل، 16- 02 - 2013 .

باشتغال جدي مدة خمسين سنة ... إن فن التأليف والتصنيف قد بلغ الغاية من الارتقاء عندهم، وإنما في أشد الحاجة إلى حذوهم فيه"<sup>1</sup>.

## المطلب الثاني : امتدادات وعي المشاركة بالتجاوز الثقافي والفني الأوروبي .

إن الفنون الجميلة، وهي الفنون التي تستثير في النفس إحساس الجمال، وتنمي فيها ملكته، ولا مرأى في أنها من عوامل النهضة، لما تتجه من تهذيب النفوس، ونشاط العقول، وترقية العواطف، وتوسيع المدارك، وتفتح الأذهان إلى دقة الملاحظة، وصواب النظر. والكلام عن الفنون الجميلة يتناول الرسم والتمثيل والتصوير والنقش والزخرفة .

### 1 - الرحلة إلى أوروبا وبدايات المسرح في المشرق العربي:

ساعد إسماعيل النخبة المصرية المتأثرة بفن المسرح، كالطهطاوي والشدياق وعلي مبارك، الذين فصلوا القول في أنواعه ودوره، ووظائفه التربوية والتثقيفية والترفيهية، على إنشاء أول مسرح بالأزبكية، وكان الشروع في بنائه في نونبر سنة 1867م، عندما تولى علي مبارك باشا وزارة الأشغال، واحتفل بافتتاحه في 4 يناير سنة 1868م، كما بنى دار الأوبرا سنة 1869م بمناسبة الاحتفال بافتتاح قناة السويس، وثم بناؤها في خمسة أشهر، وبلغت تكاليفها 160 ألف جنيه، وأنشئ بعد ذلك في الإسكندرية مسرح (زينينا)، ومسرح آخر اسمه Alfieri بشارع انطاسي<sup>2</sup>.

ومثلت في دار الأوبرا مساء 29 نوفمبر سنة 1869م، أول مسرحية وعنوانها ريجوليتو، وكانت الإمبراطورة زوجة نابليون الثالث في مقدمة من حضر المسرحية في تلك الليلة، وعهد إسماعيل إلى الموسيقي الإيطالي الشهير فردي، أن يضع أول أوبرا مصرية تمثل بدار الأوبرا، فقام بهذه المهمة ووضع العلامة الفرنسي مارييت باشا موضوع الرواية "عايدة"، ومثلت بالقاهرة لأول مرة في 24 ديسمبر سنة 1871 م، فنالت نجاحا عظيما.

وبدأت الفرق المسرحية تتواجد بمصر منذ ذلك الحين، نذكر من أهمها فرقة «سليم النقاش»، وفرقة «يعقوب صنوع»، التي مثلت أمام الخديوي إسماعيل روايتين إحداهما بعنوان "غندور مصر"، والثانية بعنوان

1- عبده : المصدر السابق، ج، 3، ص. 189 .

2- الرفاعي : عصر اسماعيل، ج، 1، مرجع سابق، ص. 465.

«الضرتان» ولم يكن التمثيل في ذلك العهد وسيلة للكسب، إنما كان وسيلة لإشباع الهواية، وعالج التمثيل مشكلات المجتمع واتصل بموضوعات التاريخ<sup>1</sup>.

ولهذا جاز لنا القول، أن أدب الرحلات كان أول من أخبر العرب عن فنون العرض والمسرح، وساهم بشكل مباشر في ظهور المسرح في الوطن العربي، وذلك حتى لو اعتبرنا كما ذهب إلى ذلك كثير من الباحثين في تاريخ المسرح العربي أن سنة 1847م قد كانت سنة ميلاده، وذلك لما قدم مارون النقاش مسرحية البخيل في لبنان، لأن كتاب الطهطاوي «تخليص الإبريز» الذي تحدث عن المسرح في أوروبا، منشور سنة 1834م، أي قبل ذلك التاريخ بحوالي ثلاث عشرة سنة.

## 2- النخبة المشرقية و بدايات الإهتمام المشرقي بحفظ المآثر والآثار .

احتلت مسألة المآثر والآثار حيزا كبيرا، ولأول مرة، في تفكير النخبة المشرقية، حيث اهتمت بفضل احتكاكها بالغرب، ووقوفها على مدى حرص الأوروبيين على المحافظة على آثارهم ومآثرهم، بتوعية العرب ولفت انتباههم إلى أهمية الموروث الحضاري بالشرق العربي، واعتبرت الآثار أهم كنوزها، وكتاب حضارتها، ورمز شموخها، وأن العقل الذي أبدع أجداده هذا العطاء، وقدموا هذا الإبداع، قادر هو الآخر على أن يعيد بناء نفسه وإحياء روحه، من أجل الانفلات من حالة النكوص والتخلف والتجمد الحضاري الذي كانت الأمة تمر به آنذاك.

من هذا المنطلق، ومن منظور الوعي بأهمية الموروث تقدم الطهطاوي في سنة 1835م بمشروع محمد علي لحماية الآثار، ونشرت الوقائع المصرية المشروع الذي ينص على أن تسلم إلى مدير مدرسة الألسن جميع الآثار التي يجدها الأفراد، وكان أن تحول فناء مدرسة الألسن إلى نواة لأول متحف للآثار في مصر.

لم يكن اهتمام الطهطاوي بآثار البلاد ضربا من ضروب التعلق بالفن، ولا نابعا من اهتمامه كمتقف يبحث عن مصادر للبحث والتاريخ.. بل كان اهتمامه هذا موقفا وطنيا مبعثه حبه للوطن، وعدائه الأصيل لحركة النهب الاستعماري التي تستغل غفلتنا عن آثارنا وإهمالنا وقصورنا عن إدراك أهميتها ودورها في تكوين وجداننا القومي. فهو عندما رأى في باريس "المسلة" التي أهداها محمد علي إلى الفرنسيين، تعبيرا عن صداقتهم له، لم يسعه إلا أن ينتقد هذا التفريط، فكتب في تلخيص الإبريز قائلا عن آثار مصر القديمة: "...والبراي هي المشهورة عند العامة بالمسلات، ولغرابتها نقل منها الإفرنج إثنين إلى بلادهم، إحداها نقلت إلى رومة في الزمن القديم، والأخرى

---

1- الراعي، علي: المسرح في الوطن العربي، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ع، 25، 1979، ص. 68.



نقلت إلى باريس في هذا العهد، من فائض معروف ولي النعم".<sup>1</sup> ثم يرفع الطهطاوي صوته فيكتب : "أقول : حيث إن مصر أخذت الآن في أسباب التمدن والتعلم على منوال بلاد أوروبا، فهي أولى وأحق بما تركه لها سلفها من أنواع الزينة والصناعة، وسلبه عنها شيئاً بعد شيء يعد عند أرباب العقول من غير اختلاس حلي الغير للتحلي به، فهو أشبه بالغضب ، وإثبات هذا لا يحتاج إلى برهان، لما أنه واضح البيان".<sup>2</sup>

يعد الاهتمام بالآثار في جوهره إذن بعداً أدائياً لمشروع النهوض والتقدم، للحفاظ على ثروة الأمة، ولزرع الوعي الجمعي لدى الأمة بأهمية هذا الموروث، وقد تبنت النخبة المصرية هذه الدعوة في وقت كان فيه الناس غير واعين بأهمية هذا الموروث، بل كانوا يرفضونه بحجة أنه من الأوثان، جاهلين أن علة تحريم الأوثان كما بين محمد عبده مرفوعة هنا، فلا محل للعبادة .

استمر تطور اهتمام المصريين بالآثار والتحف الفنية القديمة في عهد إسماعيل ، فأنشأ متحفاً ثم افتتحه رسمياً في 18 أكتوبر 1863م وسمي بالمتحف المصري، وأصدر أمره إلى وزير الأشغال محمد علي مبارك باشا سنة بإنشاء دار الآثار العربية.

كما أبرز الإمام عبده، الذي أعجب أيما إعجاب باهتمام الصقليين بالمتاحف والآثار في نصه الرحلي، قيمة المتاحف التربوية والثقافية الكبيرة، فهي تنمي في الفرد روح الإنتماء لوطنه وبيئته، وتسهم في تبسيط الأسس والمعارف الأساسية، وتعمل على تنمية القدرات العلمية والتفكير العلمي لدى المواطنين . "فما تحويه من آثار يحفظ لنا من أحوال الأشخاص في الفنون المختلفة، ومن أحوال الجماعات المتنوعة ما يستحق أن يسمى بديوان الهيئات والأحوال البشرية".<sup>3</sup> فهي تمكن الإنسان من رؤية ما يقرأه ويسمع عنه " فإذا وجد الإنسان اسم شيء في كتاب تاريخ، أو عرض عليه اسم في علم من العلوم يتصل بالزمن السابق، أمكنه بزيارة المتحف أن يتعرف على المدلول بالعيان والمشاهدة، ونحن نسمع أسماء اللائمة والدلاص والدرع والخوذة وعمامة الحرب، ولا تستقر صورة هذه الأسماء في أذهاننا إلا بمشاهدتها".<sup>4</sup>

### 3\_ الإهتمام بالصحافة .

1- يقصد بولي النعمة محمد علي باشا .

2- الطهطاوي : تخلص الإبريز ...، مصدر سابق، ص . 18

3 - عبده : المصدر السابق، المجلد الثاني، صص. 202 - 203

4- نفسه .

كان من ثمرة اطلاع مفكرو المشرق على أدوات التنوير في الغرب، إدراكهم أن للصحافة دورها الرئيس في تنوير المجتمع وصياغة أفكاره، وأنها أسرع السبل لإقامة تواصل بين بنية المجتمع، بل بينها وبين المجتمعات الأخرى.. من هنا كان الاهتمام بإنشاء الصحف والجرائد في مصر وغيرها من بلدان المشرق العربي.

#### أ - إدخال المطبعة :

هناك ظاهرة مهمة في تاريخ مصر الحديث خاصة بالمطبعة والطباعة ، وهي ارتباط دخول المطبعة إلى مصر بالغزو الأوروبي الغربي، إذ دخلت المطبعة ذات الحروف العربية في ركاب الحملة الفرنسية على مصر عام 1798م، ولا أدل على هذا الارتباط من تسمية هذه المطبعة ب «مطبعة جيش الشرق» وهو الإسم الذي أطلق على جيش بونابارت في مصر. وظلت مصر مدة عشرين عاما بعد خروج الفرنسيين بدون مطبعة، حتى أنشأ محمد علي باشا «مطبعة بولاق» ، وبولاق هي ضاحية من أهم ضواحي القاهرة. ويربط أبو الفتوح رضوان في كتابه المهم «تاريخ مطبعة بولاق» بين إنشاء مطبعة بولاق وبين مشروع النهضة في عصر محمد علي في الربط بين إصلاحاته ومشروعه الأساسي، وهو تكوين جيش حديث ليكون بمثابة دعامة لدولته الحديثة ومشاريعه الخارجية التوسعية<sup>1</sup>. لقد كان الغرض الأساسي لمحمد علي من وراء المطبعة هو طبع القوانين واللوائح والمنشورات بهدف تنظيم الإدارة المصرية، وتزويد لجيش بما يحتاجه من كتب وقوانين، هذا فضلا عن خدمة التعليم والمدارس، التي ارتبطت أيضا بجيش محمد علي وتخريج الكفاءات الإدارية لتولي شؤون الحكم والادارة في مصر والولايات الجديدة التابعة لها<sup>2</sup>.

بعد تولي علي مبارك لنظارة المعارف، شجع على التأليف وطباعة الكتب، فتمكن بدعم من الخديوي اسماعيل من استرداد مطبعة بولاق، التي عطلها سلفه سعيد باشا، وأهداها إلى عبد الرحمان رشدي، وتوالى إنشاء المطابع بعد ذلك، نذكر منها مطبعة الديوان، ومطبعة أركان حرب، ومطبعة النيل، والمطبعة الوطنية بالإسكندرية . وصدر عن تلك المطابع كتب وصحف، ومن ثم مجالات أدت جميعها دورها في رسم هوية الوعي لدى الإنسان العربي، ولقد ساهمت المطابع في نشر العديد من المؤلفات والكتب الدينية إلى أيدي الناشئة والمتقنين العرب، فكان لها دور كبير في النهضة الفكرية العربية الحديثة .

#### ب \_ نشأة الصحافة بالمشرق العربي :

1- أبو الفتوح ، رضوان : تاريخ مطبعة بولاق ، المطبعة الأميرية، القاهرة، الطبعة الأولى، 1953 م، ص . 44

2- نفس المصدر ، ص . 45

لقد كانت الصحافة البنت الشرعية للطباعة، وما من خلاف بين المؤرخين على أن صحيفة «التنبيه» الصادرة في مصر زمن الحملة الفرنسية عام 1798، ناطقة باسمها، كانت أول صحيفة في الوطن العربي تصدر باللغة العربية، وكان محررها **إسماعيل الخشاب**. وقد عمل هذا الأخير على تحرير وإصدار صحيفة أخرى تلت صحيفة التنبيه، وهي صحيفة «سلسلة التاريخ» واستمرت هاتان الصحيفتان في الصدور من عام 1798 إلى عام 1801م، حين رحل الفرنسيون عن مصر، وهاتان الصحيفتان كانت تقومان بشرح أهداف الحملة الفرنسية على مصر كما أعلنها نابليون<sup>1</sup>.

في عهد محمد علي صدرت «الوقائع المصرية» عام 1828 باللغة التركية، أول الأمر ثم أصبحت تصدر بالعربية والتركية، واقتصرت بعد ذلك على العربية<sup>2</sup>، وكان من أوائل المحررين فيها **الشيخ رفاعة الطهطاوي** و**الشيخ حسن العطار** و**الشيخ أحمد فارس الشدياق**.... وقد استمرت في الصدور مدة ربع قرن تنشر الترجمات الشخصية وتنقل إلى اللغة العربية وقرائها الكثير من أبحاث المشاهير والمقالات والأبحاث التي يضعها الكتاب والباحثون العرب والمسلمون، هذا إضافة لنشرها الأوامر والتوجيهات الأميرية وعملها اليومي. والفضل يعود إلى الطهطاوي، وهذه الحقيقة يذكرها كاتب سيرته صالح مجدي فيقول: "إنه أول منشئ لصحيفة أخبار في الديار المصرية، فإنه تكفل بعد رجوعه من باريس بنشر صحيفة خبرية، ومكثت مدة، ثم اعترتها فترة يسيرة، ثم أعيدت، واستمرت إلى الآن"<sup>3</sup>.

كما أصدر **إبراهيم المويلحي**، صاحب رحلة "عيسى بن هشام" جريدة "نزهة الأفكار" عام 1869. وأصدر أحمد فارس الشدياق عام 1860 جريدة "الجواب" في الأستانة.

في عصر **إسماعيل شعر علي مبارك** بحاجة الأمة عامة وأبناء المدارس خاصة، إلى صحيفة علمية أدبية، فأنشأ مجلة روضة المدارس في سنة 1870، كان إذ ذاك مديراً لديوان المدارس، وكان الغرض من إنشائها النهوض باللغة العربية وإحياء آدابها ونشر المعارف الحديثة، وقد جاء في مقدمة العدد الأول من هذه المجلة أن الغرض من ظهورها هو "أن تنكشف العامة مخدرات العلوم وترفع حجبها المستورة، وتستضيء بنورها أرباب العقول

---

1- طرازي، فيليب دي: تاريخ الصحافة، المطبعة الأدبية، بيروت، الطبعة الأولى، 1913م، ج 1، ص 49.

2- نفسه.

3- مجدي، صالح: حلية الزمن بمنابح خادم الوطن، سيرة رفاعة الطهطاوي، القاهرة، الطبعة الأولى، 1958م، ص 24.

السليمة وأصحاب الطباع المستقيمة"<sup>1</sup>. وقد تولى تحرير مجلة روضة المدارس علي بك فهمي رفاة الطهطاوي، ابن رفاة الطهطاوي، وكان مدرسا للإنشاء بمدرسة الإدارة والألسن وقتئذ<sup>2</sup>.. وقد احتوت هذه المجلة إلى جانب بعض قصائد الشعر والقصص القصيرة والمقالات العلمية على مؤلفات رواد الإصلاح، تنشر فيها فصلا فصلا، حتى إذا اكتملت هذه الفصول كونت كتابا مفيدا في أي علم من العلوم العملية أو الأدبية .

حاول الخديوي اسماعيل في أواخر عهده أن يمنح الصحافة حرية تامة ، عملا بتوجيهات النخبة المصرية التي اندهشت بأجواء الحرية التي ترفل فيها الصحافة الأوروبية، وقد أدى ذلك إلى تحطيم الحواجز والسدود أمام التفكير المصري السياسي، ومكنه ذلك من متابعة الأحداث السياسية العالمية .

لقد أيقظت الصحافة الأذهان، وحملت الى قرائها لواء الدعوات السياسية والفكرية المختلفة، وأدت دورا استثنائيا في نشر الوعي والثقافة ونقل التجربة الأوروبية ومعطيات النهضة الأوروبية ومفاهيمها، وفتحت أعين العرب على تخلفهم الحضاري من جهة، وتقدم الآخرين من جهة أخرى، وزادت الحوار السياسي والاجتماعي إلى أقصى مداه، وحركت المجتمع ونشاطاته وثقافته ووعيه .

---

1- الرفاعي : عصر اسماعيل، مصدر سابق، ج ، 1 ، ص . 248 .

2- نفس المصدر، ص . 249 .

المبحث الثاني : امتدادات وعي المشاركة بالتجاوز الاقتصادي.

## المطلب الأول : الحث على العمل وتشجيع الإبداع.

1 : العمل ومصادر الثروة .

أوضح رواد الإصلاح المشرقي، الذين زاروا أوروبا ووقفوا عند مظاهر رقيها الحضاري في القرن التاسع عشر، أن العمل يعد أحد المقومات الأساسية التي تتيح للأمة أن تحقق رقيا وتطورا لبنيتها الاجتماعية وحياتها المؤسسية ولنظمها الثقافية والسياسية، ولقد عمد الطهطاوي والمصلحون المشاركة بعده، إلى الكشف عن أهمية العمل لعملية التقدم والتحضر والانطلاق، وضربوا الأمثلة من ماضي الحضارات القديمة، مبينين أنه لا يمكن بناء حضارة أو صنع تقدم إلا في ضوء الاعتماد على العمل والإنتاج، لذا كشفوا عن أهميته، وأكثروا من الحض عليه .

لقد كان من اللافت انتباه الطهطاوي وغيره من الرحالة المشاركة كما بينا آنفا، وهم في بلاد أوروبا حرص هذا المجتمع على تأدية واجباته وسعيه نحو الإنتاج وعدم إهمال العمل، ولقد عبر عن ذلك بقوله : "ومن أوصافهم توفيتهم غالبا بالحقوق الواجبة عليهم ، وعدم إهمالهم أشغالهم أبدا ، فإنهم لا يكفون من الأشغال، سواء الغني والفقير، فكأن لسان حالهم يقول : إن الليل والنهار يعملان فيك فاعمل فيهم" <sup>1</sup>.

وامتدادا لذلك، بدأ الطهطاوي حديثه عن العمل في كتابه "مناهج الألباب"، فرأى أنه على أربعة ضروب رئيسة " إنماء زراعة، ونتاج حيوان، وربح تجارة، وكسب صناعة" <sup>2</sup> وبهذا يكون الطهطاوي قد غطى مجالات العمل التي كانت متاحة لأبناء الفترة الزمنية التي كان يعيش فيها، فهو يتناول الزراعة، والإنتاج الحيواني، وهذه الثانية تتعلق بالأولى إذ يصعب تنمية الإنتاج الحيواني بدون تنمية الإنتاج الزراعي للأمة، ويتناول التجارة وكذلك الصناعة، ولعله يقصد الصناعة الحديثة التي فجرها التوجه العقلاني في أوروبا آنذاك. ولعل الإشارة إليها في كتبه تتضمن التنبيه إلى أن " الآخر " الذي كان يمثل لنا " الند الحضاري " قد سبقنا في هذا المجال. ومجال الصناعة هو أكثر مجالات الكسب في العالم المعاصر تنافسا، بل تصارعا بين الأمم من أجل ولوجه، والدخول فيه، وامتلاك

1-الطهطاوي : تخلص الإبريز .. ، مصدر سابق، 66

2-الطهطاوي : مناهج الألباب المصرية ..، مصدر سابق ، ص . 260. وإذا كانت منابع الثروة كما يرى الطهطاوي أربعة، زراعة، وتجارة، وصناعة، وتنمية حيوان، فإننا نعود ونؤكد أن هذا حديث يليق بظروف عصره وبمرحلته الحضارية التي كتب فيها، إذ استحدث التقدم الحضاري المعاصر العديد من منابع الثروة مثل استخراج المعادن الطبيعية من باطن الأرض ، والسياحة وغيرها من مصادر الرزق المعاصرة .

ناصيته، وهذا، للأسف الشديد، ما آل أمرها للأمم جميعا، إلا أمتنا العربية في لحظتنا الحضارية الراهنة، وهذا ما كان الطهطاوي قد أكده منذ حين من الدهر وأشار إلى خطورته. " وهذه الفنون إما واهية في مصر أو مفقودة بالكلية".<sup>1</sup>

وبعد حديثه عن كل ضرب على حدة ، ينتقل لمناقشة قضية العلاقة بين الإنتاج والثروة ، أو بين العمل ورأس المال، وي طرح الشيخ رفاة المسألة هكذا : " ثم اختلف هل منبع الغنى أو الثروة، وأساس الرزق والخير هو الأرض؟ وإنما الشغل مجرد آلة وواسطة لا قيمة له إلا بتطبيقه على الفلاحة، أو أن الشغل هو أساس الغنى والسعادة ومنبع الأموال المستفاداة وأنه هو الأصل الأولي للملة والأمة، يعني أن الناس يكتسبون سعادتهم باستخراج ما يحتاجون إليه لمنفعتهم من الأرض أو لراحة المعيشة، فالفضل للعمل، وأما فضل الأرض فهو ثانوي تبعا"، وبعد استعراضه لحجج الفريقين، حيث يسمي أصحاب الموقف الأول طائفة الملاك، والثانية أهل الفلاحة، يخلص رحالتنا إلى أن الفضل الأول للعمل، ودليل ذلك أن "الأمة المتقدمة في ممارسة الأعمال والحركات الكدية المستعملة للأدوات الكاملة والآلات ... قد ارتفعت إلى أعلى درجات السعادة والغنى بحركات أعمالها، بخلاف غيرها من الأمم ذات الأراضي الخصبة الواسعة، الفاترة الحركة، فإن أهاليها لم يخرجوا من دائرة الفاقة والاحتياج، فإذا قابلت بين النتيجة التالية : فمن هذا يظهر أن أساس الغنى مبني على كثرة الأشغال والأعمال"<sup>2</sup>.

كما تحدث الرحالة علي مبارك باشا عن أهمية العمل في إحداث النهضة وتحقيق التقدم واللاحاق بالأمم الأوروبية، فقد تحدث عن التجارة والصناعة كمهنة وحرفة، باعتبارهما من المهن والحرف الشريفة، وتفضيله للعرب والمسلمين على اليونان، لأن العرب لم يأنفوا الصناعات، بينما رأى اليونان فيها مهانة لا تليق إلا بالأرقاء، فنحن "إذا تتبعنا أحوال متقدمي الإسلام ومشاهير أمرائه والحكام لم نجد أحدا منهم إلا وله حرفة يتقوت بها أو صنعة لا يستغنى في معيشه عنها، علمية كانت أو عملية .. وحيث كان الإسلام حاتا على العمل والسعي في طلب الرزق، حتى كاد يعد فرضا، خصوصا وقد مدح التجارة والصناعة، ولم يبق عند العرب أوهام بالنسبة للصناعة وشرفها، فلم يكن أحد منهم يرى أنه أشرف من غيره، ولا أنه قروي وذلك مدني، ولا أنه فقير

1- الطهطاوي : تخلص الإبريز...، مصدر سابق، ص. 32 .

2- الطهطاوي : مناهج الألباب...، مصدر سابق، ج 1 ، ص . 310

وذلك غني ... فكانت الصنائع تشرف بهم لا أنهم يشرفون بها<sup>1</sup>، فكل الصنائع حسب محمد علي مبارك شريفة ومفيدة، ولا فضل للمدينة وأهلها على الريف وأهله من الفلاحين داعيا للنهوض والتشجيع على مساعد الجد لإحداث النهضة والحق بالغرب.

أما محمد عبده صاحب "رحلة في صقلية"، فقد إستثمر النصوص الشرعية، لتحفيز الناس عن العمل، إيماناً منه بأهمية ذلك في بناء الحضارة، وتنويرهم من العجز والكسل المورث للشلل والجمود الحضاري.

كما فطن محمد عبده إلى قيمة التربية والتعليم في تحفيز الناس على العمل والانخراط في التنمية الاقتصادية، فعدد عددا من الثروات الطبيعية القائمة في مصر، مبينا أنه لا قيمة لها ما لم يستغلها البشر الاستغلال المناسب، وفي ذلك يقول: "وماذا تصنع الوسائل المهيئة إذا لم تصادف من ينتهزها؟ وهل يوضع السيف الصقيل بلا بطل؟ كلا.. فما فقر البلاد إلا قلة الراشدين فيها"<sup>2</sup>.

يتبين من خلال ما سبق، أن النخبة المشرقية عرفت للعمل حقه في الحياة الاقتصادية بعد وعيها بأهميته ودوره في حدوث التجاوز الحضاري، ونظرت إليه باعتباره المقوم الأول للإنتاج والازدهار، فتفاوتت الدول يرجع برأيها إلى العمل والجد والعطاء، وهو سر التقدم وسبيل الرقي الحضاري.

## 2: - تشجيع الإبداع والابتكار:

أكد الطهطاوي في مشروعه الاقتصادي على حتمية الإبداع بعدما أفاض في شرحه وبسطه في متنه الرحلي، باعتباره أحد العوامل الأساسية في التطور الاقتصادي الأوروبي، لكي يظل المجتمع في تقدم مطرد، معتمدا في ذلك على الجهد الإنساني المبذول في إبداع التقنية الحديثة ووسائل التمدن المعاصرة... لأن سنة الله في الكون هي التغيير، أي الانتقال من حالة حضارية متخلفة إلى حالة حضارية أكثر تقدما، من هنا، لا يجوز للمتأخر أن يتوقف عند حدود ما أنجز المتقدم لأنه لا يغني عنه حضاريا شيئا، بل لا بد من الإبداع، وتحقيق الإبداع يقتضي إطلاع المعاصر على القديم، بهدف فهمه واستيعابه، وتجاوزه، والإضافة إليه بعد تمتله، هذا التمثل الذي يسمح له بأن يعي ويدرك ما يمكن الاستفادة في العصر الحديث. يقول في هذا المعنى: "ثم إن أحوال المنافع العمومية تختلف بتنقل الأحوال وتغير العادات، ولا يمكن استيعاب طرق تحسينها، وأدوات تمكينها، وإنما يجتهد كل إنسان في الحصول على ما بلغه من الوسع في صنائع زمانه... ولولا تغير الأحوال والعادات لكان

1- مبارك: المصدر السابق، الجزء الأول، ص 555.

2- عبده: المصدر السابق، ج 3، ص 43.

المتقدم كفى المتأخر تكلفها، وإنما حظ المتأخر أن يعاني نشد الشارد، مع حفظه، وجمع المتفوق بلحظه، ثم يعرض ما تقدم على حكم زمانه، وعادات وقته وأوانه، فيثبت ما كان موافقا، وينفي ما كان مشافقا، ثم يستمد خاطره في استنباط الزوائد، واستخراج الفوائد، واختراع ما به السهولة<sup>1</sup>.

إن حديث الطهطاوي لا يتوقف هنا عند حدود الإشارة إلى أهمية وضرة الإبداع باعتباره حتمية تقتضيها إشكالية التطور والتقدم، بل يتجاوز ذلك إلى الحديث عما يجب على المبدع إتيانه، إذ عليه أن يلم ما بلغه الوسع والجهد بصنائع عصره وزمانه، ناهيك عن الأعصر والأزمنة السابقة على عصره. وأن ينتقي من الموروث والمعاصر ما يتماشى مع طبيعة اللحظة التاريخية الراهنة التي يحياها في مجال تخصصه سواء كان نظريا أم عمليا، على أن يستخدم مقاييس اللحظة المعاصرة في قياس واختيار ما يمكن الانتفاع والإفادة منه، ومعلوم أن ذلك لا يتحقق إلا إذا تحقق الإمام التام، أو شبه التام، بكل ما أنجز في مجال التخصص، بالإضافة إلى الوعي بمتطلبات العصر والمجتمع الذي يعيش فيه الإنسان المبدع.

كما اعتبر فتح الله المراه أن تقوية الصنائع والأشغال يتأسس على إثارة ذوي الإختراعات وتخصيص جوائز لهم على غرار النموذج الأوروبي، ورفع شأنهم وتثبيت ما يمكنهم اقتطاف ثمرات أتعابهم.

إذا كان الطهطاوي وغيره ممن زاروا أوروبا، قد نادوا بهذه الأفكار والرؤى منذ حين من الدهر، حيث قالوا بحتمية "العمل"، وكشفوا عن أهمية "الإبداع"، فإن السؤال المطروح الآن هو: لماذا لم ينغرس في القوى الاجتماعية التي تتكون منها بنية الأمة العربية والإسلامية النظر إلى العمل، باعتباره قيمة حياتية وجودية؟ ولماذا لا تحاول الأمة على الأقل من خلال مؤسساتها وسلطاتها خلق الجو العام الذي يأخذ بيد الإنسان باتجاه العمل والإنتاج؟ ويعمل على إنماء قدراته الإبداعية، ويزكي المهارات والقدرات الكامنة داخل الدوات الإنسانية المفردة القادرة على الإبداع والعطاء؟.

لسنا في حاجة إلى أن نشير إلى الفوارق الشاسعة إلى الآن، بين ما يفعله ويعمله الإنسان سواء في الشرق أم في الغرب، لا من حيث نوعية العمل ولا من حيث وقته، وهذا ما أدى بنا إلى أن نكون في مؤخرة الركب الحضاري بعد أن كنا أصحاب السبق في هذا المجال. ولعل تأخرنا الحضاري هذا الناتج، بالدرجة الأولى، عن عدم اهتمامنا بالعمل، هو الذي جعل الأوروبيين المخالفين لنا في الدين والعقيدة يتهمون ديننا و عروبتنا بأنها السبب في تأخرنا وفيما آل إليه وضعنا الحضاري، معنى ذلك أننا إذا انتبهنا إلى "العمل" ونجحنا في "الإنتاج"

---

1- الطهطاوي: مناهج الألباب...، مصدر سابق، الجزء 1، ص. 261.



فإننا لا نحقق بذلك تقدما حضاريا ورقيا مدنيا على غرار أوروبا فحسب، بل ندافع عن ديننا وقوميتنا وعروبتنا في نفس الوقت .

### المطلب الثاني : استعمال الوسائل الاقتصادية الحديثة.

دعت النخبة المشرقية بعد حصول الوعي لديها بحدة الفارق في الإمكانيات والقدرات الاقتصادية، من خلال مشاهدتها ومعابنتها لمظاهر الثورة الصناعية وثمارها في القرن التاسع عشر، إلى استعمال الوسائل الحديثة في الزراعة، إدراكا منها بدورها في الرفع من الإنتاج، وفي هذا الصدد يقول رائد الرحلة العربية رفاعة الطهطاوي: "فهذا تزداد نتائج الزراعة، وذلك أن كلا من العملة [ العمال ] وأصحاب الأملاك يجتهد في البحث عن الوسائل والوسائط المقربة للعمل، المسهلة له، المقللة لأوقاته. ويصير الاجتهاد في ذلك بحيث ما يعمله العامل في يوم يمكنه أن يعمل أضعافه في اليوم الواحد ثلاث مرات أو أربعا... وكذلك يقف على خصائص ما يستعين به من الآلات العصرية المسهلة لصنعتة، كالهواء والماء والبخار، فهذه الطرق والوسائل ينطبع في مرآة عقول الأمة المتعيشة من الفلاحة صورة حركات الأشغال التقدمية، ويتعودون على المبادأة بنشاط الأعمال الفلاحية، فلا تزال تتجدد المنافع العمومية بالتدريج، وتأخذ في الزيادة بدون نهاية، وبهذه المنافع الأهلية تكثر أموال الرعية وسعادتها التعيشية".<sup>1</sup>

كما أدرك علي مبارك باشا، العلاقة بين استعمال "الآلة الحديثة"، وبين ضرورة الدخول إلى عصر حضاري حديث، واللحاق بالأمم المتحضرة. لذا دعا علي مبارك إلى "مكينة" الزراعة، وخاصة في الري، وإلى الدخول بالبلاد إلى عصر البخار، وأبرز أن للمكينة والبخار آثارا تتعدى الوفرة في المال والنمو في الثمرات، فهي تحقق سيطرة الإنسان وتعلي من قدراته، ومن ثم فإنها تجعله قادرا على التخطيط وتوقع النتائج المستقبلية قبل حدوثها، بعد أن كان عاجزا عن ذلك، بل ويراها رجما بالغيب وافتئاتا على سلطان السماء، إنه تنقله إلى طور حضاري جديد في الفكر، كما تحقق له الوفرة في الإنتاج، ويعبر عن ذلك علي مبارك بقوله: "...وأما وجه كون الآلات البخارية أصلح وأنفع، فهو أنها، نظرا لوقوعها تحت قوة قسرية هي بيد السلطة الإنسانية، يديرها كما شاء، كانت هي آمن الطرق استعمالا من حيث الجزم بحصول النتيجة المقصودة منها..."<sup>2</sup>

1- نفس المصدر، ص . 315 .

2- مبارك : المصدر السابق، ص . 134 .

كما أن الدخول إلى عصر المكننة يمكن من الوفرة والاقتصاد في الإنفاق على المشروعات، ويقدم علي مبارك دراسة بالأرقام ، يثبت فيه أن استخدام الآلات في الري يكلف أقل من ثلث ما تكلفه الوسائل التقليدية من نفقات، يقول: " فالمنصرف على متر الماء المرفوع بواسطة الوابور، هو ثلث المنصرف على متر "السواقي" أو أقل، فيما يصرف في سقي الفدان الواحد يكفي لسقي ثلاثة فدادين أو أكثر بالوابور، فالوابور، أرجح من السقي بكثير"<sup>1</sup>.

ويدعو علي مبارك الحكومة إل تعميم استخدام هذه الآلات الحديثة، فإن "عزت عليها النفقات للتمويل، فلتعهد بها إلى شركات مساهمة، تنجزها وتحصل من الفلاحين، بواسطة الحكومة، على مقابل انتفاعهم بها، توفى منه التكاليف على أقساط، وبعد مدة زمنية تصبح هذه الآلات والمنشآت مملوكة للحكومة تدبرها على ذمتها، برجال نفقتها"<sup>2</sup>.

لقد كان علي مبارك، مهندس الري والزراعة، يفكر في هذا الميدان ويسعى لتطويره لمجاراة نظيره الأوروبي، ومن هنا كانت دعوته لإنشاء "مدارس للفلاحة لتعليم قواعدها على يد أحسن المعلمين، والتي يجب أن تكون موزعة في جميع أنحاء البلاد"<sup>3</sup>. في ذات الوقت دعا إلى الإهتمام بالجانب العملي والتجريبي وتطبيق النظر على العمل، وذلك عن طريق "تخصيص أماكن للتجربة، ليتمكن أهل كل جهة من تلقي نتائج الإكتشافات العلمية وثمرات التجارب الفلاحية." وانتقد إهمال هذا الميدان بعد التقدم الذي أحرزه فيه محمد علي وقال: "إننا نأسف على عدم استمرار خلفائه علي منواله في الإعتناء بنماء هذا المشروع الجليل"<sup>4</sup>.

عندما أتاحت لعلي مبارك الفرصة لترجمة مشروعه الاقتصادي ، بتوليّه نظارة الأشغال العمومية، حقق الكثير من جوانب مشروعه هذا، حيث أنشأ على الوجه البحري وحده 2081 واپورا للري، بلغت قوتها 64,581 حصانا بخاريا، الأمر الذي حول الري في كثير من الأنحاء، إلى ري دائم يعطي عدة محاصيل، بعد أن كان ربا نيليا لا يعطي سوى محصول واحد، فضلا عن إحياء الأرض الموات التي زادت بها رقعة المساحة المزروعة بمياه النيل<sup>5</sup>.

---

1- نفس المصدر، ص . 135

2- نفسه .

3- نفس المصدر، ص . 136

4- نفسه .

5- عمارة : علي مبارك ، مؤرخ ومهندس العمران، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الثانية، 1988م . ص . 304 .

وقد استتبع عن إدخال المكننة في فترة محمد علي مبارك، إلغاء نظام السخرة، الذي كان السبيل الوحيد لإنجاز المشروعات في عهد محمد علي وقبله، حيث لعب هذا التحديث الآلي دوره الاجتماعي والإنساني في البلاد .

كما قام محمد علي مبارك بتشييد القناطر والجسور والترع، إلى آخر التجديدات التي أقامها في الري والصرف عندما ترأس نظارة الأشغال في عهد إسماعيل<sup>1</sup>.

### المطلب الثالث : تبني مبدأ الحرية الاقتصادية

لقد فرض ظهور الدولة الحديثة على السلطة الحاكمة عدة واجبات تجاه المواطنين، ولم يعد من الممكن أن تمضي حكومة عربية حديثة على النمط الذي سارت عليه من قبل الدولة العثمانية، فقد كانت الدولة العثمانية تحدد اختصاصها بالدفاع الخارجي والأمن الداخلي وإقامة النظام الإداري الهادف إلى جمع الضرائب، ولكن الدولة الحديثة مطالبة بأكثر من هذا، فلها نفوذها في المجال الاقتصادي والخدمات. وقد أبرز الطهطاوي عدة واجبات ينبغي أن تقوم به الدولة في المجال الاقتصادي وهي إتاحة الحرية الاقتصادية، وتوجيه الإنفاق إلى المشروعات العامة، وتنظيم التعامل الاقتصادي بقوانين حديثة، وتشجيع التجارة الخارجية<sup>2</sup>.

أطلق الطهطاوي على الحرية الاقتصادية مصطلح " حرية الفلاحة والتجارة والصناعة " وعد هذه الحرية "أعظم حرية في المملكة المتعدنة" أي في الدولة الحديثة، وواجب الدولة في هذا المجال هو أن تتيح لأبنائها مجال العمل الاقتصادي الحر دون تضيق يجد من انطلاقتهم وازدهار جهودهم . وفي هذا يقول الطهطاوي : "قد ثبت بالأدلة والبراهين أن هذه الحرية من أعظم المنافع العمومية ، وأن أصعب ما على العاقل الذي يفهم منافع هذه الفنون أن يرى تضيق دائرتها"<sup>3</sup>. فالطهطاوي من أنصار الحرية الاقتصادية للأفراد ويرى واجب الدولة في هذا وهو الترخيص بذلك أي تنظيم الأنشطة الاقتصادية ، ولكن الطهطاوي يحتفظ بعد ذلك تجاه إطلاق الحرية الاقتصادية لكل الأفراد لأن بعضهم "ليسوا أهلا لهذه الرخصة لعدم استكمال التربية الأهلية ...لأن تهذيب

1- نفس المصدر، ص . 306.

2-حجازي، فهمي: أصول الفكر العربي الحديث عند الطهطاوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، الطبعة الأولى، 1974م، ص . 47

3- الطهطاوي : مناهج الألباب، مصدر سابق، ص . 356 .

الأهالي وتحسين أحوالهم يكسب عقولهم الرشد والتصرف في العمليات المتسعة".<sup>1</sup> فالطهطاوي يرى الحرية الاقتصادية هدفاً يمكن أن يفيد الدولة إذا ما كانت ممارسة الأفراد لها قائمة على الوعي والمعرفة.

### المطلب الرابع : الدعوة إلى إقامة الشركات والأبنك والاعتناء بالتجارة :

أدرك الرحالة دور التجارة في اختلاط الأمم والشعوب، وتفاعل الحضارات، وتطوير المتخلفين، في العادات والتقاليد وأنماط التفكير، كي يلحقوا بأهل التقدم في هذه الميادين، إلى ذلك يشير محمد علي مبارك بقوله: "إن العمران لا يقوم إلا بالتعاون، والتعاون لا يكون إلا بالمبادلات، وهي لا تحصل على الوجه الأكمل إلا بتمهيد طرقها وتسهيل أسبابها بإكثار السبل برا وبحرا، وزد على ذلك ما يترتب على الاختلاط بين الناس من اكتساب الحرف والصنائع والمعارف، والعلم بعوائد البلاد وأخلاق أهلها وآدابهم وأطوارهم، وهي مزية توجب التقدم حسا ومعنى معا ... إن البلاد تتفاوت ثروة وعمارا بتفاوت موارد التجارة فيها ومصادرها"<sup>2</sup>.

أعجب الرحالة المشاركة أثناء إقامتهم بالديار الأوروبية، بالشركات ودورها في التطور الاقتصادي الرأسمالي، وامتدادا لذلك، حثوا ودعوا الأغنياء العرب، وأصحاب رؤوس الأموال إلى إقامة الشركات التي تبيع احتياجات المشاريع الاقتصادية الخاصة بالأجل، وهي الشركات التي سماها الطهطاوي الشركات السلمية، أي التي تبيع "بالسلم" أي بالأجل، كما دعا إلى إقامة البنوك المصرفية التي تقرض أصحاب هذه المشروعات، وكان يسميها، جمعية الاقتراضات العمومية، وأخذ ينبه الأغنياء إلى أن هذا الميدان هو أولى باستثماراتهم من وجوه الإنفاق التي ألفها المجتمع الإقطاعي من نحو "الصدقة" وبناء "سبيل" لشرب المياه الخ... فكتب يقول: "ومع أن هذه الخيرات تعد نوعا من المنافع العمومية، إلا أن هناك خيرات أعم منها نفعا، وأتم وقعا، كالشركات السلمية الشرعية، وجمعية الاقتراضات العمومية، فإنها نافعة كل النفع لفك المضايقات عن أرباب الاحتياجات من أهل الصناعة والزراعة، لسد حاجاتهم، والقيام عند الاقتضاء بقضاء حاجتهم، فإن هذه الشركات والجمعيات الافتراضية من أهم الأمور، ومفرجة على الجمهور، وبها تتقدم التجارة والزراعة، وترتقي الدولة

والملة<sup>3</sup> في المالية واللوازم الأهلية إلى أوج الفخار، ودرج الاعتبار"<sup>1</sup>.

1- نفس المصدر، ص . 357 .

2- مبارك : المصدر السابق، المجلد الثاني، ص . 467 .

3- أي الأمة .

أدرك الطهطاوي خطورة الزحف التجاري الاستعماري، كما وعى أن التصدي له وانقاد المصريين من برائن المرابين الأجانب، هو أمر يحتاج إلى تخطيط وتنظيم يسبق التنفيذ، ولم يكن الرجل راغبا في طريق التصدي لذلك بواسطة "الدولة" وحدها، كما فعل محمد علي، فأدى بذلك إلى إضعاف البورجوازية المصرية مما قدم المجتمع فريسة سهلة للغزو الاقتصادي الأوربي بعد نجاح الاستعمار في تفكيك تجربته بعد سنة 1842م. ولم يكن الطهطاوي مؤمنا بقدرة المشاريع الفردية وحدها على التصدي لهذه التحديات الاقتصادية، ومن هنا كانت دعوته للتخطيط والتنظيم، واشترك "الأغنياء مع الدولة للنهوض بالبلاد في هذا المجال .

كما تطلع محمد علي مبارك إلى الرقي الاقتصادي وإلى التقدم الحضاري، وإلى إسهام أصحاب رؤوس الأموال والمدخرات في تكوين الشركات المساهمة لتصنع في اقتصادنا ما صنعت مثيلا لها في أوروبا البورجوازية . لقد انتبه محمد علي باشا في رحلته إلى ذلك، عندما أبصر في ميناء " مرسيليا " أثر تلك الشركات، دون ملاحظاته، وبعث بها إلى زوجته، وتمنى أن يحدث ذلك في بلاده، يقول: " ورأيت على الأرصفة مخازن ... قد بناها، بإذن الحكومة جماعة من مشاهير القوم وأغنيائهم، اجتمعوا وعقدوا بينهم جمعية اشترك على رأس مال قروره للصرف على إنشائها، يدفع منه في كل سنة جزء على التدرج، ومعظم أعمالهم الجسيمة تتم بهذه الكيفية، وأصل مال الشركة بالمذكورة عشرون مليوناً من الفرنكات، تعدل 800.000 جنيه انكليزي من النقود المصرية، قسموه على أربعين ألفاً منهم، فخص كلا منهم خمسمئة فرنك"<sup>2</sup>.

لقد دعا علي مبارك إلى أن تسلك مصر ذات الطريق، ومارس عمليا، وضع هذه الأفكار في التطبيق عندما تولى نظارة الأشغال، حيث ساهم التجار إلى جانبه في تمويل مشاريع الري والزراعة، وفي إقامة المنشآت الجديدة بالمدن.

## المطلب الخامس: تطوير وسائل المواصلات والإتصالات.

---

1- الطهطاوي : مناهج الألباب ....، مصدر سابق، ص . 579 .

2- مبارك :، المصدر السابق، المجلد الثاني، ص . 673 .

انبهر المشاركة بتطور وسائل النقل في أوروبا، فأسهبوا في وصف القطار والسكك الحديدية، والسفن والميترو والبريد والتلغراف، تعبيرا منهم عن رغبتهم في توفر بلدانهم على مثلها.

لذا دعت النخبة المشرقية الحكومات إلى تسهيل طرائق التجارة ، وتقريب أبعاد الأسفار بواسطة إصلاح الطرقات، وإزالة مخاوف ومعاثر الطريق وإيقاع الأمان والسهولة<sup>1</sup>.

وامتدادا لذلك، حرص محمد علي وخلفاؤه من بعده، على تطوير هذا القطاع، حيث امتلكت مصر بفضل ذلك في أواخر الأربعينات من القرن التاسع عشر، شبكة واسعة وآمنة من الطرق البرية والنهرية والبحرية، التي تربط بين شتى أقاليم الدولة، وذلك وفقا لتكلفة زهيدة قياسا لتكلفة النقل بالنسبة للدول الأوروبية<sup>2</sup>. ولا يخفى هنا الدور الذي نخص به أسطول الدولة البحري في توفير الشروط الفنية والأمنية للنقل البحري والنهري، فيما بين مختلف الموانئ المنتشرة على ضفاف النيل والبحر المتوسط والبحر الأحمر<sup>3</sup>.

كما اهتم خلفاء محمد علي بالسكك الحديدية، إدراكا منهم بأنها من أعظم دعائم العمران، حيث شرع الباشا عباس الأول في مد السكك الحديدية من الإسكندرية إلى القاهرة سنة 1852 م، وعهد بتخطيط العمل إلى المهندس الانجليزي الشهير بوبرت ستفنس، وساعده في ذلك مهندسون مصريون، الذين صار لهم فيما بعد شأن كبير وتقلدوا كبرى المناصب .

وكانت هذه السكة أول خط حديدي أنشئ في مصر، بل في دول المشرق والمغرب<sup>4</sup> قاطبة، فمصر قد سبقت دول الشرق في أعمال العمران، حتى أن تركيا دولة الخلافة والتي سبق لسفرائها في القرن الثامن عشر أن

---

1- المرآة : غابة الحق...، مصدر سابق، ص . 146 .

2- الضيقة : المصدر السابق، مصدر سابق، ص . 229 .

3- نفس المصدر، ص . 230 .

4- مما يدل على سبق مصر في استعمال القطار على باقي الدول المغربية، ما أورده الغيغائي المغربي في رحلته الحجازية ، التي قام بها في منتصف القرن التاسع عشر ، واصفا القطار الذي امتطاه بمصر قائلا : " وهذا بابور البر وتسميه المشاركة بابور السكة وهي الطريق وإنما البابور منه الموضع الذي هو رأسه فقط وفيه الحركات والآلات والمحركات لها، أما الغير فهو عربيات وهي أكداش بلغتنا تحمل فيها الأشياء الأدمي .." وبخصوص سرعته فيقول الغيغائي : " وركبنا عليه عند الزوال فما بتنا إلا بمصر، ومشيه كل ساعة بنهار يقطعه ولولا ما يأخذونه الخدام من ماء وفحم في كل ربع من الطريق لكان أسرع من ذلك". نقلا عن الغاشي مصطفى، "مغربي في مصر خلال القرن التاسع عشر، رحلة الغيغائي الحجازية". ضمن ندوة : السفر في العالم العربي الإسلامي، =التواصل

نهبوا السلاطين العثمانيين إلى أهميتها في الحركة الاقتصادية ، قد تأخرت عن مصر في مد السكك الحديدية واستخدام القطارات البخارية، وقد أشار **الرفاعي عبد الرحمن** إلى تقدم مصر وسبقها تركيا في ميادين العمران حينما زار السلطان عبد العزيز مصر سنة 1863 م، فإنه "لما ركب القطار من الإسكندرية إلى القاهرة تملكه العجب، لأنه لم يكن رأى القطارات البخارية في حياته من قبل"<sup>1</sup>.

كما اهتم الخديوي اسماعيل ووزيره **علي مبارك باشا**، بالسكك الحديدية، ومدت في عصره لوحده 1080 ميلا<sup>2</sup>، من الخطوط الحديدية ، وارتبط هذا كله بالرغبة في تطوير الموانئ المصرية وإنشاء الخطوط الملاحية، وكان من الأعمال التي سهلت الملاحة للسفن، إنشاء الفنارات على سواحل البحر المتوسط والبحر الأحمر<sup>3</sup>. ويعد الفضل في ذلك إلى **علي مبارك باشا** الذي أسند إليه إسماعيل إدارة مصلحة السكك الحديدية، وإدارته لها اشترك في مد كثير من الخطوط الحديدية وإنشاء محطاتها .

كما اهتم علي مبارك باشا أثناء تحمل مسؤولية وزارة الأشغال في عهد إسماعيل الخديوي ، بالمواصلات كوسيلة ضرورية لتنشيط التجارة، ولذلك أنشأ عددا من الكباري والجسور، بلغ عددها 430 جسرا منها كوبري قصر النيل. كما نظم البريد وأنشئت المكاتب البريدية في عصره على الطراز الأوروبي، حتى صار عددها 210 مكتبا، كما تألفت شبكة تلغرافية في أنحاء مصر، ومد خط إلى السودان، وبلغ طول الخطوط التلغرافية سنة 1872م حوالي 5582، وبلغ عدد المكاتب التلغرافية 151 مكتبا منها 86 بالوجه البحري، 44 بالوجه القبلي، و 21 بالسودان.

---

والحدائق، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم، 108 ، الطبعة الأولى، 2003 ، صص . 114-115 .

1- الرفاعي : **عصر اسماعيل**، مصدر سابق، ج ، 1 ، ص . 194 .

2- بحسب إحصاء بعثة " كيف " الإنجليزية، بلغ طول السكك الحديدية التي أنشأها إسماعيل 1200 ميل، وقدرت البعثة نفقات إنشائها بمبلغ 13.200.000 جنيه ونيف، بواقع الميل 11.000 جنيه. الرفاعي، عهد اسماعيل، مصدر سابق، ج، 2، ص.7.

3- نفس المصدر، ص . 9

## المبحث الثالث : امتدادات الوعي المشرقي بالتجاوز السياسي.

انشغل الفكر العربي الإسلامي في القرن التاسع عشر، بقضايا التقدم والازدهار والتأخر والانحطاط انشغالا كبيرا، وحيث نظر صوب أوروبا فلمس من مظاهر قوتها وعظمتها ما جعل ألمه وحيرته هائلين أمام تأخر العالم الإسلامي عن ركب الإنسانية المتقدمة، وانحطاط المسلمين، بالقياس إلى ما كانوا عليه في عصور القوة والغلبة، اختلفت رؤى المفكرين وتباينت، بعضا أو كلا ، ولكنها كانت تلتقي جميعها عند الحكم بأن السر في تقدم أوروبا وقوته لا يرجع إلى ما استطاع أن يحققه من إنجازات تقنية وكشوف علمية، على أهميتها الكبرى، بقدر ما يرجع إلى أشكال الحكومات في ذلك الغرب وإلى طبيعة الأنظمة السياسية التي بها وجود تلك الدول والحكومات، وفي مقابل ذلك، كان بين أولئك المفكرين، على تباين أنماط مقاربتهم وتباعد ديارهم، إجماع على القول بأن أسباب انحطاط المسلمين وتأخرهم يرجع إلى فساد المؤسسات السياسية في بلاد الإسلام.

### المطلب الأول : نقد النخبة المصرية لإستبداد محمد علي وخلفائه .

الاستبداد مطلقا هو استبداد الحكومات خاصة، ولذلك فإنه في اصطلاح السياسيين هو "تصرف فرد أو جمع في حقوق قوم بالمشيئة وبلا خوف تبعة"<sup>1</sup>، أو هو "الحكومة التي لا يوجد بينها وبين الأمة رابطة معينة معلومة مصونة بقانون نافذ الحكم"<sup>2</sup>. ويطلق الاستبداد على التحكم في علاقة النفس بالعقل، وفي حق الأب والأستاذ والزوج ورؤساء الأديان، إلا أنه ينصرف عند الإطلاق إلى الاستبداد السياسي لما فيه من عظيم الضرر<sup>3</sup>. وقع الاستبداد السياسي مبكرا في حياة الأمة الإسلامية منذ الدولة الأموية التي اشتدت في ضرب أعدائها السياسيين بحجة القضاء على الفتنة التي نجمت عن مقتل عثمان رضي الله عنه، والنزاع بينه وبين معاوية. لذا نرى صحيحا ما ذهب إليه ابن خلدون في مقدمته من أن الخلافة الإسلامية لم تدم وتعمر طويلا<sup>4</sup>، إذ سرعان ما

---

1- الكواكبي، عبد الرحمان : طبائع الاستبداد ومصارع الإستبداد، تحقيق وتقديم : محمد فتحي أبو بكر، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، الطبعة الأولى، 2012 ، ص. 9.

2- نفس المرجع، ص . 169.

3- رثيف، خوري : الفكر العربي الحديث، أثر الثورة الفرنسية في توجيهه السياسي والاجتماعي، منشورات وزارة الثقافة، الطبعة الثالثة، 1993م ، صص . 205-206 .

4- تولى الخلفاء الراشدون أمر المسلمين بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومدة خلافتهم ثلاثون سنة، من وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم في 12 ربيع الأول سنة 11 هـ، إلى مقتل علي بن أبي طالب كرم الله وجهه في 17 رمضان سنة 40 هـ



انقلبت بعد مدة قصيرة الى "ملك عضوض"، يعرض على الأمة بالوراثة وبيعة الإكراه، و قائم على الصراع القبلي أكثر مما هو قائم على الغايات النبيلة التي ترقى الإنسان في سائر ميادين الحياة كما هو الشأن في أوربا خلال العصور الحديثة، ولذلك فإن السياسة لم تصطبغ بروح الإسلام القوية بعد تلك الفترة القصيرة إلا بتجارب محدودة، نذكر منها فترة الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز الذي أعاد الحكم الإسلامي إلى صفائه الرائع الذي كان عليه في فترة الخلفاء الراشدين حيث الشورى الإسلامية حقيقة واقعة، والعدل الإسلامي واقع مشهود. لكن الأمويين لم يطبقوا عمر بن عبد العزيز، وسياسته العادلة، وما لبثوا بعد وفاته أن عادوا إلى ما كان قد حجزهم عنه من سلب أموال الناس وحكمهم بالقبضة الحديدية. ثم جاء الحكم العباسي، فالمملوكي، فالعثماني، يرث بعضهم بعضا في طريقة الحكم الاستبدادي والعجرفة السياسية.

بعد حملة نابليون بونابارت، شهدت مصر والمشرق العربي عامة، في ظل تجربة محمد علي، تطورا اقتصاديا مذهلا، وتقدما تعليميا وفكريا وعسكريا، أشرنا إلى بعض معالمه في المباحث السابقة، لكن الثغرة الأساسية والسلبية الرئيسية التي أبطأت بالتطور الفكري والعلمي والثقافي، فأثر هذا البطء على التطور الاقتصادي، مما أفضى إلى الضعف الذي مكن القوى الرأسمالية من الإجهاز على هذه التجربة المشرقية الرائدة في الوطن العربي. إن هذه الثغرة والسلبية قد تمثلت يومئذ في تخلف الفكر السياسي الديمقراطي عن مستوى التطور المادي والاقتصادي، ووقوف الحكم الفردي حائلا دون اكتمال عناصر التجربة التحديثية المتقدمة بقسماتها المتعددة: الاقتصادية، والاجتماعية، والفكرية. فمصر التي دخلت عصر التنوير اقتصاديا، فكريا إلى حد ما، بقي نظام الحكم فيها اقرب إلى نظام العصور الوسطى الإقطاعية. وهذه السلبية هي التي عبر عنها الجبرتي عندما تحدث عن منجزات محمد علي فقال: "إنه كانت له مندوحة لم تكن لغيره من ملوك هذا الزمان، ولو وفقه الله إلى شيء من العدالة على ما فيه من العزم والرياسة والشهامة والتدبير والمطاولة، لكان أعجوبة زمانه وفريد أقرانه". ورغم كل الانجازات التي حققت في عهده، إلا أن هناك جانبا آخر في هذه التجربة لا يزال في حاجة إلى مزيد من الدراسة، ويتمثل هذا الجانب في الإجراءات القمعية وعمليات السخرة التي صاحبت أعمال المنافع الكبيرة، التي اتسمت بقدر كبير من القسوة. كما أن مذبحه المماليك بالقلعة ( التي ذبح فيها 475 مملوكا في مايقرب من 15

---

=تسع وعشرون سنة وستة أشهر وخمسة أيام. يؤكد ذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم " الخلافة في أمتي ثلاثون سنة، ثم ملك بعد ذلك. قال سعيد بن جهمان : ثم قال سفينة :أمسك : خلافة أبي بكر ، وخلافة عثمان، ثم قال : أمسك : خلافة علي، فوجدناها ثلاثين سنة". أخرجه الإمام أحمد رحمه الله 220-5 ، رقم 21969 ، وأبو داود رحمه الله 211-4، رقم 4646 ، وغيرها. وأخرجه الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة 128-1 تحت رقم 460 .

دقيقة)<sup>1</sup> كان لها أثرها العميق في حالة الشعب المعنوية، إذ أدخلت الرعب في قلوب الناس، بل ليس من المغالاة القول بأنها أدت إلى وأد اليقظة الشعبية التي تبلورت وأدت لتولي محمد علي سدة الحكم، وشجعت جهوده في التحول نحو الاستبداد والتخلص من الزعامة الشعبية التي أجلسه على كرسي الحكم، فقد كانت هذه الزعامات في السنوات الأولى من حكم محمد علي بمثابة سلطة ذات شأن تراقب أعماله مراقبة مستمرة، متأثرة بفكرة الحكومة الشعبية التي أدخلتها فرنسا لأول مرة، كما كانت ملاذاً للشاكنين ممن يناهضون الظلم أو يتضررون من ممارسة الحكام وجورهم.

إلا أنه بعدما استقر محمد علي على كرسي الحكم وثبتت قدمه، طمحت نفسه إلى الاستبداد، وبدأ يشعر بالغضاضة من تدخل العلماء وأهل الرأي في شؤون الحكم، فحاول التخلص من هذه الرقابة بإقصاء الزعامة الشعبية عن المجال السياسي، عن طريق الارتشاء<sup>2</sup> والنفي<sup>3</sup> والاعتقال<sup>4</sup>، وهو ما أدى في النهاية إلى تحول سلطة محمد علي إلى سلطة قمعية متعجرفة طاغية، انتهت بعمليات التحديث إلى الإجهاض المبكر.

فلم يصدر محمد باشا قوانين تحفظ حقوق الأفراد، أو تكفل الحريات للمصريين، ولم يحاول تطوير النظام السياسي كما حدث في أوروبا، ولم ينشئ سوى المجالس الاستشارية التي هي أشبه بالدواوين الحكومية منها بالمجالس النيابية، مثل المجلس الخصوصي والمجلس العمومي ومجلس المشورة<sup>5</sup>.

- 1- في أول مارس 1811م لما كان محمد علي يجهز جيشه لمحاربة الوهابيين في الحجاز بأمر من الحكومة العثمانية، أعد مهرجاناً بالقلعة، ودعا القادة العسكريين ورجال الدولة للاحتفال، واستدعى المماليك .. وبعد انتهاء الحفلة وخروج المدعوين، أقفل الباب على المماليك الذين كانوا في المؤخرة وعددهم 470، وأطلق عليهم الرصاص فقتلوا جميعاً، باستثناء واحد الذي قفز من القلعة ونجا بأعجوبة حيث تحطم فرسه . انظر تفاصيل مجزرة القلعة عند الرفاعي، **عصر محمد علي**، مصدر سابق، صص. 108-114 .
- 2- كان هذا هو الحال مع عدد كبير من علماء الأزهر الذين جذبته السلطة إليها أو منحتهم هبات مادية من أموال وممتلكات.
- 3- كان هذا هو حال الشيخ عمر مكرم، رئيس الشرفاء، الذي رفض أن يسكت وظل ملتزماً بروح المعارضة، وقد نفي من طرف محمد علي بمساعدة من علماء الأزهر المقربين من طرف الباشا .
- 4- كان هذا هو مصير المناضلين الشعبيين **كحجاج الحضري**، الذي أعدمه محمد علي، وأمر بتعليق جثته على أحد الأسبلة، على الرغم من مواقف هذا العالم في تدعيم سلطة محمد علي وتأمين وصول فرمان تنصيبه في منصب الوالي .
- 5- انظر تفاصيل هذه الدواوين، الرفاعي : **عصر محمد علي**، مرجع سابق، صص. 515-522 .

كما لم يكن يشجع أو يسمح بالاشتغال بالسياسة، وشؤون الحكم، وعندما أخبره أحد تلاميذ البعثة التعليمية إلى أوربا، أنه درس نظم الإدارة المدنية في فرنسا، قال محمد علي: "أنا الذي أحكم هذا البلد، اذهب إلى القاهرة وقم بترجمة الكتب العسكرية"<sup>1</sup>.

لقد كان نظام حكمه هو النظام الاستبدادي الفردي، فكل القرارات كان يصدرها بنفسه بعد مناقشتها مع مستشاريه، ولم يكن رجال الدين أو كبار المشايخ الذين اختاروه بإدارتهم لحكم مصر، ضمن مستشاريه المقربين. ومن حسن الحظ، فإن محمد علي الذي دمر النخبة المثقفة التقليدية إن جاز التعبير، قد عبد الطريق خلال حكمه لجيل جديد من المثقفين، أمثال الطهطاوي ومحمد علي مبارك باشا وغيرهما.. الذين عملوا على نشر الفكر السياسي الحديث متأثرين بالمؤسسات السياسية الفرنسية، داعين في مشاريعهم الفكرية إلى تقييد الحكم المطلق، ومبشرين بمبادئ الشورى والديموقراطية والحرية .

لقد كانت المشكلة الأولى التي واجهت الرحالة العرب في العصر الحديث، مشكلة الحاكم العادل، وقد عانى الشرق من الاستبداد السياسي وظلم السلطات الحاكمة. فانتقد رحالونا الظلم في الشرق انتقادا مبطنا حيناً وصريحاً حيناً آخر، فحين نفى عباس الخديوي الطهطاوي إلى السودان عام 1850م، ترجم أثناء إقامته هناك كتاب تلمارك لفنلون (ت1751م)، والكتاب ينطوي على نقد لاذع لاستبداد لويس الرابع عشر، وكأن رفاة يوجه دروساً من فنلون إلى عباس لما رآه من مطابقة الحال.

كما وجه قبل ذلك انتقادات لاستبداد وعجرفة المماليك وطغيانهم، مبيناً أثر ذلك على التطور الحضاري لمصر، التي كانت "تعيش في القديم في مجبوحة من السعادة، وحيث صارت مصر بالثروة لكثرة المعاملات التجارية"<sup>2</sup>، إلا أنه بتداول الأزمان ستصاب مصر بالجمود والتأخر، واستبدال الربح بالخسران والتدمير محل العمران، وذلك حدث كله أيام "المماليك الذين أسأؤوا التدبير، وسعوا في خرابها وتدميرها بما جبلوا عليه من العسف والتعدي وعدلهم عن الجادة بسلوك ما ليس بجدي"<sup>3</sup>.

1- حوراني : المرجع السابق، ص . 123

2- الطهطاوي : مناهج الألباب ... ، مصدر سابق، ص . 469.

3- نفس المصدر، ص. 470 .

إن المماليك الذين استبدوا بالحكم وانفردوا بالأمر، كان همهم الفتك بالرعية وانتهاك حقوق الإنسانية، فكانت النتيجة أن ضاعت التجارات والصناعات، وحدث الهبوط الحضاري ومن ثم حصل التجاوز الحضاري من طرف الدول الأوروبية المخالفة لنا في الدين والملة.

وقد وصف لنا الطهطاوي مرة أخرى كيف أنه لما أصبحت مملكة مصر في قبضة "الكوليمان" هؤلاء الحكام الذين لم يبق لهم من شهامة الحكام إلا مجرد ركوب الخيل والفروسية بدون فراسة، فإن أهم شيء كان عليهم أن يقوموا به هو خدمة الأرض والنيل، إلا أنهم أهملوا النيل الذي بين الطهطاوي نتيجه بقوله " إن إهمال النيل وبناء الترع والقناطر فيه سيؤدي إلى نتيجة خطيرة ، وهو أنهم خسروا منه نيل الثروة وكسب السعادة"<sup>1</sup>.

إن الاستبداد حسب الطهطاوي، لم تفقد معه مصر سعادتها وخيراتها ، وغلات نيلها فقط ، ولكن هؤلاء الحكام المستبدين أنفسهم خسروا كل شيء، ثم إن مصر نفسها ستفقد استقلالها وتضم "إلى فرنسا وتصبح مجرد إقليم". إن ملاحظة الطهطاوي لعدم انتظام حكم المماليك والنتائج السيئة التي أدت إليه، يركيه بقوله لنا بليون بونابارت الذي أورد منه الطهطاوي قوله: " لو حكمت الديار المصرية بحكومة منتظمة مضاهية لحكومة فرنسا، لزادت مزارعها وأهاليها ثلاثة أضعاف ما كانت عليه في أيام المماليك"<sup>2</sup>.

على نفس المنوال، أشار الرحالة الشامي فارس الشدياق إلى ظلم الحكام الشرقيين بقوله: "إن أيديهم كانت ممتدة لأخذ أموال الناس"، وما من سبب للظلم الواقع في الشرق سوى الحكم المطلق الذي لا يقف عند حد أو قيد، كما أشار إلى التمييز الطبقي الذي يمارسه الحكام على الشعوب العربية، ووقف عند معاناة الفلاحين والفقراء، حيث قال منتقدا الحكام: "إن رأس الفقير ليس بأضيق، ولا أصغر من رأس الأمير، وإن يكن هذا أكبر عمامة منه، وأغلظ قدالا"<sup>3</sup>. كما ندد بظلم الولاة وذوي السلطة بقوله: "وعندي أن أعظم أسباب الشيب في الأصل هو الهم والخوف من ظلم الولاة وذوي الإمرة"<sup>4</sup>.

وضع علي مبارك باشا في كتابه "علم الدين" يده على أصل الداء، الذي أورثنا التخلف بعد التحضر، والضعف بعد القوة، والفرقة بعد الوحدة ، ووصل بالأمة إلى القاع بعد أن كانت بيدها زمام القيادة، وهو عنده

---

1 - نفس المصدر، ص. 472

2- نفس المصدر، ص . 473

3- الشدياق : الواسطة في معرفة أحوال مالطا، مصدر سابق، ص 19.

4- نفسه .

فساد الحكام وعجرفتهم واستبدادهم، وانعدام أهليتهم، وغلبة الجهل واستئثارهم بالحكم، بعد أن كان الحكم للعلماء، والأمر والشورى للذين يعلمون، يقول مبارك باشا : " لكننا إذا تأملنا أمر هذه الأمة وما حصل لها، وجدنا السبب إنما هو ما صار عليه الأئمة من خلف هذه الأمة، فإنهم تركوا ما كان عليه السلف من النظر في مصالح الأمة والسعي فيما فيه نفعها، فنبذوا كل ذلك وراء ظهورهم، واتبعوا الشهوات، وأضاعوا الواجبات، وحملوا الناس ما لا يطيقون .. فإن الأئمة للرعايا كالرأس للجسد،.. إذا صلح صلحت وإذا فسد فسدت .. وقد كان السلف صارفين أنظارهم نحو مصالح العباد العمومية، فكانوا يقتدون بهم في أقوالهم وأفعالهم، وكذلك الإفرنج، لما كان رؤساؤهم بتلك الصفة ظهرت فيهم العلوم والصنائع ، وسرت منهم إلى غيرهم، حتى عمت سائر المواضع"<sup>1</sup>.

وأعنفهم تهجما على الظلم والاستبداد فتح الله المرآة ، وقد ساعده أسلوبه الشعري والرمزي في نقل ثورته العارمة على مظاهر الاستبداد ونتائجه، حيث كتب قائلا : " رأيت القوي يدوس الضعيف، ويأكل لحمه ويشرب دمه ويكاد لا يشبع ولا يروى، رأيت أقواما يرضعون الذل والخوف من أتداء أمهاتهم ووجوههم مبالغة نحو الشفق لطلب صدقة... وفي أيديهم حقاقا فولاذية مطبوعة على أفكارهم وحريرتهم حتى لا تتحرك"<sup>2</sup>. وقرن بين الشرق وفرنسا في هذا المضمار قائلا: " فكم سرور واندھاش للأعين عندما ترى هذه الأمة الفرنسية رافلة بأذيال الحرية الكاملة بدون خشية من التعثر بأشواك سيادة بربرية أو سلطة ضاربة.. لابسة ثياب الدين والدنيا بدون جرع من أفواه باصقة أو محالب خازقة، ولا ذعر من سطوات شريعة مارقة"<sup>3</sup>.

أما محمد عبده فقد انتقد استبداد وعجرفة محمد علي باشا وطغيانه ، حيث رأى الأستاذ الإمام هذا الحاكم أبعد ما يكون عن " الحضارة و بث العلوم وتأسيس العمران" فهو في رأيه "كان تاجرا زارعا، وجنديا باسلا، ومستبدا ماهرا، لكنه كان لمصر قاهرا، وحياتها الحقيقية معدما"<sup>4</sup>. كما نشر محمد عبده مقالا في المنار في يونيو 1902م، تحت عنوان : "آثار محمد علي في مصر"، وفي هذا المقال قارن بين حكومة محمد علي وبين حكومة المماليك التي سبقت عهده، وأضاف الظلم إلى الحكومتين، ولكنه فضل حكومة المماليك لأن قبضتها على عقول

1- المبارك : المصدر السابق، المجلد الثاني، ص . 678 .

2- المرآة : رحلة إلى باريس، مصدر سابق، ص . 5.

3- نفس المصدر، صص . 34- 35 .

4- عبده : المصدر السابق، ج ، 1 ، ص . 96 .

الشعب وحرته لم تكن حديدية كقبضة حكومة محمد علي، ومن ثم فإنها لم تصب الشخصية المصرية بالضعف الذي أصيبت به من قهر محمد علي واستبداده بالبلاد والعباد.<sup>1</sup> كما أدان دور السياسة في اضطهاد الفكر، وانتقد السلطان عبد الحميد ووصفه بأنه أكبر مجرم سفاك في هذا العصر، ورأى "أن ما يعقله أكثر المسلمين من معنى الحكومة لا يمكن انطباقه على شيء من أوليات العقل، وعرف أن ثقتهم بالحاكم قد بلغت حد التأليه، من حيث ظنوه قادرا على كل شيء بدون عون من أحد، أما الحكام وقد كانوا أقوم الناس على انتشارال الأمة مما سقطت فيه، فأصابهم الجهل بما فرض عليهم من أداء وظائفهم، ولا يعرفون من معنى الحكم إلا تسخير الأبدان، وإذلال النفوس، وابتزاز الأموال لإنفاقها في إرضاء شهواتهم وأهوائهم"<sup>2</sup>.

تأسيسا على ما سبق، يتضح أن النخبة المشرقية رأت من خلال احتكاكها ب"الآخر"، في القرن التاسع عشر أن الحكم المطلق هو سبب الظلم في الشرق، وأن إطلاق أيدي الملوك مجلبة للظلم على اختلاف أنواعه، كما أدى إلى التأخر في مجال التمدن والحضارة .

لقد ظلم الذين حكموا في بلادنا العربية الإسلامية إلى ذلك العهد، خلال القرن التاسع عشر، فأذن ظلمهم بخراب عمراتهم، وذلك ما حصل، بينما الغربيون أقاموا سلطاتهم السياسي على مقتضى العدل، فالرعية لا تشعر بالظلم، لأن الحاكم ليس مطلق التصرف في شؤونها كالحاكم في البلاد العربية الإسلامية، هكذا يشعر الرحالة المشاركة، الحاكم في أوروبا مقيد بالقانون، بالدستور، والذي لم يكن مفهومه واضحا لدى هؤلاء في ذلك الوقت، فسموه الشرطة . كما رأى الإصلاحيون في السلطان السياسي الحديث ممثلا بالدولة الأوربية مثلا لسلطان العدل، معتبرين ذلك سببا رئيسيا في حدوث التجاوز الحضاري من طرف "الآخر" .

بفضل الاحتكاك بأوروبا، حصل الوعي لدى النخبة المشرقية، باستحالة تحقق الإصلاح والخروج من المأزق الحضاري، وأن تؤدي إصلاحات ذات طابع تحديثي أكلها في ظل نظم سلطوية استبدادية، ومن ثم يتعين البدء بالإصلاح السياسي .

**المطلب الثاني : دعوة الرحالة المشاركة إلى قيم العدالة والحرية.**

1- نفس المصدر، ص . 98 .

2- عبده : الإسلام دين العلم والمدنية، دراسة وتقديم : عاطف العراقي ، سينا للنشر والتوزيع، القاهرة، 1988 م، ص . 123 .

جاء المشروع الإصلاحي المقترح من طرف النخبة المشرقية للخروج من حالة التأخر الحضاري، ببيان واف لمعنى الحرية ولدورها في الترقى، وذلك على سبيل التقدمة المنطقية لطلب الحرية في المجالات المتعددة من الحياة بوصفها سببا من أسباب النهضة والترقى والحق بالغرب، تأثرا بأجواء الحرية التي تنسمها من زار منهم ديار "الآخر".

فرائد الرحلة المشرقية رفاة الطهطاوي ، تبلور دوره في محاولة تقديم نظرية جديدة في الحكم والسياسة تجمع بين المبادئ الأصولية والفكر الحديث في موقفه من قضية الحرية والحقوق المدنية للمواطنين، والجديد في موقفه إضافة إلى أنه أول مفكر عربي حديث حاول تأصيل فكرة الحريات والحقوق العامة في الدولة الحديثة، أنه يربط بين التمدن والحرية، ففي الفصل الخامس من الباب الرابع من المرشد الأمين، يتناول المؤلف فيه موضوع الوطن وتمدنه، ويبدأ بالحديث عن معنى التمدن، ثم يعدد فوائد التمدن وهي كثيرة ومنها : أن ينمحي الاستعباد والاسترقاق بغير حق. وبعد ذلك يدخل المؤلف في موضوع علاقة الحرية بالتمدن، وهو يرى أن تلك العلاقة بدأت بحصول العلماء وأصحاب المعارف على حريتهم في تدوين الكتب، فأعان ذلك على سعة دائرة التمدن في بلاد الدنيا ثم توسعت دائرة هذه الحرية شيئا فشيئا، وسيما في بلاد أوروبا بقانون حرية إبداء الآراء وتوسعت معها دائرة التمدن .

بعد ذلك ينتقل رفاة إلى تعريف الحرية ومعناها وحدودها وأقسامها، وهو يرى أن الحرية تكون في الأمم المتعدنة، وهي مصدر حقوق المواطنين، فحقوق جميع أهالي المملكة المتعدنة ترجع إلى الحرية، وهذه الحرية تنظمها وتحفظها القوانين الشرعية والوضعية . وهي تنقسم إلى خمسة أقسام رئيسة: حرية طبيعية، وحرية سلوكية، وحرية دينية، وحرية مدنية، وحرية سياسية<sup>1</sup>. ولا شك في أن هذا كله جديد على الفكر العربي الذي لم يعرف المصطلح الحرية معنى إلا في حدود مقابلة الحر للعبد من جهة، وحرية الإنسان بإرادة الله من جهة أخرى.

أما الحرية بمعناها الحديث فهي جديدة تماما، والطهطاوي هو أول من طرحها في الفكر العربي، وأول من كتب في تعريفها ومعناها. أما الحرية الدينية فقد عرفها العرب، إلا أن الطهطاوي طرحها من منطلق فكري وحضاري جديدين.

إضافة إلى ما تقدم فإن الطهطاوي يربط بين الحرية والسعادة، وهو يرى أنها الوسيلة العظمى في إسعاد المواطنين وخصوصا إذا قامت على قوانين حسنة عدلية، فإنها عندئذ تكون واسطة عظمى في راحة الأهالي

---

1- الطهطاوي : المرشد الأمين .... المصدر السابق، ج 2 ، صص . 465 - 470 .

وإسعادهم في بلادهم، وتكون سببا في حبههم لأوطانهم أيضا. والحرية بهذا الوجه يجب ألا يخشى منها أصحاب الحكم، حيث لا يخشى منها على الدولة، بل هي دعامة أساسية من دعائم الدولة<sup>1</sup>.

والحرية ملازمة للتسوية وكلاهما ملازم للعدل، وهذا يعني بالتعبير الحديث أن الحرية والديمقراطية توأمان. وهو أمر بديهي في أيامنا هذه، ولكن المهم فيه أن الطهطاوي أدركه منذ أكثر من قرن من الزمان، وجعله ركنا أساسيا في نظريته السياسية التي سعى من خلالها إلى تأسيس وقيام الدولة الحديثة والحقا بركب المتبارين في مجال الرقي الحضاري .

كما رأى علي مبارك باشا، أن تقييد السلطة بالقانون، وتقليد المناصب الحاكمة للعلماء والخبراء، سيفتح باب الحرية في المجتمع واسعة أمام المواطنين.. وهو الأمر الذي حبذه علي مبارك، بمناسبة حديثه عن الحريات التي تمتعت بها باريس، فأثمرت مجدها العلمي ورفعت صرحها الحضاري عاليا بين الأمم والشعوب، وجعلتها الحمى والملجأ لكل المضطهدين، والكعبة لعشاقها.. "فلقد كانت باريز على غاية في التقدم، وكثر بها المؤلفون، ورحل إليها كثير من أهل أوروبا، وخفف فيها شأن العقوبات، فكان كل إنسان يتكلم بحرية، ويكتب ما شاء من أحوال الخلق، سواء كانت خصوصية أو عمومية، سياسية أو دينية، وظهر فيها رجال ذوو أفكار، فألفوا كتبنا انتشرت في سائر الأقطار، فانجلت عنهم غياهب الجهل ، وتميزوا على غيرهم بالعقل.."<sup>2</sup>

فالمجد الذي تعيشه باريس حسب علي مبارك، إنما صنعته الحرية، التي أتاحت للمؤلفين والمفكرين حرية الكلام، وحرية الكتابة والنشر، في كل الموضوعات، دونما تمييز بين خاص وعام، فصنعت الحرية رجالا عظاما، وفكرا غنيا، انعكس على الدنيا كلها ، فزال الجهل، وأصبح العقل ميزة يتميز بها ويمتاز أهل باريس.

وحتى يتحقق العدل، ويتشكل المجتمع الملتزم بالقانون ، يؤكد علي مبارك أنه لا بد أن يكون الحاكم والمحكوم أمام القانون سواء، بل وأن يكون خضوع الحاكم للقانون مقدما على طلب الخضوع له من المحكوم، فالقدوة أولا وعبر عن ذلك قائلا : "... فالواجب على ولاية الأمور أن لا يقطعوا في حكم إلا من القانون، لأنهم متصرفون في الملك وفق الشريعة ... ولهذا لا يصلح لولاية الأمر إلا من قطع عن الطمع أمله، ووافق قوله عمله، وكذلك عماله نوابه " واستشهد على ذلك بيت شعري ، يقول فيه صاحبه :

ومن يربط الكلب العقور ببابه فعقر جميع الناس من رابط الكلب .

1- نفس المصدر، ص . 471

2- مبارك : المصدر السابق، المجلد الثاني، ص . 478 .



لا يكفي أن يحكم المجتمع قانون، إذ لا بد أن يكون هذا القانون عادلا : " لأنه بغير العدل لا يتم صلاح .. ولولاه ما قدر مصل على صلاته، ولا عالم على نشر علمه، ولا تاجر على سفره، وهو صفة في الذات تقتضي المساواة، وهذه الصفة أكمل الفضائل، لشمول أثرها، وعموم نفعها... فبالعدل قامت السموات والأرض ... ولم يخلق الله تعالى أحلى مذاقا من العدل، ولا أمر من الجور.<sup>1</sup>

كما ركز فتح الله المراه على إلزامية خدمة الصالح العام، تأثرا منه بما شاهده في فرنسا من حرص حكماها على حقوق ومصالح رعاياها قائلا : "إن أهم دواعي السياسة وأعظم بواعثها هو النظر الدائم إلى الصالح العام وتواصل السهر عليه، بحيث مهما أتقنت السياسة نظامها وأحكمتها ولم تلتفت إلى هذا الصالح أو تغافلت عنه فلا تعتبر إلا كمساعد على نثر عقد الهيئة الاجتماعية، إن إهمال ما يسبب العمار هو تسبب لوقوع الخراب ، وهذه الملاحظة تنحصر جميعها في توقيع ما يؤول نفعه إلى العامة إجمالا وأفرادا ودفع ما يفضي إلى الضرر"<sup>2</sup>.

### المطلب الثالث : الديموقراطية والشورى تقبيدا للحكم المطلق:

لقد دعت النخبة المشرقية إلى الشورى والديمقراطية، تأثرا منها بالنظم السياسية في أوروبا، وسبيلا لتنظيم المجتمع المصري خاصة، والشرق بوجه عام، وإيمانا منها بأنه لو انتصرت فيه هذه الدعوة، في ذلك الوقت، واكتملت به عناصر التجربة الديموقراطية الحديثة، لاستطاع صد الغزو الاستعماري، والإفلات من التخلف الحضاري، ولما سبقته الأمم التي كانت أقل منه حضارة وتقدما في ذلك الحين، نستشف ذلك من حديث الطهطاوي بعد أوبته من فرنسا عن السودان يومئذ، حيث قال فيها : "إنها أقرب للتمدن من أقاليم أمريكا بكثير، وأن الذي تحتاجه كي تتمدن ، هو اطمئنان النفوس وتأليف القلوب من حكام أرباب صدقة وعفاف وعدل وإنصاف"<sup>3</sup>.

أما محمد عبده فقد دعا إلى التحرر السياسي من نفوذ الاستعمار الغربي الزاحف على المنطقة، والتصدي له "بالنهضة الحضارية" لمغالبتة، وتجسيد الفكر الإسلامي الشوري في مؤسسات دستورية ونيابية حديثة، وتقييد

1- مبارك : المصدر السابق، المجلد الثاني، صص . 276 - 277 .

2- المراه : غابة الحق، مصدر سابق، ص . 134 .

3- الطهطاوي : المصدر السابق، ص . 345 .

سلطات الحكومات بالدساتير والقوانين، وإطلاق طاقات الجمهور الواسعة في الخلق والإبداع والبناء. وكل ذلك بواسطة "الثورة" على المعوقات التي تعترض الجماهير في هذا الطريق.<sup>1</sup>

كما نادى محمد عبده بتطبيق مبدأ الشورى الإسلامي كضمان لصد استبداد الحاكم ، وقد استدل عبده بخطبة عمر بن الخطاب ودعوته الناس إلى تقويم ما عساه أن يكون منه من الاعوجاج في تنفيذ أحكام الشريعة، فقال: "أيها الناس، من رأى منكم في اعوجاجا فليقومه" كما دعا إلى وجوب إسداء النصيحة للحاكم وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، وذلك لتضافر الأحاديث الصحيحة والأخبار الشريفة على وجوب نصيحة الأمراء، قال صلى الله عليه وسلم: **إن الدين النصيحة " ثلاث مرات، قلنا لمن يا رسول الله؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين ولعامتهم"**<sup>2</sup>. وقال: **"إن الله يرضى لكم ثلاثا، ويسخط لكم ثلاثا، يرضى لكم أن تعبدوه وحده، ولا تشركوا به شيئا، وأن تعصموا بحبل الله جميعا، وأن تتاصحوا من ولاة الله أمركم"**<sup>3</sup>.

وللتأكيد على مبدأ الشورى استشهد بالآية الكريمة " **﴿وَأَمْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ يُكْرَهُ أَفْوَاجًا مِّنْهُمْ لِيُحْذَرُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ عَسَاوَىٰ فَيَكُونُوا لَهَا آلِيًا مِّنْ ذُرِّيَّتِهِ الْمُرْتَضَىٰ﴾** " وأشار إلى أنها للوجوب لا للندب فوضح من كل هذا أن تصرف الواحد في الكل ممنوع شرعا، وأن الرعية يجب عليها أن تراقب الحاكم وتجعله خاضعا للشريعة الحقة .

ولقد شرعن عبده ترجمة مبدأ الشورى إلى صيغة النظام التمثيلي البرلماني، بحجة "أن الشرع لم يأت ببيان كيفية مخصوصة لمناصحة الحكام، ولا طريقة معروفة للشورى، كما لم يمنع كيفية من كيفياتها... فالشورى واجب شرعي، وكيفية إجرائها غير محصورة في طريق معين، فاختيار الطريق المعين باق على الأصل من

1- نفس المصدر، ص . 350 .

2- أخرجه ابوداود في سننه وأحمد في مسنده من حديث تميم الداري، والنسائي في سننه عن أبي هريرة، وصححه الألباني في صحيح أبي داود.

3- أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الافضية، باب: إن الله يرضى لكم ثلاثا ويسخط لكم ثلاثا رقم 1715، ولم يذكر: إن الله يرضى لكم ثلاثا. وأخرجه الإمام أحمد في مسنده بهذا اللفظ عن أبي هريرة.

4- سورة آل عمران، الآية ، 159 .

الإباحة والجواز، كما هي القاعدة لكل ما لا يرد نص بنفيه وإثباته". فالنظام البرلماني هو الأسلوب أو الطريقة التطبيقية للشورى، والغرب اقتبسه من عندنا، فيقول "ندب لنا أن نوافق على كيفية الشورى الأمم التي أخذت هذا الواجب نقلاً عننا، وأنشأت نظاماً مخصوصاً حتى رأينا في الواقعة نفعاً. ووجدنا منها فائدة تعود على الأمة والدين، بل واجب علينا، إذا رأينا شكلاً من الأشكال مجلبة للعدل أن نتخذه ولا نعدل عنه إلى غيره. كيف وقد قال ابن قيم الجوزية ما معناه: إن أمارات العدل إذا ظهرت بأي طريق فإن هناك شرع الله"<sup>1</sup>.

وتأسيساً على ما سبق، جاز لنا القول: أن الإصلاحية العربية الإسلامية الحديثة، قد اختلفت عن الإصلاح الإسلامي التقليدي، في كون هذا الأخير اعتبر دائماً أن الدافع إلى الإصلاح بتعبير علي أو مليل: "انقطاع بين إسلامين، معياري واجتماعي، فهو لم يفكر بتأخر تاريخي أو اجتماعي، إذ أن الجيل الإسلامي الأول بلغ عنده قمة التقدم. أما الإصلاحية الإسلامية الحديثة فهي أيضاً تفكر كذلك، إلا أنها أصبحت تلتفت، ولو بتبريرات مختلفة، إلى ما عند الأوروبيين من نظم وعلوم وأفكار تقيسها على أصول إسلامية، ويكون في ذلك مناهج الإصلاح. وهي أيضاً سلمت بأن التقدم الأوروبي مرجعه الجوهري نظام الحكم، فالتجهت هي أيضاً اتجاهاً دستورياً"<sup>2</sup>. ولعل ذلك ما أقر به تلميذ محمد عبده، الشيخ رشيد رضا، أحد كبار دعاة الإصلاح الإسلامي الحديث، حين يقول: "فأعظم فائدة استفادها أهل المشرق من الأوروبيين معرفة ما يجب أن تكون عليه الحكومة، واصطباغ نفوسهم بها حتى اندفعوا إلى استبدال الحكم المقيد بالشورى والشريعة بالحكم المطلق الموكول إلى إرادة الأفراد... ولا تقل أيها المسلم إن هذا الحكم، المقيد بالشورى، أصل أصول الدين ونحن قد استفدنا من الكتاب المبين ومن سيرة الخلفاء الراشدين، لا من معاشر الأوربيين والوقوف على حالة الغربيين، فإنه لولا اعتبار هؤلاء الناس لما فكرت أنت وأمثالك أن هذا من الإسلام، ولكان أسبق الناس إلى الدعوة إلى إقامة هذا الركن علماء الدين في الأستانة وفي مصر ومراكش، وهم الذين لا يزال أكثرهم يؤيد حكومة الأفراد الاستبدادية ويعد من أكثر معاونيها، ولما كان أكثر طلاب حكم الشورى هم الذين عرفوا أوروبا والأوربيين... ألم تر إلى بلاد مراكش، الجاهلة بحال الأوربيين، كيف تتخبط في ظلمات استبدادها، ولا تسمع من أحد كلمات شورى، مع أن أهلها من أكثر الناس تلاوة لسورة الشورى، ولغيرها من السور

1- عبده: الأعمال الكاملة، ج 1، ص 352.

2- أو مليل، علي: الإصلاحية العربية والدولة الوطنية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1985م، ص 47.

التي شرع فيها الأمر بالمشاورة وفوض حكم السياسة إلى جماعة أولى الأمر والرأي".<sup>1</sup> وعليه يخلص رشيد رضا إلى أنه : "لولا اختلاطنا بالأوروبيين ، لما تنبهنا من حيث نحن أمة أو أمم إلى هذا الأمر العظيم، وإن كان صريحا جليا في القرآن". وحسب رشيد رضا، فما كان للأفغاني وعنده أن يديرا دعوتهما الإصلاحية على الشورى والدستور لو لم يكونا "قد استفادا من الاعتبار بحال أوروبا".<sup>2</sup>

### المطلب الرابع : نشر الثقافة السياسية وتعليمها لأبناء الشعب .

تحدث الطهطاوي عن أهمية الفكر السياسي وضرورته في بناء المجتمعات والحقاق بالغرب، وحدد أن السياسة التي يريد للناس أن يتعلموها ويمارسوها، ليست السياسة بمعناها الرجعي المتمثل في الحيلة والخداع والتدبير، مما لا يليق إلا بالمملكة الجائرة ... و إنما السياسة التي يريد لها هي التي عليها مدار انتظام العالم، وفي هذا الصدد يقول رفاة الطهطاوي : "وهي التي يكون الهدف منها : فهم أسرار المنافع العمومية التي تعود على الجمعية<sup>3</sup> وعلى سائر الرعية، من حسن الإدارة والسياسة والرعاية في مقابلة ما تعطيه الرعية من الأموال والرجال للحكومة". هذا في الداخل، وأيضا "كل ما يتعلق بالدولة وأحكامها وعلائقها وروابطها"<sup>4</sup> مما يدخل في السياسة الخارجية.

انتقد الطهطاوي الرأي الذي يقول بانحصار الفكر السياسي وممارسته عند طبقة أو فئة من الناس دون أبناء الشعب، ويرى أصحاب هذا المذهب "أن السياسة من أسرار الحكومة الملكية، لا ينبغي علمها إلا لرؤساء الدولة ونظار الدواوين"، ويدعو إلى تعليم مبادئ السياسة لكل أبناء الشعب في المدن والقرى فيقول: "إنه قد جرت العادة في البلاد المتمدنة ، بتعليم الصبيان : القرآن والحديث الشريف في البلاد الإسلامية وكتب الأديان وفي غيرها، قبل تعليم الصنائع، وهذا لا بأس به في حد ذاته. ومع ذلك فمبادئ العلوم الملكية السياسية، التي هي قوة حاكمية عمومية، وفروعها، مهملة في الممالك والقرى بالنسبة لأبناء الأهالي، مع أن تعليمها أيضا لهم مما يناسب المصلحة العمومية، فما المانع من أن يكون في كل دائرة بلدية معلم يقرأ

---

1- رضا، محمد رشيد : تفسير المنار، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، 1971، المجلد العاشر، ج ، 4 ، صص . 279\_280 . نقلا عن ، الصغير عبد المجيد، الخطاب الإصلاحي العربي بين منطق السياسة وقيم المفكر، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، 2011 م، صص 28\_29 .

2- نفسه .

3- يقصد المجتمع.

4- الطهطاوي : المصدر السابق، ج ، 1 ، ص . 518 .

للسبيان، بعد تمام تعليم القرآن الشريف، والعقائد ومبادئ العربية، مبادئ الأمور السياسية والإدارية، ويوقفهم على نتائجها، وهو فهم أسرار المنافع العمومية.<sup>1</sup>

نستخلص من هذا النص الطويل، أن قوام المشروع النهضوي السياسي عند رفاة الطهطاوي يتمثل في تعليم الشعب خدمة المنافع العمومية، أي ما نطلق عليه اليوم في لغتنا المعاصرة، المصالح العامة للمجتمع، والتضحية بالمصالح الشخصية والخاصة في سبيل تحقيق المصالح العمومية المرتبطة والمتطابقة مع مصلحة الحكومة، وبالتالي مع مصلحة الوطن. غير أن الطهطاوي يربط تحقيق ذلك بالقضاء على العزوف السياسي عند الشعب المصري خاصة والعربي عامة، الذي كان مكتفيا بالتربية الدينية فقط، حيث أن العزوف السياسي قد أقصي الشعب عن المشاركة في الحكم، وجعل السياسة حكرا على دائرة مغلقة من الحكام والطبقة الإقطاعية .

كما يتبين للقارئ حرص الطهطاوي على ضرورة نشر الفكر السياسي، الذي أعجب به في فرنسا، وتعميم تعلم مبادئه في دور التعليم التي تنتشر في ربوع البلاد، بما في ذلك أماكن تحفيظ القرآن في البلديات، وهو ما يمكن أن نسميه ديمقراطية تعليم الفكر السياسي للمواطنين، أو ديمقراطية الثقافة السياسية، وذلك إدراكا منه لأهميتها وضرورتها للشعب. تلك الأهمية التي يعكسها قوله :

"لولا السياسة ما قامت لنا دول وكان أضعفنا نهباً لأقوانا"<sup>2</sup> . لقد رأى الطهطاوي أن

التثقيف السياسي يهدف إلى تعريف المواطن في سن مبكرة بحقوقه وواجباته، "بالنسبة لأملاكهم وأموالهم

ومنافعهم وما لهم وما عليهم محافظة على حقوقهم ودفعاً للتعدي عليها"<sup>3</sup>

سيرا على الطريق نفسه ، ألح محمد عبده أيضا على وجوب معرفة الأمة لعلم السياسة ، انطلاقا من قوله

تعالى : ﴿لَا تَجْعَلْ مَعْرَفَتَهُ كَثْرَةً حَتَّى يَصْغَبَهُ عِلْمُهُ الْكَثِيرُ﴾<sup>4</sup> . فالمراد

1- نفسه .

2- نفس المصدر، ص . 517 .

3- نفس المصدر، ص. 518

4- سورة آل عمران، الآية ، 104 .

بعلم السياسة: "العلم بحال دول العصر، وما بينهما من الحقوق والمعاهدات، وما لها من طرق الاستعمار، فالأمة التي تؤلف للدعوة في بلاد المسلمين المستقلة، لا يتيسر لها ذلك إذا لم تكن عارفة بسياسة حكومة تلك البلاد، والسياسة بهذا المعنى لم تكن في عصر الصحابة<sup>1</sup>".

يرى الإمام عبده أنه من أجل تربية المواطن وتعليمه معنى المواطنة وآدابها، ينبغي على القائمين على التربية أن يضعوا مناهج في الأدب السياسي، وشأن هذا البرنامج المقترح أن يحدد معنى المواطنة من معنى الهمج و الرعاع، والأدب السياسي كما يراه الإمام يعني: "أن يكون الإنسان حراً في رأيه متصرفاً في شأنه إلى حد ألا يضر الهيئة المجتمعية ولا يمس شأن سواه" والفكر والأدب السياسي في نظر الإمام عبده يقتضي "العلم بالمصلحة العمومية والحدود الشخصية، ووجه الضرورة في معرفة هذا الأدب، أن المرء إذا عرف مصلحة قومه، سعى فيها ما يوجب لها البقاء والنماء، وإذا رأى حدود إخوانه أقام لنفسه خطأ لا يتخطاه، بخلاف ما إذا جهل ذلك، فإنه لا يأمن حينئذ أن يظهر بما يخالف تلك المصلحة ويفسد هذه الحدود، فتكون حريته ضرراً بأوطانه ووبالاً على إخوانه"<sup>2</sup>.

## الفصل الثاني:

---

1- عبده : المصدر السابق، ج ، 3 ، ص . 143 .

2- رضا، رشيد : تاريخ الأستاذ الإمام، دار الفضيلة، القاهرة، الطبعة الثانية، 1935 ، ج، 3 ، ص. 395 .

# امتدادات وعي الرحالة المغاربة بالتجاوز الحضاري.

✓المبحث الأول:امتدادات وعي المغاربة بالتجاوز العسكري.

✓المبحث الثاني:امتدادات وعي المغاربة بالتجاوز العلمي والثقافي.

✓المبحث الثالث: إمتدادات وعي المغاربة بالتجاوز السياسي.

✓المبحث الرابع:امتدادات وعي المغاربة بالتجاوز الاقتصادي.

## المبحث الأول : امتدادات وعي المغاربة بالتجاوز العسكري.

لما أبانت التحولات التي عرفها العالم خلال القرن التاسع عشر عن خلخلة كبرى في موازين القوة لصالح أوروبا، ولما كانت مؤشرات الصدام وطلائعه الأولى بين الدول المغربية وأوروبا تدق بقوة وتغلي بعنف، فقد أصبح إصلاح الجيش وإعادة ترتيبه وتأهيله ضرورة قصوى وألوية ملحة ضمن منظومة الإصلاح الشاملة التي شهدتها الغرب الإسلامي خلال القرن التاسع عشر .

### المطلب الأول : اهتمام النخبة التونسية بإصلاح الجيش على الطراز الأوروبي:

حمل القرن التاسع عشر معه تغيرات مهمة في علاقة أوروبا بالبلاد العربية، وكان أهم هذه التغيرات التحدي العسكري، إضافة إلى التحدي الثقافي والحضاري. فعندما احتلت فرنسا الجزائر سنة 1830م، أصبحت بذلك على حدود تونس، فكان من الطبيعي أن يشعر الحكام التونسيون بالخطر يتهدهدهم، وأن يبادروا إلى اتخاذ خطوات وقائية كان أهمها التوجه إلى البناء الداخلي على ضوء الإفادة من التجربة الأوروبية. ومع أن مصير تونس كان قد تقرر في الواقع منذ احتلال فرنسا للجزائر، فقد كان الفرنسيون يهدفون إلى إلحاق كافة الولايات الإفريقية بمستعمراتهم، إلا أن التونسيين رفضوا الدخول تحت الوصاية دون مقاومة ودون محاولة الإفلات منها<sup>1</sup>.

لقد حصل الإقتناع عند النخبة التونسية ، حكاما وعلماء، بأن الهوة بين المسلمين والفرنجة ينبغي أن تعالج ، بحيث يتقدم المسلمون في قوتهم ويضاهون أوروبا ويخرجون الإسلام من غربته وضعفه، وذلك بالاستعانة بالعلوم نفسها التي أتاحت لأوروبا السبق والتقدم.

وهكذا خلص الشيخ قبادو، الذي كان من أول الرحالة التونسيين الذين زاروا أوروبا، من وصفه للقوة العسكرية الأوروبية، إلى أن تفوق الأوروبيين على المسلمين في التعاليم الحربية هو أمر لم يعد فيه خلاف، فما العمل؟ يقول الشيخ قبادو : "فخذ ما أحماه الفهم ودع ما أئماه الوهم. أما علمت أن الحكمة ضالة للمؤمن ينشدها ولا يبالي أين يجدها، وإن الحرب خدعة ، وليس الخدعة إلا بدعة وأن المكر والخداع أمس بتلك الطباع. فلا غرو أن يدفع الشر بالشر ويتداوى من الخمر بالخمر، وقد قبل صلى الله عليه وسلم إشارة الرام هرمزي بخندق مدينة الطائف وإشارة سلمان بمنجنيق الطائف .... فما لأحد من بنيه عن التعاليم الحربية من

---

1- انظر، بيرم الخامس : صفوة الاعتبار ...، مصدر سابق، ج ، 1، ص. 150. لوتسكي : تاريخ الأقطار العربية الحديث، مرجع سابق، الفصل المتعلق باحتلال فرنسا للجزائر، ص . 202 وما بعدها، وقد جاء في مقدمة فصله قوله : "أصبحت الجزائر وهي أضعف حلقة في شمال إفريقيا أول ضحية للتوسع الفرنسي في المغرب. في نفس الوقت كان هذا التوسع أول فتح استعماري للأقطار العربية حدث في مرحلة التطور الرأسمالي " ص . 202 .



ندحة. فهي في الوجوب كمقاصدها على رغم أنف جاحدها. ألم يبلغك في الآيات المتلوة قوله عز شأنه: [ "وَاللَّهُ يَخْتَارُ" ]<sup>1</sup> أوليست تلك التعاليم من القوة المستطاعة فيتناولها أمر الوجوب وينظمها في سلك الطاعة!"<sup>2</sup>.

بعد عودة الباي أحمد من فرنسا الذي كان مصحوبا بوفد ضم عددا من النخبة العاملة على رأسها ابن أبي الضياف وخير الدين التونسي، أسس مكتبا حربيا بباردو بهدف تعليم العسكر النظامي للعلوم الحديثة كالهندسة والمساحة والحساب، وأيضا لتعلم اللغة الفرنسية، وجعل على رأس المكتب الامير آلاي كاليغاريس<sup>3</sup>، الذي وصفه ابن أبي الضياف بالعالم الماهر. وكان العلامة التونسي الشيخ محمود قبادو، أستاذ اللغة العربية، يساعد المستشرق الإيطالي المذكور في تسيير مكتب العلوم البحرية، يقول ابن أبي الضياف: "وأول مدرس به العالم الشريف الأديب البليغ أبو الثناء محمود قبادو، بحيث يخرج التلميذ عالما بما يلزمه ضرورة في غير العلوم العسكرية، متضلعا باللغة الفرنسية ويلزم العسكر من العلوم العقلية"<sup>4</sup>. وعهد إليه بالاشتراك مع الأساتذة الأجانب، ونخبة من طلبة المدرسة بتحرير خلاصة دروس الأساتذة الأجانب وترجمة كتب أوروبية في الفنون الحربية. وقد أولى الباي أحمد اهتماما كبيرا بهذا المكتب العسكري وكان يزوره ومعه خواصه، "وتسأل التلاميذ بحضرتهم، ويثني على النجيب منهم، ويمنيه بما يؤول إليه حاله، ويرغبهم في اكتساب المعارف التي هي آلة التقدم الحقيقية، وينفرهم من معرفة الجهل"<sup>5</sup>.

1- سورة الأنفال ، الآية ، 60 .

2- جدعان : المصدر السابق، صص . 47-48 .

3- ابن أبي الضياف : المصدر السابق، صص . 37 - 38 .

4- نفس المصدر، ص . 38 .

5- نفسه .

ولتأمين حاجات الجيش الجديد، قامت حكومة الباي أحمد بإحياء بعض الصناعات مثل سكب الحديد لصناعة المدافع والقنابل، واستخراج الرصاص من منطقة تبرسق، كما عرفت تونس في عهد هذا الحاكم مصانع متعددة للأسلحة والذخيرة وغيرها.

وقد ترتب عن إنشاء جيش عصري إصلاح جبائي كشف عن هشاشة وتناقضات المجتمع، فبعد أن تضاعفت النفقات على الجيش الجديد، لجأ الباي أحمد إلى فرض رسوما على الجمرك ووظائف على المبادلات الداخلية، وهي المكوس في تعبير الفقهاء المحرمة عندهم والمشؤومة على كل أمير يلجأ إليها، ثم احتكر للدولة بيع الملح والصابون، وأخيرا لجأ إلى أسوأ الحلول كلها وهو الإلتزام، أي بيع الجباية إلى شخص مقابل تسبيق قد معين من المال، وهو نظام قديم دلت التجربة على أنه لا يفيد إلا الملتزم، ويزيد نقمة الجمهور على الدولة دون التخفيف من أعبائها<sup>1</sup>.

**اقتناعا** من السلطة الحاكمة بضرورة المضي قدما في سياسة الإصلاحات العسكرية للحاق بأوروبا القوية، أو على الأقل الوقوف في وجه الأطماع الاستعمارية، أسست وزارة حرية على غرار النموذج الفرنسي الذي عاينه خير الدين التونسي أثناء إقامته بفرنسا، وذلك لتدبير الشؤون العسكرية، وعين خير الدين نفسه وزيرا لها في يناير 1957م، وقد قام بإصلاحات عسكرية مهمة، وعيا منه بضرورة إعداد القوة العسكرية الكافية لرد العدوان الخارجي، وتحقيق الإكتفاء الذاتي في مجال الأسلحة لأن "احتياج المملكة لغيرها مانع لاستقلالها وموهن لقوتها، لا سيما إذا كان متعلق الاحتياج بالضروريات الحربية، التي لو تيسر شراؤها زمن الصلح، لا يتيسر ذلك وقت الحرب ولو بأضعاف القيمة". ولتأكيد قناعته ساق قولة لأحد المؤلفين الأوروبيين في السياسة الحربية: "إن الممالك التي لا تنسج على منوال مجاورها فيما يستحدثونه من الآلات الحربية والتراتب العسكرية توشك أن تكون غنيمة لهم، ولو بعد حين"<sup>2</sup>.

من أهم إصلاحات خير الدين التونسي توسيعه لميناء "حلق الوادي" وهو أهم ميناء تونسي، كما أنشأ مصنعا بخاريا لبناء السفن وإصلاحها، وعمل على تحديث مؤسسة الجيش وتأهيلها لتكون في مصاف نظيراتها في أوروبا، بعد أن كان قد شاهد بأم العين في رحلاته الشوط البعيد الذي قطعتة مؤسسة الجيش في الأمم الأخرى.

---

1- العروي : **مجمّل تاريخ المغرب**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1999 م، ج، 3، ص. 136.

2- التونسي: المصدر السابق، ص. 114 .

ولقد أظهر خير الدين التونسي كفاءة عالية في تدبير هذا القطاع، وفي هذا الصدد يقول المؤرخ الهولندي **فان كريكن**: "ظهر خير الدين في خطته كوزير للحربية جديا وكفأ، فقد نجح على الصعيد الإداري، أما على الصعيد المالي الذي يخضع فيه لإرادة الآخرين فإنه لا يقدر على انتهاج تصرف سليم، إذ اضطر أن يعمل بميزانية لم تضبط ضبطا محكما، ومع وزير أكبر، هو **مصطفى خزندار**، كان مشغولا بمصالحه الخاصة، أكثر من انشغاله بأجال الدفع". ويضيف **فان كريكن قائلا**: "ورغم أن خير الدين لم يقدر على تحقيق كل أغراض، فإن قائمة نشاطاته على رأس وزارة الحرب، التي قضى فيها خمس سنوات، كانت ايجابية، فهو لم يقصر فيها"<sup>1</sup>.

لقد شغفت النخبة التونسية، ولا سيما **البايات** الذين حكموا تونس بعد فاجعة الجزائر، بتحديث العسكر وخاصة **أحمد باي شغفا طفوليا**، ولما زار الأمير الألماني، **بوكليروسكاو** (1785 - 1871م) **حسين باي**، لم يجد من كلام يدغدغ به مشاعره سوى الثناء الكاذب على جيشه، وفي هذا الصدد "...وخاطبته منوها بالهيئة التي صارت عليها قواته النظامية، اقتداء بالمنهج الأوربي، فعرض علي ببداهة أن يجعل هذه الجيوش تقوم بمناورات أمامي" وأضاف معبرا عن استصغاره لهذه المناورات مقارنة بنظيرتها في أوروبا "حتما سأجدها بعيدة كل البعد عن قدوتها من الجيوش الأوربية"<sup>2</sup>.

رغم كل المجهودات التي بذلت من طرف **البايات**، لم يتوفر لتونس جيشا بالمعنى الصحيح، قادر على رد العدوان الخارجي، بدليل احتلالها من طرف فرنسا سنة 1881م، بقدر ما شكل قوة رادعة وجهت بالأساس لحماية النظام وحفظ الأمن في الداخل، والذي كان يستجيب لمطالب المستوطنين والقناصل المتكلمين باسمهم.

### **المطلب الثاني: الرحلة السفارية وأثرها في عملية إصلاح الجيش المغربي.**

لعل هزيمة المغرب في معركة **إسلي**، قد قوت من الوعي بضرورة الاهتمام بحس التهيئ والاستعداد لمثل تلك المواجهات، وترسخ هذا الوعي في عهد السلطان محمد بن عبد الرحمان لما اندحر الجيش المغربي ثانية أمام الإسبان في **وقعة تطوان**، والذي تنبه إلى مواطن الضعف في الجيش، و من أبرز هذه المواطن، ضعف التدريب وتنوع التركيب واختلاف القيادات ورداءة التجهيز وقلة التغذية ونقص الرواتب، وهو ما كان ما يتناقض مع أحوال جيوش أوروبا التي رصدتها عيون الرحالة المغاربة.

---

1- كريكن، فان: البلاد التونسية وخير الدين التونسي، 1850-1881، ترجمة: البشير بن سلامة، دار سحون، تونس، الطبعة الأولى، 1988 ص. 140.

2- التيمومي، الهادي: تونس والتحديث، 1831-1877، دار محمد علي للنشر، تونس، الطبعة الأولى، 2010، ص. 131

فكل شيء في هذه المواجهات العسكرية، التي جرت كان يرمز إلى أزمة الدولة والمجتمع المغربي في القرن التاسع عشر، ولم يعد في الوسع أن تجري فيه، في نظرهم، حرب حقيقية مع الدول الأوروبية الكبرى، إذ أن **التفاوت صار عظيما**. فلقد تبين للجميع بعد الهزيمتين ضعف وهوان الجيش المغربي في مواجهته للجيش الفرنسية والإسبانية، ومن ثم لم يكن أمام معظم أفراد النخبة العاملة، إلا التفكير في تقوية وإصلاح جيشهم وفق النظام الحديث، الذي رصدته عيون الرحالة المغاربة، وأسهبوا في إبراز مظاهر قوته وحدثاته العسكرية، ووقفوا عند أسباب وعوامل قوة الجيوش الأوروبية .

وهكذا أثر السفراء المغاربة، لا سيما من كان مقربا من الدوائر المخزنية ، كمحمد الصفار صاحب أول رحلة مغربية بعد انتكاسة إيسلي إلى فرنسا سنة 1845م، والذي شغل بعد عودته منصب الصدر الأعظم في فترة المولى عبد الرحمان، في إقناع المخزن بضرورة الاقتباس من التجربة الأوروبية العسكرية، وإحداث جيش نظامي على الطراز الأوروبي.

وكنتيجة لذلك، لجأ السلطان محمد الرابع الذي إلى استشارة النخبة العاملة في مسألة تنظيم الجيش تنظيميا جديدا وحديثا، والدلالة الأساسية لهذا الاستفتاء التردد الذي كان مسيطرا على بعض عناصر المخزن خوفا من معارضة البعض لهذا الإصلاح، ممن قال فيهم السليماني : "لم يزالوا ينظرون إلى كل نظام جديد بالعين السخينة"<sup>1</sup>.

ومما جاء في نص الاستفتاء كما ورد عند الناصري "ثم اقتضى نظرنا- يقول السلطان مخاطبا أمناء الدار البيضاء، أن نسد الأمر في ذلك لأهل العلم يقرؤا للناس حكمه تقريرا تشرح له الصدور، ويعمل بمقتضاه في الورد والصدور، وإن كان جلهم يعلم هذا، إذ من المعلوم أن الرعية لا يستقيم أمرها إلا بجند قوي بالله. ولا جند إلا بمال. وهو لا يكون إلا من الرعية على وجه لا ضرر فيه"<sup>2</sup>.

1: فتاوى الفقهاء وردودهم على استشارة السلطان في مسألة تنظيم الجيش وفرض الإعانة .  
يمكن اعتبار الفتاوى والرسائل التي تناولت قضية الجيش واتخذته محورا لها، وانتقدت طريقة تشكيله على النهج القديم، وطالبت بإحداث العسكر النظامي، امتداد بشكل أو بآخر، إلى فجعية إيسلي وتطوان أولا، وإلى تقارير الرحلات السفارية التي رصدت مظاهر حداثة الجيوش الأوروبية في بلدانها ثانيا .

1- بلقزيز : المرجع السابق، ص . 19 .

2- الناصري : المصدر السابق، ج ، 8 ، ص . 118 .

إن ما رآه السفراء المغاربة وعائنه في أوروبا، ولا سيما من رحل منهم مكتوبا بنار الهزيمة العسكرية، كحال محمد الصفار بعد فاجعة إيسلي، وإدريس العمراوي والظاهر الفاسي بعد نكسة تطوان، أكد لهم أن سبب تفوق الجيوش الأوروبية، كامن في نظامها العجيب، وضبطها الغريب، وسيادة القانون على جميع أفراد الجيش، بل المجتمع كله، الأمر الذي يؤدي إلى انتشار العدل والأمن، كما وعوا أن ذلك النظام ملك مشاع للبشرية جمعاء، مادام لا يرتكز على دين بعينه، ويحق لكافة الشعوب مهما اختلفت دياناتها أن تقتبسه لتمكن من بناء جيش يضاها نظيره الأوروبي قوة وتنظيما .

لقد كان السفراء المغاربة، أكثر علماء المغرب استيعابا للتجاوز الحضاري الأوروبي، ووعيا بجدة الفارق في القوة العسكرية ، وفهما لمقومات الحداثة الأوروبية، وأكثر حماسة في الدعوة إلى الإنفتاح عليها والإقتباس منها في بناء جيش نظامي قادر على رد العدوان ومواجهة الاطماع الإستعمارية. ولعل خبرة بعضهم بشؤون الدولة، وتمرسهم بصعوباتها، بسبب موقعهم الوظيفي في المؤسسة المخزنية، وقربهم من سلطة اتخاذ القرار، جعلت دعوتهم لتأسيس جيش نظامي تحظى بالقبول لدى السلاطين والعلماء المغاربة .

#### أ : مسألة تنظيم الجيش:

لقد اعتبرت قضية تحديث الجيش المغربي خلال القرن 19، بعد وعي النخبة الحاكمة والمتقفة المغربية للفتاوت العسكري في موازين القوى بين المغرب وأوروبا، نازلة نزلت بالمجتمع المسلم لا بد لها من فتاوى ينجزها العلماء، لأن الأمر أصبح يتعلق بأمة تريد الإصلاح لتساير العصر، ولتتمكن من رد العدوان الخارجي الذي أصبح خطره يتعاظم بعد الهزيمتين القاسيتين.

تحتفظ الخزانة المغربية بعدد من المخطوطات والكتب التي برزت في موضوع تحديث الجيش في فترة الفاصلة بين "معركة إيسلي" و"فتنة أبي حمارة"<sup>1</sup> وهي تكون في جملتها تصورا إصلاحيا متكاملًا عن مؤسسة ستكون فاتحة تصورات الخطاب النهضوي الإصلاحية .

---

1- هي عبارة عن مجموعة من التأليف والفتاوي، انحصر موضوعها في طرح مسألة الإصلاح العسكري (إحداث جيش النظام وتوفير المال اللازم لذلك، مسألة المعونة) والتأليفان المشهوران هنا هما :

- "كشف الغمة ببيان أن حرب النظام حق على هذه الأمة" لمحمد بن عبد القادر الكردودي، طبعة حجرية، فاس، 1985

- "عناية الاستعانة في حكم التوظيف والمعونة" لعلي السملالي مخطوط بالخزانة العامة بالرباط ، دال .

الذي يظهر بعد الاطلاع على مواقف العلماء في النازلة المعروضة سواء تلك التي أجابت عن كتاب السلطان مباشرة أو تلك التي رأى أصحابها الكتابة في الموضوع والتفصيل فيه من الناحية الشرعية والسياسية، باستثناء القليل من العلماء الذين اتخذوا موقفا معارضا لهذه الإصلاحات، أن أجوبتها كانت تقريبا بالموافقة على تحديث المؤسسة العسكرية عن طريق "التوظيف والمعونة" بالرغم مما كان يثيره الأمر من وجهة كانت تحتاج عند أهل الفتوى إلى جرأة كبيرة لقبول العمل به، تجنبنا لكل اصطدام مع الحكم الشرعي، وإبداء نوع من التفهم لضرورات العصر الذي بات يفرض على المسلمين بالمغرب البحث عن الحل الوسط يجتهد فيه علماء الأمة حماية للمصالح.

ولقد انطلق اجتهاد هؤلاء الفقهاء من منطلقين أساسيين:

- منطق توجيه الفقيه للنصوص الشرعية وللأقوال الفقهية . فمن النصوص الشرعية التي استشهد بها

الفقهاء للتأكيد على وجوب النظام المخصوص الذي هو كالبنيان المرصوص قوله تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۙ هُنَالِكَ الْبَاقِيَ الَّذِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مُسْتَقَرًّا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ ۖ﴾

﴿لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۙ هُنَالِكَ الْبَاقِيَ الَّذِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مُسْتَقَرًّا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ ۖ﴾

﴿لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۙ هُنَالِكَ الْبَاقِيَ الَّذِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مُسْتَقَرًّا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ ۖ﴾

﴿لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۙ هُنَالِكَ الْبَاقِيَ الَّذِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مُسْتَقَرًّا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ ۖ﴾

﴿لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۙ هُنَالِكَ الْبَاقِيَ الَّذِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مُسْتَقَرًّا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ ۖ﴾

﴿لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۙ هُنَالِكَ الْبَاقِيَ الَّذِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مُسْتَقَرًّا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ ۖ﴾

﴿لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۙ هُنَالِكَ الْبَاقِيَ الَّذِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مُسْتَقَرًّا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ ۖ﴾

﴿لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۙ هُنَالِكَ الْبَاقِيَ الَّذِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مُسْتَقَرًّا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ ۖ﴾

="مجمع الكفرة بالسنام والحسام في بيان إيجاب الاستعداد لحرب النظام" لمؤلفه الغالي بن محمد اللجائي كتبه حوالي سنة 1865 مخطوطة بالخزانة الحسينية رقم 965. وهو أول تأليف في الموضوع، ويتميز بنظرته الإصلاحية الشمولية التي تربط ما بين تنظيم العسكر وإصلاح جهاز المخزن وضبط الأمن، ونظام القبائل وضرورة الاعتناء بالشؤون الاقتصادية العامة .

- "بشارة تسر الناظرين على حديث لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين" لمؤلفه محمد دعي ماني بن محمد الصنهاجي الفاسي وضعه في سنة 1886م ، وتوجد نسخة منه بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم 183ك. وهذا تأليف متميز من حيث أنه يتجاوز فكرة جيش النظام إلى فكرة التنظيمات التي كان قد شرع في تطبيقها داخل الإمبراطورية العثمانية. لا سيما في عهد السلطان عبد المجيد باسم "خط كلخانة" و"خط هايمون" ، والمؤلف لا يكاد يخفي دعوته "لأهل الوقت" في المغرب لأنه بسببه نجت دولة العثمانيين واستفحلت وعظمت شوكتها بعد أن كان تخللها فتور". انظر محتوى هذه التأليف عند المنوني، مظاهر يقظة المغرب الحديث، وانظر أيضا العمري أحمد، نظرية الاستعداد في المواجهة الحضارية للاستعمار : المغرب نموذجاً، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، سلسلة الرسائل الجامعية 20 ، 1996 الطبعة الأولى ، 1996.

- "تاج الملك المبتكر ومداده من خراج وعسكر" لمؤلفه محمد ابن محمد الفلاق ، ورقة مخطوط بالخزانة الحسينية رقم 2502.

1- سورة الصف، الآية ، 4 .

ومن السنة النبوية قوله صلى الله عليه وسلم " ألا إن القوة

الرمي"<sup>2</sup>. ومن الأقوال الفقهية إفتاء الفقهاء المالكية بجواز المقاتلة بالنار إن لم يكن غيرها . ثم إن حرب النظام ليست من البدع الشنيعة في الدين، بل هي مطلوبة ومحمودة في وقت أصبح فيه نجاح القتال مشروطا بمقابلة الشيء بمثله أو أقوى منه، فالبارود مثلا : "لم يكن في زمانه صلى الله عليه وسلم، ولا زمان الصحابة والتابعين... حتى كانت أواخر المائة الثامنة. فحدث البارود وظهرت فيه مزيد قوة على الرمي... فعلم أهل الإسلام أن فيها الكفار لا يكون إلا باتخاذ البارود"<sup>3</sup>.

ومن خلال النصوص الشرعية والآراء الفقهية أكد الفقهاء أن النظام الذي هو تحديث الجيش يمثل جزءا من كل، فهو جزء من منظومة، هذا الكل المنظومة هو الاستعداد، فالنظام إذن جزء من أجزاء منظومة الاستعداد، وكما أن حكم النظام ( الجزء هو الوجوب : فإن حكم الاستعداد (الكل) هو الوجوب كذلك. و"حينئذ فالواجب الاستعداد باتخاذ حرب النظام، إذ به تحصل الحماية والعز للإسلام والمذلة والمهانة للكفرة اللئام"<sup>4</sup>.

- منطق الوعي بالتجاوز الحضاري الأوروبي : هذا المنطق أو العامل هو الذي جعلهم يميزون به بين أساليب وأدوات القتال من حيث نجاحاتها وفعاليتها، حيث حصل الوعي لدى هؤلاء الصنف من العلماء بأن الاتصاف بالشجاعة والثبات في القتال، تظل في حاجة ماسة إلى وسائل قتالية متطورة حديثة كما هو الحال عند العدو.

---

1- سورة الأنفال، الآية ، 60.

2 - عن عقبه بن عامر : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : " ألا إن القوة الرمي " قالها ثلاثا . رواه مسلم في صحيحه (3 - 1522) كتاب الإمامة ، باب فضل الرمي والحث عليه وذم من علمه ثم نسيه ، حديث رقم ( 1917 ) .

3- داوود : تاريخ تطوان، مصدر سابق، ج 5 ، ص ، 342 .

4- اللجائي :مقمع الكفرة ، مصدر سابق، نقلا عن العماري أحمد : نظرية الاستعداد في المواجهة الحضارية للاستعمار :

المغرب نموذجاً، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، سلسلة الرسائل الجامعية رقم ، 20 ، الطبعة الأولى، 1996 م .

فقد حاول اللجائي<sup>1</sup> مثلا في كتابه **مقمع الكفرة**، تقديم المبررات الواقعية التي تفرض على المغرب اقتباس تقنيات النظام الأوربي الحديث في المجال العسكري بالخصوص. ويمكن فرز هذه المبررات الواقعية، أو المتغيرات الجديدة وما تميزت به من انقلاب حاد في توازن القوة لصالح **الأخر الأوربي**، وتلخيصها في ما يلي:

1- **يعترف اللجائي** بتطور أوروبا، وتفوقها عسكريا وتقنيا، تفوقا مدهشا، مستحضرا بشكل غير صريح ما وصف به الصفار الجيوش الفرنسية في **نصه الرحلي**، وانطلاقا من ذلك يسجل استحالة وقوف التقنيات العسكرية التقليدية العتيقة في وجهها<sup>2</sup> ليخرج من ذلك بحكم يدعو فيه إلى وجوب اقتباس تقنيات النظام العسكري الأوربي فيقول "اعلم أيها الملك العدل، أن حرب النظام في عهدنا وجوبه يتأكد، والفتيا باتخاذ عساكره تتأيد، لما فرط في آخر الباب الأول. أن الروم ذاك عقولهم في استنباط واستخراج حزب لا تطاق محاربتنه، فأحدثوا الحرب المعروف في العهد، وبالغوا في إحكامه وإتقانه بين الأنام"<sup>3</sup>.

2- **يسجل كذلك** بأن هذا التفوق التكنولوجي المدهش لأوروبا أصبح يشكل تهديدا خطيرا للعالم الإسلامي، وأن الروم بهذا التفوق تمكنوا فعلا من تحقيق نتيجتين خطيرتين هما:

أ- **الشروع في غزو البلدان الإسلامية واحتلالها** "فلما أحكموه على ما استطاعوه، وأتقنوه على ما أحدثوه واخترعوه... مدوا أيديهم للمسلمين".

ب- **تطويق العالم الإسلامي** "وأرضهم به طافوا، فصار المسلمون إذا شاهدوه رعبوا وخافوا".

وبالمقابل **يعترف اللجائي** بتراجع العالم الإسلامي وضعفه وعجزه عن اختراع تقنيات مضادة لتقنيات النظام الأوربي. ويسجل اقتناع ملوك المسلمين، لما عجزوا حسب زعمه، بضرورة اقتباس تقنيات النظام العسكري الغربي، "فذاكت عقول ملوك الإسلام في حرب يقابل به النظام، فلم يوجد له قامعا، ولا لبأسه دافعا إلا أن يقابل بشكله".

---

1- هو الغالي بن محمد اللجائي العمراني الحسني، لا نعرف تاريخ ولادته، درس بمدينة فاس، وأصبح مدرسا مفتيا في مدينة فاس، كما تقلد خطة القضاء بمدينة وجدة، له مجموعة من المؤلفات، منها دوحة المجد والتمكين في وزارة ونسب العالمين ابني عشرين - تأليف في البدع - الروض الزاهر الوريث في نسب العارف بالله مولاي عبد الرحمان الشريف - مقمع الكفرة باللسان والحسام في بيان إيجاب الإستعداد وحرب النظام. توفي سنة 1289\_1872. انظر، العماري: المصدر السابق، ص. 315

2- يؤكد الناصري هذه الحقيقة فيرى أن الأسلحة المغربية مثل الخطب إذا فورنت بالأسلحة الأوربية، المصدر السابق، ج، 8 ص. 208.

3- العماري: المصدر السابق، ص. 320 . .



بناء على ما سبق، يصرح اللجائي بأن المغرب هو البلد الوحيد في العالم الإسلامي، الذي ظل منغلقا وجامدا على التقنيات العتيقة البالية، حتى تعرض لهجوم "الأخر الأوربي"، ملمحا بذلك إلى معركة إيسلي (1844م) (حرب تطوان) (1860) ومشيرا في الوقت نفسه إلى فشل التقنيات العتيقة في صد الهجومات الأوربية عليه، ليخلص من هذا التبرير إلى النتيجة التي يسجل فيها حتمية اقتباس المغرب للنظام الأوربي الذي فرضته مجموعة من الاعتبارات هي: "أن حماية الدين لا تحصل إلا به، على ذلك طبقت الآراء والأنظار عدا القطر الديني المغربي، بقي أمره في الحرب على حاله إلى أن مد الكافر يده لأرضه ورجاله. فحينئذ تعين على إمامه. أن يتخذ ما اتخذه ملوك الإسلام من الاستعداد بالمدفع والمهراس وعسكر النظام. وليكون الفرع كالأصل في كونه لبنة التمام والختام"<sup>1</sup>.

إذن فمن الناحية العقلية والشرعية ليس هناك ما يمنع المسلمين المغاربة من ترتيب مؤسستهم العسكرية وفق "النظام" كما كانوا يشاهدون منافعه في ميادين المعركة، وكما كانت تدرس علومه وتقنياته بحياتهم العلمية بأوربا، وكما وقف عليه الرحالة السفراء المغاربة أثناء حضورهم للاستعراضات العسكرية بالدول الأوربية وزيارتهم لمصانع ومعامل السلاح. فالنصر إنما حصل للكفار في إيسلي وتطوان بفضل النظام الذي أحدثوه، فنسوا وأنسوا كيفية الحرب الماضية لما فيها من غاية الترتيب وشدة الحزم وتمام مراعاة الحذر.

نستنتج مما سبق، تأكيد النخبة العاملة المغربية على وجوب إصلاح الجيش باتخاذ "جيش النظام"، ويتعضد ذلك بقاعدة "أن مالا يتم الواجب إلا به فهو واجب"، لكن هل استطاع المغرب أن يكون جيشا نظاميا عسكريا يستجيب لتحديات المغرب آنذا؟ هل وفق المغرب في بناء القوة العسكرية التي تمكنه من فرض ذاته في الساحة الدولية، ومقاومة التدخل الأوربي واستتباب الأمن ونشر سلطة الدولة؟.

ب: السفراء المغاربة ومسألة فرض المعونة على التجار لتجهيز الجيش .

إن أعظم مشكلة كانت تؤرق السلاطين المغاربة التواقين إلى تحديث الدولة المغربية وبناء جيش قوي، كانت تتمثل في ندرة الموارد المالية، فتحديث الجيش وتحديث الإدارة وإستحداث أسطول بحري، وإرسال البعثات التعليمية إلى الخارج، واستحداث صناعة عصرية، كان يتطلب أموالا وفيرة، لا يستطيع بيت المال الإيفاء بها بسبب محدودية النظام الضريبي الشرعي وعدم إمكانية تطبيقه على القبائل السائبة والأجانب الأوربيين، والمحامين المغاربة، وإعفاء فئات من النخبة المخزنية، كالأشراف والعلماء من أداء الضرائب، وحرمان المخزن من حرية العمل التشريعي فيما

1- نفسه .

يتعلق بواجبات الجمارك بمقتضى اتفاقيات دولية ، هذا بالإضافة إلى مديونية المغرب لأوروبا، مديونية ابتدأت منذ هزيمة تطوان ، وتفاحلت على إثر اصدار قانون " الترتيب " العزيري، وثورة بوحمارة<sup>1</sup>.

فإشكالية تحديث الجيش، مرتبطة ارتباطا وثيقا بإيجاد موارد قارة لتمويل هذه الإصلاحات، ولذلك اهتم الصغار وعدد من السفراء المغاربة باستكشاف موارد ومصادر الميزانية للدولة الفرنسية التي أتاحت لها إمكانية بناء جيش نظامي حديث، وتجهيزه بأحدث أنواع الأسلحة والعناية بلباسه وطعامه، ومسكنه، ونظافته، وصحته، وسلوكه، حتى يكون في أتم الإستعداد لحفظ الأمن والنظام في المدينة والمجتمع، والدفاع عن الدولة ضد أعدائها .

وفي هذا الإطار، لفت الطاهر الفاسي ومحمد الصغار في نصوصهما الرحلية، إلى أن فئة التجار في دول أوروبا هي التي تتكلف عادة بمؤوونة ذلك الجيش، أما في أيام الحرب، فإن الدولة هي التي تتكلف وحدها بتوفير حاجياته المختلفة، وإذن ليست الدولة حسب رواية السفراء المغاربة وحدها المعنية بأمور الجيش، بل فئة التجار أيضا، ولعل هذه الفكرة هي التي انتشرت بعد هزيمة تطوان، وجعلت المخزن يفكر في أن المال الضروري لتحديث الجيش ودفع غرامة للإسبان، يجب أن يدفعها التجار المغاربة من مالهم، مما دفع السلطان لاستشارة العلماء في هذه الإجراء الغير المسبوق في تاريخ المغرب. قال السلطان مولاي محمد بن عبد الرحمان: "صالحناهم<sup>2</sup> على مال دفعنا لهم منه ما كان بيت المال، ثم لما شددوا الآن في الاقتضا، واستعجلوا وراموا نقض ما عقدناه معهم ليتوصلوا لما فاتهم أولا من الاستيلاء لا بلغهم الله ما أملوا"<sup>3</sup>. ما العمل إزاء هذه النازلة الفقهية ؟ أو لنقل، كما جاء في استفتاء هذا السلطان، ما قول الفقهاء في المال الواقع عليه الصلح: هل يفرض على الرعية حاضرها وباديها ؟ أم يلجأ إلى المكوس<sup>4</sup>؟

لم يكن من السهل على السلطان الرجوع إلى الأخذ بالمكوس، لأن إحداثها يثير تدمير الفئات الدنيا والمتوسطة كما أن تشريعها يفرز الاستنكار، لأنها باتفاق أغلب الفقهاء المغاربة بدعة تخالف أحكام الشريعة

---

1 - الحيمر، عبد السلام : النخبة المغربية وإشكالية التحديث، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2001، ص. 142 .

2- يقصد الإسبان.

3- داود، محمد : المصدر السابق، ج ، 5 ، ص . 102 .

4- المكوس هي الضرائب على المبيعات في الأسواق، أو هي الرسوم المضروبة على المعاملات والمواد الخام، للإطلاع على تفاصيل تاريخ المكس انظر بتفصيل، آفا عمر : مسألة النقود في تاريخ المغرب في القرن التاسع عشر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، أكادير، 1988 الطبعة الأولى ، ص . 480 .

الإسلامية، لذا سارع انطلاقاً من هذه الاعتبارات، إلى ما سماه بـ "بذل الإعانة على الدين على أن لا يصل لإخوانهم ذل ولا إهانة"<sup>1</sup>.

كان من العلماء الرافضين مولاي أحمد العراقي، وقد بنى حكمه في عدم الجواز على ما "في الصلح بالمال الكثير، الذي ليس في بيت المال، من توهين الإسلام وإضعاف قوته، وما في جمعه من الرغبة في إضعافهم ونفرتهم من السلطان، وما في الأمرين معا من إضعاف الجند واستسلامنا للعدو."<sup>2</sup>

ويعتبر العراقي أن الإجراء الصالح هو الذي يأخذ بأرجح المصالح، إذ تعارضت في هذه النازلة مصلحتان: مصلحة إنقاذ قطر ثغر مغربي وتخليصه بالمال من الاحتلال، ومصلحة إنقاذ قطر بالقتال، وفي التعارض يقدم الراجح على المرجوح، وما يعضد ذلك قاعدة درء المفسد أولى من جلب المصالح، ويعنى العراقي بذلك درء المفسد الناشئة عن الصلح، أولى من جلب المصالح الناشئة عنه، وأي مصلحة، كما قال: "في إنقاذ ثغر بإهلاك قطر، إي إهلاك الناس مالياً"<sup>3</sup>.

يظهر من جواب الفقيه أحمد العراقي أنه لا يستحضر واقع التفاوت بين المغرب وأوروبا المهددة له في سيادته، كما يغيب عنه ما عليه واقع المجتمع المغربي من ضعف وهوان وانكسار، على المستويين العسكري والروحي.

بالمقابل، نجد فريقاً آخر أقر بشرعية الإعانة، ومن بينهم، الأخوان المهدي وعمر بن سوادة، ومحمد الدويري، ومحمد الحمادي المكناسي، ومحمد بن محمد الفيلاي، وأحمد المرنيسي، ومحمد الفلاق. وقد أجمع هؤلاء على أن عجز بيت المال من "الضرورات التي تبيح المحظورات"، وأقروا بجمع المال من الرعية، شريطة عدم الإجحاف وإلحاق الضرر بها.

إن الضرورة التي علل بها هؤلاء حكمهم الشرعي بجواز الإعانة، فرضها وعيهم بالتجاوز الحضاري الأوروبي للمجتمعات الإسلامية عامة، والمغربي خاصة، والتفاوت الحاصل في القوة بين عاملين متغايرين، لاسيما في القوة العلمية والعسكرية، دليل ذلك أن ما عند الجند المغربي من استعداد هو لا شيء بالنسبة لما عند النصراني.

1- ابن زيدان: إتحاف أعلام...، مصدر سابق، ج، 3، ص. 480.

2- داود: المصدر السابق، مصدر سابق، ج، 5، ص. 103.

3- نفس المصدر، ص. 104.

فرغم ورود أحاديث صحيحة تحرم إجبار المسلمين على دفع المال ظلما ، لقوله صلى الله عليه وسلم: " لا يدخل الجنة صاحب مكس"<sup>1</sup> لكن لم يستلزم هذا التحريم أن يغيب عن أفراد أكثر من النخبة العالمة إدراكهم ووعيتهم ما يفرزه منطق التفاوت من ضرورات، وفي طليعتها ضرورة دفع المخزن ما في ذمته من غرامات، وإلا "فالصلح ينحل وتحصل مفسد عظيمة، لا يبقى معها دين ولا مال ولا عرض"<sup>2</sup> إضافة إلى ما يتطلبه تنظيم الجيش وغيره من نفقات.

2-الإجراءات المتخذة لتقوية الجيش المخزني ومساهمة السفراء المغاربة فيها :

أ : إحدات وزارة الحرب .

أشار الصفارسنة في نصه الرحلي المدون بعد هزيمة اسلي، إلى وجود وزارة خاصة بالحرب، على رأسها وزير مهمته "النظر في كل المراكب وتعليم علوم البحر والصنائع التي تخصه، وسائر الأمور البحرية"<sup>3</sup> والأمر نفسه، أكد عليه الوزير ادريس العمراوي في رحلته الموسومة ب "تحفة الملك العزيز بمملكة باريز" والتي جاءت بعد نكسة تطوان، حيث أشار إلى مهمة وزير الحرب بقوله "وهو أكبرهم مرتبة وهو الذي يعقد الحرب والمهادنة ويباشر العسكر ويولي ويعزل ... ويتفقد العسكر في كل محل كان، ويرتب دواوينهم ويعرف أسمائهم ويعرف جلهم بأعيانهم ، ويكلم الصغير والكبير منهم بلا واسطة ويسئله [ هكذا ] عن حاله وعن كسوته وفراشه وسلاحه..."<sup>4</sup> وامتدادا لذلك، أحدث السلطان مولاي محمد بن عبد الرحمان وزارة الحرب، وعيا منه بأهمية هذه الوزارة في تحديث الجيش وتنظيمه، وأسند شؤونها إلى عبد الله بن أحمد أخي سي موسى بن أحمد، حيث أسندت إليه مهمة الإشراف على الجيش، وعليه "العهد في السلاح والذخائر الحربية واختيار من يوجه من فرقه وقواده

---

1- رواه أبو داود في سننه ( 3 / 132 ) كتاب الخراج والإمارة والفيء، باب في السعي على الصدقة، حديث رقم (2937)

والدرامي في سننه ( 1 / 488 ) كتاب الزكاة، باب كراهية أن يكون الرجل عشارا، حديث ( 16666 ) الحاكم في المستدرک

1 / 562 ) كتب الزكاة، حديث رقم 1469

2- داود : المصدر السابق، ج ، 5 ، صص . 99 – 100 .

3-الصفار : المصدر السابق، ص . 218 .

4- العمراوي : المصدر السابق، ص . 97 .

إلى ما اقتضاه النظر السلطاني لنواحي مملكته واختيار أعداده وتقييدها بقائمة يومية تدفع للجلالة السلطانية بعد إشراف الوزير الصدر عليها وامضائها باسمه".<sup>1</sup>

### ب : فرض التجنيد الإجباري :

لفت إدريس العمراوي في رحلته، إلى أن من أهم أسباب قوة الجيوش الفرنسية، التجنيد الإجباري، الذي يفرض على كل فرنسي بلغ سن الواحدة والعشرين، مهما يكن انتماءه الاجتماعي والطبقي، لذا بادر الحسن الأول إلى الإستفادة من التجربة الفرنسية في هذا المجال، وتم فرض نوع من التجنيد الإجباري ، حيث طلب من كل مدينة من المدن الرئيسية للبلاد أن تبعث بعدد من المجندين يتوافق وحجمها الديموغرافي والجهوي، فمدينة فاس ومراكش فرض عليها دفع خمسمائة نفر، أما المدن السائحية فقد فرض عليها دفع مائتين نفر<sup>2</sup>.

إضافة لذلك، خصص جيش كل جهة بدفتر واحد على غرار الجيش الفرنسي، لتسجيل أسماء المنخرطين في الخدمة العسكرية كل واحد باسمه ونسبه ووصفه وموضع سكنه وحرفته .

وبفضل هذه الإجراءات ، بلغ عدد المجندين 25 ألف جندي، وقد تم إخضاع هؤلاء المجندين لتدريبات عسكرية تمه بالأساس استخدام الأسلحة الجديدة والتمرس على تقنيات الحرب الحديثة.

وقد توبعت هذه الإجراءات في عهد المولى عبد العزيز، وذلك من خلال الزيادة في مراتب الجيش وتنظيم توزيعها على يد أمناء محلفين، وكذا تغيير اللباس العسكري التقليدي بلباس آخر يشبه الزي العسكري الأوروبي الذي وصفته كتابات سفراءه إلى الدول الأوروبية .

### ج : التأطير والتدريب :

أشار السفراء المغاربة في نصوصهم الرحلية اعتماد الخدمة العسكرية في أوروبا على التدريب والتعلم في مدارس عسكرية متخصصة في تكوين الأطر العسكرية، يتخرج منها الجنود بثقافة عامة، تشتمل فيما تشتمل عليه على معرفة بالقوانين والتشريعات العسكرية إلى جانب التدريبات الحربية . وفي هذا السياق نذكر بما قاله العمراوي في نصه الرحلي : " فلا يخرج من تلك المدرسة حتى يكون عارفا بجميع الملازم والأحكام المرتبة على الجرائم."<sup>3</sup> وتأثرا بذلك، اتخذ السلطان مجموعة من الإجراءات التنظيمية الكفيلة بتدريب وتكوين الجيش المغربي تكوينا حديثا

---

1- ابن زيدان، عبد الرحمن : إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، مكتبة الثقافة الدينية، الالكترونية، القاهرة، 2008 ، تاريخ التعميل، 13-4-2013 ، ج ، 2 ، ص . 123.

Laroui : les origine,op-cit, p. 272-2

3- العمراوي : المصدر السابق، ص . 116.

، وقد اتبع المخزن في سياسته العسكرية الجديدة، السياسة التي اتبعتها بايات تونس في إصلاح الجيش التونسي قبل الاستعمار الفرنسي ، إذ أعادوا هيكلته وأرسلوا بعثات للتدريب في الخارج، واستدعوا بعثات لتدريب العسكر التونسي، وسلحوا هذا الجيش بأسلحة أوربية حديثة.

لكن الاختلاف تجسد في اعتماد بايات تونس مباشرة النمط الأوربي، كما بينا ذلك في المطلب الأول من هذا المبحث، في حين مر إصلاح الجيش في المغرب بمرحلتين : مرحلة تنظيم الجيش على النمط العثماني ثم مرحلة النمط الأوربي.

اعتمد المخزن المغربي في المرحلة الأولى على مدرين مسلمين من الولايات العثمانية العربية، تونسيين وجزائريين كعلي حمودة الجزائري ومحمد خوجة التونسي، والذي وضع رسالة في تنظيم الجيش سنة 1851م<sup>1</sup>، وغيرهم ممن أسندت لهم مهمة تنظيم الجيش المغربي على نسق الجيش العثماني.

ويمكن أن يفسر هذا الالتفات إلى النموذج العثماني في عملية تأطير وتدريب الجيش المغربي خلال القرن التاسع عشر بالعامل النفسي المتمثل في النفور والخوف والاحتراز من كل ما يمت بصلة للأوربيين الذين احتلوا الجزائر، وألقوا الهزيمة النكراء بالجيش المغربي في تجربتين قاسيتين تمثلتا في وقعتي **إسلي وتطوان**، ومما لا شك فيه أن السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان الذي عاش هذه الظرفية الحرجة، كان ينفر وينبذ كل تقارب وتعاون وثيق ومستمر مع هذه الدول الأوربية التي أبانت عن نواياها التوسعية في البلاد، ومن ثمة إقدامه على إحياء وإنعاش الصلات مع مصر والباب العالي .

تجاوز المخزن في عهد الحسن الأول، الاقتصار على النموذج الإسلامي، واتجه إلى الاعتماد على النموذج الأوربي، حيث استجلب الحسن الأول عددا كبيرا من المدرسين من دول أوربا، وفي هذا الصدد تشير نعيمة التوزاني إلى أنه منذ تولي الحسن الأول "عمل على إنشاء فرق عسكرية حديثة على النمط الأوربي، واهتم بتكوينها وتدريبها، فأرسل بعثات مغربية للدراسة في المعاهد العسكرية الأوربية، كما أرسل بعثات أخرى للتدريب بجبل طارق على الطرق والمعدات العسكرية الحديثة بغية الاعتماد عليها في تكوين وتدريب الجيش المغربي، بالإضافة إلى ذلك

---

1- المؤلف مخطوط بالخزانة العامة بالرباط، رقم 5 ، ك 2733 .

استقدم مدرّبين أجنب، كما عقدت اتفاقيات للاستعانة بالبعثات العسكرية الأوروبية<sup>1</sup> . ومن شدة اعتناء السلطان الحسن الأول بالتدريبات العسكرية، كان يحرص على الحضور بنفسه لهذه التدريبات كل يوم اثنين.

#### د: سفارة الزبدي وبداية اهتمام المخزن باستيراد التجهيزات العسكرية:

لقد اعتبر معينو عز المغرب، أن سفارة الزبدي من خلال رحلة إدريس الجعيدي، بمثابة أرضية دراسية أولية افتتح بها الحسن الأول عهد حكمه، واستند عليها كمرجع للإصلاحات التي حاول إدخالها للمغرب في النصف الثاني من العقد السابع، وبداية العقد الثامن من القرن التاسع عشر، قصد النهوض به، وتقويته لمواجهة الأطماع الأوروبية التي كانت تتزايد بوتيرة سريعة. وذلك بحكم أن الزبدي أشرف بعد عودته من رحلته الأوروبية على معظم الإصلاحات التي قام بها السلطان الحسن الأول في الكثير من المجالات.

لقد اتضح لنا من خلال دراستنا لفصول رحلة إدريس الجعيدي كاتب سفارة الزبدي، والتي وسمها ب"إتحاف الأخيار بغرائب الأخبار"، أن صاحبها لم يصف المظهر التكنولوجي للحدثاء العسكرية الأوروبية لذاتها، بل وصفها قصد تمكين المخزن من اقتباسها واستيرادها بواسطة البيع والشراء، لكي تكون في المستقبل بالمغرب، وعلى هذا المنوال سار الجعيدي في " تحفة الأخيار " بغرائب القوة العسكرية الأوروبية، سواء بفرنسا أو بريطانيا، أو بلجيكا أو إيطاليا .. لم يقف أمام مؤسسة عسكرية أو تكنولوجية، أو صناعية .. يرى فيها تفوقا وتقدما، إلا وفي يده القلم والورقة لوصفها في عين المكان الذي شاهدها فيه، وصفا مباشرا تفصيليا يصل في بعض الأحيان إلى التفصيل والإطناب الممل، وعندما لا تسعفه اللغة العربية الفصحى في وصف تلك التنظيمات الحديثة الأوروبية، لا يتورع في استعمال الدارجة المغربية، معززة بالرسوم والخطاطات التوضيحية .

لقد كان هذا الوصف التفصيلي يهدف إلى تحقيق غايات عملية تحديثية، رسمها المخزن الحسني لذاته في المجالات العسكرية والصناعية والتقنية، ذلك أن من القضايا التي كانت تشغل بال السلطان الحسن الأول معرفته لكيفية صناعة الذخيرة الحربية، لهذا تطرق الجعيدي، كاتب سفارة الزبدي، لأسلوبهم التقني في صناعة الخفيف، أي القذائف والقنابل، داخل أوراش كبيرة تحوي حوالي ستة آلاف من العمال، وهذا ما جعل السلطان يقتنع بضرورة إنشاء معمل صناعة القروطوش بمراكش بمساعدة فرنسا أواخر عام 1304 هـ، وكان يشتغل بالبخار، واستغرق بناؤه ست سنوات تقريبا، أما الأموال التي أنفقت عليه فتقدر ب : 83900 فرنك فرنسي، لكن هذا

---

1- التوزاني، هراج نعيمة : الأمناء بالمغرب في عهد الحسن الأول، مساهمة في دراسة النظام المالي بالمغرب، مطبعة فضالة، 1979 م، ص . 38 .

المعمل الذي اهتم به السلطان الحسن الأول وأولى له اهتماما كبيرا، لم يعط نتائج تذكر، فالآلات التي اشترت من شركة وينشستر لم تكن قد استعملت إلى حدود 1891، والقرطوس الذي صنعه المعمل كان رديئا ومرتفع الثمن .

إضافة إلى هذا المصنع، وامتدادا لسفارة الزبدي ، قام الحسن الأول بإنشاء معمل آخر وهو المعروف بـ "دار السلام" ويوجد بفاس، وكان يشتمل على ثلاثة دور: الأولى، لصنع البنادق والثانية، لصنع الكرتوش، أما الثالثة فكان مخصصا لسك النقود، وأشرف على تأسيسها المهندس الايطالي "لوطري" كما اشتغل بها مجموعة من طلبة البعثة المتخرجة من أوروبا، لكن مشروعه فشل بسبب تسيير الأوروبيين لهذا المعمل، وفي هذا الصدد يقول الحجوي الثعالبي: "... وذلك من غش الضباط الإيطاليين الذين كان المعمل تحت نظرهم، ورجوا فيه أموالا جسيمة ... وذهبت أموال المعمل وأتعبه أدرج الرياح، واشترى المخزن سلاحا آخر من النجليز وغيره، أما الضباط الطليان فلم تمسهم يد بسوء أو أضرهم ما افسدوا، ولكن المسؤولية على من يعمل معملا تكون تحت مسؤولية أجنبي لا قدرة له على الإنصاف منه، وكان الواجب أن يعلم ميكانيكيين مغربيين يتخرجون في أوروبا بأشهر معاملها، ويكونون خصيصين في فنهم، ويكونون مسؤولين على أعمالهم ولهم الكفاءة التامة والافتدال على إدارة المعمل وحدهم، أما الذين كانوا من المغاربة بما أعوان للضباط فليس لهم معارف لذلك، وإنما كانوا يعرفون كلمات من الإيطالية والفرنسية والبلجيكية، ومن المثبوت في المغرب أن من عرف لسانا أجنبيا ولو معرفة بسيطة عرف كل شيء."<sup>1</sup> .

وبالرغم من عدم نجاح الحسن الأول في تحقيق الأهداف المتوخاة من تشييد هذين المصنعين ، والمتمثلة أساسا في تحقيق الاكتفاء الذاتي في مجال الأسلحة، إلا أنه استطاع من خلال ما تم إنتاجه في هذين المصنعين، وكذلك بفضل المدافع التي اشتراها السفير الزبدي<sup>2</sup>، الذي رافقه الجعيدي في رحلته، أن يخرج منتصرا في كل حركات الجنوب، ويركز السلطة المركزية في الأطلس والريف وإرهاب القبائل بها دون حرب.

---

1- الحجوي : انتحار المغرب الأقصى بيد ثواره، مصدر سابق، ص . 40 .

2- قام الزبدي ومعه كاتبه الجعيدي بأوامر من السلطان الحسن الأول أواخر سنة 1876م، بتزويد طنجة بستة مدافع كبيرة وطلب من السفير دراموندهاي تدريب المغاربة عليها وإصلاح أبراج طنجة من طرف بعض الضباط البريطانيين، إلا أن المشروع قد تأخر بسبب تماطل المهندسين البريطانيين فعوضهم المغاربة ولم يتم وضع المدافع الثقيلة فوق أبراج طنجة حتى عام 1889م . بعد أن كلف



### 3\_ مآل الإصلاحات العسكرية .

لا شك أن هناك عراقيل وعوائق ومثبطات عدة قد وقفت في وجه حركة الإصلاح التي شهدتها المغرب خلال القرن التاسع عشر، ومن ذلك حركة إصلاح الجيش التي تكشف النصوص والوثائق عن مدى ما بدل من طرف المخزن من جهد وإمكانيات في سبيل إصلاحه والنهوض به، لكن رياح البنى السياسية والاقتصادية والاجتماعية الراكدة، وعواصف التحولات الخارجية الهوجاء، كانت تجري بما لا تشتهي سفن الجيش المغربي التي بدت غير قادرة على الإبحار في مجرى التحولات الكبرى التي شهدتها العالم خلال القرن التاسع عشر. حيث سجل الحجوي الثعالبي صاحب "الرحلة الأوروبية"، مجموعة من الإختلالات التي جسدت فساد المؤسسة العسكرية في بداية القرن العشرين وفشل الإصلاحات المخزنية في هذا المجال، حيث لم يتردد الحجوي في اعتبار فساد المؤسسة العسكرية سببا رئيسيا في مواجهة المخاطر المحدقة بالبلاد داخليا وخارجيا ، بل إن هذه المؤسسة أصبحت مصدر قلق وعدم استقرار ومصدرا لنزيف واستنزاف الخزينة، وسنقتصر في بحثنا على ذكر بعض المواطن لضعف المؤسسة العسكرية كما صورها الحجوي الثعالبي في بداية القرن العشرين.

#### أ : ضعف التأطير والتكوين :

إذا كان الرحالة السفراء في القرن التاسع عشر، قد عبروا عن إعجابهم وانبهارهم بقوة الجيش الأوروبي ونظامه المرتكز على قوانين يخضع لها كافة الجند بمختلف مراتبهم، كما وقفوا على عناية الدولة واهتمامها بالجيش في فترة الخدمة وبعدها، فإن المغرب كما سجل الحجوي، افتقد في بداية القرن العشرين إلى هذه القوانين المنظمة لمؤسسة الجيش، وركز على إهمال المغاربة لها، لذلك لم تكن البلاد تتوفر على عسكر منظم على النمط العصري، ولا توجد بها ثكنات للعسكر بالمعنى الحقيقي، مثل ما يوجد في أضعف الممالك الشرقية التي هي أقرب عهد بالتمدن فضلا عن الأوروبيين.

أشار الحجوي في مذكرته إلى "عدم وجود ضباط مدرين على الحروب .. وإنما الذي كان يقود تلك الجيوش الجرارة ضباط أميون غالبا لا يقرأون ولا يكتبون ولا معرفة لهم بجغرافية الأرض"<sup>1</sup>. وهو ما يدفعنا للتساؤل حول الدور الذي أسهمت به البعثات التعليمية في تحديث الجيش المغربي، الذي فقد أفرادَه وضباطه المعرفة بفنون الحرب الحديثة. كما نتساءل عن دور المتعلمين المغاربة الذين صرفت عليهم مبالغ مالية مهمة، وأين

---

مالية المخزن مصاريف ثقيلة. انظر تفاصيل صفقات شراء الأسلحة في عهد الحسن الأول والظواهر السلطانية إلى الزبدي في موضوع

أثمان وتكاليف المدافع الستة البريطانية الصنع، ابن زيدان: إتحاف أعلام ..، مصدر سابق، ج، 2، صص. 474 - 484 .

1- الحجوي : انتحار المغرب الأقصى بيد ثواره، مصدر سابق، ص . 36 .

اختفوا، وما الذي منعهم من تطير هذا الجنود والجيوش وهم الذين تعلموا وتدريبوا في المؤسسات والمعاهد العسكرية الأوروبية؟ ولماذا لم تفسح لهم إمكانية التغيير والإصلاح كما حدث في المشرق زمن محمد علي؟

ب - مشاكل مؤونة ورواتب الجند .

عانى الجنود المغاربة من عدم انتظام الأجرة بسبب الأزمة المالية التي أشرنا إليها من قبل، والناجحة عن الهزائم العسكرية المغربية أمام الجنود الأوروبية في ايسلي وتطوان، والثورات المحلية ولاسيما ثورة بوحمارة. دون أن ننسى سياسة التمييز والاختلاس التي كان ينهجها الممولون، إذ كانوا يقومون بتزوير قوائم الجنود الذين كانوا تحت إمرتهم، ويضيفون أسماء لا وجود لها في قوائمهم، ويأخذون مصاريفها من مؤونة وسلاح وغير ذلك. والنتيجة لهذه التلاعبات ذات أبعاد خطيرة، يقول الحجوي : "وبذلك يزداد الضيق على العسكر الذي هو مرابط حقيقة ، يأكلون ماله ويتركونه ضائعا ..."<sup>1</sup> وكان انقطاع المؤونة والأجرة عن الجيش سببا في قيامه بالثورة على رؤسائه ، ولجؤه أحيانا إلى بيع أسلحة المخزن ومعداته من بنادق وقرطوس وخيل وإلى الفرار. وقد لجأ هذا الجيش إلى عمل أخطر ينم عن موت الحس الوطني والوازع الديني انتقاما لأوضاعهم المزرية، فعندما سمع بعزل المولى عبد العزيز وتولية السلطان المولى عبد الحفيظ، وكان مرابطا بجزيرة مارشيكا القريبة من مليلية حيث كان الثائر بوحمارة، حيث اتفقوا مع حاكم مليلية أن يعطيهم ثمانين ومائة ألف بسيطة ويسلموه الجزيرة. ودخلوا في أمان إلى مليلية وباعوا ما كان عندهم وتوجهوا بحرا. وبعد ذلك فرقوا على مراسي المغرب، كل واحد ذهب حيث شاء ، وحاز الإسبان الجزيرة ووضعوا علمهم عليها<sup>2</sup>.

### ج - عدم العناية بصحة الجند .

إذا كان السفراء المغاربة لفتوا انتباه المخزن إلى مدى العناية والرعاية الطبية المخصصة للجند في أوروبا، ووصفهم للمارستانات والمراكز التي تأوي الجرحى والمرضى من الجنود ، فإن الحجوي سجل مع الأسف في بداية القرن العشرين الحالة المزرية التي يوجد فيها الجرحى من الجنود المغاربة وسياسة الإهمال التي تنهجها مؤسسة المخزن تجاههم " ..وفي بعض الأيام لما كلفت بالتفتيش في المحلة وجدت عددا من المرضى في حالة وسخة وبله، والجوع يأكل أمعاءهم، ولا دواء ولا قيم لهم، وإنما ملقون على قارعة الطريق، فجمعت عددا منهم بفندق ابن مصطال بوجدة وكلفت من قام بإيصال الطعام المناسب لهم، وقمت بالنظافة والعلاج لهم، فقامت قيامة قوادهم، وعدوا ذلك تدخلا في وظائفهم، وهددوا بأنواع من التهديد حتى تركت العمل الخيري مكرها،

1- نفس المصدر، ص . 47 .

2- نفس المصدر، ص . 44 .

وأعطاهم المكلف حساب الصائر ووجد ما أخذ لكل عسكري من مؤنثه قرش واحد يومي، زيادة عما صرف عليهم ، فأخذه قوادهم وافرغ الفندق وعادوا للأزقة يتكففون" <sup>1</sup> .

وقد كتب الحجوي في هذا الشأن إلى وزير الحرب الجباص في 23 صفر 1322هـ، ومما جاء فيه "...فإن هناك بوجدة نحو 80 عسكريا مرضى كلها بمضيفة ملقون على قارعة الطرق والأسواق، جائعة بطونهم عارية أجسامهم ، وحالتهم تبكي من لا يعرف البكاء، ويراهم الأجانب الذين ينتابون وجدة فيرونهم على أسوء حال في فندق ملئ عفونة وأزبالا قد تكدرت أحوالهم ... ووجب إعلامكم بالواقع، ولكم النظر وعلي خالص المحبة والسلام" <sup>2</sup> . فكان الجواب -كما يقول الحجوي- " عدم الجواب وهو في المعنى أمر بالإغضاء ارتكابا لأخف الضررين، مع أن الإكثار من ارتكاب أخف الضررين ربما صار هو الضرر الأعظم" <sup>3</sup> .

---

1- نفس المصدر، ص . 48

2- نفس المصدر، ص . 49

3- نفسه .

## المبحث الثاني : امتدادات وعي المغاربة بالتجاوز العلمي والثقافي.

المتأمل في المشاريع الإصلاحية لجل رواد النهضة العربية والإسلامية، لاسيما من رحل منهم إلى أوروبا ، يلاحظ بجلاء حرصهم على إعطاء الأولوية المطلقة لمسألة العلم وعلاقته بالإصلاح، وهو ما يفسر وعي المصلح المغربي الثاقب الذي وحد منذ بدايات القرن الماضي بين التجاوز الحضاري الأوربي للمجتمعات الإسلامية وتقدم العلم في أوروبا، ولهذا رشح نفسه داعيا للعلم الذي يحتوي عليه الوحي صراحة وتأويلا، مبرزًا بالحجج أن الإسلام في جوهره وروحه قد حث على العلم لتحقيق المصلحة والسعادة في الدارين.

من هذا المنطلق جاءت محاولات الإصلاح التعليمي التربوي باعتبارها مدخلا مهما ورئيسيا للخروج من التخلف والضعف والانهيار الذي زحف على البلاد الإسلامية. فعلقت عليها آمال عريضة لتحقيق النهضة الشاملة بتجديد الفكر الإسلامي، وتكوين نخبة من المثقفين المستنيرين المتأصلين، قادرين على فهم طبيعة العصر، وبالتالي تقديم الحلول الملائمة، ذلك أن قوة أوروبا وانطلاقتها الحضارية المعاصرة دلت، لدى رواد الإصلاح ورجال السياسة الذين زاروا تلك البلاد، أن هذا التعليم نفسه، هو سر الرقي الحضاري والتقدم الذي تعيشه بلاد الغرب.

### المطلب الأول : الإصلاح التعليمي والتربوي بتونس.

إن رواد الإصلاح في تونس، قبل إرساء نظام الحماية الفرنسية ، تفتنوا إلى ضرورة التجديد في كل الميادين وفي مقدمتها المؤسسات التعليمية ، متأثرين في ذلك بما عاينوه من تقدم مدهش في البلاد الأوروبية، وما شرع في إنجازه حاكم مصر "محمد علي"، كما كان لاحتلال الجزائر سنة 1830م من طرف الجيوش الفرنسية الأثر البالغ في الإسراع في عملية الإصلاح.

#### 1- امتدادات رحلة الباي أحمد إلى فرنسا في مجال التعليم :

تفاصرت الهمم في عهد أحمد باشا عن الاعتناء بالعلم، بسبب تفرق العلماء في طلب الرزق لما حدث من تغير الحالة الاقتصادية وتعاقب الفتن والحن والزاياء، مما خيف معه على تلاشي العلم، فأدرك فائدة تنظيم التعليم، لاسيما بعد اطلاعه على رقي المنظومة التعليمية أثناء رحلته إلى فرنسا سنة 1846م، وقوة البنية التحتية التعليمية بأوروبا المتمثلة في المدارس والمعاهد والمختبرات والمكتبات، فحاول في البداية كفاية المدرسين أمر وهاجس تطلب الرزق، بترتيب جارية لهم مناسبة للوقت، لأن هذا الباي وكما قال فيه الطاهر بن عاشور التونسي: "وإن لم يكن من أهل العلم فإن الله فطره على حب معالي الأمور.. فكان يقدر العلم، وينقد الرجال، ويثق بالإشارات النافعة التي يسديها إليه العقلاء مما يخلد له ذكرا جميلا بين الملوك... فأمد التعليم وأهله

بالإعانات الواسعة"<sup>1</sup>. إذ سن نظاما سنة 1258هـ، وهو المعبر عنه بالمعلقة لتعليق ظهره بالحائط الغربي قرب باب الشفاء بجامع الزيتونة، وقد ضبط هذا الأمر عدد المدرسين فجعلهم ثلاثين مدرسا، 15 من الحنفية و 15 من المالكية<sup>2</sup>، وحددت مرتباتهم، فجعل جراية كل واحد منهم ريالين في اليوم. وأسند مراقبة الدروس ومواظبة المدرسين إلى رئيس الإفتاء بالمذهبين وإلى القاضيين وعين لهم مرتبا لذلك، وأمر بأن تدفع كل هذه الجرايات من بيت المال.

ومن خطواته الإصلاحية المتأثرة إلى حد بعيد بمشاهداته الباريسية، إنشاؤه لمكتبة "الأحمدية"، التي يقول عنها ابن أبي الضياف بأنها كانت "عدة علمية في فنون شتى"، كما أحدث بعض الإصلاحات داخل الجامعة الزيتونة، الشيء الذي أبحج طلابها وشيوخها، لذا سارعوا إلى تزكية ومباركة تلك الإصلاحات التي قال عنها ابن أبي الضياف بأنها "جددت شباب العلم"<sup>3</sup>.

#### 1- خير الدين التونسي وزيرا للمعارف ومحاولاته الإصلاحية للنهوض بالتعليم.

عندما تولى خير الدين الوزارة كان التعليم التقليدي، الذي مكن البلاد في الماضي من المحافظة على كيانها الروحي والثقافي، قد تدهور كما وكيفا. فالمترددون على الكتاتيب، أي المدارس الابتدائية التي تعلم القرآن والكتابة والقراءة، لم يكن عددهم يتجاوز أربعة عشر ألف تلميذ في كامل الإيالة. وكان بعض المنتصبين لتعليم الناشئة لا يحسنون المبادئ التي يزعمون تعليمها. أما في مستوى أعلى، فقد كان قلة من أصحاب الوظائف الشرعية أو المتطوعين يلقون دروسا غير منتظمة في جوامع أهم المدن التونسية. فماهي أهم الإجراءات التي اتخذها خير الدين التونسي للرقى بالمنظومة التعليمية وتأهيلها لتكون في مصاف نظيرتها الأوروبية؟

#### أ\_ إصلاح جامع الزيتونة.

بادر خير الدين التونسي، ولم يمض على تعيينه كوزير مباشر إلا بضعة أشهر، فاستصدر من الصادق باي أمرا يقضي بتفريع جراية المدرسين بجامع الزيتونة من ريالين إلى ثلاث ريالات في اليوم. وصدر هذا الأمر في سبتمبر 1870. وفي جانفي 1871 وقع تعزيز مراقبة المفتيين والقاضيين المالكيين والحنفيين بلجنة رباعية للإشراف على الدروس. أما لجنة الإصلاح فقد كانت نتيجة أعمالها الأمر المؤرخ في 27 ذي القعدة 1292 (25 ديسمبر

---

1- ابن عاشور، محمد بن الطاهر : أليس الصبح بقريب ، التعليم العربي الإسلامي، دراسة تاريخية وآراء إصلاحية، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، الطبعة الأولى، 2006 م ، ص. 82.  
2- انظر أسماء هؤلاء وتراجهم في نفس المرجع، صص . 83 - 84.  
3- ابن أبي الضياف : المصدر السابق، ج ، 4 ، ص . 13 .

1875م) الذي ضبط بالتفصيل ترتيب التعليم بالجامع الأعظم، فقسمه إلى ثلاث مراحل: عليا ووسطى وسفلى. وعين الكتب التي تدرس في كل مرحلة، وعدد الدروس وحصة كل درس. وقد خصص قسم منه لنصائح تربوية طلب من المدرسين العمل بها. كما أظهر ذلك النص اهتماما خاصا بشروط المواظبة من قبل الطلبة، فجعل لكل طالب دفترا يرسم فيه الدروس التي يحضرها ودرجة مواظبته عليها واجتهاده فيها والامتحانات التي تجري عليه ونتائجها. إضافة إلى الامتيازات الممنوحة لطلبة جامع الزيتونة، كالإعفاء من الخدمة العسكرية ومن الضرائب.

وقد صحب هذه الإصلاحات أيضا العناية بمدارس سكنى الطلبة من جهة، ومن جهة أخرى تنظيم التعليم بالكتاتيب واشترط الكفاءة والشهرة بحسن السيرة في مؤديها، وتشجيع الأكفاء منهم على توسيع كتابتهم وتحسين مستواها وأحوالها. والناظر في جميع هذه الإصلاحات وخاصة فيما يتعلق منها بالتعليم الزيتوني يلاحظ أنها أبقّت لهذا التعليم خصائصه الأساسية والموروثة وأنها تبدو كحلقة جديدة أضيفت إلى الإصلاحات السابقة، وخاصة إلى الترتيب الأحمدى الذي تضمنته المعلقة. فإصلاحات خير الدين لم تحدث ثورة في المواد أو الأساليب، بل حافظت على المواد والمناهج التقليدية، لكنها قوت الناحية التنظيمية بنصوص ضبطت جميع تفاصيل الدراسة، كما قوت المراقبة وحاولت أن تجعلها فعلية وأن تعود المدرسين والطلبة على احترام الترتيب والمواظبة.<sup>1</sup>

ب- إنشاء مكتبة الصادقية .

بيننا في سياق حديثنا عن تجليات الوعي التونسي بالتجاوز العلمي الأوروبي، مدى انبهار التونسي بالمكتبات المتواجدة في أوروبا، وخصص لذلك حيزا مهما في كتابه أقوم المسالك، وامتدادا لذلك، وفي إطار الإصلاحات التي شرع فيها للنهوض بالتعليم في تونس، قام بإنشاء مكتبة جديدة بالجامع الأعظم سميت: "المكتبة الصادقية". وقد أنشأت في سنة 1875م، وحوّت آلاف من الكتب المطبوعة والمخطوطة، منها أكثر من ألف مخطوط كانت على ملك خير الدين فأوقفها على مطالعي تلك المكتبة، ومنها أيضا الكتب والمخطوطات التي سلمها مصطفى خزندار مقابل جزء من المال إلى أن حكم عليه بإرجاعه للدولة.

### ج- تأسيس المدرسة الصادقية وبداية الإهتمام بالعلوم الطبيعية .

اعتبر الشيخ قبادو التونسي الذي زار فرنسا في بداية القرن التاسع عشر، أن العالم الإسلامي في حالة تأخر وتدهور، مع أن الإسلام كفيل بأن يكون المجتمع القائم على أصوله في حالة تخالف على ما هو عليه الآن، فينبغي أن يعزى السبب في ذلك إلى أمر كان موجودا عند المسلمين ففقد، وأن المقارنة تظهر أن هذا الأمر هو العلوم

1- عبد السلام، أحمد : مواقف إصلاحية في تونس قبل الحماية، الشركة التونسية للتوزيع الطبعة الأولى، 1986، ص 89 .

الحكومية والطبيعية، وهذه العلوم كانت مزدهرة متقدمة عند المسلمين، وكان المسلمون لما كانت هذه العلوم رائجة فيهم سائرين متقدمين، ثم أضيفت هذه العلوم وتأخرت ، فهان المسلمون وتأخروا تبعاً لذلك، واقتبست أوروبا هذه العلوم وأخذت هي في التقدم والرقي ، فلا سبيل حينئذ إلى أخذ الإسلام بحظه من السعادة والنهضة إلا باستعادة نهضة هذه العلوم التي أضعفها، ولا سبيل إلى ذلك إلا باقتباسها من عند الأوربيين بالنقل والتعلم. وتلك هي نظرية قبادو التي أصلها، وعللها وبحثها واطمأن إليها واتخذها منهجاً له ولأتباعه<sup>1</sup>.

وكان محمد بيرم الخامس يؤمن أشد الإيمان بأن قوة الإسلام تكمن في حججه العقلية القادرة على الإقناع، وأن تطور العلوم يخدم الإسلام الحق، مفنداً الرأي القائل بتعارض الحقائق العلمية مع النصوص الدينية، من ذلك أن كثيراً ممن تفننوا في العلوم الرياضية قادتهم الطبيعيات فصاروا يعتقدون شيئاً من الديانات ، ظناً منهم أنها جميعاً مردودة بالعقل مثل ما يرون من عقائد ديانة النصارى واليهود. لكن عقلاؤهم يقرون بالخالق جل وعلا، ولو اطلعوا حقيقة على حقائق الديانة الإسلامية لما وسعهم من الإنصاف إلا إتباعها لمطابقتها للعقل وسطوع برهانها.<sup>2</sup>

امتداداً لهذا الوعي التونسي بأهمية العلوم الطبيعية والمادية في إحداث النهضة المنشودة، والذي تشكل لديهم من خلال معاينة الرقي العلمي والمعرفي الأوروبي، ودونوه في نصوصهم الرحلية، سينشئ خير الدين التونسي مدرسة جديدة يحدد لها مهمتها بما يوافق الحاجة إذاك ويسميها: **المدرسة الصادقية** .

المدرسة الصادقية أنشئت سنة 1291هـ 1874م ، بعد أن تشكلت لجنة لتحرير قانونها، وسن مناهج التعليم فيها وبرامجها، وكانت تلك اللجنة مؤلفة من علماء من جامع الزيتونة، تحت رئاسة الوزير الأكبر خير الدين نفسه، وسارت في إنشاء نظام الصادقية على اعتبارها مدرسة قومية ، تعليمها عربي ديني، وتربيتها دينية، متينة، صارمة، وعلى توسيع دائرة التعليم العربي الديني، بتعميم اللغات، التركية والفرنسية والإيطالية، وعلى توزيع فصول الطلبة بينها **وتعليم الرياضيات والطبيعيات والاجتماعيات**. واعتبر التعليم فيها ذا درجتين أولية وثانوية، مع تنسيقه مع التعليم الزيتوني، بحيث يصح أن ينتقل الطالب في رتبة معينة من الدراسة الثانوية، لاكتمال دراسة العلوم الدينية بجامع الزيتونة، أو يتمحض لإتمام التعليم العصري إلى غايته .

فالمدرسة الجديدة أرادها خير الدين مؤسسة لها ذاتيتها الخاصة حتى تحقق بلوغ غاية سياسية معينة، هي تكوين موظفي الدولة تكويناً يوافق مقتضيات العصر. لكن خير الدين حرص أيضاً على إبراز التعاون الذي كان

1- انظر ذلك بتفصيل، فهمي جدعان : أسس التقدم عند مفكري الإسلام، مصدر سابق، صص. 126\_132 .

2- بيرم : المصدر السابق، ج ، 3 ، صص. 45- 46

يبيغيه بين هذه المؤسسة الجديدة والمعهد العلمي العتيق في البلاد، وهو جامع الزيتونة، رامزا بذلك إلى ما أكده في كتابه أقوم المسالك "من أنه ينبغي للمسلمين في ذلك العصر أن يقتبسوا من نظم الإفرنج وتراتبهم السياسية ما يوافق الشريعة الإسلامية ومقاصدها"<sup>1</sup>.

لقد أولت المدرسة الصادقية اهتماما كبيرا بالعلوم العصرية واللغات الأجنبية، حيث كانت برامج المدرسة الصادقية مطابقة إلى ما دعا إليه رجال الإصلاح التونسيون في القرن التاسع عشر، من تشجيع ممارسة العلوم الحديثة بين المسلمين بعد تقوية إيمانهم وتعريفهم بمزايا دينهم وسامي قيمه.

وقد نجح خير الدين نجاحا عظيما، في تحقيق المراد من إنشاء **المدرسة الصادقية** وإصلاح التعليم الزيتوني، بحيث أصبحت الشبيبة التونسية، على اختلاف مناهج تعليمها، متأثرة بالمبادئ التي جاهد دعاة ورواد الإصلاح الأوائل، خير الدين التونسي، وابن أبي الضياف، ويبرم الخامس ومحمد السنوسي في سبيلها، فكانت الشبيبة الصادقية متعلقة بشخصه تعلقا مباشرا، تمتاز به، وتستمد توجهها الفكري منه، فقامت بتأسيس جمعية أخرى لعبت أدوارا طلابية في تطوير المنظومة التربوية التونسية، وهي **المدرسة الخلدونية**.

تأسست هذه الجمعية في 18 رجب سنة 1314، 1897، بقرار من الوزير الأكبر وشيخ الإسلام، واحتفل بافتتاح معهد الجمعية احتفالا رسميا بحضور المقيم العام الفرنسي **ريني ميلي**، وألقى فيه خطابا نوه بالثقافة الإسلامية وماضي تونس وفضل العرب على أوروبا في نهضتها، وعبر عن أمله في أن تشع أنوار الثقافة العصرية من ذلك المعهد حتى تعم بلاد المغرب الإسلامي قاطبة.

ألقى الشيخ **سالم أبو حاجب**<sup>2</sup>، الذي سافر إلى الأستانة، ثم إيطاليا سنة 1874م، المحاضرة الافتتاحية<sup>3</sup>، فكانت درسا علميا في تفسير قوله تعالى: [ **لَا يُلَاقِيكَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَلْقٌ مُبِينٌ** ]<sup>4</sup> بين فيه أن الله عز وجل جعل العلم سببا لاستخلاف آدم وبنيه في الأرض، وأنه قد جعله برهانا على استحقاق الخلافة، فأقنع الملائكة حين رأوا آدم يعلم

1- التونسي : المصدر السابق، ص . 155 .

2- سالم أبو حاجب ( 1827 – 1927 ) تعلم بالزيتونة، واتصل بكبار علماء عصره وأبر رجال السياسة كالشيخ بريم الرابع و خير الدين التونسي، انتخب عضوا في المجلس الأكبر سنة 1861. انظر ترجمته الكاملة عند محمد الفاضل بن عاشور: تراجم الأعلام . تونس 1970 ص ، 221 - 233

3- انظر نص المحاضرة ، الطاهر محمد ابن عاشور، **أليس الصبح بقريب**، مصدر سابق، صص . 92 - 98 .

4- سورة البقرة : الآية، 30 .



ما لا علم لهم به، بأنه أولى منهم للخلافة، فلا عجب أن تبقى الخلافة متنقلة في نسل آدم على حساب علمهم، تنزع ممن يجهل لتعطي لمن يعلم، وتكلم على أنواع العلوم، وبين منزلة العلوم الكونية ومقامها في نظر الدين، بتوقف فهم كثير من معاني القرآن وأوجه إعجازه، على معرفة تلك العلوم والوقوف على أطوار الاكتشافات فيها، وأن الدين إنما تقهقر بنسبة تأخر المسلمين في العلوم الكونية. ومما جاء في المحاضرة: "إن العلوم الدنيوية التي رأينا إخواننا المصريين يتسابقون فيها مع الأمم الأوروبية ترفع عنها وصمة البعد عن مناهج التمدن وتهممة عدم اللياقة بالأزمان الأخيرة. ولا نتحرج أن نستفيد بعض تلك المعارف من كتب غير إسلامية كما أخذ أسلافنا من كتب اليونان"<sup>1</sup>

بفضل مجهودات وأنشطة جمعية الخلدونية، سرت في جامع الزيتونة حركة عظيمة، بتأثير النهضة الجديدة، فشاع في الطلبة والأساتذة الانتقاد على خلو مناهج التعليم الزيتوني من تلك العلوم، والتشجيع بالقصور البين في معارف طلبته ومداركهم، وامتألت أعمدة الصحف بهذه الدعوة، وكانت دروس الشيخ سالم أبو حاجب، ميدانا للأخذ والرد في هذا الموضوع.

طالب رواد المدرسة الخلدونية بجعل التعليم إلزاميا لما رأوه من فتور هممة القوم في تونس عن إرسال أبنائهم إلى المدارس نظرا لجهلهم، وهو جهل حائق بالأمة الإسلامية كلها في هذه العصور يقول: "أما جعل التعليم إلزاميا فمن حق نصيحة الحكومات للرعايا في حال عدم وصولهم للرشد وحملهم على مصالحهم بالجبر ماداموا في طور الطفولة. فالطفولة كما تكون للأفراد تكون للأمم"<sup>2</sup>.

د - استيراد المطبعة:

أسهب الرحالة التونسيون في وصف المطبعة بأوربا، وبيان دورها في التطور العلمي والاكتشافات والاختراعات التقنية، لذا حرصوا بعد عودتهم على إقناع السلطة الحاكمة بتونس على استيرادها من أوروبا، وبعد تولي محمد باي الحكم سنة 1855م ترسخ لديه الوعي بضرورة الإصلاح ونشر العلم، فاستورد مطبعة حجرية من باريس، وأول ما طبع بها "لائحة تراتيب داخلية"، ثم استورد قبيل وفاته مطبعة تعمل بالأحرف المعدنية المنفصلة مع الأجهزة التابعة لها.

1- نفس المصدر، ص . 96 .

2- ابن عاشور: أليس الصبح بقريب...، مرجع سابق، ص . 121.

بدأ العمل بالمطبعة الرسمية التونسية عام 1860م، في عهد المشير الثالث محمد صادق باي، وكان مقرها بالحفصية، وبقيت المطبعة الوحيدة بتونس حتى عام 1300هـ الموافق لعام 1882، حيث تعددت المطابع بعدها، وكثر إنتاجها، ولم تكن هذه المطبعة مقتصرة على طبع ما تحتاجه الحكومة بل فتحت أبوابها للناس الذين أقبلوا عليها، وسعوا لنشر بعض كتب التاريخ والأدب والفكر واللغة والحديث والتوحيد والصرف. ومن أبرز ما صدر عن هذه المطبعة: جريدتي "الرائد التونسي" عام 1860م وجريدة "الحاضرة الأسبوعية" عام 1887. وكذلك نصين رحليين حديثين يهتمان بالنهضة والإصلاح في البلاد الإسلامية، ويقارنان بين أحوال أوروبا والبلاد العربية بغرض الوصول لأحسن ما عند الطرفين، وهما: كتاب "الواسطة لمعرفة أحوال مالطة وكشف المخبأ عن أحوال أوربة" لأحمد فارس الشدياق عام 1863، وكتاب "أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك" للوزير خير الدين باشا التونسي عام 1867م. كما طبعت كتابين لتعليم الضباط عام 1865 وكتاباً عن سكة الحديد عام 1869، وكتاباً بيبليوغرافياً عن المكتبة الصادقية عام 1875 المشهورة بالعبودية بجامعة الزيتونة.

وقد علق أحمد ابن أبي الضياف، على هذه الخطوة الإصلاحية الرائدة قائلاً: "ولا أقول إن المطابع من التحسين، بل هي في درجة الحاجة، ولا يخفى أنها من فوائد العمران لأنها تفيد آداب النفس، وتسهل وجود الكتب النافعة المفيدة التي كانت مقصورة على الأغنياء". ويضيف ابن أبي الضياف قائلاً: "وبالمطابع تتقدم الأمم حتى صارت في مدن الحضارة كالأمور الضرورية وربما كانت سبباً في إطفاء نار فتنة، لأن الملوك تنظر بمرآتها إلى مطامح أنصار العامة، فتعالج سقيمها بالأدوية النافعة، إلى غير ذلك من فوائدها لا تحصى"<sup>1</sup>.

ه: ظهور الصحافة التونسية .

اكتشف الجميع تأثير الصحافة البالغ على الحياة الفكرية والثقافية بأوروبا، وقدراتها العجيبة على إحداث تغيير عميق وجذري في العقليات السائدة بعد أن "فتحت المجال للأخبار والتداول الأفقي للمعلومات بين سائر الفئات الاجتماعية"<sup>2</sup>.

كان خير الدين واعياً أشد ما يكون الوعي لدور النشر والصحافة في حركة النهضة وتطور عقلية الجماهير على المدى البعيد، تأثراً بالصحافة الأوربية، إلى جانب سن القوانين الراقية وأخذ إجراءات عملية جريئة حتى يواكب القول العمل، وتنسجم الأفكار والمبادئ مع الواقع الطامح إلى الأرقى والتصدي لكل عواصف التحديات الحضارية الآتية من الغرب. ولقد اعتنى خير الدين بهذا القطاع ووعى أهميته منذ زيارته لباريس في سنة 1853م

1- ابن أبي الضياف : المصدر السابق، ج ، 4 ، ص . 125.

2- الصولي : المرجع السابق، ص . 261 .

لمتابعة قضية ابن عباد التي تناقلت بعض الصحف الفرنسية أطوارها، أكيد أن خير الدين قد فهم من خلال هذه المتابعات، الدور الممكن أن تقوم به الصحافة بغية تجنيد الرأي العام في اتجاه معين أو منحى آخر، وفي التأثير على التصرفات الممكنة للسياسيين .

لقد كانت الجرائد تكاد تقتصر فيما تنشره على الأخبار الرسمية، فطورها خير الدين وأدخل المقال الصحفي والتحرير الوصفي والعلمي والمقال السياسي، وساهمت أفلام النخبة التونسية في حركة ثقافية وفكرية عبر صفحات الرائد. فكتب الشيخ محمود قبادو ومحمد بيرم الخامس ومحمد السنوسي وغيرهم من رواد الإصلاح، وقد أشار محمد بيرم في "صفوة الاعتبار" الذي عين ناظرا عاما للمطبعة الرسمية وجريدة الرائد وكان الشرف الفعلي لها، إلى أن تلك المقالات كانت تصدر عن أفكار الوزير خير الدين التونسي، وربما كان منها ما هو بتحريره أو بمشاركته. وبهذا الاهتمام بفن المقال، تخطى النثر حدود الوجدانية، ودخل في مرحلة جديدة من الاهتمام بالحياة الاجتماعية والسياسية والعلمية، وتخلّى النثر عن السجع وفنون البديع وتخلّى بالبساطة في التعبير، "مع شدة الوضوح وقلة الغلو والميل إلى استعمال المفردات والتراكيب في حقيقتها دون المجازات والاستعارات والكنائيات. وإن أعلام النهضة ليقرون كلهم بأن ما تفتق عندهم من الملكات وما جرى على أيديهم من بواكير الصناعة الأدبية في طورها الجديد ليرجع إلى توجيه العبقري خير الدين .."<sup>1</sup>

ولمزيد من التعريف بسياسته وإصلاحاته داخل البلاد، فرض خير الدين على موظفي الدولة في الإدارة المركزية أو في القيادات الاشتراك الإجباري في الرائد، ذلك حتى يضمن انتشاره وحتى لا يتعرض إلى ضائقة مالية. ولقد أصبح الرائد في تلك المدة المعبر عن آراء النخبة التونسية المفكرة ، ولهذا وكما يقول الباحث التونسي أحمد عبد السلام: "أمكن لنا اليوم أن نعرف من خلال مقالاته مواقف تلك النخبة من بعض المبادئ السياسية التي أصبحت لها في العالم وفي القرن التاسع عشر المقام الأول فكانت المحرك لأحداث عالمية غيرت وجه الدنيا"<sup>2</sup>.

بعدها انتقل محمد بيرم الخامس إلى مصر، حيث استقر نهائيا بالقاهرة، وجد في مصر الجو الملائم لاستئناف نشاطه الإصلاحية، ووعيا منه بأهمية الصحافة في إحداث التغيير والنهضة، أنشأ بيرم جريدة "الإعلام بجوادث الأيام ونصائح الأنام بعلوم الإسلام ومقتضى المقال". وقد كان بيرم يريد بها يومية، فصدرت ثلاثة مرات في

---

1- ابن عاشور : الحركة الأدبية والفكرية بتونس، مرجع سابق، ص . 24

2- عبد السلام ، أحمد : المرجع السابق، ص . 93.

الأسبوع ثم صارت أسبوعية نظرا إلى ظروفه الصحية ومشاغله وقلة إمكانياته ، وقد تمكن بالرغم من ذلك من إصدار 269 عددا كان آخرها بتاريخ 3 يناير 1889 م.<sup>1</sup>

### المطلب الثاني : الإصلاح التعليمي بالمغرب الأقصى.

إن ما يستوقف الانتباه ويستفهم العقل أكثر، هو المكانة المتميزة التي حظيت بها المسألة التعليمية في بعدها الثقافي والفكري، ضمن الصحوة التي واكبت حركات الدعوة إلى الإصلاح المغربي وتحديث تنظيمات الدولة منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

فالثابت في تجربة الإصلاح المغربية، هو أن المسألة التعليمية، في بعديها التربوي والثقافي، قد ظلت مطلبا على درجة كبيرة من الأهمية، شأنها في ذلك شأن الدعوة إلى إصلاح الدين وتحديث الدولة ومؤسساتها، بدليل حضورها بمتون الدساتير<sup>2</sup> التي قدمت كمشاريع من لدن النخبة المغربية على عهد السلطان مولاي حفيظ.

---

1- الصولي : المرجع السابق، ص . 282\_283 .

2- لقد أشارت المشاريع الدستورية المقترحة إلى المشكلة التعليمية، واعتبرت الاهتمام بها خطوة مهمة وأساسية في طريق تحقيق النهضة واللاحق "بالآخر" ، فمشروع عبد الله بن سعيد يقترح "إحداث مدارس لتعليم مهمات جديدة ، يمكن أن تساعدنا في الاستعداد الحربي وغيره، أوحى بها تطور العقل الإنساني في تنظيماته الجديدة. " لكنه يرى في الوقت نفسه ، أن تلك المعارف التي نطلب تعلمها في المدارس الحديثة ، هي في الأصل، معرفتنا "لأنها منا أخذت، وإلينا تعود أشوق ما تكون" المنوني، المرجع السابق، ص، 130 . كما تصدر الدستور، المنسوب إلى الشيخ عبد الكريم مراد بتقدير محمد المنوني، مقدمة تشدد بشكل مقارن على أهمية التعليم وفروعه المعاصرة من معارف وتقنيات، فيقول " ... ويمكن لحكومة المغرب أن تبلغ ما بلغته اليابان بأقرب وقت إذا اقتفت آثار اليابان بالاجتهاد ونفع العامة وأخذ العلوم الصناعية الوقتية الموافقة للأحكام الشرعية من أوروبا، على الأخص في اقتفاء آثارهم في تنوير أفكار الرعية في حثهم على اختراع الأمور النافعة، ومكافأة من برز بذلك، ... لأن الذي يعلم أسرار رغبة الشريعة الإسلامية وما احتوت عليه من الحث على نشر العدالة والمشورة في الأمور تعلم المعارف اللازمة للوقت والدين بكل شيء يستغنى به المسلمون عن الأجانب." المنوني ، المرجع السابق ، ج 2 ، ص. 422 يرى زبير أنه لما كان الحرص على استقلال المغرب، يقتضي وجود العقل الحذر المتحلي "بأتقى الوقايات الوقتية " وهو اهتمام بالمستقبل، حيث يتطلب استعداد ذوي "الهمم العالية المنفطمة على مرارة الصبر"، فهذا متوقف ومن باب أولى، على اتخاذ التدابير اللازمة لإدخال فنون المعارف العصرية من جهادية، وأنواع الصناعات الحديثة ، والفلاحة وما يزيد الأمة تقدما في الأمور التجارية والاقتصادية بكل نشاط " . المرجع السابق ، ص . 420. وإذا كانت المسألة التعليمية في الدساتير السابقة، عبارة عن إشارات متفرقة تتضمنها أفكار تأتي في سياقات للحديث عن قضايا أخرى قد لا تحمل هوما علمية بشكل متخصص، فإن مشروع جماعة لسان المغرب سنة 1908 ، استطاع أن يتحدث عن تصور واضح لنظام تعليمي مغربي، وهذا ما يبدو من خلال المواد التي خصصها المشروع لطرح تصوره إزاء مشكلة التعليم . فالمادة الثالثة والثمانون ترى أن "وزارة المعارف مطالبة بإنشاء المدارس في جميع تراب البلاد ، في

## 1 – أثر الرحلات السفارية في مبادرات الإصلاح التعليمي في القرن التاسع عشر. أ: إحدات دروس للرياضيات والهندسة .

بعد عودة الصفار من فرنسا، أسند إليه السلطان مولاي عبد الرحمان مهمة السهر على تربية وتعليم أفراد الأسرة السلطانية، ومن بينهم الأمير محمد بن عبد الرحمان ومولاي الحسن، اللذين أصبحا فيما بعد، سلطانين على المغرب، وقد حظي الصفار بحظوة كبيرة عند السلطان، وكانت مؤونته، كما أخبر بذلك محمد داوود في تاريخه: " تأتيه من طعام مولانا عبد الرحمان رحمه الله من داره السعيدة صباحا ومساء" <sup>1</sup>.

ولا شك أن تأثر الصفار بالعلوم المادية والطبيعية في أوروبا، ووعيه لأهميتها في إحدات الفارق، بين العالمين الإسلامي والأوروبي، كما بينا ذلك آنفا، جعله يلحق ذلك إلى تلامذته من الأمراء، ويقنعهم بضرورة الإهتمام بتدريس العلوم الطبيعية والعقلية بموازاة مع العلوم النقلية والشرعية، للتقليص من سعة الشقة التي تفصل المغرب عن أوروبا.

وامتدادا لذلك، تم إحدات دروس للرياضيات والفلك، من طرف السلطان محمد بن عبد الرحمان <sup>2</sup>. وقد شكلت هذه الدروس أول مظهر لهذه الحركة الإنبعائية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر .

كما تم بناء وتدعيم مؤسسات تعليمية "حديثة" مثل مدرسة المهندسين بفاس، حيث كانت تدرس المواد التالية: الحساب والتوقيت والتنجيم والهيئة والموسيقى، وكانت مدرسة فاس هذه هي الجهد الوحيد الذي بذل في سبيل وضع تعليم خارج النطاق التقليدي، إلا أنها لم تكن توفر لطلبتها سوى تكوين أولي في الموضوعات العلمية، ولم تنتج نخبة قادرة على إحدات تجديد أو يقظة فكرية وثقافية كما حدث في مصر وتونس.

---

شكل ثلاث مراحل أساسية،: أساسي وثانوي وعالي، يكون التعليم الأساسي إلزاميا للذكور والإناث، في حين يقتصر الثانوي والعالي على الذكور فقط " كما أكد المشروع على وجوب أن يكون التعليم " بالطرق الحديثة والكتب العصرية ... والعلوم اللازمة للعصر ". المرجع السابق، ص 420 .

1- داوود، محمد : تاريخ تطوان، مرجع سابق، ج . 5 .

2- تمدنا المصادر المغربية والأجنبية على السواء بمعلومات تفيد أن السلطان محمد ابن عبد الرحمان كان رجلا متنورا ومتفتحا إلى حد بعيد، حريصا على المزيد من الاطلاع على مجريات الأوضاع الأوربية، كما اشتهر بشغفه بالعلوم التجريبية والعقلية. وكان "متشوقا لعلم الهندسة والتنجيم والهيئة . وساهم بنصيب وافر في بعث هذه العلوم وتشجيع تلقينها ونشر كتبها يقول أحمد بن المواز "... وأحيا ما اندثر بالمغرب من العلوم كالحساب والتعديل والهندسة والنجوم . " التلمساني

كما أسس المولى الحسن الأول المدرسة الحسنية بطنجة، وكانت تدرس بها المواد التالية، الحساب والهندسة والتنجيم والجغرافية واللغة العربية والمبادئ الدينية الأولى واللغة الأجنبية. وعلى حد تعبير الأستاذ محمد المنوني "فالغالب أن هذه الدراسة كانت تكميلية ، حيث يقع إعداد طلبة مدرسة المهندسين الذين سيذهبون لإكمال دراستهم بأوروبا"<sup>1</sup>.

### ب-رحلة الصفار وبدايات الاهتمام المخزني بالبعثات العلمية:

لقد أرسلت البعثات إلى دول أوروبا<sup>2</sup>، في ظروف الإحساس بالضعف والهزيمة من أجل استكمال التكوين العلمي في الدراسة العليا، أملا في أن يعودوا للمساهمة في تحديث بلادهم، العسكرية والصناعية والتجارية والمعرفية، ذهبوا لطلب العلم عند الأوروبيين الذين تكالبوا على أرضهم وهددوا سيادتها بالاستعمار، لكن رغم هذا الوجه السلبي لأوروبا الذين كانوا يعرفونه ويتأسفون عليه، فقد قبلوا الدعوة لأنهم كانوا يدركون أيضا أن "دار الكفر" التي ستستضيفهم وتستقبلهم، هي كذلك دار العلم والنظام والترقي والإتقان، وهي الأشياء التي طال زمن افتقار مجتمعهم إليها .

لقد لفت انتباه الصفار في رحلته وجود بعثة علمية مصرية، ففي أثناء حديثه عن احتفال الفرنسيين بأول يوم من العام، أشار إلى وجود بعثة علمية مصرية "وومن رافقنا هناك من المسلمين سبعة من أهل مصر، منهم إثنان حفيدا محمد بن علي باشا مصر، وإثنان ولدا ربيبه ابراهيم باشا، وءاخر من خواص محمد بن علي اسمه سامي باشا، وإثنان من خدامهما، ومعهم هنالك غيرهم جملتهم نحو ستين، أرسلهم محمد علي لهنالک لتعلم العلوم التي لا توجد إلا عند هؤلاء القوم"<sup>3</sup>. وافتخر الكاتب بزي البعثة المصرية بقوله: "وكان علي هؤلاء المصريين من اللباس ما ليس على النصارى، عليهم غلائل لا يرى ثوبها من أجل ما نسج فوق الثوب من طرازات الذهب مسلکة بالأحجار والجواهر". لذا اعتبرها الصفار "أجمل منظرا من النصارى بكثير"<sup>4</sup>.

1- المنوني : المرجع السابق، ص ، 143

2- انظر تفاصيل البعثات العلمية عند المنوني، مظاهر يقظة المغرب الحديث، ج ، 1 ص ص 156\_187، وكتابي ابن زيدان، الاتحاف، مصدر سابق، ج 2 ، 465-469 والعز والصولة في معالم نظام الدولة، المطبعة الملكية، الرباط، 1962، ج ، 2، صص. 150\_156.

3- الصفار: المصدر السابق، ص . 185 .

4- نفس المصدر، ص . 186.

إن هذه الإشارات، للصفار ولغيره<sup>1</sup>، نبهت المخزن إلى ضرورة إتباع نفس المسلك المصري، أي إرسال بعثات تعليمية إلى أوروبا، خاصة إذا علمنا أن رحلة الصفار كانت تقريراً رفيعاً إلى الدوائر المخزنية العليا للدراسة والاستثمار، في فترة تميزت بهوس النخبة المغربية، علماء وحكاماً، لمعرفة أسرار قوة أوروبا التي أذقت المغرب الأمرين في فاجعة إيسلي.

والجدير بالذكر أن البعثات السلطانية في عهد محمد الرابع والحسن الأول، لم تكن فحسب إلى البلاد الأوروبية، بل كانت أيضاً إلى المشرق العربي، خاصة إلى مصر، وقد أعطت ثمرات أجود مما خلقت آثار البعثات إلى الغرب. وذلك بفعل إقبال النخب التعليمية المغربية على النشاطات الفكرية النهضة التي كانت تروج في المحافل العلمية والمجالات الأدبية، مما أمد الفكر النهضوي المغربي بعناصر تفاعلاته مع الشعور بالحاجة إلى الإصلاح والطموح إلى الالتحاق بركب التقدم والعصرنة. ومن خلال هذا التوجه بالإصلاح نحو تجربة المشرق العربي يمكن وضع حدث ظهور المطبعة في سياقه التاريخي.

لقد أدت عدة أسباب إلى فشل المحاولات الإصلاحية، وكان في طليعتها حركة البعثات التي اتجهت للدراسة في أوروبا. لقد كان من المتوقع أن أعضاء هذه البعثات سيقومون بعد عودتهم بنشاط على نطاق واسع، ويطلعون بمسؤوليات رئيسية أو يؤسسون طليعة حركة سياسية، لكن المتتبع لثمار البعثات العلمية المشار إليها آنفاً، يصل

---

1- منها ما أوردته الرحلة المشرقية التي قام بها أبو العلاء إدريس إلى مصر الخبر عن موضوع البعثات التعليمية المصرية. فقال عن محمد علي: "وبعث رجالاً من أهل العلم لبر النصارى، يتعلمون الطب والتوقيت والهندسة والحساب وعلوم البوصلة وصناعة المجانن وغير ذلك، وأجرى لهم المؤونة لعيالهم وأوصى بالاحتفاظ بهم في بلاد النصارى، ومن تعلم منهم يرجع لبلده". نقلاً عن، المكاوي: "التحديث الأوروبي في مصر خلال القرن التاسع عشر ضمن كتابات مغربية"، ندوة: العلاقات المغربية - المشرقية، تنظيم: «مجموعة الدراسات والأبحاث في العلاقات المغربية المشرقية»، كلية الآداب، بني ملال، أيام: 17-18 مارس 1994، صدرت تحت عنوان: المغرب - المشرق: العلاقات والصورة، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1999، صص. 86. و نقلاً عن الحيمر، عبد السلام، المغرب: الإسلام والحداثة، سلسلة شرفات، منشورات الزمن، ع، 15، 2005م، ص. 189.

= كما طالب ابن سعيد بإرسال البعثات إلى الخارج واستقدام الأطر منه، محيلاً في ذلك على التجريبتين المصرية والتونسية. فقال: "بعث أرباب كل صنعة وعلم للأراضي التي تعرف بها تلك العلوم والصنائع وجلب المعلمين كذلك من الأقطار، وتكون أجرتهم حيث يأتون كثيرة، لكن لا يجلسون أكثر من سنة، ويتعلم منهم أهل دولة سيدنا ذلك...". ابن سعيد: رحلة إلى فرنسا، نقلاً عن المكاوي، أحمد، المغرب في تاريخه المنسي، جوانب من تاريخ المغرب الحديث بعيون عربية، جذور للنشر، الطبعة الأولى، 2006 م، مصدر سابق، ص. 27.

إلى أنها كانت ضئيلة المدروسة لأسباب عديدة. فمشروع البعثات لم يكن يخضع إلى تصميم ثابت، وفي هذا الإطار أورد المنوني قوله للناصرى من كتابه "زهرة الأفتان"، هذا نصها " إلا أن ذلك لم يظهر به كبير فائدة، إذ كان ذلك يحتاج إلى تقديم مقدمات. وتمهيد أصول، يبنى الخوض في تلك العلوم والعمل بها عليها." <sup>1</sup> فبالرغم من الجهود الكبيرة التي بذلت في مجال البعثات، لنشر التعليم على أوسع نطاق والنهوض بالاقتصاد والمساهمة في تنمية البلاد، كما كان يقع في مصر وفي غيرها من البلدان كاليابان التي شهدت حركة إرسال البعثات العلمية إلى أوروبا موازية لحركة المغرب، ولكنها جنت ثمار هذه الحركة في أقرب وقت، وبقي المغرب محروما من نتائج حركته، وفي هذا الصدد يقول ابن زيدان: "ولما زاولوا دروسهم وملتوا بكل نافع حقائبهم يمموا بلادهم ليبثوا فيها ما ينفع مستقبلهم، فلم يعدموا معاكسا وقف في سبيلهم وحرم البلاد والعباد ما كان يرجى من فوائد معارفهم بفتح المدارس وسلوك هذا السبيل كما سلكه أهل اليابان، فكانت النتيجة أن تقدم اليابانيون وتأخرنا والله في خلقه شؤون". <sup>2</sup>

## 2- النخبة المغربية العالمية في بداية القرن العشرين ومحاولات إصلاح التعليم.

مثل كل النخب العربية، أولى المصلحون المغاربة أهمية واهتماما كبيرا للعلم والمعرفة والثقافة، فجعلوا من قضيته وموضوعه أحد مضامين "النصيحة"، وألّفوا حوله المؤلفات، وألقوا المحاضرات، ونظموا الندوات، وقدموا التقارير والمطالب الإصلاحية للحكام السلاطين المغاربة. إذ نسجل غزارة مساهمات محمد الحجوي، في هذا الباب واشتهاره فيه، حيث حظي التعليم بمكانة متميزة في كتاباته، وقد ألف عدة محاضرات داخل المغرب وخارجه في الحث على تعاطي العلم، وإصلاح التعليم العربي، وألح على ذلك، وهو واع بتكراره للمسألة حيث قال: "ولئن تقدم مني مثل هذا الخطاب فلا أزال أنوعه وأقرع الأسماع به حتى يحصل الإسماع ويتحقق الأمل" <sup>3</sup>.

1- المنوني : مظاهر يقظة المغرب الحديث، مرجع سابق، ج 1 ص . 386.

2- ابن زيدان : إتحاف أعلام الناس ...، مصدر سابق، ج ، 2 ، ص . 465.

3- الحجوي : مستقبل تجارة المغاربة، م.خ.ع، ح، 118، ص، 64، نقلا عن بنسعيد العلوي، الاجتهاد والتحديث....،

مرجع سابق، ص . 61 .



وكم من مرة تغنى هذا الفقيه بمحاسن العلم كقوله: " بالعلم ارتقت الفلاحة والصناعة والتجارة ، وبه وصلت الدول أوج المعالي، بالعلم ينقلب البر بحرا والترب تبرا، والبدوي الجافي يتدفق أدبا ونبلا حتى يصير قاضيا وموثقا ومفتيا... ومهندسا وطيبيا... ومسير معمل، وهؤلاء الذين حازوا غنى الأرض"<sup>1</sup>.

كما أكد الرحالة عبد السلام السايح في محاضراته وكتاباتة على أهمية التعليم في إحداث النهضة واللاحق بالغرب المستعمر، أما معاصره أحمد الصبيحي<sup>2</sup> ، الذي رحل بدوره إلى عدد من الدول

الأوروبية<sup>3</sup>، فقد ركز على العلم والتعليم ، واعتبرها أصل الأصول في تأليفه "أصول أسباب الرقي الحقيقي"<sup>4</sup>.  
أ - الدعوة إلى تعميم التعليم ومحاربة الأمية:

---

1- الحجوي: خطبة ألقاها على تلاميذ مدرسة أولاد الأعيان بالرباط في 1342هـ م .خ.ع ، ح 118، ص. 69 نقلا عن بنعادة، آسية : الفكر الإصلاحي في عهد الحماية، محمد بن الحسن الحجوي نموذجاً، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2003 ، ص. 245 .

2- ينتمي أحمد الصبيحي إلى الأسرة الصبيحية المشهورة في سلا ، وهو من مواليد هذه المدينة في يناير 1882 ، عمل بالجهاز المخزني، وتقلد عدة مناصب إدارية، كان آخرها توليه نظارة الأحباس في سلا، توفي في شهر يناير 1944. له العديد من المؤلفات، أشهرها :- أصول أسباب الرقي الحقيقي - المقتطف البيانع من روض الحديث الجامع - باكورة الزبدة من تاريخ آسفي وعبدة ..

3- رحل أحمد الصبيحي إلى بلجيكا وسويسرا وفرنسا، هذه الأخيرة زارها الصبيحي نقلا عن المنوني ست مرات، انظر، المصادر العربية لتاريخ المغرب، من الفتح الإسلامي إلى نهاية العصر الحديث ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط ، الطبعة الأولى، 1983م، الجزء الثاني، ص . 242 .ونشرت جريدة السعادة المغربية للصبيحي رحلتين الأولى : رحلة مغربي إلى الديار الفرنسية، منشورة في أربعة أعداد من جريدة السعادة في أبريل - ماي 1927 ، وكان رحلته من أجل السياحة "وبقصد التبصر في التمدن الأوروبي الحاضر ومشاهدة باريس عاصمة عواصم الدنيا وما فيها من المتاحف العظيمة والمآثر القديمة".  
والثانية : تمت عن طريق طنجة فإسبانيا، ونشرت أيضا في أربعة أعداد من جريدة السعادة في أكتوبر 1931 م. انظر بتفصيل، جامع بيضا، "رحلات أحمد الصبيحي بين الشرق والغرب"، ضمن ندوة، السفر في العالم العربي الإسلامي، التواصل والحداثة ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، الرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم ، 108، الطبعة الأولى، 2003 م، ص . 135 .

4- نشرها سعيد بنسعيد العلوي ضمن كتابه الاجتهاد والتحديث في الفكر المغربي، مرجع سابق، صص . 137-151.

لقد قدمت النخبة المغربية تشخيصا دقيقا للواقع الاجتماعي المغربي، منبهة لأمرضه ومشاكله، وكيف انحرف عن معاني الأصالة والعفة والأنفة والشخصية المستقلة إلى داء الجهل والشعور بالهزيمة، وفي هذا الصدد يقول الحجوي: "غير خفي أن علة العلل في تأخر الأمة العربية أو الأمم الإسلامية هو داء الأمية، وكل يعلم مضارها العظمى وأثرها السيء فينا ... لذلك أرى أن أول داء نبادر لعلاجه وحسم مادته هو ذلك الداء العضال داء الأمية، ولا تزول جراثيمه إلا إذا تساوى أفراد الأمة ذكرانا في قدر من العلم الأدبي ... ولا سبيل بحسب العادة إلى الوصول في هذا القدر إلا بتسهيل تعليم القراءة والكتابة، وبه زوال غشاوة الأمية عن أبصار الأمة." <sup>1</sup>

نستنتج من ذلك، أن الحجوي وعى وأدرك صعوبة أو استحالة نجاح أي تنمية اقتصادية أو اجتماعية أو ثقافية في مجتمع أمي جاهل غير متعلم، فجعل ركائز مشروعه الإصلاحية الدعوة إلى تطوير المجتمع بتطوير مناهج التربية والتعليم، لأنه المدخل الذي يلج منه المجتمع من البداوة إلى الحضارة ومن الفوضى إلى التخطيط والنظام، والقضاء على الأمية ومحاربة العقلية الخرافية، يقول: "لا ريب أن انتشار العرفان في الأمة حتى ينال حظه منها التاجر والصانع وغيرهما عنوان ذكاء الأمة ورفي فكرها وحسن مجتمعتها" <sup>2</sup>.

إن المصائب التي حلت بالأمة الإسلامية، جلها جاءت من ناحية الجهل والأمية لأن المسلمين في نظره "قصروا فكرهم على اقتناء الغانيات المغنيات، وتشبيد القصور، وبذلك ينقطع ذكرهم بدخول القبور" <sup>3</sup>. كما طالب الفقيه المغاربة بأخذ العبرة والاستفادة من تجارب الأمم الأوروبية الراقية، للخروج من حالة التخلف والانحطاط ومسايرة الطور الحضاري قائلا: "فينبغي لكل واحد أن يقدم ولده للتعليم وهو ابن ست سنين فأقل، فيحصل على التعليم الابتدائي في مدة أربع أو خمس سنوات" <sup>4</sup>.

كما أكد عبد السلام السائح صاحب رحلة "أسبوع في باريس" على أهمية العلم ودوره في بناء الحضارة بقوله: "أنه يتمثل أمام عيني مستقبل ليست الحياة فيه بالتفوقات ولا بالأمان التي هي أحلام المستيقظ، وإنما

---

1- الحجوي: نقد كتب الدراسة للعلوم العربية بإفريقيا الشمالية، ط، تونس، 1931، ص، 1-2، نقلا عن آسية بنعدادة: المرجع السابق، ص. 234.

2- الحجوي: مختصر العروة الوثقى، طبعة سلا، 1937، نقلا عن نفس المرجع، ص. 19.

3- الحجوي: خطبة في مدرسة أولاد الأعيان، مصدر سابق، نقلا عن نفس المرجع، ص. 254.

4- الحجوي: إصلاح التعليم العربي، م. خ. ع. ح. 118، ص. 5. نقلا عن نفس المرجع، ص. 253.

هي نتيجة واحدة قد اندرجت فيها كل المقدمات. وبمقصد واحد قد انطوت فيه كل الوسائل ، ألا وهو العلم، فعلى كل فرد منا أن يجعل هذا نصب عينيه، وأن لا يلقي ببنيه أفلاذ كبده في صدمات الدهر يتجلجل فيها من شق إلى شق، وعليه أن يبذل النفس والنفيس في تغذيتهم بلبان العلم حتى يتعزز جانبهم، ويقووا على حفظ كيانهم ودينهم ولغتهم وشرفهم وأخلاقهم وأموالهم"، ويضيف مبرزاً أهمية العلم وثماره لتحفيز المغاربة على التعلم والتحصيل قائلاً : "العلم يحرس الدين، والدين هو جامعة الأمة وحياتها، وإذا رأيت من أمة تقصيرا في سبله فأندر بانقراضها أو تساهلا في العمل بمقتضاه، فهيء في أنقاض التاريخ زاوية لأنقاضها... .. والولد إذا لم يشب على العلم لا يلبث أن ينفذ يده من تراث أبيه قبل أن ينفذها من تراثه"<sup>1</sup>.

حذر عبد السلام السائح الآباء من جمع الأموال للأبناء وإتباع النفس في ذلك، والتفريط في تعليمهم وتربيتهم، ومن ثم "لا يحسن حفظها ولا تنميتها، أو أن نفسه تطيب بإتلافها دفعة في سبيل شهوات خسيصة وأميال منحطة، دع عنك هذه الفكرة، وحصنه بدرع العلم، ثم قدمه إلى صف معترك المعاش، لا تخاف عليه غرقا، ولا تخشى دركا"<sup>2</sup>.

لم يكن رواد الإصلاح في المغرب، يرون في الدولة هدفهم الوحيد في إنشاء المدارس ونشر التعليم، لا سيما بعد معاينتهم لدور المجتمع المدني الأوروبي في الارتقاء بالتعليم، فالحجوي الثعالبي الذي تقلد منصب وزير المعارف، كان يعي إمكانيات الدولة الضعيفة، لذلك رأى في المجتمع المدني من جمعيات ومنظمات وهيئات وأندية رهانا آخر، لمساعدة الدولة في تعليم وتنوير المواطنين، وبذلك يكون الحجوي أول من لفت انتباه المغاربة للمجتمع المدني ودوره في التنمية وإحداث النهضة.

فلكي يشع نشر التعليم ونجاحه لا بد من فسح المجال أمام الجمعيات المهتمة غير الحكومية تأسيا بالتجربة الأوروبية ، وتصحيح النظر إزاء الاعتماد على الدولة وحدها، لأن أفراد المجتمع الأوروبي قد حصلوا على قدر من التعليم بفضل نوادي العلم العامة وأنهم "لا يتكلمون على الحكومة في كل شيء مثلنا، ولا سيما في العلم"<sup>3</sup>.

وترجمة لهذا الوعي بأهمية التعليم وضرورة تعميمه في المغرب ، عمل الحجوي منذ تعيينه وزيرا للمعارف، في فترة الحماية، على تأسيس المدارس والإكثار منها، غير أن المغاربة لم يقبلوا هذه المدارس التي أشرفت مندوبية

---

1- السائح: المصدر السابق، ص . 42..

2- نفسه.

3- الحجوي : الرحلة الأوروبية، مصدر سابق، ص . 46

المعارف على إنشائها، واعتبروها مجرد حيلة ووسيلة تستعملها فرنسا لتوطيد وجودها وحماية مصالحها، فرفضوا إرسال أبنائهم للتعليم فيها، مما جعل هذه المدارس العصرية تواجه صعوبة كبيرة تمثلت في ندرة التلاميذ، لذلك عمل الحجوي من جهة أخرى على إقناع سلطة الحماية، بقبول إدخال اللغة العربية والمبادئ الدينية، حتى تصبح هذه المدارس مغربية الصبغة، على حد قوله، وقد نجح في خطته، حيث كان ذلك سببا في ازدهار التعليم وامتلاء المدارس، "حيث اطمأن الفكر العام على معتقدات أولادهم ودينهم وثقافة أسلافهم ... وأقبل المغاربة على المدارس العصرية الإسلامية حتى اكتظت"<sup>1</sup>.

كما أولى الحجوي عناية كبيرة بالتعليم القروي، حيث قام بتشيد عشرات المدارس، كما طالب السلطان بجعل مدارس ليلية لتعلم القراءة والكتابة، يتعلم فيها الكبار الذين فاتهم التعلم في الصغر، كما طالب التلاميذ بتعليم آبائهم وأمهاتهم القراءة والكتابة، وتعليم كل من هو في العائلة<sup>2</sup>.

#### ب \_ الجمع بين العلوم العقلية الطبيعية والعلوم النقلية الشرعية .

أسيا برواد الإصلاح في مصر وتونس، سلك رواد الإصلاح في المغرب منحى توفيقيا بين العلوم الشرعية والعلوم العقلية المادية، محاولين تحقيق المصالحة بين النوعين، إذعانا للمجتمع الذي كان لا يقبل التجديد إلا إذا مر عبر التوافق مع الدين والموروث، لقد نحا أحمد الصبيحي في تصنيفه للعلوم وترتيبها، المنحى المعروف في الثقافة العربية الإسلامية، فتحدث عن سبعة أجناس هي: العلم الشرعي، والعلم الإلهي، والعلم الطبيعي، والعلم الرياضي، والعلم الاستعماري، وعلم الحقوق، وتحدث عن الأقسام التي يتوزع إليها كل جنس وعن حرف صنائع أصبحت لها قواعد منضبطة رقت إلى مصاف العلوم. وعلى ضوء هذا التقسيم أعطى الصبيحي الأولوية للعلوم الشرعية، فاعتبرها الأساس الأول والأصل الأصيل الذي عليه المعول، وصنف في المقام الثاني بعدها "العلوم المرعية" من طبيعية ورياضية، وحث على تعاطيها لسبيين، أولا: "لأن بها سادت الأمم وصارت في الطريق المدني الأقوم"، وثانيا: "لمسيس الحاجة إليها في هذا العصر الحالي، مع نفعها في كثير من العلوم الشرعية أيضا"<sup>3</sup>. وقريبا من هذا الموقف التسويغي، أكد بن الأعرج السليماني والذي أطلع على الحداثة الأوروبية من خلال رحلته

1- بنعدادة: المرجع السابق، ص . 248 .

2- نفس المرجع، ص . 249 .

3-الصبيحي، أحمد : أصول أسباب الرقي الحقيقي، ضمن ، الاجتهاد والتحديث ، مرجع سابق ، صص . 130- 131

الحجية قائلا : "إن العلوم الرياضية والطبيعية ، هي التي أدت بالأوروبيين إلى الاختراعات الوقتية ، والمستنبطات الصناعية"<sup>1</sup>.

كما وعى الحجوي أهمية العلوم الحديثة منها والطبيعية ، القادرة وحدها على إخراج المغرب من الركود وإدماجه ضمن الأمم الراقية، وانتقد المواقف المتحجرة لبعض العلماء الذين متى ظهر اختراع واكتشاف إلا وكانوا من ألد أعدائه، في حين يأخذ به غيرهم وبيقوا هم في غيبوبة مؤلمة. ولتجاوز هذا الركود، كان ينبه المغاربة قائلا : "استيقظوا من نومكم واعلموا أنكم في زمن ظهرت فيه من آثار العلم مخترعات... وأن علماء الطبيعة بالعجب العجاب... غاصوا في السماء وحلقوا في الهواء... وداروا حول الأرض في بضعة عشر يوما... وهذا كله إن أردتم أن تدركوه، فما عليكم إلا أن تأتوه من بابه وهو تحصيل العلوم الرياضية والطبيعية"<sup>2</sup>.

كما دعا الحجوي إلى الاهتمام بالعلوم العصرية من دون إغفال منه للعلوم الشرعية والعربية ، لأنها فضلا عن كونها واجبا دينيا ، فهي كذلك باب الأخلاق والتهديب، وباب الأدب والتأدب ، فعلم التوحيد، كما يقول : "مفيد لتهديب العقل بالمعتقدات الصحيحة، والفقهاء تؤهل للعبادة النامة بعد النظافة الكاملة، والمنطق والأصول وسيلة لإتقان المنطق وجودة التصور، لذلك يجب النهوض بهذه العلوم قبل ضياعها، لأنه إذا ذهب الجيل الحاضر في المغرب ولم تقع نهضة لإحياء هذه العلوم ذهبت"<sup>3</sup>.

أما عبد السلام السايح، وفي سياق مقارنته للنظام المعرفي بالمغرب، أشار إلى أن الدولة المغربية "يعوزها شيء واحد، وهو العناية بعلوم العصر من الطب والهندسة والحقوق إلخ، ومزاولة العلوم الصناعية والميكانيكية إلخ، ولا أرتاب في أن هذه العلوم قصيرة المدى قريبة المحيط من المركب، بالنسبة إلى علومهم الجملة الغزيرة التي تنقطع أعناق المطي دونها، أفلا يجعلون لأنفسهم سهما منها فتصبح وقد شاركنا أمم الأرض في علومهم، وفضلناهم بمعلوماتنا الأخرى ، وتكون قد نفينا هذه الوصمة عن جانبنا وجلونا عن هذا البهق غرة محاسننا"<sup>4</sup>.

1-السليمانى : الابتسام عن دولة ابن هشام، نقلا عن الشاوي، عبد القادر، التخلف والنهضة...، مرجع سابق، ص 31.

2- الحجوي: إصلاح التعليم العربي، نقلا عن، بنعدادة : مرجع السابق، ص . 257 .

3- نفسه .

4- السايح: المصدر السابق ، ص . 43.

فمحمد السايح لا ينفى وجود نظام معرفي بالمغرب أوائل القرن العشرين، حيث أشار في نصه الرحلي إلى رئاسة الأمة العربية الإسلامية عامة والمغرب خاصة، في العلوم الشرعية والنقلية، وهي علوم لا تقل أهمية عن تلك العلوم الطبيعية التي أصبحت أوروبا تحتل فيها الريادة، مثل علم الفقه والأصول والتفسير والحديث والتاريخ والمليقات، لكنه يرى أن هذا النظام الذي خضع في تكوينه لطرق غلب فيها الجمود على الحركة، والانغلاق على الانفتاح، بات يحتاج أكثر إلى توافر جرأة قوية تقوم بالمراجعة النقدية والمتفهمة، من أجل أن تضعه على سكة المنافسة الكونية وتجاوز حالة التأخر الحضاري. حين يتعين أن يكون العلم المحمول، كما يساعد على تربية الإنسان أخلاقياً، يسوقه كذلك إلى العناية بالأعمال التطبيقية حيث تكون سببا في ظهور قوة الإنسان المادية والاجتماعية، وسبيل ذلك حسب السائح هو "العناية بعلوم العصر من الطب والهندسة والحقوق ومزاولة العلوم الصناعية والميكانيكية".

وليس العلم المقصود عند الكاتب "مجرد ألفاظ يتشدد بها أو أشعار يترنم بها أو حكايات يحاضر بها، أو عبارة عن محفوظات تتلى ثم تملأ أو عن حكاية قول فلان ومناقضة فلان، لا والله، بل العلم هو الغوص على مغازي المعاني، ثم النفوذ منها إلى حيز العلم"<sup>1</sup> العلم إذن وكل ما يؤدي إليه هو الذي يحتاجه نظام المعرفة العربية بالمغرب، العلم الذي تتمثل فيه قيم الإسلام ومبادئه.

لتبرير دعوته لاقتباس العلوم الطبيعية الأوروبية والاهتمام بتدريسها، وإضفاء الشرعية عليها، اعتبر عبد السلام السايح في نصه الرحلي أن هذه العلوم هي علوم إسلامية قائلًا: "وليس تلك العلوم بدخيل فينا، ولا بأجنبية فينا، بل هي والله، علوم آباءنا الأولين التي طالما تهاقت بها أفكارهم، وتهاق أقدامهم، ولكم كان في الإسلام من علماء أعلام برزوا وبرزوا في تلك الميادين، ولعبوا دورهم فوق تلك المراسح، وأيم والله، لقد كانت تحلى بهم الخناصر في عد المهرة بعلم الجغرافيا والهيئة والطبيعات والهندسة وسائر العلوم الرياضية، ولقد أصلحوا من أغلاط اليونان ما أصلحوا، واستدركوا عليهم من المخترعات ما استدركوا، وقدموا تلك العلوم إلى العالم أكلة شهية، وعنهم أخذ الإفرنج الأرقام الحسابية وعلم الجبر والمقابلة.." <sup>2</sup>

ج - إصلاح المناهج التربوية والتعليمية :

---

1- نفس المصدر، ص . 42.

2- نفس المصدر، صص . 43- 44 .

لا يعتقد الإصلاحيون المغاربة، أن المبادرة إلى فتح المدارس وتكثيرها ونشر التعليم كاف لنجاح دعوتهم التحديدية، بل لابد، إضافة لذلك، من جعل نظام تعليمنا في قلب الأسئلة الجديدة والتحديات الطارئة التي تواجه العالم، وهذا يقتضي نوعا من الجرأة للبحث عن مكامن القوة والتقدم عند الجهات التي تمثلها، نستكمل بها ما عندنا لتنطلق بذلك مسيرة تجديد هذا النظام، ولا يجب أن تكون هنا مقولات الهوية والقومية والحذر المبالغ فيه، وهي عوائق تمنعنا من عدم المشاركة في إنجازات عصرنا، التي يعتبر تحديث وإصلاح التعليم من أولى أولوياتها، حيث أصبحت الحاجة إليه ضرورية، يقول الحجوي الثعالبي: " أن مواقع الفساد في علومنا، تكمن أولا في كيفية التعليم، ثم في الكتب التي بها الدراسة والتفهم وكل ما لابد له من تنظيم وتعميم، أما كيفية التعليم فهي عندنا لازالت على النسق القديم بل العقيم الذي كان نافعا في القرون التي كانت اللغة الفصحى لازالت معروفة توصل إلى فهم المراد بسهولة، لكن لما تغير الزمان وفسدت اللغة وجب تغيير أسلوب التعليم"<sup>1</sup>.

وهكذا يؤكد الحجوي على ضرورة تجاوز المناهج التقليدية في التعليم التي يفني الطالب عمره فيها والإقبال على تعلم المناهج العلمية واللغات الحية حتى يستطيع بناء حضارته على أساس علمي، يقول: "ينبغي أن يقتصر في التعليم الابتدائي على القدر الضروري الذي يحتاج إليه من يريد أن يتوقى اللحن فيه يعبر به عما في ضميره والغلط في فهم عبارة غيره، وهذا القدر لا يلزم فيه أن يدرس ألفية ابن مالك وشروحها، ولا كافية ابن الحاجب وشافيته، فضلا عن التوضيح والتسهيل أو نحوها مما كانت تسميته من باب الأضداد"<sup>2</sup>.

كما ألح الحجوي في مشروعه الإصلاحي على وجوب الانتقال من الحفظ والتقليد والاختصار إلى الإبداع فينبغي أن لا يقتصر القوة الحافظة فقط، فتضعف القوة المفكرة ويصير التلميذ بليدا، ولاشك أن هذا يدفع به إلى النفور من التعليم، لأنه يحس بذلك أنه فقط مكلف بحمل الأثقال تحت الإكراه، التي قد تتعبه فيتركها بدون عودة، لذا فالأفضل، هو العمل على زرع روح جديدة في نظامنا التعليمي، من شأنه أن يهيئ لنا نخلة مفكرة، إذ الملاحظ أنك "تجد الذين يفكرون كثيرا قلما يحفظون ، والمفكرون أكثر نفعا للوطن"<sup>3</sup>، بما يقدمونه من اجتهادات حية لمشاكل المجتمع وقضايا الاقتصاد ، والتي تساعد الأمة على النهوض وامتلاك القوة .  
د-إنشاء مدارس تقنية وربط العلم بالتجربة :

1- الحجوي : محاضرة في إصلاح التعليم العربي: ص 4. م. رقم : (ج 115)، نقلا عن بنعدادة ، المرجع السابق، ص.252 .

2- الحجوي : نقد كتب الدراسة للعلوم العربية، مصدر سابق، ص ، 3 ، نقلا نفس المرجع، ص . 253 .

3- نفس المرجع ، ص . 254 .

بفضل احتكاك النخبة المغربية بأوروبا ، تشكل الوعي لديها بضرورة شمولية التعليم وتعميمه حتى يشمل كل شرائح المجتمع المغربي، من فلاحين وحرفيين وتجار وجيش، لأن ذلك وحده السبيل والمدخل الرئيسي للتنمية الشاملة، مستحضرة واقع الشعوب الأوروبية التي تجاوزتنا وسبقتنا في الحضارة والمعارف، بفضل الثورات المتنوعة التي مرت منها وانتهت إلى درجة من الرقي الحضاري. لذا دعا **الحجوي** إلى الاهتمام بالتعليم التقني ودعمه عن طريق نشر المدارس التقنية في جميع أنحاء المغرب، وربط التكوين النظري بالتطبيق، وقد ضرب مثلا بالمدرسة **الفلاحية بفاس**، وطالب بتخصيص محل فيه للتجربة يتعلم فيها التلاميذ غرس الخضر والأشجار بأنفسهم ويباشرون فيه علاج الحيوانات، ليقرنوا العلم بالعمل، لأن **"العلم العملي أساس تقدم الدول الراقية، إذ ينبغي على التجربة وينور العقول ويزيل الأوهام"**<sup>1</sup>. واقترح فتح مكتب فلاحى بمراكش على غرار ما هو موجود بفاس، وألح من جهة ثانية على ضرورة الاهتمام بالمدارس الصناعية وتنشيطها على غرار مدارس الصنائع الأوربية الموجودة بالدار البيضاء وغيرها، إذ بفضل ذلك سيقبل المغاربة على الاقتصاد النافع، ليخلص **الحجوي** إلى القول: "إن حياة المملكة الاقتصادية هي في الفلاحة والصناعة ، وبدونها يسود الفقر ويعظم الفساد"<sup>2</sup>.

في نفس المنحى، أكد **الصبيحي**، على ضرورة تأسيس مدارس فلاحية ابتدائية للمغاربة، "يتخرج منها تلاميذ مهذبون يبثون معلوماتهم في وطنهم العزيز"<sup>3</sup>.

كما نادى **الحجوي** بوجوب التخطيط لمدارس متخصصة في التعليم التجاري ولبرامج تمكن من إعداد التاجر المسلم الناجح القادر على منافسة التاجر اليهودي والتاجر النصراني، حيث تأكد لديه أن المال والتجارة هما **"منبع الثروة في العالم"** وبهما أصبح **"العالم مستعمرة إسرائيلية"**<sup>4</sup> بسبب اهتمام اليهود، واليهود المغاربة منهم بالتجارة وتعلم علومها الحديثة، حيث تمكنوا بفضلها من احتلال مقامات النفوذ المالي والسياسي في قلب الدول العظمى، في حين بقي أهل فاس والمغرب **"مع ما تعودوه من قلة الاقتصاد واتباع العوائد الفاسدة والزوائد الباردة"**. فحيث كانت دولة أوروبا تفتح أقساما ومعاهد عليا للتجارة يقبل عليها الآلاف من الطلبة، تظل الأقسام التجارية في المدارس ببلادنا منعدمة حيث **"لم ينفقوا من أموالهم ولو دانقا واحدا في سبيل العلم، فما**

---

1- نفس المرجع، ص . 256 .

2- نفس المرجع، ص . 260 .

3- الصبيحي: أصول أسباب الرقي الحضاري، ضمن ، الاجتهاد والتحديث ، مرجع سابق ، ص . 132 .

4- الحجوي: مستقبل التجارة في المغرب، مصدر سابق، ص . 115 .



شيدوا مدرسة ولا ناديا علميا ولا مكتبة، ولا توجه من أولادهم إلى الآن ، ولا واحد إلى أوروبا لتكميل دروسهم، بل كانوا في العلم أول الزاهدين". من هنا حصل التفاوت بين المغرب وأوروبا، حيث كان التسابق إلى المال و الثروة، أحد أهم أسبابه، وهذا ما أدركه الحجوي وغيره من الرحالة الذين زاروا أوروبا ووقفوا على حقيقة ذلك، وعبروا عنه بلغة أبانوا فيها عن فهم عميق لما كان يحكم حركة القوة في الكون. لذلك طرح الحجوي سؤالاً على شاكلة السؤال الأرسلائي "لماذا تقدم الأوروبيون وتأخر المسلمون ؟ فأجاب بجنكته ومعرفته بالمتغيرات والتحويلات التي يشهدها الاقتصاد العالمي بقوله " تقدموا لأنهم قدمهم العلم بالتجارة وأخركم الجهل بعلمها.<sup>1</sup>" وبسبب إيمان الحجوي واعتقاده بأهمية التجارة والصناعة في قوة الأمم لاسيما من جهة تعليمها، ألح على أن يجد الشباب المسلم الذين ارتادوا مدارس الصناعة والتجارة التعليم فيها على الوجه المطلوب المفيد في تعلم أسس التعامل التجاري الصحيح ، من محاسبة، وإمسك للدفاتر، وتعود على ملاحظة السوق وحركته في داخل البلاد وخارجها بقراءة الجرائد والمنشورات المتخصصة، وقد كان في دعوته هذه، مستحضرا الرقي التجاري الأوروبي الذي عاينه في رحلته الأوروبية .

### 3- النخبة المغربية وتحرير المرأة تأسيا بالمرأة الأوروبية .

رغم ما خلفه السلف من كتب ورسائل تبين حكم الشرع في تعليم البنات، فقد عادت مسألة تعليم البنات لإثارة الجدل بين الفقهاء المغاربة في العقدين الأولين من هذا القرن. فاختلّفوا فيها بين قائل بأن في تعليم المرأة دعوة إلى السفور وخروجها عن جادة الشرع الإسلامي الذي أمر بالحجاب، وبين داعية منافع عن حق المرأة في طلب العلم، وكان السفراء المغاربة الذين زاروا أوروبا وأعجبوا بعلم المرأة الأوروبية ومشاركتها الحيوية في المجتمع من دعاة تعليم المرأة وتحريرها تأسيا بالمرأة الأوروبية عامة ، والفرنسية خاصة .

فالحجوي الثعالبي ، صاحب الرحلة الأوروبية، ووزير المعارف آنذاك، كان في طليعة دعاة القول بتعليم الفتاة المغربية . وقد اشهر موقفه بكل جرأة في محاضرة تاريخية ألقاها يوم 9 دجنبر 1922 بالمعهد العالي بالرباط.

يدعو الحجوي إلى ضرورة تعليم الفتيات من منطلق الاقتباس من دولة فرنسا ، "التي تعلم أولادها ذكرا وإناثا"<sup>2</sup>، واعتمادا على الأصول، الكتاب والسنة، التي تؤكد أن النساء شقائق للرجال، وأن المرأة يجوز أن تصل إلى رتبة الاجتهاد في علوم القرآن والسنة وما يوصل إليهما من العلوم الإسلامية حتى تكون كالإمام مالك

1- نفس المصدر، ص . 116.

2- الحجوي : تعليم الفتيات لا سفور المرأة، مصدر سابق، ص . 206 .

والشافعي..<sup>1</sup> وهكذا يزوج الفقيه الحجوي بين مرجعيتين، إحداهما تحيل على الاقتباس من "الأخر" الفرنسي والثانية تحيل على الأصول والسلف . ومما قاله : "يجب تعليمهن وتهذيبهن تعليما راقيا يليق بديننا، ويزين مستقبل أولادنا، وبصيرهن عضوا نافعا في هيئتنا الاجتماعية . فلا غنى عن إعانتهم في تربية رجال المستقبل الذين عليهم مدار حياة البلاد، وتعليمهم فن التربية ونظام البيت وقواعد الصحة والدين وحفظ القرآن أو بعضه والحساب والجغرافيا والعربية والأدب ونحو ذلك مما يعينهم على مهمتهم".<sup>2</sup>

كما بين أن الوظيفة الاجتماعية والتربوية المتعددة للمرأة تفرض تعليمها وتثقيفها وتكوينها تكوينا علميا ومهاريا متينا اعتبارا لدورها التربوي وتأثيرها الكبير والقوي في الناشئة، شارحا أشكال ووسائل هذا التأثير وأبعاده النفسية والاجتماعية واللغوية والسياسية والدينية: "إن تربية البنت وتعليمها ضروري، من حيث الدين والاجتماع معا، وليس هو بكما لي كما يظن بعض من لم يمعن النظر في المسألة تأملا ونقدا. وقد أجمع الرأي العام داخل المغرب وخارجه على أن تربية الأم هي أس صلاح الأمة أو فسادها، ولا سبيل للأمة أن تحل محل اللاتق من الرقي إلا بتعليم البنت وتهذيبها. وبقدر تعميم رقي البنت الفكري والأخلاقي ترقى الأمة، وبقدر نقصان ذلك التعميم تنحط الأمة"<sup>3</sup>.

ولا يكتفي الحجوي بإثبات حق البنت في التعلم، بل يخطط للنهوض بتعليم الفتيات ويعرض منهاجا تربويا متنوعا يحقق لهن إتمام مختلف عناصر الشخصية العقلية والاجتماعية والوجدانية بشكل متكامل وشمولي، منتقدا في الوقت نفسه أساليب ومناهج التعليم القديمة التي لم تعد قادرة على الوفاء بحاجات الحياة الاجتماعية المعاصرة ومواجهة التغير الشامل الذي تعرفه البلاد: "لا يكفي في تعليم البنت القراءة والكتابة على الطراز القديم الصعب القليل الجدوى، وحفظ يسير من القرآن أو كله من غير فهم ولا استفادة فكري. ولا يكفي تعلم صنعة أو صنائع بدون تهذيب. وهذا هو جل ما هو موجود في المدارس الآن.. فالواجب أن نرقي تعليم البنات إلى قدر أعلى من ذلك ، وأن نزيده نظاما وتحسينا حتى يحصل منه المقصود الذي بيناه آنفا تعليما

1- نفس المصدر، ص. 202 .

2- نفس المصدر، ص. 208 .

3- نفس المصدر، ص. 212 .

ابتدائيا أدبيا إسلاميا صناعيا. فالواجب أن نرقي البنت ترقية صحيحة متينة تجمع بين تهذيب الأخلاق والعلم والعمل"<sup>1</sup>.

وقد خاض الحجوي في الدعوة إلى تعليم المرأة معركة كبيرة ضد كثير من الفقهاء المحافظين وضد رجال المخزن أنفسهم، وفي مقدمتهم الصدر الأعظم. وحاضر في الموضوع مرات عديدة في المغرب وتونس، وكان يسعى دوما إلى توضيح البعد الإسلامي والديني لدعوته الإصلاحية، وتوضيح ما أسيء فهمه وتقديره من كلامه ورأيه. وكتب بعد ذلك موضحا ومصححا ما فهم خطأ من رأي في تعليم المرأة، فهو يؤكد اختلافه عن آخرين من دعاة تحرير المرأة كالطاهر الحداد التونسي، وقاسم أمين المصري الذي " هتك الحجاب وأزال عن هيبة الشريعة كل جلباب، ولو أنه عاش ورأى حالة مصر الآن، وما يتخبط فيه مجتمع قومه من أزمة المرأة السافرة، بل السافلة لقرع سن الندم ولات حين ندم، فאלلهم احفظ بلادنا من داهية السفور واحفظ علينا ديننا القويم"<sup>2</sup>.

لقد كانت للحجوي الثعالبي الجرأة على اقتحام موضوع كان يعد من ضمن الممنوعات المحاطة بسياج التقليد والموروث الثقافي المنحدر من عصور الجمود والانحطاط، ويحق لنا دون أن نجانب الصواب أن نقول بأن الحجوي بامتلاكه لهذه الجرأة يمكن اعتباره من رواد إعطاء المرأة حقها في التعليم بالمغرب الحديث، وليس صدفة أن يواجه بالرفض والمعارضة شأنه في ذلك شأن كل الرواد الذين يضعون اللبنة الأولى.

استجابة لدعوة الحجوي بتعليم المرأة، وغيره من رواد الإصلاح المغربي، شيد السلطان محمد بن يوسف مدارس فخمة في عدة مدن، وجعل تعليمهن رسميا، كما أصلح برنامج تعليم البنات وجعله تعليما دينيا وأديبا، وجعل لهن الطعام داخل المدرسة في وسط النهار لئلا يكثر ترددهن في الطرق العامة، ونتيجة لذلك أصبح المغاربة يقبلون بشكل ملحوظ على تعليم بناتهن بشكل فاق تحريضهم على تعليم البنين. وبعد أن كانت لا توجد في سنة 1924م إلا ثلاث مدارس للبنات ولا تضم إلا 125 تلميذة، تضاعف عددهن في مدة ثمان سنين خمسا وعشرين مرة. ومن الفتيات من دخلن التعليم الثانوي وحصلن على الدبلوم، بل لقد حصلت إحدهن في طنجة على البكالوريا، وذلك في سنة 1939 م .

4- إدخال المطبعة إلى المغرب .

1- نفس المصدر، ص . 213 .

2- نفس المصدر، ص . 207 .

التمس ادريس العمراوي صاحب رحلة "تحفة الملك العزيز بمملكة باريس" من السلطان محمد بن عبد الرحمان العمل إدخال المطبعة إلى المغرب، وعيا منه بدورها في الإرتقاء بالمعارف، في قوله: "ونطلب الله بوجود مولانا أمير المؤمنين أن يكمل محاسن مغربنا بمثل هذه المطبعة، ويجعل في ميزان حسناته هذه المنفعة"<sup>1</sup>، إلا أن الظروف الصعبة التي كان يعيشها المغرب بعد كارثة تطوان، والأزمة المالية الخانقة التي عانى منها، أدى إلى تأخر دخول المطبعة إلى المغرب. لذا لم يكن مفاجئا، أن لا يتم هذا الدخول بواسطة المخزن، حيث تم بمبادرة فردية، فقد زار قاضي تارودانت محمد الطيب الروداني مصر، واقتنى مطبعة حجرية، وتعاقد معه خبير مصري للانتقال معه لتشغيل المطبعة سنة 1864م<sup>2</sup>. وفي مدينة الصويرة قام المخزن بحجز المطبعة، ونقلها إلى فاس، حيث راحت تشتغل كملكية له وتحت إشرافه إلى حدود سنة 1871 م.

والجدير بالذكر، أنه خلال هذه الفترة من احتكار المخزن للمطبعة الحجرية الوحيدة في البلاد، تم فقط طبع ستة كتب دينية، أولها شمائل الترمذي. ولم يتغير الوضع فيما بعد، فإلقاء نظرة على لائحة المطبوعات الحجرية في المغرب من 1871 إلى 1906 يتبين أن عدد المطبوع هو بالضبط 273 مؤلفا<sup>3</sup>، كلها من عينة كتب التراث المعروفة والمحفوظة، مما كان يدرس في القرويين على امتداد القرون السابقة، ضمنها كتاب وحيد في العلوم العقلية هو كتاب تحرير الأصول لأوقليدس. وبالتالي لم تساهم المطبعة في إحداث اليقظة العلمية المرجوة، وتمكين المغرب من إحدى وسائل التجديد والتقدم والرقي الحضاري، بل عملت على تعزيز المنظومة الفكرية المهيمنة .

ففي الوقت الذي كان ينتظر من المطبعة توسيع مجال الأنشطة الفكرية في المغرب، قد تقلصت لتقف عند حدود المجالات التقليدية، والحفاظ على المنظومة الثقافية السائدة. لذا فلا غرابة أن يتخلف الناصري عن ذكر حدث دخول المطبعة للمغرب لدى حديثه عن عهد السلطان محمد بن عبد الرحمان<sup>4</sup>.

---

1- العمراوي : المصدر السابق، صص . 79 - 80 .

2- كتب كل من محمد المنوني وجرمان عياش في الموضوع، لكن تبقى الدراسة الأشمل هي المنشورة لفوزي عبد الرزاق: مملكة الكتاب، تاريخ الطباعة في المغرب 1865-1912، تعريب : بن الصغير، منشورات كلية الآداب بالرباط، 1996 .

3- نفسه، ص . 142 .

4- يذكر جرمان عياش أن مصنف أكنسوس في تاريخ المغرب انتظر خمسين سنة قبل طبعه سنة 1917، بينما تم طبع عدة مجلدات قديمة - كما أن ثلاثة كتب فقط للناصرى طبعت له من أصل مؤلفاته، أما كتاب الإستقصا فقد كان عليه أن يهاجر من فاس إلى القاهرة ليتم طبعه هناك . دراسات في التاريخ المغربي، الشركة المغربية للناشرين المتحدين، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1986 م، ص . 157.



## المبحث الثالث : إمتدادات وعي المغاربة بالتجاوز السياسي الأوروبي .

لقد كان الإصلاحيون في الغرب الإسلامي وغيره يتساءلون باستمرار، كيف يمكن للمسلمين أن يصبحوا جزءا من العالم الحديث، ويتبنوا مقومات حضارة أوروبا دون أن يخالفوا تعاليم دينهم. فقد اعتبروا في كتاباتهم أن الإسلام والحداثة لا يتناقضان، والمهمة العاجلة في الغرب الإسلامي، هي الاعتماد على الشرع الإسلامي لتحويل الحكم الفردي المطلق بدول المغرب، إلى حكم شوري مقيد بدستور، أي تحويل الدول التقليدية التحكيمية القاهرة، التي يملك فيها الأمير البلاد والعباد، إلى دول قانون ومؤسسات وتنظيمات على غرار نظيراتها في أوروبا، وهذا الإصلاح السياسي كفيل في أنظارهم بتوفير الأمن للأجساد والأموال، وبتطوير قوى الإنتاج وبتحصين العالم الإسلامي ضد التوسع الأوربي الاستعماري الزاحف.

### المطلب الأول : الإصلاح السياسي في تونس .

لقد مكنت المدة التي مكثها المفكرون التونسيون في أوروبا، من معرفة التقدم والرقي الذي بلغه الأوروبيون في سائر المجالات والاتجاهات، ومكوئهم هناك واحتكاكهم برجال السياسة، زادتهم اطلاعا على الدنيا الجديدة بنظمها ومؤسساتها، ووضع أيديهم على أسباب رقي الأمم الأوروبية، من خلال المقارنة بينها وبين تونس. فانطلاقا من وعي النخبة التونسية بحقيقة تجاوز الأمم الأوروبية لدولة تونس خاصة، ولدول العالم العربي والإسلامي عامة، شرع خير الدين التونسي وابن أبي الضياف ومحمد بيرم الخامس، في طرح مقولات الإصلاح السياسي على النسق الأوروبي. ولعل أول ما لاحظوه سيرا على نهج المشاركة، هو أن الحكم الاستبدادي، الذي يتولاه فرد واحد سواء أكان عادلا أو غير عادل ، لهو الأساس المكين لتفشي الفساد وترسيخ قدم التخلف والانحطاط.

#### 1 : نقد الاستبداد والطغيان السياسي.

لقد عاش الإصلاحيون الأوائل حركة باي أحمد التحديثية، ولاحظوا كيف أن استبداد الباي كان أهم أسباب فشل التحديث حسب رأيهم، وقرأ خير الدين وابن أبي الضياف لابن خلدون، قراءة خاصة على ضوء مشغلهم السياسي، فلم يهتموا باكتشاف ابن خلدون لعلم العمران، وإنما اهتموا بوقوفه ضد الاستبداد السياسي، وركزوا على مقولته الشهيرة "الظلم مؤذن بخراب العمران" واستعملوا في خطابهم الكثير من المصطلحات الخلدونية، مثل السياسة والملك والدولة والعصبة والوازع والشورى وأهل الحل والعقد .

يفرد خير الدين التونسي في مقدمته فصلا خاصا لهذا الموضوع تحت عنوان "مطلب عواقب الاستبداد والعمل بالرأي الواحد"<sup>1</sup> يعطي فيه مثلا مطولا اقتبس من أحد المؤرخين الفرنسيين يستشهد فيه على: "عواقب الاستبداد وأن العمل بالرأي الواحد مذموم ولو بلغ صاحبه ما بلغ من الكمالات والمعارف."<sup>2</sup> وهو مثل نابليون الذي كان من الرجال القلائل الذين جاد بهم الدهر في القرون الماضية، وهو "بهمة اسكندر الرومي وقيصر الروماني وذكاء أنيبال الإفريقي، والذي كان جنديا يعرف كيف تقاد الجيوش ، ورجل دولة يعرف كيف ينبغي أن يرتفع شأنها بدون خروج عن "دائرة التواضع"<sup>3</sup>، ومع ذلك فقد ارتكب الغلطات الفاحشة التي نتعلم منها حسب خير الدين التونسي، درساهاما و هو "إنه لا يسوغ أبدا أن يسلم أمر المملكة لإنسان واحد بحيث تكون سعادتها وشقاوتها بيده ولو كان أكمل الناس وأرجحهم عقلا وأوسعهم علما.... ومع ذلك فلم تمض إلا سنوات قليلة إذ انقلب ذلك العاقل مجنونا مجنون غير مماثل لجنون أرباب الثورة، والجنون فنون". ويدعم خير الدين موقفه هذا باقتباس من فلسفة أرسطو حيث يقول : "وفي حكمة أرسطو أن من الغلط الفادح أن تعوض الشريعة بشخص يتصرف بمقتضى إرادته".<sup>4</sup>

---

1- التونسي : المصدر السابق، ص . 167 .

2- نفسه .

3- لقد استأثرت شخصية نابليون لدى النخبة المصرية خاصة والعربية الإسلامية عامة باهتمام كبير، وحظيت عندها بإعجاب وتقدير كبيرين، وقد كان ذلك بتعبير حواش محمد، "مشفوعا بمقارنة بين سلوكياته وما يقابلها لدى قادة المسلمين ممن عجزوا عن رده ومقاومته. وكان أقوى ما حرك لديهم هذا الشعور، هو جمع هذا القائد بين خصلتين عز نظيرها بين المسلمين في ذلك الحين، وهما البساطة والتواضع من جهة، والحزم والعمل والشجاعة وحسن التدبير من جهة ثانية". كما ذكر أن ابن أبي الضياف أورد في كتابه الإنحاف شهادة لمولاي سلامة المغربي بسبب احتكاكه المباشر بنابليون، والذي كان يتردد على بيته ومكان عمله بالقاهرة ، يقول فيها : "كانت بيته بمصر تحتوي على فراش منامه وموضع جلوسه، وأمامه مائدة عليها دواة وقراطيس، وأرائك جلوس من يأتيه لا غي". وقد عبر ابن أبي الضياف التونسي من خلالها عن تشخيصه للأسباب الكامنة وراء تخلف المسلمين وحلول الهزيمة بجيوشهم، وهي كما قال ابن الضياف، على لسان مولاي مسلمة، أسباب عقلية تتلخص في : "الانغماس في النعم، والتعمق في الحضارة، واستعمال السرف في ميدان الترف، حتى أن أثقال أمراء الجيوش توازي أثقال الجيش أو معظمه". انظر بتفصيل مدى إعجاب النخبة العربية بنابليون بونابارت، حواش، محمد : "منظومة القيم الغربية بعيون عربية إسلامية..."، مرجع سابق، صص، 312\_ 316 .

4- التونسي : المصدر السابق، ص . 168 .

إن خير الدين من تجاربه وقراءته للتاريخ ومعاينته للمشهد السياسي الغربي يعرف ويعي نتائج الطغيان الوخيمة على الأمم والشعوب، لذا أكد على الشورى لتصحيح الوضع السياسي العربي "ولاسيما في هذا الزمان الذي قل فيه العرفان وكثر الطغيان"<sup>1</sup>.

كما توقف ابن أبي الضياف طويلا عند مخاطر الملك المطلق الفردي الاستبدادي متأثرا إلى حد بعيد بأجواء الحرية التي عاينها من خلال رحلته الفرنسية، وأشار أن صاحب الملك المطلق "يسوق الناس بعصاه إلى ما يراد منهم بحسب اجتهاده في المصلحة. وهو فرد غير معصوم، يلزمه ما يلزم البشر (...) وأجساد الخلق منساقة منقاداة انقياد البهائم الأنعام، ولو أدى ذلك إلى مضرتهم وابتزاز نعمتهم، خوفا من حاميته التي جعلها آلة لتغلبه وقهره، ولما يحصل في نفوس بعض الرعايا من صيغة الانقياد والتسليم، فلا تكاد تحدث سرها بمخالفته، ولا يختلج في ضميرها انحراف عن الطاعة، بما تخلفوا به من ذل المغارم والقهر، الذي جدع أنوف آبائهم ومحا عزة نفوسهم بمرور السنين، ولما في الخروج عن طاعة أولي الأمر من المحذور الشرعي عند متأخري الملة الإسلامية"<sup>2</sup>.

وهذا الصنف من الملك المطلق حسب ابن أبي الضياف، يعارضه الشرع "لأنه تصرف في عباد الله وبلاده بالهوى، والشرائع جاءت لإخراج المكلف من داعية هواه". كما أن العقل أيضا يعارضه، لأنه تغلب وقهر، وهذا الأخير "يجلب الثورة والخروج والعصيان، وهذا خطر إذا وقع زال معه الأمن، وبزواله يزول الأمل، وبزواله يزول العمل، إذ الخائف لا أمل له في غير النجاة من الظلم بنفسه وماله، وذلك مؤذن بخراب العمران"، ومن ناحية أخرى تقضي شدة الملك القهري، إلى نقص في بعض الكمالات الإنسانية، من الشجاعة والمدافعة عن المروءة وحب الوطن والغيرة عليه.. وفي هذا الصدد يقول ابن أبي الضياف: "حتى صار بعض أهل الجهات من المسلمين عبيد جباية ليس لهم من مسقط رؤوسهم وبلادهم ومنبت آبائهم وأجدادهم إلا عطاء الدراهم والدينار على مذلة وصغار، والرابط على الخسف ربط الحمار، حتى زهدوا في حب الوطن والدار وانسلخوا من أخلاق الأحرار، وهذا أعظم الأسباب في ضعف الممالك الإسلامية وخرابها"<sup>3</sup>.

1- نفسه .

2- بن أبي الضياف، المصدر السابق، ج ، 1 ، ص . 9 .

3- نفسه، ج ، 1، صص. 16-17.



حاول ابن أبي الضياف الرد على طائفة من العلماء، الذين يلزمون الرعية بطاعة الأمراء والحكام، وعدم الخروج عليهم حفاظا على وحدة البلاد، ودرءا للفتنة واضطراب أحوال الرعية، معتمدين في ذلك على مجموعة من النصوص الشرعية، وهنا يذكر ابن أبي الضياف الآية القرآنية التي يمسك المتأخرون من الفقهاء بظاهرها على حد قوله، وهي قوله تعالى : ﴿

الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ أَمْرًا مِّنْ دُونِ أَمْرِ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ يَفْضَلُ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْعَمَلُ ۗ وَمَن يَفْعَلْ مَا تُنذِرُ لَأُوْحِدَنَّ لَهُ جُجُودًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ يَظُنُّ حُبَّهُ لِحُبِّ اللَّهِ كَفْرًا حَتَّىٰ يَخْرُجَهُ مِنَ الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحِسَابِ ۗ

﴿٢٤٤﴾، ويذكر حديثنا هو صريح في تدعيم موقف هؤلاء المتأخرين من العلماء، وقد

أورد الحديث بلفظه "سيكون عليكم أمراء يعسفون وما يعلم الله بهم أكثر، فإن أحسنوا فلهم الأجر وعليكم الشكر، وإن أساءوا فعليهم الوزر وعليكم الصبر، إلا إن أمروا بكفر أو معصية، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق"<sup>2</sup>.

وخلاصة أقوال العلماء التي يرويها ابن أبي الضياف في هذا النص، لا تدع شكاً في أن أهل السنة نحو نخبنا شديداً عن مخالفة ذوي الأمر وأوصوا بطاعتهم والصبر على أذاهم " وإن أخذوا مالك وضربوا ظهرك" خوفاً من الفتن التي هي شر الشرور .

ويظهر من كلام ابن أبي الضياف أنه وجد بعض الحرج في قبول هذا الأمر، الذي يعتبر السكوت والخضوع للظالم المستبد أمر واجب، لمعارضته منطوق العديد من الآيات القرآنية التي تحث على العدل والشورى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فتساءل: "وانظر هل الأمر بالصبر أمر ندب أو وجوب؟". ويبحث عن القرائن التي تدل على أنه ليس أمراً وجوباً، فيشير إلى أن عدداً من كبار الفقهاء لا يجذب إعانة الملوك المتعسفين على الخارجين عليهم .

لكن ابن أبي الضياف يعود ليخبرنا بأن هذا الصنف من الملك القهري، بحسب علمه، قد "زال بفضل الله من أكثر ممالك الإسلام، ولم يبق شيء من أثره إلا في السلطنة الشريفة الحسنية العلوية بفاس ومراكش، حيث يحكم السلطان في أحوال السياسة والجباية والجنایات باجتهاده وبما يقتضيه نظره،

1- سورة النساء، الآية . 58

2- حديث صحيح عن الإمام البخاري،: 78/7

وحيث يسلم أهل المغرب بما فيهم من الخير والسذاجة الإسلامية بالكرامة للسلطان .. وهذا أعظم الأسباب في تأخرهم عن هذا التمدن الوقتي"<sup>1</sup>. وحاصل القول إن الملك المطلق أغلبه جور، وأن "جور الملوك هو أقوى الأسباب في تدمير البلدان وتخريب العمران وانقراض الدول"<sup>2</sup>.

تأسيسا على ما سبق، نستنتج حرص النخبة التونسية في القرن التاسع عشر على التوفيق بين النصوص الفقهية وبين النزعات التي ظهرت في أوروبا الحديثة ، من رفض طاعة الملوك المستبدين، والدعوة إلى الثورة عليهم، كحال الثورة الفرنسية التي قامت على أنقاض الملكية المطلقة، رافعة شعار الحرية والمساواة . إذ يعتبر خير الدين أن قيام الجماهير الفرنسية على الدولة ورجاها "كانت ثورة أبدلت الكيفية القديمة، المتخلفة الإدارة، بكيفية منظمة لائقة بالشرف الإنساني، وعوضت الاستبداد بالقوانين القابضة لأيدي الحكام عن تجاوز الحدود."<sup>3</sup>

## 2- النخبة التونسية ومحاولات تحديث الحقل السياسي .

تجسدت هذه المحاولات الإصلاحية السياسية، التي قام بها أفراد من النخبة العاملة التونسية، والذين تشكل الوعي لديهم بالتجاوز الحضاري الأوروبي من خلال قناة الرحلة ، في عهد الأمان لسنة 1857، ودستور سنة 1861 المتأثر إلى حد بعيد في فلسفته بالتجارب الدستورية الفرنسية وبالنظرية الدستورية السائدة والمهيمنة في أوروبا في القرن التاسع عشر. لقد كان الهدف من هذه الإصلاحات تجاوز القوانين العرفية الغامضة وتبديلها بنصوص دقيقة تحد من تجاوزات الحكم الاستبدادي المطلق.

### أ- عهد الأمان :

صدر نص عهد الأمان يوم 9 شتنبر 1857، في عهد محمد باي (1855 - 1859)، نتيجة تدخل فرنسا وبريطانيا اللتين فرضتا عليه هذا العهد ليلتزم بما يمثّل خط شريف كلخانة الذي صدر سنة 1839<sup>4</sup>. وهو

---

1- نفس المصدر، ج، 1 ، ص.17. نفس الحكم أورده بيرم الخامس حيث وصف نظام الحكم في المغرب بالاستبدادي ف"حكمهم استبدادي في السياسة . " صفة الاعتبار، مصدر سابق، ج، 1، ص.81 . راجع بتفصيل ، صورة المغرب عند التونسيين ، المكاوي : المغرب في تاريخه المنسي، مرجع سابق، صص . 24-25.

2- بيرم : المصدر السابق ، ج ، 1، ص . 27.

3- التيمومي : تونس والتحديث ....، مرجع سابق، ص . 131 .

4- شكل مشروع الكلخانة أول عهد دستوري في تاريخ الدولة العثمانية ، وضع قواعد الإصلاح على المبادئ الأوربية ، من حيث أنه كفل تأمين سكان الدولة العثمانية على أرواحهم وأموالهم وأعراضهم مهما تنوعت دياناتهم وجنسياتهم، ومن حيث كذلك

إعلان حرره المؤرخ الوزير أحمد بن أبي الضياف بعد مشاورات مكثفة مع النخبة التونسية وعلى رأسها خير الدين التونسي، وكذلك مع بعض الدبلوماسيين الأوروبيين بتونس وخاصة منهم الفرنسيين. وقرئ نص العهد في حفل كبير حضره القناصل وكبار أعيان الدولة، وأعطى الباي عهده على تطبيق ما جاء فيه.

يتضمن عهد الأمان أحد عشر بنداً أهمها : ضمان حرية ممارسة الشعائر التعبدية، المساواة أمام القانون، مساواة الجميع في أداء الضرائب، منع الاحتكارات التجارية، إنشاء محكمة جنائية مستقلة، إنشاء محكمة لفصل القضايا المتعلقة بالتجارة، حق الامتلاك لغير المسلمين .

فلعل أبرز ما تعهد الباي بموجب هذا النص ، هو توفير الأمن الجسدي والمالي للناس في البلاد على اختلاف أديانهم ولغاتهم وبالمساواة بين الجميع أمام القانون والحماية وبالسماح للأجانب الأوروبيين "بتعاطي سائر المهن في تونس بما في ذلك الفلاحة، وخاصة بامتلاك الأراضي والعقارات المختلفة، وهكذا أصبحت هناك مساواة داخل البلاد بين المسلمين وغير المسلمين، وانتهى عصر الممنوعات بالنسبة لليهود"<sup>1</sup>.

فرغم تمتع أهل الذمة بتسامح كبير من لدن المسلمين في البلاد، إلا أننا نجد أحيانا في التاريخ الإسلامي عامة، والتونسي خاصة، بعض الحقائق المحرجة جدا، خاصة مع تراجع المسلمين وتأخرهم .

تكاد تجمع أغلب الدراسات التي تناولت قضية الإصلاح في تونس منتصف القرن التاسع عشر، على أن ابن أبي الضياف التونسي يعتبر المصلح الأكثر تعاطفا مع اليهود، حيث أكد في سياق حديثه عن عهد الأمان: ". اليهود في إيالة تونس بل وفي المغرب كله ، على حالة من المذلة والامتهان والإذابة"<sup>2</sup>.

---

أنه قرر نظاما جديدة لتقدير الضرائب وجباياتها حسب الثروة والربح، كما قرر نظاما جديدة للخدمة العسكرية، وتحديد مدتها بخمس سنين، وأنشأ إدارة مركزية قوية يكون لها إشراف وثيق على الإدارات الإقليمية للدولة العثمانية .

= كما تعهد الدستور بإعطاء أهل الذمة من رعايا الدولة نفس الحقوق التي كانت للمسلمين، فأول مرة كفل القانون العثماني المساواة أمام القانون بين المسلمين والذميين في الدولة، وقد أدى صدور **خط شريف كلخانة** إلى ردود فعل قوية خاصة بين المسلمين، حيث اعتبروا أن المرسوم مناف للقرآن وأن مساواة النصارى بالمسلمين من شأنها إثارة القلاقل بين رعايا السلطان، مما تسبب في اندلاع ثورات استوجبت تدخل السلطان عسكريا لإخمادها. لمزيد الإطلاع على تفاصيل هذا المرسوم انظر، ياغي أحمد اسماعيل، الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، مصدر سابق، ص ص ، 152- 155 . أحمد عبد الرحيم مصطفى:

أصول التاريخ العثماني، مرجع سابق، صص . 199-208.

1- التيمومي: تونس والتحديث، مرجع سابق، ص . 144.

2- ابن أبي الضياف : المصدر السابق، ج ، 3، ص. 133 .

ويبرز هذا التعاطف في موقفه من أهل الذمة ونقده لبعض المظالم والتجاوزات التي حدثت ضد الأقلية اليهودية، وهي تجاوزات نسبية لم تأخذ حجما هاما ولم تتحول إلى مشكلة يهودية على غرار ما وقع في أوروبا في تلك الفترة. ولقد قام ابن أبي الضياف بطرح أمثلة دقيقة في هذا المجال، معبرا عن استيائه لما تعرض له اليهود من تنكيل إثر أمر الباي إصلاح ساقية جبل الأحمر سنة 1819م قائلا: "وأمر يهود الحاضرة بتنظيف فسقية الملاسين، وألزمهم الخدمة فيها بأنفسهم، وجيههم وخاملهم، والعاجز في بدنه يدفع عوضا للقادر منهم.... ودام العمل فيها مدة، واليهود في شدة، لتخصيصهم بمباشرة العمل، ومشاركة غيرهم في الانتفاع بالماء"<sup>1</sup>. كما انتقد انطلاقا من إيمانه بالعدل والمساواة في التعامل مع اليهود، لتجاوزات في واقعة أخرى تتعلق بعملية قتل منكرة تعرض لها يهودي بعد اتهامه باطلا، والشهادة ضده زورا بداية شتبر 1825م<sup>2</sup>.

وقد استنكر ابن أبي الضياف هذا التعامل مع الأقلية اليهودية ورأى فيها انحرافا عن الإسلام قائلا: "وما هكذا شأن ذمة الإسلام التي أخبر الصادق صلوات الله عليه بأن انتهاكها مؤذن بالذل والصغار". وفي تذكيره بالتجاوزات والحقوق ضد الأقلية اليهودية، اعتمد ابن أبي الضياف على الأحاديث النبوية مثل "استوصوا بالذمة خيرا"<sup>3</sup> وقوله "واحفظوني في ذمتي"<sup>4</sup> ومن آذى لي ذميا فأنا خصمه"<sup>5</sup>. ويعتبر ابن أبي الضياف أن سببا من أسباب الأزمة والانحطاط يكمن في هذه التجاوزات والمظالم ضد اليهود وعدم إتباع وصية الرسول صلى الله عليه وسلم. كما أكد عن موقفه المبدئي من أهل الذمة كجزء من السكان لهم حقوق وواجبات، ويجب معاملتهم طبقا لمبدأ المساواة والعدل وقيم الدين الإسلامي قائلا: "والدين النصيحة لله ورسوله وأئمة المسلمين وعامتهم، بما يجب من

---

1- نفس المصدر، ص . 134.

2- انظر تفاصيل الواقعة، نفس المصدر، ج ، 3، ص ، 155 .

3- لا أصل له، ويرجح أنه مأخوذ بالمعنى من حديث كعب بن مالك "إذا افتتحتُم مصرَ فاستوصوا بالقبط خيرا، فإنَّ لهم ذمةً ورحما"، رواه البيهقي في دلائل النبوة، والهيثمي في مجمع الزوائد، والسيوطي في الجامع الصغير، وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة رقم: 1374، وقال صحيح على شرط الشيخين.

4- حديث ضعيف، أخرجه ابن عدي في "الكامل في الضعفاء"، والألباني فس السلسلة الضعيفة.

5 - أخرجه السيوطي في الجامع الصغير وحسنه، وأورده ابن الجوزي في الموضوعات، وضعفه الألباني في "ضعيف الجامع".

## الوعي لذمة الإسلام ... من النظر في أهل الذمة بما أمر الله به من العدل في عبادته، بسائر أرضه وبلاده سواء في ذلك المسلم غيره<sup>1</sup>

ب : تشكيل مجلس الشورى .

لقد شرعت النخبة التونسية بالترويج لفكرة استحداث مجلس شورى منتخب، يتشكل من رجال ذوي كفاءة علمية وثقافية، يأخذون على عاتقهم إصلاح حال الأمة، والأهم من كل ذلك، وضع حد نهائي لحكم الفرد الواحد ومراقبة ما يجري على صعيد المؤسسات، وذلك امتدادا لوعيها بالفارق الكبير بين الممارسة السياسية في أوروبا والعالم العربي الإسلامي.

وقف خير الدين طويلا عند أصل الشورى، وهو يتوسع في مضمونها السياسي ليردها إلى مفهوم سياسي إسلامي جوهري، هو مفهوم الاحتساب على الدولة "وضرورة رجوع الحاكم إلى أهل الحل والعقد". مدعما موقفه بآراء ابن خلدون حيناً و بآراء الماوردي حيناً آخر.

الواقع أن خير الدين كان يريد أن يقدم فكرة جديدة ومفهوما حديثا هو الديمقراطية من خلال مصطلح إسلامي معروف، محاولا بذلك تقريب المفهوم من أذهان مواطنيه، وهو لا يقف عند هذا الحد، بل يحاول أن يؤكد سبق العرب والمسلمين إلى هذا المفهوم؛ حيث جعلوه أصلا من أصول الدين، ويفصح خير الدين عن فكرته في أن المشورة هي الديمقراطية بكل أبعادها، من حرية قول وعمل وتمثيل، وإن اختلفت التسميات واختلفت الوسائل المؤدية إلى كل منها عندما يقول: "فقد نصب الأورباويون المجالس وحرروا المطابع، فالمغبرون للمنكر في الأمة الإسلامية تتقي الملوك كما تتقي ملوك أوروبا المجالس وآراء العامة الناشئة عنها وعن حرية المطابع. ومقصود الفريقين واحد، وهو الاحتساب على الدولة لتكون سيرتها مستقيمة وإن اختلفت الطرق الموصلة إلى ذلك"<sup>2</sup>.

يسوق خير الدين ويعتمد في دفاعه عن الشورى والديمقراطية، ورفضه للاستبداد والديكتاتورية، على بعض الآيات القرآنية، وعلى سنة النبي صلى الله عليه وسلم، وممارسات أصحابه، وعلى أدلة أخرى عقلية ونقلية،

---

1- أخرجه ابوداود في سننه وأحمد في مسنده من حديث تميم الداري، والنسائي في سننه عن أبي هريرة، وصححه الألباني في صحيح أبي داود.

2- التونسي : المصدر السابق، ص . 158 .

ذلك أن من أهم أصول الشريعة الإسلامية، وجوب المشورة التي أمر الله بها رسوله "مع أن الرسول معصوم ومستغن عن المشورة لما خصه به الله من الوحي وما أودع فيه من الكمالات ، وما ذاك إلا لحكمة أن

تصير المشورة سنة واجبة على الحكام بعده"<sup>1</sup>. واستشهد بابن عربي الذي أكد<sup>2</sup> أن المشورة أصل من أصول الدين، حيث قال : "المشاورة أصل في الدين ، وسنة الله في العالمين، وهي حق، على عامة الخليفة من الرسول إلى أقل خلق". ولا ينسى على وجه الخصوص قصة الخليفة عمر بن الخطاب عندما وقف في الناس خطيباً ، وطلب منهم تقويم اعوجاجه إن كان فيه اعوجاج، فنهض أعرابي قائلاً: "والله لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا" وقصة أبي مسلم الخولاني الذي قال لمعاوية الذي حبس عطاء الناس " إنه ليس من كدك، ولا من كد أبيك، ولا من كد أمك فقال معاوية، بعد أن سكن غضبه صدق أبو مسلم، إنه ليس من كدي ولا من كد أبي"<sup>3</sup>.

استجابة لدعوات خير الدين وابن أبي الضياف، أصدر الباي محمد قراراً بإنشاء مجلس الشورى عام 1860م، وكان خير الدين التونسي هو نفسه رئيساً له، ولقد أراد خير الدين من إنشاء مجلس شورى منتخب، التمثل بالحياة السياسية في الغرب، حيث أن الحاكم لا يمثل تلك السلطة المستبدة التي تظل في منأى عن أي رقيب أو حسيب، وإنما يمثل الشعب وطموحاته وآماله واندفاعه نحو التقدم والرفي. ويرى خير الدين التونسي بعد أن وقف على النظم والمؤسسات الديمقراطية في فرنسا، أن لا خلاص لتونس مما هي عليه من تخلف وفقير ما لم تسلك النظام الديمقراطي، وتلجأ إلى التحديث السياسي سبيلاً إلى النهضة. وعلى هذا فقد أراد خير الدين بأن تكون لمجلس الشورى صلاحيات واسعة على الصعد المختلفة، وخاصة على صعيد سن القوانين ومراقبة تنفيذها، بالإضافة إلى تقليص صلاحيات الحاكم الفرد المنزه .

كما اهتم خير الدين التونسي أثناء توليه رئاسة مجلس الشورى، بشكل خاص بتأمين الاستقرار والأمن والطمأنينة ومنع التعديلات على الحقوق لأنها شروط لازمة لإطلاق مسيرة النهوض. كان خير الدين يندد أن يحقق

1- نفس المصدر، ص 157.

2- أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي، توفي سنة 543 - 1076م، فقيه مالكي، أندلسي، الزركلي، الأعلام، ج 7 ، ص.

3- نفس المصدر، ص 156 .

في بلاده ما شاهده في أوروبا من رفع المظالم والتشدد في الحفاظ على حرية المواطنين وحقوقهم وانتشار روح الديمقراطية بينهم. وهو يفخر في مذكراته التي كتبها بعد اعتزاله السياسة بمحاولاته لإقامة علاقات مباشرة مع المواطنين، ويذكر أنه وضع صندوقا خاصا بشكاوى المواطنين في إحدى الساحات العامة، واحتفظ بمفتاح الصندوق بنفسه للوقوف على شكاوي المواطنين وآرائهم دون أن يكون بينه وبينهم أي حاجز من الحواجز<sup>1</sup>.

ج: إصدار دستور 1861م .

يعتبر صدور دستور 1861م<sup>2</sup> واحدا من أبرز الأحداث المسجلة في التاريخ السياسي الحديث للبلاد التونسية، إذ يعدّ أول دستور عربي حديث ساهم في تكريس العديد من المبادئ السياسية الهامة. صدر الدستور في 29 يناير 1861، وأصبح مطبقا بداية من 23 أبريل من نفس السنة، ويضم 114 بندا، وكان أول دستور في العالم العربي الإسلامي قاطبة، وهو بمثابة الزلزال في الحياة السياسية التونسية، إذ لم يكن يتصور أحد أنه سيقع في يوم ما وضع حد للاستبداد السياسي الرهيب الذي جثم على البلاد منذ قرون، وهكذا تحول التونسيون، بفضل هذا الدستور، نظريا على الأقل، من رعايا إلى مواطنين، وكان الصباح الجديد الذي أشرق على تونس تنويجا لجهود النخبة التونسية.

لقد كان دستور 1861م، ثمرة لمجهود مضمّن قامت به النخبة التونسية، ومن الحيف كما أشار إلى ذلك عبد الله العروي، التقليل من شأنه واعتباره فقط مستجيبا للطلبات الأوروبية بتونس. وقد حيى محمود قبادو الدستور بقصيدة طويلة قال فيها ابن أبي الضياف بأنها: "من أعذب ما يسمع من المقال". ومما جاء فيها:

العدل عهد خلافة الإنسان ومداد ظل الأمن وال عمران

وتمدن البشر اقتضى إيلافهم بتعاوض من دائن ومدان.

من أهم المبادئ التي كرّسها هذا الدستور في المجال التنفيذي، والتي تعتبر امتدادا واضحا لتأثر أفراد النخبة التونسية بالتجربة السياسية الأوروبية من خلال الرحلة، الحدّ من سلطة الباي، حيث كانت سلطة الباي، قبل صدور دستور 1861م مطلقة وغير مقيدة، إلا أنّ هذا الدستور أخضعها لمبدأ المشروعية المقتبس من الفكر الليبرالي الأوروبي الذي تأثر به ابن أبي الضياف وخير الدين التونسي، وعلى هذا الأساس نصّ دستور 1861

1- التيمومي: تونس والتحديث...، مرجع سابق، ص. 112.

2- اعتمدنا في مقاربتنا للدستور التونسي على نسخة إلكترونية مأخوذة من موقع [www.e-justice.tn](http://www.e-justice.tn)

على إمكانية إقرار مسؤولية الباي السياسية أمام "المجلس الأكبر" من أجل مخالفته للقوانين . فقد جاء في الفصل 11 من الدستور المذكور أن "الملك مسؤول في تصرفاته أمام المجلس الأكبر إن خالف القانون". ويعتبر هذا التقييد لسلطة الباي على قدر كبير من الأهمية في ذلك العهد بالنسبة إلى مؤسسة "الملك" التي كانت سلطات الباي فيها مطلقة.

أما السلطة التشريعية فأصبحت مشتركة بين الباي وشبه برلمان يسمى "المجلس الأكبر" يضم 60 عضواً، وقد نظم القانون الداخلي للمجلس الأكبر والمكون من 28 بنداً، عمل هذه المؤسسة البرلمانية، فقد ورد على سبيل المثال في البند 11 ، كيفية معرفة رأي الأكثر في الانتخاب، حيث "تكون في المجلس بطاقات متساوية، مكتوب في كل واحدة لفظة موافق ، ومثلها مكتوب فيها لفظة مخالف، والجميع بخط واحد، يعطى لكل واحد من أعضاء المجلس بطاقة موافقة وبطاقة مخالفة ، يجعل البطاقة الدالة على رأيه في وسط الظرف المعد لمعرفة رأي الأكثر، والأخرى يجعلها في الظرف المعد للبطاقات، وعند التمام، يفتح الظرف ويقرأ، وبعد علنا ويكتب التقرير"<sup>1</sup>.

أما وظائف المجلس الأكبر فقد ضبطت في الفصول العشرة التي يشتمل عليها الباب السابع وعنوانه " في أصل خدمة المجلس الأكبر". وأهم هذه الوظائف وضع القوانين وتنقيحها وشرحها وتأويلها والموافقة على الأداءات ومراقبة الوزراء ودراسة مشروع الميزانية ، وتبرز هذه الوظائف مدى شمولية اختصاصات المجلس الأكبر التي كانت في الوقت نفسه تشريعية ومالية وقضائية وإدارية، بما يؤكد أهمية دور هذه المؤسسة التي كانت القطب الذي يدور حوله الباي والوزير الأكبر والوزراء.

كما نص الدستور الجديد على مبدأ الفصل بين السلطات، تأثراً بالتجربة الأوروبية، ذلك أن الدستور التونسي جرد الباي من السلطة القضائية، وأصبحت موكولة إلى جهاز قضائي متشعب نجد في مرتبته الدنيا محاكم قاعدية ابتدائية هي مجالس الضبطية، وعددها ثمانون، ويتمثل دورها في فصل النوازل الخفيفة ، كما نجد محاكم الجنائيات والأحكام العرفية، ويتمثل دورها في فصل جميع النوازل باستثناء العسكرية والتجارية ..<sup>2</sup>

---

1- التيمومي : تونس والتحديث ...، مرجع سابق، ص . 58 .

2- انظر تفاصيل هذه المجالس ووظائفها والسياق التي جاءت فيه، العروي عبد الله، تاريخ المغرب محاولة في التركيب، مرجع سابق، صص . 308-311 .



وقد اصطدم العهد الدستوري بأنواع من الصعوبات الداخلية والخارجية، قامت في وجهه فأشعلت نار حركة **علي بن غداهم** سنة 1864، وأدخلت تونس في حالة من الاحتقان والفوضى والدمار، قضت بتعطيل الدستور وتوقف عمل مجلس الشورى، و حلت المجالس البلدية التي أحدثت أيضا في إطار الإصلاحات السياسية التي باشرتها النخبة التونسية المتأثرة بالفكر السياسي الأوروبي .

يتفق جل المؤرخين أن المسؤول الأول عن هذا الفشل كان الوزير الأكبر، **صهر خير الدين التونسي**، **مصطفى خزندار**، وذلك بسبب فساد سياسته المالية التي قادت البلاد إلى الإفلاس، و عوض توجيه العناية لتنمية الاقتصاد، كان الوزير الأكبر منصرفا انصرافا كليا للاستثناء والإغتناء، واشتط في فرض الضرائب على السكان لتسديد أقساط القروض، حيث أشار المؤرخ الهولندي فان كريكن بأن هذه المسؤولية يشترك فيها الباي **محمد الصادق باي**، الذي رفض الاهتمام شخصا بشؤون الدولة، حيث أطلق يد وزيره الأكبر فيها، على شرط أن يوفر له ما يرضيه من الأموال، ولا يضايقه بالاضطلاع بشؤون الدولة. ويضيف **فان كريكن** قائلا : "ونحن نظن أن ضعف الإصلاحات كان سببه الرجال أكثر من المؤسسات، إذ أنه بدون مسؤول لديه ضمير يقظ، وكفاءة فإن كل إصلاح محكوم عليه بالفشل"<sup>1</sup> .

ولما رأى المصلح خير الدين التونسي، الذي كان آنذاك وزيراً للبحرية ورئيساً للمجلس الأكبر، الفساد الذي يقوده الوزير الأول قدم استقالته سنة 1862، وقد كانت استقالته بمثابة صفعه أليمة لعملية الإصلاح السياسي والدستوري في تونس. وقد روى خير الدين عن تجربته الإصلاحية والطريق المسدود الذي سلكته فيقول : "لقد حاولت أن أسير بالأمور في طريق العدالة والنزاهة والإخلاص فذهب كل مساعي سدى، ولم أشأ أن أخدع وطني الذي تبناي بتمسكي بالمناصب. ورأيت أن الباي و على الأخص وزيره الرهيب العظيم الجاه **مصطفى خزنة دار لا يلجان** إلى التشريعات الإصلاحية إلا لتبرير سيئتهما تبريرا قانونيا، فقدمت استقالتي سنة 1862، من رئاسة المجلس ومن وزارة الحربية، وعدت إلى حياتي الخاصة"<sup>2</sup>.  
**المطلب الثاني : الإصلاح السياسي في المغرب الأقصى.**

خلافًا للتجربة السياسية الإصلاحية التونسية المبكرة، فإن الإصلاح السياسي بالمغرب من أجل دولة حديثة لم يظهر إلا في بداية القرن العشرين. وقد بدأ بمحاولة إصلاح الإدارة والحماية لتقوية الدولة أمام التهديدات الخارجية ثم إصلاح النظام السياسي السلطاني الذي قاده نخب إصلاحية مخزنية متأثرة بالأوضاع السياسية في

---

1- كريكن : المرجع السابق، ص . 103 .

2 - أبو حمدان، سميير : خير الدين التونسي، أبو النهضة التونسية، دار الكتاب العالمي، الطبعة الأولى، 1993م، ص. 36

أوروبا، و بالإصلاحات السياسية في الدولة العثمانية في عهد التنظيمات، دون أن ننسى إعجاب النخبة المغربية بالنموذج الياباني<sup>1</sup> واستحضاره في كل المشاريع الإصلاحية.

يمكن التمييز بين مرحلتين من وعي النخبة المغربية بوجوب إنجاز إصلاح سياسي كامتداد للوعي المغربي بالتجاوز الحضاري الأوربي الذي حصل لدى النخبة المغربية ممن زارت أوروبا ودونت نصوصا رحلية، المرحلة الأولى دافعت فيها هذه النخبة عن إصلاح النظام الإداري والجبائي لتقوية الدولة وحماية حوزة سيادتها في وجه الضغط الأجنبي، وهي تبدأ من منتصف القرن التاسع عشر إلى مطلع القرن العشرين، ثم المرحلة التي بدأت فيها مطالب هذه النخبة تنتقل من حقل الإدارة إلى مركز النظام السياسي السلطاني والقواعد التي يقوم عليها، ويؤرخ لها ببداية القرن العشرين.

## 1\_ السفراء المغاربة ودورهم في التحولات السياسية والإدارية في مغرب القرن التاسع عشر.

أسهب الرحالة المغاربة في نصوصهم الرحلية، في وصف المؤسسات السياسية في باريس، والأجهزة التنظيمية لجهاز الدولة والمثلة في وجود مجموعة من الوزارات، كوزارة الخزانة أي المالية، ووزارة الحرب، وزارة البحرية، ووزارة المعارف، ووزارة الداخلية، ووزارة الخارجية ووزارة العدل .. كما بينوا وظائف ومهام كل وزارة، والإعتمادات المالية المخصصة لكل واحدة منها حتى تضطلع بالمهام الموكولة إليها. وتأثرا بالتقارير السفارية، التي رفعت إلى الدوائر المخزنية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر - التي احتل أصحابها موقعا مهما في مؤسسة المخزن، وحظوا بتقدير واحترام السلاطين المغاربة الذين تعاقبوا على الحكم في منتصف القرن التاسع عشر- عرفت الحكومة المغربية في هذه الفترة تغيرات مهمة في أجهزة الدولة، فقد أحدثت دواليب حكومية وإدارية لم تكن معروفة من قبل، وتجلت ذلك بشكل واضح في عهد السلطان محمد بن عبد الرحمان، الذي أولى إهتماما خاصا للمظاهر التقنية والمالية والإدارية المغربية، وبعده السلطان المولى الحسن، الذي اعتبر في كثير من الأدبيات التاريخية، المجدد

---

1- قدم النموذج الياباني في الفكر العربي كما ذهب إلى ذلك المفكر المغربي محمد عابد الجابري، باعتباره " النموذج النظيف " وأن هذا النموذج يثير في النخبة العربية مزيجا من الغبطة و الحسرة، "الغبطة لأنه يقدم لهم تجربة أمة لا يرتبط تقدمها الصناعي بالتوسع الاستعماري والاستعلاء العنصري والمهيمنة الاقتصادية والثقافية، والحسرة لأن العرب يشعرون بالإحباط عندما يلاحظون أنهم أخفقوا في الاقتداء بهذا النموذج " الجابري محمد، اليابان في الفكر العربي الحديث المعاصر، صحيفة الاشتراكي، العدد الصادر، بتاريخ 13-10-1991 م: نقلا عن، المكاوي، أحمد : نخبة اليابان في عهد الميحي من منظور عربي إسلامي، مؤسسة مفاتيح العلوم، العرائش، الطبعة الأولى، 2013، ص . 154 .

الحقيقي للتنظيم المخزني، فقد دفعه الحرص على ضمان فعالية أكبر في مراقبة العمل الحكومي، إلى إنشاء وزارات جديدة. ومما وقع استحداثه في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وزارة الحرب، والتي أشرنا إليها عند حديثنا على الإصلاحات العسكرية، ووزارة الشؤون البرانية، وأمانة الأمان التي كانت بمثابة وزارة المالية، كما وقع في نفس الوقت تدعيم الوزارات التي كانت موجودة من ذي قبل<sup>1</sup>.

## أ : وزير البحر.

أشار الصفار إلى وجود وزارة البحر يديرها وزير "مهمته النظر في المراكب وتعليم علوم البحر والصنائع التي تخصه، وسائر الأمور البحرية"<sup>2</sup>، ويضيف الوزير إدريس العمراوي عن ذلك في سياق حديثه عن وزير الحرب في فرنسا " لا يدخل أحد في أمرها<sup>3</sup> غيره ولا يصل للملك أمر منها إلا بواسطته"<sup>4</sup>.

تبعاً لذلك، وفي إطار إصلاح السياسي والإداري في المغرب، أحدثت وزارة البحر، وكان وزير البحر يدعى أيضاً وزير الأمور البرانية، وهو بمثابة وزير الخارجية الذي يتكلف بضبط العلاقات مع الخارج، إلا أنه كان بجانبه نائب عن طنجة يعرف بنائب السلطان قصد الاتصال بالأجانب المستقرين بها، لأنه كان يمنع على نواب الدول الأوروبية التوغل إلى داخل البلاد، على الأقل قبل أن يفتح المغرب على مصراعيه للدول الأوروبية. حيث كان يتلقى الشكايات والالتماسات من هؤلاء الممثلين ويبلغ إليهم أجوبة السلطان<sup>5</sup>.

## ب- وزير الشكايات :

وهو بمثابة وزير العدل الذي تحدث عنه العمراوي في رحلته، بقوله : "وهو عبارة عن مرتبة قاضي القضاة وهو المكلف بإجراء الأحكام في القضايا الشرعية من الأنكحة والموايرث وشبه ذلك"<sup>6</sup>.

وتأسياً بذلك، ورغبة من النخبة العاملة في محاولة تحقيق نوع من العقلنة لبنيات الدولة، وتقريب المسافة بين الحاكم ورعيته، وتعزيز التواصل بينهما، أومأت النخبة المغربية إلى السلطان محمد الرابع بإحداث منصب وزاري

---

1- الشابي، مصطفى : النخبة المخزنية في مغرب القرن التاسع عشر، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بني ملال، سلسلة رسائل وأطروحات، رقم، 26، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1995 م، ص. 25.

2- الصفار: المصدر السابق، ص. 218.

3- يقصد الأمور البحرية.

4- العمراوي : المصدر السابق، ص. 113.

5- الشابي : المرجع السابق، ص. 33.

6- العمراوي : المصدر السابق، ص. 77.

خاص مكلف بالشكايات<sup>1</sup>، وكانت مهمته النظر فيما يرد على السلطان من شكايات ومظالم، وإبلاغ أصحابها ما يتخذ السلطان من قرارات، وكان السلطان يستمع شخصيا إلى المتقدمين بشكاويهم مرة في الأسبوع، مؤكدا بذلك دوره التقليدي كرئيس أسمى لهيئة القضاء، وأنه هو آخر هيئة شرعية يمكن اللجوء إليها في البلاد للبت بصفة نهائية وحاسمة في القضايا ذات الصبغة الشائكة أو المعقدة<sup>2</sup>. كما كان وزير الشكايات يتولى تسجيل الظواهر المتعلقة بالمسائل الجبائية وبتعيينات موظفي المخزن، إلا أن أهم مشاغله في حرصه على حسن سير الولاية المحليين وما ينجم عن ذلك من ضرورة إنصاف المظلومين في أحوال التعسفات أو النزاعات بين أعوان المخزن<sup>3</sup>.

وقد كان السفير محمد الصفار أول وزير للشكايات في المغرب، وظل الصفار على رأس تلك الوزارة طوال فترتي حكم السلطانين سيدي محمد بن عبد الرحمان وخلفه المولى الحسن، إلى حين وفاته في سنة 1881م.  
ج- وزير المالية .

سمى الصفار في رحلته وزير المالية بوزير الخزنة، وسمي في كثير من الأدبيات المغربية "أمين الأمناء" أو "مول الشكارة" الخ . وكانت مهمته تتمثل عموما في الإشراف على المداخل المالية للمخزن وعلى مصاريفه، وقد أحدث المخزن هذا المنصب وأولاه اهتماما كبيرا، في وقت كان يعاني فيه المغرب من أزمة مالية خانقة، بسبب الأعباء المالية التي كانت تتحملها الخزينة لتسديد تعويضات حرب تطوان وتجهيز الجيش<sup>4</sup>، حيث فرض على المخزن إنشاء أسس ومعايير جديدة تقوم عليها جباية الدولة . وتمثلت هذه الأسس في جهاز الأمناء الذي كونه المولى الحسن . ففي " 1862 طبق هذا التنظيم الجيد الذي أصبح بموجبه لكل مرسى أمينان أحدهما من أهل المدينة والآخر أجنبي عنها يعملان باستقلال عن العامل ويراقبان من لدن أمين عين للإشراف على كل أمناء المراسي. ولضمان استقامة الأمناء خصصت لهم رواتب مهمة. أما بالنسبة للضرائب الفلاحية، فقد تم رفع قيمتها بحيث أصبحت لا تفرض وفق مقاييس شرعية، بل حسب حاجات الدولة وتفرض على الأرض والماشية"<sup>5</sup> . كما أسندت لوزير المالية مهمة تدبير نفقات المخزن ومصاريفه في نفقات رواتب العساكر في مختلف المشتريات الخاصة بالسلطان أو بالجهاز المخزني، وفي هذا سير على منوال فرنسا، حيث أشار الصفار في متنه إلى أن وزير الخزنة هو

1- عن وزارة الشكايات وسياقتها ومراميها، انظر ما كتبه ابن زيدان، العز والصلوة، مصدر سابق، ج 1 ، صص ، 50- 54

2- Laroui origines, p 113. -

3- الشابي: المرجع السابق، ص . 36

4- التوزاني : المرجع السابق، ص . 38 .

5- نفس المصدر، ص. 34 .

المسؤول عن ميزانية السلطان الفرنسي والمتصرف فيها، وحدد بدقة المبلغ المرصود لذلك وهو : ثلاثة عشرة مليوناً وثلاثمائة ألف<sup>1</sup>.

## 2- السفراء المغربية و المشاريع الدستورية في بداية القرن العشرين .

مما لا شك فيه أن تلك الكتابات السفارية للرحالة المغاربة في القرن التاسع عشر، قد أشاعت في بعض الأوساط الثقافية والسياسية المخزنية تصورا عاما عن الحداثة الأوروبية، وأفكارا عن الحركة الدستورية الغربية. مما جعلها مصدرا أساسيا من مصادر الحركة الدستورية المغربية الحديثة التي عرفت مدا متناميا طيلة العقد الأول من القرن العشرين.

ففي ظل تشكل الوعي المغربي بالتجاوز الحضاري الغربي، نشأت حركات إصلاحية يتزعمها فقهاء أم هم لذلك أقرب<sup>2</sup>، تدعو إلى تحديث نظام الحكم السياسي في البلاد، مستأنسة ومسترشدة بنصوص السفراء المغاربة الذين زاروا أوروبا، وأعجبوا بالعملية السياسية هناك، وفصلوا في القواعد والقوانين المتبعة في تنظيم الحياة السياسية وكيفية تداول السلطة فيها، ومتوسلة بتجارب إسلامية حديثة، ومستثمرة سياقاً داخلياً تميز بتزايد الضغوط الأجنبية وتأزم الوضع الداخلي.

لمح الصفار والعمراوي وغيرهما إلى ضرورة تحديد صلاحيات الملك وتقييد حكمه المطلق بالشورى عن طريق المجالس النيابية التي أسهبوا في وصفها، فالصفار مثلاً حين وصفه للنظام السياسي الفرنسي على عهد الملك لويس فيليب قال : " ..ولا يستقل السلطان وحده بحكم من الأحكام."<sup>3</sup>

وإذا كان المخزن، في عهد محمد بن عبد الرحمان والحسن الأول، قد قبل تحديد هياكله التنظيمية، تأثراً بما نقلته بعض التقارير السفارية، كما بينا ذلك آنفاً، فإنه لم يتفاعل بالشكل الإيجابي مع دعوة النخبة المغربية بتعديل سلطته السياسية، فالاستشارات التي دشنها المخزن في عهد السلطانين السالفي الذكر، لم يكن الهدف منها

---

1- الصفار: المصدر السابق، ص. 223 .

2- أغلب الذين صاغوا مشاريع منظمة، أو ساهموا في تنشيط الحركة الإصلاحية الداعية لتجديد المجال السياسي المغربي كانت لهم معرفة بالعلوم الشرعية، الشيء الذي سيطبع كتاباتهم في تلك المواضيع بمعالم السياسة الفقهية، عبد الله بن سعيد السلوي المتوفى سنة 1923، والحاج علي بن أحمد زبير ( 1844-1914 )، عبد الكريم مراد الطرابلسي، انظر تراجمهم، المنوني: **مظاهر يقظة المغرب الحديث**، مرجع سابق، ج . 2 .

3- الصفار : المصدر السابق، ص . 216 .

إحداث تغيير في مضمون السلطة وممارستها ، بل كانت تهدف بالأساس إلى إضفاء شرعية على القرارات اللاشعبية التي صدرت عن المخزن كإقرار المكوس.

لقد برزت الرغبة الإصلاحية بشكل جلي عبر خمس محطات دستورية انطلقا من مذكرة عبد الله بنسعيد سنة 1900، التي تقدم بها للسلطان عبد العزيز، إلى مشروع دستور "لسان المغرب" سنة 1908، الموجه للسلطان عبد الحفيظ ومرورا بانعقاد "مجلس الأعيان" سنة 1905، ومذكرة الحاج علي زنيبر، ومشروع دستور عبد الكريم مراد سنة 1906. وعلاقة بإشكالية بحثنا، سنتوقف عند أهم المحطات التي شكلت في رأينا امتدادا مباشرا لمضامين النصوص السفارية المغربية إلى أوروبا في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين .

### أ : تشكيل مجلس الأعيان على غرار النموذج البريطاني :

في بداية 1905، عرف المغرب ميلاد أول مجلس للأعيان، يمثل بعض المدن والقبائل، لعب دورا كبيرا في مناقشة مشروع الإصلاحات التي حاولت فرنسا فرضها على المغرب، وفي رفض ذلك المشروع الذي تبين للمغاربة أن الهدف منه هو فرض نوع من الحماية على البلاد .

اعتبرت كثير من الكتابات المغربية المعاصرة مجلس الأعيان نواة لأول برلمان عرفه المغرب مع مطلع القرن العشرين<sup>1</sup> ، والذي طالما نبه إلى أهميته السفراء المغاربة في متونهم الرحلية، ولا سيما الغسال سفير السلطان عبد العزيز إلى إنجلترا سنة 1902، الذي ألف حولها نصا رحليا لا يقل أهمية عن النصوص السفارية الأخرى، وسمه ب "الرحلة التوجيهية إلى البلاد الإنجليزية"<sup>2</sup>، حيث أعجب الرجل بتدبير الاختلاف بين الفرقتين، فرقة موالية للملك، وفرقة تدافع عن مصالح الرعية، وكل يعمل لصالح البلاد والعباد. لذلك تراه مشدودا إلى كل ما من شأنه أن يقرب بصر السلطان المولى عبد العزيز وبصيرته من مزية دار مجمع نواب الأمة الذي يحضره الأعيان من كل عمالة أو إيالة إنجليزية ، يقول الغسال : "وفي الساعة الرابعة عشية يوم الجمعة ذهبنا للديوان الاجتماعي الرسمي المسمى بدار مجمع نواب الأمة<sup>3</sup> على مصالح الرعية، يعني يحضر بها نائب عن كل إيالة أو عمالة وكيلا عنها في جميع مصالحها ودفع مضارها، وهي دار كبيرة جدا متقنة البناء محكمة الصنعة... وقدر الأعيان الذين يجتمعون بها ما يقرب لل سبع مايه [ هكذا ] نفر، وبها عدة صور من بحر في السياسة من الأقدمين من

1- الفاسي، علال :حفريات عن الحركة الدستورية، في المغرب قبل الحماية، مطبعة الرسالة، الرباط، الطبعة الأولى، ص. 94.

2- الغسال، الحسن بن محمد : الرحلة التوجيهية لعاصمة البلاد الإنجليزية، تحقيق وتقديم : عبد الرحيم مودن، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، الطبعة الأولى، 2003 ، صص . 53-54 .

3- يقصد البرلمان الإنجليزي .

الرخام المتقن التمثيل، كما هو مرسوم بها هيئة الحرب التي وقعت بينهم وبين بعض الدول سابقا. وهذا المجلس مؤلف من فرقتين، فرقة في جانب المخزن يحضره كبراء الدولة والوزير المناسب وصفته لتلك المسألة التي تقع المفاوضات فيها؛ فإن كانت من أشغال الداخلية فيحضر وزيرها، وإن كانت من قبيل أشغال الخارجية فيحضر وزيرها أيضا، وهكذا العمل في كل قضية، والفرقة الأخرى مقابلة لهم تسمى بحزب الأحرار، وكيفية المفاوضات عندهم في سائر القضايا أن يقوم خطيب من إحدى الفرقتين يخطب على رؤوسهم بورقة بيده متضمنة لما دار في المسألة، ثم يقوم خطيب من الفرقة الأخرى مقابلا لها أو مسلما بحسب ما يقتضيه المقام. وفي صدر هذا المجلس محل مرتفع على هيئة المنبر يجلس (رئيس) المجلس وعلى رأسه قنسوة بيضاء يتميز بها عن غيره وأمامه كتاب يرسمون به ما يتلقونه من أفواه الخطباء في سرعة باهرة، ثم يقوم هذا الرئيس ويخطب خطبة متضمنة لما ترجح عنده من الخلاف الواقع بين الفرقتين، ويقدم على كل فصل من الفصول راجحة وبراهين قاطعة تشهد على ترجيحه حتى تكون المسألة واضحة كالشمس في الظهيرة<sup>1</sup>. ولاشك أن مشاعر الإعجاب بهذه المؤسسة الديمقراطية في الغرب تمتزج بمشاعر الحسرة على افتقاد المغرب لمثلها.

وبناء على ما أورده الغسال في نصه، جاز لنا القول أن السلطان عبد العزيز قد تأثر بمجلس الأعيان الإنجليزي، فبادر إلى تأسيس مجلس شوري شبيه به، سماه أيضا بمجلس الأعيان، ومما يعزز استنتاجنا ما أورده الحجوي الثعالبي عن تأثر السلطان عبد العزيز بتقارير سفرائه إلى أوروبا "إن مولاي عبد العزيز قد جالت في رأسه فكرة الشورى والديموقراطية، وأتاه سفراؤه بهذه الأفكار، فعجل بها، ولما نزل به الأمر العظيم (..) فأول عمل فرق أوامره على مدن المغرب بتوجيه نواياهم في الأمر"<sup>2</sup>.

وملاحظتنا الأساسية على هذه المجلس أنه ليس فقط دعوة إلى العمل بمبدأ الشورى الإسلامي وحسب، فهذا المبدأ، على الأقل كان من الناحية الصورية معمولا به بشكل أو بآخر، كما أنه ليس إحياء لفعل الاستفتاء، إن دعوة السلطان إلى إقامة "مجلس الأعيان" تجاوزت في الواقع كل هذا، لأنها تضمنت فكرة المؤسسة، فمجلس الأعيان ذلك مارس بالفعل دوره كمؤسسة مستحدثة لها مصداقيتها، ولقد كان عدد أعضاء هذا المجلس بلغ 42 شخصا، ثم اختارهم من بين التجار والعمال، كما ورد في كتاب السلطان مولاي عبد العزيز إلى قبائل دكالة: "وعليه فبوصول كتابنا هذا إليكم، نأمركم ان تعينوا من خيار قبيلتكم ممن تعتقدونهم في الأمانة والديانة،

1- نفسه .

2- الحجوي : انتحار المغرب الأقصى، مصدر سابق، ص . 35 .

وترضونهم وكلاء عنكم في أقوالكم وأفعالكم، وتأتمنونهم على أنفسكم، وتوجهوهم لحضرتنا الشريفة بقصد الحضور مع غيرهم من أعيان جميع القبائل، على المفاوضة في الأمر العارض<sup>1</sup>، لتكون المشاورة فيه من جميع أعيان الرعية"<sup>2</sup>.

لقد فوض السلطان عبد العزيز لهؤلاء الوكلاء صلاحية اتخاذ القرار، مادامت الشورى تتم بين وكلاء "الرعية" ولا تشمل بالضرورة السلطان، تأسيا بمجلس نواب الأمة الإنجليزي الذي يحضره أعيان البلد، ولا يتدخل في مناقشاته ومرافعاته الملك الإنجليزي، فالرسالة لا تنص على أن السلطان طرف في تلك المشاورة. وقد أكد المولى عبد العزيز هذا المعنى أثناء اشتغال مجلس الأعيان وبعد اختتام أشغاله أيضا، مهيبا بجميع الأعيان أن يتحملوا مسؤولياتهم "فمن ظهر له شيء فليكتبه، فأنتم والوزراء وسيدنا سواء في هذا الأمر، ومن أراد أن يتكلم فليتكلم، فكلنا سواء. وهذا هو العمل والمعول عليه، أحب أم كره".

وفي نهاية أشغال مجلس الأعيان، صرح وزير الخارجية عبد الكريم بن سليمان بأن المجلس قرر عدم الموافقة على أي إصلاح بواسطة دولة أجنبية واحدة، وأن "السلطان لا يمكنه أن يعارض الشعب، لأن الشعب له الحق في أن لا يهمل في مسألة لها مثل هذه الأهمية"<sup>3</sup>.

علق محمد المكي الناصري على هذا الموقف بقوله: "وبهذا الاتحاد السلطاني الديمقراطي أعطى جلالته لمجلس الأعيان اختصاص توجيه السياسة الخارجية للدولة، واعترف له بحق قبول المعاهدات ورفضها، وهو أقصى حد تصل إليه سلطة المجالس التمثيلية"<sup>4</sup>.  
ب- مشروع دستور لسان المغرب.

يعتبر المشروع الأكثر شيوعا والأفضل إعدادا عن باقي مشاريع الإصلاح التي عرفها مغرب ما قبل الحماية، صدر خلال أكتوبر ونونبر من سنة 1908، في أربعة أعداد متتالية من الصحيفة الطنجية "لسان المغرب" الصادرة باللغة العربية في مدينة طنجة عن الأخوين الشاميين المارونيين آرثور وفرج الله نور.

---

1 - أي المطالب الفرنسية.

2- رسالة من مولاي عبد العزيز لقبائل دكالة مؤرخة 12 شوال 1322 - 20 دجنبر 1904. المنوي، مظاهر يقظة المغرب. الحديث، مرجع سابق، ج، 2، ص. 206.

3- زيادي أحمد: "المشاريع الدستورية والسياسية المغربية في مطلع القرن العشرين"، ضمن "تجربة الإصلاح في المغرب" المناهل، وزارة الثقافة المغربية، ع، 69-70، يناير، 2004، ص. 99.

4- نفسه.



استهدف مشروع دستور 1908 وضع حد لاحتكار المطلق الذي كان يمارسه السلطان في انفراده بممارسة السلطتين السياسية والتنفيذية بشكل يجعل من وزرائه مجرد منفذين لقراراته، وفي أحسن الحالات مستشارين من نوع خاص، لذلك طالب أصحاب هذا المشروع "بإحداث تنظيم حكومي مبني على أسس وظيفية يتم تسييره عن طريق هيئة من الموظفين تمتع بحقوق وواجبات وتنقاضي أجرا ومعاشا للتقاعد؛ كما شكلت المالية العامة بدورها موضوعا لإعادة التنظيم؛ وتم لنفس الغاية ضمن المشروع وضع اللبنة الأساسية لنظام تربوي حديث"<sup>1</sup>.

كما أكد المشروع على ضرورة ضمان الحريات العامة لسائر المغاربة تأسيا بالمجتمعات الأوروبية حيث نص على حق المغربي في أن يتمتع بحيته الشخصية معرفا إياها بأنها "تقوم بأن يعمل كل واحد ما يشاء، ويتكلم بما يشاء، مع مراعاة الآداب"<sup>2</sup>.

كما أكد على وجوب اعتبار الكفاءة قبل كل شيء في الوظائف ، ومنع الابتزاز والتسخير ، كما أكد على حرية الرأي وطبعه ونشره، وعلى حرية المسكن والحق المجاني في التعليم وإلزامية التعليم في الطور الابتدائي، وتحريم التعذيب والجلد والسخرة، وهي أمور لفت السفراء المغاربة إنتباه المخزن إليها مبكرا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، كما بينا ذلك في رصدنا لتجليات الوعي بالتجاوز الحضاري عند النخبة المغربية .

## المبحث الرابع : الإصلاح الاقتصادي.

### المطلب الأول : التجربة التونسية .

---

1-راجع ميشيل، روسي، المؤسسات الإدارية المغربية، ترجمة : براهيم الزباني، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، 1993 ص.35.

2-المنوني : مظاهر يقظة المغرب الحديث، مرجع سابق، ج، 2، ص. 415 .

لقد كانت المسألة الاقتصادية الابن البائس في تفكير الإصلاحيين التونسيين، لأنهم كانوا مشغولين إما بالجيش، أو بالجانب السياسي الذي اعتبره خير الدين وأنصاره الحلقة الرئيسية للإصلاح، وكانت رأسمالية الدولة التي ركزها أحمد باي في خدمة الجيش لا غير، ولم تكن حركة استثمارات من أجل تصنيع البلاد والنهوض بها، إذ لم يعن أحمد باي بأنشط قطاع اقتصادي في البلاد آنذاك وهو قطاع الشاشية أو بالفلاحة التي كانت العمود الفقري للاقتصاد .

تناول خير الدين في أقوم المسالك الجانب الاقتصادي في بناء الدولة وازدهارها باقتضاب، وعن ذلك كتب المؤرخ الهولندي فان كريكن يقول : " وظهر خير الدين في كتابه أقوم المسالك رجلا عمليا، في الميدان الاقتصادي، يهيمه الواقع الملموس أكثر من النظريات، ولقد طالع في الواقع دراسات عديدة استقى منها ما رآه مفيدا. ولكنه أمعن النظر في كل شيء في الوضع في أوروبا وفي العالم الإسلامي، وانطلاقا من هذه الملاحظات استخلص النتيجة الأساسية ألا وهي : أولوية إدارة جيدة ضامنة لحرية كل السكان، وأمنهم وينجر عن ذلك بصورة آلية اقتصاد مزدهر"<sup>1</sup>. ويواصل فان كريكن حديثه عن الجانب الاقتصادي عند خير الدين في كتابه، "أقوم المسالك" قائلا : "إن أفكار خير الدين الاقتصادية مستمدة من الأفكار الرائجة في تلك الفترة بأوروبا الغربية ، ونظرة الأساسية هي نفس النظرة التي عرف بها الاقتصاديون الكلاسيكيون مثل آدم سميث الذي يذكره باقتضاب شديد في عرضه للحضارة الأوروبية ، فواجب الدولة أن تضمن لرعاياها إدارة حسنة تمكنهم من تفتق مواهبهم"<sup>2</sup>.

لقد أكد خير الدين أن توفير إدارة جيدة أو بلغتنا حكاما جيدة كفيل بتطوير الاقتصاد. لقد ذكر خير الدين أن أوروبا بلغت ذلك "التقدم في العلوم والصناعات بالتنظيمات المؤسسة على العدل السياسي وتسهيل طرق الثروة واستخراج كنوز الأرض بعلم الزراعة والتجارة، وملاك ذلك كله الأمن والعدل اللذان صارا طبيعة في بلدانهم، وقد جرت عادة الله في بلاده أن العدل وحسن التدبير والتراتب المحفوظة، من أسباب نمو الأموال والأنفس والثمرات، وبضدها يقع النقص في جميع ما ذكر"<sup>3</sup>.

قام خير الدين التونسي بتقسيم الأراضي الزراعية إلى مناطق، وتحرى في اختيار الأمناء والأعوان، وشدد على معاقبة المختلسين، فألغى الضرائب السابقة التي تراكمت على الناس وصارت ديونا تثقل كاهلهم وخفض

---

1- كريكن : المرجع السابق، ص. 140 .

2- نفسه .

3- التونسي : المصدر السابق، ص. 244 .

قيمة الضرائب وبطل الحملات العسكرية التي كانت تتوخى العنف في جمع الضرائب، مما أحدث انتعاشا ملحوظا، إذ أنه حض على استثمار الأرض وزرعها، وغرسها بأنواع معينة من الأشجار المثمرة وخاصة النخيل والزيتون، وأصدر قانونا ينص على أن زراعة هذين النوعين معفاة من الضرائب على مدى عشرين عاما. ومما يذكر في هذا المجال أن الأراضي المزروعة بلغت مساحتها يوم ترك خير الدين الحكم مليون هكتار، على حين كانت مساحتها عند تسلمه لا تتجاوز الستين ألف هكتار .

كما أدخل خير الدين بعض الآلات العصرية إلى تونس ، وعيا منه بأهميتها في الرفع من الإنتاج، وأصدر أمرا ينص على إعفاء موردي الآلات العصرية من الضرائب لمدة خمس سنوات، كما عمل على تسهيل المواصلات بالطرق الحديدية، حيث رخص لشركة فرنسية في مد سكة الحديد بين تونس وباجة ثم جندوبة ، كما منح امتياز تركيز شبكة تلغرافية بين تونس والمدن الكبرى لشركة فرنسية ، وأصدر قانونين منظمين لقطاعي الفلاحة والصناعة بتونس<sup>1</sup> .

### المطلب الثاني : الاصلاح الاقتصادي والتقني بالمغرب.

سعى السلاطين المغاربة في القرن التاسع عشر تأسيا بالبلدان الإسلامية الأخرى، ولا سيما مصر وتونس، إلى إدخال التقنيات الحديثة إلى المغرب، وقاموا بإرسال البعثات الطلابية إلى البلاد الأوربية، ليستأنسوا باستعمال الأدوات العصرية، وليكونوا محركين للتحديث الذي كان ولا يزال آنذاك موضع تفكير عند النخبة المغربية، وأولاه السلاطين المغاربة اهتماما خاصا لهذا الأمر.

لقد كان السلاطين المغاربة بعد صدماتهم العسكرية ، ميالين إلى تحديث أجهزة الدولة، لأنهم أدركوا من خلال احتكاكهم بالأوروبيين وحروبهم معهم وتقارير سفرائهم عن مكان القوة والضعف في "تنظيمات" بلدانهم، وأنه لن يستطيعوا بسط سلطتهم على القبائل المتمردة وإقرار الأمن والنظام، وضمان استقلال البلاد، إلا إذا اكتسبوا من الأوروبيين سر تفوقهم الظاهر في آلتهم العسكرية الحديثة ومصانعهم وخبرتهم التقنية وحسن تنظيماتهم .

#### 1: سفارة الجعيدي وبداية الإهتمام المخزني باستخراج المعادن:

---

1 \_ التيمومي: " خير الدين في عيون الكادحين التونسيين : نعمة أم نقمة "، أعمال ندوة :خير الدين التونسي، مرجع سابق، صص . 197 - 305

لا شك فيه أن التقارير التي كانت تصل إلى الحسن الأول من الزبيدي الذي ترأس البعثة السفارية المغربية إلى إنجلترا وفرنسا وبلجيكا وإيطاليا، والتي كان إدريس الجمعايدي كاتبها لها، قد اطلعتنا على أهمية استخراج الفحم بطرق علمية، ودوره في تحريك دواليب الحياة الاقتصادية. لكن من أين يأتون بالفحم بهذه الكميات الكبيرة؟ سؤال كان يراود النخبة المغربية، ويثير فيها رغبة المتابعة لمعرفة مصدر الفحم سر أصل الحركة. ففي يوم السبت فاتح يوليوز 1876م، كان يوم راحة استغله الجمعايدي بزيارة متحف التاريخ الطبيعي ببروكسيل حيث اكتشف فيه وجود عينات من معادن مختلفة جاءت من المغرب، "وفي صناديق كثيرة، أغطيتها من الزجاج جميع ما في الأقاليم من المعادن... وكتب على كل معدن من أي محل هو، منها صندوقان فيهما حجر معادن المغرب<sup>1</sup>، وعدد ما في هذين الصندوقين من المعادن المغربية سبعون معدنا، منها ما هو من الجديدة، ومن طيط وغيرهما."<sup>2</sup> لقد تبين للجمعايدي أن بلده تحوي في باطنها العديد من المعادن النفيسة، وأن الأوروبيين جادون في البحث عنها أينما وجدت لاستغلالها، لتطوير وتحريك دواليب صناعتهم التي تعتمد أساسا على الفاخر الذي يشاهده يلتهب في الأفران، أينما حل وارتحل، فزاد شغفه في مواصلة بحثه الطويل عن الفاخر وكيفية إيجاده بهذه الكميات الضخمة.

بعد سنة وبضعة شهور من عودة سفارة الزبيدي إلى المغرب، استطاع هذا الأخير إقناع الحسن الأول بأهمية استخراج المعادن، وامتدادا لذلك، وجه السلطان أوامره سنة 1878م، أي بعد رجوع السفارة بسنة وبضعة أشهر، إلى الحاجب موسى بن أحمد ليستفسر سفير بريطانيا بطنجة عن إمكانية استخراج الفحم بطرق علمية، وتحليل العينات وفحصها ببريطانيا، وطبقا لذلك توافد على المغرب العديد من المهندسين منهم البريطاني ادوارد سيلف E. SILVA، كما تشير إلى ذلك رسالة السلطان الحسن الأول لنائبه الأول على طنجة محمد بركاش "...وبعد فقد دعت الحاجة لقدوم المهندس سيليه الإنجليزي الواقف على بناء أبراج طنجة لحضرتنا العالية بالله بحرا على طريق الجديدة بقصد اختيار بعض المعادن بقرب مراكش ..."<sup>3</sup>

---

1- يقصد المغرب .

2- الجمعايدي : المصدر سابق، ص . 244 .

3- ابن زيدان : تحاف أعلام الناس ...، مصدر سابق، ج، 2، ص. 547.

وقد عثر المهندس سيلف على منجم الفحم قرب طنجة بمساعدة المهندس المغربي الزبير سكيرج، والإشراف الإداري لمحمد الزيبيدي، الذي أوضح في رسالة للسلطان الحسن الأول بأن بداية استغلال المنجم يمكن أن تتم "...بجفر آبار ثلاثة كأبار السواني متفرقة ليعرف منها الجهة القريبة للمنفعة فيقع الشروع منها"<sup>1</sup>.

كما طلب السفير الزيبيدي من السلطان "التوجيه على عشرين معلما من أهل تدغة الذين يحفرون الخطاطير بالحوز يحفرون الآبار بصائر قريب الأجرة..." بعد أن رفض السلطان استغلاله من طرف المؤسسات الأجنبية، بل طلب المساعدة في البحث والتنقيب فقط، لأنه كان يرى في ذلك أداة للتغلغل الأجنبي، كما رفض باقي العروض الأجنبية، لأن المخزن كان يرغب في استغلال المعدن على يده.

## 2- ضرب السكة في باريس :

كانت العملة المغربية في عهد الحسن الأول في تدهور مستمر لأسباب كثيرة ومتنوعة أمام السكة الأوروبية، التي كانت تروج بجانبها لاحتياج المغاربة لها في شراء حاجياتهم من الخارج والداخل. بالإضافة إلى ظهور نقود مزورة ومقلدة للسكة المغربية، وتهريب العملة الذهبية والفضية إلى الخارج، وغير ذلك. مما انعكس سلبا على اقتصاد المغرب، وتضرر التجار المغاربة في ذلك تضررا كبيرا، وفي ذلك يقول عمر آفا: " فأصبح المغرب يتخبط في أزمة مالية جديدة جعلت الحسن الأول يبحث عن طريقة مثلى لإعادة تجديد ضرب السكة المغربية وفق معايير جديدة تسائر التطورات الحاصلة في أوروبا بدل ضربها بالطرق التقليدية العتيقة التي كانت متبعة في المغرب، وبكميات كافية لسد حاجيات السوق المغربية"<sup>2</sup>.

وفي سياق هذا الإهتمام الحسني، زارت السفارة المغربية التي ترأسها الزيبيدي، بنك فرنسا ودار ضرب السكة بباريس، كما زارت دار ضرب السكة بلندن، كما أخبرنا بذلك إدريس الجعيدي في رحلته، ومن خلال الأوصاف المستفيضة التي خص بها دار السكة بباريس، تبين للسلطان الأهمية التقنية التي كانت تتوفر عليها دار ضرب السكة بباريس وتفوقها على نظيرتها الإنجليزية، وامتدادا لرحلة الجعيدي، أصدر السلطان ظهيرا شريفا إلى النائب محمد بركاش بضرب السكة المغربية بفرنسا بدل إنجلترا، ومما جاء في الظهير "...وبعد، وصل جوابك بأن السدد الذي ظهر للزيبيدي في شأن السكة ... وتوجيه تلك السكة لبر النصارى ... لأنها إذا كانت مساوية لسكة

1- نفس المصدر، ص . 548 .

2- آفا، عمر : تاريخ المغرب المعاصر ، دراسات في المصادر والمجتمع والإقتصاد ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، سلسلة بحوث ودراسات، رقم، 34 ، الطبعة الأولى، 2001 ص . 319 .

الفرنسيين وزنا وعيارا مقبولة بإيالته تكون مقبولة في إيلات أخرى مثل سكتته ولم يظهر لكفى ذلك ضرر... فقد ساعدنا عليه على نحو ما عمله معهم الخديم الحاج محمد الزبيدي...<sup>1</sup>. ومن ثم تعاقد المخزن مع دار سيير Seillière الفرنسية لصنع 20 مليوناً من الريال الحسني، مما أغضب السفير البريطاني الذي كتب إلى الأمين الزبيدي فيما بلغه من عدم مساعدته فيما أراده من ضرب السكة النحاسية المغربية بإنجلترا "... فقد عزى بي حيث سمعت أن السلطان لم يساعد لما أشرنا به ... وأرباب فبريكة سكة النحاس ( بإنجلترا ) يجعلون الفلوس لبلادنا وللطليان ولعدد دول أخرى هذه مدة سنين معددة بدون شكاية من أحد لا من حيثية المعدن ولا من السكة كما يقع عند الغير ..."<sup>2</sup>.

### 3 - النخبة المغربية و إدخال المستحدثات التقنية إلى المغرب.

فقد كان لحدث فرض الحماية على المغرب في 30 مارس 1912 م وقعه على وعي النخب المغربية بما يحمله الحدث من دلالة على نهاية المغرب المستقل بعد إخفاق كل المحاولات التي بذلت لإصلاحه و إنقاذه مما أكد مجددا لهذا الجيل مدى ضعف المغرب وتأخره مقارنة مع "الأخر"، وبالتالي ضرورة استئناف مشروع الإصلاح والتحديث والتنوير الذي أخفق. ولم تتجه هذه النخبة لاستئناف هذا المشروع إلى العمل السياسي وإنما إلى التربية والثقافة على أساس القبول بالحماية كأمر واقع، والتعايش معها بل و التعويل عليها للنهوض واستئناف الإصلاح الذي أخفق سابقا شريطة أن تضمن الدولة الحماية الأمن والعدل واحترام الإسلام وشعائره.

لذا فإن اهتمامات هذه الفئة من النخبة المغربية لفترة بداية الحماية لم تتجه للدعوة للجهاد أو مقاومة الأجنبي المستعمر وإنما إلى الانكباب على القضايا والمشكلات التي أفرزها التحديث الاستعماري والتحويلات التي عرفها المجتمع المغربي بفعل هذا التحديث لمراقبة ورصد التحويلات والتنظيمات والتقنيات الحديثة والتساؤل عن مدى مطابقتها للشرع من منظور الفقيه المجتهد، معتبرا إياها بمثابة نوازل يطلب منه أن يعطي فيها جوابا وفتوى. وهذا ما سيجعل هذا الفكر حسب بنسعيد العلوي يتحرك ضمن إشكالية الاجتهاد والتحديث.

وقد نتج عن هذا ظهور نمط من التأليف يهتم بالمستجدات والتقنيات الحديثة وبعض الظواهر الاجتماعية التي عرفها المجتمع المغربي بفعل التثاقف الحضاري مع أوروبا، حيث خاض بعض الفقهاء من هذا الجيل في هذه الأمور الوقتية بحسب التعبير المتداول آنذاك للفصل فيما إذا كانت مساوية أي بدعا منافية للشرع أم العكس.

1- نفس المصدر، ص . 450 .

2- ابن زيدان : تحاف أعلام الناس ..، ج ، 2 ، ص . 442 .

إن الزحف الأوروبي على المغرب والتغيير الحاصل في المجتمع المغربي، في الفكر والمعاملات والسلوك، بسبب الحماية الفرنسية واحتكاك المغاربة بالأجانب، عن طريق التجارة والعلاقات الدبلوماسية، وسفر هؤلاء عندهم مفاوضين وملاحظين ومكتشفين، ودخول أولئك عندنا محملين بأفكارهم الاستعمارية التحديثية، وتطبيقاتها التقنية والقانونية. قد أخذ يفرض نمطا جديدا في العيش لدى المغاربة، سواء قبل ورضي هؤلاء المغاربة أم عارضوه ونبذوه. فمن كان يستطيع منع دخول السكة الحديدية<sup>1</sup> والتليفون والتلغراف وآلة التصوير الشمسي، وبعده المذياع والتلفاز... وهل كان بالإمكان الوقوف ضد كثير من المعاملات البنكية الجديدة الجارية، كالأوراق البنكية والضمان على الأموال والتجارة...؟

وقد جمع محمد المنوني عدة رسائل ونصوص وفتاوى حول هذه المواضيع والمستجدات "الوافدة" والتي انتشرت مع الحماية مثل ما كتبه محمد بن الحسن الحجوي من نصوص حول "الأحكام الشرعية في الأوراق المالية" و "الضمان التجاري المسمى لاصورانص" أو ما نجده عند محمد العابد بن سودة في "التعاقد والائتلاف بقبول خبر التلغراف" وأيضا ما كتبه أحمد بن المواز عن الحوالة "المانضة" وتلقيح الصغار ضد الجدري، وعملية تشريح الموتى وما ورد لدى أحمد البلغيتي بالشيكات و "الليطرة"<sup>2</sup>.

يعد محمد بن الحسن الحجوي صاحب، الرحلة الأوروبية، من أبرز الفقهاء الذين خاضوا في هذه القضايا وأصدروا فتاوى متعددة في الموضوع. حيث تميز كما سبقت الإشارة إلى ذلك في أكثر من مناسبة في هذا البحث، بغزارة التأليف حيث خلف ما يزيد على مائة مؤلف بين صغير وكبير، منها الكتب والتقاييد والمذكرات والمحاضرات وفتاوى لأسئلة كانت ترد عليه من داخل المغرب وخارجه في قضايا مختلفة تم العبادات والمعاملات. ومن الفتاوى التي حاول الأجابة من خلالها على بعض المشاكل التي تعرض لها المجتمع نتيجة دخول بعض المستحدثات الغربية إلى الحياة العامة :

---

1- لم تحل ممانعة المخزن دون مد خط السكك الحديدية، فقد أقامت فرنسا في المناطق المتاخمة للجزائر رغما عن أنف المخزن و القبائل مثل ما حصل في واحة فككيك والمناطق القريبة منها، كما بدا المخزن عاجزا تماما عن صد الأوروبيين الذين أخذوا يقيمون تجهيزات في مجال النقل ضمن المناطق التي كان يتحكم فيها قبل الاحتلال الكامل للمغرب. بل حث القبائل على عدم التصدي لمثل هذه الأعمال. انظر : المكاوي أحمد، المغرب في تاريخه المنسي، مصدر سابق، ص ، 164

2- المنوني : المصادر العربية...، مرجع سابق، ج ، 2 .

السر المذاع في جواز قراءة القرآن أمام المذيع<sup>1</sup>، أجاب فيه على أسئلة وردت عليه في شأن فتوى سمعت في رمضان 1357 بمذيع الرباط منقولة عن بعض علماء مصر، تصرح بتحريم قراءة القرآن أمام المذيع .

إرشاد الخلق إلى الاعتماد في ثبوت الهلال على خبر البرق<sup>2</sup>، أجاب فيه عن سؤال طرح عليه حول جواز الاعتماد في ثبوت الهلال على التلفون أو التلغراف .

الأحكام الشرعية في الأوراق المالية<sup>3</sup>، جواب على سؤال ورد على الحجوي في 1919 بفاس، هل الأوراق المالية التي عمت بها المصارفة يجوز بيعها مفاضلة بعضها ببعض؟ وهل تجب فيها الزكاة أم لا؟

تقييد في مسألة التأمين<sup>4</sup>، ويتضمن سؤال ورد عليه في 1937، حول السكرتاه أو الضمان المعروف - كما يقول - بلا سورانس على البضائع هل جوائز أم لا؟ .

إن محمد الحجوي قبل أن يخوض في محاولة الجواب عن أسئلة المجتمع المغربي المعاصر، يقدم لاجتهاداته بمقدمات، هي عبارة عن المقاصد العامة من التشريع، لأن الانتباه إلى أهميتها، لا إنفكاك عنه، لمن أراد أن يحيط علما بمنهج الفقيه، في القول بإمكانية التحديث والاستفادة من "الأخر" من منظور الحكم الشرعي الإسلامي، نحن نتصور أن حسن إدراك هذه المقدمات يمكن قارئ فتاوى الحجوي، أن يفهم ويتفهم ما كانت تنتهي إليه من نتائج أغلبها أتى في شكل الترخيص لا المنع والتوسعة لا التضييق .

هذه المقدمات ليس إلا أصولاً مستنبطة من روح الكتاب والسنة، وغيرها، عرف الحجوي كيف يستخرج منها ما وسعه ذلك، من الظنيات المؤيدة التي اعتمدها مسلوكا في فتاواه، نذكر منها مثلاً: قوله: "إن الشريعة هدى ورحمة وأبدية وعامة ولا يتصور أن تصك في وجه الأمة باب الصناعة والتجارة والفلاحة"<sup>5</sup>، وقوله "فقد علم من الأصول الخلاف في الأشياء قبل ورود السمع"<sup>6</sup>. وقوله "إن مصلحة الأمة والشريعة تقتضي التوسع في أبواب المعاملات"<sup>7</sup>. وقوله "لم يجعل الله شريعة من الشرائع منافية لناموس الاجتماع"<sup>1</sup>. وقوله: "كانت

1- مخطوط بالخزانة العامة ( م . خ . ع ) ح . 134 .

2- م . خ . ع ، ح 115

3- م . خ . ع ، ح 115 .

4- م . خ . ع ، ح 114 .

5- الحجوي : الفقه السامي ... ، مصدر سابق، ج ، 2 ، ص . 505 .

6- نفس المصدر، صص. 565-566 .

7- نفس المصدر، ص. 562 .



بعثته عليه السلام عامة لسائر الأمم، إلى قيام الساعة ، وذلك لا يتأتى مع الجمود، لأن العالم كله متغير"<sup>2</sup> وقوله : "الشريعة لا بد أن تتبع أحكامها الدنيوية الأزمان والأمم ، لحفظ المصالح العامة"<sup>3</sup>.

ووعيا من الحجوي بهذا الواقع الذي يطبعه التمايز في القدرات والإمكانات بيننا وبينهم ، وإدراكا منه ومن أفراد النخبة العاملة لفوائدها ومقاصدها ، حيث أطنب السفراء المغاربة في نصوصهم الرحلية في وصف هذه المخترعات الحديثة ودورها في تنمية وتطوير الإقتصاد الأوروبي، وأمام هذا الزحف الأوروبي الذي لا نملك القدرة على رده، عمد الحجوي إلى طرح مسلك الاجتهاد الشرعي كمخرج أمام المسلمين لتفادي كثير من الحرج، وهو دليل شرعي لا مندوحة عنه إزاء المستجدات، وسبيله هو العلم بالفقه الإسلامي الذي يعتبره التعالي "أصل التمدن العصري الحديث"<sup>4</sup>. ودعا الحجوي العلماء بعد التضييق على الناس "فيما لا مندوحة عنه وفيما به حياة الهيئة الاجتماعية"، لهذا ينبغي " للأئمة أن يراعوا حالة الضرورات فيما تقتضيه المنظمات الوقتية، والأحوال العمومية لمجاعة الأمم المتمدنة في مضمار الترقيات العصرية"<sup>5</sup>.

كما انتقد الحجوي مواقف بعض العلماء الذين يرفضون أي تجديد واختراع وسماهم علماء الجمود وعنهم قال : "ومن المضحكات المبكيات أنه مهما ظهر اختراع مفيد، تصفق له الأمم الراقية فرحا لتستفيد منه وتتسابق إليه، يقوم بعض النائمين أو الجامدين يصفرون عليه استهزاء، ويتسارعون إلى تحريمه وحرمان الأمة من الاستفادة أزمانا طوالا". كما وقف الحجوي عند تحريم بعض العلماء للطباعة التي هي من أهم الوسائل لانتشار العلم ولرقي الأمم، "فتحريمهم للطباعة - يقول الحجوي - حرمو الأمة الإسلامية من العلم حتى سبقتهم الدولة الأوروبية إلى طباعة القرآن، وأصبحنا نشترى كتب العلم الإسلامية من غيرنا"<sup>6</sup>. وبذلك شل العلم في العالم العربي مشرقا ومغربا.

واستحضارا لما سبق ذكره، رأى الحجوي جوابا عن أسئلة الناس التي أشرنا إليها سالفًا، أنه -مثلا - لا مانع من العمل بالخبر الشرعي الذي يؤكد العدل الواحد فأكثر في إعلان رمضان والعيد عن طريق التيلفون

1- نفسه.

2- نفس المصدر، ص. 481.

3- نفسه.

4- نفس المصدر، ص. 483.

5- نفس المصدر، ص. 477.

6- نفس المصدر، ص. 480.

والتلغراف<sup>1</sup>. فإذا تميز الصوت وتحقق، الجاري في التليفون، بين الذي يخبر وذاك الذي يتلقى الخبر، بحيث "يحصل العلم الضروري" فالأخذ بخبر حلول الهلال يبقى جائزا<sup>2</sup>.

أما مسألة السكرتاه أو الضمان "لا سورانس" على البضائع. حيث استفتي الحجوي من طرف بعض التجار في شأن شرعية العمل بمبدأ السكرتاه في المعاملات التجارية بين التجار المسلمين والتجار الأجانب وفيما بين المسلمين فيما بينهم. وقد اعتبر الحجوي الضمان أو لا سورانس، ظاهرة عمت بها البلوى لاتساع نطاق الأعمال التجارية والصناعية والزراعية برا وبحرا وعلى التاجر العمل بها للاندماج في الحياة الاقتصادية الجديدة، فإذا امتنع فإنها لا تقبل ذمته ولا تحصل الثقة في معاملته لأنه يكون معرضا للتلف. فمسألة الضمان أصبحت أمرا ضروريا أو كما يقول: "من قبيل الضروري لا الحاجي ولا التحسيني"<sup>3</sup> ومن قواعد الفقه الضرورات تبيح المحظورات.

أما مسألة "الزكاة في الأوراق المالية" فخلاصة القضية عند الفقيه هي أن الزكاة الواجبة شرعا في الذهب والفضة والأعيان الأخرى التي يكون التعامل بها في قطع النقد تجب في "الأوراق المصرفية المالية"، وإذا كانت الغرابة تبدو لنا اليوم في المسألة فإن الأمر لم يكن كذلك عند فقهاءنا في مطلع القرن. إذ جعلوها أسئلة تطرح حول "الدرهم الشرعي" من جهة موازينه ومقاييسه، وحول التمييز بين القيمة "العينية" التي تحملها الورقة المالية في ذاتها، والقيمة "الافتراضية" التي تكتسبها من سند الدولة وخزنتها لها. وعلى كل حال فهذه علامة على ما يصيب الوازع الديني من حرج، إذ يعرض للتاجر المسلم ما لم يكن قد ألفه من قبل، فضلا عما كان الحال

---

1- الحجوي : إرشاد الخلق إلى الاعتماد في ثبوت الهلال على خبر البرق ، م .خ .ع .ح ، في مجموع ح ، 115 ، أوردها سعيد

بنسعيد العلوي في الإجهاد والتحديث، مرجع سابق، ص ، 113

2- لم يكن الحجوي الفقيه الوحيد الذي أفتى في المسألة، بل نجد هذه الفتوى تتكرر، وبنفس الطريقة عند علماء آخرين نذكر من بينهم محمد بوحندار الذي ألف "الإنصاف في مسألة العمل بخبر التلغراف"، ومحمد بن عبد السلام الطاهري الشبيهي صاحب "كمال الاعتراف بالعمل بالتلغراف"، وعبد الله الفاسي صاحب "سيوف الحق والإنصاف لردع من لم يقل بالعمل في ثبوت رؤية الهلال بالتلغراف" ومحمد العابد بنسودة: "التعاقد والاتلاف بقبول خبر التلغراف". وهذه العناوين كلها توضح تأييد العمل بهذه التقنيات الجديدة. عن هذه المؤلفات راجع المنوني محمد ، المصادر العربية لتاريخ المغرب... مرجع سابق.

3- الحجوي : الفكر السامي ....، مصدر سابق، ج ، 2 ، ص . 506 .

يستدعيه منه من السفر والتنقل والتبادل التجاري مع بلاد الغرب وقد بلغت الرأسمالية فيه مدى بعيدا من التنظيم والتطور<sup>1</sup>.

---

1- العلوي، بنسعيد: "السلفية والإصلاحية في الفكر الإسلامي المعاصر"، ضمن، إشكاليات الفكر الإسلامي المعاصر، مركز دراسات العالم الإسلامي، الطبعة الأولى، 1991 م، ص . 193.

خاتمة عامة : \_\_\_\_\_

كانت غايتنا من هذا البحث، هي مقارنة إشكالية وعي أهل المشرق وأهل المغرب بالتجاوز الحضاري الأوروبي من خلال قناة الرحلة، وبعد جولة تحليلية تركيبية للأفكار والرؤى والمواقف والصور، التي كونها الرحالة العرب عن "الأخر" الأوروبي، والتي يتداخل فيها ماهو معرفي بماهو نفسي وديني، أمكن صياغة هذا البحث الذي انتهى إلى الخلاصات التالية:

- كانت الرحلة في الثقافة الإسلامية الوسيطة المناسبة الأهم لاكتشاف "الأخر" المخالف في الدين ولعقيدة، والتعرف على منظومة أفكاره وتقاليده وقيمه ومستواه الحضاري. ورغم أنه كان في وسع المسلمين أن يتعرفوا عليهم في ديارهم الزاخرة بالملل والنحل، وأن يدونوا بدقة عالية عقائده وآراءه، ويكتشفوا الفوارق والفواصل عما اعتقدوه هم وأخذوا به، إلا أن ذلك ما كان يكفي ليعوضهم عن الحاجة إلى اكتشافه بعيدا عن دائرة الإسلام، أي حيث يقيم في عقر داره. لذا أشار البحث في كثير من المناسبات إلى نماذج من الرحلات الإسلامية إلى أوروبا قبل القرن التاسع عشر، وذلك للتأكيد على أن أدب الرحلة فن قديم، وليس فنا جديدا ظهر في القرن التاسع عشر، مع رفاعة الطهطاوي وخير الدين التونسي ومحمد الصفار.. وغيرهم، وإنما هو فن ممتد في التاريخ الإسلامي، ونبغ فيه أعلام كثر كالمسعودي والمقدسي والبيروني وغيرهم.

من خلال استعراضنا الجزئي لبعض الصور التي رسموها، والمواقف التي اتخذوها من "الأخر" الأوروبي، نخلص إلى أنه توجد فروقا كثيرة بين الرحلة العربية القديمة والوسيطة، ونظيرتها الحديثة، ذلك أن بونا شاسعا يجده القارئ بين رحلات الشيخ الطهطاوي وأحمد فارس الشدياق ومحمد الحجوي الثعالبي وبين رحلات ابن جبیر وابن بطوطة ابن فضلان.

أهم هذه الفروق، هو ذلك الشعور المتولد عند الرحالة بين سوء أحوال الإسلام وتقدم "أهل الكفر"، وعلو شأنهم، إنه شعور المرارة والأسى، فحيث كنت تجد الرحالة المسلم زمان ابن فضلان وابن بطوطة ممتلئا بالحماسة والقوة في حديثه، معتزا بذاته، مستصغرا محتقرا ل"الأخر"، وذلك مرتبط بالشعور بالغبلة السياسية والحضارية في فترة العصور الإسلامية، وحتى إن حصل انبهار بالمخالف في بعض مجالاته الحضارية، فإنه ما بلغ يوما حد الشعور بتفوق حضارته أو ثقافته على حضارة أو ثقافة المسلمين، ولا قادهم إلى الاعتقاد بوجود الاقتداء به وتقليده. أما رحالة القرن التاسع عشر، ومثقفو هذه الفترة عموما، فكانوا أكثر شعورا بالنقص تجاهه، وأكثر انبهارا بنموذجه الحضاري والثقافي، وأبعد في التعبير عن الحاجة إلى الأخذ بما أخذ به من مبادئ ووسائل، كي ينهض ويحصل له السبق والتفوق.

- كان تعامل الرحالة طوال القرن الثامن وقبله مع أوروبا، من خلال مقولة دار "الكفر" ودار "الإسلام"، وعلى الرغم من معرفته اليقينية بانتساب هذه الديار إلى المسيحية، فإنه يصر على نعت هذه الديار بالكفر لمخالفة الكثير من المعتقدات المسيحية للمعتقد الإسلامي، مثل الإيمان بالتثليث، أو صلب المسيح عليه السلام، فضلا عن تجسيد وتصوير الأنبياء والملائكة .

إن الرحلات التي كتبت في القرن الثامن عشر وقبله عن أوروبا ، ولا سيما رحلات المغرب الأقصى ، أنتجت صورة عامة عن المجتمعات الأوروبية وهي تنهض وتتقدم ، إلا أن تقدمها ذلك، لم يكن بالقدر الذي يجعله يولد لدى كتاب تلك الرحلات شعورا بالدونية والتأخر تجاه تلك البلدان . ولعل هذا ما يفسر أن أولئك الكتاب كانوا يرون أن التمايز الأساسي بين حضارة المجتمعين الأوروبي والإسلامي، هو أولا وقبل كل شيء تمايز ديني يتعلق بمجموعة من القيم والتصورات التي ترتبط بعقيدتي التوحيد الإسلامية والتثليث المسيحية .

- استعرضنا في الباب الأول من هذا البحث عددا من السفارتناميه العثمانية في القرن الثامن عشر، أثبتنا من خلالها أن العثمانيين كانوا أسبق من عدد كبير من الدول الإسلامية إلى الوعي بالتفاوت؛ حيث نبهت الهزائم العسكرية التي مني بها جيشهم إلى بداية اختلال موازين القوى بينهم وبين الأوروبيين، وعن طريق الرحلات العثمانية إلى أوروبا في بداية القرن الثامن عشر، ترسخ لديهم الوعي بالتفاوت الحضاري، والذي تطور فيما بعد إلى وعي بالتجاوز الحضاري عند جزء من أفراد النخبة العاملة، ولا سيما عند السفراء العثمانيين الذين عاينوا ورصدوا جوانب القوة والنظام أثناء إقامتهم بأوروبا. هذا الوعي الذي استعرضنا بعضا من مؤشرات وتحليلاته ، المتمثلة أساسا في الوعي بالتجاوز العسكري والاقتصادي والعلمي، كانت له امتدادات داخل الدولة العثمانية، تجسدت في تجارب الإصلاح التي خاضها عدد من السلاطين العثمانيين ابتداء من القرن الثامن عشر .

كان من الطبيعي بعد الهزائم والانتكاسات العسكرية التي منيت بها الدولة العثمانية، أن تظهر المشكلة أمام العثمانيين بداية وكأنها مشكلة عسكرية، وكان من الطبيعي أيضا أن يكون الدواء عسكريا صرفا في ذلك الحين، وهكذا أخذت الدولة العثمانية منذ القرن الثامن عشر تستورد التقنية العسكرية الأوروبية وتستعين بالخبراء العسكريين الأجانب والأسلحة الأوروبية، وتؤسس مدارس فنية وتقنية حربية لتدريب الضباط والجنود لمواجهة أوروبا بأسباب تفوقه عينا .

من خلال الإشارات المقتضبة للتجربة الإصلاحية العثمانية في الباب الأول من البحث، استنتجنا أن جميع محاولات الإصلاح والتحديث في الدولة العثمانية، منذ بداية القرن الثامن عشر وحتى بداية القرن التاسع عشر قد منيت بالفشل ، لعدة أسباب، أولها، أن المجتمع العثماني لم يكن مهيا لذلك، وثانيها معارضة العلماء وجيش

الانكشارية لهذه الإصلاحات؛ لأنها تمس امتيازاتهم ومصالحهم الخاصة، وغدا الإصلاح والتحديث يعنيان زوالهم أو زوال سلطتهم ونفوذهم. وثالث هذه الأسباب، أن الإصلاح والتحديث تركز على الجيش وأهل أجهزة الدولة الأخرى، كما أنه لم يتجه بالأساس إلى النظام التعليمي الذي هو المنطلق والأساس لكل إصلاح وتحديث رغم إلحاح النخب العاملة على ذلك في نصوصهم السفارتنامية .

-خلصنا في مقاربتنا للسياق التاريخي للرحلة العربية الحديثة، إلى أن الوعي بأوروبا عند النخب العاملة بالشرق والمغرب، تشكل عن طريق نمطين من الرحلة، الأول تمثل في قدوم أوروبا بنفسها إلى البلدان الإسلامية، غازية ومحتملة ومستعمرة؛ حيث استهلكت ذلك بحملة نابليون بونابرت على مصر عام 1798م، والتي عدت من أبرز الأحداث التاريخية الخطيرة في التاريخ المشرق الحديث؛ حيث شاهد المصريون كافة، مدى التقدم الغربي وعمق التخلف العربي الإسلامي، كما احتلت الجزائر عام 1830م، وسُحق المغرب في إيسلي عام 1844 وتطوان 1860.

هذه الانتكاسات والرجات المتتالية، شكلت منعطفا حاسما في الوعي المشرقي والمغربي عامة، إذ أنها أظهرت الدول الأوروبية بمظهر جديد، مظهر دول مصنعة اكتسبت بفضل القوة البخارية وسائل مادية جبارة لا يمكن لبلدان ظلت محافظة على بناها التقليدية البدائية أن تصمد أمامها، هذا التفوق الساحق الذي ظهر به الغرب، نبه النخبة العاملة إلى مدى الضعف الذي آلت إليه بلدانهم، وحصول تفاوت في القدرات والامكانيات العسكرية والتقنية والاقتصادية.

إلا أن هذا الوعي بالتفاوت الذي حصل عن طريق النمط الأول من الرحلة، سرعان ما تطور تدريجيا إلى وعي بالتجاوز عن طريق النوع الثاني منها، الذي يتمثل في سفر عدد من أفراد النخبة العاملة والحاكمة إلى الديار الأوروبية، للاطلاع على أسرار التقدم الأوروبي ومظاهر رقيه الحضاري، فازداد اقتناع النخبة العربية بتفوق أوروبا الساحق اقتناعا راسخا، مما جعل النخب المشرقية والمغربية على حد سواء، تستشعر بداية حصول تجاوز حضاري شامل، ومن تم أصبحت أوروبا بموجب هذا الاقتناع، نموذجا حاز قصب السبق منذ زمان في مضمار الحضارة، وحسن الترتيب والتنظيم، والقوة في الاقتصاد والاجتماع والسياسة والعلم والتكنولوجيا على السواء .

لقد أتت الصلة بأوروبا من خلال الرحلة والمعاناة والمشاهدة، تؤسس فكرة "الآخر" في الوعي الإسلامي، وتنبه إلى الفجوة التي تفصل مجتمعات الإسلام، عن مدنيته وعن منسوب التقدم لديه، فتتنزله منزلة الميزان الذي يقيس به المسلمون ليعرفوا مقدار ما في حوزتهم من أسباب الكينونة التاريخية والحضارية.

ففي إطار هذه العلاقات المستجدة، بين ما كانت النخبة العاملة تدعوه بدار "الإسلام" وبين ما كانت تدعوه بدار "الكفر"، انتبه أهل المشرق والمغرب إلى أن تحولات ما، طرأت على الطرف "الآخر"، دونما علم منها ومن حكامها، بسبب إغلاق جسور التواصل، وتبني القطيعة المطلقة تجاه أوروبا، نتيجة اجتهادات الفقهاء المحرمة والممانعة للتواصل والتفاعل و السفر إلى ديار المخالف للإقامة أو للتجارة أو السفر. هذه التحولات هي التي جعلت أوروبا الأقوى تأثيراً في هذه العلاقة، بعد أن ظل هو الأضعف تأثيراً لمدة طويلة، سواء في حروبه مع العثمانيين أو مع المغاربة السعديين والعلويين. ولما كانت أوروبا قد تبدلت أحوالها، وتحولت أوضاعها، فإن بلدان الإسلام، يجب هي الأخرى أن تتغير نظمها، ليحدث التوازن من جديد داخل هذه العلاقة غير المتكافئة.

لقد تيقن المسلمون في القرن التاسع عشر تحديداً، أن الأوروبيين قد تجاوزوهم قوة، وتيقنوا أيضاً أنهم أصبحوا على هامش الغرب، على الصعيد الاقتصادي والعمري والعلمي والثقافي، وكل المجالات التي يشير إليها مفهوم التجاوز الحضاري.

كما استنتجنا من خلال رصدنا للسياق التاريخي للرحلات المشرقية والمغربية، أن تشكل الوعي عند النخبة العاملة بالتجاوز الحضاري الأوروبي لم يأت دفعة واحدة، وإنما حصل تدريجياً، وتم على مراحل، وكانت له بدايات بعيدة، إلا أنها لم تتجلى بشكل واضح وملموس إلا في القرن التاسع عشر.

- اخترنا في بحثنا دراسة عشرين متنا رحلياً، موزعة بين المجال المشرقي والمغربي، وبوسعنا القول، أن أصحاب هذه الرحلات التي وقع عليها الاختيار، اهتموا من خلال وصفهم للحضارة الأوروبية بمعطيات عديدة يمكن حصرها في العناصر الآتية:

أ: الجرأة في التعبير عن تأخر العالم العربي وتقدم أوروبا، والإقرار بحدوث فارق حضاري واختلال في موازين القوى.

ب: إنجاز حوار مع الحضارة الغربية ومساءلتها معرفياً ومنهجياً.

ج: الاتجاه نحو النقد الذي لا يهدف إلى الإجهاز على مكتسبات الحضارة الغربية باعتبارها من شروط بناء الذات، لأن الإجهاز لا يعني في نهاية المطاف سوى العزلة والانغلاق والتمركز حول الذات.

د: الإيمان بقيم التفاعل والتجانس والتواصل والتعددية الحضارية.

— من خلال التعريف بالرحلات العربية وبسياقها التاريخي الذي تمت فيه، نخلص إلى أنه بالرغم مما يقال، من أن ظروف الرحلات خلال القرن التاسع عشر، كانت متباينة، وهو قول له وجاهته، إلا أن الذي لا يمكن إغفاله أن الرحلات العربية الحديثة، ابتداء من الطهطاوي المصري، وانتهاء بعبد السلام السايح المغربي، قد أتت في



لحظات الابتلاء بالهزيمة، أو لنقل غير مترددين ، أن القاسم المشترك الذي طبع سياقها العام ، هو الوعي بواقع الضعف والهوان، مقابل واقع القوة والعظمة، التي يمثلها المخالف الأوربي ، ذلك أن شعورا قويا بالعجز على المواكبة واللاحق بالغرب تملك أفراد النخبة العاملة من أهل المشرق والمغرب.

— تركت الرحلات العربية التي توجهت إلى أوروبا في القرنين الأخيرين ، نصوصا متتابعة لعبت أدوارا متفاوتة التأثير في تشكيل الوعي العربي بأوروبا ، ودرجات التفكير فيها ، وبصورة خاصة، طبيعة الاستجابة أو الرفض التي حصلت لدى الرحالة العرب في موقفهم من عناصر ومفردات الحداثة الأوربية . فأدب الرحلة العربي إلى الغرب، كما اتضح لنا من خلال فصول هذا البحث، تتبع أساسا ملامح النهضة الأوربية ، ومظاهرها العسكرية والعلمية والثقافية والاقتصادية والسياسية العلمية والصناعية.

بعد تجميع الصور والملاحظات والانطباعات التي قيدتها النخبة المشرقية والمغربية في نصوصها الرحلية ، نستنتج أن الرحالة سجلوا انبهارا وإعجابا واضحا في مجالات عديدة أبرزها :

✓ **المخترعات التقنية**، حيث قاموا بتخصيص حيز كبير من نصوصهم لذكر عدد من المخترعات والمبتكرات التي قلبت حياة البشر، من المطبعة إلى المرآة إلى الآلة البخارية ، ومن السفن والقطارات إلى المنطاد والكهرباء . كما عرج بعضهم ولا سيما خير الدين التونسي وعلي مبارك باشا، على أسباب حدوث التجاوز الحضاري واختلال موازين القوى لصالح أوروبا ، فأشارا إلى الاكتشافات التي قلبت صورة العالم، من اكتشاف رأس الرجاء الصالح إلى اكتشاف أمريكا إلى اكتشاف الأوبئة والعناصر التي تسمح بالتصدي لها.

✓ **التطور الإقتصادي**، عبر جل الرحالة عن اندهاشهم وانبهارهم بالازدهار الاقتصادي الهائل الذي بلغته أوروبا، حيث أطنبوا في وصف مظاهره، فعرضوا أرقاما للتطور البشري والاقتصادي في قطاع الزراعة والتجارة والصناعة، ملفتين انتباه القارئ إلى بعض أسرار هذا التطور، والمتمثلة أساسا في حرية السوق والمبادرة الفردية وحب العمل، وهي أسباب جعلت أوروبا توفر لنفسها الثروات الضخمة ، وتبرز للعالم في هيئة الفردوس الأرضي.

✓ **رقي المنظومة السياسية**، انبهر أفراد النخب العاملة أثناء إقامتهم بديار أوروبا، بقوة دولها السياسية، التي تستطيع أن تدافع على حقوق مواطنيها ، وتفرض مصالحها ووجهات نظرها، وقد قويت بفضل نظمها السياسية القائمة على الحرية والدستور والمجالس المنتخبة، والفصل بين السلطات، ومحاسبة الحاكم والثورة عليه إذا خالف الدستور وانتهك الحريات.

✓ **القوة العسكرية** ، وهي المحصلة لكل ما سبق، لأنها نتيجة التطور التكنولوجي والعلمي والمعرفي، ولا تتحقق إلا بالنفقات الضخمة التي يوفرها اقتصاد مزدهر، ولا يحسن التصرف فيها إلا في ظل أنظمة ديمقراطية تتفق فيها الإيرادات من أجل الصالح العام ، بدل أن تستعمل القوة لإخماد الثورات والاستبداد بالشعوب.

كشفت قراءتنا للنصوص الرحلية في القرن التاسع عشر، الحضور المكثف للمجال العسكري في المتن المغربي مقارنة بنظيره المشرقي ، حيث قدمت هاته النصوص أوصافا مستفيضة ومدققة لفبريكات الصناعة الحربية المزارة، وأنواع الأسلحة المدمرة المشاهدة، ومختلف وحدات جيوش البر والبحر المستعرضة بمناسبة أو بدونها . وكان طبيعيا أن ينصب اهتمام المغاربة على المسألة العسكرية بفعل التفوق الكاسح الذي أظهره الأوربيون خلال مواجهتهم معهم أثناء احتلال الجزائر ومعركتي ايسلي وتطوان ، ولذلك رغبوا في الاطلاع واكتساب ما منح الأوربيين القوة والتفوق. أما عن ضعف الحضور العسكري في المتن الشرقي فيرجع في نظرنا إلى أن الرحلات المشرقية الحديثة إلى أوربا ، بداية برائدها رفاة الطهطاوي ، لم تتم إلا بعد مرور أزيد من عقدين عن بداية الإصلاحات العسكرية الناجحة لمحمد علي باشا، والتي مكنت مصر من امتلاك جيش عصري منظم يضاهي الجيوش الأوربية.

\_ تأكد من خلال النصوص الرحلية العربية الحديثة، على أن أوربا ليست ذاتا واحدة متجانسة متحدة ، وإنما هي متعددة ومختلفة، ورغم هذا الاختلاف ، استطاعت وتمكنت أوربا من تجاوز العوالم الأخرى ، و الخروج من حدودها الجغرافية وتستولي على خيرات البلدان المتجاوزة .

\_ أثبتنا في بحثنا من خلال رصد المواقف والصور والارتسامات التي رسمها الرحالة العرب عن أوروبا في نصوصهم الرحلية ، تشكل الوعي لديهم بالتجاوز الحضاري للأوروبي للمجتمعات الإسلامية ، والذي امتد إلى وعي بضرورة مجابهة أسباب حدوث التأخر الحضاري ، واقتناع وإيمان راسخ بضرورة الشروع في الإصلاح والتحديث في هذه المجتمعات، لمواجهة واقع التجاوز الحضاري الأوربي واللحاق بالغرب المتقدم .

لقد وقفنا في أعمال الرحالة على مشروع في الإصلاح والتقدم ، يقرأ أحوال التردّي الحاصلة في التاريخ الذاتي ، بمعايير التقدم الصانع لمختلف أجماد النهوض الأوربي؛ فلم يصف الرحالة العرب في القرن التاسع عشر المجالات الحضارية الأوربية ، ويسهبوا في تعداد مظاهر رقيها عبثا، أو أنها مقصودة لذاتها، وإنما قد وصفوها مقترنة برسالة محددة وهي ضرورة الاقتباس والاستفادة منها ، كدعامة أساسية من دعائم التقدم واللحاق بالغرب ، وكمفهوم من مفاهيم مقومات الإصلاح والنهضة والإحياء.

— نستنتج من خلال رصد المواقف التي كونها الرحالة عنأوروبا، أن نقدمهم للحضارة الأوروبية في مجال الاعتقادات، لا يعني القطيعة معها أو رفضها رفضا مطلقا، بل دعوا إلى حوار حقيقي وفعال بين الحضارات، وفق الرؤية الإسلامية التي تؤمن بالتعدد الحضاري . فاللحاق بالأمم المتقدمة والتفوق عليها بحاجة ماسة إلى التواصل الحضاري ، أو "المخالطة" كما كان يقول الطهطاوي المصري ومحمد الصفار المغربي، أو "التعاون" كما كان يقول محمد عبده، أو "الإقتباس" بتعبير خير الدين التونسي . إذ أن الواقع المعاصر يفرض على أمم الحضارة أن تتواصل من أجل الإفادة من المنجز العلمي والتقني ، لأن الانقطاع حسب النخبة العاملة يعني الخوف من "الأخر" وكرهيته ، بينما التواصل يعني الثقة في إمكانات"الذات" ، وبقدرتها على التأثير وقابليتها للتأثر ، ولا يجب أن يفهم بأن التواصل الذي أحت عليه النخبة العربية يعني "التقليد" أو "التماهي" ، بل يجب أن يعني المشاركة والمحاورة والمساهمة في صياغة الحركة الحضارية الإنسانية. كما أن الاقتباس غير الانبهار، لأن المنبهر يأخذ الأمور كما هي دون اعتبار واقع التقبل ، والمقتبس يأخذ من الجديد ما تستدعيه الأوضاع ويحكم به العقل السليم.

فقد نهت النخبة العربية مبكرا أن العالم البشري يتحول شيئا فشيئا إلى قرية عالمية ، تتبادل فيها الشعوب الخبرات والتجارب والثقافات والمفاهيم، وحاجة بعضها لبعض متأكدة. فنحن كعرب ومسلمين ، لن يكتب لنا الاستقلال الحقيقي، ما لم نتعرف على علومه، ومعارفه، وتقنياته الحديثة، وأسباب منعه وقوته، للخروج من حالة الشلل الحضاري، إذ أن الاستمرار في الوضع الراهن يستتبع مزيدا من التبعية والارتكان للغرب، وبالمقابل ، فالتمدن والأخذ بأسباب منعه وقوته يفضي إلى مزيد من الاستقلال عنه.

إن الوسيلة الوحيدة في نظرهم لتوقي ضرر أوروبا تتمثل في الاقتباس منها، وأن التهديد حجة إضافية على ضرورة الانفتاح على الحضارة الحديثة. والتهديد الأوروبي، إما أن يكون عسكريا أو اقتصاديا أو سياسيا . فالأول لا يمكن مواجهته إلا بنفس الأسلحة التي تستعملها الجيوش الأوروبية، والثاني لا يمكن مواجهته إلا بحذق الوسائل الحديثة لتنمية الأسواق وتنمية المبادلات التجارية. وأما الثالث، فمواجهته لا تصح إلا إذا استقرت العلاقة بين الحاكم والشعب علاقة قوية متضامنة، وإلا كانت الانقسامات والاضطرابات مدعاة لتصدع الجبهة الداخلية.

لما طرح سؤال الإصلاح في عصر النهضة العربية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بعد تشكل الوعي بالتجاوز، لم يكن الهدف منه إعادة إنتاج تجربة أوروبا بمخافيرها، أو استعادة إحدى مراحل تاريخها لإعادة إنتاجها و مطابقتها. بل لقد كان هدف الرواد الأوائل توطين قيم إنسانية عامة قادرة على الإسهام على صياغة وعي تاريخي وحضاري إسلامي. وانطلاقا من هذه النظرة كانت النخبة واثقة من ثمرات الإصلاح، فليس مكتوبا على

العرب التخلف وعلى الأوروبيين التمدن والتحضر ، واقتداء الأمم والشعوب ببعضها البعض من الأشياء التي لا يعاب عليها.

\_\_ إن النخبة العاملة التي شهدت تماسا قويا ومباشرا مع أوروبا من خلال الرحلة وإدراكها لوضعها الداخلي المتخلف جعلها تخوض المعركة على جبهتين داخلية و خارجية ، الأولى فهم أوروبا و تسويغها و تسويغ مؤسساتها المتقدمة، و ثانيهما تنوير الوضع الداخلي ومجابهة المؤسسات التقليدية وكل ما يرافقها من مظاهر.

لقد أدركت النخب السياسية، والنخب المكونة لبرامج في الإصلاح الفكري والاجتماعي من أهل المشرق والمغرب ، أن المجتمعات الأوروبية تتميز بسمات محددة صانعة لقوتها وتقدمها ، وان كل تفكير في تجاوز اوضاع التاخر الحاصلة في المجتمعات العربية، يقتضي الاستعانة بالأسس والمقدمات التي صنعت وما فتئت تصنع مظاهر النهضة والقوة في اوربا ، لذا أكدت جميعها على حتمية التواصل والاستفادة من التجربة الأوروبية ، والشروع في تحديث المجالات الحضارية التي استأثرت باهتمامهم أثناء تواجدهم بالديار الاوربية .

\_\_ لاحظنا من خلال رصد الحركات الإصلاحية في المشرق والمغرب، والتي خاضتها النخب الحاكمة ، ابتداء من محمد علي باشا، والباي أحمد التونسي ، ومحمد بن عبد الرحمان المغربي... أن الحرص على نخب فكرية إصلاحية كان قويا من طرف الدولة ، لذا ارتبط رفاعة الطهطاوي بمشروع مصري رسمي لتحديث النظام التعليمي، وكان محمد مبارك باشا وزيرا للمعارف والأشغال العمومية في عهد اسماعيل ، وأسندت مهمة الإفتاء وإصلاح الأزهر لمحمد عبده ، وكان ابن الضياف مشرفا على الإصلاحات في تونس ، و خير الدين التونسي موظفا ساميا في الدولة ووزيرا للحربية ، ومحمد الصفار صدرا أعظما في الدولة المغربية، ومشرفا على عملية تعليم وتربية الأمراء ، وأسندت مهمة إصلاح جامعة القرويين لمحمد الحجوي .

\_\_ اندرج اهتمام النخب العربية بالتعليم بعد تشكل الوعي بالفارق العلمي والثقافي، ضمن العمل على تكوين نخب جديدة من خلال تحديث المؤسسات العلمية التقليدية كالأزهر والزيتونة والقرويين، وإقامة مدارس جديدة على الطراز الحديث، والعمل على إصلاح المجتمع قصد تشكيل وعي اجتماعي جديد يتجاوز العقل المبتدع ويجارب الشعوذة والخرافات التي انتشرت في جل البلدان العربية والإسلامية. ذلك أن مشروع الوعي المؤدي إلى النهضة والرقي الحضاري لتدارك واقع التجاوز الحضاري الأوربي، يقتضي أن نتجاوز العقلية الخرافية الاتكالية السالبة لإرادة الإنسان الفاعلة ، والغير المكثرتة بفاعلية الإنسان في الوجود ، وإحلال العقلية العلمية والمفكرة.

كما آمنت النخبة أيضا عن طريق الرحلة بمبدأ العقلانية منهجا في الفكر وفي العمل وفي بناء الدولة والمجتمع والفرد . وحاولت النخبة تأصيل عقلانيتها وشرعنتها من المأثور الإسلامي، من خلال نصوص قرآنية وحديثية ، وفيما أثر

من أقوال عن الخلفاء الراشدين وبعض علماء المسلمين كابن رشد وأبي حامد الغزالي وابن خلدون. كما أكدت جميعها على ضرورة المزاجية بين العلوم النقلية الشرعية والعلوم المادية والطبيعية لتحقيق الشهود الحضاري.

— حرصت النخب العربية بعد احتكاكها بالغرب على إصلاح المشهد السياسي بهدف بناء دولة عصرية تفرض النظام من خلال إعادة صياغة التعاقد الاجتماعي ، وإعادة هيكلة أسس الدولة ، ووضع دستور يضمن عليها المشروعية الضرورية . كما أن الإصلاح السياسي المقترح من طرف النخبة العربية المتأثرة بالتجربة السياسية الأوروبية لا يتمثل في المقابلة بين نموذجين من الماضي، نموذج الحاكم العادل كما جسده دولة الخلافة الراشدة ، ونموذج السلطان الشرعي كما جسده الدولة العثمانية، وإنما يتمثل الإصلاح في اقتباس نظام الحكم الحديث والقائم على البرلمان والتمثيل الواسع للمواطنين، على أن يحصل هذا الاقتباس بطريقة متدرجة تراعي خصائص الواقع المحلي.

كما تم التأكيد على نشر الحرية وتعزيزها في أوساط الأمة ، لا سيما الحرية السياسية والحرية العقلية ، هذه الأخيرة تمنح العقل الإنساني مشروعية التفكير والإبداع ، وترفع عنه حجاب الخوف من طرح رؤاه وأفكاره ، طالما أنها تهدف في النهاية إلى صالح المجتمع الذي أمر الله بإصلاحه وتطويره دائماً ، ولن يتحقق جو الحرية عند النخبة العربية إلا مع "سيادة القانون" ، فهو الضامن الوحيد لتأكيد وترسيخ "العدل" بين الناس ، هذا العدل الذي يتيح لكل الذوات الإنسانية الحق في ممارسة حقوقها وتأييدها واجباتها ..والحرية العقلية التي أشار إليها الرحالة لا تضر ثوابت الأمة من أمور العقيدة كالإيمان بالله وبرسوله وكتبه ....وما خلا ذلك يكون من حق الإنسان أن يجتهد فيه ويدلي فيه برأيه، وإذا أخطأ يناقش ولا يكفر ، والأنظمة السياسية هي القادرة على حماية "سيادة القانون" فليس ثمة سلطة تحمي القانون غيرها .

— حاول بعض المصلحين الاستفادة من بعض النظريات الاقتصادية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، التي استأثرت باهتمامهم خلال إقامتهم بالديار الأوروبية ، فكان الحديث في مشاريعهم الإصلاحية عن رأس المال وفائض القيمة وتوزيع الإنتاج وتنظيم الثروات، وتوفير التجهيزات الأساسية الحديثة ، مع العناية بقضايا الفلاحة والتجارة.

— عجت نصوص الرحلة المشرقية والمغربية بالعديد من المسائل الفقهية ، سواء منها التي طرحت على الفقيه أثناء إقامته بأوروبا، أو تلك التي طرحت على النخبة العاملة من جراء احتكاكها ب"الآخر" ، ومن خلال تحليلنا لهذه الفتاوى لاحظنا حضور الفكر المقاصدي الذي حرره الإمام الشاطبي في الموافقات وفي الاعتصام؛ حيث يعتبر أبرز من جعل مقاصد الشريعة أساس الاجتهاد، حتى يتمكن المجتهد في الإسلام من استيعاب تقلبات الواقع

الإنساني بكل تشعباته. وقد بدأ الاهتمام بالفكر المقاصدي واستحضاره في اجتهاداتهم في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، والعقد الأولى من القرن العشرين ، فالنخبة العاملة في هذه الفترة كثيرا ما اعتمدت العدة المقاصدية الشاطبية في اجتهاداتها المتصلة بحوادث المجتمع الإسلامي بعد تزايد الاحتكاك مع "الآخر" الأوروبي .

لم تنجح محاولات التحديث التي خاضها أهل المشرق والمغرب في العصور الحديثة ، ربما لأنها كانت محاولات رسمية آتية من الأعلى وغير متجذرة في المجتمع ، على عكس أوروبا التي حققت ذلك، لأنها كانت تتوفر على قاعدة ثقافية واقتصادية مؤهلة للتغيير ، وقامت فيها الأنظمة التعليمية بأدوار هامة، لأن العملية التربوية كانت مبنية على الواقع والتجربة والملموس ، على عكس النظام التعليمي بالمشرق الذي ظل مبنيا على الحفظ والتكرار والاختصار ورفض الإبداع والاجتهاد ، فبقيت التقاليد راسخة لأن القاعدة الاقتصادية والاجتماعية ظلت جامدة، ولم يكن المجتمع قابلا أو قادرا على التغيير لأنه لم يكن واعيا بأهميته ، لكون الإصلاحات لم تسبقها توعية للقاعدة الشعبية بمزايا الإصلاح، ولم يراعى في تطبيقها الشعور بالتحفظ تجاه الأجنبي والخوف من ان تكون مقدمة للتدخل الخارجي، لذا فقد كانت تصطدم بمعارضة الفقهاء والعامّة وحماة الوضع القائم.

لعب الاستعمار دورا كبيرا في إفشال التجارب الإصلاحية بالمجتمعات الإسلامية ، حيث عمل على اضعافها وتجريدها من كل المقومات السياسية والإقتصادية والمالية الضرورية لإنجاح التحديث والإصلاح ، فالغرب الأوروبي الذي كان دوما يسعى إلى تغريب العالم ويعمل على تصدير حضارته ومناهج حياته ومعتقداته وتأمين مصالحه عبر كل ذلك، لم يكن يقبل أن تؤول جهود الإصلاحات المستلهمة منه في اليابان في العهد الميجي ، أو البلدان العربية الإسلامية، إلى زعزعة أسس مشروع هيمنته على العالم .

لم يشهد الواقع السياسي والاجتماعي العربي المعاصر، وخلال القرن العشرين تحديدا ، وبداية القرن الواحد والعشرين، تحققا ماديا فعليا للمطالب النهضوية التي طرحت منذ النصف الأول من القرن التاسع ، وعبر عنها الإصلاحيون في حينه، فمجتمعاتنا العربية المعاصرة لم تنجز تنمية اجتماعية واقتصادية وتعليمية حقيقية تقضي على التخلف والتأخر والأمية، ولم تنجز إصلاحا ديمقراطيا يلغي الاستبداد السياسي ويؤمن الحقوق المدنية والسياسية للمواطنين . لذلك استمرت النخب العربية إلى يومنا هذا في طرح ذات الأسئلة : ماهي أولويات الإصلاح ، الدين أم الدولة أم المجتمع ؟ ماهو أنفع للناس ، حريتهم الفردية أم حقوقهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، أم السيادة الوطنية ؟ ماهي مكانة المرأة والاقليات في المجتمع الإسلامي؟ ماهي علاقة الدين بالشأن السياسي؟ ماهي الحدود الفاصلة بين العام والخاص ...؟

تتبدل الازمان، وتتغير ألوان الأجوبة وأشكال الأسئلة حسب تبدل الأزمان والظروف، لكن المنظومة الفكرية الإصلاحية في المجال المشرقي والمغربي على حد سواء لم تتجدد جوهريا منذ زمن الطهطاوي وخير الدين و الصفار...وقد زادت الإشكاليات الفكرية المرتبطة بالمنظومة الإصلاحية والحداثية تعقيدا بسبب بروز ظواهر سياسية واجتماعية وحضارية واقتصادية جديدة .

# لائحة المصادر والمراجع :

## 1- المصادر والمراجع المكتوبة باللغة العربية.

### أ - المصادر :

- ابن أبي الضياف، أحمد : إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك ملوك تونس وعهد الأمان، الدار التونسية للنشر، 1990.
- ابن بطوطة، محمد بن عبد الله: تحفة النظار في غرائب الأمصار، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987.
- ابن جبير، محمد بن أحمد: رحلة ابن جبير، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، 1964.
- ابن زيدان، عبد الرحمان : إتحاف أهل الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، المطبعة الوطنية، الرباط، 1931.
- ابن فضلان، أحمد بن فضلان بن راشد: رسالة ابن فضلان، تحقيق: سامي الدهان، دمشق، 1959.
- ابن زيدان، عبد الرحمان : والعز والصولة في معالم نظام الدولة، المطبعة الملكية، الرباط، 1962.
- ابن سودة، عبد السلام المري: دليل مؤرخ المغرب الأقصى، دار الكتاب، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1965.
- أفوقاي، أحمد الحجري : ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق وتقديم : محمد رزوق ، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي ، الطبعة الأولى، 2004 .
- الأقبصار، حسن كافي: أصول الحكم في نظام العالم، تحقيق : إحسان صدقي العمدة ، الكويت، الطبعة الأولى، 1987.
- بسترس، سليم: النزهة الشهية في الرحلة السليمية، تحرير: قاسم وهب، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبوظبي، الطبعة الأولى، 2003.
- بيرم، محمد الخامس: صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، المطبعة الإعلامية، مصر، الطبعة الأولى، 1885.
- الجبرتي، عبد الرحمن : عجائب الآثار في التراجم والأخبار، تحقيق: عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الأولى، 1997 .



- الجعدي، إدريس: **إتحاف الأخبار بغرائب الأخبار**، تحقيق وتقديم: عز المغرب مغنينو، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، الطبعة الأولى، سنة 2004 م.
- الحجوي، محمد : **مختصر العروة الوثقى في مشيخة أهل العلم والثقى**، تحقيق : محمد بن عزوز، مركز التراث الثقافي المغربي، دار ابن حزم ، الدار البيضاء ، 2003 .
- الحجوي، محمد: **الرحلة الأوروبية** ، تحقيق وتقديم: سعيد الفاضلي، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، الطبعة الأولى، 2003.
- الحجوي، محمد : **انتحار المغرب الأقصى بيد ثواره** ، تحقيق : الحلوني محمد الصغير ، تقديم : زكي مبارك، مطبعة المعارف الجديدة ، الرباط، 1994م
- رضا، رشيد : **تاريخ الأستاذ الإمام** ، دار الفضيلة، القاهرة، الطبعة الثانية، 1935 .
- زيادة، خالد: **ثلاث رحلات جزائرية**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت، الطبعة الأولى ، 1979.
- زيدان، جرجي: **رحلة إلى أوروبا**، تحقيق وتقديم : قاسم وهب، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، الطبعة الأولى، 2002 .
- زيدان، جرجي: **مشاهير الشرق** ، مطبعة الهلال ، القاهرة، الطبعة الأولى، بدون تاريخ.
- الشدياق ، فارس : **الساق على الساق** ، دار الرائد العربي، بيروت، الطبعة الأولى، 1982 .
- الشدياق، فارس : **غنية الطالب ومنية الراغب** ، مطبعة الجوائب، قسنطينية، الطبعة الأولى، 1888 .
- الشدياق، فارس : **كشف المخبا عن فنون أوروبا** ، مطبعة الجوائب، قسنطينية، الطبعة الثانية ، 1881.
- الشدياق، فارس: **الjasوس على القاموس** ، مطبعة الجوائب، قسنطينية، الطبعة الأولى، 1899 .
- الصفار، محمد : **رحلة الصفار إلى فرنسا، 1845-1846**، صدفة اللقاء مع الجديد، دراسة وتحقيق: سوزان ميلار، تعريب ومشاركة في التحقيق : خالد بن الصغير، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، سلسلة نصوص وأعمال مترجمة، رقم 2، مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة الأولى، 1995.
- الضعيف، محمد بن عبد السلام : **تاريخ الضعيف ( تاريخ الدولة السعيدة)**، تحقيق وتعليق وتقديم : أحمد العماري، دار المآثورات ، الرباط ، 1986.
- الطهطاوي، رفاعة رافع : **تخليص الابريز في تلخيص باريز** ، دار السويدي للنشر و التوزيع ، ابو ظبي، الطبعة الأولى ، 2002.

- الطهطاوي : الأعمال الكاملة، دراسة وتحقيق : عمارة محمد، دار الشروق ، القاهرة ، 2010.
- طوسون، عمر، البعثات العلمية في عهد محمد علي ثم في عهدي عباس وسعيد، مطبعة صلاح الدين ، الإسكندرية ، الطبعة الأولى ، 1934 .
- عبده، محمد : الإسلام دين العلم والمدنية، دراسة وتقديم : عاطف العراقي ، سينا للنشر والتوزيع، القاهرة ، 1988.
- عبده، محمد : الأعمال الكاملة، دراسة وتحقيق : عمارة محمد، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، 1980.
- العمراوي، إدريس: تحفة الملك العزيز بمملكة باريز، تحقيق وتقديم: زكي مبارك، مؤسسة التغليف للطباعة والنشر والتوزيع ، تطوان ، الطبعة الأولى ، 1889 .
- الغسال، الحسن بن محمد : الرحلة التتويجية لعاصمة البلاد الإنجليزية ، تحقيق وتقديم : عبد الرحيم مودن، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، الطبعة الأولى ، 2003.
- الغساني، الوزير: رحلة الوزير في افتكاك الأسير، تحرير وتقديم: النوري الجراح، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي ، الطبعة الأولى، 2004.
- الفاسي، الطاهر: الرحلة الإبريزية الى الديار الإنجليزية، تحقيق : الأستاذ محمد الفاسي، مطبعة جامعة محمد الخامس، الرباط، الطبعة الأولى، 1967.
- كرد ، علي محمد : غرائب الغرب ، المكتبة الأهلية ، مصر، الطبعة الأولى ، 1923.
- الكردودي، محمد : التحفة السنوية للحضرة الحسنية بالمملكة الاسبانية، تحقيق: عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط 1965 .
- السايح، عبد السلام : أسبوع في باريس، تحقيق وتقديم: سليمان القرشي، دار السويدي للنشر والتوزيع ، أبو ظبي ، الطبعة الأولى ، 2004.
- مبارك ، باشا علي: الأعمال الكاملة، تحقيق :محمد عمارة ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى، بيروت ، 1979.
- مبارك، علي : الخطوط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة ، المطبعة الكبرى الأميرية ، بولاق ، الطبعة الأولى، بدون تاريخ .
- المرش ، فتح الله فرنسيس : غابة الحق ، دار الحمراء للنشر والطباعة، بيروت، الطبعة الأولى، 1990 .

- المرامش ، فتح الله فرنسيس: رحلة إلى باريس، دار السويدي، دبي، الطبعة الثانية، 2004.
- المكناسي: البدر السافر لهداية المسافر إلى فكاك الأسارى من يد العدو الكافر، دراسة وتحقيق: مليكة الزاهدي، منشورات كلية الآداب، المحمدية، سلسلة الرسائل والأطروحات، رقم 7، الطبعة الأولى، 2005 .
- المكناسي، محمد ابن عثمان : الإكسير في فكاك الأسير، تحقيق وتقديم: الفاسي محمد ، المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، الطبعة الأولى، 1965.
- الملي، مبارك محمد الهيلالي : تاريخ الجزائر في القديم والحديث، مكتبة النهضة الجزائرية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الطبعة الأولى، 2009 .
- الناصري، خالد: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، وزارة الثقافة والاتصال ، الرباط ، 2001.
- نقولا، الترك : حملة بونابارت إلى الشرق، دراسة وتحقيق : أمل بشور، دار جروس برس، بيروت، الطبعة الأولى، 1993 .
- الونشريسي، أبي العباس أحمد بن يحيى : أسنى المتاجر، في بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر، وما يترتب عليه من العقوبات والزواجر، المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء افريقية والأندلس والمغرب، تخريج: مجموعة من الفقهاء، إشراف: الدكتور محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت.

## ب- المراجع .

- ابن الأصغر، محمد: أدب الرحلات في القرن التاسع عشر، سند الحركات الإصلاحية، دار الإتحاف للنشر، دار سنابل للنشر والتوزيع، تونس، الطبعة الأولى ، 2010 .
- ابن عاشور، محمد بن الطاهر: أليس الصبح بقريب، التعليم العربي الإسلامي، دراسة تاريخية وآراء إصلاحية ، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، الطبعة الأولى ، 2006.
- أبو القاسم، سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، بيروت، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، 1992.
- أبو حمدان، سمير : خير الدين التونسي ، أبو النهضة التونسية ، دار الكتاب العالمي، الطبعة الأولى، 1993.

- أفا، عمر: تاريخ المغرب المعاصر، دراسات في المصادر والمجتمع والإقتصاد، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، سلسلة بحوث ودراسات، رقم ، 34 ، مطبعة النجاح الجديدة ،الدار البيضاء ، الطبعة الأولى، 2001 .
- آفا، عمر : مسألة النقود في تاريخ المغرب في القرن التاسع عشر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، أكادير، 1988 الطبعة الأولى .
- أفاية، محمد نور الدين : الغرب المتخيل ،صورة الآخر في الفكر العربي الإسلامي ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، الطبعة الأولى ، 2000 م .
- أمين، أحمد : زعماء الإصلاح في العصر الحديث، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، بدون سنة .
- أمين، سمير : التطور اللامتكافئ ، دراسة في التشكيلات الاجتماعية للرأسمالية المحيطة ، ترجمة : برهان غليون، دار الطليعة للنشر والطباعة، بيروت ، الطبعة الرابعة، 1985 .
- أوجاق، أحمد بشار: الدولة العثمانية، تاريخ وحضارة، دراسة أولية عن الحياة الفكرية خلال عهد المغرب، إشراف وتقديم : إكمال الدين إحسان أوغلي، ترجمة: سعيد سعداوي ، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية ، استانبول ، 1999 .
- أولحاج، محمد: التصورات البيداغوجية الحديثة أسسها واتجاهاتها ومناهجها ، منشورات صدى التضامن ، الدار البيضاء، الطبعة الأولى ، 2002 .
- أومليل، علي: الإصلاحية العربية والدولة الوطنية ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، الطبعة الأولى، 1985 .
- الإيوبي، إلياس: تاريخ مصر الحديث ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، 1996 .
- باي، علي: رحلات عبر المغرب، ترجمة: مزوار الإدريسي، منشورات ليطوغراف، طنجة، الطبعة الأولى، 2008 .
- البرت، حوراني : الفكر العربي في عصر النهضة ، ترجمة : كريم عزقول، دار نوفل، بيروت، الطبعة الأولى، 1979 .
- البرعي، أحمد حسن، الثورة الصناعية وآثارها الاجتماعية والقانونية، دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الأولى ، 1976 .

- البزاز، محمد الأمين، تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية الرباط، سلسلة رسائل وأطروحات، رقم 18 ، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1992.
- بلقزيز، عبد الإله: الخطاب الإصلاحى في المغرب، التكوين والمصادر، دار المنتخب العربي للنشر والتوزيع ، بيروت، الطبعة الأولى ، 1997.
- بنعدادة، آسية : الفكر الإصلاحى في عهد الحماية ، محمد بن الحسن الحجوى نموذجاً ، الدار البيضاء، المركز الثقافى العربى ، الطبعة الأولى ، 2003 .
- بوزيان، عمر : جذور اتحاد المغرب والجزائر، 1832\_1845 ، منشورات عكاظ، المغرب، الطبعة الأولى، 1988 م .
- التوزاني، هراج نعيمة : الأمناء بالمغرب في عهد الحسن الأول، مساهمة في دراسة النظام المالى بالمغرب، مطبعة فضالة، المحمدية، 1979 .
- التيمومي، الهادي : تونس والتحديث ، 1831-1877 ، دار محمد علي للنشر، تونس، الطبعة الأولى، 2010 .
- ثريا، يرادة : الجيش المغربى وتطوره فى القرن التاسع عشر ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، سلسلة رسائل وأطروحات ، رقم ، 37 ، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1997.
- الجابري، عابد محمد : المشروع النهضوى العربى، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الأولى، 1996 .
- جاد، طه : معالم تاريخ مصر الحديث ، دار الفكر العربى ، القاهرة، الطبعة الأولى ، 1984 .
- جدعى، فهمى: أسس التقدم عند مفكرى الإسلام فى العالم العربى الحديث، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت ، الطبعة الأولى ، 2010 .
- جرمان، عياش : دراسات فى التاريخ المغربى، الشركة المغربية للناسرين المتحدین، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1986 .
- جلال، يحيى : مصر الحديثة ، 1517 - 1805 م ، المعارف ، الإسكندرية ، بدون تاريخ .

- جون، هارمان راندل: **تكوين العقل الحديث**، تعريب: جورج طعمة، دار الثقافة ، بيروت، الطبعة الثانية، 1966.
- الجيراري، عبد الله، **الشيخ المبدع محمد بن عبد السلام السايح** ، سلسلة شخصيات مغربية ، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة ، 1979.
- حجازي، فهمي : **أصول الفكر العربي الحديث عند الطهطاوي** ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ، الطبعة الأولى ، 1974 م .
- الحجوي، حسن أحمد: **العقل والنقل في الفكر الإصلاحي المغربي**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2003 .
- حراز، رجب : **الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب**، جامعة الدول العربية، القاهرة، الطبعة الأولى، 1970.
- حسن، عبد الغني : **حسن العطار** ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، 1993 م .
- الحلو، كرم : **الفكر الليبرالي عند فرنسيس المراش**، بنيته وأصوله وموقعه في الفكر العربي الحديث، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، سلسلة أطروحات الدكتوراه، رقم، 60 ، الطبعة الأولى ، 2006 .
- حنفي، حسن : "جدل الأنا والآخر ، دراسة في تلخيص الإبريز في تلخيص باريز للطهطاوي"، أعمال ندوة: **صورة الآخر العربي ناظرا ومنظورا إليه**، أيام 29،30،31 مارس 1993، تنظيم : مركز دراسات الوحدة العربية ، والجمعية العربية لعلم الاجتماع ، مدينة الحمامات، تونس، تحرير : الطاهر لبيب، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الأولى، 1999 ، صص. 283-311.
- حواش، محمد : **خطاب التضامن الإسلامي في ضوء حملة نابليون على مصر والشام وموقف المغرب منها**، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، 2013 .
- الحيمر، عبد السلام : **النخبة المغربية وإشكالية التحديث**، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى ، 2001.
- الحيمر، عبد السلام ، **المغرب لإسلام والحداثة**، سلسلة شرفات، منشورات الزمن، ع ، 15، 2005.
- داوود، محمد : **تاريخ تطوان**، المطبعة المهديّة، تطوان، 1965 .

- دوفوكو، شارل : التعرف على المغرب (1883-1884) ترجمة: المختار بلعربي، دار الثقافة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1999.
- ذاك، عبد النبي: المغرب وأوروبا، نظرات متقاطعة ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة بن زهر، الطبعة الثانية، 2007.
- ذهني، الهام علي: مصر في كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين في القرن الثامن عشر، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، الطبعة الأولى، 1992 م .
- الراعي، علي : المسرح في الوطن العربي ، عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت ع، 25 ، 1979 .
- الرفاعي، عبد الرحمان : تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم بمصر، دار المعارف، مصر، الطبعة الأولى 1987.
- الرفاعي، عبد الرحمان : عصر إسماعيل ، دار المعارف ،القاهرة ، الطبعة الرابعة، 1987م. جزآن .
- الرفاعي، عبد الرحمان : عصر محمد علي ، مصر ، دار المعارف ، الطبعة الخامسة، 1979م .
- رضا ، رشيد : تاريخ الأستاذ الإمام، دار الفضيلة، القاهرة، الطبعة الثانية، 1935 .
- رفعت، محمد : تاريخ مصر السياسي في الأزمنة الحديثة، ج ، 1 ، المطبعة الأميرية بولاق ، القاهرة ، 1924
- رثيف، خوري : الفكر العربي الحديث، أثر الثورة الفرنسية في توجيهه السياسي والاجتماعي، منشورات وزارة الثقافة ، الطبعة الثالثة ، 1993 .
- الزركلي ، خير الدين : الأعلام ،دار العلم للملايين، بيروت ، الطبعة السابعة ، 1987.
- زيادة، خالد : اكتشاف التقدم الأوروبي، دراسة في المؤثرات الأوروبية على العثمانيين في القرن الثامن عشر، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى، 1979 .
- زيادة، خالد : الإصلاح العثماني في القرن الثامن عشر، نقد حالة الفن العسكري والهندسة والعلوم في القسطنطينية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، 1979 .
- زيادة، خالد : المسلمون والحداثة الأوربية ، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى ، 2010.
- زيادة، خالد : تطور النظرة الإسلامية إلى أوروبا ، معهد الإنماء العربي، بيروت ، الطبعة الأولى ، 1983م.

- زيادة، خالد: العلماء والفرنسيس في تاريخ الجبرتي ، رياض الريس للمكتب والنشر، الطبعة الأولى، 2008.
- سبيلا ، محمد :المغرب في مواجهة الحداثة ، منشورات الزمن، مطبعة النجاح الجديدة ، الطبعة الثانية، 2005 م.
- السورطي ، يزيد عيسى : السلطوية في التربية العربية ، عالم المعرفة ، الكويت ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، عدد 362 ، 2009 .
- سيار، جميل : تكوين العرب الحديث، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الطبعة الأولى ، 1997م.
- الشابي، مصطفى : النخبة المخزنية في مغرب القرن التاسع عشر ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بني ملال، سلسلة رسائل وأطروحات ، رقم ، 26 ، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء الطبعة الأولى ، 1995 م.
- الشاذلي، عبد اللطيف : "مسألة الانتماء من خلال رحلة التمكروتي الى القسطنطينية سنة 1590 م"، أعمال ندوة : الرحالة العرب والمسلمون ، اكتشاف الآخر، المغرب منطلقا وموتلا، أيام: 14،15،16،17 نونبر 2003، تنظيم: وزارة الثقافة بتعاون مع المشروع الجغرافي العربي ارتياد الآفاق ، أبو ظبي ، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2003م، صص 37-46.
- شاكر، محمود محمد : أباطيل وأسمار ، مكتبة الخانجي ، الطبعة الثالثة ، 2005 .
- الشاوي، عبد القادر : التخلف والنهضة، حول الفكر الإصلاحى بالمغرب في بداية القرن العشرين، منشورات الموجة، الدار البيضاء ، الطبعة الأولى، 1998م ،
- شبار، سعيد : الاجتهاد والتجديد في الفكر الإسلامى المعاصر، دراسة في الأسس المرجعية والمنهجية، المعهد العالمى للفكر الإسلامى ، الطبعة الأولى ، 2007 م.
- الصاوي، أحمد حسين : فجر الصحافة في مصر ، دراسة في إعلام الحملة الفرنسية ، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة ، الطبعة الأولى ، 1975.
- الصغير، عبد المجيد : الخطاب الإصلاحى العربى بين منطق السياسة وقيم المفكر، رؤية للنشر والتوزيع ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، 2011 .
- صلح، عماد : أحمد فارس الشدياق وآثاره وعصره، شركة المطبوعات للنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى، 1987م.



- صولة، عبد الله : الفكر الإصلاحى عند العرب فى عصر النهضة ، دار الجنوب للنشر ، تونس ، الطبعة الأولى، 1992 .
- الصولى، علي: الدين والدولة والمجتمع فى مواقف وآثار محمد بىرم الخامس، دار الطليعة الجديدة، الطبعة الأولى ، 2003م .
- الضيقة، حسن : دولة محمد علي والغرب ، الاستحواذ والاستقلال ، المركز الثقافى العربى، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2002م.
- طرازي ، فيليب دي : تاريخ الصحافة، المطبعة الأدبية، بيروت، الطبعة الأولى ، 1913 .
- عبد السلام ، أحمد : مواقف إصلاحية فى تونس قبل الحماية ، الشركة التونسية للتوزيع، تونس ، الطبعة الأولى، 1986.
- عبد العزيز بن عبد الله: السفارات والسفراء بالمغرب عبر التاريخ ،المعهد الوطنى للدراسات القضائية، مطبعة الساحل، الرباط ، الطبعة الأولى، 1985.
- عبد الغنى، مصطفى: الجبرتى والغرب، رؤية حضارية مقارنة، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الأولى ، 1995 .
- العروى : تاريخ المغرب محاولة فى التركيب، ترجمة : ذوقان قرقوط، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ، الطبعة الأولى، 1977.
- العروى، عبد الله : مجمل تاريخ المغرب، المركز الثقافى العربى، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1999م.
- عزت، عبد الكرىم : تاريخ التعليم فى مصر، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة ، الطبعة الأولى، 2011.
- العشماوى، سعيد : مصر والحملة الفرنسية، الهيئة العامة المصرية للكتاب، الطبعة الأولى، 1997 م .
- العلوى، سعيد بن سعيد : الاجتهاد والتحديث ، دراسة فى أصول الفكر السلفى فى المغرب ، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ، الطبعة الثانية ، 2001 .
- العلوى، سعيد بن سعيد : أوروبا فى مرآة الرحلة صورة الآخر فى أدب الرحلة المغربية المعاصرة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، الرباط ، سلسلة بحوث ودراسات ، رقم ، 12، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1995.

- عمارة، محمد: علي مبارك ، مؤرخ ومهندس العمران ، دار الشروق ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، 1988.
- عمارة، محمد : فكر التنوير بين العلمانيين والإسلاميين ، نخضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، 2007 .
- عمارة، محمد : الإسلام والمرأة في رأي الإمام محمد عبده ، كتاب الهلال، ع ، 374 ، مصر، الطبعة الأولى، 1979.
- عمارة، محمد : رفاة الطهطاوي ، رائد التحديث في الوطن العربي، بيروت، دار الوحدة، الطبعة الأولى، 1984.
- العماري، أحمد : نظرية الاستعداد في المواجهة الحضارية للاستعمار : المغرب نموذجا، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، سلسلة الرسائل الجامعية رقم ، 20 ، الطبعة الأولى ، 1996 .
- الغزالي، أبو حامد : المستصفى في علم الأصول، تحقيق : محمد عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت ، الطبعة الأولى ، 1984 م.
- الفاسي، علال : حفريات عن الحركة الدستورية، في المغرب قبل الحماية ، مطبعة الرسالة، الرباط.
- فرنسوا، جيزو : كتاب التحفة الأدبية في تاريخ تمدن الممالك الأوروبية، دار الحمراء، بيروت، الطبعة الأولى، 1990 م .
- فريد، محمد بك المحامي : تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق : إحسان حقي، بيروت، دار النفائس، الطبعة الثانية ، 1961 .
- فهمي، خالد : محمد علي وجيشه وبناء مصر الحديثة ، ترجمة: شريف يونس، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الأولى ، 2001.
- فهميم، حسين : أدب الرحلات، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، عدد، 138، يونيو، 1989.
- فوزي، حسين النجار : علي مبارك أبو التعليم، دار الكتب العربي ، القاهرة ، الطبعة الأولى، 1967م.
- فوزي، عبد الرزاق: مملكة الكتاب، تاريخ الطباعة في المغرب 1865- 1912 ، تعريب : بن الصغير، خالد، منشورات كلية الآداب بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة الأولى، 1996 .

- قاسم، محمود : الإمام عبد الحميد بن باديس، الزعيم الروحي التحريري الجزائرية ، الجزائر، الطبعة الثانية ، 1979.
- قحيف، أمان عبد المومن، إشكالية التقدم في العلم الإسلامي: دراسة تحليلية في فكر رفاة الطهطاوي، دار النهضة العربية، بيروت، الطبعة الأولى، 2002 .
- القدوري، عبد المجيد: سفراء مغاربة في أوروبا، في الوعي بالتفاوت، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط ، سلسلة بحوث ودراسات رقم ، 13، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1995.
- القدوري، عبد المجيد : المغرب وأوروبا ما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر، مسألة التجاوز، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2000.
- الكتاني، محمد : الصراع بين القديم والجديد في الأدب العربي الحديث، دار الثقافة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1982 م .
- كريستوفر، هيروولد : بونابارت في مصر، ترجمة : فؤاد أندراوس، مراجعة محمد أحمد أنيس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1986 .
- كريكن، فان : البلاد التونسية وخير الدين التونسي ، 1850-1881 ، ترجمة : البشير بن سلامة، دار سحون، تونس ، الطبعة الأولى ، 1988.
- الكواكي، عبد الرحمان : طبائع الاستبداد ومصارع الاستبداد، تحقيق وتقديم : محمد فتحي أبو بكر، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، الطبعة الأولى، 2012 .
- الكيالي، سامي : محاضرات عن الحركة الأدبية في حلب، معهد الدراسات العربية العالية، الطبعة الأولى، 1957 .
- الكيلاني، شمس الدين : صورة أوروبا عند العرب في العصر الوسيط، دار الثقافة، سوريا، الطبعة الأولى، 2004 م.
- كيلاني، محمد سيد : في ربوع الأزيكية ، دار العرب للبستاني ، مصر ، الطبعة الأولى ، 1958م.
- لوتسكي : تاريخ الأقطار العربية الحديث ، دار الفارابي ، بيروت ، الطبعة التاسعة، 1997م.
- مالكي، محمد : الحركات الوطنية والإستعمار في المغرب العربي ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت، سلسلة أطروحات الدكتوراه ، رقم ، 20 ، الطبعة الأولى ، 1994 .

- مجدي، صالح :حلية الزمن بمناقب خدام الوطن، سيرة رفاة الطهطاوي ، القاهرة، الطبعة الأولى، 1958.
- المحافظة، علي: الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى، 1983 .
- مرتاض، عبد المالك : الجدل الثقافي بين المغرب والمشرق ، دار الحداثة للطباعة والنشر ، بيروت ، الطبعة الأولى، 1982.
- المكاوي، أحمد : الرحالون المغاربة وأوروبا، جذور للنشر، الرباط، الطبعة الأولى، 2007.
- المكاوي، أحمد : المغرب في تاريخه المنسي، جوانب من تاريخ المغرب الحديث بعيون عربية، جذور للنشر ، الطبعة الأولى ، 2006.
- المكاوي، أحمد : نهضة اليابان في عهد الميجي من منظور عربي إسلامي، مؤسسة مفاتيح العلوم، العرائش، الطبعة الأولى ، 2013.
- المنوني، محمد:مظاهر يقظة المغرب الحديث، دار الغرب الإسلامي ، بيروت، الطبعة الثانية، 1985.
- المنوني، محمد: المصادر العربية لتاريخ المغرب، من الفتح الإسلامي إلى نهاية العصر الحديث، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1983 م.
- مؤنس، حسين : الشرق الإسلامي، ترجمة : محمد شفيق غربال، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، الطبعة الثانية، 1983.
- ميشيل، روسي، المؤسسات الإدارية المغربية، ترجمة : براهيم الزياتي، مطبعة النجاح الجديدة البيضاء، 1993.
- الناجي، محمد : التوسع الأوربي والتغيير الاجتماعي في المغرب ق 16- 19 ، ترجمة: حزل عبد الرحيم ، جذور للنشر، الطبعة الأولى، الرباط، 2004 .
- نازك ، سابيارد : الرحالون العرب وحضارة الغرب، مؤسسة نوفل، بيروت، الطبعة الأولى، 1979 .
- النجار، عبد المجيد : مشاريع الإشهاد الحضاري، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، 1999م. 3 أجزاء.

- نفوسة، زكرياء سعيد: **تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر**، دار النشر للثقافة بالإسكندرية، الطبعة الأولى، 1964م.
- هنري، لورنس: **الحملة الفرنسية في مصر**، ترجمة : بشير السباعي، سينا للنشر، القاهرة، الطبعة الأولى، 1995 .
- ياغي، أحمد اسماعيل: **الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث**، مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة الأولى، 1996 .
- **ج - المقالات .**
- بلقزيز عبد الإله : "إطالة على الدولة في الفكر الإسلامي المعاصر"، مجلة المنطلق الجديد : **قراءة النص القرآني وشروط التجديد**، ع،9، 2006 ، صص.97-110.
- بنحادة، عبد الرحيم : "انتقال المعارف العسكرية في العالم المتوسطي قبل عصر التنظيمات ، أعمال ندوة: **انتقال الأفكار والتقنيات في المغرب والعالم المتوسطي**، تنسيق : عبد الرحيم بنحادة وعبد الرحمن المودن ومحمد الأزهري الغربي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم ، 160 ، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، صص . 23\_35 .
- بنحادة، عبد الرحيم: "بين الرحلة السفارية والتقرير الدبلوماسي، السفارتنامة العثمانية"، أعمال ندوة: **التاريخ والدبلوماسية، قضايا المصطلح والمنهج**، تنسيق : عبد المجيد لقدوري منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 105، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء الطبعة الأولى، 2003 ، صص . 102-110 .
- حنفي، حسن : "جدل الأنا والآخر ، دراسة في تلخيص الإبريز في تلخيص باريز للطهطاوي"، أعمال ندوة: **صورة الآخر العربي ناظرا ومنظورا إليه**، أيام 29،30،31 مارس 1993، تنظيم : مركز دراسات الوحدة العربية ، والجمعية العربية لعلم الاجتماع ، مدينة الحمامات، تونس، تحرير : الطاهر لبيب، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الأولى، 1999 ، صص. 283-311.
- حواش، محمد : "منظومة القيم الغربية وبعيون إسلامية زمن الحملة الفرنسية على مصر وبدايات الوعي بالتجاوز الحضاري"، أعمال ندوة : **سؤال الأخلاق والقيم في عالمنا المعاصر**، سلسلة ندوات الرابطة المحمدية للعلماء ، رقم، 4 ، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، الرباط، الطبعة الأولى، 2012.

- خليفة، شعيب : "الرحلة المغربية إلى أوروبا، النص والصورة"، أعمال ندوة : الرحالة العرب والمسلمون، اكتشاف الآخر، المغرب منطلقا وموتلا، أيام : 14،15،16،17 نونبر 2003، تنظيم: وزارة الثقافة بتعاون مع المشروع الجغرافي العربي ارتباد الآفاق، أبو ظبي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2003م، صص . 116-103 .
- زروق، محمد: "العلاقات المغربية التركية من خلال أدب الرحلات، كتاب التفحة المسكية في السفارة التركية نموذجا"، أعمال ندوة: أدب الرحلة في التواصل الحضاري ، أيام: 21-22-23 أبريل 1993، تنظيم: كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، مكناس، سلسلة الندوات ، رقم ، 5 ، الطبعة الأولى، 1993م ، صص . 355-349 .
- زيادي أحمد: "المشاريع الدستورية والسياسية المغربية في مطلع القرن العشرين"، مجلة المناهل : تجربة الإصلاح في المغرب، وزارة الثقافة المغربية، عدد مزدوج ، 69 / 70 ، يناير ، 2004 .
- سمير، طه : "الحياة الثقافية في عهد اسماعيل"، أعمال الندوة العلمية : دراسات في تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي في العصر العثماني، تنظيم : هيئة فولبرايت، دجنبر 1996 ، دار الآفاق العربية، القاهرة، الطبعة الأولى، 1997، صص . 172\_166 .
- التيمومي ، عبد الهادي : "خير الدين في عيون الكادحين التونسيين : نعمة أم نقمة "، أعمال ندوة: خير الدين التونسي، يوم : 4 ماي، 2010، تنظيم : المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، بيت الحكمة ، قرطاج، الطبعة الأولى، 2011 م صص . 305- 197 .
- الشاذلي، عبد اللطيف : "مسألة الانتماء من خلال رحلة التمكروتي الى القسطنطينية سنة 1590 م"، أعمال ندوة : الرحالة العرب والمسلمون ، اكتشاف الآخر، المغرب منطلقا وموتلا، أيام: 14،15،16،17 نونبر 2003، تنظيم: وزارة الثقافة بتعاون مع المشروع الجغرافي العربي ارتباد الآفاق ، أبو ظبي ، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2003م، صص . 46-37 .
- الشريف ، محمد الهادي : "مشكلة الإصلاحات بتونس وارتباطها بمسألة العلاقات التونسية - العثمانية حوالي 1840م"، أعمال ندوة: الإصلاح والمجتمع المغربي في القرن التاسع عشر، أيام : 21-22-23 أبريل 1983، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم ، 7 ، 1983، صص.141-133 .

- العلوي، بنسعيد: "السلفية والإصلاحية في الفكر الإسلامي المعاصر"، ضمن، إشكاليات الفكر الإسلامي المعاصر، مركز دراسات العالم الإسلامي، الطبعة الأولى، 1991 .
- الغاشي، مصطفى، "مغربي في مصر خلال القرن التاسع عشر، رحلة الغيغائي الحجازية"، أعمال ندوة : السفر في العالم العربي الإسلامي ، التواصل والحدثة، المنعقدة أيام : 27\_26\_25 ماي 2002، مراكش ، تنظيم : « وحدة التكوين والبحث : المغرب والعالم العربي الإسلامي 1500-1900»، تنسيق: عبد الرحمن المودن وعبد الرحيم بنحادة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم، 108 ، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2003 .
- المكاوي ، أحمد : " التحديث الأوروبي في مصر خلال القرن التاسع عشر ضمن كتابات مغربية " ، ندوة: "العلاقات المغربية - المشرقية" ، تنظيم : «مجموعة الدراسات والأبحاث في العلاقات المغربية المشرقية»، كلية الآداب، بني ملال، أيام: 17-18 مارس 1994، صدرت تحت عنوان : المغرب- المشرق: العلاقات والصورة، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ، 1999 ، صص . 83-111.
- المكاوي، أحمد : "الهدية في العلاقات بين المغرب وأوربا ( رصد أولي )" ضمن كتاب جماعي تحت عنوان: وقفات في تاريخ المغرب ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، مطبعة النجاح الجديدة ، سلسلة بحوث ودراسات، رقم 27، صص. 321-326 .
- النيفر، أميمة : "النخب والوعي السني " ، مجلة التسامح، وزارة والأوقاف والشؤون الدينية ، عدد 13، 2007 ، صص. 75\_85 .
- زكي، مبارك: الرحلة إلى الشرق والرحلة إلى الغرب وحركة التنوير والتحديث بالمغرب، مجلة المناهل : أسئلة الإصلاح في المغرب الحديث، وزارة الثقافة المغربية، عدد مزدوج، 94/93، نونبر 2011، صص. 11-46.

## 2-مراجع مكتوبة باللغة الفرنسية.

- , Miege, J.L : Le Maroc et l'Europe,1830-1894,Les difficultés , P.U.F, Paris, 1961 .
- Laroui, Abdellah : Les origines sociales et culturelles du nationalisme marocain, 1912-1930, Francois ,Maspero,paris,1977.

- Timooule abdelkade:le Maroc à travers les chroniques mariitimes, tome1 , 1989.

### 3- كتب إلكترونية :


- حافظ، ابراهيم : ليالي سطيح ، www.kalimat.org ، تاريخ التحميل: 11-09-2012 .
- الطهطاوي، رفاة:التحفة المكتبية لتقريب اللغة العربية ، www.almostafa.com ، تاريخ التحميلة، 10-10-2012.
- العطار : حاشية العطار على شرح الخبيصي، مكتبة الإسكندرية، تاريخ التحميل، 12-03-202 .
- العطار، حسن:حاشية العطار على جمع الجوامع،:www.Bibliothica alixandrina.com ، تاريخ التحميل : 12-03-2012.
- فوزي، محمد عبد المقصود: الفكر التربوي للأستاذ محمد عبده وآلياته في تطوير التعليم، www.kotobarabia.com . تاريخ التحميل، 16\_10-2013.
- المولى عبد الحفيظ : داء العطب قديم، www.chikh skirj.com ، تاريخ التحميل: 12-2012\_04 .
- يونان لبيب رزق : تحديث مصر في عهد محمد علي www.almostafa.com ، تاريخ التحميل: 15-10-2011 .









|     |    |        |   |
|-----|----|--------|---|
| 452 | 58 | النساء | <p>  </p> |
|-----|----|--------|---|

## فهرس الأحاديث:

| الصفحة | مخرج الحديث         | الحديث  |
|--------|---------------------|---|
| 47     | أبوداود             | كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار   |
| 47     | أبوداود             | من تشبه بقوم، فهو منهم  |
| 89     | الألباني            | اطلبوا العلم ولو بالصين   |
| 348    | ابن الحجر العسقلاني | هل كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يضحكون؟ قال: نعم، والإيمان في قلوبهم مثل الجبال الرواسي   |
| 348    | ابن ماجة            | أعوذ بالله من دعاء لا يسمع، وقلب لا يخشع، وعلم لا ينفع  |
| 350    | مسلم                | إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له  |
| 356    | الترمذي             | من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين ، فرب مبلغ أوعى من سامع  |
| 388    | أحمد وأبو داود      | الخلافة في أمتي ثلاثون سنة، ثم ملك بعد ذلك. قال سعيد بن جهمان : ثم قال سفينة : أمسك : خلافة أبي بكر ، وخلافة عثمان، ثم قال : أمسك : خلافة علي، فوجدناها |

|     |          | ثلاثين سنة  |
|-----|----------|---|
| 397 | ابوداود  | إن الدين النصيحة " ثلاث مرات، قلنا لمن يا رسول الله ؟ قال : لله ولكتابه ورسوله ولأئمة المسلمين ولعامتهم   |
| 397 | مسلم     | إن الله يرضى لكم ثلاثا ، ويسخط لكم ثلاثا، يرضى لكم أن تعبدوه وحده، ولا تشركوا به شيئا، وأن تعصموا بحبل الله جميعا، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم |
| 410 | مسلم     | ألا إن القوة الرمي  |
| 414 | أبو داود | لا يدخل الجنة صاحب مكس  |

|     |           |  |
|-----|-----------|--|
| 452 | البخاري   | سيكون عليكم أمراء يعسفون وما يعلم الله بهم أكثر، فإن أحسنوا فلهم الأجر وعليكم الشكر، وإن أساؤوا فعليهم الوزر وعليكم الصبر، إلا إن أمروا بكفر أو معصية، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق |
| 455 | لا أصل له | استوصوا بالذمة خيرا  |
| 455 | ابن عدي   | واحفظوني في ذمتي   |
| 455 | السيوطي   | ومن آذى لي ذميا فأنا خصمه  |
|     | ابوداود   | والدين النصيحة لله ورسوله وأئمة المسلمين وعامتهم، بما يجب من الوعي لذمة الإسلام ... من النظر في أهل الذمة بما أمر الله به من العدل في عباده، بسائر أرضه وبلاده سواء في ذلك المسلم غيره |
| 455 | البيهقي   | إذا افتتحتم مصرَ فاستوصوا بالقبطِ خيراً، فإنَّ لهم ذمةً ورحماً   |

## فهرس المحتويات:

|  |    |
|--|----|
| 1- مقدمة عامة:   | 1  |
| 1- بسط الموضوع:  | 1  |
| 2- طرح الإشكالية:  | 12 |
| الباب الأول:   | 29 |
| الرحلات العربية إلى أوروبا   | 29 |
| السياق والخصوصية.  | 29 |
| مقدمة الباب:   | 30 |
| الفصل الأول : الرحلة المشرقية الحديثة إلى أوروبا.                              | 32 |
| المبحث الأول : السفارتنامة العثمانية إلى أوروبا وبدايات                        | 32 |
| المطلب الأول : السياق التاريخي للرحلة العثمانية.                               | 33 |
| المطلب الثاني: السفارتنامية العثمانية وتجليات الوعي بالتجاوز الحضاري الأوروبي. | 35 |
| المبحث الثاني : الرحلة المصرية الى أوروبا .                                    | 47 |
| المطلب الأول : الحملة الفرنسية على مصر وتنامي الرغبة في معرفة الآخر.           | 47 |
| 1- تجليات الوعي بالتجاوز الحضاري عند النخبة العالمية زمن الحملة الفرنسية .     | 50 |
| أ : إقرار النخبة العالمية بقوة الجيش الفرنسي ودقة تنظيمه .                     | 50 |
| ب : تنويه النخبة المصرية بقيم العلم والتعلم عند الفرنسيين .                    | 55 |

|  |    |
|--|----|
| 59..... ج : إعجاب النخبة المصرية بقيم العمل والإنتاج عند الفرنسيين :       | 59 |
| 62..... د : تعرف النخبة المصرية على التنظيمات السياسية الحديثة :           | 62 |
| 2- الحملة الفرنسية وتنامي رغبة المشاركة في معرفة أسرار الحضارة الأوروبية . | 68 |
| 71 المطلب الثاني : استعراض نماذج من الرحلات المصرية الى أوروبا.            | 71 |
| 71... 1- رفاة رافع الطهطاوي و"تلخيص الإبريز في تلخيص باريز" .              | 71 |
| 71..... أ : التعريف بالمؤلف:   | 71 |
| 71..... ولد في مدينة طهطا بصعيد  | 71 |
| 71..... بعد تخرجه زاول التدريس   | 71 |
| 72..... وقد سائر الطهطاوي  | 72 |
| 72..... ب : التعريف برحلة الطهطاوي :                                       | 72 |
| 80..... 2- رحلة محمد علي مبارك " علم الدين "                               | 80 |
| 80..... أ : التعريف بالمؤلف :  | 80 |
| 81..... ب: التعريف برحلة محمد علي مبارك :                                  | 81 |
| 88..... 3- رحلة محمد عبده: رحلة إلى صقلية                                  | 88 |
| 88..... أ -التعريف بالمؤلف:  | 88 |
| 90..... التعريف برحلته :   | 90 |
| 96..... المبحث الثالث:الرحلة الشامية إلى أوروبا.                           | 96 |
| 96..... المطلب الأول : السياق التاريخي.                                    | 96 |
| 98..... المطلب الثاني : نماذج من الرحلات الشامية إلى أوروبا                | 98 |
| 98..... 1- فارس الشدياق : " كشف المخبأ عن فنون اوربا".                     | 98 |



|  |     |
|--|-----|
| أ- التعريف بالمؤلف : .....   | 98  |
| ب: التعريف برحلة الشدياق : .....   | 99  |
| 2- فتح الله مراش الحلبي: "رحلة الى باريس" .....                              | 105 |
| أ : التعريف بالمؤلف .....  | 105 |
| ب : التعريف برحلة المراش: .....  | 106 |
| الفصل الثاني : .....   | 111 |
| التعريف بالرحلات المغربية وسياقها التاريخي. ....                             | 111 |
| المبحث الأول : الرحلة الجزائرية إلى أوروبا. ....                             | 112 |
| المطلب الأول : السياق التاريخي للرحلة الجزائرية . ....                       | 112 |
| المطلب الثاني :التعريف بالرحلات الجزائرية . ....                             | 116 |
| "1_ رحلة سليمان بن الصيام : "الرحلة الصيامية .....                           | 116 |
| 2-رحلة أحمد ولد قاد : "الرحلة القادية في مدح فرنسا وتبصير أهل البادية". .... | 120 |
| _ رحلة الشيخ الفغون القسنطيني "الوفد الجزائري من رؤساء العرب 3 .....         | 124 |
| ورحلتهم إلى محروسة باريز. ....   | 124 |
| المبحث الثاني : الرحلة التونسية إلى أوروبا .....                             | 125 |
| المطلب الأول : السياق التاريخي للرحلة التونسية إلى أوروبا. ....              | 126 |
| المطلب الثاني :استعراض نماذج من الرحلات التونسية الى أوروبا . ....           | 128 |
| 1_ رحلة ابن ابي الضياف الى فرنسا 1846. ....                                  | 128 |
| أ : التعريف بالمؤلف : .....  | 128 |
| ب: التعريف برحلته: .....   | 129 |

|                 |  |
|-----------------|--|
| 133             | ..... 2 -خير الدين باشا " أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك".    |
| 133             | ..... أ : التعريف بالمؤلف:   |
| 134             | ..... ب: التعريف برحلته :  |
| 3               | - رحلات محمد بيرم الخامس : "صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار          |
| 139             | ..... والأقطار"  |
| 139             | ..... أ- التعريف بالمؤلف :   |
| 140             | ..... ب _ التعريف برحلات بيرم الخامس:                              |
| 145             | ..... 4- رحلة محمد السنوسي : الرحلة الحجازية                       |
| 145             | ..... أ: التعريف بالمؤلف.  |
| 145             | ..... ب: التعريف بالرحلة.  |
| 151             | .....المبحث الثالث: الرحلة المغربية إلى أوروبا.                    |
| المطلب الأول:   | رحلات المغاربة في القرن الثامن عشر، لحظة الوعي                     |
| 152             | ..... بالتفاوت مع مغالطة الذات.                                    |
| 1               | -السياق التاريخي للرحلة المغربية الى أوروبا خلال القرن الثامن عشر: |
| 152             | .....  |
| 2-              | الوعي بالتفاوت عند الرحالة المغاربة في القرن الثامن عشر، رحلات     |
| 155             | ..... ابن عثمان المكناسي نموذجاً:                                  |
| 155             | ..... أ- التعريف بالمؤلف :   |
| ب-              | التعريف برحلات ابن عثمان وتجليات "الوعي بالتفاوت ومغالطة           |
| 156             | ..... الذات ":   |
| المطلب الثاني : | الرحلة المغربية خلال القرن التاسع عشر "لحظة الوعي                  |
| 162             | ..... بالتجاوز " .   |

|  |     |
|--|-----|
| 162 ..... 1- السياق التاريخي لرحلات المغاربة خلال القرن التاسع عشر : | 162 |
| 167 2- استعراض نماذج من الرحلات المغربية خلال القرن التاسع عشر.      | 167 |
| 167 ..... أ : رحلة محمد الصفار إلى فرنسا. "صدفة اللقاء مع الجديد".   | 167 |
| 167 ..... - التعريف بالمؤلف:   | 167 |
| 168 .....-التعريف برحلة محمد الصفار إلى فرنسا :                      | 168 |
| ب - رحلة ابن ادريس العمراوي : "تحفة الملك العزيز بمملكة باريز"       | 173 |
| 173 .....  | 173 |
| 173 .....-التعريف بالمؤلف :  | 173 |
| 174 ..... - التعريف بالرحلة :  | 174 |
| 177 _ رحلة إدريس الجعيدي: " تحفة الأخيار بغرائب الأخبار " 3          | 177 |
| 177 .....-التعريف بالمؤلف :  | 177 |
| 177 ..... - التعريف برحلته :   | 177 |
| المطلب الثالث: الرحلة المغربية الى أوربا بداية القرن العشرين "لحظة   |     |
| 181 ..... تعميق الوعي بالتجاوز والرغبة في اللحاق بالآخر".            | 181 |
| 181 ..... 1- السياق التاريخي :                                       | 181 |
| 183 ..... 2- استعراض نماذج من الرحلات المغربية في فترة الحماية .     | 183 |
| 183 ..... أ :- رحلة محمد الحجوي : "الرحلة الأوربية" .                | 183 |
| 183 ..... - التعريف بالمؤلف:   | 183 |
| 186 ..... التعريف بالرحلة :  | 186 |
| 192 ..... أسبوع في باريس" . ب رحلة ابن عبد السلام السائح :           | 192 |
| 192 ..... - التعريف بالمؤلف:   | 192 |
| 193 ..... - التعريف برحلته :   | 193 |

|     |   |
|-----|---|
| 196 | ..... خلاصات جزئية للباب الأول :  |
| 198 | ..... الباب الثاني :  |
| 198 | ..... تجليات الوعي بالتجاوز الحضاري من خلال الرحلات العربية الحديثة             |
| 199 | ..... مقدمة الباب :   |
| 200 | ..... الفصل الأول:  |
| 200 | ..... تجليات وعي المشاركة بالتجاوز الحضاري.                                     |
| 201 | ..... المبحث الأول : المجال العسكري   |
| 201 | ..... المطلب الأول : تحديث مؤسسة الجيش في عهد محمد علي .                        |
| 203 | ..... المطلب الثاني : ضالة الحضور العسكري الأوروبي في النصوص الرحلية المشرقية . |
| 204 | ..... المبحث الثاني : المجال التعليمي والتربوي .                                |
| 204 | ..... الوضع التعليمي بالمشرق ومسألة التجاوز. المطلب الأول:                      |
| 209 | ..... المطلب الثاني: تجليات الوعي بالتجاوز العلمي في المتن الرحلي المشرقي :     |
| 209 | ..... 1-قوة انتشار المعارف والفنون.   |
| 213 | ..... 2- تفوق أوروبا في العلوم المادية والعقلية :                               |
| 216 | ..... 3- إشادة المشاركة بنجاعة المناهج اللغوية في أوروبا :                      |
| 218 | ..... 4- وصف المكتبات والجامعات والبرامج التعليمية :                            |
| 221 | ..... المطلب الثالث : وعي المشاركة بالفارق الحضاري في مجال الثقافة والفنون .    |
| 221 | ..... 1- المسرح:  |

225 ..... 2 – الفنون الجميلة.

228 ..... 3- الإعلام والصحافة الأوروبية :

لقد كان من نتائج التطورات الاقتصادية التي عرفتها أوروبا مع بداية العصور الحديثة قيام البورجوازية الأوروبية، وسعي هذه البرجوازية إلى انتزاع بعض الامتيازات من الأسر الملكية من جهة، ومن الكنيسة من جهة أخرى، وقد أدى هذا كله إلى قيام ثورات ضد امتيازات الملوك والكنيسة على حد سواء. وقد أدى نجاح هذه الثورات إلى تأسيس أنظمة سياسية بديلة للأنظمة السياسية التي عرفتها القرون الوسطى، مما ساهم إلى حد كبير في نهضة أوروبا وتجاوزها للعوامل الأخرى .

231 .....المطلب الأول : أوروبا بلاد المؤسسات السياسية .

235 .....المطلب الثاني : أوروبا بلاد الحرية.

238 .....المطلب الثالث: مبدأ الفصل بين السلطات.

240 .....المبحث الرابع : المجال الإقتصادي .

241 .....المطلب الأول : إعجاب الرحالة بقيمة العمل عند الأوروبيين .

244 .....المطلب الثاني : الصناعة الأوروبية.

247 .....المطلب الثالث : الفلاحة الأوروبية .

250 .....المطلب الرابع : التجارة الأوروبية.

252 .....المطلب الخامس : وسائل النقل والاتصال .

255 .....الفصل الثاني:

256 ..... تجليات وعي المغاربة بالتجاوز الحضاري الأوروبي .

257 .....المبحث الأول : المجال العسكري .

258 ..... أولا : وصف الاستعراضات العسكرية والإقرار بقوة أوروبا.

|       |     |  |
|-------|-----|--|
| ..... | 261 | ثانيا : الإهتمام بالمصانع والأسلحة والذخيرة الأوروبية .          |
| ..... | 264 | ثالثا : أسرار قوة أوربا العسكرية عند السفراء المغاربة :          |
| ..... | 269 | المبحث الثاني: المجال العلمي                                     |
| ..... | 269 | المطلب الأول : الوضع التعليمي بالبلدان المغربية ومسألة التجاوز . |
| ..... | 271 | المطلب الثاني :إقرار المغاربة برقي المنظومة التعليمية الأوروبية. |
| ..... | 272 | 1- قوة انتشار المعارف بأوربا .                                   |
| ..... | 275 | 2- تطور العلوم المادية والطبيعية في أوروبا .                     |
| ..... | 277 | 3_ انبهار المغاربة بالبنية التحتية لقطاع التعليم .               |
| ..... | 277 | أ : المدارس والمجامع والجامعات .                                 |
| ..... | 278 | ب- المكتبات والخزانات  |
| ..... | 281 | المطلب الثالث : إعجاب المغاربة بالمجال الثقافي والفني .          |
| ..... | 281 | 1 : المسرح :   |
| ..... | 284 | 2_ الفنون الجميلة:   |
| ..... | 287 | 3- قطاع الصحافة:   |
| ..... | 287 | أ : المطبعة ودورها في الرقي بالمعارف والثقافة.                   |
| ..... | 288 | ب_ الصحافة الأوروبية في كتابات المغاربة الرحلية .                |
| ..... | 291 | المبحث الثالث : المجال السياسي.                                  |
| ..... | 291 | المطلب الأول : أوربا بلاد المؤسسات.                              |
| ..... | 295 | المطلب الثاني : العدل والحرية بأوروبا .                          |
| ..... | 299 | المطلب الثالث :الانتقال السلس للملك والسلطة في أوروبا .          |

|     |  |
|-----|--|
| 301 | .....المبحث الرابع : المجال الاقتصادي.                                 |
| 302 | .....المطلب الأول : قيمة العمل عند الأوروبيين .                        |
| 303 | .....المطلب الثاني : الفلاحة الأوروبية                                 |
| 308 | .....المطلب الثالث: الصناعة الأوروبية عند الرحالة المغاربة .           |
| 308 | .....1: مظاهر وتجليات الرقي الصناعي الأوروبي                           |
| 308 | ..... أ _ صناعة السكة .  |
| 310 | .....ب _ وفرة المصانع والمعامل :                                       |
| 312 | .....ج : المعارض الصناعية :  |
| 314 | .....2 : أسباب الرقي الصناعي الأوروبي عند الرحالة المغاربة :           |
| 315 | .....المطلب الرابع : التجارة بأوروبا .                                 |
| 320 | .....المطلب الخامس : وسائل النقل والاتصال ومساهمتها في التطور التجاري. |
| 322 | .....أ : القطار .  |
| 324 | .....ب _ وسائل الاتصال التكنولوجية :                                   |
| 326 | .....ج _ الجسور والقناطر والطرق :                                      |
| 329 | .....خلاصات جزئية :  |
| 330 | .....الباب الثالث:   |
| 330 | ..... الرحلة العربية إلى أوروبا والمشاريع الإصلاحية.                   |
| 330 | .....مقدمة الباب:  |
| 332 | ..... الفصل الأول:   |
| 333 | ..... امتدادت وعي المشاركة بالتجاوز الحضاري                            |

|   |     |   |
|---|-----|---|
| ✓ | 333 | المبحث الثاني: امتدادات وعي المشاركة بالتجاوز الاقتصادي.                  |
|   | 334 | المبحث الأول : امتدادات وعي المشاركة بالتجاوز العلمي والثقافي.            |
|   | 334 | المطلب الأول : النخبة المشرقية ومحاولات الرقي بالمنظومة التعليمية : ..... |
|   | 335 | 1 _ الدعوة إلى تعميم التعليم .....  |
|   | 338 | 2: تطوير البنية التحتية لقطاع التعليم . .....                             |
|   | 338 | أ : المدارس والمعاهد. ....  |
|   | 340 | ب: تشييد المكتبات والخزانات : .....                                       |
|   | 342 | 3 -:- العقل في المشروع الاصلاحى العربى المشرقى. ....                      |
|   | 343 | أ : التوافق بين العقل والنقل: .....                                       |
|   | 345 | ب: الدعوة إلى الجمع بين العلوم النقلية والعقلية . .....                   |
|   | 351 | ج: حتمية التخصص في الحقول المعرفية : .....                                |
|   | 352 | د- تحرير الفكر وفتح باب الاجتهاد : .....                                  |
|   | 354 | 4: تعليم المرأة وتحريرها إسوة بالمرأة الغربية. ....                       |
|   | 359 | 5- تشجيع الترجمة لتعزيز التواصل الحضاري : .....                           |
|   | 360 | 6- إصلاح المناهج اللغوية : .....  |
|   | 367 | المطلب الثاني : امتدادات وعي المشاركة بالتجاوز الثقافي والفني .....       |
|   | 367 | 1 - الرحلة إلى أوروبا وبدايات المسرح في المشرق العربي: .....              |
|   | 368 | 2- النخبة المشرقية و بدايات الإهتمام المشرقى بحفظ المآثر والأثار . .....  |
|   | 369 | 3 _ الإهتمام بالصحافة . .....   |



|           |   |
|-----------|---|
| ..... 370 | أ - إدخال المطبعة :   |
| ..... 370 | ب _ نشأة الصحافة بالمشرق العربي :                                   |
| ..... 373 | المبحث الثاني : امتدادات وعي المشاركة بالتجاوز الاقتصادي.           |
| ..... 373 | المطلب الأول : الحث على العمل وتشجيع الإبداع.                       |
| ..... 373 | 1. العمل ومصادر الثروة :  |
| ..... 375 | 2: - تشجيع الإبداع والابتكار :                                      |
| ..... 377 | المطلب الثاني : استعمال الوسائل الاقتصادية الحديثة.                 |
| ..... 379 | المطلب الثالث : تبني مبدأ الحرية الاقتصادية                         |
| ..... 380 | المطلب الرابع : الدعوة إلى إقامة الشركات والأبنك والاعتناء بالتجارة |
| ..... 381 | المطلب الخامس: تطوير وسائل المواصلات والإتصالات.                    |
| ..... 384 | المبحث الثالث : امتدادات الوعي المشرقي بالتجاوز السياسي.            |
| ..... 384 | المطلب الأول : نقد النخبة المصرية لإستبداد محمد علي وخلفائه .       |
| ..... 384 | الاستبداد مطلقا هو استبداد  |
| ..... 390 | . دعوة الرحالة المشاركة إلى قيم العدالة والحرية. المطلب الثاني :    |
| ..... 393 | المطلب الثالث : الديموقراطية والشورى تقييدا للحكم المطلق:           |
| ..... 396 | المطلب الرابع : نشر الثقافة السياسية وتعليمها لأبناء الشعب .        |
| ..... 398 | الفصل الثاني:   |
| ..... 399 | امتدادات وعي الرحالة المغاربة                                       |
| ..... 399 | بالتجاوز الحضاري.   |

- ✓ 399 .....المبحث الأول:امتدادات وعي المغاربة بالتجاوز العسكري.
- ✓ 399 المبحث الثاني:امتدادات وعي المغاربة بالتجاوز العلمي والثقافي.
- 400 ..... المبحث الأول : امتدادات وعي المغاربة بالتجاوز العسكري.
- اهتمام النخبة التونسية بإصلاح الجيش على الطراز المطلب الأول :
- 400 .....الأوروبي:
- المطلب الثاني : الرحلة السفارية وأثرها في عملية إصلاح الجيش
- 403 .....المغربي .
- 1: فتاوى الفقهاء وردودهم على استشارة السلطان في مسألة تنظيم الجيش
- 404 ..... وفرض الإعانة .
- 405 ..... أ : مسألة تنظيم الجيش:
- ب: السفراء المغاربة ومسألة فرض المعونة على التجار لتجهيز الجيش .
- 409 .....
- 2 -الإجراءات المتخذة لتقوية الجيش المخزني ومساهمة السفراء المغاربة
- 412 .....فيها :
- 412 ..... أ : إحداث وزارة الحرب .
- 413 ..... ب : فرض التجنيد الإجباري :
- 413 ..... ج : التأطير والتدريب :
- 415 د: سفارة الزبدي وبداية اهتمام المخزن باستيراد التجهيزات العسكرية:
- 417 .....3\_ مآل الإصلاحات العسكرية .
- 417 ..... ضعف التأطير والتكوين : أ :
- 418 ..... ب - مشاكل مؤونة ورواتب الجند .
- 418 ..... ج - عدم العناية بصحة الجند .

420 .....المبحث الثاني : امتدادات وعي المغاربة بالتجاوز العلمي والثقافي.

المتأمل في المشاريع الإصلاحية لجل رواد النهضة العربية والإسلامية، لاسيما من رحل منهم إلى أوروبا

، يلاحظ بجلاء حرصهم على إعطاء الأولوية المطلقة لمسألة العلم وعلاقته بالإصلاح، وهو ما

يفسر وعي المصلح المغربي الثاقب الذي وحد منذ بدايات القرن الماضي بين التجاوز

الحضاري الأوربي للمجتمعات الإسلامية وتقدم العلم في أوروبا، ولهذا رشح نفسه داعيا للعلم

الذي يحتوي عليه الوحي صراحة وتأويلا، مبرزاً بالحجج أن الإسلام في جوهره وروحه قد

420 .....حث على العلم لتحقيق المصلحة والسعادة في الدارين.

420 .....المطلب الأول : الإصلاح التعليمي والتربوي بتونس.

420 ..... 1- امتدادات رحلة الباي أحمد إلى فرنسا في مجال التعليم :

1- خير الدين التونسي وزيرا للمعارف ومحاولاته الإصلاحية للنهوض

421 ..... بالتعليم.

421 ..... أ \_ إصلاح جامع الزيتونة .

422 ..... ب- إنشاء مكتبة الصادقية .

422 ..... ج- تأسيس المدرسة الصادقية وبداية الإهتمام بالعلوم الطبيعية .

425 ..... د - استيراد المطبعة :

426 ..... هـ : ظهور الصحافة التونسية .

428 .....المطلب الثاني : الإصلاح التعليمي بالمغرب الأقصى.

1 - أثر الرحلات السفارية في مباردرات الإصلاح التعليمي في القرن

429 .....التاسع عشر.

429 ..... أ :إحداث دروس للرياضيات والهندسة .

430 .....ب-رحلة الصفار وبدايات الإهتمام المخزني بالبعثات العلمية:

|   |     |
|---|-----|
| 2- النخبة المغربية العالمية في بداية القرن العشرين ومحاولات إصلاح التعليم.....      | 432 |
| أ-الدعوة إلى تعميم التعليم ومحاربة الأمية:.....                                     | 433 |
| ب _ الجمع بين العلوم العقلية الطبيعية والعلوم النقلية الشرعية .                     | 436 |
| ج - إصلاح المناهج التربوية والتعليمية :   | 438 |
| د-إنشاء مدارس تقنية وربط العلم بالتجربة :   | 439 |
| 3- النخبة المغربية وتحرير المرأة تأسيا بالمرأة الأوروبية .                          | 441 |
| 4- إدخال المطبعة إلى المغرب .   | 443 |
| .... المبحث الثالث : إمتدادات وعي المغاربة بالتجاوز السياسي الأوروبي .              | 446 |
| .....المطلب الأول : الإصلاح السياسي في تونس .                                       | 446 |
| 1 : نقد الاستبداد والطغيان السياسي.   | 446 |
| 2- النخبة التونسية ومحاولات تحديث الحقل السياسي .                                   | 450 |
| أ- عهد الأمان :   | 450 |
| ب : تشكيل مجلس الشورى .   | 453 |
| ج : إصدار دستور 1861م .   | 455 |
| .....المطلب الثاني : الإصلاح السياسي في المغرب الأقصى.                              | 457 |
| 1_ السفراء المغاربة ودورهم في التحولات السياسية والإدارية في مغرب القرن التاسع عشر. | 458 |
| أ : وزير البحر.   | 459 |
| ب- وزير الشكايات :  | 459 |
| ج- وزير المالية .   | 460 |

|     |   |
|-----|---|
| 461 | 2- السفراء المغاربة و المشاريع الدستورية في بداية القرن العشرين . |
| 462 | أ..... : تشكيل مجلس الأعيان على غرار النموذج البريطاني :          |
| 464 | ب..... مشروع دستور لسان المغرب .                                  |
| 465 | .....المبحث الرابع : الإصلاح الاقتصادي.                           |
| 465 | .....المطلب الأول : التجربة التونسية .                            |
| 467 | .....المطلب الثاني : الإصلاح الاقتصادي والتقني بالمغرب.           |
| 467 | ..... 1: سفارة الجعيدي وبداية الإهتمام المخزني باستخراج المعادن:  |
| 469 | ..... 2- ضرب السكة في باريس :                                     |
| 470 | ..... 3- النخبة المغربية و إدخال المستحدثات التقنية إلى المغرب.   |
| 476 | ..... خاتمة عامة :  |
| 488 | .....لائحة المصادر والمراجع :                                     |
| 488 | ..... 1- المصادر والمراجع المكتوبة باللغة العربية.                |
| 505 | ..... فهرس الآيات:  |
| 508 | ..... فهرس الأحاديث:  |